سعيد حوّى

الأساس في التفسير

المجلد الثالث

ويشتمل على:

تفسير سورة المائدة.

تفسير سورة الأنعام.

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

القاهرة ص.ب : ١٦١ غورية . ت : ٩٣٥٦٤٤
حلب ص.ب : ١٨٩٣ . هـ : ١٧٧٦٤
بيروت ص.ب : ١٣٥٣٣٧

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

أي أخي القارىء : هذا هو المجلد الثالث من هذا التفسير وفيه سورتا المائدة والأنعام ، ولعلك ألفت السير في هذا التفسير الذي يحتاج إلى صبر ومعاناة ، خاصة في موضوع السياق والتعرف على آفاق الوحدة القرآنية ، وإنما يهوّن عليك السير أن تعلم أنّ عصرنا عصر فتن ، والنجاة في القرآن ، وهذا مما تضافرت عليه أحاديث عن رسولنا عليه الصلاة والسلام ، وإني لم آل جهداً في أن أقدم لك في هذا التفسير كل ما يحتاجه الفهم الصحيح لكتاب الله في عصر كثرت تعقيداته وأهواء أهله . أخرج أبو داود وأصل الحديث في البخاري ومسلم : قال نصر بن عاصم الليثي : أتينا اليشكري في رهط من بني ليث ، فقال : من القوم ؟ فقلنا : بنو الليث ، أتيناك نسألك عن حديث حذيفةَ ، قال : أقبلنا مع أبي موسى قافلين ، وغَلَتِ الدوابُّ بالكوفة ، فسألتُ أبا موسى أنا وصاحبٌ لي ، فأذِنَ لنا ، فَقَدِمنا الكوفَةَ ، فقلتُ لصاحبي : أنا داخلٌ المسجد ، فإذا قامت السُّوقُ خرجتُ إليك ، قال : فدخلتُ المسجدَ ، فإذا فيه حَلْقَةٌ ، كأنما قُطِعَتْ رؤوسهم ، يستمعون إلى حديث رجل ، قال : فقمت عليهم ، فجاء رجلٌ ، فقام إلى جنبي ، فقلت : من هذا ؟ قال : أبَصْرِيٌّ أنتَ ؟ قلت : نعم ، قال : قد عرفتُ ، ولو كنتَ كوفِياً ، لم تسأل عن هذا ، قال : فدنوتُ منه ، فسمعتُ حذَيفةَ يقول : كان الناسُ يسألونَ رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنتُ أسأله عن الشر ، وعرفتُ أن الخير لن يسبقَني ، قلتُ : يارسول الله ، هل بعد هذا الشر خير ؟ قال : يا حذيفة تعَلَّم كتاب الله ، واتَّبِعْ ما فيه - ثلاث مرات - قلتُ : يارسول الله [هل] بعد هذا الخير شرٌّ ؟ قال : فتنة وشرٌّ ، قال : قلتُ : يارسول الله [هل] بعدَ هذا الشَّرِّ خيرٌ ؟ قال : يا حذيفة ، تعلَّمْ كتاب الله ، واتبع ما فيه - ثلاث مرات - قلتُ : يارسول الله ، [هل] بعد هذا الشَّر خير ؟ قال : هُدنةٌ على دَخَن ، وجماعة على أقذاء فيها ، أو فيهم ، قلتُ : يا رسول الله ، الهدنة على الدّخن ماهي ؟ قال : لا ترجع قلوبُ أقوام على الذي كانت عليه ، قلت : يارسول الله هل بعد هذا الخير شر ؟ قال : ياحذيفة ، تعَلَّم كتاب الله ، واتبعْ ما فيه - ثلاث مرات - قلتُ : يارسول الله ، بعد هذا الخير شرٌّ ؟ قال : نعم فِتنَةٌ عَمْياءُ صَمَّاءُ ، عليها دُعاةٌ على أبواب النار ، فإن مُتَّ يا حذيفة وأنتَ عاضٌّ على جِذْلِ شجرةٍ خير لك من أن تَتْبَعَ أحدًا منهم » .

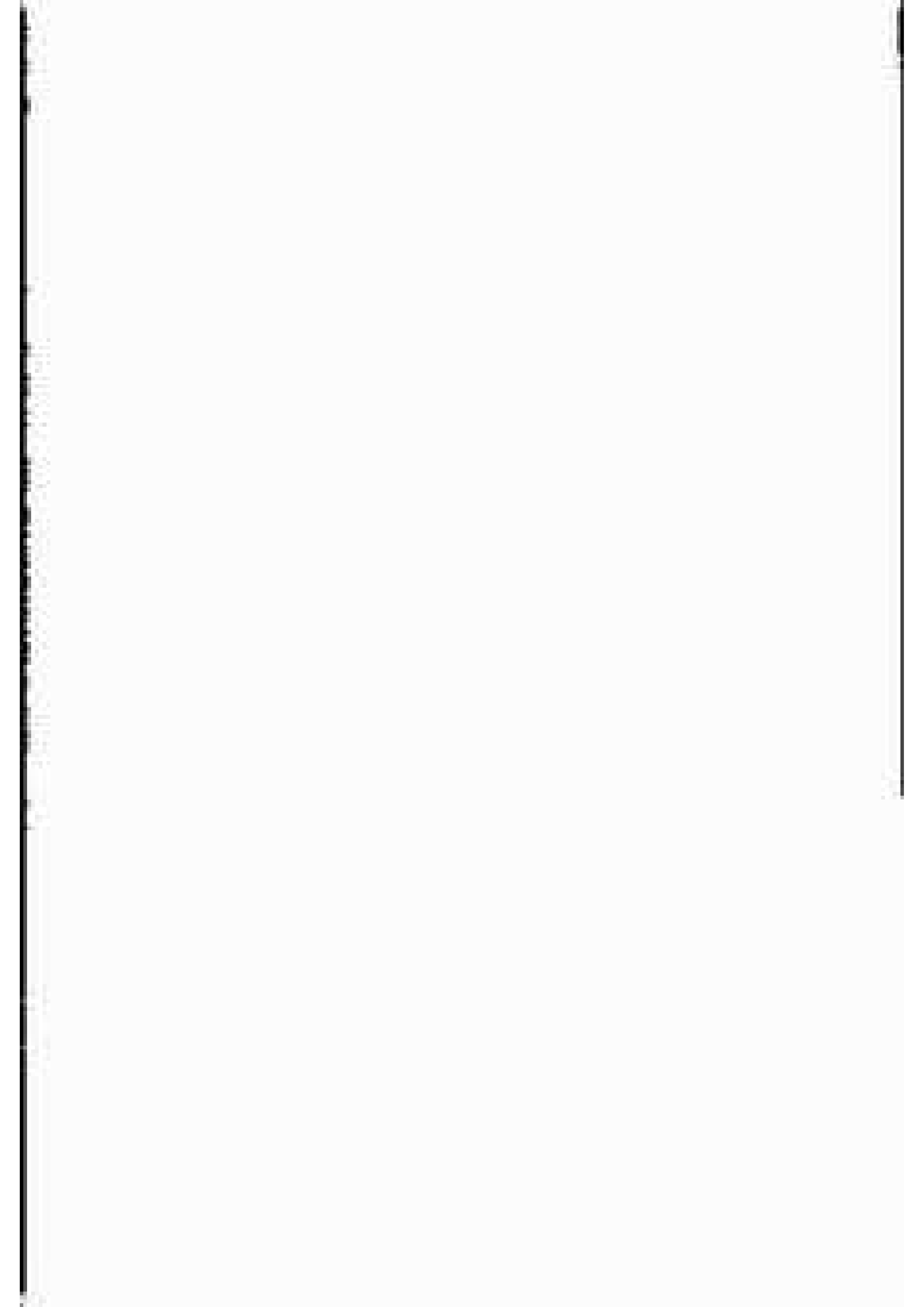
فأنت ترى أيها المسلم أن دواء ما نحن فيه تعلّم كتاب الله واتّباع ما فيه وهاتان روايتان يعضّد بعضهما بعضاً تؤكدان هذا المضمون :

ــ قال الحارث [بن عبد الله الهمداني] الأعور : « مررتُ في المسجد ، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث ، فدخلتُ على علي فأخبرتُه ، فقال : أوقد فعلوها ؟ قلت : نعم ، قال : أما إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ألا إنَّها ستكون فتنةٌ ، قلتُ : فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتابُ الله ، فيه نَبأُ ما قبلَكم ، وخبرُ ما بعدَكم ، وحُكم ما بينكم ، هو الفَصْل ليس بالهزل ، مَن تركه من جبَّار قصَمَه الله ، ومَن ابْتغَى الهُدَى في غيره أضلّه الله ، وهو حَبْلُ الله المتين ، وهو الذِّكرُ الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تَزيغُ به الأهواء ، ولا تَلْتَبِسُ به الألْسِنَةُ ، ولا يَشْبَعُ منه العلماءُ ، ولايَخْلَقُ عن كثرة الرَّدِّ ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تَنْتِهِ الجنُّ إذْ سمعته حتى قالوا : (إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فآمَنَّا بِهِ) [الجن : ١] مَن قال به صَدَقَ ، ومَن عَمِلَ به أُجِرَ ، ومَن حكم به عَدَلَ ، ومَن دَعَا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم ، خُذْهَا إليكَ يا أعورُ » أخرجه الترمذي وأحمد والدارمي على مقال في أحد رواته لكنّ معناه صحيح .

ــ قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :) « نزل جبريل عليه السلام على عهد رسول الله ﷺ ، فأخبره : أنها ستكونُ فتَنٌ ، قال : فما المخرجُ منها يا جبريل ؟ قال كتابُ الله ، فيه نَبأُ ما قبلكم ، ونبأ ما هو كائن بعدَكم ، وفيه الحُكم بينكم ، وهو حبلُ الله المتين ، وهو النور المبين ، وهو الصراطُ المستقيم ، وهو الشفاء النافع ، عِصْمةٌ لمن تمسّك به ، ونَجاةٌ لمن اتَّبعه ، لا يَعْوجُّ فيُقَوَّم ، ولا يزيغ فيُسْتَعْتَب ، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لا تلتبس به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، هو الذي لم تتناه الجنّ إذْ سمعته أنْ قالوا : (إنَّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرُّشْد فآمَنَّا به) من وَلِيَه من جبَّارٍ فحكم بغير ما فيه قَصَمه الله ، ومَن ابتغَى الهُدى في غيره أضلَّه الله ، مَن قال به صدق ، ومن عمل به أُجر ، ومَن اتَّبعه هُدِي إلى صراط مستقيم » أخرجه رزين وذكر معناه ابن كثير بعد حديث الحارث من حديث عبد الله بن مسعود وقال : رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه فضائل القرآن ، فالمعاني في الروايات الثلاث تصبّ في إناء واحد ، أنّ المخرج حيث ادلهمّت الفتن تعلّم كتاب الله والعمل بما فيه ، فاصبر أخي على تعلّم كتاب الله فطريق الجنة محفوف بالمكاره .



في آفاق الوحدة القرآنية



يقول صاحب الظلال في تقديمه لسورة المائدة :

« ومن ثَم نجد في هذه السورة – كما وجدنا في السور الثلاث الطوال قبلها – موضوعات شتى ، الرابط بينها جميعا هو هذا الهدف الذي جاء القرآن كله لتحقيقه : إنشاء أمة وإقامة دولة ، وتنظيم مجتمع ، على أساس من عقيدة خاصة ، وتصور معين ، وبناء جديد .. الأصل فيه إفراد الله – سبحانه – بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان ؛ وتلقي منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه بلا شريك .. » .

ويقول الألوسي في تفسيره عن وجه مناسبة سورة المائدة لسورة النساء وما قبلها :

« ووجه اعتلاقها بسورة النساء – على ما ذكره الجلال السيوطي – عليه الرحمة – أن سورة النساء قد اشتملت على عدة عقود صريحاً وضمناً ، فالصريح عقود الأنكحة . وعقد الصداق . وعقد الحلف . وعقد المعاهدة والأمان ، والضمني عقد الوصية . والوديعة . والوكالة . والعارية . والإجارة ، وغير ذلك الداخل في عموم قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ فناسب أن تعقّب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود فكأنه قيل : ياأيها الناس أوفوا بالعقود التي فُرغ من ذكرها في السورة التي تَمّت ، وإن كان في هذه السورة أيضاً عقود ، وَوُجّه أيضاً تقديم النساء وتأخير المائدة بأن أول تلك ﴿ **ياأيها الناس** ﴾ وفيها الخطاب بذلك في مواضع ، وهو أشبه بتنزيل المكي ، وأوّل هذه ﴿ **ياأيها الذين آمنوا** ﴾ وفيها الخطاب بذلك في مواضع وهو أشبه بخطاب المدني ، وتقديمُ العام وشِبْه المكي أنسب ، ثم إنّ هاتين السورتين في التلازم والاتحاد نظير البقرة ، وآلِ عمران ، فتانك اتحدا في تقرير الأصول من الوحدانية والنبوة ونحوهما ، وهاتان في تقرير الفروع الحكمية .

وقد خُتمت المائدة في صفة القدرة ، كما افتتحت النساء بذلك ، وافتتحت النساء ببدء الخلق ، وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء ، فكأنهما سورة واحدة اشتملت على الأحكام من المبدأ إلى المنتهى ، ولهذه السورةِ أيضاً اعتلاق بالفاتحة . والزهراوين كما لا يخفى على المتأمل » .

ونحن مع إثباتنا لما قاله صاحب الظلال والألوسي مما يدخل في الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم نضيف :

إن في القرآن سراً آخر ، وروابط أخرى أقوى ، تربط سُور هذا القرآن بعضها ببعض بروابط هي وحدها إعجاز ، فكيف إذا كانت واحدة من مظاهر الإعجاز ؟ .

لقد درجنا فيما مرّ من هذا التفسير ، أن نعرض لوجهة نظرنا في موضوع الوحدة القرآنية ، بشكل رفيق ، وكلما جاءت مناسبة ذكرنا جزءاً من وجهة النظر ، بحيث يكمّل ما سبق ذكره ، ويبقى الموضوع مفتوحاً لكلام جديد .

إن كل سورة في القرآن الكريم هي جزء من قسم ، أو جزء من مجموعة في قسم ، وكل مجموعة سور تشكل فيما بينها وحدة على ترتيب معيّن ، وكل سورة في مجموعة لها محورها من سورة البقرة ، والمجموعة مع بعضها تلقي أضواء التفصيل على محاور سورها في سورة البقرة ، على ترتيب تفصّل فيه السورة اللاحقة في محور يأتي بعد محور السورة السابقة ، بحيث تجد آية أو آيات في سورة البقرة ، قد فصلتها سورة ، ثم سورة ، ثم سورة ، وكل ذلك على طريقة عجيبة في التفصيل كما سيمر معنا بإذن الله تعالى .

ولا يعني ما مرّ أنّ سورة البقرة كانت آياتها مجملة[1] ، فالله - عز وجل - وصف القرآن كله بالإحكام والتفصل : « **كتاب أحكمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيم خبير** » (هود : ١) فسورة البقرة مفصّلة فيها المعاني ومن ثمّ فهي تلقي أضواء التفصيل على بقية السور ، والسور كلها تلقي عليها أضواء التفصيل بما يتكامل معه التفصيل تكاملاً عجيباً .

ولعلّه لم يحن حتى الآن ، أوان الكلام في هذا الموضوع بأكثر مما ذكرنا فلنكتف ههنا بهذا القدر الذي ستأتيك أمثلتهُ وتفصيلاته مرّات ومرّات .

لقد كانت سورة البقرة مقدمة ، وأقساماً ثلاثة ، وخاتمة ، ورأينا كيف أن المعاني تترابط فيها ترابطاً مدهشاً ، وكيف أن كل الأقسام مرتبطة بالمقدمة ، وكيف أن الخاتمة كذلك مرتبطة بالمقدمة .

ثم جاءت سورة آل عمران ففصّلت في مقدمة سورة البقرة والمعاني التي هي أشد لصوقاً بها ، وقلنا من قبل : إن سورة النساء والمائدة والأنعام ستفصل في المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة ، بشكل مباشر على الترتيب التالي :

---

١ - لم نرد بالإجمال هنا : المعنى الأصولي لهذه الكلمة .

سورة النساء تفصِّل في الآيات الخمس الأولى من هذا المقطع ، فهي محورها الرئيسي .

وسورة المائدة ستفصّل في الآيتين اللاحقتين للآيات الخمس ، فهما محورها الرئيسي .

وسورة الأنعام ستفصّل في الآيتين الأخيرتين للمقطع ، فهما محورها الرئيسي .

وسنرى أن سورة الأعراف ستفصّل في المقطع الثاني من القسم الأول من سورة البقرة ، وأنّ سورتي الأنفال وبراءة ستفصلان في محور يأتي في القسم الثالث من سورة البقرة ، وبهذا ينتهي القسم الأول من أقسام القرآن قسم الطوال ، وبانتهائه نأخذ التفصيل الأول لمعاني سورة البقرة ، بما يغطي مجموع معانيها ، ليبدأ القسم الثاني وفيه التفصيل الثاني كما سنراه فيما بعد .

لقد فصّلت مجموعة السور السبع التي جاءت بعد سورة البقرة معاني في هذه السورة مبتدئة بأول السورة ، ثم جاءت المحاور بعد ذلك متلاحقة . كل محور لاحق يأتي بعد محور سابق ومجموعة السور السبع وهي تفصّل في محاورها لم تكن تفصّل في المحور فقط ، وإنما كانت تفصّل في المحور وامتدادات معانيه الأكثر لصوقاً به من سورة البقرة نفسها . وهكذا جاءت كل سورة من سور المجموعة وهي تجمع بين المحور وامتدادات معانيه على نسق جديد ، مفصّلة ومبينة ، بحيث لا ننتهي من قسم الطوال إلا وقد أخذنا تفصيلاً شاملاً لمعان في سورة البقرة ، من خلال السياق الخاص لكل سورة من هذه السور .

وستأتي الأمثلة والتفصيل شيئاً فشيئاً . فلنبدأ عرض سورة المائدة .

☆ ☆ ☆



سورة المائدة

وهـي السـورة الخامسـة بحسـب الرسـم القرآني
وهي السورة الرابعة من قسم الطوال
وآياتها مائة وعشـرون
وهـي مدنيـة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة المائدة :

قلنا إن المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة والذي جاء بعد مقدمة سورة البقرة ، هو مقطع الطريقين فبعد أن ذكرت مقدمة سورة البقرة أصناف الناس : متقين ، و كافرين ، ومنافقين ، جاء المقطع الأول ليوضح الطريق إلى التقوى ، والطريق إلى الكفر والنفاق ، فجاءت الآيات الخمس الأولى منه لتوضح الطريق إلى التقوى ، وهي التي كانت محور سورة النساء . وبعد هذه الآيات الخمس تأتي آيتان هما محور سورة المائدة ، ثم آيتان هما محور سورة الأنعام .

فالآيتان اللتان هما محور سورة المائدة ، تتكلمان في الفسوق الذي هو الطريق إلى الكفر والنفاق ، والآيتان اللتان هما محور سورة الأنعام تناقشان الكافرين بكفرهم ، وتقيمان عليهم الحجة من خلال ظاهرتي الحياة والعناية . وإذا قلنا إن سورة النساء تكلمت في الطريق إلى التقوى ، وسورة المائدة تكلمت في الطريق إلى الفسوق ، فذلك في سياقهما الرئيسي ، إن آيتي البقرة اللتين تشكلان محور سورة المائدة هما :

﴿ إن الله لايستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها . فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم . وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضلّ به كثيرا ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ .

فهذا هو الطريق إلى الكفر والنفاق ، نقض للعهد ، وقطع لما أمر الله به أن يوصل ، وإفساد في الأرض ، فهؤلاء هم الفاسقون ، وهم الخاسرون ، وهم الكافرون ، وهم المنافقون بقسميهم . وتأتي سورة المائدة لتحرر المرء من هذه الأخلاق ، وتفصّل فيها ، وتدعو إلى مايقابلها . فهي تبدأ بقوله تعالى **﴿ ياأيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود ﴾** .

لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى **﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾** .

وفي سياق سورة المائدة يأتي قوله تعالى : **﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾** وفي سياق السورة أيضاً يأتي قوله تعالى : **﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن**

عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل ﴾ . ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذُكّروا به ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ .

وفي سياق السورة يأتي قوله تعالى ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ وفي سياق السورة يأتي قوله تعالى ﴿ لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً ﴾ ...

وصلة ذلك كله بقوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ لاتخفى ، ففي السورة نماذج لنقض العهد مع الله ، وتذكير بالوفاء بالعهود والعقود . ثم إن في السورة تذكيراً بما أمر الله أن يوصل فتذكر الولاء لله والرسول والمؤمنين وصلة ذلك بقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ... ﴾ لاتخفى أيضاً . وفي سورة المائدة يأتي قوله تعالى : ﴿ من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾ ﴿ إنما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يُصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ... ﴾ .

﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لايحب المفسدين ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ واضحة . فسورة المائدة تفصّل في موضوع نقض العهد ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، وفي موضوع الإفساد في الأرض ، من خلال العرض ، ومن خلال الأمر بما يحرّر من ذلك وهذا أول مظهر من مظاهر ارتباطها بمحورها .

قلنا : إنّ محور سورة المائدة من سورة البقرة هو الآيتان : ﴿ إنّ الله لايستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها ، فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين ۞ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ .

وقد رأينا فيما ذكرناه نماذج وردت في السورة على قضايا الميثاق ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد في الأرض . ونلاحظ كذلك أن كلمة الفاسقين تردُ في السورة كثيراً ، وكذلك كلمة الخاسرين . مما يؤكد ما ذكرناه من أنّ محور سورة المائدة هو تلكما الآيتان من سورة البقرة .

نلاحظ مثلاً مجيء كلمة الخاسرين في قوله تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين** .. ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ ... ﴿ **فطوعت له نفسُه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾ .. ﴿ **ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين** ﴾ .

وكما وردت كلمة الخاسرين في السورة كثيراً فكذلك كلمة الفاسقين :

﴿ **قال رب إني لاأملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ° قال فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ .

﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ ، ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنمّا يريدُ الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون** ﴾ .

﴿ **ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تردَّ أيمان بعد أيْمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ .

إنه لمن الواضح أن هناك صلة بين سورة المائدة وبين قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **وما يُضل به إلا الفاسقين ° الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

إن سورة المائدة تفصّل فيما هو نقض للميثاق ، وفيما هو قطعٌ لما أمرَ الله به أن يوصل ، وفيما هو إفساد في الأرض ، فتدعونا لتركه وتطالبنا بما لو فعلناه لانكون فاسقين ولا خاسرين ، أي لا منافقين ولا كافرين ، فهي تكمّل سورة النّساء ، فإذا كانت سورة النساء قد فصّلت فيما هو من التقوى ، فسورة المائدة تفصّل فيما ليس من التقوى لتعمّق عندنا قضية التقوى وتُحققنا بها بتخليصنا من أضدادها .

وإذا عرفنا محور السورة من سورة البقرة ، وعرفنا مضامينها الرئيسية . فلنبدأ عرض السورة ملاحظين : أنَّ بداية سورة المائدة هي ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود ...** ﴾ . وأنّ بداية صفات الفاسقين في سورة البقرة هي ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .** ﴾ . فالسورة تبدأ بذكر ما يحرّرنا من نقض العهد الذي يستحقُ به صاحبهُ الإضلال ، وقد أغفلنا عمداً الإشارة في هذه المقدمة إلى كيفية تفصيل سورة المائدة في امتدادات معاني محورها من سورة البقرة ، مؤثرين تأجيله لعرضه أثناء التفسير .

تتألف السورة من ثلاثة أقسام وخاتمة : القسم الأول يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ والقسمان الآخران يبدأ كل منهما بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول** ﴾ ويتألف القسم الأول من ثلاثة مقاطع والثاني من مقطعين والثالث من مقطعين ثم تأتي الخاتمة ، وللتسهيل فسنعرض السورة على أنها مقاطع مشيدين إلى الأقسام .

آثار ونصوص

روىٰ الحاكم عن جبير بن نفير قال : (حججتُ فدخلتُ على عائشة فقالت لي : ياجبير تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم فقالت : أما إنهّا آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه ، وما وجدتم فيها من حرامٍ فحرِّموه) .

وروىٰ الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو قال : (أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها) .

وقال عبد الله بن عمرو : (آخر سورةٍ أنزلت سورة المائدة والفتح) رواه الترمذي وقال حسن غريب .

فلنعطِ إذن لدراسة المائدة ما تستحقه منَ الأناةِ فإنها منَ الأهمية بالمكان الكبير لمن يريد أن يفهم دينَ الله ، ولمن يريد أن يتحرر منْ أسباب الضلال ، وأن يستكمل قضية التقوى في نفسه .

المقطع الأول

ويبدأ من الآية (١) إلى نهاية الآية (١١) وهذا هو :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

☆ ☆ ☆

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)

☆ ☆ ☆

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ

لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ
ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟
مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ
مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ
مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

☆ ☆ ☆

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا
فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ
لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم
مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم

بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

☆ ☆ ☆

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

☆ ☆ ☆

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

كلمة في المقطع :

يبدأ المقطع بالأمر بالوفاء بالعقود ، وينتهي بتذكيرنا بنعمة الله - عز وجل - علينا أنْ كفّ أيدي النّاس عنا بعد إذ همّوا باستئصالنا ، وكأن ختمَ المقطع بهذه النهّاية يقول لنا : أيها المؤمنون : كونوا مسلمين ملتزمين ، ولا يحملنكم خوف الناس على التخلي عن إسلامكم ، ولذلك فقد ختمت الآية الأخيرة بالأمر بالتقوىٰ والتوكل .. ﴿ **واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ .

وفي الآية الثانية من المقطع يرد قوله تعالى : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا** ﴾ .

وقبل نهاية المقطع بثلاث آيات يرد قوله تعالى : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ مما يشير إلى وحدة المقطع وارتباط نهاياته ببداياته .

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود** ﴾ .

وقبل نهاية المقطع بأربع آيات جاء قوله تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ ممّا يؤكد تعانق الصِّلاتِ بين بداية المقطع ونهايته .

يبدأ المقطع بالأمر بالوفاء بالعقود ، ثمّ يعرض علينا صفحة من الحلال والحرام وما يحلّ لنا وما يحرم ، وذلك جزء من عقود الله معنا .

ثمّ يأتي كلام عن الوضوء والغسل للصلاة ، وهذا من أهم العهود المأخوذة علينا بدليل قوله عليه الصلاة والسلام « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » . ولذلك يأتي بعد آية الأمر بالطهارة مباشرة قوله تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ .

ثم يأتي بعد ذلك أمرٌ بالقيام لله ، وبالشهادة بالقسط وهما كذلك من العهود ، وأخيراً يأتي تذكير بأن قوماً قد همّوا باستئصالنا ، فكفّ الله أيديهم عنا ، وذلك لتكون إقامتنا لأمر الله كاملة ، ولنقيم العدل كاملاً ، ولنفي لله بالعقود كاملة ، فالله معنا إن كنّا متقين متوكلين . فالمقطع كله إذن له صلة بالعقود والعهود المأخوذة علينا ولذلك فإن المقطع الثاني يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل** ﴾ مما يشير إلى أن الكلام عن المواثيق لازال مستمراً .

وفي معرض النّهي عن استحلال شعائر الله ، والنهي عن استحلال قتال القاصدين للبيت الحرام يأتي قوله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ فالسياق يقول : لاتتعاونوا على مثل هذا ، وتعاونوا على ما هو برٌّ وتقوىٰ ، وإذن فالتعاون على الإثم والعدوان يتنافى مع البر والتقوىٰ ، البرُّ الذي حددته سورة البقرة وآل عمران ، والتقوىٰ التي فصّلت فيها سورة البقرة وآل عمران والنساء .

ومجيء قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ . بين ذكر المحرمات من المطعومات ، وبين الترخيص للمضطر ، وإباحة الطيبات والصيود المشروعة ، وطعام أهل الكتاب ، وإباحة الزواج من المؤمنات ومن الكتابيات ، ما يُشعر بأهمية قضايا التحريم والتحليل في دين الله - عز وجل - وأنها حلقة في منظومة هذا الدين . فإذا كان أساس الدين الأول (لا إله إلا الله محمد رسول

الله) فإن موضوع الحلال والحرام هو الشيء المتمّم المكمّل في هذا البناء . وإذن فكل المعاني تؤكد وحدة المقطع فلنتأمل صلة المقطع بالسياق القرآني العام :

- قلنا إن محور سورة المائدة هو قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ..** ﴾ ﴿**وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

ولقد فصّل المقطع تفصيلاً واضحاً في قوله تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ بأن طالبنا بالوفاء بالعقود وأرانا ما يدخل في العقود ، وأمرنا أن نتذكر عهد الله علينا ومواثيقه ، ليكون ذلك مقدمة للمقطع الثاني ، الذي يبدأ بالكلام عن نقض بني إسرائيل للعهود ، وعن نقض النصارىٰ للعهود ، فأنتم أيها الأمة المسلمة لاتنقضوا عهودكم .

لقد ذكر في المقطع العقود والخسران ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود** ﴾ ، ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

لاحظ صلة ذلك بالمحور ﴿ ... **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه**﴾إلى قوله تعالى : ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

قلنا : إن كل سورة جاءت بعد سورة البقرة تفصّل في محورها ، وفي ارتباطات هذا المحور ، وفي امتدادات معانيه التي هي أشد لصوقاً به :

ومن امتدادات المحور في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا** ﴾ .

وههنا في سورة المائدة عرفنا أنّ كلمة (سمعنا وأطعنا) عهد وميثاق :

﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ .
ولا يجوز نقضه ، ومن نقضه ألا نتقيد بحلال ولا حرام ، ومن نقضه ألا نلتزم بالحدود .

فههنا عرّفتنا سورة المائدة على بعض امتدادات المحور في سورة البقرة وعلى خيط الربط . ومن ارتباطات المحور في سورة البقرة : أنّ المحور وهو قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا**

يستحيي أن يضرب مثلا ... ﴾ جاء بعد قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات** ﴾ . وههنا يأتي قوله تعالى ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ۝ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ .

ومن ارتباطات المحور المشار إليه في سورة البقرة أنه جاء بعد الكلام عن المتقين الذين من صفاتهم إقامة الصلاة وههنا يأتي قوله تعالى ﴿ **إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا ...** ﴾ .

ومن امتدادات المحور في سورة البقرة قضايا تحريم بعض المطعومات علينا وإباحة ذلك في حالة الاضطرار ، وههنا يأتي تفصيل لذلك ضمن سياق السورة الخاص بها وبما يخدم محورها .

ولعله من الواضح أن سورة المائدة تتصلّ مواضيعها بمواضيع سورة النساء ، وذلك لأن سورة النساء ، وسورة المائدة ، وكذلك سورة الأنعام ، تفصّل في مقطع واحد هو مقطع الطريقين من سورة البقرة ، فكذلك يوجد تلاحم وارتباطات في السور الثلاث ، وكما أن المقطع متلاحم مع المقدمة التي فصّلتها سورة آل عمران ففيما بين السور الثلاث وآل عمران تلاحم ، وهذا موضوع ستتضح لك آفاقه إن شاء الله تعالى .

المعنى العام للمقطع الأول :

يأمر الله - عز وجل - في هذا المقطع المؤمنينَ بالوفاء بالعهود ، ويدخل في ذلك القيام بما ألزم الله - عز وجل - به عباده في أمر الحلّ والحرمة وما أخذه الله من الميثاق على من أقرّ بالإيمان بالنبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم العهد فيه ، من إقامة الفرائض ، والأوامر ، وترك النّواهي ، ويدخل في ذلك العقود التي أباح الله إجراءها ، مما يتعاقد به الناس ، وألزم الله بالوفاء بها . ثم يبيّن الله أن مما أحل لنا : الأنعام من بقر وغنم وماعز وإبل ، إلاّ ما سيتلى علينا من تحريم بعضها في بعض الأحوال ، كما سيأتي . ثم بيّن لنا أن الصيد في حال الإحرام حرامٌ ، والمراد به هنا صيدُ البر ، ولله المشيئة المطلقة في الحكم بما يشاء إذ هو وحده الربّ ، والتحليل والتحريم قضيّتان مهمّتان في الحياة البشرية ، والوقوف عند حدّ الله فيهما أمر في غاية الخطورة ، إذ بدونه لاتكون معرفة لله ، ولا عبادة ولا تقوى ، ثمّ نهى الله - عز وجل - أن تُستحل حرماتُه أو يستهان

بشعائره . وشعائره هي أعلام دينه في العبادات ، من صلاة وحج ، أو هي ما أحلّ وحرّم ، وكما نهى عن استحلال حرمة شعائره فقد نهى أن تنتهك حرمة الأشهر الحرم بانتهاك محارم الله فيها وهي - أي المحارم - وإن كانت واجبة الترك في غير الأشهر الحرم فإنها فيها آكدُ . وكما نهى عن هذا ، وهذا . فقد نهى عن ترك الإهداء إلى البيت الحرام ، لما في الإهداء من تعظيم شعائر الله ، كما نهى عن ترك تقليد هذا الهدي في أعناقه ليتميز عمّا عداه من الأنعام ، وليُعلم أنّه هديٌ إلى الكعبة ، فيجتنبه من يريده بسوءٍ ، ويبعث من يراه على الإتيان بمثله فمن دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ولقد جاء الأمر بالإهداء والتقليد من خلال النهّي عن استحلال الاعتداء على الهدي والقلائد . وواضح أنّ استحلال ذلك محرَّمٌ ، بل هو كفر إذ استحلال الحرام القطعي كفر . كما نهى الله - عز وجل - عن استحلال قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي مَنْ دخله كان آمنا ، وعن استحلال قتال من قصده طالباً فضل الله ، وراغباً في رضوانه ، مثل هذا لايجوز صدّه ولا منعه ولا تهييجه . ثم بيّن الله - عز وجل - أنّ المُحْرِمَ إذا فرغَ من إحرامِهِ ، وأحلّ منه ، فقد أبيح له ماكان محرّماً عليه في حال الإحرام من الصيد ، ثم نهى الله - عز وجل - أنْ يحمِلنا بغضُ قومٍ كانوا قد صدُّونا عن المسجد الحرام على أن نتجاوز حُكم الله فيهم ، بل علينا أن نحكم بما أمرنا الله به من العدل في حق كل أحدٍ ، ثم أمر الله - عز وجل - عباده المؤمنين بأن يعاون بعضهم بعضاً على فعلِ الخيرات - وهو البرُّ هنا - وتركِ المنكرات - وهو التقوى هنا - ونهاهم عن التناصر على الباطل ، والتعاونِ على المآثم والمحارم . فلا يجوز التعاون على ترك ما أمر الله بفعله ، وعلى مجاوزة الله في دينه ، فهنا نهي عن الإثم وهو مجاوزة ما فرضه علينا في أنفسنا ، ونهي عن العدوان وهو تجاوز ما حدّه الله في شأن الغير .

ثم أخبر تعالى خبراً يتضمّن النهّي عن تعاطي محرّمات محدّدة : وهي ما مات من الحيوانات من غير ذكاةٍ ولا اصطياد ، ويُستثنى من الميتة السمك فإنه حلالٌ ، سواءٌ مات بتذكية أو غيرها ، وهكذا الجراد ، وكما حرمت الميتةُ حرِّمَ الدم المسفوح ، وكذلك لحمُ الخنزير إنسيّه ووحشيّه ، واللّحمُ يعُمُّ جميعَ أجزائه حتى الشحم . وكذلك حُرِّم ما ذُبح فذكِر عليه اسمُ غير الله . فإنه حرام لأن الله تعالى أوجب أن تُذبح هذه الحيوانات على اسمِهِ العظيم ، فمتى عُدِل بها عن ذلك ، وذُكر عليها اسمُ غيره ، من صنمٍ ، أو طاغوت ، أو وثن ، أو غير ذلك من سائر المخلوقات ، فهي حرامٌ بالإجماع ، وممّا

حرّمه الله فى الآية المنخنقةُ : وهي التي تموت بالخنق ، إما قصداً ، وإما اتفاقاً كأن تتخبّل في وثاقها فتموت به فهي حرام أيضاً ، وكذلك الموقوذةُ : وهي التي تُضربُ بشيءٍ ثقيل غير محدّد (كالعصا) حتى تموت فلا تحلّ ، وكذلك المتردِّية : وهي التي تسقط من شاهق أو موضعٍ عالٍ ، فتموتُ بذلك ، فلا تحلُّ . وكذلك النّطيحة : وهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها فهي حرام وإن جرحها القرنُ وخرج منها الدّمُ ولو من مذبحها . وكذلك ما عدا عليها أسدٌ . أو فهدٌ ، أو أمثال ذلك أو ذئبٌ ، أو كلبٌ ، أو نمرٌ فأكلِ بعضها فماتت بذلك فهي حرام ، وإن كان قد سال منها الدّم ، ولو من مذبحها فلا تحِلُّ بالإجماع . وقد كان أهلُ الجاهلية يأكلون ما أفضلَ السبع من الشاةِ ، أو البعير ، أو البقرةِ ، أو نحو ذلك . فحرّم الله ذلك على المؤمنين . إلا ما يمكن ذكاته مما مرَّ وذُكي فإنه يحلُّ ، فما انعقد سببُ موته فأمكن تداركه بذكاةٍ ، وفيه حياةٌ مستقرة ، من المنخنقة ، أو الموقوذة ، أو المتردية ، أو النّطحية ، أو ما أكل السبع ، فذُبح وفيه روح جاز أكله . وجمهور الفقهاء على أن المذكّاة متى تحرّكت بحركة تدلّ على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال . والنُّصب : حجارةٌ حول الكعبة كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها ، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النُّصب ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ، وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح التي ذُبحت عند النُّصب ، حتى ولو كان يُذكر عليها اسم الله في الذبح ، وذلك لأن الذبح عند النُّصب من الشِّرك الذي حرّمه الله ورسوله .

وكانت العرب في جاهليتها تستقسم بالأزلام : وهي عبارة عن قِداحٍ ثلاثة مكتوب على أحدها : افعل ، وعلى الآخر لا تفعل ، والثالث فارغ ليس عليه شيء ، توضع هذه القداح في كيس فمن أراد أمراً مهمّاً مَدّيده إلى الكيس ، فأجال القداح ثم أخرج أحدها من غير أن ينظر ، فإذا طلع سهمُ الأمر فعله ، أو النهي تركه ، وإن طلع الفارغ أعاد . وقد حَرّم الله ذلك لما في تعاطيه من الفسق ، والغي ، والضلالة ، والجهالة ، والشرك . وبدلا من ذلك فقد أمر الله المؤمنين إذا تردّدوا في أمورهم أن يستخيروه ، بأن يتعبدوا له بصلاة الاستخارة ثم يسألوه الخيَرة في الأمر الذي يريدونه .

وبعد أن بين الله – عز وجل – ما حرّم علينا ، وبعد أن بيّن ما بيّن من معالم الإسلام فيما مضى ، مما أصبح به الصفُ الإيماني متميِّزاً مستعصياً على الكفر وأهله ، فقد أمر الله عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ، وألا يخافوا أحداً إلّا الله . فإنهم إن لم

يخافوا أحداً في مخالفتهم الكافرين ينصرهم الله عليهم ، ويؤيّدهم ويشفِ صدورهم . وفي هذا السياق وفي هذا المقام ذكَر الله - عز وجل - هذه الأمة بأكبر نِعمة عليها حيث أكمل لها دينها ، فلا تحتاج إلى دين غيره ، ولا إلى نبي غير محمدٍ ﷺ الذي جعله الله خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى الإنس والجنّ ، فلا حلالَ إلا ما أحلّه . ولا حرامَ إلا ما حرّمه . ولا دينَ إلا ما شرَعه ، وكل شيء أخبر به فهو حقٌّ وصِدْق لا كذب فيه ولا خلف .

وكما أكمل الله - عز وجل - لهم الدين بما أنزله من وحي ، فقد أتمّ عليهم النعمة بهذا الإسلام ، فلا يحتاجون إلى زيادةٍ أبداً ، فإنه قد أتمّه الله فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً ، فليرضَ المسلمون لأنفسهم ولأمتهم وللبشر ما رضيه الله لهم ، فإنه الدّين الذي أحبّه الله ورضيه ، وبعثَ به أفضلَ الرُّسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه .

وبعد التذكير بهذه النّعمة يعودُ السّياق إلى موضوع المحرّمات ، فيبيّن أن من احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرّمات التي ذكرها الله تعالى لضرورةٍ ألجأته إلى ذلك فله تناوله والله غفورٌ رحيم ، لأنه تعالى يعلمُ حاجة عبدهِ المضطر وافتقارَه إلى ذلك فيتجاوز عنه ، ويغفر لهُ ، وبعد أن بيّن تعالى ما حرّم علينا من الخبائث الضارّة للبدن ، أو للدين ، أو لهما فيما مرّ ، فإن السياق يستمر في تبيان بعض ما أُحلّ في معرض الجواب على سؤال عما أحلّ للمسلمين . فيذكر الله - عز وجل - أنَّ ما أحلّه لنا هو الطيبات من الذبائح الحلال الطيبة التي ذُكر اسم الله عليها ، وكذلك الطيبات من الرزق الحلال ، وأحل لنا ما صدناه بالجوارح وهي : الكلاب ، والفهود ، والصقور ، وأشباهها ، إذا كانت مُعلّمة ، وأمسكت على صاحبها ، وكان مرسلها قد ذكَر اسمَ الله عليها وقت إرسالها ، فإن صيدها حلال وإنْ قتله الجارح بالإجماع . وكما ذكّرنا الله بنعمته علينا بهذا الإسلام ، في هذا السياق فإنه كذلك هنا يذكّرنا بنعمته علينا إذ أباح لنا الطيبات . وفي هذا السياق أيضاً يقرر ويمنّ علينا بإباحة ذبائح أهل الكتاب لنا ، وإباحة ذبائحنا لهم . وذكّرنا كذلك بأنه أحلّ لنا نكاح الحرائر العفيفات من النّساء المؤمنات . وتذْكيره لنا بهذا توطئة للتقرير والامتنان علينا بإباحة زواج الكتابيّات لنا إذا أدّينا إليهنّ مهورهنّ ، ونكحناهُنّ بالطريق المشروع ، من عقدٍ وشهودٍ ، غير زانين بهنّ ، أو متخذين إيّاهُنّ عشيقات ، ثم ذكر الله قاعدةً : أنّ الذي يكفرُ بالإيمان ، فإنه في الآخرة خاسرٌ ، حتى لا يتوهم أنّ الزّواج من الكتابية يُدخلها الجنّة مع بقائها على كفرها . وليتذكّر المؤمنُ رحمَ الإيمان فيفضّل المؤمنة على غيرها ، وخَتمُ الآية بكلمة

الخاسرين ، ذو دلالةٍ على السياق القرآني العام سنذكرها في نهاية الحديث عن المقطع إن شاء الله .

ثم أمر الله - عز وجل - المؤمنين بالوضوء للصلاةِ في حالة الجنابة ، وبالتيمم بدلا عن الطهارة بالماء في بعض الأحوال . ووصف الوضوء ووصف التيمم والحالات التي تبيح التيمم . وبين الحكمة في هذا التيسير وهو استخراج الشُّكر والتحقّق به .

ثمّ ذكَّر الله - عز وجل - عبادَهُ المؤمنين بنعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق ، في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته ، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه . ذكّرهم أن يتذكروا الميثاق الذي أعطوه عندما قالوا سمعنا وأطعنا . ثم أمرهم بالمواظبة على التقوىٰ في كل حال ، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر . ثم أمر الله - عز وجل - المؤمنين أن يكونوا قوّامين بالحق لله - عز وجل - لا لأجل الناس والسمعة ، وأن يكونوا شهداء بالعدل لا بالجور . ثم نهاهم أن يحملهم بُغضُ قوم على ترك العدلِ فيهم ، بل أمرهم أن يكونوا عادلين مع كلِّ أحدٍ ، صديقاً كان أو عدواً ، مبيناً أنّ فعل العدل أقربُ إلى التقوى من تركهِ ، آمراً إيّاهم بالتقوى ، معلّماً إيّاهم أنّه عليم بالظّواهر والخفيّات ، ليعلموا أنه سيجزيهم على ما علم من أفعالهم التي عملوها إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشر ، ثم وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرةِ لذنوبهم ، والجنّة التي هي من مظاهر رحمته ، والتي لا ينالونها بأعمالهم بل برحمةٍ منه وفضل ، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم التي شاء الله أن تكون أسباباً إلى نيل رحمتهِ وفضلهِ وعفوهِ ورضوانهِ . فالكل منه ، وكما وعد المؤمنين بالمغفرة والجنة ، فقد توعّد الكافرين بالنار . ثم ذكّر الله - عز وجل - المؤمنين بنعمةٍ من نعمهِ أحسّها الجيلُ الأوّل ويكرّرها الله في كل حين ، وهي كفُّ أيدي من يهمّ أنْ يُوقع بالمؤمنين ، ثمّ كرّر الأمر لهم بالتقوى وأمرهم بالتوكل عليه بهذه المناسبة ، ليُفْهمهم أنّ من توكّل على الله كفاه الله ما أهمّه ، وحفظه من شرِّ النّاس وعَصَمه . ولو أننا تأمّلنا في معاني المقطع لوجدناها نماذج على أنواع مما أخذه الله علينا من مواثيق ، في العبادة ، والسلوك ، والقضايا القلبية ، والقضايا الحياتية ، فإذا ما تذكرنا أنّ سورة المائدة تقابل قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

إذا تذكّرنا ذلك ، عرفنا كيف أننا أخذنا تفصيلاً في قضايا الميثاق ، فقد لاحظنا تكرّر العهد والميثاق في ابتداء المقطع ، وفي نهايته ، وفي الوسط ، كما لاحظنا قوله تعالى : **﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾** .

إنّ ذكر الخسران في نهاية آيتي البقرة ، وفي وسط هذا المقطع من هذه السورة ، كل ذلك يذكّرنا بالمحور الذي تدور حوله معاني السورة ضمن السياق القرآني العام .

المعنى الحرفي :

﴿ ياأيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود ﴾ العقد : هو العهد الموثّق . وهي هنا عقودُ الله التي عقدها على عباده وألزمهم إياها ، من مواجب التكليف ، سواء ما عقده الله عليهم ، أو ما تعاقدوا عليه فيما بينهم ، على ضوء شريعته . والظاهر أنّ ما جاء بعد هذا الأمر هو التفصيل له . والأمر بالوفاء بالعقود نَهيٌ عن الغدر والنكث .

فوائد :

١ - قال زيد بن أسلم في تفسير العقود في الآية : هي ستة ، عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين . أقول : العقود أكثر من ذلك .

٢ - قال ابنُ عباس ومجاهد وغيرُ واحدٍ : أن المراد بالعقودِ في الآية العهود وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك .

٣ - استدل الحنفية على لزوم عقد البيع وثبوته ، ونَفْي خيار المجلس ، بهذه الآية ، وأوّلوا الحديث الصحيح بأنّه في ماقبل العقد . وهو مذهب المالكية مع الحنفية ، واعتمد الشافعية عدمَ لزوم عقد البيع إلا بعد التفرّق . للحديث الصحيح « البيّعان بالخيار ما لم يتفرّقا » . قال ابن كثير الشافعي : وهذا صريحٌ في إثبات خيار المجلس المتعقّب لعقد البيع ، وليس هذا منافياً للزوم العقد ، بل هو من مقتضياته شرعاً ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود .

٤ - روى ابن أبي حاتم أن رجلاً أتى عبدالله بن مسعود فقال : اعهد إليَّ . فقال :

« إذا سمعت الله يقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ فارعها سمعك خيرٌ يأمُر به أو شرٌّ ينهى عنه » .

﴿ **أُحلت لكم بهيمةُ الأنعام** ﴾ البهيمة في الأصل : كلُّ ذاتِ أربع قوائم ، ثم أطلقت على كل حيوان في البرّ والبحر . والتقدير في الآية : أحلت لكم البهيمة من الأنعام وهي الأزواج الثمانية البقر ، والغنم ، والماعز ، والإبل ، وفسّرها بعضهم بأنها : الظباء ، وبقر الوحش ، نظراً إلى ما بعدها . ﴿ **إلا ما يُتلى عليكم** ﴾ إشارة إلى الآية التي ستأتي بعد قليل وهي ﴿ **حرّمت عليكم الميتة** ﴾ . فما حرّمته هذه الآية مستثنى من الحلّ العام لبهيمة الأنعام ، فكان المعنى : أحلت لكم الأنعام إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال . ﴿ **غير مُحلي الصيد وأنتم حرم** ﴾ الحُرُم : جمع حرام وهو المُحْرِم .

والمعنى : أُحلت لكم هذه الأشياء ، لا محُلّين الصيد وأنتم محرمون فكأنه أراد أنه أحل لكم الأنعام في حالِ امتناعكم عن الصيد وأنتم محرمون لئلا يضيّق عليكم . ﴿ **إنَّ الله يحكم ما يريد** ﴾ من الأحكام . فيُحلُّ ما يشاء ، ويُحرِّم ما يشاء . وله وحده حق الحكم ، وحق التحليل والتحريم ؛ إذ هو الربُّ ، وهو الأعلم بمصالح عباده .

فائدة :

استدلّ ابن عمر وابن عباس وغير واحدٍ بقوله تعالى : ﴿ **أُحلت لكم بهيمة الأنعام ...** ﴾ على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمّه عند ذبحها . وقد ورد في ذلك حديث في السنن رواه أبو داود ، والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد قال : قلنا يارسول الله ننحر الناقة ، ونذبح البقرة والشاة ، في بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : « كلوه إن شئتم فإنّ ذكاته ذكاةُ أُمّه » وروى أبو داود عن رسول الله ﷺ قوله : « ذكاةُ الجنين ذكاةُ أُمّه » وهي قضيّةٌ خلافيّة لأنه يوجد مَن فَهِم الحديث على أنّ الجنين يحتاج إلى ذكاةٍ كذكاة أمّه . والأمر فيه سعة .

﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتحلّوا شعائرَ الله** ﴾ الشعائر : جمع شعيرة . وهو اسم ما أشعر . أي جُعل شعاراً . وهل المراد بها كل ما كان شِعاراً وعَلمًا على دين الله من فرائضه ومحارمه ؟ أو المراد بها هنا ما جُعل شِعاراً ، وعَلَمًا للنُّسك ، من مواقف الحج

ومرامي الحجار ، والمطاف ، والسعي ، والأفعال التي هي علامات للحج يعرف بها ، من الطواف والإحرام ، والسعي ، والحلق ، والنّحر ؟ .

قولان للمفسِّرين ، فعلى الأوّل يكون المعنى : لاتحلّوا ما حرّم الله بترك فرائضه وارتكاب منهيّاته . وعلى الثاني يكون المعنى : لاترتكبوا ما يُخِلُّ بشعائر الحج ومناسكه بالتّهاون بحرمتها ، والحيلولة بينها وبين المتنسّكين بها . ﴿ **ولا الشهرَ الحرامَ** ﴾ . أي : لاتحلوا الشهر الحرام . وما المراد بالشهر الحرام هنا ؟ هل المراد به أشهر الحج ؟ أو المراد به الأشهر الحرم كلها ؟ ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ؟ . قولان للمفسرين . وعلى القول الأول يكون المعنى : لاتفعلوا في أشهر الحج ما تصدون به الناس عن الحج . وعلى القول الثاني يكون المعنى : ولا تفعلوا في الأشهر الحرم ما ينافي حرمتها ، فالمعصية فيها أشد حرمة ، وأجمعوا على أنّ الله أحلّ قتال أهل الشرك ، والكفر ، والبغي ، في الأشهر الحرم ، وغيرها من شهور السّنة ، فمن قال إنّ النّهي في الآية عن استحلال الشهر الحرام نهيٌ عن القتال فيه كما هو عادة العرب في الجاهلية ، اعتبر هذا منسوخاً . وعلى ما ذكرنا من تفسير النّص فلسنا بحاجة إلى تقدير النّسخ ولا يترتب على الخلاف نتائج عملية ﴿ **ولا الهديَ ولا القلائدَ** ﴾ . أي : ولا تحلوا الهَدْيَ ولا القلائد . والهدي ، هو ما أُهدي إلى البيت ، وتُقُرِّبَ به إلى الله تعالى من النّسائك كالإبل والغنم والبقر والماعز . وهو جمع هدية . والقلائد جمع قِلادة وهو ما قُلِّد به الهدي من نَعل أو عروةِ مزادةٍ ، أو لحاء شجر ، أو غيره . والمراد بالقلائد هنا الهدي المقلَّد نفسه . والمعنى : لاتتعرضوا للهدي بالغصب ، أو بالمنع من بلوغ محلّه . ولِمَ عطف عليه القلائد مع أن القلائد من الهدي ؟ . قال النسفي : وتعطف على الهدي للاختصاص لأنها أشرف الهدي ... كأنه قيل والقلائد منها خصوصاً ، وجاز أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدي مبالغة في النهي عن التعرض للهدي أي : ولا تُحِلُّوا قلائدها فضلاً عن أن تُحِلُّوها . وذهب ابن كثير إلى أن معنى ولا تحلّوا الهدي ولا القلائد : أي لاتتركوا الإهداء إلى البيتِ الحرام ، فإنّ فيه تعظيمَ شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميَّز به عمّا عداها من الأنعام ، وليُعلم أنّها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوءٍ ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها ..

﴿ **ولا آمِّين البيتَ الحرامَ يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً** ﴾ .

آمّين أي : قاصدين . يبتغون أي : يطلبون والمراد بالفضل هنا : التّجارة أو

الثَّواب ، والمراد بالرِّضوان أي : أن يرضى الله عنهم . والمعنى : ولا تُحِلُّوا قوماً قاصدين المسجد الحرام ، وهم الحجّاج ، والعمّار ، ممّن صفتهم أنهم يطلبون فضل الله ورضوانه أي : لاتتعرضوا لهم ، فأمّا مَنْ قصدَ المسجدَ الحرام ليلحد فيه ، أو ليُشرك عنده ، أو ليكفر به ، فهذا يُمنع ويتعرض له . وقد حكى ابن جرير الإجماع على أنّ المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمانٌ وإنْ أمَّ البيت الحرام ، أو بيتَ المقدس ﴿ **وإذا حللتم فاصطادوا** ﴾ . أي : إذا فرغتم منْ إحرامكم ، وخرجتم منه ، وأحللتم ، فقد أبحنا لكم ما كان مُحرّماً عليكم في حال الإحرامِ منَ الصيد . ﴿ **ولا يجرمنّكم** ﴾ . أي : ولا يحملنّكم ﴿ **شنآنُ قوم** ﴾ . أي : شِدّة بغضهم ﴿ **أنْ صدوكم عن المسجد الحرام** ﴾ . أي : لكونهم منعوكم عن المسجد الحرام ﴿ **أن تعتدوا** ﴾ . أي : أن تنتقموا منهم بإلحاق مكروه بهم لم يأذن به الله . قال بعضُ السلف : ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾ البر : كلمة شاملة فسرتها آية البر في سورة البقرة ، وفسرها الحديث الشريف « والبر ما اطمأنت إليه النفس ... » والتقوى هي البّر . وكلماتُ المفسّرين في تفسيرهما هنا متقاربة ، فمنهم من قال : البِرُّ هنا : فعل الخير ، والتقوى : ترك المنكرات . ومنهم من قال : البِرُّ : العفو . والتقوى والإغضاء . ومنهم من قال : البرّ : فعل المأمور . والتقوى : ترك المحظور .

والمراد بهما - والله أعلم - ما يعم كل بِرّ ، وكل تقوى ، على أوسع مدلولاتهما ، فيدخل فيهما تبعاً ما له علاقة في السياق ، من العفو ، وترك الانتصار ﴿ **ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ فسّر عليه وآله الصلاة والسلام الإثم بأنه : ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس . قال ابن جرير : في تفسير الإثم والعدوان : الإثم : ترك ما أمر الله بفعله ، والعدوان : مجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم . ويدخل في هذا النهي آلاف الصُّور ، إذ العلاقات الاجتماعية في الغالب إمّا تعاون على البرِّ والتقْوى ، أو تعاون على الإثم والعدوان ، على أي مستوى من مستويات التعامل .

﴿ **واتقوا الله إنّ الله شديدُ العقاب** ﴾ لمن عصى وما اتقى ، وتَعاوَنَ على غير البر والتقوى .

فوائد :

١ - « كان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلَّدوا

أنفسهم بالشعر والوبر ، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به » . رواه ابن أبي حاتم . وأجمع علماء المسلمين على أن المشرك لو قلّد عنقه ، أو ذراعيه ، بلحاء جميع أشجار الحرم ، لم يكن ذلك أماناً من القتل ، إذا لم يكن تقدّم له عقد من ذمّة المسلمين أو أمان .

٢ - يمر معنا أحياناً في سورة المائدة ما يشعر بأنّ شيئًا ما منها منسوخ ، وبعضهم يكثر ، وبعضهم يقل ، وبعضهم ينفي النسخ فيها أصلاً ، كالحسن البصري إذ سئل : نُسخ من المائدة شيء ؟ قال : لا . والسبب في ذكر النسخ أو عدمه هو فهم بعض النصوص فهمًا موسّعاً يلزم عليه اعتماد النسخ . فمثلاً قال ابن عباس . نُسخ من هذه السورة آيتان : آية القلائد وقوله تعالى : ﴿ **فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾ . وكما رأينا في آية القلائد ، سنرى في الآية الثانية أنّ قضيةّ النّسخ هنا إنمّا هي أثر عن فهم موسّع للنّص فقط . ولو أننا فهمنا النّص من الابتداء فهماً مضيّقاً فإننا لا نحتاج للقول بالنّسخ .

٣ - ذكر عكرمة والسّدّي وابن جرير أنّ آية ﴿ **ولا آمّين البيت الحرام** ﴾ نزلت في الحطيم بن هند البكري كان قد أغار على سرح المدينة فلمّا كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه في طريقه إلى البيت فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً** ... ﴾ فإذا صح أن هذا هو سبب النزول فإنه يكون منسوخاً . أو نقول : إن هذه الصورة من عموم اللفظ أصبحت منسوخة .

٤ - من التحقيقات الأصولية أن الأمر بعد الحظر يفيد الإباحة كقوله تعالى : ﴿ **فإذا حللتم فاصطادوا** ﴾ فالأمر هنا بعد الحظر فهو للإباحة المفهومة من قبل من مفهوم قوله تعالى : ﴿ **غير محلي الصيد وأنتم حرم** ﴾ .

٥ - روى البزّار عن رسول الله ﷺ قوله : «الدالُّ على الخير كفاعله » قال ابن كثير وله شاهد في الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتّبعه إلى يوم القيامة ، لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتّبعه إلى يوم القيامة ، لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً » وروى الطبراني عنه عليه الصلاة والسلام « من مشى مع ظالم ليعينه ، وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج من الإسلام » .

﴿ **حرمت عليكم الميتة** ... ﴾ . أي : البهيمة التي تموت حتف أنفها . ويستثنى من ذلك ميتتا السمك والجراد . ﴿ **والدمُ** ﴾ . أي : المسفوح . وهو السائل . أما الكبد والطحال وما يتبقى في العروق بعد الذبح فهذا مباح . ﴿ **ولحم الخنزير** ﴾ . الخنزير كله نجسٌ وإنما خُصَّ اللّحم بالذكر ، لأنه معظم المقصود والخنزير بكل أنواعه حرام إنسيُّه ووحشيُّه . ﴿ **وما أهلَّ لغير الله به** ﴾ . أي : وما رفع الصوت به لغير الله . وهو قولهم : باسم اللات والعزى ، أو غير ذلك مما سوى الله عند ذبحه ، فما ذبح على غير اسم الله فهو محرَّم . واختلف العلماء في متروك التسمية عمداً أو سهواً كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام . ﴿ **والمنخنقة** ﴾ وهي : التى تموت بالخنق : إما قصداً ، وإما اتفاقاً كأن تتخبَّل في وثاقها حتى تموت أو غير ذلك . ﴿ **والموقوذة** ﴾ . أي : التي أثخنوها ضرباً بعصاً أو حجر حتى ماتت وفي الصحيح أنّ عديّ بن حاتم قال : قلت يارسول الله إني أرمي بالمعراض الصيدَ فأصيب قال : « إذا رميت بالمعراض فخزق فكله وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله » ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحدّه فأحلّه ، وما أصاب بعرضه فجعله وقيذاً لم يحلّه ، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء . ﴿ **والمتردّية** ﴾ وهي التي تسقط من جبل أو في بئر فتموت . ﴿ **والنّطيحة** ﴾ . أي : المنطوحة : وهي التى نطحتها أخرى فماتت بالنّطح وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها . ﴿ **وما أكل السَّبُع** ﴾ . أي : ما أكل السبع بعضه ومات بجرحه ، ويدخل في السبع الأسد والفهد والنّمر والكلب والذئب وغيره . ﴿ **إلا ما ذكيتم** ﴾ . أي : إلا ما أدركتم ذكاته وهو يضطرب اضطراب المذبوح والاستثناء يرجع إلى المنخنقة وما بعدها ، فإنه إذا أدركها وبها حياة فذبحها وسمّى عليها حلّت . روى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال : إن مصعت بذنَبها ، أو ركضت برجلها ، أو طرفت بعينها فكُلْ . وفي رواية ابن جرير عنه : إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنّطيحة وهي تُحَرِّك يداً أو رجْلاً فكُلْها . قال ابن كثير : وهكذا روي عن طاووس ، والحسن وقتادة ، وعبيد بن عمير ، والضّحاك ، وغير واحد أنّ المذكّاة متى تحركت بحركة تدلُ على بقاء الحياة فيها بعد الذّبح فهي حلال وهذا مذهب جمهور الفقهاء ، وبه قال أبوحنيفة ، والشافعي ، وأحمد وخالف مالك في هذا الحد فلم يجز الذكاة إلا لما كان يعيش بعد ما أكل السبع منه ﴿ **وما ذُبح على النصب** ﴾ . أي : وما ذبح على الأوثان . كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ، يعظّمونها بذلك ، ويتقرّبون إليها تسمّى الأنصاب . ﴿ **وأن تستقسموا**

بالأزلام ﴾ . أي : وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام ، وهي ، القِداح المُعلَّمة وَاحِدُهَا زَلَم أو زُلَم ، كان أحدهم إذا أراد سفراً ، أو غزواً ، أو تجارة ، أو نكاحاً ، أو غير ذلك يعمد إلى قداح ثلاثة على واحد منها مكتوبٌ أمرني ربي ، وعلى الآخر نهاني ، والثالث غفل ، فإن خرج الآمر مضى لحاجته ، وإن خرج النّاهي أمسك ، وإن خرج الغفل أعاد . فمعنى الاستقسام بالأزلام : طلب معرفة ما قسم له ، مما لم يقسم له بالأزلام وما أسخف ذلك . ﴿ **ذلكم فسق** ﴾ . أي : الاستقسام بالأزلام خروج عن الطّاعة ، أو مواقعة ما مرّ من المحرّمات خروج عن الطّاعة ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم** ﴾ . أي : الآن يئسوا منه أن يبطلوه أو يئسوا منه أن يغلبوه ﴿ **فلا تخشوهم واخشون** ﴾ . أي : أخلصوا لي الخشية ، فلا تخافوا الكافرين في مخالفتكم إياهم ، وخافوني وحدي . وأنا أتولّى شأنكم كله . ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ . أي : أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام ، والتوقيف على شرائع الإسلام وقوانين القياس ، وكما أُكمل في البيان ، فقد أكمل بالقدوة العليا بمحمد ﷺ وصحبه . ﴿ **وأتممت عليكم نعمتي** ﴾ بظهور كم أمّة مسلمة مستكملة كلّ كمال ، مهمتها هدم كيان الجاهلية في كلّ مكان . ﴿ **ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ . أي : واخترت الإسلام لكم من بين الأديان ، وآذنتكم بأنه هو الدين المرضيّ وحده ، وقد ذكر نعمة الإكمال للدين في سياق تحريم هذه المحرّمات ، لأنّ تحريم هذه الخبائث . من جملة الدين الكامل ، والنعمةِ التامّة ، والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره . ولما كان بيان حالات الاضطرارات من كمال الدّين بيّن حالة الاضطرار فقال : ﴿ **فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم** ﴾ . أي : فمن اضطر إلى الميتة ، وإلى غيرها في مخمصة أي : في مجاعة غير متجانف لإثم : أي غير مائل إلى إثم ، أو غير متعاطٍ معصية الله ، فإنّ الله غفورٌ رحيم . غفورٌ . يغفر للمضطر . رحيمٌ بإباحته المحظور للمعذور .

قال ابن كثير : قال الفقهاء قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها . وقد يكون مندوباً ، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال . واختلفوا ، هل يتناول منها قدر ما يسدُّ به الرَّمق ؟ أو له أن يشبع ؟ أو يشبع ويتزوَّد ؟ على أقوال .

واختلفوا فيما إذا وجد ميتة ، وطعامَ الغير ، أو صيداً وهو مُحْرِمٌ ، هل يتناول الميتة ، أو ذلك الصيد ، ويلزمه الجزاء ، أو ذلك الطعام ويضمن بدله ؟ على قولين قال

ابن كثير : وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد يتوهم كثيرٌ من العوام وغيرهم ، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له .

فوائد :

١ - في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » . فقيل يارسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تُطلى بها السفن ، وتُدهن بها الجلود ، ويَستصبح بها النّاس ؟ فقال : لا هو حرام .

٢ - أخرج أبوداود ... « نهى رسول الله ﷺ عن طعام المتبارين أن يؤكل » .

٣ - اختلفوا فيما إذا صدم الكلبُ الصيدَ فقتله بثقله ولم يجرحه . على قولين هما للشافعي رحمه الله . أحدهما لايحل . والثاني يحل . وإنما ذكرناه هنا مع أنّ محلّه بعد الآية التالية لأنه يشبه الموقوذة .

٤ - في الصحيحين أنّ النّبي ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مصوَّريْن فيها ، وفي أيديهما الأزلام فقال : « قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً » .

٥ - أخرج ابن مردويه عن أبي الدّرداء قال : قال رسول الله ﷺ « لن يلج الدرجات من تكهّن ، أو استقسم ، أو رجع من سفرٍ طائراً » . أي متطيّراً .

٦ - في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن بالتحريش بينهم » .

٧ - روى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال : جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب . فقال : يأمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لوعلينا يامعشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال وأيُّ آية ؟ قال قوله ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي** ﴾ فقال عمر : والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة . ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم بألفاظ متقاربة . وكون هذه الآية نزلت عشية يوم عرفة وكان يوم جمعة هو الصحيح المشهور الذي لاشك فيه ولا مرية . وقال ابن جرير وغير واحد : مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً .

والتحقيق أنها ليست آخر آية نزلت كما يظنُّ بعضهم . بل آخر آية كما رأينا ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله** ... ﴾ .

٨ ــ وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا يا رسول الله إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة فمتى تحلُّ لنا بها الميتة . فقال : « إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا ولم تحتفئوا بها بقلاً فشأنكم بها » .

الاصطباح : الغداء . والاغتباق : العشاء . والاحتفاء : قلع البقل من الأرض . وقال الحسن : إن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال متى يحلُّ الحرام ؟ قال : فقال : « إلى متى يُروى أهلك من اللبن أو تجيء ميرتهم » . وروى عروة بن الزبير عن جدّته أنّ رجلاً من الأعراب أتى النبيّ ﷺ يستفتيه في الذي حرّم الله عليه ، والذي أحل له . فقال النبي ﷺ : « يحلُّ لك الطيبات ويحرم عليك الخبائث إلا أن تفتقر إلى طعام لك فتأكل منه حتى تستغني عنه فقال الرجل : وما فقري الذي يحل لي ؟ وما غنائي الذي يغنيني عن ذلك ؟ فقال النبي ﷺ : إذا كنت ترجو غناءً تطلبه فتبلغ من ذلك شيئاً . فأطعم أهلك ما بدا لك حتى تستغني عنه . فقال الأعرابي ما غنائي الذي أدعه إذا وجدته . فقال ﷺ : إذا رويت أهلك غبوقاً من الليل فاجتنب ما حرّم الله عليك من طعام مالك فإنه ميسورٌ كله فليس فيه حرام » . وروى أبوداود عن النّجيع العامري أنه أتى رسول الله ﷺ وسلّم . فقال : مايحلُّ لنا من الميتة ؟ قال : ما طعامكم ؟ قلنا نغتبق ، ونصطبح . قال أبونعيم فسّره لي عقبة : قدح غُدوة ، وقدح عشية قال : ذاك - وأبي الجوع - وأحل لهم الميتة على هذه الحال » . قال ابن كثير : وكأنهم كانوا يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يكفيهم . فأحلّ لهم الميتة لتمام كفايتهم . وقد يحتجُّ به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشّبع ولا يتقيّد ذلك بسدِّ الرَّمق . وقد فسر عقبة الاصطباح والاغتباق في الحديث بأنه قدحٌ عشيةً . وروى أبوداود عن سمرة أنّ رجلاً نزل الحَرَّة ومعه أهله وولده فقال لهم رجل : إنّ ناقتي ضلَّت فإن وجدتّها فأمسكها . فوجدها ولم يجد صاحبها . فمرضت . فقالت له امرأته : انحرها ، فأبى . فنفقت . فقالت له امرأته : اسلخها حتى نُقدِّدَ شحمها ولحمها فنأكله . قال : حتى أسأل رسول الله ﷺ . فأتاه فسأله . فقال : « هل عندك غنى يغنيك ؟ قال : لا . قال : فكلوها . قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر . فقال : هلاّ كنت نحرتها ؟ قال : استحييتُ منك » . قال ابن كثير : وقد يحتج به من يجوِّز الأكل والشبع والتزوّد منها مدّة يغلب على ظنه الاحتياج إليها .

وقد نقلنا هذه المجموعة من النصوص ليفهم منها حدود المخصصة الواردة في الآية والتي تبيح الأكل مما حُرّم .

﴿ يسألونك ماذا أُحلّ لهم ﴾ . أي : ماذا أحل لهم من المطاعم ؟ والسائل عديّ بن حاتم ، وزيد بن مهلهل حسب رواية ابن أبي حاتم . قالا : يارسول الله قد حرّم الله الميتة فماذا يحلّ لنا منها ؟ فنزلت ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم ... ﴾ التّسلسل في السّياق واضحٌ فبعد ذكر ما حُرِّم علينا من الخبائِث يذكر الآن ما أُحلّ لنا من الطيّبات ﴿ قل أحل لكم الطيّبات ﴾ . أي : ما ليس بخبيث وهو : كلُّ ما لم يأت تحريمه في كتاب الله أو سُنةِ رسوله ﷺ أو إجماع الأمّة أو القياس . وبعضهم فسّرها في الآية بالذبائح المذكور اسم الله عليها . ﴿ وما عَلَّمتم من الجوارح مكلّبين ... ﴾ . أي : أحل لكم الطيبات وصيدُ ما عَلّمتم من الجوارح أي من الكواسب للصيد منْ سباع البهائم كالكلب والفهد والعقاب والصقر والبازي والشاهين ومعنى مكلبين أي مؤدّبين . إذ المكلّب : هو مؤدب الجوارح ومعلمها . لأن التأديب في الكلاب أكثر ، فاشتق من لفظه لكثرته . ﴿ تعلمونهنّ ممّا علّمكم الله ﴾ . أي : تعلّمون الجوارح مما علّمكم الله في حملهنّ على الصّيد لكم . ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴾ الإمساك على صاحبه هو علامة التعليم والتكليبِ والتأديب . ولوصول الجارح إلى مرحلة التأديب التي يجوز فيها أن يؤكل صيده علامة تختلف في سباع البهائم عنها في سباع الطير . فإنه يشترط في جوارح البهائم ما لا يشترط في جوارح الطير . أمّا علامته في الكلب وأمثاله فهو ألّا يأكل منه فإن أكل منه لم يحلّ ، وأمّا في الطير فإن أكْلَه منه لايحُرّمه لأنّ مجرّد أنسه بصاحبه وعوده له وصيده له علامة على تعليمه ﴿ واذكروا اسم الله عليه ﴾ . الضمير في عليه إمّا أن يعود على الصيد أو على الجارح فإن عاد على الصيد كان المعنى وسمّوا على المصيد إذا أدركتم ذكاته . وإن عاد على الجارح كان المعنى : وسمّوا عليه عند إرساله . ﴿ واتقوا الله ﴾ . أي : احذروا مخالفة أمره في هذا كله . ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ . أي : إنّه محاسبكم على أفعالكم ولا يلحقه فيه لَبْثٌ .

فوائد :

١ – فهم بعضهم من قوله تعالى : ﴿ الجوارح ﴾ أنه يشترط لحلّ الأكل من صيدها الجرح وقد مرّت معنا هذه المسألة ورأينا أنها قضيّة خلافيّة .

٢ - قوله تعالى ﴿ **مكلّبين** ﴾ في الآية يفيد أنّ من يعلّم الجوارح ينبغي أن يكون موصوفاً بالتكليب وإلّا فإن التعليم مفهوم من قوله تعالى : ﴿ **ما علّمتم** ﴾ وعلّق النسفي على هذا بقوله : وفيه دليل على أنّ على كل آخذ علم ألّا يأخذه إلا من أمثل أهله علماً ، وأنحرهم دراية ، فكم مِنْ آخذ من غير متقن قد ضيّع أيامه ، وعض عند لقاء التماري أنامله . أي عند لقاء من يجادله .

٣ - قال عليه وآله الصلاة والسلام : « إذا أرسل الرجل كلبه وسمّى فأمسك عليه فليأكل ما لم يأكل » .

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . وفي الصحيحين عن عديّ بن حاتم قال : قلت يارسول الله إنيّ أرسل الكلاب المعلّمة وأذكر اسم الله فقال : « إذا أرسلت كلبك المعلّم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك . قلت : وإنْ قتله ؟ قال وإن قتله مالم يشركها كلب ليس منها فإنك إنمّا سمّيت على كلبك ولم تسمِّ على غيره » ، وقال بعض فقهاء الشافعية . إنْ أمسك الكلب ثمّ انتظر صاحبه فطال عليه وجاع فأكل منه لجوعه ، فإنه لا يؤثّر في التّحريم . وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني عنه عليه الصلاة والسلام « إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكلْ ، وإن أكل منه ، وكل ما ردّت عليك يدك » .

٤ - وفي الصحيحين عنه عليه الصلاة والسلام « إذا أرسلتَ كلبك فاذكر اسم الله ، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله » . قال ابن عباس : إذا أرسلت جارحك فقل باسم الله وإذا نسيت فلا حرج .

﴿ **اليوم أحلّ لكم الطيبات** ﴾ كرّر هذا المعنى تأكيداً للمنّة . ﴿ **وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم** ﴾ . أي : وذبائح اليهودِ والنصارى حِلٌّ لكم ، وفسرنا الطعام هنا بالذبائح لأنّ سائر الأطعمة لا يختص حلها بالمِلّة . وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، أنّ ذبائحهم حلال للمسلمين لأنهّم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ، ويذكرون على ذبائحهم اسم الله ، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزّه عنه تعالى وتقدّس . ﴿ **وطعامكم حِلٌّ لهم** ﴾ . أي : فلا جناح عليكم أن تطعموهم لأنه لو كان حراماً عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم إطعامهم . فالمعنى إذن : ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم وهذا من باب المكافأة والمقابلة والجزاء . ﴿ **والمحصنات من المؤمنات** ﴾ . أي : وأحِلّ لكم نِكاح المحصنات من المؤمنات والمحصنات هنَّ :

الحرائر أو العفائف ، قال النّسفي : وليس هذا بشرط لصحّة النّكاح بل هو للاستحباب لأنّه يصحُّ نكاح الإماء من المسلمات : ونكاحُ غير العفائف ، وتخصيصُهن بعث على تخيُّر المؤمنين لنطفهم ﴿ **والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ المحصناتُ هنا هنّ : الحرائر يهوديات أو نصرانيات ، أو العفائف ، فهنّ حِلٌّ للمسلمين ، وخالف في النّصرانيات بعضهم ولكنَّ جماعة من الصحابة تزوجوا بنصرانيات ولم يروا بذلك بأساً . ﴿ **إذا آتيتموهن أجورهن** ﴾ . أي : إذا أعطيتموهنّ مهورهنّ ، دلّ ذلك على أنّ المهر حقٌّ للزوجةِ مسلمة أو غير مسلمة ، وعلى هذا يحرم أخذ مهر منَ المرأة ، كما يفعله بعض الغربيين ، ويجب العكس وهو دفع المهر للمرأة . ﴿ **محصنين غير مسافحين** ﴾ . أي : متزوجين غير زانين . ﴿ **ولا متخذي أخدانٍ** ﴾ . الخدْن هنا : الصديق والعشيق ويقع على الذكر والأنثى . فالزّواج هو المباح والعلاقة الزّوجية هي المباحة . ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله** ﴾ . أي : ومن يكفر بشرائع الإسلام وما أحلّ الله وما حرّم فقد بطل عمله . ﴿ **وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ إذ خسر الجنة ونال بدلها الخلود الأبدي في النار ، وأي خسارة أكبر من ذلك .

فوائد :

١ – ثبت في الصحيح عن عبدالله بن مغفّل قال : « أُدلي بجراب من شحم يوم خيبر فحضنته وقلت لا أُعطي اليوم من هذا أحداً ، والتفتُّ فإذا النّبي ﷺ يبتسم » استدّل به الفقهاء على أنّه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة وهذا ظاهر . واستدلّ به الحنفية والشافعية على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يَعتقدُ اليهودُ تحريمه من ذبائحهم كالشحوم ونحوها ممّا حرّم عليهم .

٢ – أخرج ابن أبي حاتم عن مكحول . قال : أنزل الله ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يُذْكر اسمُ الله عليه** ﴾ ثم نسخه الربُّ – عز وجل – ورحم المسلمين فقال ﴿ **اليوم أحل لكم الطيباتُ وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم** ﴾ فنسخها بذلك وأحلّ طعام أهل الكتاب وهذا يعني أن مكحولاً لا يرى ما يراه بقية الفقهاء من اشتراط ذكر اسم الله لحلّ ذبيحة أهل الكتاب .

٣ – واضح من الآية الآنفة الذكر أن طعام غير اليهود والنصارى لا يجوز ، سواءً كانوا ملحدين ، أو صابئة ، أو مجوساً ، أو مرتدين .

٤ - روى ابن جرير عن عليّ رضي الله عنه قال : لاتأكلوا ذبائح بني تغلب « لأنهم » إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر . وكان سعيد بن المسيّب والحسن لا يريان بأساً بذبيحة نصارى بني تغلب . وهذا الموضوع مهم لأنَّ الكثيرين من نصارى عصرنا حالهم كحال بني تغلب .

٥ - الجمهور على أن الكتابيّة إذا كانت زانية لا يجوز زواجها . نفهم من هذا حكم الزواج بالغربيات إذ يندر في عصرنا أن توجد غربية لاتزني ، إلا إذا وجد العنت فيأخذ الإنسان في هذه الحالة بالقول الآخر .

٦ - أفتى جابر بن عبدالله ، وعامر الشعبي ، وإبراهيم النخّعي ، والحسن البصري بأنَّ الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها ، أنّه يفرّق بينهما ، وتردُّ عليه ما بذل لها من المهر . رواه ابن جرير عنهم .

٧ - لم يشترط إلا الإمام أحمد العفّة عن الزنا لصحة عقد زواج ما بين المسلم والمسلمة وهو موضوع سيمر في سورة النور .

﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة** ﴾ . أي : إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون أو من النوم لأنه دليل الحدث فعمّ كلّ حدثٍ . وقال آخرون بل المعنى : أعمّ . فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حقِّ المحدث واجب وفي حقِّ المتطهر ندب .

روى الإمام أحمد ومسلم وغيرهما عن بريدة قال : كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوءٍ واحد . فقال له عمر : يارسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله فقال : « إني عمداً فعلته ياعمر » . ﴿ **فاغسلوا وجوهكم** ﴾ وحَدُّ الوجه عندالفقهاء مابين منابت شعر الرأس - ولا اعتبار بالصلع ولا بالغمم - إلى منتهى اللحيين - والذقن طولاً ، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً ، وفي النّزعتين والتحذيف خلاف هل هما من الرأس أو من الوجه ؟ وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض قولان . وهما أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة ، والثاني أنه لايجب . ويستحب للمتوضىء أن يخلل لحيته إذا كانت كثيفة وفي المضمضة والاستنشاق أقوال : ١ - هما واجبانِ في الوضوء والغسل وهو مذهب أحمد . ٢ - هما مستحبان في الوضوء والغسل كما هو مذهب مالك والشافعي . ٣ - هما واجبان في الغسل دون الوضوء فهما مستحبان فيه كما هو مذهب الحَنفية .

﴿ **وأيديكم إلى المرافق** ﴾ . أي : مع المرافق قال ابن كثير : ويستحب للمتوضيء أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه لما روى البخاريّ ومسلم عن رسول الله ﷺ « إنّ أمّتي يُدْعَون يوم القيامة غُرّاً مُحجّلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غُرّته فليفعل » . وفي صحيح مسلم « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » . ﴿ **وامسحوا برؤوسكم** ﴾ أوجب أحمد ومالك استيعاب الرأس بالمسح ، وأوجب الشافعيُّ أن يمسح أقل ما يطلق عليه اسم مسح ، ولا يتقدر ذلك بحدٍّ ، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجْزأه ، وذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس وهو مقدار النّاصية ، واختلفوا هل يستحبّ تكرار مسح الرأس ثلاثاً كما هو المشهور من مذهب الشافعي ، أو مسحة واحدة كما هو مذهب أحمد ، أو ثلاث ثلاثة مسحات بماءٍ واحد كما هو مذهب الحنفية . ﴿ **وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ . أي : واغسلوا أرجلكم مع الكعبين والقراءة بالكسر للإشعار بوجوب الاقتصاد في صبِّ الماء عليها ﴿ **وإن كنتم جنباً فاطّهروا** ﴾ . أي : فاغسلوا أبدانكم كلّها حتى لايبقى شيءٌ لم يغسل . ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النّساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيّباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه** ﴾ قال الرّازي (أو) في قوله تعالى : ﴿ **أو جاء أحدٌ منكم من الغائط** ﴾ بمعنى الواو والتقدير وجاء . حتى لايلزم المريض والمسافر التيمّم بلا حدث . والغائط في الأصل المكان المطمئن وهو في الآية كناية عن قضاء الحاجة ، ومعنى لامستم النساء تقدّم الكلام عليه في سورة النّساء فلا حاجة بنا إلى إعادته . ﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** ﴾ . أي : في باب الطهارة ولذلك رخّص لكم في التيمّم عند المرض ، وعند فقد الماء توسعة عليكم ، ورحمة بكم ، وجعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه .

﴿ **ولكن يريد ليطهركم** ﴾ . أي : بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء .

﴿ **وليتم نعمته عليكم** ﴾ . أي : وليُتمَّ برخَصِه إنعامه عليكم بعزائمه .

﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ . أي : تشكرون نعمتهُ عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتّسهيل فيثيبكم لذلك على شكركم .

فوائد :

١ – قال الفضل بن المبشر : رأيت جابر بن عبدالله يصلي الصلوات بوضوءٍ واحدٍ .

فإذا بال أو أحدث توضّأ ومسح بفضل طهوره الخُفّين . فقلت أبا عبدالله أشيء تصنعه برأيك ؟ قال : بل رأيت رسول الله ﷺ يصنعه . فأنا أصنعه كما رأيت رسول الله يصنعه . رواه ابن جرير وابن ماجه . دلّ الحديث على جواز المسح على الخفين وهي من القضايا الجائزة المتواترة عنه عليه السلام ، كبديل عن غسل الرجلين ضمن شروطه المعروفة في السُنّةِ والفقه . كما دلّ على كفاية الوضوء الواحد لمجموعة صلوات ، إذا لم يكن حدث . وقال ابن سيرين : إن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكلّ صلاة .

٢ – هناك قضايا خلافية بين الأئمة في بعض أمور اعتبرها بعضهم فريضة ، واعتبرها بعضهم من باب السنن في الوضوء ، من مثل الموالاة والترتيب والدّلك . والأمرُ فيه سعة . وهذا نموذجٌ من وضوء رسول الله ﷺ : ففي الصحيحين أنّ رجلاً قال لعبدالله ابن زيد بن عاصم . وكان من أصحاب رسول الله ﷺ : « هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال : عبدالله بن زيد : نعم . فدعا بوَضُوءٍ فأفرغ على يديه ، فغسل يديه مرّتين مرّتين ثمّ مضمض واستنشق ثلاثاً . وغسل وجهه ثلاثاً ، ثم غسل يديه مرّتين إلى المرفقين ، ثمّ مسح رأسه بيديه ، فأقبل بهما وأدبر ، بدأ بمقدّم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه . ثم ردّهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه ثم غسل رجليه » .

٣ – هناك خلاف بين الشّيعة وأهل السُنة حول كون المسح على الرجلين هو الفرض في الوضوء وليس الغَسل وهم محجوجون في السنّة ، وقراءةِ النّصب في الآية . والسُنّة متواترة في وجوب الغَسل .

٤ – وفي حكمة الوضوء نروي هذا الحديث الصحيح الذي رواه أحمد ومسلم « عن عمرو بن عبسة قال : قلت يارسول الله ، أخبرني عن الوضوء . قال : « ما منكم من أحدٍ يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق وينتثر إلا خرّت خطاياه من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينتثر ، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرّت خطايا يديه من أطراف أنامله ، ثم يمسح رأسه إلا خرّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثمّ يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره إلا خرّت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء ، ثمّ يقوم فيحمد الله ويثني عليه بالذي هو أهل ، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه » .

إنه بالوضوء يقوم الإنسان بين يدي الله متطهّراً من الأوساخ الحسية والمعنوية ، وقيام

الإنسان بين يدي الله تعالى متطهراً من الأوساخ الحسية والمعنوية أقرب إلى التعظيم ، فكان أكمل في الخدمة ، ولهذا قيل : إنّ الأولى أنْ يصلي الرّجل في أحسن ثيابه وأنّ الصّلاة متعمّمًا أفضل من الصلاة مكشوف الرأس ، كما أن ذلك أبلغ في التّعظيم .

٥ - وقد وردت السنة بالحثّ على الدّعاء والذّكر عقب الوضوء ففي الحديث الصحيح « ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ الوضوء - يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محَمداً عبده ورسوله إلا فُتحت له أبوابُ الجنّة الثمانية يدخل من أيها شاء » . وفي حديث آخر ندب رسول الله ﷺ المتوضيء إلى أن يدعو بعد الوضوء بقوله : « اللهمّ اجعلني من التّوابين واجعلني من المتطهرين » .

٦ - في صحيح مسلم عنه عليه وآله الصلاة والسلام : « لايقبل الله صدقةً من غلول ، ولا صلاةً بغير طهور » . وفي صحيح مسلم كذلك عنه عليه الصلاة والسلام . « الطّهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله ، والله أكبر تملأ مابين السماء والأرض ، والصوم جُنّة ، والصبر ضياء ، والصدقة برهان ، والقرآن حجّة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ بأن أنزل عليكم هذا الإسلام وهداكم إليه ﴿ **وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ . أي : واذكروا ميثاقه الذي عاقدكم به عقداً وميثاقاً إذ تقولون سمعنا وأطعنا ، دلّ هذا على أن قول المؤمن سمعنا وأطعنا ميثاق وعقد مع الله ومع رسوله ﷺ ، وذهب أئمة التفسير إلى أن هذا تذكير بالبيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم فقد كانوا يقولون : بايعنا رسول الله ﷺ على السّمع والطّاعة ، في منشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله » .

والنص أعمّ . فكل مؤمن قال سمعنا وأطعنا فقد أعطى ميثاقه ، وعليه أن يتذكّره وأن يفي به . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ في نقض الميثاق وهو تأكيد وتحريض على مواظبة التّقوى في كلّ حال ﴿ **إنّ الله عليم بذات الصدور** ﴾ . أي : بسرائر الصدور من الخير والشرّ ، هو وعدٌ ووعيد . ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله** ﴾ . أي : كونوا قوّامين بالحقّ لله - عز وجل - لا لأجل النّاس والسُّمعة . ﴿ **شهداء بالقسط** ﴾ . أي : بالعدل لا بالجور ﴿ **ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا** ﴾ . أي : ولا يحملنّكم بغضُ قومٍ على ترك العدل فيهم . ﴿ **اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ . أي : العدل أقرب

إلى التقوى . نهاهم أولاً أن تحملهم البغضاءُ على ترك العدل ، ثم استأنف فصرّح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً . ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله تعالى : ﴿ **هو أقرب للتقوى** ﴾ وإذا كان وجوب العدل مطلقاً بهذه الصفة من القوة ، فما الظنُّ بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فيما أمر ونهى . ﴿ **إنّ الله خبير بما تعملون** ﴾ . هذا وعد ووعيد ، ومن ثَمَّ أتبعه بوعد ووعيد . ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة** ﴾ لذنوبهم . ﴿ **وأجر عظيم** ﴾ هو الجنة وما أعظم ذلك من أجر ؟ . ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا** ﴾ الكثيرة في الكون وفي القرآن ، وفي ما أظهره على أيدي رسله من معجزات . ﴿ **أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ . أي : لا يفارقونها . ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم** ﴾ . أي بالقتل . ﴿ **فكفَّ أيديهم عنكم** ﴾ . أي : فمنعها أن تمتدّ إليكم . ﴿ **واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ فإنه الكافي والدّافع والمانع وهذه نعمة متكرِّرة شاهدها الصحابة مرات ، وشاهدها المسلمون في كل زمان ، وتذكُّرها يقتضي تقوىً وتوكلاً ، وسبب نزول هذه الآية حادثةُ غورث بن الحارث إذ همَّ أن يفتك برسول الله ﷺ . أو حادثة كعب بن الأشرف وأصحابه إذ هموا أن يبطشوا برسول الله ﷺ عندما ذهب رسول الله ﷺ إلى بني النّضير ليستعينهم في دية العامريَّيْنْ . فأمر اليهودُ عمرو بن جحاش بن كعب بذلك ، أمروه إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرّحى من فوقه ، فأطْلَع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليه ، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه ، وأُرجِّح أن تكون الآية تذكيراً بما كان يوم الأحزاب والعبرة لعموم اللّفظ .

فوائد :

١ – ثبت في الصحيحين عن النّعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : أعطاني أبي عطيَّة ، فقالت عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ – فقال : إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطيَّة فأمرتني أن أشهدك يارسول الله . قال أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟ قال : لا . فقال النبي ﷺ : « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم – وفي رواية قال : إني لا أشهد على جور – قال فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة » .

وبعض الفقهاء يعتبرون إعطاء أحد الأولاد دون الآخرين – ما لم يكن ذلك في مرض الموت ، أو كان وصية لما بعد الموت – يعتبرونه جائزاً لكنّه يفقد صاحبه أجر العدل غير

أنه لا يأثم بذلك والله أعلم .

كلمة في السياق :

١ - ورد في المقطع خمس مرات : نداء للمؤمنين ، مرةً بالأمر بالوفاء بالعقود ، ومرةً بعدم استحلال قضايا معيّنة ، ومرةً بالطّهارة . ومرةً بالعدل . ومرةً بتذكر نعمة الله أن كفّ أيدي الكافرين ، وتكرر الأمر بالتقوى خلال ذلك كثيراً .

فإذا ما تذكرنا أن هذه السورة امتدادٌ لسورة النّساء ، وهي في الوقت نفسه تركّز على القضايا التي تنافي الإيمان ، من نقض الميثاق ، والفسوق ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والفساد في الأرض ، إذا ما تذكّرنا هذا عرفنا أهميّة هذه الأوامر التي ابتدأت بها السورة في مقطعها الأول ، فعلينا أن ننتبه إلى أهميّة الوفاء بالعقود ، وأهمية الصّلاة ، وأهميّة العدل ، وأهميّة تذكّر نعمة الله المتجددة بكفّ أيدي الكافرين عن استئصال المؤمنين ، وكلُّ ذلك مرتبط بقضيّة الإيمان والتقوى ، والوفاء بالعهد مع الله .

٢ - لقد رأينا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ أنّ من قال سمعنا وأطعنا فقد أعطى الله عهداً ولقد قالها كما قص الله علينا ذلك في سورة البقرة كل مؤمن ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا** ﴾ .

فعلى الإنسان أن يذعن قلبه ، وجسمه ، ولسانه ، بالسمع والطاعة ، وذلك عهد جديد له مع الله - عز وجل - وعليه دائمًا أن يتذكر عهده مع الله ، ومن مقتضىٰ ذلك أن يكون عادلاً . ومن مقتضىٰ ذلك أن يكون طاهراً مصلّياً . ومن مقتضىٰ ذلك ألا يرتكب حراماً في فم أو فرج . ومن مقتضىٰ ذلك ألا يهتك محارم الله . ومن مقتضى ذلك ألا يمدّ يده ليتعاون مع أحدٍ على إثم وعدوان . ومن مقتضى ذلك أن يتعاون على البرّ والتقوى . ومن مقتضى ذلك أن يتذكّر نعمة الله عليه ، وعلى المسلمين بنعمة الإسلام ، ونعمة الرعاية . وذلك كله مرتبط بقوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ **وما يضلّ به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ .

فلكي لا نكون من هؤلاء فعلينا أن نلتزم بما أُمرنا بالالتزام به في المقطع ، وسيأتي

مقطع جديد يعطينا الله - عز وجل - به دروساً في أمم وشعوب نقضوا العهد والميثاق مع الله - عز وجل - فاستحقوا بذلك ما استحقوا .

٣ - قد يكون ما مرّ كافياً للتدليل على أنّ محور سورة المائدة هو قوله تعالى : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ . فإذا اتضح هذا فلنلاحظ أنه في سياق قوله تعالى ﴿ **حرمت عليكم الميتة ...** ﴾ قد ورد قوله تعالى : ﴿ **ذلكم فسق** ﴾ وارتباط ذلك بقوله تعالى في المحور ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ لا يخفى .

وأنه في سياق قوله تعالى : ﴿ **اليوم أحلَّ لكم الطيبات ...** ﴾ قد ورد قوله تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى في المحور ﴿ **وأولئك هم الخاسرون** ﴾ لاتخفى وأنه جاء في المقطع ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود** ﴾ ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه ...** ﴾ ولهذا صلته بقوله تعالى ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ .

إن هذا كله يؤكدّ أن المقطع فصّل فيما نتحرر به من الفسوق ودلّنا على ما لو وافقناه أو أهملناه أو خالفناه أو ارتكبناه فإننا نكون مستحقين الإضلال من الله - عز وجل - .

٤ - من الملاحظ أن الآية الأولى في السّورة قد ورد فيها قوله تعالى ﴿ **غير محلي الصيد وأنتم حرم** ﴾ وأنه قد جاءت الآيات التي تتحدث عن صيد المحرِم في أواخر السورة . ﴿ **ياأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم** ﴾(٩٤) ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ...** ﴾(٩٥) ﴿ **أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيَّارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ...** ﴾(٩٦) .

وهذا يشير إلى ارتباط أول السّورة بآخرها ، ويؤكد سياقها الواحد ، كما يشير إلى أهمية امتناع المحرم عن الصيد ؛ إذ بدأت به السورة بعد الأمر بالوفاء بالعقود ، وفصّلت فيه فيما بعد ، كما يشير إلى أن من أوائل ما يدخل في الوفاء بالعقود عقودنا مع الله - عز وجل - بالسّمع والطاعة في كل ما أمر ونهى .

ولعلّه بذلك قد اتضح لنا إلى حدٍّ كبير سياق السورة وارتباطها بمحورها وسيزداد الأمر وضوحاً فيما بعد فلننقل في نهاية الكلام عن المقطع بعض النقول ولنعقد بعض

الفصول التي تساعد على الفهم والالتزام .

فصول ونقول :

فصل : في نزول السورة وفي بعض أسباب النزول :

يقول الألوسي : وأخرج أبوعبيد عن محمد القرظي قال : « نزلت المائدة على رسول الله ﷺ في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة ، وهو على ناقته ، فانصدعت كتفها فنزل عنها رسول الله ﷺ وذلك من ثقل الوحي » . وأخرج غير واحد عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : المائدة آخر سورة نزلت ، وأخرج أحمد ، والترمذي عن ابن عمر : أن آخر سورة المائدةُ والفتحُ . وقد تقدم آنفاً عن البراء : أن آخر سورة نزلت براءة ، ولعل كلاً ذكر ما عنده ، وليس في ذلك شيء مرفوع إلى النبي ﷺ ، نعم أخرج أبوعبيد عن ضمرة بن حبيب ، وعطية بن قيس قالا : قال رسول الله ﷺ : « المائدة من آخر القرآن تنزيلاً فأحلّوا حلالها ، وحرّموا حرامها » وهو غير وافٍ بالمقصود لمكان « من » .

واستدل قوم بهذا الخبر على أنه لم ينسخ من هذه السورة شيء ، وممن صرح بعدم النسخ عمرو بن شرحبيل ، والحسن رضي الله تعالى عنهما ، كما أخرج ذلك عنهما أبوداود ، وأخرج عن الشعبي أنه لم ينسخ منها إلا قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد** ﴾ وأخرج ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : نسخ من هذه السورة آيتان ، آية القلائد . وقوله سبحانه : ﴿ **فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾ وادعى بعضهم أن فيها تسع آيات منسوخات ، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله . ا هـ .

ويقول صاحب الظلال : « في روايات كثيرة أن هذه السورة نزلت بعد سورة الفتح .. وسورة الفتح معروف أنها نزلت في الحديبية في العام السادس من الهجرة .. وفي بعض هذه الروايات أنها نزلت مرة واحدة فيما عدا الآية الثالثة ، التي فيها : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم ..** ﴾ فإنها نزلت في حجة الوداع في السنة العاشرة ..

ولكن المراجعة الموضوعية للسورة مع أحداث السيرة تكاد تنفي هذه الرواية التي تقول : إن السورة نزلت بكاملها بعد « الفتح » فضلاً عن أن هناك حادثة من حوادث السيرة في غزوة بدر ، تقطع بأن الآيات الخاصة بموقف بني إسرائيل مع موسى – عليه

السلام - من دخول الأرض المقدسة ، كانت معروفة للمسلمين قبل غزوة بدر في السنة الثانية الهجرية . وقد وردت إشارة إليها على لسان سعد بن معاذ الأنصاري - رضي الله عنه - في رواية ، وعلى لسان المقداد بن عمرو في رواية ، وهو يقول لرسول الله ﷺ : « إذن والله لانقول لك يارسول الله كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** .. ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون .. الخ » .

أما المراجعة الموضوعية فتصور الموقف بأنه كانت لليهود - في ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآيات الخاصة بهم - قوة ونفوذ وعمل في المدينة ، وفي الصف المسلم ، مما اقتضى هذه الحملة لكشف موقفهم وإبطال كيدهم . وهذه القوة وهذا النفوذ كانا قد تضاءلا بعد وقعة بني قريظة ، عقب غزوة الخندق ، وقد تطهّرت الأرض من القبائل اليهودية القوية : بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة . فلم يكن لهم بعد الحديبية ما يدعو إلى العناية بشأنهم إلى هذا الحد . ثم لقد كانت فترة المهادنة معهم والخطة السلمية قد انتهت ، ولم يعد لهما موضع بعد الذي بدا منهم فقول الله لنبيّه الكريم : ﴿ **ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح** ... ﴾ . لابد سابق على هذه الفترة . وكذلك أمره بالحكم بينهم أو الإعراض عنهم .. ومن هذه الملاحظات يترجح لدينا أن مطالع السورة ، وبعض مقاطعها هي التي نزلت بعد سورة الفتح ؛ بينما نزلت مقاطع منها قبل ذلك ، كما أن الآية التي فيها قول الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ لابد أن تكون قد نزلت بعد ذلك . وأن السورة لم تنزل كلها مرة واحدة كما جاء في إحدى الروايات » .

نقول من الظلال :

نتقل هنا عن الظلال متفرقات من كلامه في هذا المقطع ونضعها في تسلسل يشير إلى سياق المقطع :

إنه لابد من ضوابط للحياة .. حياة المرء مع نفسه التي بين جنبيه ؛ وحياته مع غيره من الناس ومن الأحياء والأشياء عامة .. الناس من الأقربين والأبعدين ، من الأهل والعشيرة ، ومن الجماعة والأمة ؛ ومن الأصدقاء والأعداء .. والأحياء مما سخر الله للإنسان ومما لم يسخر .. والأشياء مما يحيط بالإنسان في هذا الكون العريض .. ثم ..

حياته مع ربه ومولاه وعلاقته به وهي أساس كل حياة .

« هذه الضوابط يسميها الله « العقود » .. ويأمر الذين آمنوا به أن يوفوا بهذه العقود .. وافتتاح هذه السورة بالأمر بالوفاء بالعقود ، ثم المضي بعد هذا الافتتاح في بيان الحلال والحرام من الذبائح والمطاعم والمشارب والمناكح . وفي بيان الكثير من الأحكام الشرعية والتعبدية . وفي بيان حقيقة العقيدة الصحيحة . وفي بيان حقيقة العبودية وحقيقة الألوهية . وفي بيان علاقات الأمة المؤمنة بشتى الأمم والملل والنِحَل . وفي بيان تكاليف الأمة المؤمنة في القيام لله ، والشهادة بالقسط ، والوصاية على البشرية بكتابها المهيمن على كل الكتب قبلها ، والحكم فيها بما أنزل الله كله ؛ والحذر من الفتنة عن بعض ما أنزل الله ؛ والحذر من عدم العدل تأثراً بالمشاعر الشخصية والمودة والشنآن .. افتتاح السورة على هذا النحو ، والمضي فيها على هذا النهج يعطي كلمة « العقود » معنى أوسع من المعنى الذي يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . ويكشف عن أن المقصود بالعقود هو كل ضوابط الحياة التي قررها الله .. وفي أولها عقد الإيمان بالله ؛ ومعرفة حقيقة ألوهيته سبحانه ، ومقتضى العبودية لألوهيته .. هذا العقد الذي تنبثق منه ، وتقوم عليه سائر العقود ، وسائر الضوابط في الحياة .

وعلى عقد الإيمان بالله ، والعبودية لله ، تقوم سائر العقود .. سواء ما يختص منها بكل أمر وكل نهي في شريعة الله ، وما يتعلق بكل المعاملات مع الناس والأحياء والأشياء في هذا الكون في حدود ما شرع الله ، فكلها عقود ينادي الله الذين آمنوا ، بصفتهم هذه ، أن يوفوا بها . إذ أن صفة الإيمان ملزمة لهم بهذا الوفاء ، مستحثة لهم كذلك على الوفاء .. ومن ثم كان هذا النداء . ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود** ﴾ .

ثم يأخذ في تفصيل بعض هذه العقود ...

« إن الحديث عن الصلاة والطهارة ، إلى جانب الحديث عن الطيبات من الطعام ، والطيبات من النساء . وإن ذكر حكم الطهارة إلى جانب أحكام الصيد والإحرام والتعامل مع الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام .. إن هذا لايجيء اتفاقاً ومصادفة لمجرد السرد ، ولايجيء كذلك بعيداً عن جو السياق وأهدافه .. إنما هو يجيء في موضعه من السياق ، ولحكمة في نظم القرآن .

إنها - أولاً - لفتة إلى لون آخر من الطيبات .. طيبات الروح الخالصة .. إلى جانب

طيبات الطعام والنساء .. لون يجد فيه قلب المؤمن مالا يجده في سائر المتاع . إنه متاع اللقاء مع الله ، في جو من الطهر والخشوع والنقاء .. فلما فرغ من الحديث عن متاع الطعام والزواج ارتقى إلى متاع الطهارة والصلاة ، استكمالاً لألوان المتاع الطيبة في حياة الإنسان .. والتي بها يتكامل وجود «الإنسان » ثم اللفتة الثانية .. إن أحكام الطهارة والصلاة ؛ كأحكام الطعام والنكاح ، كأحكام الصيد في الحل والحرمة ؛ كأحكام التعامل مع الناس في السلم والحرب .. كبقية الأحكام التالية في السورة .. كلها عبادة لله . وكلها دين الله . فلا انفصام في هذا الدين بين ما اصطلح أخيراً – في الفقه – على تسميته « بأحكام العبادات » ، وما اصطلح على تسميته « بأحكام المعاملات » .

هذه التفرقة التي (وجدت في اصطلاحات العلماء) حسب مقتضيات « التصنيف » و« التبويب » . لا وجود لها في أصل المنهج الرباني ، ولا في أصل الشريعة الإسلامية .. إن هذا المنهج يتألف من هذه وتلك على السواء .. وحكم هذه كحكم تلك في أنها تؤلف دين الله وشريعته ومنهجه ، لا ، بل إن أحد الشطرين لايقوم بغير الآخر . والدين لايستقيم إلا بتحقيقهما في حياة الجماعة المسلمة على السواء . كلها « عقود » من التي أمر الله المؤمنين في شأنها بالوفاء . وكلها « عبادات » يؤديها المسلم بنية القربى إلى الله . وكلها « إسلام» وإقرار من المسلم بعبوديته لله .

ليس هنالك « عبادات » وحدها و« معاملات » وحدها .. إلا في « التصنيف الفقهي » .. وكلتا العبادات والمعاملات بمعناها هذا الاصطلاحي .. كلها « عبادات » و« فرائض » و« عقود » مع الله . والإخلال بشيء منها إخلال بعقد الإيمان مع الله .

وهذه هي اللفتة التي يشير إليها النسق القرآني ؛ وهو يوالي عرض هذه الأحكام المتنوعة في السياق .

« ومن الميثاق الذي واثق الله به الأمة المسلمة ، القوّامة على البشرية بالعدل .. العدل المطلق الذي لايميل ميزانه مع المودة والشنآن ؛ ولا يتأثر بالقرابة أو المصلحة أو الهوى في حال من الأحوال . العدل المنبثق من القيام لله وحده بمنجاة من سائر المؤثرات .. والشعور برقابة الله وعلمه بخفايا الصدور .. ومن ثم فهذا النداء : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو

أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ .

فصل : في ضرورة دراسة كتب الفقه :

بمناسبة الكلام عن الذكاة الشرعية يقول صاحب الظلال : « والتفصيل يُطلب في كتب الفقه المختصة » ، وسنرى أنه بمناسبة الكلام عن حدِّ السرقة يقول صاحب الظلال « ولا نملك أن نمضي في تفصيل اختلافات الفقهاء في هذا المجال فتطلب في كتب الفقه » إنّ الذي يتصور أن صاحب الظلال يمنع دراسة الفقه يظلم صاحب الظلال ، والذي يتصور أن يكون الإنسان فقيهاً دون دراسة كتب الفقه يكون واهماً ، والذي يتصور أننا لانحتاج إلى كتب الفقه أصلاً يكون مخالفاً للنصوص ، فالحديث الصحيح يقول « وبين ذلك أمور مشتبهات لايعلمهن كثير من النّاس » فالقليل إذن يعرفها ، وهل القليل إلا أئمة الاجتهاد ؟ وهذا موضوع فصّلنا فيه في كتابنا « جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما » .

فصل : في صور من الاستقسام بالأزلام :

كثيراً ما يحدث أن أحداً من الناس يكون مشغولا بمسألة ما فيعبث بعلبة الكبريت مثلاً فإن وقفت استبشر ، أو يعبث بالعملة المالية المضروبة فإن جاءت العملة على وجه استبشر وإلا لم يستبشر وذلك نوع من الاستقسام بالأزلام علينا أن نبتعد عنه .

فصل : في موضوع الصد عن المسجد الحرام :

قضية الحج نرجو ألا تربط بأي وضع سياسي في هذا العالم ، وألا تكون السياسة عاملاً من عوامل الصد عن سبيل الله إنْ في تعقيد المعاملات ، أو في تقييد الحج ، أو في المعاملات الفظّة للحجاج والعمّار ، أو لبعضهم ، وعلى الحكومات جميعاً أن تختار للتعامل مع الحجاج والعمّار أجود موظفيها أخلاقاً ، وأحسنهم سلوكاً ، وأكثرهم احتراماً للناس وهذا أقل الواجب .

فصل : في قوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ :

يقول صاحب الظلال : « فإن قول الله سبحانه لهذه الأمة : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ .. يتضمن توحيد المصدر الذي تتلقى منه هذه الأمة منهج حياتها ونظام مجتمعها ، وشرائع ارتباطاتها ومصالحها إلى يوم القيامة ، كما يتضمن استقرار هذا الدين بكل جزئياته الاعتقادية والتشريعية ؛ فلا تعديل فيها ولا تغيير ؛ فقد اكتمل هذا الدين وتم وانتهى أمره . وتعديل شيء فيه كإنكاره كله ؛ لأنه إنكار لما قرره الله من تمامه وكماله ؛ وهذا الإنكار هو الكفر الذي لا جدال فيه .. أما العدول عنه كله إلى منهج آخر ، ونظام آخر ، وشريعة أخرى ، فلا يحتاج منا إلى وصف ، فقد وصفه الله – سبحانه – في السورة . ولا زيادة بعد وصف الله – سبحانه – لمستزيد ..

إن هذه الآية تقرر – بما لا مجال للجدال فيه – أنه دين خالد ، وشريعة خالدة . وأن هذه الصورة التي رضيها الله للمسلمين ديناً هي الصورة الأخيرة .. إنها شريعة ذلك الزمان وشريعة كل زمان ؛ وليس لكل زمان شريعة ، ولا لكل عصر دين .. إنما هي الرسالة الأخيرة للبشر ، قد اكتملت وتمت ، ورضيها الله للناس ديناً . فمن شاء أن يبدل ، أو يحوّر ، أو يغيّر ، أو يطوّر ، إلى آخر هذه التعبيرات التي تُلاك في هذا الزمان ، فليبتغ غير الإسلام ديناً .. ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه** ﴾ .

إن هذا المنهج الإلهي المشتمل على التصور الاعتقادي ، والشعائر التعبدية ، والشرائع المنظمة لنشاط الحياة كله ؛ يحكم ويصرّف ويهيمن على نشاط الحياة كلها ؛ وهو يسمح للحياة بأن تنمو في إطاره وترتقي وتتطور ؛ دون خروج على أصل فيه ولا فرع ، لأنه لهذا جاء ، ولهذا كان آخر رسالة للبشر أجمعين .

إن تطور الحياة في ظل هذا المنهج لا يعني مجافاتها أو إهمالها لأصل فيه ولا فرع ؛ ولكن يعني أن طبيعة المنهج تحتوي كل الإمكانيات التي تسع ذلك التطور ؛ بلا خروج على أصل أو فرع . ويعني أن كل تطور في الحياة كان محسوباً حسابه في ذلك المنهج ؛ لأن الله – سبحانه – لم يكن يخفى عليه أن هناك تطورات ستقع ، وأن هناك حاجات ستبرز ، وأن هناك مقتضيات ستتطلبها هذه التطورات والحاجات . فلابد إذن أن يكون هذا المنهج قد احتوى هذه المقتضيات جميعاً .

وما قَدَرَ الله حقّ قدرِهِ من يظن غير هذا في أمر من هذه الأمور ..

ملاحظة : هناك مسائل فقهية كثيرة لها صلة بالمقطع تحتاج إلى ذكر ومناقشة . ولكن لكون هذا التفسير جزءاً من سلسلة الأساس في المنهج ولكوننا سنتعرض في القسم الثاني من الأساس في المنهج وهو الأساس في السُنة وفقهها لهذه القضايا كلها آثرنا أن لانتوسع في ذلك ههنا .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني من سورة المائدة

يمتد هذا المقطع من الآية (١٢) إلى نهاية الآية (٣٤) وهذا هو :

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ
إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ
وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا
نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۙ
وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ
أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ
يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ
كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ
فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي

ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

☆ ☆ ☆

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ۖ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ

رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

☆ ☆ ☆

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي

ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟
مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

☆ ☆ ☆

كلمة في المقطع :

في هذا المقطع ثلاث فقرات :

الفقرة الأولى : تذكر ما أخذ الله - عز وجل - من ميثاق على بني إسرائيل ، وكيف أنهم نقضوا عهدهم مع الله - عز وجل - وأنه أخذ عهوداً ومواثيق على النّصارى فنقضوا العهد وعوقبوا ، وفي هذا السياق يدعو الله - عز وجل - أهل الكتاب إلى الإيمان بمحمد ﷺ والإسلام ، ويعرض علينا نماذج من كفرهم ، ودعاواهم ، فالفقرة تعرض نماذج من نقض العهد ، وتدعو أهل ذلك لتلافيه بالإيمان بمحمد ﷺ والإسلام . وصلة ذلك بمحور السورة في قوله تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ صلة واضحة . ثم تأتي **الفقرة الثانية** : وهي تعرض لنا قصة امتناع بني إسرائيل عن الجهاد زمن موسى عليه السلام ، وفسوقهم بذلك ، وعقوبتهم على ذلك . وذلك نموذج تفصيلي آخر على نقض العهد والفسوق بذلك ، والصلة بين قوله تعالى في محور السورة من سورة البقرة : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ وبين هذه الفقرة واضحة . فهذا نموذج على الفسوق عن أمر الله بترك الفريضة . ونموذج لقطع ما أمر الله به أن يوصل من ولاء للرسل عليهم السلام وطاعتهم طاعة مطلقة .

ثم تأتي **الفقرة الثالثة** : وفيها نموذج على نقض عهد وقطع لما أمر الله به أن يوصل من رحم ، وإفسادٍ في الأرض بقتل النّفس التي حرّم الله إلا بالحقّ ، وتعقيباً على ذلك يقرّر الله - عز وجل - بعض ما به تنحسم مادة الفساد في الأرض ، وذلك بالقصاص وبحدّ الحرابة للمفسدين في الأرض . ثم يأتي المقطع الثالث فيبني على ذلك فيذكر الجهاد ، ويذكر حدّ السرقة ، وكلُّ ذلك لقطع الفساد في الأرض .

فالمقطع في فقراته الثلاث يفصِّل في نقض العهد ، وفي قطع ما أمر الله به أن يوصل ، وفي الإفساد في الأرض . ويفصِّل في الفسوق عامّة . فيضرب الأمثلة ، ويقرِّر الأحكام التي تحسم مادة الفساد . ولعل بمجموع ما ذكرناه أضحت الصلة بمحور السورة من سورة البقرة أكثر وضوحاً . والصلة بين المقطع والذي قبله متعددة الجوانب :

فالمقطع الأول أمر هذه الأمة بالوفاء بالعقود ، وأمرها بالطهارة والصلاة ، وذكّرها بنعمة الله عليها إذ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليها أيديهم فكفَّ ذلك عنها .

وجاء هذا المقطع مذكراً بالعهود الأساسية التي أُخذت على بني إسرائيل والتي منها : إقامة الصلاة ، ونصرة الرّسل ، وكيف كان موقفهم منها لتأخذ هذه الأمة عبرة . وأرانا المقطع كيف أن بني إسرائيل نكصوا عن القتال ، وفي هذا السياق يأتي الكلام عن القتل الظالم ليكون ذلك كله مقدمة للمقطع الذي فيه أمر بالجهاد ، وقطع يد السارق ، فكان بمثابة استمرار للكلام عما به تنحسم مادة الفساد في الأرض .

فالمقطع الثاني ، يقدم للمقطع الثالث ، ويضرب الأمثلة التي تعين على القيام بأمر الله فهو يخدم معاني المقطع الأول ويمهد لإقامة معاني المقطع الثالث .

والملاحظ أن موسىٰ عليه السلام قدّم للأمر بالجهاد بالتذكير بنعمة الله على بني إسرائيل ، وقد ختم المقطع الأول بالتذكير بالنعمة على هذه الأمة . ثم جاء المقطع الثالث ليأمر بالجهاد مما يرينا كيف أنّ المقطع الثاني خدم المقطع الأول ، وأن المقطع الأول والثاني يخدمان في تحقيق معاني المقطع الثالث . وصلة ذلك بالتربية والبناء لأمتنا من حيث إن المقاطع تأخذ بيدها شيئاً فشيئاً ، لاتخفى . وهذا أوان الشروع في تبيان المعاني العامة للمقطع الثاني .

المعنى العام :

لمّا أمر الله عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم في ابتداء المقطع الأول ، وفي أواخره كما رأينا . شرع يبيّن لهم كيف أنّه أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين اليهود والنّصارى ، فلمّا نقضوا عهوده ومواثيقه ، أعقبهم ذلك لعناً منه لهم ، وطرداً عن بابه وجنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق . وهذا يؤكد ما ذكرناه من قبل من كون محور سورة المائدة هو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وما يضلّ به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ... ﴾ .

وقد بيّن الله - عز وجل - في الفقرة الأولى من المقطع ، والتي لها علاقة بأخذ الميثاق كيف أنّه أخذ الميثاق على بني إسرائيل في زمن موسىٰ ، وكيف أنّه جعل عليهم اثني عشر نقيبا على كل سبط منهم نقيب . ووعدهم الله - عز وجل - بالنّصر والرّعاية

إن أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصدّقوا رسل الله ، ونصروهم ، وأنفقوا في سبيل الله . ووعدهم كذلك مع الرعاية والنصرة - إنْ وفوا بهذا - أن يمحوَ عنهم ذنوبهم ، ويسترها عليهم فلا يؤاخذهم بها ، وأن يدخلهم جنتّه ، ثمّ هدّدهم أنّهُ من خالف هذا الميثاق من عقده وتوكيده وشَدِّه . فجَحَدَه وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح ، وعدل عن الهدىٰ إلى الضّلال ، ثمّ أخبر تعالى عما حَلّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده ، لقد أبعدهم عن الحق ، وطردهم عن الهدى ، وجَعَل قلوبهم قاسية لا تتعظ بموعظة حتى تأوّلوا كتابه ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه ما لم يقل ، وتركوا العمل به رغبة عنه ، ونَسُوا قسمًا منه فعطلوهُ ، ثم أخبر الله رسوله ﷺ أن حالهم الملازم لهم هو المكر والغدر والخيانة ، وأنّه لايزال يطّلع عليها منهم ، وأمره مع هذا بالعفو عنهم والصفح إحساناً لأن الله يحب المحسنين ، وهذا - والله أعلم - عندما يكونون ذمّةً للمسلمين ، وأما في حالة كونهم أهل حرب فالحذر والحرب ، وبعضهم قال إن الأمر بالصفح والعفو كان قبل الأمر بالقتال ، وفي المعنى الحرفي بيان ، وبعد أن بيَّن الله - عز وجل - الميثاق الذي أخذه على اليهود ، وعقوبتهم إذا خالفوه ، بيَّن عاقبة النصارى إذ نقضوا ميثاقه ، فنسوا قسمًا مما ذُكّروا به ، فعاقبهم على ذلك في الدنيا ، بإلقاء العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة ، كل طائفة منهم تكفّر الأخرى ، وعذاب في الآخرة أكبر إذ يحاسبهم على ما ارتكبوا من الكذب عليه سبحانه وعلى رسله عليهم السلام ، وما نسبوه إلى الربِّ - عز وجل - وبعد أن بيّن الله - عاقبة نقض الميثاق ، وجّه النّداء لأهل الكتاب في هذا السياق ، مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهْل الأرض ، عربهم وعجمهم ، أمّيِّهم وكتابيِّهم ، وأنّه بعثه بالبيّنات ، والفرق بين الحقّ والباطل ، مبيّناً لهم ما بدّلوه وحرَّفوه وأوّلوه وافتروا على الله ، ويسكت عن كثير مما غيَّروه مما لافائدة في بيانه ، ثمّ أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيِّه الكريم ، فوصفه بأنه نور وكتاب واضح ، وأنّ الذي يتّبع رضوان الله يهتدي به إلى طريق النّجاة والسّلامة ومناهج الاستقامة ، فينجّيهم من المهالك ، ويوضّح لهم أين المسالك ، ويصرف عنهم المحذور ويحصّل لهم أحب الأمور ، وينفي عنهم الضّلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة .

وبعد أن بيّن الله عاقبة نقض الميثاق ، وبيّن لأهل الكتاب مهمّة من مهمّات رسوله ،

ووصف كتابه حق وصفه مما يستدعي عند أهل الإنصاف الإيمان بسبب هذا الكمال الذي لا يُشك معه أنّ محمداً رسول الله ، وأن القرآن كتاب الله ، بعد أن بيّن هذا ، حكَم بكفر النّصارى في ادّعائهم في المسيح ابن مريم - وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقِهِ - أنّه هو الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ثمّ أخبر تعالى عن قدرته على الأشياء كلها ، وكونها تحت قهره وسلطانه بأنه لو أراد إهلاك المسيح وأمّه وأهل الأرض كلهم فمن ذا الذي كان يمنعه من ذلك ؟ أو من ذا الذي يقدر على صرفه ؟ وإذ كان الأمر كذلك فهو وحده الربُّ والإله . ثم أخبر تعالى أن جميع الموجودات ملكه وخلقه ، وهو القادر على ما يشاء ، لا يُسأل عمّا يفعل لقدرته وسلطانه وعدله وعظمته ، وهل المسيح وأمه إلا من جملة ملكه فأنى يكون إلهاً ؟ ثم ردّ على اليهود والنّصارى ادّعاء كلّ منهم أنهم أبناء الله ، وأنّ له بهم عناية ، وأنّه يحبهم بحكم انتساب كلّ منهم إلى من هو حبيبٌ لله . فردّ الله عليهم ذلك ، بأنّه لو كنتم كما تدّعون فلِمَ يعذّبكم في الدنيا ؟ وأعد لكم نار جهنّم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ ثم بيّن الله - عز وجل - أنّهم ليسوا إلا بشراً من البشر ، وأن إليه أمر العذاب والغفران ، وأنّه يُنال غفرانه بسلوك طريق ذلك ، ثم بيّن أنّ الكون كله ملكه ، وتحت قهره وسلطانه ، وأنّ إليه المرجع والمآب ، فلا فرار منه إلا إليه باتّباع رسوله ﷺ وقرآنه .

ثمّ خاطب مرةً ثانية أهل الكتاب بعد تبيانه هذه المعاني كلها ، مبيّناً أنّه قد أرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيّين ، الذي لانبيّ ولا رسول بعده ، بل هو المعقب لجميعهم ، أرسله بعد مدةٍ متطاولة بينه وبين آخر رسول بُعث قبله وهو عيسى ، أرسله بعد طموس السُبل وتغير الأديان ، وكثرة عبادة الأوثان والنّيران والصُلبان . فكانت النّعمة به أتمّ النّعم ، والحاجة إليه أمر عمم ، فإنّ الفساد كان قد عمّ جميع البلاد ، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد ، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا الأنبياء الأقدمين ، وكان الدّين قد التبس على أهْل الأرض كلهم ، حتىّ بعث الله محمداً ﷺ ؛ فهدى الخلائق ، وأخرجهم الله به من الظُلمات إلى النّور ، وتركهم على المحجّة البيضاء ، والشّريعة الغراء من أجل ألا يحتج من بدّل وغيّر . بأنه ماجاءه من رسول يبشّر بدين الله ، وينذر من مخالفة دينه . فها قد جاء البشير والنذير محمّد ﷺ ، والله سيتولى عقوبة مَنْ خالفه وعصاه ،وثوابَ من أطاعه .

وبهذا تنتهي الفقرة الأولى من هذا المقطع والسؤال الآن هو :

ما الصلة بين موضوع الميثاق الوارد في أول هذه الفقرة ، وخطاب أهل الكتاب باتباع رسول الله ﷺ ؟ . والجواب - والله أعلم - أنّه لمّا كان من الميثاق الإيمانُ بالرسل ونُصرتهم ، فقد ذكَر الله - عز وجل - أهل ذلك بأن محمداً رسول الله ﷺ وأن عليهم أن يؤمنوا به وينصروه ، ثمّ إن الخطاب بالإيمان قد جاء بعد تبيان عقوبة نقض الميثاق من قبل وكيف أن نقض الميثاق فيه ما فيه . فكيف بعد بعثة رسول الله ﷺ الذي قامت به الحجة على الخلق بما لا مزيد عليه ؟ فإن استحقاق العقوبة أبلغ .

ومن هذه الفقرة نفهم أنّ الوفاء بالميثاق لايتمُّ إلا بإقام الصّلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيمان بالرسل ، ونصرتهم ، والإنفاق في سبيل الله ، فإذا ربطنا بين هذا المقطع وبين محور السورة في سورة البقرة علمنا أنّ الذي ينقض واحدة من هذه المعاني لايهتدي بكتاب الله ، لأن الله تعالى قال هناك : ﴿**وما يضل به إلا الفاسقين ◦ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ...** ﴾ فإذا أدركنا هذا عرفنا سراً آخر من أسرار الصلة بين خطاب أهل الكتاب والكلام عن الميثاق في أول هذه الفقرة ، إذ بيّن في خطاب أهل الكتاب صفات الذين يستأهلون الاهتداء بكتاب الله ﴿ **قد جاءكم من الله نورٌ وكتاب مبين ◦ يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبل السلام ..** ﴾ فارجع الآن وتأمل الآيتين اللتين قلنا إنهما محور سورة المائدة وهما قوله تعالى : ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ لتجد الرّبط الكامل ما بين أجزاء هذه الفقرة أولاً ، وبين هذه الفقرة والمقطع قبلها ثانياً ، وما بين ذلك والسياق القرآني العام ثالثاً ، على النّسق الوارد في سورة البقرة بهذا الشكل المعجز ، نسأل الله أن يلهمنا شكره وأن يدخلنا جنته .
وبعد الفقرة الأولى من هذا المقطع ، تأتي الفقرة الثانية التي تعرض علينا موقفاً من مواقف بني إسرائيل فما الصلة بينها وبين ما سبقها ؟ .

أمّا الصلة بينها وبين الفقرة الأولى فقد رأينا أن الإيمان بالرّسل ونصرتهم جزء من الميثاق ، وهذه الفقرة تبيّن موقفاً من مواقف بني إسرائيل مع موسىٰ عليه السلام ، وتقاعسهم عن النّصرة والقتال فيما هو مصلحتهم ، وعقوبتهم على ذلك . وأمّا الصلة بين هذه الفقرة والمقطع السابق ، فقد رأينا أن المقطع السابق خُتم بالتذكير بنعمة الله ، إذ كفّ أيدي من أراد الأذى بالمسلمين عن المسلمين . وطولب المسلمون على أثر ذلك بالتوكل على الله في السّلم والحرب وغير ذلك . وفي هذه الفقرة : يذكّر موسىٰ عليه السلام

بني إسرائيل بنعمة الله ليقوم على ذلك توكل يدخل فيه اليهود حرباً فيرفضون ، ويُعَاقبون . والتربية في ذلك لهذه الأمّة واضحة ، وسنرى أنه بعد هذا المقطع سيأتي أمر لأمتنا بالجهاد فلا ينبغي أن تكون كبني إسرائيل ، وأما المعاني العامة في هذه الفقرة الثانية فهي :

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وكليمه موسىٰ بن عمران عليه السلام فيما ذكّر به قومه من نعم الله عليهم ، وآلائه لديهم ، في جمعه لهم خيري الدنيا والآخرة ، لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة . ومن ذلك إرسال الرسل إليهم ، وجعلهم أحراراً يتملكون ، وتشريف الله إيّاهم على عالمي زمانهم ، ثم بنىٰ موسىٰ عليه السلام على هذا التذكير الأمر لهم بالقتال ، ودخول الأرض المقدّسة التيّ وعدهم الله إياها على لسان أبيهم إسرائيل - إن كانوا مؤمنين - ونهاهم عن النّكول عن الجهاد ، وهدّدهم بالخُسران إن نكلوا ، فاعتذروا عن الجهاد والدّخول ، بأنّ في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتالِ قومِها قوماً جبّارين ، ذوي خلقة هائلة ، وقوّة شديدة ، وإنا لانقدر على مقاتلتهم ، ولا مصاولتهم ، ولا يمكننا الدُّخول إليها ماداموا فيها . فإن يخرجوا منها دخلناها ، وإلا فلا طاقة لنا بهم ، ثمّ أخبر تعالى أنّ رجلين يخافان أمر الله ، ويخشيان عقابه ، حرّضا بني إسرائيل بأنهم إن توكلوا على الله ، واتّبعوا أمره ، ووافقوا رسوله ، وقاتلوا وهاجموا ؛ أيّدهم الله ، ونصرهم ، ونجحوا في احتلال الأرض ، وههنا أصروا مرّة ثانية على النكول ، ورفض الدخول ، وترك الجهاد ، وطالبوا - بكل صفاقة - موسى عليه السلام أن يقاتل هو وربُّه وحدهما ، أما هم فإنهم قاعدون في مكانهم ، فاعتذر موسىٰ عليه السلام إلى الله أنه لايطيعه أحدٌ منهم إلا أخوه ، ودعا الله أن يقضي ويفصل بينه وبين قومه الفَسَقَة ، فعاقبهم الله - عز وجل - حين نكلوا عن الجهاد بتحريم دخولهم عليهم مدّةَ أربعين سنة ، وعاقبهم على ذلك كذلك بالتيه في الأرض ، ثم سلّى الله موسىٰ عليه السلام ، وأمَرَه ألاّ يأسف ، وألاّ يحزن عليهم فيما حكم عليهم به فإنهم مستحقّون ذلك .

وانتهاء الفقرة بقوله تعالى : ﴿ **فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ مشعر بأنّ ترك الجهاد المفروض والنكول عنه فسوق . ومشعر بالصّلة بين الفقرة ومحور السورة من سورة البقرة ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ... ﴾ وأن الجهاد جزءٌ من الميثاق ، الذي مَنْ تخلى عنه استحق الضّلال والإضلال ، وهذا يفهم مِنْ أول هذا المقطع ﴿ **وعزّرتموهم** ... ﴾ لأن النّصرة الحقيقية الكاملة إنمّا تكون بالجهاد .

فإذا اتضح هذا المعنى فلنتذكر : أنّ محور سورة المائدة هو آيتا سورة البقرة ﴿ **إن الله لايستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقُّ من ربهم وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يُضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين ◦ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ◦** ﴾ .

وعلى هذا فمحور سورة المائدة يتضمّن خطين : **الخط الأول** : الأوامر التي لو أطاعها الإنسان ينال الهداية . **الخط الثاني** : الأشياء التي إذا أخلّ بها الإنسان استحقّ الضّلال من مثل نقض الميثاق ، والفساد في الأرض ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ومن ثمّ كان فهم سورة المائدة والتخلق والتحقق بما طولبنا به فيها من الأهمية بالمكان العظيم وقد رأينا في سورة البقرة أن استحقاق الضلال بثلاثة :

١ - بنقض الميثاق . ٢ - بقطع الصلة اللّازمة . ٣ - بالإفساد في الأرض . وقد جاء المقطع الأول يأمر بالوفاء بالعقود . وجاء المقطع الثاني يبيّن عاقبة نقض المواثيق في فقرته الأولى . وعاقبة نقض نوع منها في فقرته الثانية ، وأما الفقرة الثالثة فإنّ فيها بياناً لأفظع أنواع الإفساد في الأرض ، وهو القتل . وهكذا يمضي السياق مربيّاً ومنفّراً ضمن محور خاص ، وعلى نسق محدّد ، ولننتقل إلى استعراض المعاني العامّة للفقرة الثالثة :

أخبرنا تعالى في الفقرة الثالثة عن قابيل وهابيل ولم يسمّهما - ولكن ذكر غير واحد من السلف والخلف أنهما المرادان هنا - وكيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه وحسداً له فيما وهبه الله من النّعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله - عز وجل - ، ففاز المقتول بوضع الآثام ، والدّخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين ، وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السّلف والخَلف : إنّ الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوِّج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوِّج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة ، وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه ، فأبى آدم ذلك إلا أن يقرّبا قرباناً ، فمن تقبّل منه فهي له فتُقُبّل من هابيل ولم يتقبل من قابيل ، فكان من أمرهما ما قصّه الله في كتابه ، إذ أمر رسوله أن يقصّ خبر ابني آدم هذين على الأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ، ولا وهم ولا تبديل ، ولا زيادة

ولا نقصان ، إذ قرّبا قرباناً ، فتقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل ، فغضب قابيل على أخيه ، وحسده بسبب ذلك ، وهدّده بالقتل ، فكان رد هابيل أن ذكر أنّ سنّة الله أن يتقبل من أهل التقوى ، ثم أعلمه بأنه إن مدّ إليه يده بالقتل فإنه لن يقابل صنيعه الفاسد بمثله ، لأنه يخاف الله ربّه ، ثمّ علّل سبب استسلامه للقتل بأنه يريد من صبره على قتل أخيه أن يبوء أخوه بإثم قتله مع آثامه السابقة ليكون من المعذّبين عند الله بسبب ظلمهم . وفي ذلك عظة وردعٌ لقابيل ، إلا أنه لم يتّعظ ، ولم يرتدع ، فحسّنت له نفسه قتل أخيه ، وشجعته عليه فقتله ، فأصبح من الخاسرين في الدنيا والآخرة وأيّ خسارةٍ أعظم من هذا ؟ فلما مات أخوه تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفنه ، فبعث الله غرابين فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ، فحفر له ثم حثى عليه فلما رآه سفّه نفسه أن يكون أعجز من الغراب في دفن أخيه ، فدفنه فعلاّه الله بندامة بعد خسران . ثم يستمر السياق مبيناً أنه من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلمًا وعدواناً شرع الله لبني إسرائيل وأعلمهم ، وجعله شريعة دائمة : أنه من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فسادٍ في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية ، فكأنّما قتل النّاس جميعاً ، لأنه لا فرق عنده بين نفسٍ ونفسٍ ، ومن أحياها أي : حرّم قتلها ، واعتقد ذلك ، فقد سلم النّاس كلُّهم منه بهذا الاعتبار . ومن ثمّ فكأنه أحيا الناس جميعاً بذلك . ثم بيّن الله - عز وجل - أنّ رسل بني إسرائيل قد جاءتهم بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ، ومع ذلك فإنّ كثيراً منهم متّصف بالإفساد في الأرض . ومن هنا نفهم أن قوله تعالى : ﴿ **واتل عليهم** ﴾ . أي : على اليهود قصة ابني آدم ، وما ترتب عليها من حكم قطعي لله في موضوع القتل ، وموقفهم من ذلك ، نفهم من هذا أنّ السّياق في هذه الفقرة مستمرٌّ في قضيّة نقض الميثاق ، في موضوع تشريعيّ ، هو عصمة دم الإنسان إلاّ بحق ، ونقضُ بني إسرائيل لهذا .

ثمّ ختم الله - عز وجل - هذا المقطع الذي قرّر فيه وجوب نصرة الرسل ، وحرمة الإفساد في الأرض ، كجزء من الميثاق ، بأنْ ذكر عقوبة حرب الله ورسوله ، وعقوبة الإفساد في الأرض وهو القتل أو الصلب ، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، أو النفي من الأرض بحسب جناية الجاني وأن هذه العقوبة لهم شرٌ وعارٌ ، ونكال وذلّة وعقوبة في عاجل الحياة الدّنيا ، ومع هذا الجزاء في الدنيا فإنّ لهم عذاب جهنّم يوم القيامة . واستثنى الله - عز وجل - من العقوبة التائبينَ قبل القدرة عليهم ، فإنّ من كمال

مغفرة الله ورحمته أن يقبل توبتهم ، وفي الموضوع تفصيلات وجزئيات سنراها بإذن الله . وبهذا ينتهي المقطع الثاني فلنعد إلى تفسيره تفسيراً حرفياً .

التفسير الحرفي :

﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً** ﴾ .

النَّقيب : هو الذي ينقِّب عن أحوال القوم ويفتِّش عنها . وقد أمر الله موسىٰ عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيباً ، يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمر به توثقةً عليهم ففعل . وقوله تعالى : (وبعثنا) ، يشير إلى أنه تعالى هو الذي عَيَّن هؤلاء الرؤساء وهو الذي اختار لكل سبط رئيساً ، وفي الإصحاح الأول من سفر العدد مما يسمونه التوارة حالياً بعد ذكر أسماء النقباء « فأخذ موسىٰ وهارون هؤلاء الرجال الذين تعيّنوا بأسمائهم » ﴿ **وقال الله إني معكم** ﴾ . أي : ناصركم ومعينكم وراعيكم . ﴿ **لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي** ﴾ جميعاً من غير تفريق بين أحد منهم ﴿ **وعزّرتموهم** ﴾ . أي : وعظّمتموهم أو ونصرتموهم بأن تردُّوا عنهم أعداءهم ، وتجاهدوا في سبيل دينهم . ﴿ **وأقرضتم الله قرضاً حسناً** ﴾ . أي : وأنفقتم في سبيل الله بلا منٍّ . أو : وفعلتم أنواع الخير كلها لله خالصة . ﴿ **لأكفِّرنَّ عنكم سيئاتكم** ﴾ . أي : ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها . ﴿ **ولأدخلنكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار** ﴾ وهذا أعظم المقصود ﴿ **فمن كفر بعد ذلك منكم** ﴾ . أي : فمن جحد بعد هذا الميثاق وعقده وتوكيده وشدّه . ﴿ **فقد ضلّ سواء السّبيل** ﴾ . أي : فقد أخطأ طريق الحق ، ومن كفر قبل ذلك فقد ضلّ سواء السّبيل أيضاً ، ولكنّ الضّلال بعده أظهر وأعظم . ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم** ﴾ . أي : فبنقضهم ميثاقهم أي فبسبب ذلك (وما) هنا مزيدة لإفادة تعظيم الأمر . ﴿ **لعَنّاهم** ﴾ . أي : طردناهم وأخرجناهم من رحمتنا . ﴿ **وجعلنا قلوبهم قاسية** ﴾ . أي : يابسة لا رحمة فيها ولا لين . ﴿ **يحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه** ﴾ . أي : يفسّرونه على غير ما أنزل ، وهذا بيان لأثر قسوة قلوبهم ، لأنّه لا قسوة في القلب أشد من قسوة ينبثق عنها الافتراء على الله وتغيير وحيه . ﴿ **ونسوا حظاً مما ذكّروا به** ﴾ . أي : وتركوا نصيباً جزيلاً ، وقسطاً وافياً منَ التوارة . أو أن الإغفال سُمّي نسياناً . ﴿ **ولا تزال** ﴾ يامحمد وكذلك المسلمون . ﴿ **تطّلع** ﴾ . أي : تَظْهر ﴿ **على خائنة منهم** ﴾ . أي : على خيانة أو على فَعلة ذات

خيانة أي : هذه عادتهم ، وكان عليها أسلافهم ، كانوا يخونون الرسل ، وهؤلاء يخونونك ويهمّون بالفتك بك . ﴿ **إلا قليلاً منهم** ﴾ وهم الذين آمنوا منهم وما أقلهم . ﴿ **فاعف عنهم واصفح** ﴾ . أي : اعف عن هذا القليل من أهل الإيمان ، وتجاوز عما سلف منهم ، فلا تؤاخذهم به ، كأدبك مع المؤمنين . هذا الذي حمل عليه النسفي هذين الأمرين . أما ابن كثير فقد جعل الأمرين في اليهود ونقل قول قتادة أن هذا منسوخ بآية القتال ، والحكم المستقر في هذا الموضوع أنّ اليهود إن كانوا ذمّة فخانوا حوكموا فعوقبوا بما يستحقون ، وإن كانوا حربيين معاهدين فخانوا فالحرب . أو كانوا حربيين فالحرب ضمن قدرة المسلمين ، وفي حدود إمكانياتهم ، وحسب المصلحة ، وقد يعفى عن بعض تصرفاتهم إن كانوا ذمة ، إذا كانت المصلحة في ذلك ، فموضوع النّسخ بعد هذا التقرير يبقى قضيّة اعتبارية بحسب سعة الفهم للنص ، وبحسب محمل الآية . ﴿ **إنّ الله يحب المحسنين** ﴾ الذين اجتمع لهم حسن العمل ، ومراقبة الله فيه ، والإخلاص لله في ذلك .

فوائد :

١ - نقل ابن إسحق أسماء نقباء بني إسرائيل حسب أسباطهم ، وقال ابن كثير وقد رأيت في السفر الرابع (أي : سفر العدد) من التوراة تعداد النقباء على أسباط بني إسرائيل ، وأسماء ابن كثير مخالفة لما ذكره ابن إسحق ، وما نقله ابن كثير قريب من الموجود حالياً في سفر العدد ، مما يدلُّ على أن نُسَخَ ما يسمّى بالتوارة كانت متوافرة خلال العصور الإسلامية ، وأن النقل منها وعنها كان متاحاً لعلمائنا .

٢ - لاحظنا أن الاثني عشر نقيباً كانوا معيّنين تعييناً ، ونلاحظ أنّ رسولنا عليه الصلاة والسلام قد طالب الأنصار ليلة العقبة الثانية أن يختاروا هم من بينهم اثني عشر نقيباً ، مما يدلُّ على أنّ الأصل في شريعتنا هو انتخاب القيادات ، وليس تعيينها ، وليس الكلام هنا في القيادات العسكرية ، والأمر واسع جداً ، وتحكمه قواعد متعدّدة ، وإنما أشرنا هذه الإشارة هنا حتى لا يفهم فاهم أنّ التعيين في غيبة الوحي هو الأصل .

٣ - لاحظنا أن الميثاق قد أخذ على بني إسرائيل بخمسة أشياء . الصلاة ، والزكاة ، والإيمان بالرُّسل ، ونصرتهم ، وفعل الخير ، وأنهم عوقبوا على النقض بقسوة القلب ، واللّعن ، وما من شيء أخذ عليهم به الميثاق إلا وقد أُخذ علينا ، فمن رأى من قلبه قسوة

فلينظر أيّ شيء قد فرّط به من هذه الأمور وغيرها ، لقد قست القلوب في عصرنا كثيراً فلنفتّش عما يلينها . ﴿ **ومن الذين قالوا إنّا نصارى** ﴾ . أي : ومن الذين سمّوا أنفسهم نصارى ويظهر أنّهم سمّوا أنفسهم كذلك ادّعاءً لنصر الله . ﴿ **أخذنا ميثاقهم** ﴾ لم يفصّل ماهيّة الميثاق الذي أخذ عليهم ، لأنّ الميثاق الذي أخذ على الأمم واحد ، فهو لا يحتاج إلى تفصيل . ﴿ **فنسوا حظاً مما ذكّروا به** ﴾ . أي : تركوه وأهملوه بل خالفوه . ومن ذلك التوحيد والشرائع . فعوقبوا على ذلك بما يلي . ﴿ **فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء** ﴾ . أي : فألصقنا وألزمنا بين فرق النّصارى المختلفة العدواة والبغضاء ، وهو عقاب مستمرٌّ بهم كما هو مشاهد . ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾ فهم لا يزالون متباغضين ، متعادين ، يكفّر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وكل فرقة تُحرمُ الأخرى من الجنة في زعمها ، ولا تدعها تلج معبدها ، والأمر فيهم هكذا إلى يوم القيامة . ﴿ **وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** ﴾ . أي : سيخبرهم يوم القيامة بما اقترفوه من الكذب على الله ، وعلى رسوله ، وعلى شريعته فيجازيهم .

فائدة :

دلّت الآية على أنّ نسيان جزء من الوحي الذي ينزله الله على أمّة تستحق به هذه الأمة العداوة والبغضاء . ولا شك أنّ أمتنا نسيت الكثير من الوحي المنزَّل ، ونحن نرى آثار هذا الترك عداءً وبغضاء بين المسلمين ، والترك الذي وقعت به أمتنا ترك عملي في الغالب ، إلا ما وقعت به بعض الفِرَق ، ومظهر هذا التّرك العملي أخذاً ببعض ونسياناً لبعض ، فلنقبل على هذا الدين ولنأخذه كله لعلّ الله يؤلف بين قلوبنا .

وبعد أن بيّن الله فيما مرّ من الفقرة نقض اليهود والنصارى للميثاق ، دعاهم إلى تلافي ذلك بالإيمان برسول الله ﷺ فقال : ﴿ **ياأهل الكتاب** ﴾ الخطاب لليهودِ والنّصارى . ﴿ **قد جاءكم رسولنا** ﴾ . أي : محمدٌ عليه الصلاة والسلام ﴿ **يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب** ﴾ من نحو صفة رسول الله ﷺ ، ومن نحو الرجم ، ومن نحو التوحيد والتنزيه ، وكثير من الشعائر والشرائع . ﴿ **ويعفو عن كثير** ﴾ . أي : مما تخفونه فلا يبيّنه لعدم حاجة الإنسانية إلى بيانه . قال ابن كثير في تفسيرها : ويسكت عن كثير ممّا غيّروه ولا فائدة في بيانه .

﴿ **قد جاءكم من الله نور** ﴾ النّور هنا محمدٌ ﷺ . لأنه يُهتدىٰ به ويقتدىٰ وفي

مكان آخر سماه الله سراجاً . فقال : ﴿ **وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾ (الأحزاب : ٤٦) ويمكن أن يراد به القرآن لكشفه ظلمات الكفر والشرك والحيرة والشك وغيز ذلك ولإبانتهِ ما كان خافياً على النّاس من الحق . ﴿ **وكتاب مبين** ﴾ . أي : واضح لأنه ظاهر الإعجاز ، وعلى أنّ النّور محمّد ﷺ يكون المعنى : قد جاءكم القدوة الصالحة ، والكتاب الواضح . وعلى أن النّور الكتاب يكون من باب عطف الموصوف على الصّفة . ﴿ **يهدي به الله** ﴾ الضمير في (به) راجع للقرآن . ﴿ **من اتبع رضوانه** ﴾ . أي : رضوان الله بالإيمان به ، وبرسله ، وبكتابه . ﴿ **سُبل السلام** ﴾ . أي : طريق السلامة والنجاة من عذاب الله . أو سبل الله التي توصل إلى رضوانه ومعرفته وجنته . ﴿ **ويخرجهم من الظُلمات إلى النوّر** ﴾ . أي : ظلمات الشرك والكفر ، والشك والنفاق ، والشهوة والفسوق ، إلى نور الإسلام والمعرفة . ﴿ **بإذنه** ﴾ . أي : بإرادته وتوفيقه . ﴿ **ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ . أي : ويرشدهم إلى الطريق الأقوم .

فوائد :

١ - في قوله تعالى : ﴿ **يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ...** ﴾ إشارة إلى أنه لا بد للاهتداء بكتاب الله من إيمان أولاً ، يستتبع ذلك اهتداء بكتاب الله ، يستتبع ذلك سير بالطرق الموصلة إلى رضوان الله ، يستتبع ذلك هداية إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الجنّة .

٢ - روى الحاكم بإسناد صححه عن ابن عباس قوله : « ومن كفر بالرّجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب ، أي قوله : ﴿ **ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب** ﴾ فكان الرجم مما أخفوه » وبهذه المناسبة ننقل مما يسمّونه التوارة حالياً ما هو مذكور فيها من حكم الرّجم للزاني : في سفر اللاويين الإصحاح العشرون . « كل إنسان من بني إسرائيل ومن الغرباء النازلين في إسرائيل أعطى من زرعه لمُولَك فإنّهُ يقتل ، يرجمه شعب الأرض بالحجارة » وفي سفر التثنية : الإصحاح الثاني والعشرين « ولكن إن كان هذا الأمر صحيحاً لم توجد عُذرة للفتاة ، يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها » وفي الإصحاح نفسه « إذا كانت فتاة

عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا » أقول في شريعتنا : إذا زنت العذراء والأعزب الذي لم يتزوج فإنهما يجلدان مائة جلدة أما المحصن والمحصنة فهما اللذان يرجمان إذا زنيا ..

﴿ **لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ . وأيُّ : كفر أفظع من هذا الكفر جَعْل البشر إلهاً . ﴿ **قل فمن يملك من الله شيئاً** ﴾ . أي : الأشياء كلها تحت قهره وسلطانه فمن يمنع من قدرته ومشيئته ؟ ﴿ **إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً** ﴾ . أي : إن أراد أن يهلك من زعموه إلهاً ، وأمّه ، والنّاس جميعاً ، والمعنى : أنَّ المسيح عبدٌ مخلوق كسائر العباد ، وذكر مَنْ في الأرض جميعاً في هذا السياق إشارة إلى أنَّ المسيح وأمّه من جنسهم ، لاتفاوت بينهما وبينهم من حيث المعنى ، وهذا يفيد أنّ من اشتمل عليه رحم الأمومية لايفارقه نقص البشرّية ، ومن لاحت عليه شواهد الحدثية لا يليق به نعت الربوبّية ، وأنّ الله لو قطع البقاء عن جميع ما أوجد لم يعد نقص إلى الصّمدية . ﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ فجميع الموجودات ملكه ومنهم المسيح وأمّه وأنّى تجتمع المملوكية مع الربوبّية ! ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ . أي : يخلق من ذكر وأنثى ، ويخلق من أنثى بلا ذكر ، ويخلق بلا ذكر ولا أنثى كما خلق آدم . ويخلق مباشرة . ويخلق بالأسباب وفي ذلك كله دليل عظمته ، وعلامة كمال قدرته ، والمشير إلى ربوبيته فكيف يستدل بشيء من ذلك على ربوبيّة غيره . ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ فله وحده الربوبية وهو وحده الإله . والسياق كله ردٌّ على النّصارى فيما زعموه من شأن المسيح . ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ . أي : نحن أعز عليه كالابن على الأب . كلٌّ من اليهود والنّصارى أدّعى هذه الدعوى ﴿ **قل فلِمَ يعذبكم بذنوبكم** ﴾ . أي : إن صحّ أنّكم أبناء الله وأحباؤه فلِمَ تعاقبون بذنوبكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ثمّ أكمل بقوله ﴿ **بل أنتم بشر ممن خلق** ﴾ . أي : أنتم خلق من خلقه لابنوه ، فلكم أسوة أمثالكم من بني آدم ، وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده . ﴿ **يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ وقد شاء أن يعذّب من مات على الكفر ؛ عدلاً ، وأن يغفر لمن تاب عن الكفر ؛ فضلاً ، ثم هو بعد أن يتوب من الكفر إن واقع المعصية فأمره إلى الله ، إن شاء أن يعفو وإن شاء أن يعذّب . ﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ وفي هذا تنبيه على عبودية المسيح لأن الملك والنبوة متنافيان . ﴿ **وإليه المصير** ﴾ . أي :

المرجع والمآب وفي هذا تنبيه ووعيد . ﴿ **ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا** ﴾ . أي : محمد عليه الصلاة السلام . ﴿ **يبيّن لكم** ﴾ شرائع الله ، وما كنتم تخفون ، وما كنتم فيه تختلفون ﴿ **على فترةٍ من الرسل** ﴾ . أي : جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل ، وانقطاع من الوحي . ﴿ **أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير** ﴾ . أي : لئلا تحتجوا بذلك . ﴿ **فقد جاءكم بشير ونذير** ﴾ بشير للمؤمنين ، ونذير للكافرين ، وفي الآية معنى الامتنان بأنّ الرّسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي ، وكانوا أحوج ما يكونون إليه . ليهشوا إليه ، ويعدُّوهُ أعظم نعمة من الله ، وتلزمهم الحجة ؛ فلا يقولون غدا بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم من غفلتهم . ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ ومن كمال قدرته أن يرسل محمداً ﷺ على مثل هذا الكمال ، ويعطيه مثل ما أعطاه . وأن يعاقب من عصاه . ويثيب من أطاعه . وبهذا تنتهي الفقرة الأولى من المقطع ، بعد أن عرضت ما أُخذ به العهد على بني إسرائيل ، وكيف أنهم نقضوه ، وبعد أن عرضت : أن العهد أخذ على النصارى ، وضربت لنا نماذج على نقضهم العهد في ادّعائهم أنّ المسيح هو الله ، وبعد أن فنّدت دعاواهم ، وأقامت عليهم الحجة بمتابعة رسول الله ﷺ ليتداركوا ما فاتهم من نقض المواثيق ، وأن ذلك هو وحده طريق النجاة والصراط المستقيم .

فوائد :

١ - قال ابن كثير ، وقد قال بعض شيوخ الصوفيين لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أنّ الحبيب لا يعذّب حبيبه ؟ فلم يردّ عليه . فتلا عليه الصوفي هذه الآية : ﴿ **قل فلِمَ يعذبكم بذنوبكم** ﴾ وهذا الذي قاله حسن وله شاهد في المسند للإمام أحمد حيث قال : عن أنس رضي الله عنه قال : مرّ النبي ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق ، فلما رأت أمّه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول ابني ! ابني ، وسعَتْ فأخذته . فقال القوم يارسول الله ما كانت هذه لتلقي ولدها في النّار . قال : فحفظهم النبي ﷺ فقال لا والله ما يلقي حبيبه في النار » تفرد به أحمد .

٢ - أخرج ابن إسحق عن ابن عباس قال : وأتى رسول الله ﷺ نعمان بن آصا وبحري بن عمرو ، وشاس بن عدي ، فكلّموه ، وكلّمهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الله وحذّرهم نقمته . فقالوا : ما تخوّفنا يامحمّد ، نحن والله أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى ، وأنزل الله فيهم ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ إلى آخر الآية رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

٣ ــ في صحيح البخاريّ أنّ رسول الله ﷺ قال : « أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبيّ » . قال ابن كثير : وهذا فيه ردٌّ على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبيٌّ يقال له خالد بن سنان . كما حكاه القضاعي وغيره .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ على فترة من الرّسل ﴾ قال ابن كثير : والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترةٍ من الرسل ، وطموسٍ من السُّبل ، وتغيير الأديان ، وكثرة عبادة الأوثان ، والنيران والصلبان . فكانت النعمة به أتم النِّعم ، والحاجة إليه أمر عمم ، فإنّ الفساد كان قد عمّ جميع البلاد ، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد ، إلا قليلاً من المتمسّكين ببقايا من دين الأنبياء والأقدمين ، من بعض أحبار اليهود وعبّاد النّصارى والصابئين كما قال الإمام أحمد . أن رسول الله ﷺ قال في خُطبةٍ خطبها ذات يوم . « وإنّ ربيّ أمرني أن أعلمكم ما جهلتم ممّا علّمني في يومي هذا كل مالٍ نحلته عبادي حلالٌ ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلّهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم ، وأَمَرَتْهم أن يشركوا بي مالم أُنَزِّل به سلطاناً . ثم إنّ الله – عز وجل – نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من بني إسرائيل ، وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء . تقرؤه نائماً ويقظاناً . ثم إنّ الله أمرني أن أحرِّق قريشاً فقلت : يارب إذن يثْلَغُوا[1] رأسي فيدعوه خُبْزَةً . فقال : استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نُغْزِكَ ، وأنفق عليهم فسننفق عليك ، وابعث جنداً نبعث خمسة أمثاله ، وقاتل بمن أطاعك مَنْ عصاك ، وأهل الجنّة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم ، ورجل عفيف فقير متصدق . وأهل النّار خمسة : الضعيف الذي لازَبْرَ له[2] والذين هم فيكم تبع أو (تبعاً) – شكَّ يحيا – لا يبتغون أهلاً ولا مالاً . والخائن الذي لايخفى له طمع وإن دقّ إلا خانه ، ورجل لايصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك ، وذكر البخل أو الكذب والشنظير : الفاحش ... والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله « وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من بني إسرائيل » .

وفي لفظ مسلم «من أهل الكتاب». أقول: اليهودي الذي لم يؤمن بعيسىٰ بعد بعثة

---

(١) – يثلغوا : يشدخوا . ويدعوه خبزة : أي مكسورة كالخبزة .

(٢) – لا زبر له : أي لا عقل له ينهاه عن المعصية

عيسى كافر ، فبقايا أهل الكتاب هم الذين آمنوا بحق ، وليس عندهم ناقض ينقض إيمانهم .

٥ - إن ما يسمى بالكتاب المقدس عند النصارى يتضمن ما يسمى بالعهد الجديد ، والعهد الجديد يشمل الأناجيل الأربعة المعتمدة عند نصارى عصرنا ، وأعمال الرّسل ، والرسائل ، والدّارس للعهد الجديد يلاحظ ملاحظة مهمّة هي : أنّ آثار عيسى ، وحوارييه ، ومدارسهم ، وتلاميذهم ، كلها تكاد تكون معدومة فيه ، فالعهد الجديد كلّه إنما هو أثر مدرسة بولس وحدها ، مع أن بولس ليس من الحواريين ، ولم يتتلمذ على سمعان بطرس الحواريّ الأول إلا خمسة عشر يوماً ، على حسب ما يذكر في رسائله .

وفي رسائله يذكر أنه كان يبشر بإنجيل خاص به لم يتلقه عن أحد ، وإنما عن المسيح مباشرة . ويذكر في رسائله أنه اختلف مع برنابا ، ويهاجم في هذه الرسائل سمعان بطرس ويتهمه ، ويهاجم في رسائله الذين يختلفون معه . ويدافع في رسائله عن نفسه كثيراً أمام هجمات ضدّه ، كل ذلك يشير إلى أن دين المسيح عليه السلام كما ورّثه لتلاميذه قد اغتاله بولس هذا ، وأنّ مدرسة بولس هذه قد تغلبت واضطهَدَت في النهاية مخالفيها ، وقتلتهم فيما بعد ، ثم هي انقسمت على نفسها الانقسامات الكثيرة ، والمتمثلة بالكنائس المتعددة التي تكفّر كل منها الأخرى ، وتعاديها أشد العداء ، نقول هذا كله بمناسبة ما مرَّ معنا من آيات حول النصارى خاصة ، وفي هذا العهد الجديد الذي هو كله أثر من آثار مدرسة بولس نجد كثيراً مثل تعبير أن (المسيح هو الرب ، وهو الله) وكثيراً ما تجد (تعبير أبناء الله وأحبابه) . ومن كلام بولس هذا كما ورد في رسالته إلى أهل غلاطية في الإصحاح الأول « وأعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بشّرت به أنه ليس بحسب إنسان لأني لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمْتُهُ بل بإعلان يسوع المسيح » وفي الإصحاح الثاني منها . « ولكن لما أتى بطرس (تلميذ المسيح الأول) إلى أنطاكية قاومتُه مواجهة لأنه كان ملوماً ، ومن مقدمة رسالته إلى أهل أفسس .(نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح) ... » . ومن كلامه في الإصحاح الخامس من هذه الرسالة . « فكونوا متمثلين بالله كأولادٍ أحِبَّاء ... » . والتعبير عن المسيح بالرب وإعطاؤه كل خصائص الألوهية وحقوقها أكثر من أن يحصى في العهد الجديد كله .

ولننتقل الآن إلى الفقرة الثانية في هذا المقطع لتفسيرها تفسيراً حرفياً .

﴿ **وإذ قال موسىٰ لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ أمرهم أن يذكروا نعمة الله إجمالاً ثم ذكّرهم بثلاثة منها . ﴿ **إذ جعل فيكم أنبياء** ﴾ كيوسف وموسىٰ وهارون عليهم السلام . ﴿ **وجعلكم ملوكاً** ﴾ . أي : أحراراً بعد إذ كانوا مستعبدين مستذلين في أيدي القبط . ﴿ **وآتاكم مالم يؤتِ أحداً من العالمين** ﴾ من فلق البحر ، وإغراق العدو ، وإنزال المنّ والسّلوى ، وتظليل الغمام ، ونحو ذلك من الأمور العظام ، والمعجزات الكبيرة . مما لم تُؤتَه أمةٌ من الأمم المعاصرة لهم . قال ابن كثير : وإلا فهذه الأمة أشرف منهم ، وأفضل عند الله ، وأكمل شريعة ، وأقوم منهاجاً ، وأكرم نبياً ، وأعظم ملوكاً ، وأغزر أرزاقاً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وأوسع مملكة ، وأدوم عزاً .

ثم بنىٰ موسىٰ عليه السّلام على تذكّر النعمة أمراً ونهياً فقال : ﴿ **ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة** ﴾ . أي : المطهّرة . ﴿ **التي كتب الله لكم** ﴾ . أي : قسمها لكم أو سمّاها أو كتبها لكم في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم . ﴿ **ولا ترتدُّوا على أدباركم** ﴾ . أي : ولا ترجعوا على أعقابكم مُدْبرين منهزمين من خوف سكّان الأرض المباركة أو لا ترتدوا على أدباركم في دينكم . ﴿ **فتنقلبوا خاسرين** ﴾ . أي : فترجعوا خاسرين ثواب الدُّنيا والآخرة والأرض المباركة هنا : هي أرض بيت المقدس وما حولها .

﴿ **قالوا ياموسىٰ إنّ فيها قوماً جبّارين** ﴾ الجبار : هو العاتي الذي يجبر الناس على مايريد ﴿ **وإنا لن ندخلها** ﴾ . أي : بالقتال ﴿ **حتى يخرجوا منها** ﴾ أي : بغير قتال . ﴿ **فإن يخرجوا منها** ﴾ . أي : بلاقتال ﴿ **فإنا داخلون** ﴾ إلى الأرض المباركة حينئذ . ﴿ **قال رجلان من الذين يخافون** ﴾ . أي : من الذين يخشون الله فكأنه قال : رجلان من المتقين . ﴿ **أنْعَمَ الله عليهما** ﴾ بنعمة التقوى والخوف منه . ﴿ **ادخلوا عليهم الباب** ﴾ . أي : باب المدينة . ﴿ **فإذا دخلتموه فإنكم غالبون** ﴾ أي : كانت الغلبة لكم . ﴿ **وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ إذ الإيمان به يقتضي التوكّل عليه والتوكّل : قطع العلائق القلبية مع غير الله وترك التملّق بالباطل للخلائق . ﴿ **قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها** ﴾ نفوا دخولهم إليها في المستقبل على وجه التوكيد ، ثم أكدوا النفي بذكر الأبد ، ثم قيدّوه ببقاء الجبارين فيها . ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههُنا قاعدون** ﴾ . أي : ماكثون لن نذهب معك لقتال ، فلما عصوه وخالفوه . ﴿ **قال رب إني لا أملك** ﴾ لنصرة دينك ﴿ **إلا نفسي وأخي** ﴾ . أي :

هارون وهذا من البث والشكوى إلى الله التي بمثلها تستجلب الرّحمة وتستنزل النصرة . ﴿ **فافْرُق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ . أي : فافصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما وعدتنا وتحكم عليهم بما هم أهله ، وهو في معنى الدعاء عليهم ، أو فباعد بيننا وبينهم ، وخلّصنا من صحبتهم . ﴿ **قال فإنها** ﴾ . أي الأرض المقدسة . ﴿ **محرّمةٌ عليهم** ﴾ . أي : لا يدخلونها وهو تحريم منع لا تحريم تعبّد ، كتبها لهم بشرط الجهاد فلما أبَوْا مُنِعُوا منها ﴿ **أربعين سنة يتيهون في الأرض** ﴾ . أي : يسيرون فيها متحيرين .. ﴿ **فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ . أي فلا تحزن عليهم لأنهم فاسقون .

فوائد :

١ - مِنْ ذكر الفسوق في نهاية هذه الفقرة مرتين نعرف مفتاح السّياق ؛ فقد رأينا أن سورة المائدة كلها تفصّل من سورة البقرة الآيتين اللتين فيهما . ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ... ﴾ ومن هذه المجموعة نفهم أن النّعمة ينبغي أن يقابلها جهاد ، وأنّ ترك الجهاد حيث فرض فسوق ، وأنه مع الفسوق لا اهتداء بكتاب الله . فالفقرة تبرز أهميّة الجهاد في قضيّة الإيمان ، وأما محل هذه الفقرة في سياقها القريب ، فإنها مرتبطة بنقض الميثاق ، إذ من الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل نصرة الرسل ، وقد تخلى بنو إسرائيل عن نصرة موسىٰ عليه السلام فاستحقوا لقب الفسوق ، واستحقوا العقوبة الدنيوية .

٢ - قال ابن كثير تعليقاً على هذه القصّة المذكورة في هذه المجموعة : وهذه القصّة تضمّنت تقريع اليهود ، وبيان فضائحهم لله ولرسوله ، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ، ومجالدتهم ، ومقاتلتهم ، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ ، وكليمه ، وصفيّه من خلقه في ذلك ، وهو يعدهم بالنّصرة والظّفر بأعدائهم ، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوّهم فرعون ، من العذاب ، والنّكال ، والغرق له ، ولجنوده في اليمّ ، وهم ينظرون ؛ لتقرّ به أعينهم وما بالعهد من قدم ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم . فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام ، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ولا يسترها الذيل . هذا وهُم في جهلهم يعمهون . وفي غيّهم يترددون . وهم البُغضاء إلى الله وأعداؤه . ويقولون مع ذلك نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقبّح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود . وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النّار ذات الوقود ، ويُقضى لهم فيها بتأبيد الخلود ، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود .

٣ – ينقل المفسرون في هذا المقام كلاماً كثيراً ، منه الخياليُّ ، ومنه الذي له أصل في كتب بني إسرائيل ؛ مما يدلّ على أن علماءنا قد اطلعوا اطّلاعاً متيناً على كتب بني إسرائيل ، والأصل الذي يمكن أن يكونوا قد نقلوا عنه هو كتب العهد القديم ، أو التلمود . وهذه القصّة مذكورة في التوارة الحالية ، في سفر العدد (الإصحاح الثالث عشر ، والإصحاح الرابع عشر) ويُشار إلى هذا الموضوع كثيراً في بقية التوارة ، وتُسمّي التوارة الحالية الرجلين المذكورين في القرآن وهما كالب بن يَفُنَّة ، ويشوع بن نون ، ومما ورد في (الإصحاح الرابع عشر) « وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر » وفي أواخر سفر العدد ، وفي سفر التثنية ، قصة التيه ، وما كان لهم فيه . ومن كلام موسىٰ عليه السلام في التثنية (الإصحاح التاسع والعشرين) . « فقد سرت بكم أربعين سنة في البريّة لم تبل ثيابكم عليكم ونعلك لم تبل على رجلك » وفي الإصحاح الحادي والثلاثين « وأوْصى (أي موسىٰ) يشوع بن نون وقال تشدّد وتشجّع لأنك أنت تدخل ببني إسرائيل الأرض التي أقسمت لهم عنها وأنا أكون معك » وتحدِّد التوراة الحالية المكان الذي كان فيه التّيه وتشير إشارات إلى طبيعة التيه من مثل ما ذكر في سفر التثنية الإصحاح الثاني : « ثمّ تحوّلنا وارتحلنا إلى البريّة على طريق بحر سوف ، كما كلّمني الرب ، ودُرْنا بجبل سعير أياماً كثيرة ثم كلّمني الرّبُّ قائلا كفاكم دوران بهذا الجبل تحوّلوا نحو الشمال ... » وفي الإصحاح نفسه « الآن قوموا واعبروا وادي زارد . فعبرنا وادي زارد والأيام التي سرنا فيها من قادش برنيع حتى عبرنا وادي زارد كانت ثماني وثلاثين سنة حتى فني كل الجيل رجال الحرب من وسط المحلة ... » .

وإذ لم يكن عندنا عن رسولنا عليه الصلاة والسلام تفصيل في هذه الأمور فإننا نكتفي بالإحالة على ما يمكن أن يكون مصدراً ، مع المعرفة بحاله من احتمال التغيير والتبديل كما ذكرنا في سورة البقرة ، والرجلان اللذان ذكرهما القرآن كانا اثنين من اثني عشر رجلاً على عدد أسباط بني إسرائيل أرسلهم موسىٰ عليه السلام ، ليتجسسوا الأرض ، ويعرفوها فثبط العشرة ، وقال يوشع وكالب قَوْلَةَ الحق فكافأهما الله بأن كانا الوحيدين اللذين عاشا ليريا الفتح ، وكافأ الله كلاً منهما مكافأة خاصة . أما يوشع فكان خليفة موسى عليه السلام وكان على يده الفتح وأما كالب فقد كوفىء مكافآت تذكرها التوارة ، ومن قارن بين موقف أصحاب موسىٰ عليه السلام وأصحاب رسولنا ﷺ يوم بدر – كما سترى – عرف الفضل لأهله ، والحكمة في عقوبتهم بالتيه أربعين

سنة أن يموت الجيل الذي خرج من مصر . الجيل الذي تربى في الذُّل ، والقهر ، وطراوة العيش ؛ لكي ينشأ خلالها جيل أشدُّ ، وأقسى ، وأقدر على تحمل لأْواء الجهاد .

المعنى الحرفي للفقرة الثالثة :

﴿ **واتل عليهم** ﴾ . أي : واتل على أهل الكتاب هذه القصة ليروا ما يجرّ إليه الحسد إذ جرّ في هذه القصة إلى قضيتين : قطع ما أمر الله به أن يوصل وهو الرحم ، والقتل الذي هو أفظع أنواع الإفساد في الأرض ، وإذا ربطنا هذا الموضوع في السياق الكلي الذي عرّفنا أن نقض الميثاق وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد في الأرض ، قضايا مترابطة ، وأنّ تحرير الإنسان منها هو الطريق إلى الهداية ، وأن سورة المائدة تفصّل في ذلك ، ثم ربطنا بين هذه الفقرة وبين مقطعها فإننا ندرك كيف أنّ هذه القصة تخدم أكثر من قضية لها صلة في السياق ، فهي تخدم في موضوع تحرير الإنسان من الإفساد في الأرض ، وتخدم في موضوع نصرة الرّسل إذ لم يبتعد من ابتعد من أهل الكتاب عن الإيمان برسول الله ﷺ إلا أثراً عن الحسد ، وتخدم في التحرير من قطع ما أمر الله به أن يوصل إلى غير ذلك : ﴿ **نبأ ابني آدم** ﴾ . أي : خبرهما وأكثر المفسرين على أنّ المراد بهما هابيل وقابيل ابني آدم من صلبه ويشهد لذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره أنّ رسول الله ﷺ قال : « لا تُقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سنّ القتل » . ﴿ **بالحق** ﴾ . أي : خبراً ملتبساً بالصدق ، أو تلاوة ملتبسة بالصدق والصحة ، أو واتل عليهم وأنت محقّ صادق . وذكر الحق في هذا السياق مشعر بأنّ النص القرآني لا يحتاج إلى ما يؤيده من غيره لأنه حجة على كل شيء ، وليس من شيء حجة عليه . ﴿ **إذ قرّبا قرباناً** ﴾ القربان : ما يُتقرّب به إلى الله من نسيكة أو صدقة ومعنى النص إذ قرب كل واحدٍ منهما قربانه . ﴿ **فتُقبّل من أحدهما** ﴾ . أي : قربانه وهو هابيل . ﴿ **ولم يُتقبّل من الآخر** ﴾ أي : قربانه وهو قابيل . ﴿ **قال لأقتلنّك** ﴾ القائل هو قابيل ﴿ **قال إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ كأن هذا جواب السؤال قال لِمَ تقتلني ؟ قال لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قرباني . فقال : إنما يتقبل الله من المتقين . وأنت غير مُتّقٍ . فإنما أتيتَ من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قِبَلي ﴿ **لئن بسطت** ﴾ . أي : مددت ﴿ **إليّ يدك لتقتلني ما أنا باسط** ﴾ . أي : بمادٍ ﴿ **يديَ إليك لأقتلك** ﴾ . أي : لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة ، ثمّ بيّن علّة امتناعه عن القتل بقوله : ﴿ **إني**

أخاف الله رب العالمين **﴿ إني أريد أن تبوء ﴾** . أي : أن تتحمّل أو ترجع **﴿ بإثمي ﴾** . أي : بإثم قتلي إذا قتلتني . **﴿ وإثمك ﴾** الذي لأجله لم يتقبل قربانك وهو عقوق الأب والحسد والحقد . **﴿ فتكون من أصحاب النار وذلك جزاءُ الظالمين ﴾** . أي : النار جزاؤهم . **﴿ فطوَّعت له نفسه قتل أخيه ﴾** . أي : فحسّنته له وسوّلته له وشجّعته **﴿ فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾** بسفكه الدم الحرام ، وتذكّرنا كلمةُ الخاسرين هنا بالسياق القرآني العام إذ تنتهي آيتا البقرة اللتان هما محور سورة المائدة بلفظ **﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾** دلّ ذلك على أنّ ما فعله قابيل هو ذروة الضّلال إذ هو نقض ميثاق ، وقطع رحم ، وإفساد في الأرض ، ومن ثمّ كان من الخاسرين **﴿ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريَهُ ﴾** . أي : الله أو الغراب . **﴿ كيف يواري سوأة أخيه ﴾** . أي : عورته ومالا يجوز أن ينكشف من جسده . **﴿ قال ياويلتىٰ أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ﴾** . أي : بدفنه . **﴿ فأصبح من النّادمين ﴾** على عجزه أو على قتله ، وإذا كان ندمهُ على قتله - والنّدم في شريعتنا توبة - فهل يعني هذا أنّ النّدم لم يكن توبة يومها ؟ أو أنه توبة ولكن الله لم يقبل توبته لفظيع جنايته وسنّته هذه الجريمة ؟ كل يحتمله المعنى .

فوائد :

١ - يذكر المفسرون كلاماً كثيراً حول هذه القصة وحيثياتها ولم نجد في العهد القديم والجديد ما نذكره حول السّبب الذي من أجله كان القربان ولكن ابن كثير ينقل بإسنادٍ جيد عن ابن عباس كلاماً نذكره للاستئناس إذ ليس عندنا نص عن رسولنا عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن ، وهذه رواية ابن عباس كما يرويها سعيد بن جبير . « قال نُهي (أي آدم) أن تنكح المرأة أخاها توأمها . وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها ، وكان يولد في كل بطن رجل وامرأة ، فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة ، وولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخو الدميمة : أنكحني أختك ، وأنكحك أختي . فقال : لا أنا أحق بأختي ، فقرّبا قرباناً فتُقبِّل من صاحب الكبش ولم يتُقبّل من صاحب الزرع فقتلهُ » وقال عبدالله بن عمرو : وايم الله إن كان لأشد الرجلين ، ولكن منعه التحرّج يعني الورع .

٢ - بمناسبة ذكر هذه القضية يثير الفقهاء مسألةً ، وهي : ماحكم دفاع الإنسان

عن نفسه ؟ . فبعض الفقهاء يرى أن دفاع الإنسان عن نفسه واجب . وبناءً عليه ، فإنهم يعللون عدم دفع هابيل عن نفسه ، إما لأنّ الدّفع لم يكن مباحاً ، أو أن قابيل قتلهُ غدراً .

٣ - بمناسبة هذه القصة إليك هذه الأحاديث التي لها صلة بموضوعها :

أ - قال ابن كثير : وقد ورد في الحديث أنّ النبي ﷺ قال: « ما من ذنب أجدر أن يعجّل الله عقوبته في الدنيا مع مايدّخر لصاحِبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا .

ب - روى عبد الرزاق عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ابني آدم عليه السلام ضربا لهذه الأمّة مثلاً فخذوه بالخير منهما » .

جـ - في الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا : يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه » .

د - قال الإمام أحمد إنّ سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من السّاعي » . قال : أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يدهُ إليّ ليقتلني ؟ فقال « كن كابن آدم » .

هـ - قال الإمام أحمد : إنّ أبا ذر قال : ركب النبيّ ﷺ حماراً وأردفني خلفه وقال : ياأباذر أرأيت إنْ أصاب النّاس جوع شديد لاتستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال « تعفّف » . قال : « ياأباذر أرأيت إنْ أصاب النّاس موتٌ شديد يكون البيت فيه (يعني القبر) بالعبد كيف تصنع ؟ » قلت الله ورسوله أعلم . قال : « اصبر » . قال : « ياأباذر أرأيت إن قتل النّاس بعضُهم بعضاً ، حتى تغرق حجارة الزيت (موضع كان بالمدينة) من الدّماء كيف تصنع ؟ » قلت ، الله ورسوله أعلم . قال : « اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك » . قال : فإن لم أترك ؟ قال : « فأت من أنت منهم فكن منهم » . قال : فآخذ سلاحي ؟ قال : « فإذا تشاركهم فيما هم فيه ولكن إذا خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك كي يبوء بإثمه وإثمك » رواه مسلم .

و - أخرج ابن مردويه : عن منصور عن ربعيّ قال : كنّا في جنازة حذيفة فسمعت رجلًا يقول . سمعت هذا يقول في ناسٍ مما سمعت من رسول الله ﷺ : « لئن اقتتلتم لأنظرنّ إلى أقصى بيت في داري فَلألجنّه ، فلئن دخل عليّ فلان ، لأ قولن : ها ، بُؤ بإثمي وإثمك فأكون كخير ابني آدم » . وقال أيوب السختياني : إنّ أول من أخذ بهذه الآية من الأمّة ﴿ **لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يَدِيَ إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين** ﴾ لعثمانُ بن عفّان رضي الله عنه . رواه ابن أبي حاتم .

﴿ **من أجل ذلك** ﴾ أي : بسبب القتل المذكور . ﴿ **كتبنا على بني إسرائيل** ﴾ خصّهم بالذكر وإن كان حكماً مشتركاً في كل شريعة أنزلها الله لأن التوراة أول كتاب سماوي نصَّ عليه . ﴿ **أنه من قتل نفساً بغير نفس** ﴾ . أي : من قتل نفساً بغير قتل نفس . ﴿ **أو فسادٍ في الأرض** ﴾ . أي : أو بغير فسادٍ في الأرض كالشرك ، وقطع الطريق ، وكل فساد يوجب القتل . ﴿ **فكأنّما قتل الناس جميعاً** ﴾ . أي : في الذنب لأن الاعتداء على نفس . اعتداء على النّفوس كلها . ﴿ **ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً** ﴾ . أي : ومن استنقذها من أسباب الهلكة ، من قتل ، أو غرق ، أو هدم ، أو غير ذلك فكأنّما أحيا النّاس ، جعل قتل الواحد كقتل الجميع ، وكذلك الإحياء ، ترغيباً وترهيباً ، لأنّ المتعرض لقتل النفس إذا تصوّر أنّ قتلها كقتل النّاس جميعاً . عظُم ذلك عليه فثبّطه ، وكذا الذي أراد إحياءها ، إذا تصوّر أنّ حكم إحياء نفس ، حكم إحياء جميع الناس رغب في إحيائها قال قتادة : عظيم والله وزرها ، عظيم والله أجرها .

﴿ **ولقد جاءتهم** ﴾ أي : بني إسرائيل ﴿ **رسلنا بالبينات** ﴾ أي : بالآيات الواضحات ﴿ **ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك** ﴾ أي : بعد مجيء الرسل بالآيات ﴿ **في الأرض لمسرفون** ﴾ أي : لمتجاوزون الحدَّ ، ومن ذلك القتل ، لا يبالون بفظاعته ؛ حتى إنهم قتلوا الأنبياء . وبعد أن قرّر الله شناعة القتل إلاّ في حالتين : حالة القصاص ، وحالة الإفساد في الأرض . قرّر في الآية التالية : أنّ الذين يحاربون الله ورسوله ، ويفسدون في الأرض ، يستحقون القتل فقال . ﴿ **إنّما جزاء الذين يحاربون الله** ﴾ بمحاربة دينه ، وكتابه ، وشريعته ، وأوليائه . ﴿ **ورسوله ويسعون في الأرض فساداً** ﴾ . أي : ويسعون في الأرض مفسدين ، بالصدِّ عن دين الله ، والسير في مسالك الشياطين . ﴿ **أن يُقَتَّلوا** ﴾ دون صلب وقطع . ﴿ **أو يصلّبوا** ﴾ مع القتل . ﴿ **أو تُقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف** ﴾. أي : مختلفة اليد اليمين مع الرجل اليسرى . ﴿ **أو يُنفوا من الأرض** ﴾ . أي : أن يحبسوا ﴿ **ذلك** ﴾ . أي : المذكور من العقوبات . ﴿ **لهم**

خزي في الدنيا ﴾ . أي : ذلٌّ وفضيحة . ﴿ **ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم** ﴾ النّار . ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ . أي : فتسقط عنهم هذه الحدود إلا ما هو حق العباد . ﴿ **فاعلموا أن الله غفور رحيم** ﴾ يغفر لهم بالتّوبة ويرحمهم فلا يعذبهم .

فوائد :

١ - قصة ابني آدم هذه موجودة في الإصحاح الرابع من سفر التكوين من أسفار التوارة الحالية وفيه : « وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين .. ثم عادت فولدت أخاه هابيل وكان هابيل راعياً للغنم ، وكان قايين عاملاً في الأرض ، وحدث بعد أيام أن قايين قدّم من أثمار الأرض قرباناً للربّ ، وقدّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها ، فنظر الربُّ إلى هابيل وقربانه ، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر ، فاغتاظ قايين .. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله .. » والملاحظ أن القربان لم يكن سببه الزواج في هذه الرواية وأن القاتل اسمه قايين » بالنّون .

٢ - في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج في التوراة هذا القول « من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً » .

٣ - قال سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى : ﴿ **فكأنما قتل الناس جميعاً** ... ﴾ من استحّل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً ، ومن حرّم دم مسلم فكأنّما حرّم دماء النّاس جميعاً » وقال ابن المبارك ... عن سليمان بن علي الربعي قال : قلت للحسن هذه الآية لنا ياأبا سعيد كما كانت لبني إسرائيل فقال : أي والذي لا إله غيره كما كانت لبني إسرائيل ، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا » .

٤ - روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو قال : جاء حمزة بن عبدالمطلب إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله اجعلني على شيء أعيش به فقال رسول الله ﷺ : « ياحمزة نفس تحييها أحبُّ إليك أم نفس تميتها ؟ قال بل نفس أحييها قال عليك بنفسك » .

٥ - في فهم آية ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** ... ﴾ اتجاهان : الاتجاه الذي يتوسّع في فهم معنى المحاربة والإفساد ، فالمحاربة في الأصل : هي المضادّة والمخالفة ، وهي صادقة على الكفر ، وعلى قطع الطريق ، وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد

في الأرض : يطلق على أنواع من الشر ، حتى قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب إنّ قبض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض ، فالذين توسعوا في الفهم أعطوا الإمام حق التعزير في كل جريمة ، هي من هذا الباب ، وأطلقوا يده في العقوبة لاستئصالها بالقتل وبغيره ، مما هو مذكور في الآية . والاتجاه الثاني : الذي ضيّق فهم الآية فحملها على قطع الطريق ، وحمل العقوبات فيها على تصرفات ، فإنْ قتل فقط قُتل ، وإن قتل وأخذ المال ، صُلب ، وإن أخذ المال فقط قُطعت يده ورجله من خلاف ، وإن أخاف الناس فقط سُجن ، والذين توسعوا في فهم الآية لاينفون انطباقها على ما ذهب إليه الآخرون ، بل يثبتون ما أثبتوه ويتوسعون . وهذه الآية هي أصل حدّ الحرابة الذي يُذكر عادة في كتب الفقه في كتاب الحدود فليراجع هناك .

٦ - في سبب نزول آية الحرابة نذكر الروايات التالية :

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك « أن نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام ، فاستوخموا الأرض (أي المدينة) ، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال : « ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبوا من أبوالها وألبانها » فقالوا : بلى . فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا ، فقتلوا الراعي وطردوا الإبل ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ؛ فبعث في آثارهم فأدركوا فجيء بهم ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا . لفظ مسلم . (من عكل أو عُرَينة) ، وفي لفظ ، (وألقوا في الحرة فجعلوا يستسقون فلا يُسْقَون) . وفي لفظ لمسلم ، (ولم يحسمهم) ، وعند البخاري قال أبوقلابة : فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله .

وقال حمّاد بن سلمة عن أنس بن مالك : أن ناساً من عُرَينة قدموا المدينة فاجتووها ، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة ، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا ، فصحُّوا فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعي ، وساقوا الإبل ، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم فجيء بهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمر أعينهم وألقاهم في الحرّة ، قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا ، ونزلت ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** ﴾ الآية . وقد رواه أبوداود والترمذي والنسائي وابن مردويه وهذا لفظه ، وقال الترمذي حسن صحيح .

٧ - وهل آية المحاربة عامّة في المشركين والمسلمين ؟ أو أنها خاصة في الكافرين ،

فمن تاب منهم من قبل أن نقدر عليه لم يكن عليه سبيل ، وليست تحرز هذه الآيةُ الرجلَ المسلم من الحدِّ ، إنْ قتل أو أفسد في الأرض ، أو حارب الله ورسوله ، ثم لحق بالكفار قبل أن يُقدر عليه ، ثم تاب لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحدّ الذي أصاب . قال ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات .

٨ - احتج بعموم آية المحاربة على أنّ حكم المحاربة لمن قطع السبيل وأخاف النّاس في الأمصار وفي السبلان على السواء ، لقوله تعالى ﴿ **ويسعون في الأرض فساداً** ﴾ وهذا مذهب مالك ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، حتى قال مالك في الذي يقتل الرجل ، فيخدعه حتى يدخله بيتا ، ويأخذ ما معه ، أن هذه محاربة ، ودمه إلى السلطان ، لا إلى وليّ المقتول ، ولا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل . وقال أبوحنيفة وأصحابه : لاتكون المحاربة إلا في الطرقات ، فأمّا في الأمصار فلا ، لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث ، بخلاف الطريق ؛ لبعده ممّن يغيثه ويعينه .

٩ - قال ابن عباس وغيره : من شهر السلاح في فئة الإسلام ، وأخاف السّبيل ، ثم ظُفر به وقُدر عليه ، فإمام المسلمين فيه بالخيار ، إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله ، وقال الجمهور هذه الآية منزلة على أحوال من إذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصُلبوا . وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا . وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف . وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض .

١٠ - قال ابن كثير : واختلفوا هل يصلب حياً ويترك يموت بمنعه من الطعام والشراب ، أو بقتله برمح أو نحوه ، أو يقتل أولاً ثم يصلب تنكيلاً وتشديداً بغيره من المفسدين ؟ وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل أو يترك حتى يسيل صديده ؟ في ذلك كله خلاف محرّر في موضعه . وبالله الثقة وعليه التكلان .

١١- وفي قوله تعالى : ﴿ **أو ينفوا من الأرض** ﴾ قال ابن كثير ، قال بعضهم : هو أن يطلب حتى يقدر عليه ، فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام . رواه ابن جرير عن ابن عباس ، وأنس بن مالك . وسعيد بن جبير . والضحاك ، والربيع بن أنس ، والزُهري ، والليث بن سعد ، ومالك بن أنس : وقال آخرون : هو أن يُنفىْ من بلده إلى بلد آخر ، أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية . وقال الشعبي : ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله . وقال عطاء الخراساني : ينفى من جند إلى

جند سنين ، ولا يُخرج من دار الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبير ، وأبوالشعثاء ، والحسن ، والزهري ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان : أن ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام وقال آخرون : المراد بالنفي ههنا السجن . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ، واختار ابن جرير أنّ المراد بالنفي ههنا : أنْ يُخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه .

١٢ - يلاحظ من الآية أنّ جزاء الحرابة جزاء دنيوي وأخروي ، فأمّا في أهل الكفر فظاهر ، وأما في أهل الإسلام فهذا محمولٌ على من استحلّ الحرابة فكفر ؛ لأنّ النّصوص تفيد أنّ المسلم إذا أصاب حداً فأقيم عليه فالله لايجمع عليه عقوبتين . ومن النّصوص في هذا ما ورد في صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النّساء ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا . ولا يَعْضَه(١) بعضنا بعضاً ، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفّارة له ، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه » .

وعن عليٍّ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أذنب ذنباً في الدنيا فعوقب به فالله أعدل من أن يثنّي عقوبته على عبده ، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه ، فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه » . رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن غريب ، وبعضهم حمل اجتماع العقوبتين في أهل الإسلام إذا كانت حرابتهم أثراً عن عقيدة فاسدة كحال الخوارج .

١٣ - مَن قطع السبيل من أهل الإسلام إذا تاب قبل القدرة عليه ، وكان قد قَتل وأخذ المال في شأنه اتجاهان : **الاتجاه الأول** : عدم سقوط حق العباد وهو الذي ذكرناه في التفسير الحرفي وهو اتجاه الحنفية . **الاتجاه الثاني** : اتجاه الشافعية أنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرِجْل . وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان : قال ابن كثير : وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة ثم نقل ثلاثة قصص تفيد هذا وهذه هي :

أ - أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي ، قال : كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة وكان قد أفسد في الأرض وحارب ، فكلّم رجالاً من قريش منهم الحسن بن

---

(١) أي : لا يرميه بالبهتان والكذب .

عليّ ، وابن عباس ، وعبدالله بن جعفر ، فكلّموا علياً فيه فلم يُؤمنه ، فأتى سعيد بن قيس الهمذاني فخلّفه في داره ثم أتى علياً فقال : ياأمير المؤمنين ، أرأيت من حارب الله ورسوله ، وسعى في الأرض فساداً فقرأ حتى بلغ ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ قال : فكتب له أماناً . قال سعيد بن قيس : فإنه حارثة بن بدر . وكذا رواه ابن جرير عن الشعبي وزاده : فقال حارثة بن بدر :

ألا بلّغن همدان إمّا لقيتها على النأي لا يسلم عدو يعيبها
لعمر أبيها إنّ همدان تتقي الـ إله ويقضي بالكتاب خطيبها

ب - روى ابن جرير عن الشعبي قال : جاء رجل من مراد إلى أبي موسى وهو على الكوفة في إمارة عثمان رضي الله عنه ، بعد ما صلّى المكتوبة فقال : ياأبا موسى هذا مقام العائذ بك ، أنا فلان بن فلان المرادي . وإني كنت حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض فساداً ، وإني تبت من قبل أن تقدروا عليّ ، فقال أبوموسى : إنّ هذا فلان بن فلان وإنّه كان حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً ، وإنّه تاب من قبل أن تقدروا عليه فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير ، فإن يكُ صادقاً فسبيل من صدق ، وإن يكُ كاذباً تدركه ذنوبه . فأقام الرجل ما شاء الله ، ثم إنّه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله .

جـ - روى ابن جرير عن موسى بن إسحق المدني أن علياً الأسدي حارب وأخاف وأصاب الدّم والمال ، فطلبه الأئمة والعامّة ، فامتنع ولم يقدروا عليه ، حتى جاء تائباً وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية : ﴿ . **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ . فوقف عليه فقال : ياعبدالله . أعد قراءتها فأعادها عليه ؛ فغمد سيفه ثم جاء تائباً حتى قدم المدينة من السّحر فاغتسل ، ثمّ أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصّبح ، ثمّ قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه . فلما أسفروا عرفه الناس فقاموا إليه . فقال : لا سبيل لكم عليّ . جئت تائباً من قبل أن تقدروا عليّ ، فقال أبوهريرة : صدق وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية . فقال : هذا عليٌّ جاء تائباً ولا سبيل لكم عليه ولا قتل ، فترك من ذلك كله ، قال : وخرج عليٌّ تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر فلقوا الروم فقرّبوا سفينة من سفنهم ، فاقتحم على الروم في سفينتهم ، فهربوا منه إلى شقّها الآخر فمالت بهم فغرقوا جميعاً .

كلمة في السياق :

في المقطع الأول رأينا أمراً بالوفاء بالعقود ، وأمراً بالطهارة للصلاة ، وأمراً بتذكر نعم الله والوفاء بميثاقه ، وأمراً بالتوكل ، وكل هذا ينتظمه قضية الإيمان والتسليم كمقدمتين رئيسيتين للاهتداء بكتاب الله .

وفي المقطع الثاني ثلاث فقرات : الفقرة الأولى في المواثيق التي أُخذت على اليهود والنّصارى ، وكيف نقضوها وما عوقبوا به لذلك وفيها دعوة أهل الكتاب للدخول في دين الله . وفيها نماذج من عهود نقضها اليهود ، ونماذج من عهود نقضها النصارى .

ثم تأتي الفقرة الثانية : وفيها نموذج على عهدٍ نقضه اليهود وهو نصرة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ثمّ تأتي الفقرة الثالثة : وفيها قصة ابني آدم ، وما رتب الله عليها من أحكام ، وفيها جزاء المحاربين لله ورسوله المفسدين في الأرض ، وينتظم هذه الفقرات أنها حديث عن نقض الميثاق ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد في الأرض ، وهي القضايا الرئيسية التي تحول بين الإنسان وبين الاهتداء بكتاب الله ، وخلال ذلك ذكرت لبعض هذا الانحراف ، وهنا نحب أن نسجل ملاحظة هي : أنك تجد السياق القرآني يحدثك عن المعنى مرة بعد مرة ، وفي كل مرة يعطيك جديداً ، ويأتيك التفصيل شيئاً فشيئاً ، وبشكل معجز عجيب ، فكأن السياق القرآني يربي عند الإنسان المعنى شيئاً فشيئاً .

والمهم أن نلاحظ أنّه من بداية السياق حتى نهاية هذا المقطع تكررت كلمة الخاسرين ، وتكررت كلمة الفسق والفاسقين ، وتكررت كلمة نقض الميثاق ، وكلمة الإفساد في الأرض ، وهي كلمات رئيسية في محور السورة :

﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ لقد ورد قوله تعالى : ﴿ **ذلكم فسق** ﴾ في الآية الخامسة والعشرين وورد قوله تعالى : ﴿ **فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ ﴿ **فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ في الآية السادسة والعشرين . ولقد وردت كلمة الخاسرين في الآية الخامسة ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد**

حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ووردت في الآية (٢١) ﴿ **ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ ووردت في الآية (٣٠) ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾ .

ولقد وردت قضية الميثاق والإفساد في الأرض كما رأينا . أفلا يكون هذا دليلاً على ماذهبنا إليه من أنّ محور السورة ما ذكرنا .

وبعد المقطع الأول والمقطع الثاني يأتي مقطع ثالث يحدثنا عما تنحسم به مواد الإفساد في الأرض ، بعد ما سبق من كلام عن حدّ الحرابة ، وبعد ما جاء من دروس في تقاعس بني إسرائيل عن الجهاد . وقبل أن ننتقل إلى الكلام عن المقطع الثالث فلننقل بعض النقول ولنذكر بعض الفصول التي لها صلة في المقطع الثاني :

نقول :

١ - رأينا أن الفقرة الأولى من المقطع الثاني كان فيها حديث عن النصارى ﴿ **ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذُكّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾ ، ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ . وقد تحدث صاحب الظلال حديثاً طويلا حول الانحراف الذي تسلّل إلى النصارى ومراحله فقال : « إن الذي جاء به عيسى - عليه السلام - من عند ربه هو التوحيد الذي جاء به كل رسول . والإقرار بالعبودية الخالصة لله شأن كل رسول .. ولكن هذه العقيدة الناصعة أدخلت عليها التحريفات ، بسبب دخول الوثنيين في النصرانية ؛ وحرصهم على رواسب الوثنية التي جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد ، حتى لم يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها . ولم تجيء هذه الانحرافات كلها دفعة واحدة ؛ ولكنها دخلت على فترات ؛ وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى ؛ حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير ، الذي تحار فيه العقول . حتى عقول الشارحين للعقيدة المحرفة من أهلها المؤمنين بها ! .

وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح - عليه السلام - في تلامذته وفي أتباعهم . وأحد الأناجيل الكثيرة التي كتبت ــ وهو إنجيل برنابا - عن عيسى - عليه السلام ــ يذكره بوصفه رسولاً من عند الله ، ثم وقعت بينهم الاختلافات . فمن قائل : إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل . ومن قائل : إنه رسول نعم ، ولكن له بالله صلة خاصة . ومن قائل : إنه ابن الله لأنه خُلق من غير أب ، ولكنه على هذا مخلوق لله . ومن قائل :

إنه ابن الله وليس مخلوقاً بل له صفة القدم كالأب ..

ولتصفية هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥ ميلادية « مجمع نيقية » الذي اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفاً من البطارقة والأساقفة . قال عنهم ابن البطريق أحد مؤرخي النصرانية. « وكانوا مختلفين في الآراء والأديان فمنهم من كان يقول : إن المسيح وأمه إلهان من دون الله . وهم « البربرانية » . ويسمون « الريمتيين» . ومنهم من كان يقول : إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها . وهي مقالة « سابليوس » . وشيعته . ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة أشهر ، وإنما مر في بطنها كما يمر الماء من الميزاب ، لأن الكلمة دخلت في أذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها . وهي مقالة « إليان » وأشياعه . ومنهم من كان يقول : إن المسيح إنسانٌ خُلق من اللاهوت كواحدٍ منّا في جوهره ، وإن ابتداء الابن من مريم ، وإنه اصطُفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي ، صحبته النعمة الإلهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمي « ابن الله » ويقولون : إن الله جوهر قديم واحد ، وأقنوم واحد ، ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس . وهي مقالة « بولس الشمشاطي » بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم « البوليقانيون » ومنهم من كان يقول : إنهم ثلاثة آلهة لم تنزل : صالح ، وطالح ، وعدل بينهما . وهي مقالة « مرقيون » اللعين وأصحابه ! وزعموا أن « مرقيون » هو رئيس الحواريين وأنكروا « بطرس » . ومنهم من كانوا يقولون بألوهية المسيح وهي مقالة « بولس الرسول » ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً .

وقد اختار الإمبراطور الروماني « قسطنطين » الذي كان قد دخل في النصرانية من الوثنية ولم يكن يدري شيئاً من النصرانية ! هذا الرأي الأخير وسلط أصحابه على مخالفيهم ، وشرّد أصحاب سائر المذاهب ، وبخاصّة القائلين بألوهية الأب وحده ، وناسوتية المسيح . وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القرار ما نصه :

« إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه . وأنه لم يوجد قبل أن يولد . وأنه وجد من لاشيء . أو من يقول : إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب . وكل من يؤمن أنه خلق ، أو من يقول : إنه قابل للتغيير ويعتريه ظل دوران » .

ولكن هذا المجتمع بقراراته لم يقض على نحلة المُوَحِّدين أتباع « آريوس » وقد غلبت

على القسطنطينية ، وأنطاكية ، وبابل ، والإسكندرية ، ومصر .

ثم ثار خلاف جديد حول « روح القدس » فقال بعضهم : هو إله ، وقال آخرون : ليس بإله ! فاجتمع « مجمع القسطنطينية الأول » سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف في هذا الأمر . وقد نقل ابن البطريق ما تقرر في هذا المجمع ، بناء على مقالة أسقف الإسكندرية :

« قال ثيموثاوس بطريرك الإسكندرية : ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله . وليس روح الله شيئاً غير حياته . فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق ، فقد قلنا : إن روح الله مخلوق . وإذا قلنا : إن روح الله مخلوق ، فقد قلنا : إن حياته مخلوقة ، فقد زعمنا أنه غير حي ، وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به . ومن كفر به وجب عليه اللعن » !!! وكذلك تقررت ألوهية روح القدس في هذا المجمع ، كما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية . وتم « الثالوث » من الأب . والابن . وروح القدس ..

ثم ثار خلاف آخر حول اجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية .. أو اللاهوت والناسوت كما يقولون .. فقد رأى « نسطور » بطريرك القسطنطينية أن هناك أقنوماً وطبيعة . فأقنوم الألوهية من الآب وتنسب إليه ، وطبيعة الإنسان وقد ولدت من مريم ، فمريم أم الإنسان - في المسيح - وليست أم الإله ! ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس وخاطبهم - كما نقله عنه ابن البطريق : « إن الإنسان الذي يقول : إنه المسيح .. بالمحبة متحد مع الابن .. ويقال : إنه الله وابن الله ، ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة » .

ثم يقول : « إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً في حَدِّ ذاته بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة ، أو هو ملهم من الله ، فلم يرتكب خطيئة ، وما أتى أمراً إدّاً » .

وخالفه في هذا الرأي أسقف رومه ، وبطريرك الإسكندرية ، وأساقفة أنطاكية ، فاتفقوا على عقد مجمع رابع وانعقد « مجمع أفسس » سنة ٤٣١ ميلادية . وقرر هذا المجمع - كما يقول ابن البطريق : « أن مريم العذراء والدة الله . وأن المسيح إله حق وإنسان ، معروف بطبيعتين ، متوحد في الأقنوم » .. ولعنوا نسطور ! .

ثم خرجت كنيسة الإسكندرية برأي جديد ، انعقد له « مجمع أفسس الثاني »

وقرر : « أن المسيح طبيعة واحدة ، اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت » .

ولكن هذا الرأي لم يسلم ، واستمرت الخلافات الحادّة ، فاجتمع مجمع « خلقيدونية » سنة ٤٥١ وقرر : أن المسيح له طبيعتان لاطبيعة واحدة ، وأن اللاهوت طبيعة وحدها ، والناسوت طبيعة وحدها ، التقتا في المسيح » .. ولعنوا مجمع أفسس الثاني ! . ولم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع . ووقعت بين المذهب المصري « المنوفيسية » والمذهب « الملوكاني » الذي تبنته الدولة الإمبراطورية ما وقع من الخلافات الدامية .

ونكتفي بهذا القدر في تصوير مجمل التصورات المنحرفة حول ألوهية المسيح ؛ والخلافات الدامية ، والعداوة والبغضاء التي ثارت بسببها بين الطوائف ، وما تزال إلى اليوم ثائرة ..

وتجيء الرسالة الأخيرة لتقرر وجه الحق في هذه القضية ؛ ولتقول كلمة الفصل ؛ ويجيء الرسول الأخير ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة » .

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ .. ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ .

فصول :

فصل في تصحيح خطأ :

بمناسبة قوله تعالى : **﴿ لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ﴾** رأينا كيف أنّ هناك نصوصاً تحضّ على التزام موقف ابن آدم القتيل ، ومن دراسة لهذه النصوص نجد أنها فتاوىٰ خاصة ، في فتن خاصة لأشخاص بأعيانهم ، أو أنّها فتاوىٰ تنطبق على حالات بعينها ، والعجيب أن يرى بعضهم في هذه النصوص دليلاً له على تعطيل مبدأ الجهاد ، بأن يُخرج هذه النصوص عن مدلولها الخاص ؛ فيعممها على حالات لاتنطبق على ما وردت في شأنه هذه النّصوص ، وهو موضوع سنرى كلاماً كثيراً فيه في هذه السلسلة كلها بحيث توضع النصوص في محلها .

فصل : في موضوع الحق العام :

مما في العالم كله موضوع الحق العام في الفقه القانوني ، وإنه لَمن إعجاز هذا القرآن

أن فتح الباب لهذا النّوع من الفقه في كثير من نصوصه من مثل قوله تعالى : ﴿ **أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾ ، وموضوع الحق العام نجده في كثير من نصوص الإسلام وفي مسائل الفقه الإسلامي .

فصل في حكمة تنزل الأحكام بحسب الحوادث :

من الملاحظ أنّ القرآن نزل مُنجَّماً ، ولم ينزل مرة واحدة ، ولذلك حِكَمُهُ الكثيرة ، ومن جملة هذه الحِكَم أن تنزل النصوص لتعالج الأمر الواقع فيكون استقبال النّصوص في هذه الحالة جامعاً في طيّاته التسليم الإيماني ، مع القناعة العقلية الكاملة ، مع الاستعداد النفسي للتنفيذ المباشر للحكم . إنّه عندما تقع حادثة العرنيين الفظيعة وتنزل الآية التي تذكر حدّ الحرابة فذلك درس إلى قيام الساعة يجعل الحدّ له مبرراته الواقعية ، ومن هنا ينبغي أن نأخذ درساً في العمل الإسلامي اليومي ، بحيث تكون الحادثة دليل القاعدة العملية في الحركة وفي فقه الدعوة ، والتنظيم والتعامل .

☆ ☆ ☆

المقطع الثالث

يمتدُّ هذا المقطع من الآية (٣٥) إلى نهاية الآية (٤٠) وهذا هو :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

☆ ☆ ☆

كلمة في المقطع :

هذا المقطع هو بمثابة امتداد للمقطع السابق من حيث إنه يأمر بحسم مادة الفساد في الأرض بجهاد الكافرين ، وقطع يد السارق ، وبمناسبة الأمر بالجهاد يذكّرنا الله - عز وجل - أنّ عذاب الكافرين يوم القيامة هو أكبر بكثير ممّا يصيبهم بسبب الجهاد ؛ لأن جرمهم فظيع . وإذ يأمرنا الله بقطع يد السارق ، عقوبة عادلة على جريمة ، فإنه يفتح له باب التوبة ، وصلة المقطع بمحور السورة من حيث إنه يعرض علينا مظاهر من نقض العهد والإفساد . وأي نقضٍ للعهد أكبر من الكفر ، ولا شك أنّ السرقة مِنَ الإفساد في الأرض .

وبعد هذا كله فلنلاحظ مايلي : في محور السورة من سورة البقرة وصف الله - عز

وجل - الفاسقين بأنهم : ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ ويبدأ هذا المقطع بذكر طريق الفلاح وهو اجتماع التقوى والعمل والجهاد : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون** ﴾ وهذا يؤكد ما ذكرناه من قبل أنّ السورة تسير على خطين : خط تبيان الفسوق الذي يوصل صاحبه إلى الكفر والنّفاق ، وخط تبيان المعاني التي إذا تحقق بها الإنسان خرج عن الفسوق وتحقق بالتقوى .

المعنى العام للمقطع :

يقول الله تعالى آمراً عباده بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم ، وترك المنهيات ، وأمرهم مع التقوى أن يتقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، ثم أمرهم بقتال الأعداء من الكفّار ، والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم ، والتّاركين للدّين القويم ، ورغبهم في ذلك بما أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة ، التي لاتبيد ، ولاتحول ، ولا تزول ، في الغُرَف العالية الرّفيعة الآمنة ، الحسنة مناظرها ، الطيبة مساكنها ، التي من سكَنها ينعم ولا يبأس ، ويحيا ولا يموت ، لاتبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، ثم أخبر تعالى بما أعدّ لأعدائه الكفّار من العذاب والنّكال يوم القيامة ، حتى لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً ، وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به ، وتيقّن وصوله إليه ما تُقُبل ذلك منه ، بل لا مندوحة عنه ، ولا محيص له ولا مناص ، وعذابهم في جهنم موجع ، وهم لا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من سكرته ، وأليم مَسّه ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، بل عذابهم دائم مستمر لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها . وفي هذا السياق يأمر تعالى بقطع يد السارق والسارقة ؛ مجازاة لهما على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ، ذلك حكم الله العزيز في انتقامه ، الحكيم في أمره ونهيه وشرعه وقدره .

ثم بيّن تعالى أن من تاب بعد سرقته ، وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأمّا أموال النّاس فلابد من ردّها إليهم ، أو ردّ بدلها عند الجمهور ، ثم ذكّر الله - عز وجل - بمالكيته للسموات والأرض ، فهو المالك لجميع ذلك ، الحاكم فيه الذي لا مُعقّب لحكمه ، وهو الفعّال لما يريد ؛ فيغفر لمن يشاء ، ويعذّب من يشاء وهو على كل شيء قدير .

المعنى الحرفي :

﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ...** ﴾ باجتناب ما نهى ﴿ **وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾ الوسيلة في اللغة : هي كل مايتوسل به ، أي يتقرّب من قرابة ، أو صنيعة أو غير ذلك فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات والقربات وقد أطبق المفسرون على أنّ المراد هنا أن : تقرّبوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه ﴿ **وجاهدوا في سبيله** ﴾ بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ جعل الطريق إلى الفلاح التقوى والعمل الصالح والجهاد ، فمن فرّط في واحد منها فرّط في الفلاح نفسه ﴿ **إنّ الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً** ﴾ من صنوف الأموال ﴿ **ومثله معه ليفتدوا به** ﴾ . أي : وأنفقوه ليجعلوه فدية لأنفسهم ﴿ **من عذاب يوم القيامة ما تُقبّل منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ . أي : موجع ولا سبيل لهم إلى النّجاة بوجه ﴿ **يريدون** ﴾ . أي : يطلبون ويتمنّون ﴿ **أن يخرجوا من النّار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم** ﴾ . أي : دائم .

فوائد :

١ - الوسيلة : هي التي يتوسل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضاً عَلَمٌ على أعلى منزلة في الجنّة وهي منزلة الرّسول ﷺ ، وداره في الجنة أقرب أمكنة الجنة إلى العرش . وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يسمع النّداء : اللّهم رب هذه الدّعوة التامّة ، والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدّته ، إلاّ حلّت له الشّفاعة يوم القيامة » . وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنّه سمع النبيّ ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلّوا عليّ ؛ فإنّه من صلى عليّ صلاة ، صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجوا أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

٢ - روى مسلم والنسائي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له ياابن آدم كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شرّ مضجع ، فيقال : هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً ؟ قال : فيقول : نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كذبت ، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار » .

٣ - أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد الفقير قال : جلست إلى جابر بن عبدالله وهو يحدّث ، فحدّث أن ناساً يخرجون من النار قال : وأنا يومئذ أنكر ذلك فغضبت وقلت : ما أعجب من الناس ، ولكن أعجب منكم ياأصحاب محمد ؛ تزعمون أنّ الله يخرج ناساً من النار ، والله يقول ﴿ **يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها** ﴾ الآية .. فانتهرني أصحابه وكان أحلمهم فقال : دعوا الرجل ، إنمّا ذلك للكفار فقرأ ﴿ **إن الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة** ﴾ حتى بلغ ﴿ **ولهم عذاب مقيم** ﴾ . أما تقرأ القرآن ؟ قلت بلى قد جمعته قال : أليس الله يقول : ﴿ **ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ (الإسراء : ٧٩) فهو في ذلك المقام ، فإنّ الله تعالى يحتبس أقواماً بخطاياهم في النار ما شاء لا يكلمهم ، فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم ، قال : فلم أعد بعد ذلك إلى أن أُكذّب به .

وأخرج ابن مردويه عن طلق بن حبيب قال : كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبدالله فقرأت عليه كلّ آية أقدر عليها ، يذكر الله فيها خلود أهل النار ، فقال : ياطلق أتراك أقرأ لكتاب الله ، وأعلم بسنّة رسول الله ﷺ منيّ ؟ إنّ الذين قرأت هم أهلها هم المشركون ، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوبا فعذّبوا ، ثم أخرجوا منها ، ثم أهوى بيديه إلى أذنيه فقال : صُمّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرجون من النار بعدما دخلوا » . ونحن نقرأ كما قرأت .

﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ والمراد اليمينات من الرسغين ﴿ **جزاءً بما كسبا** ﴾ . أي : مجازاة لهما على صنيعهما ﴿ **نكالاً من الله** ﴾ . أي : عقوبة منه ﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ . أي : غالب لا يُعارَض في حكمه ، حكيم فيما حكم ، مِن قطع يد السارق والسارقة ﴿ **فمن تاب** ﴾ . أي : من السرقة ﴿ **من بعد ظلمه** ﴾ . أي : من بعد سرقته ﴿ **وأصلح** ﴾ بردّ المسروق ﴿ **فإن الله يتوب عليه** ﴾ . أي : يقبل توبته ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ . أي : يغفر ذنبه ويرحمه ﴿ **ألم تعلم** ﴾ يا محمد أو يا أيها الإنسان ﴿ **أن الله له ملك السموات والأرض يعذّب من يشاء** ﴾ وقد شاء أن يعذّب من مات على الكفر ﴿ **ويغفر لمن يشاء** ﴾ وقد وعد أنْ يغفر لمن تاب عن الكفر ﴿ **والله على كل شيء** ﴾ من التعذيب والمغفرة وغيرهما ﴿ **قدير** ﴾ . أي : قادر وحكمة تقديم التعذيب على المغفرة هنا تقدُّم السرقة على التوبة والله أعلم .

فوائد :

١ - يلاحظ أنه في موضوع السرقة ذكر السارق ، ثم السارقة ، وفي موضوع الزنا ذكر المرأة ، ثم الرجل ، وذلك لأنّ السرقة من الجراءة وهي في الرجال أكثر ، فقدم ذكر السارق وأخّر الزاني ؛ لأن الزنا ينبعث من الشهوة ، وهي في النساء أوفر ، وقطعت اليد لأنها آلة السرقة ، ولم تقطع آلة الزنا تفادياً عن قطع النسل .

٢ - ذهب الظاهرية إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به ، سواء كان قليلاً أو كثيراً ، لعموم الآية ، وأما الجمهور فاعتبروا النّصاب في السّرقة فعند الإمام مالك النصاب : ثلاثة دراهم مضروبة خالصة ، فمتى سرقها ، أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع . وذهب الشافعي إلى أنّ الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار ، أو ما يساويه من الأثمان ، أو العروض فصاعداً . وذهب الإمام أحمد إلى أنّ كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مردٌّ شرعي ، فمن سرق واحداً منهما ، أو ما يساويه قطع . وأما الإمام أبوحنيفة وأصحابه فذهبوا إلى أنّ النّصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة أو ما يعادلها ، واحتج كلٌّ لما ذهب إليه بأدلة .

٣ - أورد بعض الزنادقة إشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة بربع دينار ونظم في ذلك شعراً فقال :

يد بخمس مئين عسجدٍ وُدِيتْ　　　ما بالها قُطعت في ربع دينار
تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له　　　وأن نعوذ بمولانا من النار

فأجيب :

عِزُّ الأمانة أغلاها ، وأرخصها　　　ذلُّ الخيانة فافهم حكمةَ الباري

٤ - من حوادث السرقة في عهده عليه الصلاة والسلام ما نراه في هذه الأحاديث :

روى الحافظ أبوالحسن الدارقطني عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أُتي بسارق قد سرق شملة فقال : ما إخاله سرق ! فقال السارق : بلى يارسول الله قال : « اذهبوا به فاقطعوه ، ثم احسموه ، ثم ائتوني به » فقطع ، فأُتي به فقال : « تُب إلى الله . فقال : تبتُ إلى الله فقال : « تاب الله عليك » .

روى ابن ماجه أنّ عمر بن سمرة بن حبيب بن عبدشمس جاء إلى النبيّ ﷺ فقال يارسول الله إني سرقت جملاً لبني فلان فطهّرني ، فأرسل إليهم النبي ﷺ فقالوا : إنا

افتقدنا جملاً لنا فأمر به فقطعت يده قال ثعلبة - أحد رواة الحديث - : أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يقول : الحمد لله الذي طهّرني منكِ ، أردتِ أنْ تدخلي جسدي النار .

وثبت في الصحيحين عن عائشة أنّ قريشاً أهمّهم شأن المرأة المخزومية التي سرقتْ في عهد النبي ﷺ ، في غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلّم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد ، حِبُّ رسول الله ﷺ ؟ فأتى بها رسول الله ﷺ ، فكلّمه فيها أسامة بن زيد ؛ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ . فقال : أتشفع في حدّ من حدود الله عز وجل ؟ . فقال له أسامة : استغفر لي يارسول الله . فلما كان العشيُّ قام رسول الله ﷺ ، فاختطب ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد فإنّما هلك الذين من قبلكم أنهّم كانوا إذا سرق فيهم الشّريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ، وإني والذي نفسي بيده لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعتُ يدها » . ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها . قالت عائشة : فحسُنت توبتها بعد ، وتزوجت ، وكانت تأتي بعد ذلك ، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ . وهذا لفظ مسلم . وقد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة سنراها في كتاب الأساس في السنة وفقهها إن شاء الله .

كلمة في السياق :

١ - جاء هذا المقطع بعد الكلام عن حدّ الحرابة وشريعة القصاص ، فهو استمرار لما تنحسم به مادّة الفساد ، ولذلك كان فيه أمر بالجهاد ، وأمر بقطع يد السارق والسارقة .

٢ - في الفقرة السابقة على المقطع ورد قوله تعالى : ﴿ **من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض** ﴾ فحتى لايفهَم فاهم أن الجهاد الذي فيه إزهاق الأنفس داخل في قضية الاعتداء على الحياة ، جاء هذا المقطع آمراً بالجهاد ، ومتحدثاً عن العقوبة الأخروية للكافرين مما يعرف به فظاعة جرم الكافرين ، فإذا جاهدهم المسلمون ، وقتلوهم فليس ذلك إلا بسبب فظاعة جرمهم .

٣ - يأتي هذا المقطع بعد المقطع الذي تحدث عن نكول بني إسرائيل عن الجهاد : حيث قال موسى عليه السلام « ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » وههنا يبين

المقطع أن طريق الفلاح هو الجهاد ، مع التقوى ، والعمل الصالح .

إذا اتضحت هذه الأمور يكون قد وضح لدينا صلة هذا المقطع بما قبله فلنتحدث عن صلة المقطع بمحور السورة ، وارتباطاته ، وامتداداته :

جاءت مقدمة سورة البقرة تتحدث عن المتقين، والكافرين، والمنافقين، ثم جاء بعد ذلك مقطع الطريقين ، ليبين طريق الفلاح ، وطريق الخسران ، وبعد أن جاء في المقطع الأول من سورة المائدة ، وفي المقطع الثاني ماله صلة بالعقود ، والفسوق ، والإفساد في الأرض ، والخسران ، وغير ذلك مما له صلة في المحور ، جاء المقطع الثالث يدعونا إلى سلوك طريق الفلاح ، ويحدثنا عن عذاب الكافرين ، وذلك يشبه ما ورد في مقدمة سورة البقرة ، وبذلك يرتبط المحور بما سبقه من سورة البقرة ، ولكن من خلال سياق جديد . فهناك تقدّمت معان حتى أوصلتنا إلى موقع . وههنا يكون العرض من الموقع حتى نستقر على البداية ، وكأنه بذلك تنتهي جولة أولى في السورة لتبدأ جولة جديدة ، أو ينتهي قسم ليبدأ قسم جديد ، ولذلك فإنّ المقطع الرابع في السورة يبدأ بنداءٍ موجّه إلى رسول الله ﷺ . ﴿ **يأيها الرسول** ﴾ فكأننا أمام قسم جديد ، أو جولة جديدة ، ولذلك فقد أصبح بإمكاننا أن نقول : إن المقاطع الثلاثة الأولى في السورة تشكل قسمها الأول .

والسّورة مع أنها أقسام واضحة المعالم ، فقد آثرنا أن نعرضها على أنها مقاطع ، مع إشارتنا إلى نهاية القسم ، وبداية القسم الجديد ، وقبل أن ننتقل إلى المقطع الرابع الذي هو بداية القسم الثاني فلنعقد فصولاً ولننقل نقولاً .

فصول ونقول :

فصل في التوسل :

إجماع المفسرين منعقد على أنّ المراد بالوسيلة في الآية ﴿ **وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾ هو العمل الصالح قال الألوسي : واستدل بعض النّاس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد ، والقَسَم على الله تعالى بهم بأن يقال : اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا ، ومنهم من يقول للغائب ، أو الميت من عباد الله الصالحين : يافلان ادع الله تعالى ليرزقني كذا وكذا ، ويزعمون أن ذلك من باب ابتغاء الوسيلة ، ويروون عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أعيتكم الأمور فعليكم

بأهل القبور ، أو فاستغيثوا بأهل القبور » . وكل ذلك بعيد عن الحق بمراحل » . وبهذه المناسبة تكلّم الألوسي كلاماً طويلاً في تحقيق الحقّ في هذه المسألة وغيرها من وجهة نظره وبعد أن أجاز التوسّل برسول الله ﷺ حياً وميتاً وعلّل لذلك ، مع ترجيحه التوسّل بأسماء الله تعالى وتفضيله إياه - والقضية كما نعلم فيها كلام كثير - بعد هذا كلّه قال :

« إن النّاس قد أكثروا من دعاء غير الله تعالى من الأولياء ، الأحياء منهم والأموات ، وغيرهم ، مثل ياسيدي فلان أغثني ، وليس ذلك من التوسل المباح في شيء ، واللائق بحال المؤمن عدم التفوّه بذلك ، وأن لا يحوم حول حماه ، وقد عدّه أناس من العلماء شركاً ، وإن لا يكُنْهُ ، فهو قريب منه ، ولا أرى أحداً ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدْعُوّ الحي الغائب - أو الميت المغيب يعلم الغيب - أو يسمع النداء ويَقْدِرُ بالذات ، أو بالغير على جلب الخير ودفع الأذى ، وإلا لما دعاه . ولا فتح فاه ﴿ **وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ . فالحزم التجنب عن ذلك ، وعدم الطلب إلا من الله تعالى القوي الغني ، الفعال لما يريد . ومن وقف على سر ما رواه الطبراني في معجمه من أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال الصديق رضي الله تعالى عنه : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق فجاؤوا إليه ، فقال : « إنه لا يستغاث بي ، إنما يستغاث بالله تعالى » . لم يشك في أنّ الاستغاثة بأصحاب القبور - الذين هم بين سعيد شغله نعيمه وتقلبه في الجنان عن الالتفات إلى ما في هذا العالم ، وبين شقي ألهاه عذابه وحبسه في النيران عن إجابة مناديه والإصاخة إلى أهل ناديه - أمر يجب اجتنابه ولا يليق بأرباب العقول ارتكابه ، ولا يغرنّك أن المستغيث بمخلوق قد تُقضى حاجته ، وتنجح طلبته ، فإن ذلك ابتلاء وفتنة منه - عز وجل - وقد يتمثل الشيطان للمستغيث في صورة الذي استغاث به ، فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث به ، هيهات هيهات إنما هو شيطان أضله وأغواه ، وزيّن له هواه ، وذلك كما يتكلم الشيطان في الأصنام ليضل عبدتها الطغام ، وبعض الجهلة يقول : إن ذلك من تطور روح المستغاث به ، أو من ظهور ملك بصورته كرامة له ولقد ساء ما يحكمون ، لأن التطور والظهور وإن كانا ممكنَيْن لكن لا في مثل هذه الصور وعند ارتكاب هذه الجريرة ، نسأل الله تعالى بأسمائه أن يعصمنا من ذلك . ا.هـ كلام الألوسي .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** .. ﴾ يقول صاحب

الظلال : « إن المجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام - على اختلاف عقائدهم - ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية .. إنه يوفر لهم ضمانات العيش والكفاية . وضمانات التربية والتقويم . وضمانات العدالة في التوزيع . وفي الوقت ذاته يجعل كل ملكية فردية فيه تنبت من حلال ؛ ويجعل الملكية الفردية وظيفة اجتماعية تنفع المجتمع ولا تؤذيه .. ومن أجل هذا كله يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية .. فمن حقه إذن أن يشدد في عقوبة السرقة ، والاعتداء على أمن الجماعة .. ومع تشديده فهو يدرأ الحد بالشبهة ؛ ويوفر الضمانات كاملة للمتهم حتى لا يؤخذ بغير الدليل الثابت .. ولعله من المناسب أن نفصل شيئاً في هذا الإجمال ..

إن النظام الإسلامي كل متكامل ، فلا تُفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها إلا أن ينظر في طبيعة النظام وأصوله ومبادئه وضماناته . وبالنسبة لموضوع السرقة ، فإن الإسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد في المجتمع المسلم في دار الإسلام ، في الحياة . وحقه في كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة .. من حق كل فرد أن يأكل وأن يشرب وأن يلبس وأن يكون له بيت يكنه ويؤويه ، ويجد فيه السكن والراحة .. من حق كل فرد على الجماعة - وعلى الدولة النائبة عن الجماعة - أن يحصل على هذه الضروريات .. أولاً عن طريق العمل - ما دام قادراً على العمل - وعلى الجماعة - والدولة النائبة عن الجماعة - أن تعلّمه كيف يعمل ، وأن تيسر له العمل وأداة العمل .. فإذا تعطل لعدم وجود العمل ، أو أداته ، أو لعدم قدرته على العمل ، جزئياً أو كلياً ، وقتياً أو دائماً . أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفي لضرورياته . فله الحق في استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه : أولاً من النفقة التي تفرض له شرعاً على القادرين في أسرته . وثانياً : على القادرين من أهل محلته . وثالثاً : من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له في الزكاة . فإذا لم تكف الزكاة ، فرضت الدولة المسلمة المنفذة لشريعة الإسلام كلها في دار الإسلام ، ما يحقق الكفاية للمحرومين في مال الواجدين ؛ بحيث لا يتجاوز هذه الحدود ، ولا تتوسع في غير ضرورة ، ولا تجور على الملكية الفردية الناشئة من حلال .

والإسلام كذلك يتشدد في تحديد وسائل جمع المال ؛ فلا تقوم الملكية الفردية فيه إلا من حلال .. ومن ثَم لا تثير الملكية الفردية في المجتمع المسلم أحقاد الذين لا يملكون ؛ ولا تثير أطماعهم في سلب ما في أيدي الآخرين .. وبخاصة أن النظام يكفل لهم

الكفاية ؛ ولا يدعهم محرومين .

والإسلام يربي ضمائر الناس وأخلاقهم ؛ فيجعل تفكيرهم يتجه إلى العمل والكسب عن طريقه ؛ لا إلى السرقة والكسب عن طريقها .. فإذا لم يوجد العمل ، أو لم يكف لتوفير ضرورياتهم ، أعطاهم حقهم بالوسائل النظيفة الكريمة ..

وإذن فلماذا يسرق السارق في ظل النظام ؟ إنه لا يسرق لسد حاجة . إنما يسرق للطمع في الثراء من غير طريق العمل . والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذي يروّع الجماعة المسلمة في دار الإسلام . ويحرمها الطمأنينة التي من حقها أن تستمتع بها . ويحرم أصحاب المال الحلال أن يطمئنوا على مالهم الحلال .

وإنه لمن حق كل فرد في مثل هذا المجتمع ، كسب ماله من حلال ، لا من ربا ، ولا من غش ، ولا من احتكار ، ولا من أكل أجور العمال ، ثم أخرج زكاته ، وقدم ما قد تحتاج إليه الجماعة من بعد الزكاة .. من حق كل فرد في مثل هذا النظام أن يأمن على ماله الخاص ، وألا يباح هذا المال للسرقات أو لغير السرقات .

فإذا سرق السارق بعد ذلك كله .. إذا سرق وهو مكفي الحاجة ، مُتبيِّن حرمة الجريمة ، غير محتاج لسلب ما في أيدي الآخرين ، لأن الآخرين لم يغصبوا أموالهم ولم يجمعوها من حرام .. إذا سرق في مثل هذه الأحوال . فإنه لا يسرق وله عذر . ولا ينبغي لأحد أن يرأف به متى ثبتت عليه الجريمة .

فأما حين توجد شبهة من حاجة أو غيرها ، فالمبدأ العام في الإسلام هو درء الحدود بالشبهات . لذلك لم يقطع عمر رضي الله عنه في عام الرمادة ، حينما عَمّت المجاعة . ولم يقطع كذلك في حادثة خاصة ؛ عندما سرق غلمان ابن حاطب بن أبي بلتعة ناقة من رجل من مزينة . فقد أمر بقطعهم ؛ ولكن حين تبين له أن سيدهم يجيعهم ، درأ عنهم الحد ؛ وغرم سيدهم ضعف ثمن الناقة تأديباً له ..

وهكذا ينبغي أن تفهم حدود الإسلام ، في ظل نظامه المتكامل ؛ الذي يضع الضمانات للجميع ، لا لطبقة على حساب طبقة .. والذي يتخذ أسباب الوقاية قبل أن يتخذ أسباب العقوبة . والذي لا يعاقب إلا المعتدين بلا مبرر للاعتداء ..

وبعد بيان هذه الحقيقة العامة نستطيع أن نأخذ في الحديث عن حد السرقة ..

السرقة : هي أخذ مال الغير ، المحرز ، خفية .. فلابد أن يكون المأخوذ مالاً مقوماً .. والحد المتفق عليه قريباً بين فقهاء المسلمين للمال الذي يعد أخذه من حرزه خفية سرقة هو مايعادل ربع دينار .. أي : حوالي خمسة وعشرين قرشاً مصريا بنقدنا الحاضر .. ولا بد أن يكون هذا المال محرزاً ، وأن يأخذه السارق من حرزه ، ويخرج به عنه .. فلا قطع مثلاً على المؤتمن على مال إذا سرقه ، والخادم المأذون له بدخول البيت لا يقطع فيما يسرق لأنه ليس محرزاً منه . ولا على المستعير إذا جحد العارية . ولا على الثمار في الحقل حتى يؤويها الجرين . ولا على المال خارج البيت ، أو الصندوق المعد لصيانته .. وهكذا .. ولابد أن يكون هذا المال المحرز للغير .. فلا قطع حين يسرق الشريك من مال شريكه لأنّ له فيه شركة فليس خالصاً للغير . والذي يسرق من بيت مال المسلمين لايقطع لأن له نصيباً فيه فليس خالصاً للغير كذلك .. والعقوبة في مثل هذه الحالات ليست هي القطع ، وإنما هي التعْزير .. (والتعزير عقوبة دون الحد ، بالجلد أو بالحبس أو بالتوبيخ أو بالموعظة في بعض الحالات التي يناسبها هذا حسب رأي القاضي والظروف المحيطة) . والقطع يكون لليد اليمنى إلى الرسغ . فإذا عاد كان القطع في الرجل اليسرى إلى الكعب . وهذا هو القدر المتفق عليه في القطع .. ثم تختلف بعد ذلك آراء الفقهاء عند الثالثة والرابعة .

والشبهة تدرأ الحد .. فشبهة الجوع والحاجة تدرأ الحد .. وشبهة الشركة في المال تدرأ الحد . ورجوع المعترف باعترافه – إذا لم يكن هناك شهود – شبهة تدرأ الحد . ونكول الشهود شبهة .. وهكذا .

ويختلف الفقهاء فيما يعدونه شبهة . فأبو حنيفة مثلاً يدرأ الحد في سرقة ما هو مباح الأصل – حتى بعد إحرازه – كسرقة الماء بعد إحرازه ، وسرقة الصيد بعد صيده ، لأن كليهما مباح الأصل . وإباحة الأصل تورث شبهة في بقائه مباحاً بعد إحرازه . والشركة العامة فيه تورث شبهة في بقاء الشركة بعد الإحراز .. بينما مالك والشافعي وأحمد لا يدرأون الحد في مثل هذه الحالة . ويدرأ أبوحنيفة الحد في سرقة كل ما يسارع إليه الفساد ، كالطعام الرطب والبقول واللحم والخبز وما أشبه . ويخالفه أبويوسف ويأخذ برأي الثلاثة .

ولا نملك أن نمضي في تفصيل اختلافات الفقهاء في هذا المجال ، فتطلب في كتب الفقه ؛ وحسبنا هذه الأمثلة للدلالة على سماحة الإسلام وحرصه على ألا يأخذ الناس بالشبهات .. ورسول الله ﷺ يقول : « ادرأوا الحدود بالشبهات » . وعمر بن الخطاب يقول : « لأن أعطل الحدود بالشبهات أحبّ إليّ من أنْ أقيمها بالشبهات » .

ولكن لابد من كلمة في ملائمة عقوبة القطع في السرقة ؛ بعد بيان موجبات التشدد في أخذ السارق بالحد ، في المجتمع المسلم في دار الإسلام ؛ بعد توافر أسباب الوقاية وضمانات العدالة ... « إن علة فرض عقوبة القطع للسرقة أنّ السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر في أنّ يزيد كسبه بكسب غيره . فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال ، ويريد أن ينميه من طريق الحرام ، وهو لايكتفي بثمرة عمله ، فيطمع في ثمرة عمل غيره . وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظهور ، أو ليرتاح من عناء الكد والعمل . أو ليأمن على مستقبله . فالدافع الذي يدفع إلى السرقة ويرجع إلى هذه الاعتبارات هو زيادة الكسب أو زيادة الثراء . وقد حاربت الشريعة هذا الدافع في نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع . لأن قطع اليد أو الرجل يؤدي إلى نقص الكسب ، إذ اليد والرجل كلاهما أداة العمل ، ونقص الكسب يؤدي إلى نقص القدرة على الإنفاق وعلى الظهور ، ويدعو إلى شدة الكدح وكثرة العمل والتخوف الشديد على المستقبل .

فالشريعة الإسلامية بتقريرها عقوبة القطع دفعت العوامل النفسية التي تدعو إلى ارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن جريمة السرقة . فإذا تغلبت العوامل النفسية الداعية ، وارتكب الإنسان الجريمة مرة كان في العقوبة والمرارة التي تصيبه منها ما يغلب العوامل النفسية الصارفة ، فلا يعود للجريمة مرة ثانية .

ذلك هو الأساس الذي قامت عليه عقوبة السرقة في الشريعة الإسلامية وأنه لعمري خير أساس قامت عليه عقوبة السرقة من يوم نشأة عالمنا حتى الآن ..

وتجعل القوانينُ الحبسَ عقوبة السرقة . وهي عقوبة قد أخفقت في محاربة الجريمة على العموم ، والسرقة على الخصوص . والعلة في هذا الإخفاق أن عقوبة الحبس لا تخلق في نفس السارق العوامل النفسية التي تصرفه عن جريمة السرقة . لأن عقوبة الحبس لا تحول بين السارق وبين العمل إلا مدة الحبس . وما حاجته إلى الكسب في المحبس وهو موفر الطلبات مكفيُّ الحاجات ؟ فإذا خرج من محبسه استطاع أن يعمل وأن يكسب . وكان

لديه أوسع الفرص لأن يزيد من كسبه وينمّي ثروته ، ومن طريق الحلال والحرام على السواء ! واستطاع أن يخدع الناس وأن يظهر أمامهم بمظهر الشريف فيأمنوا جانبه ويتعاونوا معه . فإن وصل في الخاتمة إلى ما يبغي فذلك هو الذي أراد ؛ وإن لم يصل إلى بغيته فإنه لم يخسر شيئاً ولم تفته منفعة ذات بال .

أما عقوبة القطع فتحول بين السارق وبين العمل ، أو تنقص من قدرته على العمل والكسب نقصاً كبيراً ؛ ففرصة زيادة الكسب مقطوع بضياعها على كل حال ، ونقص الكسب إلى حد ضئيل أو انقطاعه هو المرجع في أغلب الأحوال ، ولن يستطيع أن يخدع الناس أو يحملهم على الثقة به والتعاون معه رجل يحمل أثر الجريمة في جسمه ، وتعلن يده المقطوعة عن سوابقه ، فالخاتمة التي لا يخطئها الحساب مقطوع بها إذا كانت العقوبة القطع ؛ وجانب الربح مرجح إذا كانت العقوبة الحبس . وطبيعة الناس كلهم – لا السارق وحده – أن لا يتأخروا عن عمل يرجح فيه جانب المنفعة ، وألا يقدموا على عمل تتحقق فيه الخسارة .

وأعجب بعد ذلك ممن يقولون : إنّ عقوبة القطع لا تتفق مع ما وصلت إليه الإنسانية والمدنية ، كأن المدنية والإنسانية أن ننكر العلم الحديث ، والمنطق الدقيق ، وأن ننسى طبائع البشر ، ونتجاهل تجارب الأمم ؛ وأن نلغي عقولنا ، ونهمل النتائج التي وصل إليها تفكيرنا ، لنأخذ بما يقوله قائله فلا يجد عليه دليلاً إلا التهويل والتضليل ! .

وإذا كانت العقوبة الصالحة حقاً هي التي تتفق مع المدنية والإنسانية ، فإن عقوبة الحبس قد حق عليها الإلغاء ، وعقوبة القطع قد كتب لها البقاء . لأن الأخيرة تقوم على أساس متين من علم النفس . وطبائع البشر وتجارب الأمم . ومنطق العقول والأشياء . وهي نفس الأسس التي تقوم عليها المدنية والإنسانية . أما عقوبة الحبس فلا تقوم على أساس من العلم ولا التجربة ، ولا تتفق مع منطق العقول ولا طبائع الأشياء .

إن أساس عقوبة القطع (هو العلم بنفسية الإنسان وعقليته) . فهي إذن عقوبة ملائمة للأفراد . وهي في الوقت ذاته صالحة للجماعة ، لأنها تؤدي إلى تقليل الجرائم ، وتأمين المجتمع . وما دامت العقوبة ملائمة للفرد وصالحة للجماعة ، فهي أفضل العقوبات وأعدلها .

ولكن ذلك كله لايكفي عند بعض الناس لتبرير عقوبة القطع ، لأنهم يرونها – كما

يقولون - عقوبة موسومة بالقسوة . وتلك حجتهم الأولى والأخيرة . **وهي حجة** داحضة . فإن اسم العقوبة مشتق من العقاب ، ولا يكون العقاب عقاباً إذا كان موسوماً بالرخاوة والضعف ، بل يكون لعباً أو عبثاً أو شيئاً قريباً من هذا . فالقسوة لابد أن تتمثل في العقوبة حتى يصح تسميتها بهذا الاسم .

☆ ☆ ☆

المقطع الرابع

ويمتدُّ من الآية (٤١) إلى نهاية الآية (٥٠) وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ

فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

كلمة في المقطع :

قلنا إن محور سورة المائدة من سورة البقرة هو الآيتان : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحق من ربهم وأما**

الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ◦ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ لاحظ قوله تعالى في الآيتين : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ ولاحظ قوله تعالى هنا في المقطع ﴿ **أولئك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم** ﴾ فههنا حديث عن أفعال يستحق بها أصحابها إضلال الله لهم ، هذه الأفعال هي أكل السحت ، والسماع للكذب وقبوله ، والتجسس للكافرين والمنافقين على المؤمنين ، والمسارعة إلى الكفر ، وفي ذلك نقض للعهد ، وإفساد في الأرض ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل .

وفي هذا السياق يحدثنا المقطع عن أن الحكمة في إنزال التوارة والإنجيل هي أن يُحكم بهما ، وأن يحتكم لهما ، وأنّ من لم يحكم بكتاب الله فهو كافر ظالم فاسق ، فإذا كان هذا هو الشأن في التوارة والإنجيل فما بالك بالقرآن الذي أنزله الله - عز وجل - مصدّقاً للكتب ومهيمناً عليها . وفي سياق التحذير من الاحتكام لغير القرآن يقول - عز وجل - ﴿ **فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون** ﴾ مما يدل على أن ترك حكم الله ردّة ، والاحتكام إلى الأهواء فسوق يستحق به أصحابه الإضلال . فهذا الجزء من المقطع إذن يفصّل لنا مظهراً من مظاهر الفسوق الذي يحدثنا عنه محور السورة من البقرة ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين ◦ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض** ﴾ إن هذا الجزء من المقطع يفصّل في الفسوق فيرينا نموذجاً منه هو رفض الاحتكام إلى كتاب الله ، أو الرغبة في تحكيم غيره ، أو الحكم بسواه ، وذلك يدخل في نقض العهد ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد في الأرض .

إن المقطع ينتقل من تقرير الأخلاق التي يستحق بها أصحابها زيغ القلب ، إلى ذكر تخيير الرسول ﷺ في أهل الكتاب في أن يحكم بينهم أوّلاً ، فإذا حكم فإنه يأمره أن يحكم بالقسط ، ومن مثل هذه الشئون ينتقل السياق للكلام عن حكمة إنزال الكتب ، ليقرر كفر من لم يحكم بما أنزل الله ، وظلمه ، وفسقه ، ثمّ يمضي السياق كما سنرى بانياً على ما مر بما ينير لهذه الأمة طريقها المستقيم .

المعنى العام :

ابتدأ المقطع بالكلام عن المسارعين في الكفر ، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ،

المقدّمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ، الذين يظهرون الإيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خراب خاوية منه ، وهؤلاء هم المنافقون . وتكلم المقطع عن اليهود أعداء الإسلام وأعداء أهله ، ثم وصف الجميع بأنهم يستجيبون للكذب ، وأنهم منفعلون فيه ، وأنهم يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلس رسول الله ﷺ ، أو أنهم جواسيس يتسمّعون كلام رسول الله ﷺ لينقلوه إلى قوم آخرين ، هؤلاء القوم الآخرون من صفاتهم تحريف كلام الله ، وتوصية بعضهم لبعض ألا يأخذوا من محمد عليه وآله الصلاة والسلام إلا ما وافق هذا الكلام المحرّف ، ومن كان من الناس من هذه الأنواع فقد أراد الله فتنته ولم يرد أن يطهّر قلبه ، وجعل له الذّلة في الدنيا والعذاب في الآخرة .

فالآيات تتحدث عن صنفين : صنف منافق وقد نهى الله رسوله ﷺ أن يحزن على مسارعتهم في الكفر . والصنف الثاني وهم اليهود يئس الله رسوله ﷺ منهم . وكيف لا ييأس ومن صفاتهم سماعهم للباطل ، وقبولهم إياه ، وأكلهم الحرام ، ومن كان كذلك فأنّى يستجيب لله أم كيف يطهر قلبه . فإذا كان الأمر كذلك وجاء هؤلاء يتحاكمون إلى رسول الله ﷺ فقد خُيّر الرسول ﷺ بين الحكم وعدمه ، وبُيّن له أن لا عليه ألا يحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليه اتّباع الحق بل ما يوافق أهواءهم ، أما إذا حكم بينهم فقد أمره الله أن يحكم بالحق وبالعدل وإنْ كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ، لأن الله يحبُّ أهل العدل والحق . ثمّ أنكر الله عليهم آراءهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً وهو التوراة ، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره . مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم ، وهو أمر محمد عليه الصلاة والسلام وفي النهاية فهم لا يقبلون حكم محمد ﷺ ولا حكم التوراة ، والحقيقة أنهم ليسوا مؤمنين أصلاً . ثمّ تحدّث الله عن كتبه الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن وما هو الموقف الصحيح منها ؟ وهو لزوم الاحتكام إليها ، وقبول هذا الحكم ، ووصَف رافض حكم الله في كتبه بالكفر والظلم والفسوق ، فبدأ بالكلام عن التوراة التي أنزلها الله على عبده ورسوله موسى بن عمران عليه السلام وأنّ فيها هدى ونوراً ، وأنّ النبيين والربانيّين والأحبار يحكمون بها ولا يخرجون عن حكمها ولا يبدّلونها ولا يحرّفونها ؛ قياماً منهم بحقّ ما استودعوه من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ، وأن يشهدوا الحق فيه ، وألا يخافوا أحداً إلا الله ، وألا يشتروا بالحق الدنيا .

ثم بيّن الله - عز وجل - حكمه فيمن ترك الحكم بما أنزل الله بأنه كافر . ثم ذكر الله - عز وجل - حكمًا من أحكام التوراة في هذا السياق وهو حكم قد أهملوه فذكر الحكم في هذا السياق فيه معنى التقريع أمّا الحكم فهو ما فرضه الله عليهم في التوارة من وجوب القصاص العادل ، النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسنّ بالسنّ ، والجروح قصاص ، والدية جائزة ، والعفو طيب ، وهم يخالفون حكم الله ذلك عمداً وعناداً ، وفي هذا السياق قرّر تعالى حكمه بأنّ من لم يحكم بما أنزل الله فإنه ظالم ، لأنّ حكم الله وحده هو العدل ، وما سواه ظلم ، فمن خالف حكم الله فقد تعدّى وظلم ، ثمّ جاء الكلام عن الإنجيل فبيّن تعالى أنّه أتبع على آثار أنبياء بني إسرائيل بعيسىٰ ابن مريم ، مؤمناً بالتوراة حاكمًا بما فيها ، وأن الله قد آتاه الإنجيل ، وأنّ في الإنجيل هدى إلى الحق ، ونوراً يستضاء به في إزالة الشبهات ، وحل المشكلات ، وأنّ الإنجيل موافق لما في التوارة ، غير مخالف لما فيها إلا في القليل الذي فيه توسعة على بني إسرائيل ، وأنّ الإنجيل فيه هدى يهتدى به ، وأنّ فيه موعظة وزاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم لمن اتقى الله وخاف وعيده ، هذا الإنجيل أنزله الله ليحكم به مَنْ خُوطبوا به . ثم بيّن الله - عز وجل - أن من لم يحكم بما أنزل فهو الفاسق الخارج عن طاعة ربه ، المائل إلى الباطل ، التارك للحق . ثمّ بدأ الكلام عن القرآن النّاسخ لما تقدمه ، والجامع لكل وحي أنزله الله فبيّن - عز وجل - أنه أنزل القرآن على رسوله ﷺ بالحق والصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله رب العالمين . وأنّ هذا القرآن يصدّق الكتب المتقدِّمة في كونها من عند الله ، وفي الأحكام والأخبار التي فيها ، وفيما أخبرت به من البشارة برسول الله ﷺ وكتابه الخاتم الناسخ ، وأنّ هذا القرآن أمين على وحي الله الذي أنزله الله من قبل ، فما وافقه منها فهو هو ، وما خالفه باطل ، وهو حاكم على كل كتاب قبله ؛ فقد جعله الله - عز وجل - آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ماليس في غيره فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكمًا عليها كلها ، وتكفّل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة . وإذا كان القرآن كذلك فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يحكم بين الناس عربهم وعجمهم أميِّهم وكتابيِّهم - بما أنزل الله إليه فيه ، وبما قرّره له من حكم من كان قبله من الأنبياء مما لم ينسخه شرعه ، ونهاه أن يتبع آراءهم ، أو أن ينصرف عن الحق الذي أمره الله به إلى أهواء الناس الذين هم جهلة وأشقياء إذا لم يهتدوا بكتاب الله . ثم أخبر الله - عز وجل - عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة

في الأحكام . المتفقة في التوحيد ، وأنه جعل لكل أمة سبيلاً وسنّة ، في التوارة شريعة ،وفي الإنجيل شريعة ، وفي الفرقان شريعة ، يحلُّ الله فيها ما يشاء ، ويحرِّم ما يشاء ، ليعلم من يطيعه ومن يعصيه ، والدِّين الذي لا يقبل الله غيره ، التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرُّسل عليهم الصلاة والسلام ، ثم بيَّن تعالى أنه لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد ، وشريعة واحدة ، لا يُنسخ شيء منها ، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ، ثم نسخها - أو بعضها - برسالة الآخر بعده ، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ الذي ابتعثه الله تعالى إلى أهل الأرض قاطبة ، وجعله خاتم الأنبياء كلهم ، وحكمة الشرائع المختلفة اختبار الله عباده فيما شرع وما نسخ ، ثمّ ندبهم تعالى إلى المسارعة إلى الخيرات ، والمبادرة إليها ، والخيرات هنا طاعة الله ، واتّباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله ، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله ، ثمّ بين تعالى أنّ مرجع الجميع ومعادهم ومصيرهم إليه يوم القيامة ؛ فيخبر الجميع بما اختلفوا فيه من الحق ، فيجزي الصادقين بصدقهم ، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذّبين بالحقّ ، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان ، بل هم معاندون للبراهين القاطعةِ ، والحجج البالغة ، والأدلة الدامغة . ثمّ كرّر الله - عز وجل - الأمر لرسوله ﷺ بالحكم بما أنزل ، وعدم اتباع أهواء البشر ، وأمره بالحذر من أن يُفتن عما أنزله إليه أوأن يتولى عن الحكم بما أنزل الله ، فذلك علامة الصرف عن الهدى بسبب الذنب ، ثم يقرر الله - عز وجل - أن أكثر الناس فاسقون خارجون عن طاعة ربهم ، مخالفون للحق ، ناكبون عنه ، ثم أنكر تعالى على من يخرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، النّاهي عن كل شر ، ويعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء أيريدون حكم الجاهلية ، وعن حكم الله يعدلون ؟ ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن به وأيقن ، وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ؟! فإنّه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء .

المعنى الحرفي :

﴿ **يأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر** ﴾ أي : لا تهتم ولا تبالِ بمسارعة المنافقين في الكفر أي : في إظهارهم ما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ، ومن موالاة المشركين ؛ فإني ناصرك عليهم ، وكافيك شرّهم . ومسارعتُهم في الكفر تعني

وقوعهم فيه أسرع شيء ، إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها ﴿ **من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم** ﴾ هؤلاء هم الذين يسارعون في الكفر ، أظهروا الإيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خراب خاوية منه وهؤلاء هم المنافقون ﴿**ومن الذين هادوا** ﴾ . أي : ومن اليهود أي وكذلك اليهود لا يحزنك مسارعتهم في الكفر ﴿ **سمّاعون للكذب** ﴾ هذه صفة اليهود والمنافقين ، أنهم يسمعون للكذب سماع قبول واستجابة أو المعنى : أنهم سمّاعون منك ليكذبوا عليك بأن يمسخوا ما سمعوا منك بالزيادة والنّقصان ، والتبديل والتغيير ﴿ **سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك** ﴾ يحتمل معنيين : **الأول** : أنهم جواسيس وعيون لناس آخرين ليبلغوهم ما سمعوا منك ، **والثاني** : أنهّم يسمعون ويطيعون ويستجيبون لأقوام آخرين ممن لا يحضرون مجلسك ﴿ **يحرّفون الكلم من بعد مواضعه** ﴾ الضمير في يحرّفون يعود على الأقوام الآخرين الذين يتجسس هؤلاء لحسابهم أو يطيعونهم والمعنى : يزيلون الكلم ويميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها ، فيجعلونه في غير مواضعه بعد أن كان ذا موضع ﴿ **يقولون** ﴾ . أي : المحرّفون ﴿ **إن أوتيتم هذا فخذوه** ﴾ . أي : إن أوتيتم هذا الكلام المحرّف المزال عن مواضعه فاعلموا أنه الحق واعملوا به ﴿ **وإن لم تؤتوه فاحذروا** ﴾ . أي : وإن سمعتم خلافة فإياكم وإيّاه ﴿ **ومن يرد الله فتنته** ﴾ . أي : ضلاله ﴿ **فلن تملك له من الله شيئاً** ﴾ هذا قطعُ رجاءٍ بإيمان هؤلاء ﴿ **أولئك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم** ﴾ . أي : عن الكفر لاختيارهم إياه ﴿ **لهم في الدنيا خزي** ﴾ خزيُ المنافقين في الدنيا فضيحتهم ، وخزي اليهود ذلتهم ﴿ **ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ . أي : التخليد في النار ﴿ **سمّاعون للكذب** ﴾ مر معنا معناه ، وتكريره للتأكيد ﴿ **أكّالون للسُّحت** ﴾ السحت : وهو كل ما لا يحل كسبه ويدخل في ذلك الرِّشوة ﴿ **فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾ هذا تخيير لرسول الله ﷺ إذا تحاكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم ، وبين ألا يحكم بينهم ، وذهب جمع من المفسرين : أنّ هذا التخيير منسوخ بقوله تعالى ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ ﴿ **وإن تعرض عنهم** ﴾ . أي : إلاّ تحكم بينهم ﴿ **فلن يضروك شيئاً** ﴾ . أي : فلن يقدروا على الإضرار بك لأنّ الله تعالى يعصمك من النّاس ﴿ **وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط** ﴾ . أي : بالعدل ﴿ **إن الله يحب المقسطين** ﴾ أي : العادلين ﴿ **وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله** ﴾ هذا تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه مع أنّ الحكم منصوص في كتابهم الذي يدّعون الإيمان به ﴿ **ثمّ يتولون من بعد ذلك** ﴾ أي : ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن

حكمك الموافق لما في كتابهم لا يرضون به ﴿ **وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ لا بك ولا بكتابهم كما يدّعون .

فوائد :

١ - في هذه الآيات الثلاث نهيٌ لرسول الله ﷺ أن يحزن لمسارعة نوعين من الناس في الكفر ، المنافقين واليهود ، ووصف هؤلاء ، ووعيد لهم بالذلّة بالدنيا والعذاب في الآخرة ، وقطع رجاء المؤمنين من إيمانهم ، وهذه قضية مهمة ، إذ ما السبب الذي استحق به هؤلاء عقوبة ألّا يُطهر الله قلوبهم ؟. أمّا المنافقون فسبب ذلك سماعهم للكذب سماع قبول ، وتجسسهم لحساب أعداء الله ، وأما اليهود فسبب ذلك تحريفهم كتاب الله ، وإرادتهم أن يكونوا قُوّاماً على دين محمّد ﷺ بدلاً من الإسلام له ، وسماعهم للكذب ، وأكلهم المال الحرام ، فإذا ربطنا بين هذه الآيات وبين محور السّورة من البقرة ﴿**وما يضل به إلا الفاسقين ° الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض** ﴾ أدركنا بعض الأسباب التي يستحقّ بها أهلها إضلال الله ، وأدركنا بعض مظاهر الفسوق عن أمر الله .

٢ - يذكر المفسرون سببي نزولٍ لهذه الآيات . قال ابن كثير : « وقد يكون اجتمع هذان السّببان في وقت واحد فنزلت هذه الآيات في ذلك كله » . وسنؤخر ذكر أسباب النزول لكنّا هنا نذكّر في أنّ خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ . فالعبرة لعموم اللفظ ، فكل من سمع لأعداء الله وتجسس لحسابهم على أولياء الله يدخل في الآيات ، وكل من حَرّف كلام الله ، وسمع للكذب ، وأكل السّحت يدخل في الآيات ، وإن كانت الآية في الأصل في اليهود ، وفي وقائع من وقائعهم .

﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى**﴾ يهدي للحق ﴿**ونور**﴾ يبين مااستُبهم من الأحكام ﴿ **يحكم بها النبيّون الذين أسلموا** ﴾ . أي : انقادوا لحكم الله في التوراة وهو صفة أُجريت للتبيين على سبيل المدح ، وأريد بإجرائها التعريض باليهود لأنهم بعداء من ملّة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم ﴿ **للذين هادوا** ﴾ . أي : للذين تابوا من الكفر ﴿ **والربانيون** ﴾ . أي : الزُّهاد ﴿ **والأحبار** ﴾ . أي : والعلماء أي وهؤلاء يحكمون بالتوراة ﴿ **بما استحفِظُوا** ﴾ . أي : بما استودعوا ﴿ **من كتاب الله وكانوا عليه شهداء** ﴾ . أي : رقباء لئلا يبدّل ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون** ﴾ هذا نهي لمَن

يحكم ، عن خشية غير الله - في حكومته ، وإمضائها على خلاف ما أمر به من العدل ؛ خشيةً من سلطان ظالم ، أو خيفة أذية أحدٍ ، وأمرٌ بخشية الله وحده أن يخالف أمره ﴿ **ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً** ﴾ . أي : ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه ثمناً قليلاً وهو الرّشوة وابتغاء الجاه ورضا النّاس ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله** ﴾ مستهيناً به ، أوجاحداً له ، أو مفضّلاً غيره عليه ، أو مستحِلاً ذلك ﴿ **فأولئك هم الكافرون** ﴾ وما أكثر هذا الكفر في عصرنا ؟ ﴿ **وكتبنا عليهم فيها** ﴾ . أي : وفرضنا على اليهود في التوراة ﴿ **أنّ النّفس بالنّفس** ﴾ أنّ النّفس مأخوذة بالنّفس مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق ﴿ **والعين بالعين** ﴾ . أي : والعين مفقوءة بالعين ﴿ **والأنف بالأنف** ﴾ . أي : والأنف مجدوع بالأنف ﴿ **والأذن بالأذن** ﴾ . أي : والأذن مصلومة بالأذن ﴿ **والسنَّ بالسنِّ** ﴾ . أي : والسن مقلوعة بالسن ﴿ **والجروحَ قصاص** ﴾ . أي : والجروح ذات قصاص وهو المقاصّة ومعناه ما يمكن فيه القصاص فحكمه القصاص ، وإلاّ فحكومة عدل ﴿ **فمن تصدّق به** ﴾ . أي : فمن تصدّق بالقصاص من أصحاب الحق وعفا عنه ﴿ **فهو كفارةٌ له** ﴾ . أي : فالتصدّق به كفّارة للمتصدق بإحسانه ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزله الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ إذ لا عدل إلاّ بحكم الله ، فمن امتنع عن الحكم بما أنزل الله فقد ظلم ﴿ **وقفّينا على آثارهم** ﴾ . أي : وجعلنا على آثار النّبيين الذين أسلموا ﴿ **بعيسى ابن مريم مصدّقاً لما بين يديه من التوراة** ﴾ . أي : مؤمناً بها ، حاكماً بما فيها ، بانياً عليها ﴿ **وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة** ﴾ . أي : الإنجيل فيه هداية وفيه نور ، وهو مصدّق للتوراة غير ناقض إياها بل مصدّق لها ﴿ **وهدى وموعظة** ﴾ . أي : هادياً وواعظاً ﴿ **للمتقين** ﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون بموعظة الإنجيل وهديه ﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه** ﴾ . أي : وأمرنا أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ . أي : هم الخارجون عن الطاعة .

يقول صاحب الظلال : « إله واحد . وخالق واحد . ومالك واحد . وإذن فحاكم واحد . ومُشرّع واحد . ومتصرف واحد ... وإذن فشريعة واحدة ، وقانون واحد .. وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله ، فهو إيمان وإسلام . أو معصية وخروج ، وحكم بغير ما أنزل الله ، فهو كفر وظلم وفسوق .. وهذا هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعاً عليه ، وكما جاء به كل الرسل من عنده .. أمة محمد والأمم قبلها على السواء ..

ولم يكن بد أن يكون « دين الله » هو الحكم بما أنزل الله دون سواه . فهذا هو مظهر سلطان الله . مظهر حاكمية الله . مظهر أن لا إله إلا الله .

وهذه الحتمية : حتمية هذا التلازم بين « دين الله » و« الحكم بما أنزل الله » لا تنشأ فحسب مِنْ أنَّ ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع . فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية . وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي . إنما السبب الأول والرئيسي ، والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله ، ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه وهذا هو « الإسلام » بمعناه اللغوي : « الاستسلام » . وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان .. الإسلام لله .. والتجرد عن ادعاء الألوهيـة معه ، وادعاء أخص خصائص الألوهية ، وهي السلطان والحاكمية وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون .

ولا يكفي إذن أن يتخذ البشر شرائع تشابه شريعة الله أو حتى شريعة الله نفسها بنصها ، إذا هم نسبوها إلى أنفسهم ، ووضعوا عليها شاراتهم ؛ ولم يردوها لله ؛ ولم يطبقوها باسم الله ، إذعاناً لسلطانه واعترافاً بألوهيته . وبتفرده بهذه الألوهية . التفرد الذي يجرد العباد من حق السلطان والحاكمية ، إلا تطبيقاً لشريعة الله ، وتقريراً لسلطانه في الأرض . ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذي تقرره الآيات في سياق السورة :

﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ .. ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ .. ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ .. ذلك أن الذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله - سبحانه - ورفضهم لإفراد الله - سبحانه - بهذه الألوهية . يعلنون هذا الرفض بعملهم وواقعهم وألسنتهم . ولغة العمل والواقع أقوى وأكبر من لغة الفم واللسان . ومن ثم يصمهم القرآن بالكفر والظلم والفسق ، أخذاً من رفضهم لألوهية الله ، حين يرفضون حاكميته المطلقة ؛ وحين يجعلون لأنفسهم خاصة الألوهية الأولى فيشرعون للناس من عند أنفسهم ما لم يأذن به الله » .

﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب** ﴾ . أي القرآن ﴿ **بالحق** ﴾ . أي : بسبب الحق وإثباته وتبيين الصواب من الخطأ ، أو بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿ **مصدقاً لما بين يديه من الكتاب** ﴾ . أي : يصدّق الكتب التي تقدمته نزولاً ، وإنما قيل لما قبل الشيء هو بين يديه ، لأن ما تأخر عنه يكون وراءه وخلفه ، فما تقدم عليه يكون قدامه

وبين يديه . والقرآن مصدق لجميع كتب الله ، لموافقته إياها في حال عدم تحريفها وتبديلها ، ولتقريره ما دعت إليه من إخلاص العبادة والتوحيد لله ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾(الأنبياء : ٢٥) . ﴿ **ومهيمناً عليه** ﴾ . أي : ومهيمناً على الكتب السابقة لأنه تضمّن ما تضمنته وزاد عليها من الكمالات مالا يعلمه ولا يحيط به إلا الله ، والهيمنة يدخل في معناها الشهادة ، والحكم ، والائتمان . فالقرآن مؤتمن على الحق الموجود في الكتب السابقة ، فكل ما خالفه مما هو موجود بين أيدي أصحابه الآن باطل ، والقرآن شهيد على الحق الذي فيها ، وحاكم على كل ما ينسب إليها ، فهو يشهد للحق فيها بالصحة والثبات ، ولغيره بالبطلان ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ . أي : بما في القرآن ﴿ **ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾ هذا نهي أن يحكم بما حرّفوه ، وبدّلوه ، اعتماداً على قولهم ، وقد تضمّن قوله تعالى : ﴿ **ولا تتبع** ﴾ أي : ولا تنحرف ، فلذا عدَّاه بعن ، فكأنه قيل : ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم ، أو لا تنحرف عادلاً عما جاءك من الحق اتباعاً لأهوائهم ﴿ **لكل جعلنا منكم** ﴾ أيها الناس ﴿ **شِرْعةً** ﴾ . أي : شريعة ﴿ **ومنهاجاً** ﴾ . أي : وطريقاً واضحاً ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة** ﴾ . أي : جماعة متفقة على شريعة واحدة ﴿ **ولكن ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ . أي : ولكن أراد أن يعاملكم معاملة المختبر فيما آتاكم من الشرائع المختلفة ، فَتَعَبَّد كلّ أمّة بما اقتضته الحكمة ، حتى أنزل هذا القرآن فَتَعَبَّد النّاس جميعاً به ﴿ **فاستبقوا الخيرات** ﴾ . أي : فابتدروها ، وسابقوا نحوها قبل الفوات بالوفاة والمراد بالخيرات : كل ما أمر الله تعالى به في شريعة محمد ﷺ ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعاً** ﴾ هذا تعليل لاستباق الخيرات ﴿ **فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ . أي : فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محقكم ، ومُبطلكم ، وعاملكم ومفرِّطكم في العمل . ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ هذا تأكيد للأمر بوجوب الحكم بما أنزل الله وحده ﴿ **ولا تتبع أهواءهم** ﴾ كائنة ماكانت هذه الأهواء ، متلبسة بالدين أو بغيره ﴿ **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ حذّره وهو رسول مأمون معصوم لتقتدي به أمته ، ولتقطع أطماع أهل الأهواء ﴿ **فإن تولوا** ﴾ أي : عن الحكم بما أنزل الله إليك ، وأرادوا غيره ﴿ **فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم** ﴾ . أي : بذنب التولي عن حكم الله ، وإرادة خلافه ، فوضع ببعض ذنوبهم موضع ذلك ، وهذا الإبهام لتعظيم التولي ، وفيه تعظيم الذّنوب فإن الذنوب بعضها مهلك ، فكيف بكلّها . دلّت

بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمّي ، وعلى قتل الحر بالعبد ، وقد خالفه الجمهور فيهما ، ففي الصحيحين : عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لايقتل مسلم بكافر » وأمّا العبد ففيه عن السّلف آثار متعدّدة أنهم لم يكونوا يُقيدُون العبد من الحر ، ولا يقتلون حراً بعبد ، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح . وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك ، ولكن لايلزم عن ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصّص للآية الكريمة .

ويؤيّد ما قاله ابن الصبّاغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك ، كما قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك : أنّ الرّبيّع عمّة أنس كَسَرت ثنيّة جارية ، فطلبوا إلى القوم العفو ، فأبوا ، فأتوا رسول الله ﷺ فقال : « القصاص » ، فقال أخوها أنس بن النضر : يارسول الله تكسر ثنية فلانة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ياأنس كتاب الله القصاص » . قال : فقال : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة قال : فرضي القوم فعفوا وتركوا القصاص . فقال رسول الله ﷺ : « إنّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه » . أخرجاه في الصحيحين . وقد رواه محمد بن عبدالله بن المثنى الأنصاري في الجزء المشهور من حديثه عن حميد عن أنس بن مالك : أن الرّبيّع بنت النضر عمته لطمت جارية فكسرت ثنيتها . فعرضوا عليهم الأرش ، فأبوا ، فطلبوا الأرش والعفو فأبوا ، فأتوا رسول الله ﷺ فأمرهم بالقصاص . فجاء أخوها أنس بن النضر فقال : يارسول الله أتكسر ثنيّة الرّبيّع ؟ والذي بعثك بالحق لاتكسر ثنيّتها . فقال النبي ﷺ : « ياأنس : كتاب الله القصاص » فعفا القوم فقال رسول الله ﷺ : « إنّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه» . رواه البخاري عن الأنصاري .

٦ – ورد في آية القصاص قوله تعالى : ﴿ **والجروح قصاص** ﴾ والقاعدة في هذا : أن الجراح تارة تكون في مفصل ، فيجب فيه القصاص بالإجماع ، كقطع اليد والرِّجل والكفّ والقدم ونحو ذلك ، وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل ، بل في عظم ، فقال مالك رحمه الله : فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها ، لأنه مخوف خطر . وقال أبوحنيفة وصاحباه : لايجب في شيء من العظام إلا في السن . وقال الشافعي : لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً ، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد ، وقد احتج أبوحنيفة رحمه الله بحديث الرّبيّع بنت النّضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلا في السن . وقال الفقهاء لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجني عليه ، فإن اقتص منه

قبل الاندمال ثم زاد جراحه فلا شيء عليه ، فلو اقتص المجني عليه من الجاني ، فمات من القصاص ، فلا شيء عليه عند مالك ، والشافعي ، وأحمد . وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم . وقال أبو حنيفة تجب الدّية في مال المقتص . وقال الشعبي والثوري وآخرون : تجب الدية على عاقلة المقتصّ له . وقال ابن مسعود وآخرون : يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ، ويجب الباقي في ماله .

٧ - قال ابن كثير تعليقاً على قوله تعالى ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ... ﴾ « ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، النّاهي عن كل شرٍّ ، وعَدَلَ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان ، الذي وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه . فصارت في بنيه شرعاً متّبعاً ، يقدّمونها على الحكم بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ . فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكّم سواه في قليل ولا كثير » اهـ . كلام ابن كثير . ونقول : إن الذي رأى ابن كثير نموذجاً عنه في عصره في صورة الياسق نراه تقريباً في كل قطر إسلامي في صورة دساتير ، وقوانين ، ولوائح ، وشعارات معتمدة تقريباً ، من كل حكومة وفي كل قطر إسلامي ، والذي أفتى به ابن كثير نفتي به فنقول : إن على المسلمين في كل قطر -إن استطاعوا- أن ينصحوا ويُبيِّنوا لكلِّ من يحمي هذه الأوضاع هذا الأمر من أجل أن تصبح كلمة الله هي العليا ، وإذا نجح المسلمون في قطر في الوصول إلى هذه النتيجة فعليهم أن يساعدوا إخوانهم في بقية الأقطار للوصول إلى النتيجة نفسها .

٨ ــ أخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة الناجي قال : سمعت الحسن يقول : من حكم بغير حكم الله ، فحكم الجاهلية . وروى الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أبغض الناس إلى الله - عز وجل - متبع في الإسلام سنّة الجاهلية ، وطالب دم امرىء بغير حق ليريق دمه » . وروى البخاري نحوه بزيادة .

٩ - ذكرنا سابقاً أنّ المفسرين يذكرون سببي نزولٍ للآيات الأولى من المقطع ، والآن جاء أوان الروايات في ذلك نقلاً عن ابن كثير مع اختصارٍ للأسانيد :

أ - نزلت في اليهوديين اللذين زنيا وكانوا (أي اليهود) قد بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم ، فحرّفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة ، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين فلمّا وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه ، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوه عنه ، واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبيٌّ من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك ، وقد وردت الأحاديث بذلك ، فقال مالك : عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما تجدون في شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، قال عبدالله بن سلام : كذبتم : إنّ فيها الرجم فأتَوْا بالتوراة ، فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبدالله بن سلام : ارفع يدك . فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا : صدقت يامحمد فيها آية الرجم ! فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها بالحجارة . أخرجاه وهذا لفظ البخاري . وفي لفظ له قال لليهود : « ما تصنعون بهما ؟ » قالوا : « نسخّم أي (نسود) وجوههما ونخزيهما . قال : (فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين) فجاؤوا ، فقالوا لرجل منهم ممّن يرضون أعور : اقرأ فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها ، فوضع يده عليها ، قال : ارفع يدك ، فرفع ، فإذا آية الرجم تلوح ، قال : يامحمد ، إنّ فيها آية الرجم ، ولكنا نتكاتمه بيننا . فأمر بهما فرجما . وعند مسلم : أنّ رسول الله ﷺ أتي بيهودي ويهودية قد زنيا ، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود ، فقال : « ماتجدون في التوراة على من زنى » قالوا : نسوِّد وجوههما ونحممهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما ، قال : « فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين » . قال : فجاؤوا بها فقرأوها حتى إذا مرّ بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام - وهو مع رسول الله ﷺ - : مُرْه فليرفع يده ، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . قال عبدالله بن عمر : كنت فيمن رجمهما ، فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه . وقال أبوداود عن ابن عمر قال : أتىٰ نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القف (وهو وادٍ في المدينة) ، فأتاهم في بيت المدراس فقالوا : ياأباالقاسم ، إن رجلاً منّا زنى بامرأة ، فاحكم ، قال : ووضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها ، ثم قال : « ائتوني بالتوراة ، فأتي بها ، فنزع الوسادة من تحته

ووضع التوراة عليها وقال : آمنت بكِ وبمن أنزلكِ » . ثم قال : « ائتوني بأعلمكم » فأُتي بفتىً شاب ، ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما . وقال الزهري : سمعت رجلاً من مزينة ، ممن يتّبع العلم ويعيه ، ونحن عند ابن المسيّب عن أبي هريرة قال : زنى رجل من اليهود بامرأة ، فقال بعضهم لبعض : اذهبوا إلى النّبي ، فإنّه بعث بالتخفيف ، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، وقلنا : فتيا نبيٍّ من أنبيائك . قال : فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه ، فقالوا : ياأباالقاسم ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا ؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتىٰ بيت مدراسهم ، فقام على الباب فقال : « أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسىٰ ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن ؟ » قالوا : يحمّم ويُجبَّه ويجلد . والتجبية : أن يحمل الزانيان على حمار ، وتقابل أقفيتهما ، ويطاف بهما . وسكت شاب منهم ، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت ألَظَّ به رسول الله النّشدة ، فقال : اللهمّ إذ نشدتنا فإنّا نجد في التوراة الرّجم ، فقال النبي ﷺ : « فما أوّل ما ارتخصتم أمر الله ؟ » قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا ، فأخرّ عنه الرجم ، ثم زنى رجل في أثره من النّاس ، فأرادوا رجمه ، فحال قومه دونه وقالوا : لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه . فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم . فقال النبي ﷺ : « فإني أحكم بما في التوراة » فأمر بهما فرجما . قال الزهري : فبلغنا أنّ هذه الآية نزلت فيهم ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النّبيون الذين أسلموا** ﴾ فكان النبي ﷺ منهم . رواه أحمد وأبوداود وهذا لفظه وابن جرير . وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : مرّ على رسول الله ﷺ رجلٌ مجلود ، فدعاهم فقال : « أهكذا تجدون حدّ الزّاني في كتابكم ؟ » فقالوا : نعم . فدعا رجلاً من علمائهم فقال : « أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسىٰ أهكذا تجدون حدّ الزّاني في كتابكم ؟ » فقال : لا والله ، ولولا أنّك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجد حدّ الزنى في كتابنا الرّجم ، ولكنّه كثر في أشرافنا ، فكنّا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع . فاجتمعنا على التحميم والجلد ، فقال النّبي ﷺ : « اللهم إنّي أوّل من أحيا أمرك إذْ أماتوه » . قال : فأمر به فرجم . قال : فأنزل الله – عز وجل – ﴿ **ياأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه** ﴾ . أي : يقولون ائتوا محمداً ﷺ فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرّجم فاحذروا ، إلى قوله ﴿ **ومن لم يحكم بما**

أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ قال في اليهود إلى قوله ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ قال في اليهود ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ قال : في الكفار كلها : انفرد بإخراجه مسلم .

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده عن جابر بن عبد الله قال : زنى رجل من أهل فدك ، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة ، أن سلوا محمداً عن ذلك ، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه ، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه . فسألوه عن ذلك فقال : « أرسلوا إليَّ أعلم رجلين فيكم » فجاؤوا برجل أعور يقال له ابن صوريا ، وآخر فقال لهما النبي ﷺ : « أنتما أعلم مَنْ قِبَلكما ؟ » فقالا : دعانا قومنا لذلك، فقال النبي ﷺ لهما : « أليس عندكما التوراة فيها حكم الله ؟ » قالا : بلى ، فقال النبي ﷺ : « فأنشدكم بالذي فلق البحر لبني إسرائيل ، وظلّل عليكم الغمام ، وأنجاكم من آل فرعون ، وأنزل المنّ والسلوى على بني اسرائيل ، ما تجدون في التوارة في شأن الرجم ؟ » فقال أحدهما للآخر : ما نشدت بمثله قطّ ، ثم قالا : نجد ترداد النّظر زنية ، والاعتناق زنية ، والتقبيل زنية ، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يبدىء ويعيد كما يدخل الميل في المكحلة فقد وجب الرجم . فقال النبي ﷺ : « هو ذاك » فأمر به فرجم ، فنزلت ﴿ **فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضرّوك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنّ الله يحب المقسطين** ﴾ .
ورواية أبي داود عن جابر قال : جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا ، فقال : « ائتوني بأعلم رجلين منكم » فأتوه بابني صوريا فنشدهما : « كيف تجدان أمر هذين في التوراة ؟ » . قالا : نجد إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذَكَرَهُ في فرجها مثل الميل في المكحلة رُجما ، قال : « فما يمنعكم أن ترجموهما ؟ » قالا : ذهب سلطاننا فكرهنا القتل ، فدعا رسول الله ﷺ بالشّهود ، فجاء أربعة فشهدوا أنّهم رأوا ذَكَره مثل الميل في المكحلة ، فأمر رسول الله برجمهما » .

ومن خلال النّظر في هذه النصوص نرى أن سبب النزول هذا ينطبق على أحد احتمالات النّص ، ولكنّ النّص أوسع وأعمُّ من سبب النزول هذا ، وإن كان سبب النزول يعيِّن واحدة من الحالات التي تدخل تحت عموم النّص كما ذكرنا أكثر من مرة . ونحب هنا أن نذكر أن حكم الرجم المذكور في هذه النصوص على أنه موجود في التوراة قد نقلناه فيما مضى من تفسير سورة المائدة عن التوراة الحالية عند قوله تعالى ﴿ **يبيّن**

لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾ فليراجع .

ب - روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : إن الله أنزل : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ . ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ ، ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال : قال ابن عباس : أنزلها الله في الطائفتين من اليهود وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية ، حتى ارتضوا - أواصطلحوا - على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً ، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ المدينة ، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلًا ، فأرسلت العزيزة إلى الذّليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق ، فقالت الذليلة : وهل كان هذا في حيين قط دينهما واحد ، ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد : دية بعضهم نصف دية بعض ، إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا ، وفَرَقاً منكم ، فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم ذلك ، فكادت الحرب تهيج بينهما ، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم ، ثمّ ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف مايعطيهم منكم - ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم . فدُسّوا إلى محمدّ من يَخْبُر لكم رأيه : إن أعطاكم ما تريدون حكّمتموه ، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكّموه ، فدَسُّوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليَخْبروا لهم رأي رسول الله ﷺ . فلما جاءوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله ،وما أرادوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ إلى قوله ﴿ الفاسقون ﴾ ففيهم والله أنزل وإياهم عنى الله - عزوجل - » وروى ابن جرير عن ابن عباس أنّ الآيات التي في المائدة قوله ﴿ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾ - إلى ﴿ المقسطين ﴾ إنما أنزلت في الدية في بني النّضير وبني قريظة ، وذلك أنّ قتلى بني النضير كان لهم شرف تؤدّى الدية كاملة ، وأن قريظة كان يؤدّى لهم نصف الدية ، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك ، فجعل الدية في ذلك سواء ، والله أعلم أي ذلك كان » ثم قال ابن جرير عن ابن عباس قال : كانت قريظة والنّضير ، وكانت النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل القريظي رجلاً من النضير قُتل به ، وإذا قتل النضيري رجلاً من قريظة وُدي بمائة وسق من تمر ، فلما بعث رسول الله ﷺ قتل رجلٌ من النضير رجلاً من قريظة فقالوا : ادفعوه إليه ، فقالوا بيننا وبينكم رسول الله ، فنزلت ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم

بالقسط ﴾ . ورواه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم في المستدرك من حديث عبيد الله بن موسى بنحوه » .

ومن خلال النظر في سبب النزول هذا للآيات نفسها ندرك كذلك حالة من الحالات التى تدخل تحت عموم اللفظ ، ويؤكد لنا سببُ النزول وحدة المقطع كله كما ذكرناه ، وتبقى الحالات التي تدخل تحت عموم ألفاظ النّص كثيرة ، فلنفهم مدلولات القرآن بأوسع ما تدل عليه لا بأضيقه .

١٠ - وفي سبب نزول آخر آيات المقطع نذكر هذه الرواية : روى محمد بن إسحق عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد ، وابن صلوبا ، وعبد الله بن صوريا ، وشاس بن قيس ، بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن دينه !، فأتوه ، فقالوا : يا محمد إنّك قد عرفت أنّا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وإنّا إن اتّبعناك اتّبعَنا يهود ولم يخالفونا ، وإنّ بيننا وبين قومنا خصومة ، فنحاكمهم إليك ، فتقضي لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك !، فأبى ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله - عز وجل - فيهم ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ إلى قوله ﴿ **لقوم يوقنون** ﴾ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

ونرى من خلال هذه الرواية ، نوعاً من أنواع التآمر ، يظهر بصيغته البسيطة هذه ، في هذه القصة ، ويأخذ شكلًا معقداً في عصرنا ، وفي كل حال يبقى الأمر بالحكم بما أنزل الله ، وتنفيذه هو العاصم من كل تآمر ، والانحراف دليل الوقوع في التآمر . ولعلّه لاحظنا من خلال أسباب النزول ، نوعاً من الخلل وقع فيه بنو إسرائيل ، ولعلّه وضح لدينا أنّ هذا النوع من الخلل وقعت فيه أكثرية الأمّة الإسلامية ، وأنه لابدّ من عودة شاملة إلى القرآن والسنّة ، ولاشك أن دون ذلك قوى عاتية ومؤسسات ، وعلينا أن نتجاوز ذلك كله بإذن الله .

كلمة في السياق :

لقد قلنا إن سورة المائدة امتداد لسورة النساء من ناحية ، وهي في الوقت نفسه تفصّل في آيتي البقرة : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ...** ﴾ إلى قوله ﴿ **وأولئك هم الخاسرون** ﴾ من ناحية ثانية ، فمن حيث إنها امتداد لسورة النساء فإن هذا المقطع يؤكد أنه لاتقوى إلا بتحكيم ماأنزل الله ، ومن حيث إنهاتفصّل آيتي البقرة

اللتين تضمنتا الحديث عن من يضل بكتاب الله ، وهم الذين ينقضون الميثاق ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، وبكلمة واحدة « الفاسقون » قال تعالى في الآيتين ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ فهذا المقطع أعطانا صوراً جديدة للفاسقين الذين لايستأهلون أن يطهّر الله قلوبهم ، ومن خلال هذا فهمنا صورة من صور نقض الميثاق ، والإفساد في الأرض ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل فإذا اتضح هذا فلْننْقل بعض النقول ، ولنعقد بعض الفصول :

نقل : نلاحظ أن قضية الحكم بما أنزل الله ، وأن ما يقابل ذلك هو الجاهلية كانتا المعنى الرئيسي في المقطع ، وقد أفاض صاحب الظلال في الكلام عن هاتين القضيتين في مقدمة كلامه عن هذا المقطع فلنر كلامه :

قال : « يتناول هذا الدرس أخطر قضية من قضايا العقيدة الإسلامية والمنهج الإسلامي . ونظام الحكم والحياة في الإسلام .. وهي القضية التي عولجت في سورتي آل عمران والنساء من قبل .. ولكنها هنا في هذه السورة تتخذ شكلاً محدداً مؤكداً ، يدل عليها النص بألفاظه وعباراته ، لابمفهومه وإيحائه ..

إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضي - ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان - والقضية في جوهرها تتلخص في الإجابة على هذا السؤال : أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى ؛ وكتبها على الرسل ، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم ؟ أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة ، والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله ، والعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال ؟ أو في آخر : أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس ؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يُشرّع للناس ما لم يأذن به الله ؟

الله - سبحانه - يقول : إنه هو الله لا إله إلا هو . وإنّ شرائعه التي سنّها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له ، وعاهدهم عليها وعلى القيام بها ؛ هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض ، وهي التي يجب أن يتحاكم إليها الناس ، وهي التي يجب أن يقضي بها الأنبياء ومن بعدهم من الحكام ...

والله - سبحانه - يقول : إنه لا هوادة في هذا الأمر ، ولاترخُص في شيء منه ، ولا

بألوهية الله وربوبيته وقوامته وسلطانه .. ويستوي أن يكون الاستسلام أو الرفض باللسان أو بالفعل دون القول .. وهي من ثم قضية كفر أو إيمان ، وجاهلية أو إسلام . ومن هنا يجيء هذا النص : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ .. ﴿ **الظالمون** ﴾ .. ﴿ **الفاسقون** ﴾ .

والاعتبار الثاني هو اعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس .. هذه الأفضلية التي تشير إليها الآية الأخيرة في هذا الدرس : ﴿ **ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ .. والاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة الله ، في كل طور من أطوار الجماعة ، وفي كل حالة من حالاتها .. هو كذلك داخل في قضية الكفر والإيمان .. فما يملك إنسان أن يدّعي أن شريعة أحد من البشر ، تفضل أو تماثل شريعة الله ، في أية حالة أو في أي طور من أطوار الجماعة الإنسانية .. ثم يدّعي – بعد ذلك – أنه مؤمن بالله ، وأنه من المسلمين .. إنه يدّعي أنه أعلم من الله بحال الناس ؛ وأحكم من الله في تدبير أمرهم . أو يدّعي أن أحوالا وحاجات جرت في حياة الناس ، وكان الله – سبحانه – غير عالم بها وهو يشرّع شريعته ؛ أو كان عالماً بها ولكنه لم يشرّع لها ! ولاتستقيم مع هذا الادعاء دعوى الإيمان والإسلام مهما قالها اللسان !

فأما مظاهر هذه الأفضلية فيصعب إدراكها كلها . فإن حكمة شرائع الله لاتنكشف كلها للناس في جيل من الأجيال . والبعض الذي ينكشف يصعب التوسع في عرضه هنا .. في الظلال .. فنكتفي منه ببعض اللمسات : إن شريعة الله تمثل منهجاً شاملاً متكاملاً للحياة البشرية ؛ يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية ؛ في جميع حالاتها ، وفي كل صورها وأشكالها ..

وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني ، والحاجات الإنسانية ، بحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان ؛ وبطبيعة النواميس التي تحكمه ، وتحكم الكينونة الإنسانية .. ومن ثم لايفرّط في شيء من أمور هذه الحياة ؛ ولايقع فيه ، ولا ينشأ عنه أي تصادم مدمّر بين أنواع النشاط الإنساني ؛ ولا أي تصادم مدمّر بين هذا النشاط والنواميس الكونية ؛ إنما يقع التوازن والاعتدال ، والتوافق والتناسق .. الأمر الذي لا يتوافر أبداً لمنهج من صنع الإنسان الذي لايعلم إلا ظاهراً من الأمر ؛ وإلا الجانب المكشوف في فترة زمنية معينة ؛ ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنساني ؛ ولايخلو من التصادم المدمّر بين بعض ألوان النشاط وبعض . والهزات العنيفة الناشئة عن

هذا التصادم . وهو منهج قائم على العدل المطلق .. أولاً .. لأن الله يعلم حق العلم بما يحقق العدل المطلق وكيف يتحقق .. وثانياً .. لأنه - سبحانه - رب الجميع ؛ فهو الذي يملك أن يعدل بين الجميع ؛ وأن يجيء منهجه وشرعه مُبرَّأً من الهوى والميل والضعف - كما أنه مبرأ من الجهل ؛ والقصور والغلو والتفريط - الأمر الذي لايمكن أن يتوافر في أي منهج أو في أي شرع من صنع الإنسان ، ذي الشهوات والميول ، والضعف والهوى - فوق ما به من الجهل والقصور - سواء كان المشرّع فرداً ، أو طبقة ، أو أمة ، أو جيلاً من أجيال البشر .. فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها ؛ فوق أنّ لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله حتى في الحالة الواحدة في الجيل الواحد ..

وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله . لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله . صانع الكون وصانع الإنسان . فإذا شرع للإنسان شرع له كعنصر كوني ، له سيطرة على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه ، بشرط السير على هُداه ، وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التي تحكمها .. ومن هنا يقع التناسق بين حركة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه ، وتأخذ الشريعة التي تنظم حياته طابعاً كونياً ، ويتعامل بها لا مع نفسه فحسب ، ولا مع بني جنسه فحسب ! ولكن كذلك مع الأحياء والأشياء في هذا الكون العريض ، الذي يعيش فيه ، ولا يملك أن ينفُذَ منه ، ولا بدَّ له من التعامل معه وفق منهاج سليم قويم .

ثم إنه المنهج الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان .. ففي كل منهج - غير المنهج الإسلامي - يتعبد الناس الناس . ويعبد الناس الناس . وفي المنهج الإسلامي - وحده - يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك ..

إن أخص خصائص الألوهية - كما أسلفنا - هي الحاكمية .. والذي يشرّع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها . فهم عبيده لا عبيد الله . وهم في دينه لا في دين الله . والإسلام حين يجعل الشريعة لله وحده ، يُخْرِج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويعلن تحرير الإنسان ، بل يعلن « ميلاد الإنسان » .. فالإنسان لا يولد ، ولا يوجد ، إلا حيث تتحرر رقبته من حكم إنسان مثله ؛ وإلا حين يتساوى في هذا الشأن مع الناس جميعاً أمام رب الناس ..

إن هذه القضية التي تعالجها نصوص هذا الدرس هي أخطر وأكبر قضايا العقيدة ..

إنها قضية الألوهية والعبودية .. قضية العدل والصلاح . قضية الحرية والمساواة . قضية تحرر الإنسان – بل ميلاد الإنسان – وهي من أجل هذا كله كانت قضية الكفر أو الإيمان ، وقضية الجاهلية أو الإسلام ..

والجاهلية ليست فترة تاريخية ؛ إنما هي حالة توجد كلما وجدت مقوّماتها في وضع أو نظام .. وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر ، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة . ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد ، أو أهواء طبقة ، أو أهواء أمة ، أو أهواء جيل كامل من الناس .. فكلها – مادامت لا ترجع إلى شريعة الله – أهواء ..

يشرّع فرد لجماعة فإذا هي جاهلية . لأن هواه هو القانون .. أو رأيه هو القانون .. لا فرق إلا في العبارات ! ويشرّع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية .. لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبداً من الأهواء ، ولأن جهل الناس الذين لا يتجردون أبداً من الجهل ، هو القانون – أو لأن رأي الشعب هو القانون – فلا فرق إلا في العبارات ! وتشرّع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية . لأن أهدافها القومية هي القانون – أو رأي المجامع الدولية هو القانون – فلا فرق إلا في العبارات !

ويشرّع خالق الأفراد ، وخالق الجماعات ، وخالق الأمم والأجيال ، للجميع فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد . لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولة ، ولا لجيل من الأجيال . لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء . ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع ، فلا يفوته – سبحانه – أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط .

ويشرّع غير الله للناس .. فإذا هم عبيد مَن يشرّع لهم . كائناً من كان . فرداً أو طبقة أو أمة أو مجموعة من الأمم .. يشرّع الله للناس .. فإذا هم كلهم أحرار متساوون ، لا يحنون جباههم إلا لله ، ولا يعبدون إلا الله.

ومن هنا خطورة هذه القضية في حياة بني الإنسان ، وفي نظام الكون كله : ﴿ **ولو اتّبع الحقُ أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومَن فيهن** ﴾ .. فالحكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج – في النهاية – عن نطاق الإيمان .. بنص القرآن .. » .

فصل في السّحت :

السحت : هو الحرام ، قال الألوسي في اشتقاقه : « من سحتّه إذا استأصلته ، وسمي الحرام سحتاً – عند الزجّاج – لأنه يعقب عذاب الاستئصال والبوار ، وقال الجبائي : لأنه لا بركة فيه لأهله فيهلك هلاك الاستئصال غالباً ، وقال الخليل : لأن في طريق كسبه عاراً فهو يسحت مروءة الإنسان ، والمراد به هنا – على المشهور – الرشوة في الحكم ، وروي ذلك عن ابن عباس . والحسن .

وأخرج عبد بن حميد . وغيره عن ابن عمر قال : قال رسول الله : « كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به ، قيل : يا رسول الله وما السّحت ؟ قال : الرشوة في الحكم » وأخرج عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله قال : « هدايا الأمراء سحت » . وأخرج ابن المنذر عن مسروق قال : « قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : أرأيت الرشوة في الحكم أمِنَ السّحت هي ؟ قال : لا ، ولكن كفر ، إنما السحت أن يكون للرجل عند السلطان جاه ومنزلة ، ويكون للآخر إلى السلطان حاجة ، فلا يقضي حاجته حتى يهدي إليه هدية » وأخرج عبد بن حميد عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه سئل عن السّحت ، فقال : « الرشا ، فقيل له في الحكم ؟ قال : ذاك الكفر » وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود نحو ذلك ، وأخرج ابن مردويه . والديلمي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ست خصال من السّحت : رشوة الإمام – وهي أخبث ذلك كله – وثمن الكلب . وعسب الفحل . ومهر البغي . وكسب الحجام . وحلوان الكاهن » . وعدّ ابن عباس رضي الله تعالي عنه في رواية ابن منصور والبيهقي عنه أشياء أُخر . قيل : ولعظم أمر الرشوة اقتصر عليها من اقتصر ، وجاء من طرق عن النبي ﷺ : « أنه لعن الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما » . أقول : قد أبيح كسب الحجام فإن صح الحديث فإن هذا الجانب منه منسوخ .

فصل : في احتكام الكفار إلينا :

بمناسبة الكلام عن قوله تعالى : ﴿ **فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾ قال الألوسي : وهذا كما ترى تخيير له ﷺ بين الأمرين ، وهو معارض لقوله تعالى : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ وتحقيق المقام على ما ذكر الجصاص – في كتاب الأحكام – أن العلماء اختلفوا ، فذهب قوم إلى أن التخيير منسوخ بالآية الأخرى ، وروي ذلك عن ابن عباس ، وإليه ذهب أكثر السلف . قالوا : إنه ﷺ كان أولاً مخيّراً ثم أُمر عليه

شريعة الجاهلية ، وحكم الجاهلية ، ويجعل هواه هو - أو هوى شعب من الشعوب ، أو هوى جيل من أجيال البشر - فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله ؟

ما الذى يستطيع أن يقوله .. وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين ؟! الظروف ؟ الملابسات ؟ عدم رغبة الناس ؟ الخوف من الأعداء ؟ ألم يكن هذا كله في علم الله ؛ وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته ، وأن يسيروا على منهجه ، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله ؟ قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة ، والأوضاع المتجددة ، والأحوال المتقلبة ؟ ألم يكن ذلك في علم الله ؛ وهو يُشدِّد هذا التشديد ، ويحذِّر هذا التحذير ؟ يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء .. ولكن المسلم .. أو من يدّعون الإسلام .. ما الذى يقولونه من هذا كله ، ثم يبقون على شيء من الإسلام ؟ أو يبقى لهم شيء من الاسلام ؟

إنه مفرق الطريق ، الذي لا معدى عنده من الاختيار ؛ ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال .. إما إسلام وإما جاهلية . إما إيمان وإما كفر . إما حكم الله وإما حكم الجاهلية ..

والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون . والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ما هم بمؤمنين ..

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم ، وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه ؛ والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء !

وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية ، فلن يستقيم له ميزان ، ولن يتضح له منهج ، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل ؛ ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح .. وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة ، أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس ؛ فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا « المسلمين » وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم ..

فصل : في التكفير :

في كتابنا الإسلام ذكرنا عشرين ناقضاً من نواقض الشهادتين وقد رأينا أن ابن كثير يعتبر المؤمنين بالياسق والملتزمين بها كفاراً يجب قتالهم وقتلهم حتى يتركوها ويحتكموا

إلى كتاب الله ، ولا أتصور أن أحداً من علماء المسلمين الأثبات يخالفه فيما ذهب إليه .

فالإسلام جدٌّ وليس هزلًا ، والإسلام لا يقبل دخلًا ولا دغلًا ، وصراط الله دقيق وميزان الله - عز وجل - عادل ومن استفتانا في أحدٍ نَقَض الشهادتين أفتيناه بالكفر ، ومن استفتانا في نظام يرفض الالتزام بالإسلام ويلتزم في دساتيره وقوانينه بغيره أفتيناه بكفره بلا تردد .

بل نقول : إنّ أي حزب يرفض الإسلام ، أو يريد أن يخلطه بغيره ، أو يتبنى في مجموع آرائه ونظرياته ما هو كفر ، فهو كافر ، وأن أي حكومة تتبنى في مجموع دساتيرها وقوانينها ما يعتبر ناقضاً للشهادتين فإننا نعتبرها كافرة ، ومن يؤيدها، ويناصرها ، فيما هي فيه فهو كذلك كافر فالأنظمة التي تشبه التتار في اعتمادها الياسق أو الياسا حكمها حكمهم .

غير أن الحكم على نظام بالكفر لا يعني الحكم على كل فرد من أفراده بالكفر ، بل قد نحكم على النظام كله بالكفر ونحكم لرئيسه نفسه بالإسلام ، ومن ثَمّ نقول : إن الحكم على كل فرد بعينه إنما يخضع للفتوى المعتبرة البصيرة من أهلها على ضوء النصوص ، وهذه أمور تحتاج إلى تفصيل : لقد خدم يوسف عليه السلام في نظام كافر له شريعة تختلف عن شريعة يوسف بدليل قوله تعالى : ﴿ **ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك** ﴾ وبدليل قوله تعالى :﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم في شك مما جاءكم به** ﴾ والشك كفر ، وإذن فنحن نحكم على النظام الذي خدم فيه يوسف بالكفر ، بينما يوسف عليه السلام رسول من الرّسل .

وهذا النجاشي حكم له رسول الله ﷺ بالإسلام وصلّى عليه عندما مات صلاة الغائب ، وكان على رأس نظام كافر؛ لأنه لم يكن يحكم بشريعة القرآن ، ومع ذلك فنحن نحكم عليه بأنّه مسلم . لقد عطّلت الدولة العثمانية نظام الحدود منذ منتصف القرن التاسع عشر بسبب الظروف الضاغطة فيما زعموا ، واستبدلت بها غيرها ، ومنذ تلك اللحظة أصبح النظام كافراً ، ولكن هل نحكم على السلطان عبد الحميد نفسه بالكفر وهو الذي لا يُشَكّ في حرصه على الإسلام ، وفي رغبته في إقامته ، ولكنّه كان أعجز من أن يستطيع أن يفعل شيئاً في زعمه وفي تقدير الكثيرين .

هل نحكم بالكفر على رجل قَبِل وزارة ليخدم الإسلام في ظلّ نظام كافر ؟ الذي

نقوله : إنّ هذه الأمور تخضع للفتوى البصيرة من أهلها ، فالفتوى تقدّر زمانا ومكاناً وشخصاً ، وفي كثير من الأحيان قد لا يتأتى لنا أن نعرف كل الحيثيات التي من خلالها نستطيع أن نصدر الحكم .

إن فقهاء المسلمين مختلفون حول الجهل في دار الإسلام هل يعتبر كفراً قبل البيان أو بعده ؟ فبعض الفقهاء كالشافعية يرون : أنه لا يحكم على مسلم بالكفر في إنكار معلوم من الدين بالضرورة إلا بعد البيان . ولكنّ كل العلماء يرون أنّ الجهل في « دار الحرب » والكفر يعتبر عذراً ، فإذا اتضحت هذه النقطة بالذات ، وعرفنا أن أكثر العلماء يعتبرون أن الأرض التي تعطِّل الحكم بشريعة الله دار حرب ، إذا أدركنا ذلك عرفنا أن الحكم على كل فرد بعينه بالكفر بسبب بعض المكفّرات يحتاج إلى فتوى تضع كلّ الأمور باعتبارها ، ومن ذلك قضية الرخصة والعزيمة ، وقضية الأحكام الأصلية ، والفتوى بسبب الأوضاع الاستثنائية ، ومن ذلك موضوع فقه الحركة والدّعوة ، واحتياجات الحركة اليومية ، وأشياء أخرى فصّلناها في محلّها من هذه السلسلة وفي كتب أخرى .

عودة إلى السياق :

قلنا إن القسم الأول من السورة تألف من المقاطع الثلاثة الأولى والآن نقول : إن القسم الثاني يتألف من مقطعين ، المقطع الذي مرّ معنا ، والمقطع الذي سيأتي ليبدأ قسم ثالث مبدوء بقولة تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول** ﴾ كما بُدىء القسم الثاني .

فلنر المقطع الخامس في السورة ، وهو المقطع الثاني من القسم الثاني من سورة المائدة .

٭ ٭ ٭

المقطع الخامس

ويمتدُّ من الآية (٥١) إلى نهاية الآية (٦٦) وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

☆ ☆ ☆

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ
إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ
وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ
مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد
دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾
وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ
وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم
مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

كلمة في المقطع :

- يأتي هذا المقطع ليوضّح ما أمر الله به أن يوصل ، فإذا كانت المقاطع السابقة قد جاء فيها نقض الميثاق ، والإفساد في الأرض بشكل أوضح ، فإن هذا المقطع يذكر فيه ما أمر الله به أن يوصل بشكل أوضح ، فالولاء لله ورسوله ﷺ والمؤمنين فريضة ، فهذا مما أمر الله به أن يوصل . والولاء للكافرين والمنافقين لا يجوز ، فمن لم يعط الولاء لأهل الإيمان فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل ، ومن أعطى ولاءه للكافرين والمنافقين فقد وصل ما أمر الله به أن يقطع ، وهذا أول مظهر من مظاهر صلة المقطع بمحور سورة المائدة من سورة البقرة . لاحظ الصلة بين محور السورة وبعض معان في هذا المقطع :

في السورة من البقرة : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين ۝ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾

وفي هذا المقطع نرى قوله تعالى : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ ﴿ **حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين** ﴾ ﴿ **قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون** ﴾ وفي محور السورة نجد قوله تعالى ﴿ **ويفسدون في الأرض** ﴾ وفي هذا المقطع نجد عن اليهود ﴿ **ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين** ﴾ .

وهذا كله يؤكد صلة المقطع بمحوره من سورة البقرة ، ويؤكد صحة ما اتجهنا إليه في فهم الوحدة القرآنية .

في المقطع السابق على المقطع الذي بين أيدنا رأينا فسوق أهل الكتاب ، ورأينا كلاماً عن الراغبين في حكم الجاهلية ، وفي هذا المقطع يحرم الله - عز وجل - علينا موالاة أهل الكتاب ، ويحذّرنا من الردة ، ويبيّن لنا خصائص الجماعة المسلمة ، وأن من جملة هذه الخصائص الولاء لله والرسول ﷺ والمؤمنين ، ثم ينهانا ربنا - عز وجل - عن

موالاة الكافرين مطلقاً ، ويبين لنا كثيراً من مواقف الكافرين جملة ، ومواقف أهل الكتاب خاصة ، مما هو كالتعليل لمنعنا عن موالاتهم ، فارتباط المقطع بعضه ببعض وارتباطه بما قبله ، ومحله في سياق السورة الخاص وصلة ذلك بمحور السورة من البقرة كل ذلك له علاماته الكبرى .

المعنى العام :

ينهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله . ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض . ثم تهدّد وتوعّد من يتعاطى موالاتهم ووصفه بالظُّلم ، وأن الله لا يحبُّه ، وأيُّ عقوبة أفظع من أن يبغض الله إنساناً ؟ ثمّ أخبر تعالى عن الذين في قلوبهم مرض ، وشكٌّ ، ونفاق ، كيف أنهم يبادرون إلى موالاتهم ومودّتهم في الباطن والظاهر ، متأولين في مودتهم وموالاتهم ، أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين ، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى ، أو الكافرين عامة ، فينفعهم ذلك ، ناسين أن النصر بيد الله ، وأن الأمر كله له ، وقد ذكرَ الله هؤلاء وغيرهم أنّ هؤلاء سيندمون على ماأسرُّوه في أنفسهم ، من موالاة الكافرين يوم ينصر الله جنده ، ويعلي كلمته ، وعندئذ سيجدون أن ما كان منهم لم يغن عنهم شيئاً ، ولا دفع عنهم محذوراً بل على العكس ، كان عين المفسدة لهم ، فإنهم فُضحوا وأظهر الله أمرهم لعباده المؤمنين ، بعد أن كانوا مستورين لايُدرى كيف حالهم ، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبيّن أمرهم لعباد الله المؤمنين ، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ومعهم ، ويحلفون على ذلك أشدّ الحلف ، فبان كذبهم وافتراؤهم ، وأحبط الله أعمالهم ، فكانوا خاسرين [وورود كلمة خاسرين في هذا السياق يذكّرنا بالارتباط في محور سورة المائدة من سورة البقرة ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ إذ أن هؤلاء نقضوا العهد والميثاق ، وما أمر الله به أن يوصل من ولاء أهل الإيمان بعضهم لبعض] .

ثم أخبر تعالى عباده المؤمنين عن قدرته العظيمة ورعايته لشؤون دينه بأنه عندما يتولى أحد عن نصرة دينه ، وإقامة شريعته ، فإنّ الله سيستبدل من هو خير لها منه وأشدُّ منعة ، وأقوم سبيلًا ، ممّن يتّصفون بالتواضع للمؤمنين ، والشدّة على الكافرين ، والعزّة عليهم ، ممن يحبون الله ويحبهم الله ، ممن يجاهدون في سبيل الله ، ولا يردّهم عمّا هُم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعداء الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لايردهم عن ذلك رادّ ، ولايصدهم عنه صادّ ، ولا يؤثر فيهم لوم لائم ، ولا

عذل عاذل ، ثم بيّن الله أنّ الاتصاف بهذه الصفات أثر عن فضله وتوفيقه ، وهو الواسع الفضل ، العليم بمن يستحق ذلك ممن لا يستحقه ، وبعد أن حرّم الله في بداية المقطع تولي اليهودوالنصارى ، فضلًا عن غيرهم من الكافرين ، حدّد من يستحقون ولاية المسلم ، فذكر أنه لا يستحقها إلا الله ورسوله والمؤمنون ، المتصفون بإقام الصلاة التي هي بعد الشهادتين أكبر أركان الإسلام ، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ، ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين ، ثم أعطى الله وعده أن كل من يرضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو منصور وغالب في الدنيا والآخرة ، ثم أعاد الله الكرّة بالتنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله ، من الكتابيين والمشركين ، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون - وهي شرائع الإسلام المطهرة ، المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي - يتخذونها هزواً يستهزؤون بها ، ويعتقدون أنها نوع من اللعب ، في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد ، فكل من اتخذ دين الله هزواً ولعباً من كتابي أو ملحد أو مشرك ، فقد نهى الله عن موالاته . فأي جهل هذا الجهل العريض الذي وقع فيه عامّة المسلمين وخاصتهم ، عندما يوالون مَنْ هذا شأنه من زعماء أحزاب أو قادة سياسيين ، أو رؤساء دول ، ثم أمر الله - عز وجل - بتقواه وبالخوف منه ؛ إذ بدون تقوى فلا إيمان ، وكما يستهزىء هؤلاء بدين الله وشرائعه ، فإنّهم إذا أذّن المسلمون داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال - لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب - يتخذون الصلاة هزواً ولعباً ؛ بسبب جهلهم بمعاني عبادة الله وشرائعه ، وما أكثر ما نصادف هؤلاء في عصرنا ، حتى من أبناء المسلمين ، الذين يعتبرون الصلاة لاتليق بالخاصّة ، ويعتبرونها نوعاً من أنواع الحركات الرياضية ، يغني عنها غيرها بل يفضلها ، ألا ما أجهلهم بجلال الله وحقه في أن يُعْبد ، وماأكثر ماستطاع أعداء الله أن يكفروا أبناء المسلمين .

وبعد أن نهى الله عن اتخاذ الكافرين كلهم أولياء ، ناصّاً على أهل الكتاب خاصة ، لأنهم مظنة أن يخدعوا المسلمين ، فإنه أمر أن نوجّه لهم الخطاب في تسفيه ماهم عليه . فلا يكفي أن يكون موقفك من الكفر وأهله سلبياً ، بل لابد من موقف إيجابي ، لأنه بدون ذلك لايسلم لك حتى الموقف السلبي . ومن ثم أصدر الله أمره لرسوله ﷺ - وهو أمر في الوقت نفسه للأمّة - أن تقول لأهل الكتاب هل لكم مطعن علينا أو عيب ، إلا أننا نؤمن بالله حق الإيمان ، وماأنزل علينا وما أنزل عليكم ، وهل تنقمون منا إلا لأنكم فاسقون عن أمر الله ، لاتلتزمونه ونحن نلتزم أمر الله كاملًا ، ثم أمرنا أن نقول لهم : هل نخبركم بمن هو شرٌّ

جزاءً عند الله يوم القيامة ؟ إنّهم أنتم المتصفون بما استوجبتم به لعنة الله ، وغضبه ومسخه لكم ، قردة وخنازير ، أنتم الذين عبدتم الطاغوت من دون الله ، فأنتم إذن شرٌّ مكاناً مما تظنون بنا ، وأنتم الضّالّون عن سواء السبيل ، وبمناسبة النهي عن موالاتهم والأمر بتقريعهم يذكر لنا حالة من حالاتهم كي لانخدع بهم ، ثم حالة أخرى تنفر منهم وتقزّز النّفس من أحوالهم ، أما الحالة الأولى فهي أنهم أحياناً يصانعون المؤمنين ، بإعلان الإيمان في الظاهر ، وقلوبهم منطوية على الكفر ، ويدخلون على رسول الله ﷺ وهم مستصحبون الكفر ، ويخرجون من عنده والكفر كامن في أنفسهم لم ينتفعوا بما قد سمعوا من رسول الله ﷺ من العلم ، ولم تنجع فيهم المواعظ ، ولا الزواجر ، والله عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم ، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك ، وتزينوا بما ليس فيهم ، فإنّ الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم ، وسيجزيهم على ذلك أتمّ الجزاء . أما الحالة الثانية فهي أنهم يبادرون إلى تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على النّاس ، وأكلهم أموالهم بالباطل ، فلبئس العمل عملهم ، وبئس الاعتداء اعتداؤهم ، وهذه الحالة التي هم عليها لاينهاهم عنها زُهّادهم ولاعلماؤهم ، فلبئس صنيع الجميع . ثم أخبر تعالى عن مظهر من مظاهر جهل اليهود بالله ، وسوء أدبهم معه ، إذ يصفونه تعالى بأنه بخيل ، جامعين إلى ذلك سوء التعبير ، وقد ردّ الله - عز وجل - عليهم ماقالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه ، بأن جعل أيديهم مغلولة ، ولعنهم بسبب قولهم هذا ، وبيّن تعالى أنه وحده الكريم ذو الكرم المطلق ، لأنه ذو المشيئة المطلقة ، فهو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه ، وما بخلقه من نعمة فمنه وحده لاشريك له ، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه في ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفي جميع أحوالنا ، فهل هو الذي يستحق الولاية أم هؤلاء ؟

ولنتذكّر أن هذا كله يأتي في سياق المقطع الذي ينهى عن موالاة هؤلاء وأمثالهم ، ليكون قطع الولاء مبنيّاً على أساس من الفهم العميق لوضع هؤلاء ، ونفسيّتهم ، وسلوكهم ، ومن أجل أن نزداد بصيرة بيّن تعالى أنّ مايؤتي الله - عز وجل - محمداً ﷺ وأمّته من النّعم لايزيد هؤلاء اليهود وأشباههم إلا نقمة ، فبينما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً ، وعلماً نافعاً ، يزداد به الكافرون الحاسدون له ولأمته طغياناً ، وقد عاقبهم الله - عز وجل - بأن ألقى بينهم العداوة والبغضاء ، والخصومة والجدال في الدين ، فلا تجتمع قلوبهم أبداً ، وقد خالفوا رسول الله ﷺ وكذبوه ، وقد وعدنا الله أنه كلما عقدوا أسباباً يكيدوننا بها ، وكلما أبرموا أمراً يحاربوننا فيه ، أبطله الله ، وردّ

كيدهم عليهم ، وحاق مكرهم السيِّء بهم . ثم بينّ الله - عز وجل - أنّ من سجيّتهم أنهم دائماً يسعون في الأرض فساداً ، والله لايحب مَن هذه صفته ، ولم يتضح في عصر من العصور صفة الإفساد لليهود كما اتضحت فى عصرنا ، ومن كان هذا شأنه ، ومن كان الله ضدّه ، ومن تكفّل الله بإبطال مخططاته ، فإنّه حري أن يُعادىٰ لا أن يوالى ، ومن خلال ذكر الإفساد في الأرض نتذكر الصلة بين هذا المقطع ومحور السورة . ثم بيّن تعالى أن أهل الكتاب لو اجتمع لهم الإيمان والتقوى لكفّر الله عنهم ذنوبهم ، وأدخلهم الجنة ، ولو أن أهل الكتاب عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولاتبديل ولاتغيير لقادهم ذلك إلى اتّباع الحق ، والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ ،فإنّ كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه ، لو أن أهل الكتاب اجتمع لهم هذا لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض مع تكفير السيئات ودخول الجنة ، ولكن الواقع ليس كذلك فإنّ قسماً منهم فقط ، اجتمع له الاقتصاد في العمل ضمن هذه الحدود ، وأما البقية فأعمالهم سيئة ونياتهم سيئة ، وعلى الكفر والظلم والفسوق مقيمون ، وبهذا ينتهي هذا المقطع الذي يعمّق قضية الولاء ، التي أمر الله أن تكون هي الجامعة بين المؤمنين ، وحرّم أن تكون بين أهل الإيمان وغيرهم ، وقد بدأ المقطع في تحريم الولاء لليهود والنصارى . وختم المقطع بما ينفّر من كل معنى من معاني الولاء لليهود والنصارى ، وإذا كان الأمر كذلك في اليهود والنصارى ، وإذا كان هذا شأن هؤلاء فما بال الأبشع والأقبح أهل الإلحاد والشرك ؟

وهكذا جاء النهي عن موالاة الكافرين بين تعليلين ، تعليل سابق في المقطع الرابع ، وتعليل لاحق في المقطع الخامس .

وجاء تحديد صفات حزب الله ، التي من جملتها تحرير الولاء لله والرّسول والمؤمنين ، بين نهيين عن موالاة الكافرين .

فاتضح بهذا القسم في مقطعيه ما ينبغي أن يُوصَل وما ينبغي أن يُقطَع .

إن الكافرين والمنافقين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ،وهو موالاة الله ورسوله ﷺ والمؤمنين ، ويصلون ماأمر الله به أن يقطع ، وهو موالاة الشيطان وأهله ،وبذلك استحقوا الإضلال : ﴿وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ .

لقد اتضح لنا من سورة المائدة ما به يستحق ناس هداية الله بهذا القرآن ، وما به يستحق ناس إضلال الله لهم بهذا القرآن ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾ .

فمن تتبع ماورد في سورة المائدة ، عرف طريق الهداية ، وعرف طريق الضلال ، وعرف الكثير من تفصيلات الفسوق وضده ، ومن تفصيلات قطع ما أمر الله به أن يوصل وضده ، ومن تفصيلات الإفساد في الأرض وضده ، وكل ذلك ضمن سياق السورة الخاص ، بما يرتبط به القرآن بعضه ببعض ، بأكثر من رابطة ووشيجة ، روابط ووشائج لايحيط بها إلا الله تعالى .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ . أي : تنصرونهم وتستنصرونهم ، وتؤاخونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين . ثم ذكر علّة ذلك فقال : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ دلّ هذا على أن الكفر ملّة واحدة تجاه الإسلام والمسلمين ، فما أسخف من ينسى هذا ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ أي : من جملتهم وحكمه حكمهم . وهذا تغليظ من الله ، وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين ، وقد كتبنا كتابنا « جند الله ثقافة وأخلاقاً » وكان هدفاً من أهدافه أن نبيّن أهمية الولاء في دين الله ، ونبيّن حدوده ، فليراجع . ﴿ **إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ . أي : لايرشد الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفر ، وقوله تعالى هنا : ﴿ **لايهدي ....** ﴾ يذكرنا بالآيتين اللتين هما محور سورة المائدة واللتين فيهما ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين ...** ﴾ فإذا تذكرنا هذا علمنا كيف أن هذا المقطع يأخذ محله في سياق السورة ضمن محورها ليطهر القلوب من كل ما يهلكها . ويربيها على كل مايزكيها ﴿ **فترى الذين في قلوبهم مرض** ﴾ . أي : نفاق ﴿ **يسارعون فيهم** ﴾ أي : يبادرون في موالاة اليهود والنصارى وأمثالهم ومعاونتهم ، والسبب الدافع لذلك هو ﴿ **يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة** ﴾ . أي : يقولون في أنفسهم نخاف أن تصيب المسلمين حادثة ، أو نازلة تدور بالحال التي يكونون عليها من الظهور والغلبة ، فمن أجل أن تكون لهم أياد ووجه عند الكافرين ، يبادرون إلى موالاتهم ، هذا لسان حالهم وللمسلمين ظهور ، فكيف إذا كانت الدائرة للإسلام والمسلمين كما هو الحال في زماننا ، فإنك ترى العجب العجاب من مسارعة أهل النفاق للتهالك على أبواب أهل الكفر وخدمتهم ، والتقرّب إليهم بضرب أولياء الله وحربهم ﴿ **فعسى الله أن يأتي بالفتح** ﴾ . أي : لرسول الله ﷺ والمسلمين وللإسلام على الأعداء ﴿ **أو أمر من عنده** ﴾ . أي : أن

يؤمر النبي عليه الصلاة السلام بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم . أو أن يكون لله مراد في شأن أهل الكفر يذلّهم به ويرغمهم ، أو أن يكون لله أمر تشريعي من عنده في شأن أهل الكفر والنفاق وقد فعل ﴿ **فيصبحوا على ماأسرُّوا في أنفسهم نادمين** ﴾ . أي : فيصبح أهل النفاق على ما أخفوه في أنفسهم من النفاق نادمين ﴿ **ويقول الذين آمنوا** ﴾ بعضهم لبعض إذا ظهر نفاق أهل النفاق وتكشّف ﴿ **أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم** ﴾ . أي : أهؤلاء الذين أقسموا لكم بأغلظ الإيمان ، مجتهدين في توكيد أيمانهم ، أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار ﴿ **حبطت أعمالهم** ﴾ . أي : ضاعت أعمالهم التي عملوها رياءً وسمعة ، لا إيماناً وعقيدة . وهذا من قول الله - عز وجل - شهادة بحبوط الأعمال ، وتعجيباً من سوء حالهم ﴿ **فأصبحوا خاسرين** ﴾ في الدنيا والعقبى لفوات المعونة ودوام العقوبة .

فوائد :

١ - أخرج ابن أبي حاتم عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ماأخذ وماأعطى في أديم واحد . وكان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك ، فعجب عمر وقال : إن هذا لحفيظ ، هل أنت قارىء لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام ؟ فقال : إنه لايستطيع ، فقال عمر : أجُنُب هو ؟ قال : لا ، بل نصراني . قال : فانتهرني وضرب فخذي ، ثم قال : أخرجوه ، ثم قرأ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ الآية » أقول : هل يفهم من هذا حرمة إعطاء الذمّي عملاً للمسلمين ؟ المسألة ذات صور متعددة ، تختلف باختلاف الأعمال ، والأحوال والظروف ، والزمان والمكان ، وتحكم فيها الفتوى البصيرة من أهلها .

٢ - وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال : قال عبد الله بن عتبة : ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لايشعر . قال : فظنناه يريد هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنّصارى أولياء** ﴾ الآية . من مثل هذه النصوص والفهوم تدرك هذه الحقيقة المهمّة في الإسلام ، وهي أن الولاء يجب أن يكون للإسلام والمسلمين ، أو بتعبير آخر إنّ الولاء يجب أن يكون للإسلام وأهله ، أو بتعبير آخر إن الولاء يجب أن يكون للإسلام وللجماعة المسلمة ، والجماعة أن تكون على الحق ولو كنت وحدك .

٣ - اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات : فذكر السّدي أنها

نزلت في رجلين ، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أُحُد : أما أنا فإنيّ ذاهب إلى ذلك اليهودي فآوي إليه وأتهوّد معه ، لعلّه ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث ، وقال الآخر : أما أنا فإنيّ ذاهب إلا فلان النصراني بالشام فآوي إليه وأتنصّر معه ، فأنزل الله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ الآيات .

وقال عكرمة : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة ، فسألوه ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه أي إنّه الذبح . رواه ابن جرير . وقيل : نزلت في عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، كما روى ابن جرير .. عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إن لي موالي من يهود ، كثير عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أُبي : إني رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية مواليّ ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي : « يا أبا الحباب ، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه » . قال : قد قبلت ! فأنزل الله - عز وجل : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ الآيتين . ثم روى ابن جرير .. عن الزهري قال : لما انهزم أهل بدر ، قال المسلمون لأوليائهم من اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر ، فقال مالك بن الصيف : أغرّكم أن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال ، أما لو أسررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد أن تقاتلونا ، فقال عبادة بن الصامت : يارسول الله إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم ، كثيراً سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولاية يهود ، ولا مولى لي إلا الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : لكني لا أبرأ من ولاية يهود إني رجل لابدّ لي منهم ، فقال رسول الله : « يا أبا الحباب أرأيت الذي نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه » . فقال : إذاً أقبل !قال : فأنزل الله . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ .

وقال محمد بن إسحق : فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع فحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة قال : فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أُبي بن سلول حين أمكنه الله منهم فقال : يا محمد أحسن في مواليّ - وكانوا حلفاء الخزرج - قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ

فقال : يا محمد أحسن في مواليّ ، قال : فأعرض عنه ، قال : فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « أرسلني » . وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً ، ثم قال : « ويحك أرسلني » . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ، إني امرؤ أخشى الدوائر ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « هم لك » . قال محمد بن إسحق ، فحدثني أبا إسحق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبّث بأمرهم عبد الله بن أُبي وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ - وكان أحد بني عوف بن الخزرج - له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي - فجعلهم إلى رسول الله ﷺ وتبرّأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وقال : يارسول الله أبرأ إلى الله وإلى رسوله ﷺ من حلفهم ، وأتولىٰ الله ورسولَه والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم ، ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض** ﴾ إلى قوله ﴿ **ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ . وروى الإمام أحمد .. عن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أُبي نعوده ، فقال له النبي ﷺ : « قد كنت أنهاك عن حب يهود » . فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات . وكذا رواه أبو داود من حديث محمد بن إسحاق » . يقصد عدو الله أن يردّ على قول الرسول عليه الصلاة السلام بأن أسعد بن زرارة قد أبغضهم سماعاً لأمرك ، فلم يغنِ عنه ذلك شيئاً وها قد مات فَلِمَ تنهاني عنهم ؟

بعد ذكر أسباب النزول هذه نستطيع أن نقول : إن للنّفاق مظاهر متعددة متجددّة ، فللنفاق مظاهره عندما تكون الدولة للمسلمين . وللنفاق مظاهره عندما تكون الدولة للكافرين ، وللنفاق مظاهره عندما تكون المسألة بين بين ، أو تحتمل وتحتمل . وفي أسباب النزول المارّة مظهر من مظاهر هذا النفاق في حالة من الحالات .

والأصل الذي ينبغي أن نعرفه أن النفاق مرض في القلب يصيب الإنسان كما يصيبه الكفر أو الحسد أو الحقد أو الغل أو الكبر ، وأنّ المظهر الرئيسي لهذا المرض هو الولاء للكافرين والمنافقين ، هذا الولاء يكون خفياً أحياناً ، ويكون ظاهرياً أحياناً ، ويكون بشكل ويكون بآخر على حسب الأحوال ،ولابد أن نلاحظ في أنفسنا أنّ من واجبنا أن

نُطهِّر هذه الأنفس من النفاق بالسلوك الحقيقي لطريق الإيمان ، وأن نقطع كل معنى من معاني الولاء في أنفسنا لأعداء الله ، وكذلك علينا أن نلاحظ في عملية التربية للمسلمين أن نعمّق قضية الإيمان في أنفسهم ، وأن نحرّر هذه الأنفس من كل مظاهر الولاء المنحرف . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه** ﴾ . أي : من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى ما كان عليه من الكفر ﴿ **فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾ . أي : يرضى أعمالهم ويثني عليهم بها ، ويطيعونه ويؤثرون رضاه ، ويسيرون في الطرق المؤدية إلى محبته ، ويتخلون عن الطرق التي تؤدي إلى ما يبغض ﴿ **أذلة على المؤمنين** ﴾ الأذلة جميع ذليل ، والذليل بيِّن الذُّل ، وقد قال تعالى : أذلة على المؤمنين ، ولم يقل أذلة للمؤمنين ليضمّن الذّل معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع ، وهذه الذّلّة ذلة الولد لوالده ﴿ **واخفض لهما جناح الذُّل من الرحمة** ﴾ (الإسراء : ٢٤) فهي أثر عن الرحمة ، ولذلك وصف الرسول ﷺ وأصحابه ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ (الفتح : ٤٩) ﴿ **أعزّة على الكافرين** ﴾ . أي : أشداء عليهم ، والعَزَاز الأرض الصلبة ، فهم مع المؤمنين كالولد لوالده ، والعبد لسيده ، ومع الكافرين كالسبع على فريسته ﴿ **يجاهدون في سبيل الله** ﴾ بقتال أعدائه ﴿ **ولا يخافون لومة لائم** ﴾ . أي : يجاهدون وحالهم في الجهاد خلاف حال المنافقين ، لأن المنافقين لا يعملون شيئاً يعلمون أنهم بسببه يلحقهم لوم من جهة الكافرين ، أمّا المؤمنون فصفتهم الجهاد في سبيل الله ، وهم صلّاب في دينهم إذا شرعوا في أمر من أمور الدين ، لا تروعهم لومة لائم ، لا تؤثر فيهم ، ولا تمنعهم عن المضيّ فيه . واللّومة : المرّة من اللوم ، وفي تنكير اللومة ولائم مبالغتان ، فكأنه قيل لا يخافون شيئاً قط من لوم واحد من اللوّم ، وفي عصرنا حيث تزداد حملات الإعلام العالمي ضد الجهاد وأهله ، يدرك المسلم ضرورة التحقق بهذه الصفة . وفي عصرنا - عصر ضعف المسلمين - إذ يَفرضُ الضعف منطقه على الكثيرين ، فيلومون مَنْ جاهد ، ندرك ضرورة التحقق بهذه الصفة ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ هذا إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة ، وانتفاء خوف اللومة ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ ومن سعته كثرة إفضاله ، ومن علمه أن يعطي هذه الصفات لمن هو أهلها . وبعد أن ذكر في بداية هذا المقطع من تجب معاداته يذكر الآن من تجب موالاته فقال : ﴿ **إنما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ إنما تفيد الاختصاص أي : المذكورون وحدهم يُخصّون بالموالاة وتجب لهم . ولم يجمع الولي وإن

كان المذكور جماعة تنبيهاً على أن الولاية لله أصل ، ولغيره تبع ، ولو قيل إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا ، لم يكن في الكلام أصل وتبع ، وأما قوله تعالى : ﴿ **ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ قال ابن كثير : « فقد توهّم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله ﴿ **ويؤتون الزكاة** ﴾ . أي : في حال ركوعهم ، ولو كان هذا كذلك ، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره ؛ لأنه ممدوح ، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب ، أن هذه الآية نزلت فيه ، وذلك أنه مرّ به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه » . وبعد أن ذكر ابن كثير هذه الروايات ، قال : وليس يصحّ شيء منها بالكليّة ، لضعف أسانيدها ، وجهالة رجالها ، ثم نقل عن ابن عباس قوله : نزلت في المؤمنين ،وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أولهم ﴿ **ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ . أي : فإنهم هم الغالبون . دلّت الآية على أن الذين يتولون الله ورسوله والمؤمنين هم حزب لله ، وأن الله ناصرهم ، وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حزبهم أي أصابهم .

فوائد :

١ - جاءت هذه الآيات الثلاث المبدوءة بـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ بين مجموعتين من الآيات كل منهما مبدوءة بـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ وكل منهما تنهى عن موالاة الكافرين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء** ﴾ فكأنها وهي بين مجموعتين تنهيان عن موالاة الكافرين تقول : كونوا على هذه الصفات ، ووالوا من توافرت به هذه الصفات ، لا أولاء ولا أولئك ، ولقد رأينا في أسباب النزول أنّ هذا المقطع كله مع أول آية من المقطع اللاحق كل ذلك نزل في حادثة واحدة .

٢ - في كتابنا « جند الله ثقافة وأخلاقاً » برهنّا في القسم الثاني منه أنّ الأخلاق الأساسية الجامعة في الإسلام هي هذه الأخلاق الواردة ما بين قوله تعالى : ﴿ **من يرتد منكم** ﴾ .... إلى قوله .. ﴿**هم الغالبون** ﴾ فليراجع الكتاب فإن فيه كثيراً من الخير ، وقد قال ابن كثير في الآية : هذه صفات المؤمنين الكمّل .

٣ - قال النسفي في آية الردة : « وفيه دليل نبوته عليه السلام حيث أخبرهم بما لم يكن فكان ، وإثبات خلافة الصديق لأنه جاهد المرتدين ، وصحة خلافته وخلافة عمر رضي الله عنهما » .

٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال : لما نزلت ﴿ **فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه** ... ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هم قوم هـذا » أي أبي موسى الأشعري وقد كان لأهل اليمن دورهم الكبير في إنهاء الردة السابقة ، ونرجو أن يكون لهم دور جديد في إنهاء هذه الردة المعاصرة ، وكل المسلمين مطالبون بإنهائها .

٥ - بمناسبة هذه الآيات نقل ابن كثير بعض الأحاديث وهذه هي :

أ - روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : « أمرني خليلي ﷺ بسبع : أمرني بحب المساكين والدنوّ منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي ، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرّاً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول لاحول ولاقوة إلا بالله ، فإنهن من كنز تحت العرش » .

ب - وروى الإمام أحمد عن أبي المثنى أنّ أبا ذرّ رَضِيَ الله عنه قال : « بايعني رسول الله ﷺ خمساً وأوثقني سبعاً ، وأشهد الله علي تسعاً - أن لا أخاف في الله لومة لائم - قال أبو ذر : فدعاني رسول الله ﷺ فقال : « هل لك إلى بيعة ولك الجنة » قلت : نعم ، قال : وبسطت يدي ، فقال النبي ﷺ وهو يشترط علي «أن لاتسأل الناس شيئاً » قلت : نعم ، قال : « ولا سوطك إن يسقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه » .

جـ - وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا لا يمنعنّ أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده ، فإنه لا يقرِّب من أجل ، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكِّر بعظيم » تفرّد به أحمد .

د - وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لايحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال ، فلا يقول فيه ، فيقال له يوم القيامة : مامنعك أن تكون قلت في كذا وكذا ؟ فيقول : مخافة النّاس . فيقول : إياي أحق أن تخاف » ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة .

هـ - وروى أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري عن النّبي ﷺ قال : « إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى إنّه ليسأله يقول له : أيْ عبدي رأيت منكراً فلم تنكره ؟ فإذا لقّن الله عبداً حجته قال : أيْ رب وثقت بك وخفت الناس » .

و - وثبت في الصحيح : « ماينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه قالوا : وكيف يذلّ نفسه يا رسول الله ؟ قال : يتحمل من البلاء ما لا يطيق » . أقول : وكل امرىء أدرى بما يطيق ، وعندما يكون الأمر فرض عين فعلى كل إنسان أن يقيمه بقدر استطاعته .

٦ - لقد وقعت الرِّدَّة الأولى بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة ، ولكن توافر للمسلمين وقتذاك أمور : قائد واحد هو أبو بكر ، وصَفّ واحد ، وتربية رفيعة ، وجهاد . والآن لا جهاد ، ولا تربية رفيعة ، ولا صفاً واحداً ، ولا قائداً واحداً ، ومن ثمّ فإن هذه الردّة تمتدُّ وتستمرُّ ، ولا بدّ للمسلمين الآن من طريق ، تتحقق فيه التربية الرفيعة ؛ ليوجد الصف الواحد ؛ لتنبثق عنه القيادة ليقوم الجهاد ، ولا شكّ أن هنا سؤالاً خطيراً هو ؟ من الذي يشق الطريق ؟ أليس هي القيادة الربانية ، فكيف نوفّق بين البداية التي لابد منها ، وبين قولنا صَف تنبثق عنه قيادة فنجعل القيادة نتيجة وهي البداية ؟ نقول : إنّ العمل الرباني يقتضي نكراناً للذات يتمُّ معه السير في الطريق الصحيح ، ثمّ إنّ الصف من خلال الشورى ، لا يعجزه أن يختار قياداته المؤهلة لتحقيق هدف ما ضمن نظرية تنظيمية سليمة وصحيحة وبطبيعة الحال فإعلان الجهاد ليس هو البداية وهذا هو المراد هنا أما التربية والنظرية فلابد أن تطرحهما قيادة ربانية ابتداءً

٧ - ذكرت الآيات الثلاث التي مرّت معنا ، صفات حزب الله ، وعلى كلّ مسلم ، وعلى كل مجموعة أن تفتِّش في نفسها عن هذه الصفات ، ولو أنّ كل مجموعة من المسلمين تحققت بهذه الصفات ، بل لو أنّ كل فرد من المسلمين تحقق بهذه الصفات ، لقطع المسلمون شوطاً بعيداً في كل شيء ، سواء في سيرهم إلى الله ، أو في سيرهم نحو تحقيق الأهداف ، أو في سيرهم نحو الجماعة الواحدة ، أو في سيرهم نحو العمل الجماعي . ولكنّ قصُوراً في الصفات قد وقع ، وقصُوراً في النظر قد وُجد عند الكثيرين ، إلّا من رحم الله .

إن كل مجموعة من المسلمين غلب عليها النظر إلى إيجابيات ماهي عليه دون سلبياته ، والنظر إلى سلبيات غيرها دون إيجابياته ، ولو أنّ كل مجموعة نظرت إلى سلبيات ماعندها ، وإيجابيات ماعند الآخرين ، على ضوء النصوص ، وعمل الجميع من أجل أن

يكمّل بعضهم بعضاً ، وأن يتكامل بعضهم ببعض ، وضمّهم جميعاً ولاء لبعضهم بالحق. وانطلقوا من خلال الشورى ، لأرضوا ربهم ، ثم لقهروا عدّوهم، إنني لا أستطيع أن أفهم كيف يحجب المسلم ولاءه عن أخيه المسلم والله عز وجل - يقول : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ (التوبة : ٧١) ألا ما أكثر مايتلاعب الشيطان ببعض العقول .

﴿ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ﴾ يعني اتخاذهم دينكم هزواً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء ، بل يُقابل ذلك بالبغضاء والمنابذة ، وإذا كان أول المقطع نهى عن موالاة اليهود والنصارى ، فقد ضُم إلى أولئك هنا الكافرون عامّة ، من ملحدين ، ومشركين ، ومجوس ،وهندوس ، وبوذيين ، أو غير ذلك ، وقد دلّت الآية أنّ الكافرين عامة ينظرون إلى دين الله بسخرية ، ويعتبرون شعائره وشرائعه لعباً ﴿ واتقوا الله ﴾ أن توالوا الكفار ، وفي إقامة شرعه كله ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ حقّ الإيمان ، لأنّ الإيمان الحق يأبى موالاة أعداء الله ، ويتطلب خوفا من الله وحده وتطبيقاً لشرعه ، وبعد أن بيّن أنّ الكافرين عامّة يتخذون ديننا هزواً ولعباً ، بيّن أنّ موقفهم هذا يسري على أرقى العبادات ، وهي الصّلاة فقال : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لايعقلون ﴾ لأن استهزاءهم بالصلاة ، واعتبارهم إياها لعباً غاية الحماقة والجهل ، إذ أي جهل وحماقة أكبر من مثل هذه النّظرة إلى الصلاة وهي عبادة لله ، فهل العاقل من يعبد الله أو من يستكبر عن عبادته ؟ ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ﴾ أي : هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالله ، وبكل كتاب أنزله الله ، من القرآن إلى ما قبله ﴿ وأن أكثركم فاسقون ﴾ أي : وهل تعيبون منا وتنكرون إلا بأن أكثركم فاسقون والمعنى : أعاديتمونا لأنّا اعتقدنا توحيد الله ، وصدق أنبيائه ، واعتقدنا فسقكم لمخالفتكم الحق ؟ أي هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا ؟

وهذا ليس بعيب ولا مذمّة ﴿ قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة ﴾ . أي : ثواباً ، والمثوبة وإن كانت مختصة بالإحسان ولكنها وضعت موضع العقوبة هنا ، مثل قوله تعالى : ﴿ فبشّرهم بعذاب أليم ﴾ . ﴿ عند الله من لعنه الله ﴾ أي : من لعنه الله واتصف بالصفات اللاحقة ، شرٌّ عقوبة في الحقيقة من أهل الإسلام في زعمكم ﴿ وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ . أي : اليهود الذين مُسخوا بسبب

اعتدائهم في السبت ، كما سيأتي تفصيله في سورة الأعراف ﴿ **وعَبَد الطاغوت** ﴾ . أي : الشيطان ، أي ما زيّنه الشيطان لهم للعبادة ، كالعجل والبعل وغير ذلك ﴿ **أولئك شرٌّ مكاناً** ﴾ . أي : المتصفون بهذه الصفات مكانهم أكثر شراً ، ووصف المكان بالشرّية ، والمراد أهله للمبالغة ﴿ **وأضل عن سواء السبيل** ﴾ . أي : عن قصد الطريق الموصل إلى الجنة ، فهم لايهتدون إلى هذا الطريق لأن هذا الطريق هو الذي بعث الله به محمداً ﷺ وهم لا يؤمنون به . ثم وصف الله - عز وجل - نوعاً من المنافقين من اليهود فقال : ﴿ **وإذا جاءوكم قالوا آمنّا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به** ﴾ . أي : يدخلون على النبي ﷺ ويظهرون له الإيمان نفاقاً ، والتقدير : دخلوا كافرين ، وخرجوا كافرين . وتقديره : متلبسين بالكفر ﴿ **والله أعلم بما كانوا يكتمون** ﴾ أي : من النفاق ﴿ **وترى كثيراً منهم** ﴾ . أي : من اليهود ﴿ **يسارعون في الإثم** ﴾ . أي : يبادرون في المعصية كالكذب ﴿ **والعدوان** ﴾ . أي الظلم ، والمسارعة في الشيء : الشروع فيه بسرعة ﴿ **وأكلهم السحت** ﴾ . أي : الحرام وخاصة الرّشا ﴿ **لبئس ماكانوا يعملون** ﴾ أي : لبئس شيئا عملوه ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون** ﴾ أي : الزهّاد والعبّاد ﴿ **والأحبار** ﴾ . أي : العلماء ﴿ **عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يصنعون** ﴾ . أي : لبئس الصنيع صنيعهم .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن نهانا الله - عز وجل - عن اتخاذ الذين اتخذوا ديننا هزواً ولعباً أولياء ، يكشف لنا الكثير من حقيقتهم ، التي تنفرنا عن أن نتخذهم أولياء ،والسّياق لا زال مستمراً في بيان مثالبهم ، ولذلك سيأتي معنا ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة** ﴾ .

٢ - يلاحظ أن هذا المقطع فيه حديث عن السّحت ، وقد بدأ المقطع السابق عليه بالكلام عن السُحت ، وقد كنّا قلنا إن هذين المقطعين يشكلان قسماً من أقسام سورة المائدة ، وهذا مظهر من مظاهر وحدة المقطعين ، ومن مظاهر ذلك : أنه بناءً على ما مر في المقطع السابق نُهينا عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء وأن ما نحن فيه تعليل للنهي عن اتخاذهم أولياء .

فوائد :

١ - غلب على بعض العُبّاد والزهّاد في الأمّة الإسلامية العزلة عن الناس ، وترك الدعوة الشاملة ، مع أن هؤلاء أولى بالقيام بهذه الشؤون ، وكذلك العلماء ،بل الأمر في حقهم

أوجب ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت** ﴾ .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية : ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت** ... ﴾ وإنّما قال ابن عباس ذلك لأنه أنزل تارك النهي عن المنكر منزلة مرتكب المنكر في الوعيد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال : خطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ، ولم ينههم الرّبانيون والأحبار . فلمّا تمادَوا في المعاصي أخذتهم العقوبات ، فمرُوا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم ، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرِّب أجلًا .

وأخرج الإمام أحمد .... عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « وما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي ، هم أعزُّ منه وأمنع ولم يغيِّروا ، إلا أصابهم الله منه بعذاب » ورواه أبو داود عن جرير قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، يقدرون أن يغيِّروا عليه فلم يغيِّروا إلا أصابهم الله قبل أن يموتوا »

وقال الحافظ المزي : « وهكذا رواه شعبة عن أبي إسحق به » أقول : المهمّ أن يمارس المسلم عملية الأمر بالمعروف ، والنهيّ عن المنكر والدعوة إلى الله ،ولو بشكل بسيط وسينقله هذا إلى أن يكون ذلك خلقاً له .

٢ - وفي قوله تعالى : ﴿ **وإذا ناديتم إلى الصلاة** ... ﴾ يقول النسفي : وفيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده . ويذكر ابن كثير نموذجاً على موقف أهل الشرك من الأذان وفيه معجزة . قال : « وذكر محمد بن إسحق بن يسار في السيرة أنّ رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ، ومعه بلال ، فأمره أن يؤذّن ، وأبو سفيان ابن حرب ، وعتّاب بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتّاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه ، وقال الحارث ابن هشام : أما والله لو أعلم أنّه محق لاتبعته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً ، لو

تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال : « قد علمت الذي قلتم » . ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول ، ما اطّلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك »

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجعل منهم القردة والخنازير** ﴾ ينقل ابن كثير حديثاً عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله ؟ فقال : « إن الله لم يهلك قوماً - أو قال : لم يمسخ قوماً - فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً ، وإنّ القردة والخنازير كانت قبل ذلك » . وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومسعر . وروى أبو داود الطيالسي عن ابن مسعود قال : سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير ، أهي من نسل اليهود ؟ فقال : « لا ، إنّ الله لم يلعن قوماً فيمسخهم ، فكان لهم نسل ، ولكن هذا خلق كان ، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم » . ورواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات به .

﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة** ﴾ . أي : بخيلة . قال ابن عباس لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكن يقولون بخيل يعني أمسك ما عنده بخلًا ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ﴿ **غُلّت أيديهم** ﴾ هذا دعاء عليهم بالبخل ، ومن ثم كانوا أبخل الناس ، أو تُغَلّ في جهنم ، فهي كأنما غُلّت ﴿ **ولُعِنوا بما قالوا** ﴾ . أي : بما وَصَفُوا الله بما لايليق بذاته ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ قال ابن كثير . أي : هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء . قال النسفي : « ثُنّيت اليد في : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ وهي مفردة في (يد الله مغلولة) ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ، ونفي البخل عنه ، فغاية ما يبذله السخي أن يعطيه بيديه ﴿ **ينفق كيف يشاء** ﴾ هذا تأكيد للوصف بالسخاء ، ودلالة على أنه لاينفق إلا على مقتضى الحكمة ﴿ **وليزيدن كثيراً منهم** ﴾ أي : من اليهود ﴿ **ما أُنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً** ﴾ . أي : يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تمادياً في الجحود وكفراً بآيات الله ﴿ **وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾ فكلامهم أبداً مختلف ، وقلوبهم شتى ، لا يقع بينهم اتفاق ، ولا تعاضد إلا ظاهري ﴿ **كلما أوْقدوا ناراً للحرب أطفأها الله** ﴾ . أي : كلما أرادوا حرب رسول الله ﷺ نُصر عليهم ، أو كلما أرادوا حرب الإسلام وأهله غلبوا وقُهروا ، أو كلما أرادوا إشعال نار حرب على الإسلام وأهله أطفأ الله كيدهم وشرهم ، وما غَلَبوا في عصرنا في بعض المعارك إلا لأنهم يحاربون رايات لم تقم على

تقوى ، ولم تنتصب لإسلام وما غَلبوا إلا بحبل الله وحبل من الناس ﴿ **ويسعون في الأرض فساداً** ﴾ بنشر الفاحشة حيث كانوا ، وقتل أخلاق الشعوب ، ومقاومة الخير ونشر أفكار الضلال والكفر ﴿ **والله لا يحب المفسدين** ﴾ ولذلك فإنه لا يحبهم بل يبغضهم ﴿ **ولو أن أهل الكتاب آمنوا** ﴾ بالله وبرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ **واتقوا** ﴾ باتّباع كتاب الله ، فقرنوا إيمانهم بالتقوى ﴿ **لكفّرنا عنهم سيئاتهم** ﴾ . أي : لسترناها عليهم ولم نؤاخذهم بها ، ﴿ **ولأدخلناهم جنّات النعيم** ﴾ لكونهم مسلمين ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوارة والإنجيل** ﴾ ، أي أقاموا أحكامهما وحدودهما ، وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ ﴿ **وما أنزل إليهم من ربهم** ﴾ من القرآن ﴿ **لأكلوا من فوقهم** ﴾ يعني الثمار من فوق رؤوسهم ﴿ **ومن تحت أرجلهم** ﴾ يعني الزروع ، وهذا كله يفيد التوسعة ، دلّت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة الرزق ﴿ **منهم أمة مقتصدة** ﴾ . أي : طائفة حالها الاقتصاد في مواقفها ، أي ليست مسرفة ومتجاوزة للحدّ فهي مؤمنة ، وتعمل صالحاً باقتصاد ﴿ **وكثير منهم ساء ما يعملون** ﴾ أي : وكثير منهم ما أسوأ عملهم .

فوائد :

١ - قال النسفي في قوله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة** ﴾ غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط** ﴾ (الإسراء : ٢٩)

٢ - قال ابن كثير في سبب نزول الآية : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة** ﴾ . « وقد قال عكرمة : إنها نزلت في فنحاص اليهودي - عليه لعنة الله - ، وقد تقدم أنه الذي قال : ﴿ **إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه . وروى محمد بن إسحق عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس : إن ربك بخيل لاينفق ، فأنزل الله : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلَّتْ أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ .

٣ - روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن يمين الله ملأى ، لا يغيضها نفقة ، سحّاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض ، فإنه لم يغض ما في يمينه ، قال : وعرشه على الماء ، وفي يده الأخرى القبْض يرفع ويخفض ... قال : وقال الله تعالى : أنفق أنفق عليك » .

٤ – أخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يرفع العلم » فقال زياد بن لبيد : يارسول الله ، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلّمناه أبناءنا ؟ فقال : « ثكلتك أمّك ياابن لبيد ! إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة ، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله . ثم قرأ ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل** ﴾ وقد رواه الإمام أحمد متصلا موصولا عن زياد بن لبيد أنه قال : ذكر النبي ﷺ شيئا فقال : « وذاك عند ذهاب العلم » قال : قلنا : يارسول الله . وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقْرئه أبناءنا ويُقْرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ ، قال : « ثكلتك أمك يابن أم لبيد ، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء » . وهكذا رواه ابن ماجه .

وقال عنه ابن كثير . وهذا إسناد صحيح

٥ – عند قوله تعالى : ﴿ **منهم أمة مقتصدة** ﴾ قال ابن كثير : فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد ، وهو أوسط مقامات هذه الأمة ، وفوق ذلك رتبة السابقين ، كما في قوله – عز وجل – : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها** ﴾ الآية . (فاطر : ٣٢) والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة كلهم يدخلون الجنة » .

كلمة في السياق :

– لقد لاحظنا أثناء الشرح الكلي أو الحرفي لمعنى المقطع السابق كثيراً مما له علاقة بوحدة المقطع الذي مر معنا ، وارتباطه بمحور السورة ضمن السياق القرآني العام ، وأهم شيء نحب أن نذكر به هنا أن الهداية والضَلال ، وأسباب الهداية والضلال هي محور السورة الرئيسي ، ومن أسباب الضلال قطع ما أمر الله به أن يوصل ، ومن أسباب الهداية وصل ما أمر الله به أن يوصل ، وأن تولي الكافرين وصل لما أمر الله به أن يقطع ، وأن تولي المؤمنين وصل لما أمر الله به أن يوصل ، والمقطع الذى مر معنا فصَّل كثيراً في المعاني التي تنفر من ولاء الكافرين ، وتحبب بولاء المؤمنين ، وقد لاحظنا في أسباب النزول أن منها ما ذكر أن آيات المقطع كله ، وأول آية في المقطع اللاحق نزلت في موضوع واحد ، ومن ثم نقول إن المقطع اللاحق الذي يبدأ

بخطاب رسول الله ﷺ إنما هو امتداد للمقطع السابق في معانيه ، ومضامينه . وسنرى ذلك .

- قد قلنا عن المقطعين الأخيرين : إنهما يشكلان القسم الثاني من أقسام سورة المائدة ، وأفضنا في الكلام عن وحدتهما ، وأكدنا كثيراً أن النّهي عن الولاء للكافرين جاء مسبوقاً بما ينفّر عنه ومتبوعا بما ينفّر عنه أيضا ، وأنّ ذلك قد استغرق القسم بمقطعيه ، وكما أن القسم الثاني بدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرّسول** ﴾ فإن القسم الثالث يبدأ بذلك : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ .

فصول ونقول :

فصل في زمن نزول بعض الآيات من سورة المائدة :

رأينا أثناء الكلام عن المقطع الخامس كيف تردّد اسم بني قينقاع فيه ، ورأينا أن بعض الروايات تذكر أن الآية الأولى من المقطع السادس ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ نزلت مع هذا المقطع ، وهي آية يبدو أنها نزلت مبكرة في المدينة ، وكل ذلك يشير إلى أنّه ليس كل سورة المائدة نزلت متأخرة ، وفي ذلك يقول صاحب الظلال :

« نصوص هذا الدرس كله تؤيد ما ذهبنا إليه في تقديم السورة من أن هذه السورة ، لم تنزل كلها بعد سورة الفتح التي نزلت في الحديبية في العام السادس الهجري ، وأن مقاطع كثيرة فيها يرجّح أن تكون قد نزلت قبل ذلك ؛ وقبل إجلاء بني قريظة في العام الرابع - عام الأحزاب - على الأقل ، إن لم يكن قبل هذا التاريخ أيضاً .. قبل إجلاء بني النضير بعد أحد ، وبني قينقاع بعد بدر ..

فهذه النصوص تشير إلى أحداث ، وإلى حالات واقعة في الجماعة المسلمة بالمدينة ، وإلى ملابسات ومواقف لليهود وللمنافقين ، لاتكون أبداً بعد كسر شوكة اليهود ؛ وآخرها كان في وقعة بني قريظة .

فهذا النصّ عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء . وهذا التحذير - بل التهديد - بأن من يتولهم فهو منهم . وهذه الإشارة إلى أن الذين فى قلوبهم مرض يوالونهم ، ويحتجون بأنهم يخشون الدوائر . وتنفير المسلمين من الولاء لمن يتخذون دينهم هزواً ولعباً ، والإشارة إلى أن هؤلاء يتخذون صلاة المسلمين - إذا قام المسلمون إلى الصلاة - هزواً ولعباً .. كل أولئك لا يكون إلا ولليهود في المدينة من القوة والنفوذ والتمكن ، ما يجعل

من الممكن أن تقوم هذه الملابسات ، وأن تقع هذه الحوادث ، وأن يحتاج الأمر إلى هذا التحذير المشدد ، وإلى هذا التهديد المكرر ، ثم إلى حقيقة اليهود ، والتشهير بهم والتنديد ، وإلى كشف كيدهم ومناوراتهم ومداوراتهم على هذا النحو ، المنوع الأساليب . وقد ذكرت بعض الروايات أسباباً لنزول آيات في هذا الدرس ؛ يرجع بعضها إلى حادث بني قينقاع بعد غزوة بدر . وموقف عبد الله بن أبي بن سلول .وقوله في ولائه لليهود وولاء اليهود له : إني رجل أخاف الدوائر لأبرأمن ولاية موالي !

وحتى بدون هذه الروايات، فإن الدراسة الموضوعية لطبيعة النصوص وجوّها ،ومراجعتها على أحداث السيرة ومراحلها وأطوارها في المدينة ، تكفي لترجيح ماذهبنا إليه في تقديم السورة عن الفترة التي نزلت فيها ..»

نقول في موضوع الولاء :

لقد أفاض صاحب الظلال بمناسبة النّهي عن موالاة أهل الكتاب في موضوع الولاء وقد رأينا أن ننقل بعض كلامه :

ـ « إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء ، واتخاذهم أولياء شيء آخر ، لكنهما يختلطان على بعض المسلمين ، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية ، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض ، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية ؛ وتصطدم ـ من ثم ـ بالتصورات والأوضاع المخالفة ، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله ، وتدخل في معركة لا حيلة فيها ، ولابد منها ، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده ، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة ..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة ، كما ينقصهم الوعي الذكيّ لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ؛ ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها ، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق ، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة . ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب .. بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة .. وأن هذا شأن ثابت

لهم ، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه ، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم . وأنهم مصرّون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة . وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر .. إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة .

أهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين : ﴿ **هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً** ﴾ .. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألّبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة ، وكانوا لهم درعاً وردءاً . وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنّوا الحروب الصليبية خلال مئتي عام ، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس ، وهم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين ، وأحلوا اليهود محلهم ، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية ! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان .. في الحبشة والصومال وأريترية والجزائر ، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية ، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند ، وفي كل مكان ! .

وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين** ﴾ يقول صاحب الظلال :

لقد كان هذا تحذيراً عنيفاً للجماعة المسلمة في المدينة . ولكنه تحذير ليس مبالَغاً فيه . فهو عنيف . نعم ، ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة . فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى - وبعضهم أولياء بعض - ثم يبقى له إسلامه وإيمانه ، وتبقى له عضويته في الصف المسلم ، الذي يتولى الله ورسوله والذين آمنوا .. فهذا مفرق الطريق .

ومايمكن أن يتميع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام ، وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام ، ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف - أول ماتستهدف - إقامة نظام واقعي في الأرض فريد ، يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ، ويعتمد على تصور متفرد عن كل التصورات الأخرى . إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم ، الذي لا أرجحة فيه ولا تردد ، بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس - بعد رسالة محمد ﷺ - وبأن منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه ، منهج متفرد ، لانظير له بين سائر المناهج ، ولايمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر ، ولايمكن أن يقوم مقامه منهج

آخر ، ولاتصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ، ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه : الاعتقادية والاجتماعية ، لم يأل في ذلك جهداً ، ولم يقبل من منهجه بديلًا - ولا في جزء منه صغير - ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي ، ولا في نظام اجتماعي ، ولا في أحكام تشريعية إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب ...

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو - وحده - الذى يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الله الذى رضيه للناس ؛ في وجه العقبات الشاقة ، والتكاليف المضنية ، والمقاومة العنيدة ، والكيد الناصب ، والألم الذى يكاد يجاوز الطاقة فى كثير من الأحيان .. وإلا فما العناء في أمر يغني عنه غيره - مما هو قائم في الأرض من جاهلية .. سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة فى وثنية الشرك ، أو فى انحراف أهل الكتاب ، أو في الإلحاد السافر .. بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي ، إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة ، يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة ؟ .

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة ؛ باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية ، يخطئون فهم معنى الأديان ، كما يخطئون فهم معنى التسامح . فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله . والتسامح يكون في المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي .. إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام ، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلًا ؛ ولا يقبل فيه تعديلًا - ولو طفيفاً - هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر : ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ .. ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه**﴾ .. ﴿ **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ .. ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ .. وفي القرآن كلمة الفصل .. ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا الدين » . أقول : المطلوب من المسلم المفاصلة الاعتقادية أما أنواع المفاصلة الأخرى فتحكمها الفتوى .

فصل في التفريق بين موقفين :

لقد جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً وكان من أوائل ما فعله أنه كتب وثيقة نستطيع أن نسميها باصطلاحنا الحالي - دستورية - تنظم العلاقة مع اليهود وقد جرت العادة خلال العصور أن تكون هناك عقود بين المسلمين وبين المواطنين من غير المسلمين وهي التي تُسمى عقود أهل الذمة وبسبب من هذه العقود كان غير المسلمين يدخلون في ذمتنا ويعتبرون ذمّيين ، هذا شيء والولاء شيء آخر . إن التزام المسلمين لأهل الذمة بشيء والوفاء به شيء والولاء شيء آخر . فلا يصح الخلط بين ما يجوز للجماعة المسلمة أن تعقده من عقود مع غير المسلمين وبين الموقف الخياني من أحد المسلمين إذ يعطي الكافرين ولاءه خيانة لله ورسوله والمؤمنين . ولنضرب أمثلة توضح المراد : لقد عاقد رسول الله ﷺ اليهود في المدينة على معان وقد غدروا بها فيما بعد . فالعقد حتماً ليس موالاة ، ولكن لنفترض أن رجلًا كان يتظاهر بالإسلام ، وكانت عواطفه مع اليهود ، ويتمنى أن يتغلب اليهود على المسلمين ، وهو شريكهم في غدرهم وينقل لهم أسرار المسلمين . إنّ فعل هذا الرجل هو الولاء المحرّم ، أمّا عقد الجماعة الإسلامية متمثلًا بقيادتها فهذا جائز ، إذا كانت مصلحة المسلمين تقتضي ذلك ، سواء كانت عقوداً على الأرض الإسلامية أو خارجها وسيأتينا نصوص ذلك في سور الأنفال وبراءة والنمل والقتال .

إن العقد من قِبَل الجماعة شيء ، والولاء شيء آخر ، فنحن إن عاقدنا الكافرين عقداً أملاه علينا موقف ، فإن هذا لايعني أنّنا واليناهم ، إن الجماعة الإسلامية قبل الحكم وبعد الحكم لابّد أن توضّح موقفها من المواطنين غير المسلمين الذين يعيشون على الأرض الإسلامية ، وقد تجد قبل الحكم وبعد الحكم من يقبل التعامل على الأسس التي قدمتها جماعة المسلمين لا إيماناً منهم بالإسلام ولا رضىً بالإسلام وعن المسلمين ، ولكن قد يفعلون هذا تعقلًا وحفاظاً على المصالح .

إن فعل الجماعة هذا لايعتبر ولاءً لأنّ هذا باب فتحه الإسلام لنا في تحركنا السياسي أو العسكري .

- إنّه بعد قيام الدولة ليس أمامنا خيار إلّا أن نضع الأطر الحاكمة لكل قضية على أرضنا ، ومن ذلك الضوابط التي تضبط علاقات المواطنة مع غير المسلمين ، إنّ مثل

هذا ليس داخلًا في قضية الولاء .

- إن الولاء الخاطىء هو إعطاء النصرة والطاعة للكافرين ،وللقيادات الكافرة ، وأن تكون العواطف معهم في صراعهم مع المسلمين . أما تصرفات القيادة الراشدة ، وتعاقدات الجماعة الراشدة ، مع غير المسلمين . على ضوء الإسلام وعلى حسب مصلحة المسلمين فهذا شيء آخر يخضع لمبدأ الفتوى البصيرة من أهلها .

نقل في محبة الله :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ يقول صاحب الظلال :

« وحب الله لعبد من عبيده ، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله - سبحانه - بصفاته كما وصف نفسه ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها .. أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي .. الذي يعرف من هو الله .. من هو صانع هذا الكون الهائل ، وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير ! من هو في عظمته . ومن هو في قدرته . ومن هو في تفرده . ومن هو في ملكوته .. من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب .. والعبد من صنع يديه - سبحانه - وهو الجليل العظيم ، الحي الدائم ، الأزلي الأبدي ، الأول والآخر والظاهر والباطن .

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لايدركها كذلك إلا من ذاقها .. وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً هائلًا عظيماً ، وفضلًا غامراً جزيلًا ، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد ، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه .. هو إنعام هائل عظيم .. وفضل غامر جزيل .

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين .. وهذا هو الباب الذي تفوّق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين ، وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في سجلهم الطويل ....

وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد ، والحب من العبد للمنعم المتفضل ، يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض ، وينطبع في كل حي وفي كل شيء ، فإذا

هو جو وظل يغمران هذا الوجود ، ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلاً في ذلك العبد المحب المحبوب .. والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب .. وليست مرة واحدة ولافلتة عابرة .. إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً** ﴾ .. ﴿ **إن ربي رحيم ودود** ﴾ .. ﴿ **وهو الغفور الودود** ﴾ .. ﴿ **وإذ سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ** ﴾ .. ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾ .. ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ ... وغيرها كثير ...

وعجباً لقوم يمرون على هذا كله ، ليقولوا : إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف ، يصور العلاقة بين الله والإنسان علاقة قهر وقسر ، وعذاب وعقاب ، وجفوة وانقطاع ... لا كالتصور الذي يجعل المسيح ابن الله وأقنوم الإله . فيربط بين الله والناس ، في هذا الازدواج !

إن نصاعة التصور الإسلامي ، في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، لا تجفف ذلك الندى الحبيب ، بين الله والعبيد ، فهي علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل ، وهي علاقة الود كما أنها علاقة التجريد ، وهي علاقة الحب كما أنها علاقة التنزيه .. إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية في علاقتها برب العالمين » .

☆ ☆ ☆

المقطع السادس

يمتد هذا المقطع من الآية (٦٧) إلى نهاية الآية (٨٦) وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ

ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ
كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾
قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ
قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾
لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ
بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ
يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ
أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾
لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم
مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ

مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

كلمة في السياق :

مرّ معنا قبل هذا المقطع خمسة مقاطع ، وقلنا إن الثلاثة المقاطع الأولى تشكل القسم الأول ، ثم جاء مقطعان فشكلا القسم الثاني ، وبعد ذلك يأتي المقطعان السادس والسابع فيشكلان القسم الثالث في السورة ثمّ تأتي الخاتمة .

فالسورة ثلاثة أقسام وخاتمة وفي كل قسم من هذه الأقسام نجد جولة متكاملة نعرف بها طريق هداية وطريق ضلال ، ولذلك ارتباطه الكبير بمحور السورة : ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ في الجولة الأولى نجد : ﴿ **فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل** ﴾ .

ونجد ﴿ **يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السّلام** ﴾ .

وفي الجولة الثانية نجد : ﴿ **إن الله لايهدي القوم الظالمين** ﴾ ﴿ **وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً** ﴾ .

وفي الجولة الثالثة نجد : ﴿ **إن الله لايهدي القوم الكافرين** ﴾ ﴿ **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ .

فالأقسام الثلاثة تتكامل في تبيان طريق الضلال وطريق الهداية ، وتوضح قضية الفسوق والخسران ، وأركان الفسوق الثلاثة : نقض العهد ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد في الأرض ، وكل ذلك رأينا أمثلته فيما مرّ ، وسنرى ما يؤكده ويعمّقه ويفصّله . وههنا آن الأوان لنقول شيئاً :

إنّ سورة المائدة في محورها الرئيسي تبيِّن الطريق الذى إن سلكه إنسان فإنه لايستحق هداية الله ، ويأتي في معرض ذلك ذكر الطريق الذي إذا سلكه إنسان يستحق هداية الله ، بينما كان السياق الرئيسي في سورة النساء تبيان الطريق إلى التقوى ويأتي في معرض ذلك ما يتنافى مع التقوى .

لاحظ أنّ الأقسام الثلاثة في سورة المائدة تتكامل من حيثيّات متعدّدة ، ومن جملة مظاهر هذا التكامل : أنّ القسم الأوّل وهو يذكر في سياقه الرئيسي ما به يستحق الإنسان الإضلال يوصل إلى القسم الثاني الذي يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرّسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر** ﴾ ففيه تعزية لرسول الله ﷺ ، ولكن والسورة تفصّل في الطريق الذي يستحق به صاحبه الضّلال ، لا تترك قضية البلاغ بناءً على أن إنساناً ما سار في مثل هذه الطرق وبالتالي فلا علينا ألا نبلغه ، ولذلك فإن القسم الثالث يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ وسنرى مظاهر أخرى من التكامل في السّورة مما يشعرنا بوحدة سياقها زيادة على تفصيلها لمحورها .

وبعد أن عرفنا أن القسم الثالث في السورة يتألف من مقطعين هما المقطع السادس والسابع فلنبدأ الكلام عن المقطع السادس الذي ذكرنا آياته قبل هذه الكلمة :

كلمة في المقطع :

بعد أن أكّد القسم الثاني في مقطعيه الرابع والخامس ضرورة الاحتكام إلى ما أنزل الله ، وأوجب الاحتكام إلى القرآن ، وبين آثار بركة ذلك على الحياة ، يأتي هذا المقطع آمراً بالبلاغ ، وخاصاً بهذا البلاغ أهل الكتاب ، ومحدّداً ما يقال لهم ، ثم ذاكراً قاعدة النّجاة عند الله - عز وجل - ، وفي هذا السياق يذكر المقطع موقف بني إسرائيل من الرّسل ، عليهم الصلاة والسلام ، وهو موقف لا يستغرب معه موقفهم من محمد ﷺ ودعوته ، ثم ذكر المقطع بعض تصوراتهم الخاطئة في شأن الله ، وانتقل الكلام إلى كفر النصارى ، ومناقشتهم في هذا الكفر ، ودعوتهم إلى التوحيد ، وترك الغلوّ ، وترك متابعة أهواء الضالين ، ولذلك كله صلة بالبلاغ الذي أمر به رسول الله ﷺ في بداية المقطع . ثم يقرّر الله - عز وجل - مسألة استحقاق اليهود لعنة الله ، وأسباب ذلك ، كما يقرّر شدة عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين ، مستثنياً من العداوة الذين استجابوا للبلاغ من النصارى . فالمقطع كله في البلاغ وماهيّته ، وخاصة لأهل الكتاب . وفيه

تيئيس من اليهود ، ورجاء في النصارى ، وقد جاء هذا كله في السياق الخاص للسورة . بعد المقطع الذي ذكر الله - عز وجل - فيه التوراة والإنجيل ، وموقف أهلهما منهما ، فكأن السياق اقتضى أن يخص هؤلاء بمقطع ودعوة خاصة ، وقد سبق ذلك بيان انصبَّ على أنّ علينا أن لانتولاهم ، وسبق ذلك أيضاً كلام بيّن لنا فيه نسيان هؤلاء للعهود والعقود : ولنتأمل الآن الصلة بين المقطع ، وبين محور السورة من سورة البقرة :

لقد قلنا إن محور سورة المائدة من سورة البقرة هو الآيتان : ﴿ **إن الله لايستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ۝ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

لاحظ أن الآية الأولى في المقطع الذي مرّ معنا نجد قوله تعالى :

﴿ **والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ لاحظ الصلة بين ﴿ **إن الله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ وبين ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ وفي الآية الثانية من المقطع نجد قوله تعالى : ﴿ **وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً** ﴾ لاحظ صلة ذلك في المحور بقوله تعالى : ﴿ **فأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ .

وفي الآية الرابعة من المقطع نجد قوله تعالى : ﴿ **لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلًا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون** ﴾ .

لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى في المحور ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ وفي الآية (٧٩) والآية (٨٠) في المقطع نجد ﴿ **ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون** ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى في المحور ﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ فهؤلاء يصلون ما أمر الله به أن يقطع ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل لذلك يأتي بعد الآيتين السابقتين قوله تعالى : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا**

اليهود والذين أشركوا .... ﴾ .

وبينما يعرض الله - عز وجل - علينا نموذج ناس هذا شأنهم في موقفهم من الكتاب يختم المقطع بعرضه نموذجاً مِمّن يهديهم الله بهذا القرآن ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق .... ﴾** لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى في المحور ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾** .

فالمقطع يفصّل في الفسوق الذي يستحق أصحابه الإضلال ، وما يقابله مما ينال به أهله الهداية ، مما هو تفصيل لمحور السورة من سورة البقرة ، ولكنه تفصيل ليس على طريقة البشر ، ولا يستطيعه البشر ، وهذا كله ضمن السياق الخاص للسورة وبهذا ينتهي المقطع الأول من القسم الثاني ليبدأ المقطع الثاني من هذا القسم الذي يتوجّه فيه الخطاب لأهل الإيمان ، فإذا كان البلاغ لا يؤثر في بعض الناس فإن أهل الإيمان موجودون ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم فيتكرّر في المقطع الثاني من القسم الندّاء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ... ﴾** مرات :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرمّوا طيبات ما أحل الله لكم ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تُبدلكم تسؤكم ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت ... ﴾

وسترى أنّ كل نداء من هذه النداءات يحرّر المسلم من خُلق يستحق به صاحبه الإضلال ؛ لأن الوقوع فيه فسوق ، وسترى أن هذا القسم بمقطعيه هو تفصيل لما مرّ معنا من قبل في السورة ، مما يؤكد وحدة سياق السّورة ، كما يؤكد ارتباطها بمحورها من سورة البقرة . ولنبدأ عرض المعنى العام للمقطع الأول من القسم الثالث للسورة وهو المقطع السادس فيما إذا اعتبرنا أن الوحدة العددية للسورة هي المقطع .

المعنى العام :

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ بصفة الرسالة ، آمراً له بإبلاغ جميع ماأرسله الله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصّلاة والسلام ذلك ، وقام به أتمّ القيام ، ثم بين الله له أنه إن لم يؤد إلى الناس ما أرسله الله به لم يبلغ رسالته ، فهو إن كتم آية واحدة ممّا أنزله الله إليه لم يبلّغ رسالته ، ثمّ وعده الله ــ عز وجل ــ أن بلّغ رسالتي ، وأني حافظك وناصرك ومؤيّدك على أعدائك ومظفرك بهم . فلا تخف ولا تحزن فلن يسلّط عليك أحد ليقتلك . وقد كان النّبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحْرس ، فلمّا نزل الوعد ترك الحراسة ، ثم بيّن له أنّ عليه أن يُبلّغ وعلى الله الهداية ، يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ومن سننه أنه لا يهدي الذين يختارون طريق الكفر ، وفي سياق الأمر بتبليغ الرسالة يأمره أن يقول لأهل الكتاب إنهم ليسوا على شيء من الدين حتى يقيموا التوراة والإنجيل ، بأن يؤمنوا بجميع ما بأيديهم من الكتب المنزَّلة من الله على الأنبياء ، ويعملوا بما فيها ، ومما فيها الإيمان بمحمّد ﷺ والأمر باتّباعه والإيمان بمبعثه ، والاقتداء بشريعته ثم بيّن تعالى أن كثيراً منهم لا يزداد إلا طغياناً وكفراً ، مع كل ما في الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ من حجج وبينات .

ثمّ نهى الله – عز وجل – رسوله ﷺ أن يحزن عليهم ، ثمّ بيّن تعالى أن المسلمين ، أو اليهود الذين أسلموا ، أو النصارى الذين أسلموا ، أو الصابئة الذين أسلموا ، ممن آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، مأجورون عند الله ، ناجون عنده ، بموافقتهم للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثّقلَيْن . فمن اتّصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ، ولا هم يحزنون ، وأما قبل بعثة رسولنا ﷺ فإنهم ينجون إذا قاموا بما كلّفوا به ، من الإيمان والعمل الصالح ، وفي هذا السياق – سياق الأمر بتبليغ الرسالة – بيّن الله – عز وجل – أنّه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السّمع والطاعة لله ولرسله ، فنقضوا تلك العهود والمواثيق ، واتبعوا آراءهم وأهواءهم ، وقدّموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه ، وما خالفهم ردوه . وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا ، فترتّب ، وهو أنهم عَمُوا عن الحق ، وصمّوا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه ، ثمّ تاب الله عليهم مما كانوا فيه ، فعادوا إلى العمى والصّمم إلا قليلا ، والله مطّلع عليهم ، وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم . وفي هذا السياق – سياق الأمر بتبليغ الرسالة – يقرّر الله

كفر من زعم أنّ المسيح هو الله ، تعالى الله عن قولهم وتنزّه علواً كبيراً ، مع أنّ المسيح عليه السلام دعاهم لعبادة الله وحده ، وبيّن لهم أنّ من أشرك بالله فقد أوجب له النّار وحرّم عليه الجنّة ، وأنّه ما له عند الله ناصر ، ولا معين ، ولا منقذ مما هو فيه . ثمّ قرّر الله ــ عز وجل ــ كفر القائلين بالتثليث ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، فما من إله إلا إله واحد ليس متعدداً بل هو واحد لا شريك له ، إله جميع الكائنات ، وسائر الموجودات ، ثمّ قال تعالى متوعداً لهم ومتهدّداً ، بأنهم إن لم ينتهوا عن هذا الافتراء والكذب ليصيبنّهم العذاب الأليم في الآخرة من الأغلال والنّكال . ثمّ دعاهم الله ــ عز وجل ــ إلى التوبة والاستغفار ، ووعدهم الغفران وهذا من كرمه وجوده ولطفه ورحمته بخلقه ، مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء ، والكذب ، والإفك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكلّ من تاب إليه تاب عليه . ثمّ بيّن الله ــ عز وجل ــ حقيقة المسيح وأنه ليس إلا رسولًا له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدّمين عليه ، وأنّه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام ، وأمّه مؤمنة به ، مصدّقة له ، وهذا أعلى مقاماتها ، فهي لم تصل إلى درجة النّبوة لأنه لم تكن نبية قطُّ أنثى ، وأنّ المسيح وأمّه كانا يأكلان الطعام فهما يحتاجان إلى التغذية به ، وإلى خروجه منهما ، والافتقار دليل العبودية ، فهما عبدان كسائر الناس ، وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة . عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، وفي هذا السياق ، - سياق الأمر بتبليغ الرسالة - يأمر الله رسوله ﷺ أن ينكر عليهم عبادتهم من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، مع أن الله وحده هو السّميع العليم . السّميع لأقوال عباده ، العليم بكلّ شيء ، فكيف يعدل عنه إلى عبادة من لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ، ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا نفسه . ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن ينهى أهل الكتاب عن مجاوزة الحدّ في إطراء من أمروا بتعظيمه ، حيث بالغوا فيه حتى أخرجوه عن حيّز النّبوة إلى مقام الإلهية كما صنعوا في المسيح ، وما ذاك إلا لاقتدائهم بشيوخهم ، شيوخ الضلال ، ممّن ضلّ قديماً وأضلّ ، وخرج عن طريق الاستقامة والاعتدال ، إلى طريق الغواية والضّلال ، ثم قرّر تعالى أنّه لعن الكافرين من بني إسرائيل فيما أنزله على داود نبيّه عليه السلام ، وعلى لسان عيسى بسبب عصيانهم لله ، واعتدائهم على خلقه ، وبسبب أنّهم كانوا لاينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، ثم ذمّهم على ذلك ليحذّرنا أن نرتكب مثل الذي ارتكبوه ، فقال : ﴿ **لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ ثم بيّن تعالى أن كثيرا منهم يوالون الكافرين ويتركون موالاة المؤمنين وتلك أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم ، وأسخطت الله عليهم

سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم . وقضى الله لهم بالعذاب الأبدي يوم القيامة . ثم بيّن تعالى أنهم لو كانوا مؤمنين حق الإيمان بالله والرسول والقرآن ، لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن ، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي ﷺ وما أنزل إليه ، ولكن كثيراً منهم فاسقون ، خارجون عن طاعة الله ورسوله ، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله . ثمّ بيّن الله - عز وجل - أنّ أشدّ أنواع العداء لأهل الإيمان عداء اليهود والمشركين ، وما ذاك إلا لأنّ كفر اليهود والمشركين كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس ، وتنقص لحَمَلة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هَمُّوا بقتل رسول الله ﷺ غير مرّة ، وسمّوه وسحروه ، وألّبوا عليه أشباههم من المشركين ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . على عكس النّصارى الذين زعموا أنّهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله ، فإنّ فيهم مودّة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلّا لما في قلوبهم ، إذ كانوا على دين المسيح من الرّقة والرّأفة وبسبب وجود علماء وعباد فيهم ، وبسبب اتصافهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف ، وأن من صفاتهم أنهم إذا سمعوا القرآن بكوا ؛ بسبب معرفتهم أنّ هذا هو الحقُّ الذي بشّر به عيسى عليه السلام ، ويعلنون إذا سمعوا الحق إيمانهم ، ويطلبون من الله أن يدخلهم في أمّة محمد ﷺ . هؤلاء يجازيهم الله على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ، جنات تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ، وهذا جزاؤهم بسبب اتّباعهم الحق ، وانقيادهم له ، حيث كان وأين كان ، ومع من كان . ثم أخبر عن حال الأشقياء الذين يجحدون آيات الله ويخالفونها ، بأنهّم أهل النار والداخلون فيها . وكثير من الناس يفهمون الآيات الأخيرة من هذا المقطع فهماً خاطئاً .

والشيء الذي ينبغي أن نفهمه بإجمال هو أن اليهود والمشركين أشدّ الناس عداء لنا ، وأن النصارى فيهم استعداد من حيث الأصل للإيمان بديننا وشريعتنا ورسولنا . ومن ثم فهم مظنّة أن يوجد فيهم خير ، وقبول للحق ، ولكن لا يعني هذا أن الجميع يقبلون الحق إذا عرض عليهم ، فمن قبل الحق فقد حقّق ظنّنا ودخل الجنة ، ومن رفض الحق فحكمه حكم اليهود والمشركين :

ملاحظات في السّياق:

١ - جاء في القسم الأول من المقطع الثاني من السورة قوله تعالى : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا** ﴾ وجاء في ذلك السّياق قوله تعالى :

﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ وفي هذا المقطع الذي هو بداية القسم الثالث يأتي قوله تعالى : ﴿ **لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً** ﴾

ويأتي قوله تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾

﴿ **لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة** ﴾

هناك جاء التكفير في سياق نقض العهد الآتي في سياق الوفاء بالعقود وههنا يأتي التكفير في سياق نقض العهد الآتي في سياق الأمر بالتبليغ وهي ملاحظة أولى نسجلها هنا لنعرف صلة هذا القسم بما قبله .

٢ - انتهى القسم الثاني من السورة بقوله تعالى : ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾ والآية الثانية في هذا القسم الآتية في معرض الأمر بالتبليغ هي قوله تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ وهي كذلك ملاحظة نسجلها لتُعلم الصلة المباشرة بين بداية القسم الذي نحن فيه ونهاية القسم السابق وستأتيك تفصيلات أخرى .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الرّسول بلّغ ماأنزل إليك من ربك** ﴾ أي : بلّغ جميع ماأنزل إليك وأيَّ شيء أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً ، ولاخائف أن ينالك مكروه ﴿ **وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ . أي : وإن لم تبلّغ جميعه كما أمرتك ، فلم تبلّغ إذاً ما كلفت به من أداء الرِّسالة ، ولم تؤد منها شيئاً قَط ، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض ، فإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً ، كما أنّ من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها ، لكونها في حكم شيء واحد ، لدخولها تحت خطاب واحد ، والشيء الواحد لايكون مبلّغاً غير مبلّغ مؤمَناً به غير مؤمَن ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ . أي: يحفظك منهم أن يقتلوك ، والنّاس هنا الكفار بدليل ما بعده ﴿ **إنّ الله لايهدي القوم الكافرين** ﴾ . أي : لايعطيهم الهداية لعدم اختيارهم لها وأخذهم بأسبابها ، ومن ذلك عدم هدايتهم لما يريدون إنزاله بك من الهلاك . وفي هذا السّياق - سياق الأمر بتبليغ الرسالة - تصدر له ثلاثة أوامر مصدّرة بلفظ « قل » الأول منها بعد هذه الآية مباشرة ، واثنان منها في وسط المقطع . والأمر بالتبليغ في هذا

المقطع مع بيان عدم هداية الكافرين والفاسقين ، وذكر خصائص من يستحق الهداية في آخر المقطع . ووصف اليهود والنصارى بما ينفر منهم ، كل ذلك ينسجم مع كون هذا المقطع امتداداً للمقطع السابق من حيث إنه ينفي أن تكون لليهود والنصارى ولاية للمؤمنين مع ما هم عليه ، وينسجم مع المحور العام للسورة الذي يتحدّث عن من يستحق الهداية ، ومن يستحق الضلال ، وتفصيل لصفات هؤلاء وهؤلاء .

ملاحظات حول السّياق :

الأمر الأوّل المصدّر بقوله تعالى ﴿ **قل** ﴾ في هذا المقطع هو : ﴿ **قل يأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ..** ﴾

الأمر الثاني هو : ﴿ **قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً** ﴾
الأمر الثالث هو : ﴿ **قل يأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا ...** ﴾

إنّ هذه الأوامر في هذا المقطع آتية في سياق الأمر بالتبليغ ، وستأتي نداءات لأهل الإيمان في سياق هذا القسم المبدوء بالأمر بالتبليغ ، مِمّا يشعرنا بأهمية هذه الأوامر ، وأهمية هذه النّداءات في قضية محدّدة هي قضية التبليغ .

وواضح من السّياق أن هذا القسم المبدوء بالأمر بالتبليغ يتألف من مقطعين : المقطع الأوّل ينصبُّ على تبليغ أهل الكتاب ، والمقطع الثاني ينصبّ على تبليغ أهل الإيمان . والوارث الكامل لرسول الله ﷺ عليه أن يلاحظ في الدعوة هذا وهذا ، فيركّز في دعوته لأهل الكتاب ، على ضرورة إقامة التوراة والإنجيل اللذين فيهما الإيمان بمحمد ﷺ ، ويقيم الحجة على ذلك من خلال نصوص التوراة والإنجيل ، ويركّز على قضية عبادة غير الله ، ويركز على قضية الغلوّ في الدين ، واتّباع أهواء الضالّين من أمثال بولس ، الذي ضلّ عن تعاليم المسيح وعن إنجيله بدعوى الصّلة المباشرة بالسيد المسيح عليه السلام ، تاركاً هديه الذي نقله تلاميذه المباشرون ، كما يركّز الداعية إلى الله على مجموع النداءات التي توجهت لأهل الإيمان في هذا القسم ، من عدم تحريم الحلال إلى ترك الخمر والميسر ، إلى غير ذلك .

فوائد :

١ - في قوله تعالى : ﴿ **بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت**

رسالته ﴾ يردُّ النسفي على اعتراض ، قال : قالت الملحدة لعنهم الله تعالى : هذا كلام لايفيد وهو كقولك لغلامك : كُلِ هذا الطعام ، فإن لم تأكله فإنك ماأكلته . قلنا : هذا أمر بتبليغ الرسالة في المستقبل أي بلّغ ما أنزل إليك من ربك في المستقبل ، فإن لم تفعل : أي إن لم تبلّغ الرِّسالة في المستقبل فكأنّك لم تبلّغ الرّسالة أصلًا . أو بلّغ ما أنزل إليك من ربك الآن ولا تنتظر به كثرة الشوكة والعُدّة ، فإن لم تبلّغ كنت كمن لم يبلّغ أصلًا . أو بلّغ ذلك غير خائف أحداً ، فإن لم تبلّغ على هذا الوصف فكأنّك لم تبلغ الرسالة أصلًا .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ معجزة غيبية . إذ هي وعد من الله لرسوله ﷺ أن لايسلط عليه من يقتله مع كثرة دواعي القتل من كثرة الخصوم وشراستهم . وقد كان ذلك ، وتوفي رسول الله ﷺ وفاة . ومن درس كثرة المؤامرات عليه ﷺ من قريش ، وغير قريش واليهود ، وسلامته عليه الصلاة والسلام مع هذا كله أدرك كمال المعجزة . وقد كان رسول الله ﷺ يُحرس ويحب أن يُحرس حتى نزلت هذه الآية ، فترك الحراسة .

في الصحيحين وعند الإمام أحمد أنّ عائشة رضي الله عنها كانت تحدِّث « أنّ رسول الله ﷺ سَهر ذات ليلة ، وهي إلى جنبه ، قالت : فقلت : ما شأنك يارسول الله ؟ قال : « ليت رجلًا صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة » قالت : فبينا أنا على ذلك ، إذ سمعت صوت السِّلاح فقال : « من هذا ؟ » ، فقال : أنا سعد بن مالك . فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله . قالت : فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه » . وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : « كان النّبي ﷺ يُحْرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ قالت : فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبّة ، وقال : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل » وهكذا رواه الترمذي . وروى ابن مردويه عن عصمة بن مالك الخطمي قال : كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ فترك الحرس .

ومن تتبع حوداث السيرة ، عرف كثرة المؤامرات عليه في أمّة كان الفتك والثأر خليقة من أخلاقها . ومن ذلك قصة غورث بن الحارث المشهورة في الصحيح ، وهي كما رواها ابن مردويه عن أبي هريرة قال : « كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلها فينزل تحتها ، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلّق سيفه فيها ، فجاء رجل فأخذه فقال : يا محمد من يمنعك مني ؟، فقال رسول الله ﷺ :

« الله يمنعني منك ، ضع السيف » فوضعه ، فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ **والله يعصمك من النّاس** ﴾ ومن ذلك مارواه جعدة بن خالد بن الصمة الجشميّ رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ ، ورأى رجلًا سميناً ، فجعل النّبي ﷺ يومىء إلى بطنه بيده ، ويقول : « **لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك** » . قال : وأتي النبي ﷺ برجل ، فقيل : هذا أراد أن يقتلك ، فقال له النبي ﷺ لم تُرعْ ولو أردت ذلك لم يسلطك الله علي » . قال ابن كثير تعليقاً على هذا النّص : « ومن عصمة الله لرسوله ﷺ حفظُه له من أهل مكّة وصناديدها وحسّادها ومعانديها ومترفيها ، مع شدّة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلًا ونهاراً ، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقَدَره وحكمته العظيمة . فصانه في ابتداء الرّسالة بعمّه أبي طالب ، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش ، وخلق الله في قلبه محبّةً طبيعيّة لرسول الله ﷺ ، لاشرعيّة ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفّارها وكبارها ، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر ؛ هابوه واحترموه ، فلما مات عمُّه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً ، ثم قيّض الله له الأنصار ، فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحوّل إلى دارهم - وهي المدينة - فلما صار إليها حَمَوه من الأحمر والأسود ، وكلمّا همّ أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله وردّ كيده عليه ، لما كاده اليهود بالسّحر فحماه الله منهم ، وأنزل عليه سورتي المعوّذتين دواء لذلك الداء . ولمّا سمّ اليهود ذراع تلك الشاة بخيبر ، أعلمه الله وحماه منه ، وهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها . »

﴿ **قل يا أهل الكتاب لستم على شيء** ﴾ أي : لستم على دين يُعتدُّ به حتى يسمّى شيئاً لبطلانه ﴿ **حتى تقيموا التوراة والإنجيل** ﴾ بالإيمان بكل ما فيهما ، والعمل بكل ما فيهما ، ومن ذلك الإيمان بمحمّد ﷺ واتباعه ﴿ **وما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ .

أي : القرآن ﴿ **وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً** ﴾ . أي : سيزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تمادياً في الجحود ، وكفراً بآيات الله ﴿ **فلا تأس على القوم الكافرين** ﴾ . أي : فلا تتأسّف عليهم ، فإنّ ضرر ذلك يعود إليهم لا إليك ﴿ **إنّ الذين آمنوا** ﴾ . وهم المسلمون ﴿ **والذين هادوا** ﴾ وهم حملة التوارة ﴿ **والصابئون** ﴾ قال أبو الزناد هم قوم مما يلي العراق ، وهم بكوثى ، وهم يؤمنون بالنبيّين كلهم ، ويصومون كل سنة ثلاثين يوماً ، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات . أقول : ولا زال في العراق ناس يسمّون صابئة ﴿ **والنصارى** ﴾ . أي :

حملة الإنجيل ﴿ **من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . أي : فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما خلفوه وراء ظهورهم . والمعنى : أنه من كان مسلماً أو يهودياً في الأصل ، أو نصرانياً أو صابئياً ، قُبل منه إسلامه ، المتضمن للإيمان والعمل الصالح ، وكوفىء . والمعنى : أن ما كان عليه الإنسان من قبل لا يضرُّه إذا آمن وعمل صالحاً بدخوله في الإسلام . أو المعنى : أن مسلمي هذه الأمّة ، واليهود السابقين على عيسى ، والنّصارى التابعين الحقيقيين لعيسى ، والصابئين في حالة إيمانهم ، وعملهم الصالح ، الجميع من أهل الجنّة ، وأهمّ شيء علينا أن نعرفه أنّ الإجماع منعقد على أنه لا يهودي ولا نصراني ولا صابئي بَلَغته دعوة رسولنا ثمّ لم يسلم إلا كان من أصحاب النار بعد ما بُعث رسول الله ﷺ .

ويلاحظ أن كلمة « الصابئون » في الآية مرفوعة ، وما قبلها منصوب ، والتقدير : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون كذلك » قال ابن كثير : « لما طال الفصل حسن العطف بالرّفع » . قال النسفي : « وفائدة التقديم التنبيه على أن الصابئين وهم أبيَن هؤلاء المعدودين ضلالاً ، وأشدّهم غيّاً يتاب عليهم إن صحّ منهم الإيمان فما الظّنّ بغيرهم » . ﴿ **لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل** ﴾ أي : بالتوحيد ﴿ **وأرسلنا إليهم رُسُلاً** ﴾ من أجل أن يوقِفوهم على ما يأتون وما يذرون في دينهم ﴿ **كلمّا جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم** ﴾ بما يخالف هواهم ، ويضادُّ شهواتهم من ميثاق التّكليف والعمل بالشرائع ﴿ **فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون** ﴾ كأنّه قيل : كيف فعلوا برسلهم ؟ فكان الجواب كلّما جاءهم رسول منهم ناصبوه إمّا بالتّكذيب وإمّا بالقتل ﴿ **وحسبوا ألا تكون فتنة** ﴾ . أي : بلاء وعذاب أي : وحسب بنو إسرائيل أنهم لايصيبهم من الله عذاب بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل ، وقد ضمّن كلمة حسبوا معني العلم لقوّته في صدورهم ، ولذا دخل فعل الحسبان على (أنْ) التي يدخل عليها الفعلُ علم ﴿ **فعموا وصمّوا** ﴾ . أي : فعموا عن الرشد ، وصمّوا عن الوعظ ، أو المعنى فلم يعملوا بما رأوا ولا بما سمعوا ﴿ **ثم تاب الله عليهم** ﴾ بأن رزقهم التوبة ﴿ **ثم عموا وصمّوا كثير منهم** ﴾ أي : صمّ كثير منهم وعمي كثير منهم ﴿ **والله بصير بما يعملون** ﴾ . أي : فيجازيهم بحسب أعمالهم ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم** ﴾ لم يفرّق عيسى عليه السلام بينه وبينهم في أنّه عبد مربوب ليكون حجّة على النّصارى ﴿ **إنّه من يشرك بالله** ﴾ . أي : في عبادته غير الله ﴿ **فقد حرّم الله عليه الجنة** ﴾ التي هي دار الموحّدين أي : حرمه دخولها

ومنعه منه ﴿ ومأواه النار ﴾ . أي : ومرجعه إليها ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ . أي : وما للكافرين من معين ولا ناصر ولا منقذ مما هم فيه ، وهو من كلام الله أو من كلام عيسى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾ . أي : وما إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثاني له ، وهو الله وحده لاشريك له ﴿ وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ﴾ من الافتراء والكذب والكفر ﴿ ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم ﴾ قال منهم لأن بعضهم يسلمون أو أسلموا ﴿ عذاب أليم ﴾ . أي : نوع شديد الألم من العذاب ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ﴾ . أي : ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكرّرة عليهم بالكفر ، وهذا الوعيد الشديد عما هم عليه ، وفيه تعجيبٌ من إصرارهم ﴿ والله غفور رحيم ﴾ . أي : يغفر هٰؤلاء إن تابوا ولغيرهم ﴿ ما المسيح ابن مريم إلّا رسول ﴾ هذا نفي للألوهية عنه ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ . أي : إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله ، وإبراؤه الأكمه والأبرص ، وإحياؤه الموتى ، لم يكن منه ، لأنه ليس إلهاً ، بل الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده ، كما أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى ، وخلقه من غير ذكر ، كخلق آدم من غير ذكر وأنثى ﴿ وأُمه صدّيقة ﴾ أي وما أمه أيضا إلا كبعض النساء المصدّقات للأنبياء المؤمنات بهم ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ هذا إبعاد لهما عما نسب إليهما من معاني الألوهية ، لأنّ من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنّقض ، لم يكن إلا جسماً مركّباً من لحم وعظم وعروق وأعصاب ، وغير ذلك مما يدلّ على أنّه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام ﴿ انظر كيف نبيّن لهم الآيات ﴾ . أي : الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم ﴿ ثمّ انظر أنىّ يؤفكون ﴾ . أي : كيف يصرفون عن استماع الحقّ وتأمّله بعد هذا البيان . وهذا تعجيب من الله تعالى في ذهابهم عن الفرق بين الرب والمربوب ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً ﴾ . أي : أتعبدون عيسى ! وهو لايستطيع أن يضرّكم بمثل ما يضرّكم به الله من البلاء والمصائب في الأنفس والأموال ، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحّة الأبدان والسّعة والخصب ، لأن كل مايستطيعه البشر من المضار والمنافع ، فبتخليقه تعالى فكأنه لا يملك منه شيئاً ، وهذا دليل قاطع على أنّ أمره مناف للربوبيّة حيث جعله لايستطيع ضرّاً ولا نفعاً ، وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء لايخرج مقدور عن قدرته ﴿ والله هو السّميع العليم ﴾ . أي : أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذي يسمع ما تقولونه ، ويعلم ما تعتقدونه ﴿ قل يا أهل الكتاب لاتغلوا في

دينكم ﴾ الغلوُّ : مجاوزة الحد ، فغلوُّ النّصارى رفعه فوق قدره باستحقاق الألوهية عندهم ، وغلوُّ اليهود وضعه عن استحقاق النّبوة ﴿ **غير الحق** ﴾ . أي : غلواً غير الحق يعني غلوّاً باطلًا ﴿ **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل** ﴾ المراد بهم الأسلاف والأئمّة الذين كانوا على الضّلال قبل مبعث النّبي ﷺ ﴿ **وأضلّوا كثيراً** ﴾ . أي : من تابعهم ﴿ **وضلّوا عن سواء السبيل** ﴾ حين كذّبوا رسول الله ﷺ وحسدوه وبغوا عليه لمّا بُعث ﴿ **لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ . أي : ذلك اللّعن بسبب عصيانهم واعتدائهم . ثمّ فسر المعصية والاعتداء بقوله ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** ﴾ . أي : كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن قبيح فعلوه ، والمراد أنّهم لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه ، أو عن مثل منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله ، أو المراد لا ينتهون عن منكر فعلوه بل يصرّون عليه ، ثم عجّب من سوء فعلهم مؤكداً ذلك بالقَسَم فقال : ﴿ **لبئس ماكانوا يفعلون** ﴾ قال النسفي : وفيه دليل على أن ترك النهي عن المنكر من العظائم . فياحسرة على المسلمين في إعراضهم عنه ﴿ **ترى كثيراً منهم يتولّون الذين كفروا** ﴾ . أي : يوالون المشركين ويصافونهم ﴿ **لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم** ﴾ . أي : لبئس شيئاً قدّموه لأنفسهم سُخْطُ الله عليهم ، أي : موجِب سخط الله

﴿ **وفي العذاب** ﴾ . أي : في جهنم ﴿ **هم خالدون** ﴾ أي ماكثون أبدا ﴿ **ولو كانوا يؤمنون بالله** ﴾ إيمانا خالصا بلا نفاق ﴿ **والنبي** ﴾ . أي : محمد ﷺ ﴿ **وما أنزل إليه** ﴾ . أي : القرآن ﴿ **ما اتّخذوهم أولياء** ﴾ . أي : ما اتخذوا المشركين أولياء يعني أنّ موالاة المشركين تدّل على نفاقهم ﴿ **ولكنّ كثيراً منهم فاسقون** ﴾ . أي مستمرون في كفرهم ونفاقهم ، ويمكن أن يكون المعنى : ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله وبموسى وما أنزل إليه يعني التّوراة ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون ، ولكن كثيراً منهم فاسقون : خارجون عن دينهم ، فلا دين لهم أصلًا ﴿ **لتجدنّ أشدّ النّاس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى** ﴾ وصف اليهود بشدّة الشّكيمة ، والنّصارى بلين العريكة . وجعل اليهود قرناء المشركين في شدّة العداوة للمؤمنين ، ونبّه على تقدم قَدَمِهم فيها بتقديمهم على المشركين ، ثمّ علّل للين النصارى بقوله : ﴿ **ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً** ﴾ . أي : علماء وعباداً ﴿ **وأنّهم لا يستكبرون** ﴾ . أي : علّل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودّتهم للمؤمنين بأن منهم

قسّيسين ورهباناً ، وأن فيهم تواضعاً واستكانة ، واليهود على خلاف ذلك . قال النّسفي : وفيه دليل على أن العلم أنفع شيء وأهداه إلى الخير ، وإن كان علم القسّيسين ، وكذلك علم الآخرة وإن كان في راهب ، والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسّول ترى أعينهم تفيض من الدمع مّما عرفوا من الحق** ﴾ وصفهم برقّة القلوب ، وأنهّم يبكون عند استماع القرآن . ومعنى تفيض من الدمع : أي تمتلىء من الدمع حتى تفيض لأن الفيض أن يمتلىء الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه ، أو أن أعينهم جعلت كأنها تفيض بنفسها من أجل البكاء . وفي قوله تعالى (من الحق) إن أريد بـ (من) التبعيض يكون المعنى عرفوا بعض الحق فأبكاهم ، فكيف إذا عرفوه كله ، فقرأوا القرآن وأحاطوا بالسنّة ﴿ **يقولون ربنا آمنا** ﴾ . أي : بمحمّد ﷺ ﴿ **فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ أي : مع أُمة محمد ﷺ الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة ، قالوا ذلك لمعرفتهم وصف هذه الأمّة بذلك ﴿ **ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا** ﴾ . أي : وبما جاءنا ﴿ **من الحق** ﴾ . أي : محمداً عليه الصلاة والسلام والقرآن وفي استفهامهم هذا معنى الإنكار والاستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجبه وهو الطمع في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين ، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى على لسانهم ﴿ **ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين** ﴾ والتقدير ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة مع الأنبياء والمؤمنين ﴿ **فأثابهم الله بما قالوا** ﴾ . أي : بقولهم ربنا آمنا وتصديقهم ﴿ **جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين** ﴾ قال النسفي : فيه دليل على أن الإقرار داخل في الإيمان ،وحتى لايفهم فاهم أن هذا الثناء على النصارى جميعاً عقّب فقال ﴿ **والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ هذا أثر الرّدّ في حق الأعداء ، والأوّل أثر القبول للأولياء ، فالثناء على نصارى من نوع خاص اجتمعت لهم صفات ، منها قبول الإسلام ، وهذا شيء يجب أن يضعه الدعاة إلى الله نصب أعينهم .

ملاحظات في السّياق :

١ - لقد تحدّث القسم الأوّل من سورة المائدة عن الفسوق والخسران ، ونقض العهد والإفساد في الأرض ، وأسباب الهداية والضلال ، ثمّ جاء القسم الثاني فعمّق في موضوع الهداية والضلال ، وموضوع الفسوق والفساد في الأرض ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ثمّ جاء القسم الثالث في مقطعيه آمراً بالتبليغ بانياً على ما مرّ من قبل في السورة محرّراً من

أسباب الضلال ، معمّقاً أسباب الهداية . فالصلة بين هذا القسم وبين ما مرّ من السورة واضحة جداً . ألا ترى أن القسم الأول في السورة قد وجد في آياته الأولى قوله تعالى ﴿ **غير مُحِلّي الصيد وأنتم حرم** ﴾ وقوله تعالى قبل ذلك ﴿ **أُحلّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم** ﴾ ثم بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ **حُرمت عليكم الميتة ...** ﴾ وسيأتي في هذا القسم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم** ﴾

إنه بعد أن وضعت القواعد التوضيحية لكثير من الأمور في القسمين الأول والثاني ، يأتي القسم الثالث في مقطعيه ليدعو وينذر ويربي في سياق الأمر بالتبليغ .

٢ - ومع أنّ القسم الثالث بنى على القسمين الأول والثاني اللذين وضّحا الكثير مّما له علاقة بالمحور فهو واضح الارتباط بالمحور كذلك ففيه : ﴿ **إن الله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ ﴿ **لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل** ﴾ ﴿ **قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا** ﴾ ﴿ **ولكنّ كثيراً منهم فاسقون** ﴾ ومن تذكر آيتي المحور في سورة البقرة وضحت لديه الصلة .

٣ - لقد جاء في أواخر المقطع الأول من القسم الأول : قوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ وجاء في أوّل المقطع الثاني من القسم الأول ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً** ﴾ وذكر هناك عقوبة نقضهم للميثاق ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم** ﴾ وفي المقطع الأول من القسم الثالث وهو المقطع الذي مرّ معنا : جاء قوله تعالى ﴿ **لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً ...** ﴾

ثمّ بيّن موقفهم من الرّسل وبيّن أنهم في فعلهم هذا كانوا يظنون ألا يفتنهم الله ﴿ وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصمّوا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصمّوا كثير منهم ﴾ وقد ختم المقطع بقوله تعالى ﴿ **فأثابهم الله بما قالوا جنات ...** ﴾ ﴿ **والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ وكل ذلك يؤكدّ أن القسم الثالث مرتبط بالقسمين الأوّلين ، وأنّ سياقه يكمّل سياقهما فبعد تقرير القواعد يأتي الأمر بالتبليغ وفي سياق التبليغ يأتي تفصيل لكثير من الأمور التي مرّت من قبل وسيأتي مزيد بيان .

فوائد :

١ - في الصحيح أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس : إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ، وفي لفظ مؤمنة .

٢ - ذهب ابن حزم وآخرون إلى نبّوة سارة أم إسحق ، ونبوّة أمّ موسىٰ وأم عيسىٰ ، استدلالا لهم بخطاب الملائكة لهنّ ، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال . قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم** ... ﴾ (يوسف : ١٠٩) وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك ، وقد رأينا من قبل أنّ بعضهم جعل هذه الآية في الرّسالة ، فهي وحدها التي لم تكن لأنثى ،أما النبوّة فجوّزها ورأينا هناك ردّ ذلك .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** ﴾ ننقل هذه الأحاديث التي أوردها ابن كثير في هذا المقام : روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم » . قال يزيد : وأحسبه قال : « وأسواقهم وواكلوهم وشاربوهم ؛ فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال : « لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً » . وروىٰ أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ أول مادخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا اتق الله ودع ماتصنع ، فإنه لايحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله ، وشريبه ، وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال - ﴿ **لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسىٰ ابن مريم** ﴾ إلى قوله ﴿ **فاسقون** ﴾ ثم قال : كلا والله لتأمرنّ بالمعروف ، ولتنهونّ عن المنكر ، ولتأخذنّ على يد الظالم ، ولتأطرنّه على الحق أطراً ، أو تقصرنّه على الحق قصراً » وروىٰ ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً ، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه ، فلمّا رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان نبيِّهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ثمّ قال رسول الله ﷺ : « والذي

نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر ، ولتأخذنّ على يد المسيء ، ولتأطرنّه على الحق أطراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم » . وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ، ولتنهونّ عن المنكر ، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعُنّه فلا يستجيب لكم » . وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وروى الإمام أحمد عن عديّ بن عميرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إنّ الله لا يعذّب العامّة بعمل الخاصّة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله العامّة والخاصّة » . وروى أبو داود عن العرس بن عميرة عن النّبيّ ﷺ قال : « إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها - وقال مرة : فأنكرها - كان كمن غاب عنها - ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » . وروى أبو داود عن رجل من أصحاب النبّي ﷺ أنّ النبي ﷺ قال : « لن يهلك الناس حتى يعذروا أو : يعذروا من أنفسهم » . وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قام خطيباً فكان فيما قال : « ألا لا يمنعن رجلا هيبة النّاس أن يقول الحق إذا علمه » قال . فبكى أبو سعيد ، وقال : قد والله رأينا أشياء فهبنا » وروى أبو داود عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » . وروى ابن ماجه عن أبي أمامة قال : عَرَض لرسول الله ﷺ رجلٌ عند الجمرة الأولى فقال : يارسول الله أي الجهاد أفضل ؟ فسكت عنه ، فلما رمى الجمرة الثانية سأله فسكت عنه ، فلما رمى جمرة العقبة ، ووضع رجله في الغَرْز ليركب قال : « أين السائل ؟ » قال : أنا يارسول الله ، قال : « كلمة حق تقال عند ذي سلطان جائر » . وروى ابن ماجه أيضاً عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحقر أحدكم نفسه » . قالوا : يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : « يرى أمراً لله فيه مقال ثم لا يقول فيه . فيقول الله له يوم القيامة : ما منعك أن تقول في كذا : كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول : فإياي كنتَ أحق أن تخشى » . وروى ابن ماجه أيضاً عن أبي سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لَقّن الله عبداً حجّته قال : يارب رجوتك وفرقت من النّاس » . وروى الإمام أحمد عن حذيفة عن النّبي ﷺ قال : « لا ينبغي لمسلم أن يذلّ نفسه » قيل :

وكيف يذل نفسه ؟ قال : « يتعرض من البلاء ما لا يطيق » . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : قيل : يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال : « إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم » قلنا : يارسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا ، قال : « الملك في صغاركم ، والفاحشة في كباركم ، والعلم في رُذّالكم » قال زيد : تفسير معنى قول النبي ﷺ : والعلم في رُذالكم : إذا كان العلم في الفساق . أقول : إنّ علينا أن نعتاد على الإحسان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والكلمة الصالحة لا بد أن تترك أثراً .

٤ – وفي الآيات الأخيرة من المقطع أي ﴿ **لتجدنّ أشد الناس عداوة** ... ﴾ قال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثهم النجاشيّ إلى النّبي ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته ، فلما رأوه ﷺ ، وقرأ عليهم القرآن ، أسلموا وبكوا وخشعوا ، ثم رجعوا إلى النّجاشي فأخبروه . وروى الطبراني عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول** ... ﴾ قال إنهم كانوا كرّابين (يعني فلاحين) قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم ، فقال رسول الله ﷺ لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم ، فقالوا : لن ننتقل عن ديننا . فأنزل الله ذلك من قولهم ﴿ **وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق** ... ﴾ واختار ابن جرير أن هذه الآيات كلها نزلت في صفات أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو من غيرها .

٥ – تعلّقت الكرّاميّة – وهي فرقة ضالة – بقوله تعالى : ﴿ **فأثابهم الله بما قالوا جنات** .... ﴾ في أن الايمان مجرد القول . ورد النّسفي عليهم فقال : لكن الثناء بفيض الدمع في السباق ، وبالإحسان في السياق ، يدفع ذلك ، وأنّى يكون مجرد القول إيماناً ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾ (البقرة : ٨) نفى الإيمان عنهم مع قولهم آمنا بالله لعدم التصديق بالقلب . وقال : أهل المعرفة الموجود منهم ثلاثة أشياء : البكاء على الجفاء ، والدّعاء على العطاء ، والرّضا بالقضاء . فمن ادّعى المعرفة ولم يكن فيه هذه الثلاثة فليس بصادق في دعواه .

كلمة في السياق :

قلنا إن هذا المقطع الذي هو الأول في قسمه هو امتداد للمقطع السابق عليه ، إذ يؤكد ويوضح ويعمّق ضرورة عدم الولاء لليهود والنصارى لما هم عليه ، فارتباطه من هذه

الحيثية بالمحور العام للسورة من حيث تعميق وصل ما أمر الله به أن يوصل . وهو ولاء أهل الإيمان ونفي عكسه . وفي هذا المقطع رأينا أسباباً للضلال كالأسباب التي لعنت بها بنو إسرائيل ، وأسباباً للهداية . من مثل صفات النصارى المستجيبين للحق ، وهذا كذلك مرتبط بمحور السورة ، من حيث إنّه بيان لأسباب الضلال وأسباب الهداية ، وفي المقطع ذكر للمواثيق التي أخذت على بني إسرائيل ، وموقفهم من ذلك مما استحقوا ، به ما استحقوه وفي هذا كذلك ارتباط للمقطع بمحور السورة ، فالسوّرة كما نرى تسير على منحيين ، المنحى الأول : تعميق أسباب الهداية بكتاب الله ، والمنحى الثاني : تبيان أسباب الضلال بطريقة من العرض معجزة ، قد لا نكون أحسنا في عرضها ، لكنّا نرجو أن نكون أفلحنا بالإشارة إليها ، فإذا ما وصلت السورة إلى ما وصلت إليه تأتي الآن أوامر متعددة ، وتوجيهات متعدّدة ، تحوي في آياتها موضوعات متعددة ، كلها تصب في السياق العام للسورة ضمن محورها . هذه الأوامر والتوجيهات والنّواهي تشكل المقطع الثاني من القسم الثالث وهو المقطع السابع في السّورة ولا يبقى بعده من السّورة إلا خاتمتها .

فصول ونقول :

- وقعت طائفتان من طوائف المسلمين في غلطٍ في الفهم لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بَلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ الطائفة الأولى : بعض الصوفية ، والطائفة الثانية : بعض الشيعة ، أما الصوفية : فقد ذهب بعضهم إلى أن ما كلّف به رسول الله ﷺ هو التبليغ لبعض المعاني ، وهناك معانٍ أخرى مما يصلون إليه بأذواقهم لم تدخل بالتبليغ ، وأمّا بعض الطوائف من الشيعه فقد ذهبوا إلى أن الآية نزلت في موضوع تبليغ استحقاق عليّ للخلافة ، وأن الرّسول ﷺ قام بذلك يوم غدير خمّ وقد ناقش الألوسي كُلّا من هؤلاء وهؤلاء ، ونحن ننقل بعض كلامه هنا ومن أراد أن يقرأ كلامه كاملاً فليراجع تفسيره :

قال في الردّ على بعض المتصوفة : « والتحقيق عندي أن جميع ما عند النبي ﷺ من الأسرار الإلهية وغيرها من الأحكام الشرعية قد اشتمل عليه القرآن المنزّل ، فقد قال سبحانه : ﴿ **ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ما فرّطنا في الكتاب من شيء** ﴾ ، وقال رسول الله ﷺ فيما أخرجه الترمذي . وغيره : « ستكون فتن ، قيل : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم مابينكم » ، وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : أنزل في هذا

القرآن كل علم ، وبيّن لنا فيه كل شيء ، ولكن عِلمنا يقصر عما بيّن لنا في القرآن » وقال الشافعي رضي الله عنه : جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن » ويؤيد ذلك ما رواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إني لا أحل إلا ما أحل الله تعالى في كتابه ، ولا أحرم إلا ما حرم الله تعالى في كتابه » وقال المرسي : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر به سبحانه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة . ومثل ابن مسعود . وابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، حتى قال : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم . وفترت العزائم . وتضاءل أهل العلم . وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه ، وسائر فنونه ، فنوّعوا علومه ، وقامت كل طائفة بفن من فنونه . وقال بعضهم : ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن ، لمن فهّمه الله تعالى حتى إن البعض استنبط عُمْر النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله سبحانه في سورة المنافقين : ﴿ **ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها** ﴾ فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقّبها ــ بالتغابن ــ ليظهر التغابن في فقده ، غاية ما في الباب أن التوقيف على تفصيل ذلك سراً سراً وحكما حكماً لم يثبت بصريح العبارة لكل أحد ، وكم من سر وحكم نبهت عليهما إشارة ولم تبينهما العبارة ، ومن زعم أن هناك أسراراً خارجة عن كتاب الله تلقاها الصوفية من ربهم بأي وجه كان ، فقد أعظم الفرية ، وجاء بالضلال ابن السبهلل بلا مرية .

وقول بعضهم : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، ونحن أخذناه عن الحي الذي لا يموت ، لا يدل على ذلك الزعم ، لجواز أن يكون ذلك الأخذ من القرآن بواسطة فهم قدسي أعطاه الله تعالى لذلك الآخذ ، ويؤيد هذا ما صح عن أبي جحيفة ، قال : قلت لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه هل عندكم كتاب خصّكم به رسول الله ﷺ ؟ قال : لا إلا كتاب الله تعالى ، أو فَهْمٌ أعطيه رجل مسلم . أو ما في هذه الصحيفة ــ وكانت متعلقة بقبضة سيفه ــ قال : قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل . وفكاك الأسير . ولا يقتل مسلم بكافر .

ويفهم منه ــ كما قال القسطلاني ــ جواز استخراج العالم من القرآن بفهمه ما لم يكن منقولاً عن المفسرين إذا وافق أصول الشريعة ، وماعند الصوفية ــ كله من هذا

القبيل إلا أن بعض كلماتهم مخالف ظاهرها لما جاءت به الشريعة الغراء ، لكنها مبنية على اصطلاحات فيما بينهم إذا عُلم المراد منها يرتفع الغبار ، وكونهم ملامين على تلك الاصطلاحات لقول علي كرم الله وجهه – كما في صحيح البخاري – : حدّثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله تعالى ورسوله ﷺ — أو غير ملامين لوجود داع لهم إلى ذلك على ما يقتضيه حسن الظن بهم بحث آخر لسنا بصدده .

وقريب من خبر أبي جحيفة ما أخرجه ابن حاتم عن عنترة ، قال : كنت عند ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فجاءه رجل ، فقال : إن ناسا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبده رسول الله ﷺ للناس ، فقال : ألم تعلم أن الله تعالى قال : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ ؟ والله ما ورّثنا رسول الله سوداء في بيضاء » وحمل — وعاء أبي هريرة رضي الله تعالى عنه الذي لم يبثّه على علم الأسرار — غير متعين لجواز أن يكون المراد منه أخبار الفتن . وأشراط الساعة . وما أخبر به الرسول ﷺ من فساد الدين على أيدي أغيلمة من سفهاء قريش ، وقد كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول : لو شئت أن أسميهم بأسمائهم لفعلت ، أو المراد الأحاديث التي فيها تعيين أسماء أمراء الجور وأحوالهم وذمهم ، وقد كان رضي الله تعالى عنه يكني عن بعض ذلك ولا يصرّح خوفا على نفسه منهم بقوله : أعوذ بالله سبحانه من رأس الستين وإمارة الصبيان ، يشير إلى خلافة يزيد الطريد لعنه الله تعالى على رغم أنف أوليائه لأنها كانت سنة ستين من الهجرة ، واستجاب الله تعالى دعاء أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، فمات قبلها بسنة ، وأيضاً قال القسطلاني : لو كان كذلك لما وسع أبا هريرة كتمانه مع ما أخرج عنه البخاري أنه قال : إن الناس يقولون : أكثر أبو هريرة الحديث ، ولولا آيتان في كتاب الله تعالى ما حدثت حديثاً ثم يتلو ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **الرحيم** ﴾ إلى آخر ما قال فإن ما تلاه دال على ذم كتمان العلم لا سيما العلم الذي يسمونه علم الأسرار ؛ فإن الكثير منهم يدعي أنه لب ثمرة العلم ، وأيضاً إن أبا هريرة نفى بث ذلك الوعاء على العموم من غير تخصيص ، فكيف يستدل به لذلك وأبو هريرة لم يكشف مستوره فيما أعلم ؟ فمن أين علم أن الذي علمه هو هذا ؟ ! ومن ادّعى فعليه البيان ، ودونه قطع الأعناق .

فالاستدلال بالخبر لطريق القوم فيه ما فيه ، لا يسلم لأحد كائناً من كان أن ما هم عليه مما خلا عنه كتاب الله تعالى الجليل أنه أمر وراء الشريعة ، ومن برهن على ذلك بزعمه فقد ضل ضلالاً بعيداً ، فقد قال الشعراني قدّس سرّه في الأجوبة المرضية عن

الفقهاء والصوفية : سمعت سيدي علياً المرصفي يقول : لايكمل الرجل في مقام المعرفة والعلم حتى يرى الحقيقة مؤيدة للشريعة ، وأن التصوف ليس بأمر زائد على السنة وإنما هو عينها . وسمعت سيدي علياً الخواص يقول مراراً : من ظن أن الحقيقة تخالف الشريعة أو عكسه فقد جهل ، لأنه ليس عند المحققين شريعة تخالف حقيقة أبداً ، حتى قالوا : شريعة بلا حقيقة عاطلة ، وحقيقة بلا شريعة باطلة ، خلاف ما عليه القاصرون من الفقهاء والفقراء ، وقد يستند من زعم المخالفة بين الحقيقة والشريعة إلى قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك على وجه لا يستطيع المخالف معه على فتح شفة .

ومما قاله الألوسي في عرضه لرأي بعض الشيعة في الآية ومناقشته لهم :

« وزعمت الشيعة أن المراد ﴿ **بما أنزل إليك** ﴾ خلافة علي كرم الله تعالى وجهه ، فقد رووا بأسانيدهم عن أبي جعفر . وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما أن الله تعالى أوحى إلى نبيه ﷺ أن يستخلف علياً كرم الله تعالى وجهه ، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعاً له عليه الصلاة والسلام بما أمره بأدائه . » وخبر الغدير عمدة أدلتهم على خلافة الأمير كرم الله تعالى وجهه ، وقد زادوا فيه إتماماً لغرضهم زيادات منكرة . ووضعوا في خلاله كلمات مزورة ، ونظموا في ذلك الأشعار . وطعنوا على الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، بزعمهم أنهم خالفوا نص النبي المختار ﷺ .

« وأنت تعلم أنّ أخبار الغدير التي فيها الأمر بالاستخلاف غير صحيحة عند أهل السنة ولا مسلّمة لديهم أصلًا ، ولنبين ما وقع هناك أتم تبيين ، لنوضّح الغثّ منه والسمين .

« فنقول : إن النبي ﷺ خطب في مكان بين مكة والمدينة ، عند مرجعه من حجة الوداع قريب من الجحفة يقال له : غدير خم ، فبيّن فيها فضل علي كرم الله وجهه و براءة عرضه مما كان تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن ، بسبب ما كان صدر منه من المعدلة التي ظنها بعضهم جوراً وتضييقاً وبخلاً ، والحق مع علي كرم الله وجهه في ذلك ، وكانت يوم الأحد ثامن عشر ذي الحجة تحت شجرة هناك . فروى محمد بن إسحق عن يحيى بن عبد الله عن يزيد بن طلحة قال : لما أقبل علي كرم الله تعالى وجهه من اليمن ليلقى رسول الله ﷺ بمكة تعجل إلى رسول الله ﷺ واستخلف على جنده

الذين معه رجلًا من أصحابه ، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل حلة من البز الذي كان مع علي كرم الله وجهه ، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل ، قال : ويلك ما هذا ؟ قال : كسوت القوم ليتجمّلوا به إذا قدموا في الناس ، قال : ويلك انتزع قبل أن تنتهي إلى رسول الله ﷺ ، قال : فانتزع الحلل من الناس فردها في البز ، وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم .

وأخرج عن زينب بنت كعب – وكانت عند أبي سعيد الخدري قال : اشتكى الناس علياً كرم الله تعالى وجهه ، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فسمعته يقول : أيها الناس لاتشكوا علياً فوالله إنه لأخشن في ذات الله تعالى – أو في سبيل الله تعالى – ، ورواه الإمام أحمد ، وروى أيضاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن بريدة الأسلمي قال : غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً كرم الله تعالى وجهه ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ قد تغير ، فقال رسول الله : بريدة ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، وكذا رواه النسائي بإسناد جيد قوي رجاله كلهم ثقات ، وروي بإسناد آخر تفرد به ، وقال الذهبي : إنه صحيح عن زيد بن أرقم قال : لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقممن ، ثم قال : كأني قد دعيت فأجبت إني قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لم يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، الله تعالى مولاي وأنا ولي كل مؤمن ، ثم أخذ بيد علي كرم الله تعالى وجهه ، فقال : من كنت مولاه فهذا وليّه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، فما كان في الدوحات أحد إلا رآه بعينه وسمعه بأذنيه .

وروى ابن جرير عن علي بن زيد وأبي هرون العبيدي وموسى بن عثمان عن البراء قال : كنا مع رسول الله في حجة الوداع ، فلما أتينا على غدير خم ، كسح لرسول الله تحت شجرتين ، ونودي في الناس الصلاة جامعة ، ودعا رسول الله ﷺ علياً كرم الله تعالى وجهه ، وأخذ بيده وأقامه عن يمينه ، فقال : أولستُ أولى بكل امرىءٍ من نفسه ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن هذا مولى من أنا مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، فلقيه عمر بن الخطاب فقال رضي الله تعالى عنه : هنيئاً لك أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة – وهذا ضعيف – فقد نصوا أن علي بن زيد . وأبا هرون وموسى ضعفاء لا يعتمد على روايتهم ، وفي السند أيضاً – أبو إسحق وهو شيعي مردود الرواية .

وروى ضمرة بإسناده عن أبي هريرة قال : لما أخذ رسول الله ﷺ يد علي كرم الله وجهه قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، فأنزل الله تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ ثم قال أبو هريرة : وهو يوم غدير خم ، ومن صام يوم ثماني عشرة من ذي الحجة كتب الله تعالى له صيام ستين شهراً ، وهو حديث منكر جداً ، ونص في البداية والنهاية على أنه موضوع . وقد اعتنى بحديث الغدير أبو جعفر بن جرير الطبري ، فجمع فيه مجلدين أورد فيهما سائر طرقه وألفاظه ، وساق الغثّ والسمين ، والصحيح والسقيم على ما جرت به عادة كثير من المحدثين ، فإنهم يوردون ما وقع لهم في الباب من غير تمييز بين صحيح وضعيف ، وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر ، أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة والمعول عليه فيها ما أشرنا إليه ، ونحوه مما ليس فيه خبر الاستخلاف كما يزعمه الشيعة . وعن الذهبي أن من كنت مولاه فعلي مولاه متواتر يتيقن أن رسول الله قاله ، وأما اللهم وال من والاه ، فزيادة قوية الإسناد ، وأما صيام ثماني عشرة ذي الحجة فليس بصحيح – ولا والله ما نزلت تلك الآية إلا يوم عرفة قبل غدير خم بأيام .

والشيخان لم يرويا خبر الغدير في صحيحيهما لعدم وجدانهما له على شرطهما ، وزعمت الشيعة أن ذلك لقصور وعصبية فيهما وحاشاهما من ذلك » .

أقول : موضوع المفاضلة بين الخلفاء الرّاشدين ، أو موضوع كون الخلافة محصورة بعلي رضي الله عنه وبأبنائه قضيتان أدخلهما علماء الشيعة في مباحثهم الأصولية وسيبقى أهل السنة والجماعة مستمرين على تحقيقهم وهو الحق ، وسيبقى الشيعة مستمرين على تحقيقهم ، ونحن نطالب كل الناس بالإنصاف وقبول التحقيق العلميّ النّزيه ، ونطالب في الوقت نفسه ألا يكون لموضوع تاريخي غير عمليّ في مرحلتنا الحاضرة تأثيره على وحدة المسلمين لصالح أعدائهم عامّة .

والذي أراه للمستقبل في موضوع الخلافة أن تعطى الحرية لكل اتجاه إسلامي ، في تأسيس حزب له على أساس آرائه في هذا الموضوع ، وأن يقدّم كل حزب مرشحه للأمة ضمن القواعد المتفق عليها ، والأمّة هي التي تختار ، ومن اختارته فعلى الجميع أن يبايعوه ، وأن يلتزموا بطاعته ، مع استمرارهم في الدعوة إلى مرشحهم ، أو إلى غيره لمرحلة لاحقة ، على حسب اللوائح الدستورية المنبثقة عن الشورى ، على ضوء الكتاب والسنة .

فصل : في الصابئين :

رأينا أثناء تفسير سورة البقرة أن المفسرين مختلفون في المراد بالصابئين هل المراد بذلك كل من صبأ عن دينه المنحرف إلى الحق ؟ أو المراد بهم طائفة بعينها نرى بقاياها في العراق ؟ ، وعلى القول الثاني فإننا ننقل ههنا كلاماً للألوسي لانعتبره تحقيقاً بل نعتبره سرداً لأقوال ، فلعلّ تحقيقاً ما يرجّح شيئاً منها ، أو ينقضه ، يقول الألوسي عن الصابئين :

« وهم كما قال حسن جلبي وغيره : قوم خرجوا عن دين اليهود والنصارى وعبدوا الملائكة ، وقد تقدم الكلام على ذلك ، وفي حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة للجلال السيوطي مالفظه : ذكر أئمة التاريخ أن آدم عليه الصلاة والسلام أوصى لابنه شيث – وكان فيه . وفي بنيه النبوة والدين – وأنزل عليه تسع وعشرون صحيفة وأنه جاء إلى أرض مصر ، وكانت تدعى بابلون فنزلها هو وأولاد أخيه ، فسكن شيث فوق الجبل ، وسكن أولاد قابيل أسفل الوادي ، واستخلف شيث ابنه أنوش ، واستخلف أنوش ابنه قونان ، واستخلف قونان ابنه مهلائيل ، واستخلف مهلائيل ابنه يرد ، ودفع الوصية إليه ، وعلمه جميع العلوم ، وأخبره بما يحدث في العالم ، ونظر في النجوم وفي الكتاب الذي أنزل على آدم عليه الصلاة والسلام ، وولد ليرد أخنوخ – وهو إدريس عليه الصلاة والسلام – ويقال له : هرمس ، وكان الملك في ذلك الوقت محويل بن أخنوخ بن قابيل ، وتنبأ إدريس عليه الصلاة والسلام وهو ابن أربعين سنة ، وأراد به الملك سوءاً فعصمه الله تعالى ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة ، ودفع إليه أبوه وصية جده والعلوم التي عنده ، وكان قد ولد بمصر وخرج منها ، وطاف الأرض كلها ورجع فدعا الخلق إلى الله تعالى ، فأجابوه حتى عمّت ملته الأرض ، وكانت ملته الصابئة ، وهي توحيد الله تعالى . والطهارة ، والصوم ، وغير ذلك من رسوم التعبدات ، وكان في رحلته إلى المشرق قد أطاعه جميع ملوكها ، وابتنى مائة وأربعين مدينة ، أصغرها الرها ، ثم عاد إلى مصر وأطاعه ملكها وآمن به – إلى آخر ما قاله – ونقله عن التيفاشي ، ويفهم منه قول في الصابئة غير الأقوال المتقدمة . وفي شذرات الذهب لعبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي في ترجمة أبي إسحق الصابئي ما نصه : والصابىء بهمز آخره ، قيل : نسبة إلى صابىء بن متوشلخ بن إدريس عليه الصلاة والسلام ، وكان علي الحنيفية الأولى ،وقيل: الصابىء بن ماوي ، وكان في عصر الخليل عليه الصلاة والسلام ، وقيل الصابيء عند العرب من خرج عن دين قومه ، ا هـ .

فصل : في قوله تعالى ﴿ وحسبوا ألا تكون فتنة ﴾

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ **لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلّما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ۝ وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصمّوا** ﴾ . إن مجيء آية ﴿ **وحسبوا** ﴾ بعد الاية السابقة عليها يشعر أن هؤلاء اليهود كانوا يرتكبون ما يرتكبون مع ظنّهم ألا تقع فتنة ، وبذلك وصلوا إلى حالة العمى عن الحق والصمم عن كلّ موعظة ، فجاءتهم الفتنة بأن سلّط الله عليهم بختنصّر فقهرهم وأخذهم أسارى إلى بابل في غاية الذّل والمهانة حتى رحمهم الله - عز وجل - فأنقذهم بعد ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ **ثمّ تاب الله عليهم** ﴾ ولكنهم بعد ذلك عادوا إلى العمى والصّمم ﴿ **ثم عموا وصمّوا كثير منهم** ﴾ فسلّط الله عليهم من سلّط وسيسلط إلى قيام السّاعة ، هذا توجيه بعضهم للآية .

وإن أمّتنا فيما يبدو تقع أحياناً فيما وقعت فيه يهود ، فيفعلون ما يفعلون حسباناً منهم أنهم لن يسلط عليهم أحد ، ويستغرقون في الانحراف ، حتى تأتيهم الضربة ، وما أكثر ما أصبنا بضربات وما أكثر الغفلة والعمى والصّمم .

نقل وتعليق :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم** ﴾ قال صاحب الظلال : إنّ كلّ النصوص القرآنية والنّبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم ، مجتمع يعترف ابتداء بسلطان الله ، ويتحاكم إلى شريعته مهما وجد فيه من طغيان الحكم ، في بعض الأحيان ، ومن شيوع الإثم في بعض الأحيان ، وهكذا نجد في قول الرّسول ﷺ « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » فهو إمام ولا يكون إماماً حتى يعترف ابتداء بسلطان الله وبتحكيم شريعته ، فالذي لا يحكّم شريعة الله لا يقال له « إمام » إنما يقول الله عنه سبحانه ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ . فأما المجتمعات الجاهلية التي لا تتحاكم إلى شريعة الله ،فالمنكر الأكبر فيها والأهمّ ، هو المنكر الكبير الأساسي الجذري ، هو الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار ، قبل الدُّخول في المنكرات الجزئية ، التي هي تبع لهذا المنكر الأكبر ، وفرع عنه وعرض له . إنه لا جدوى من ضياع الجهد جهد الخيرين الصالحين من الناس .. في مقاومة المنكرات الجزئية ، الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول ، منكر الجرأة على الله وادّعاء خصائص الألوهية ، ورفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ، لاجدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات هي مقتضيات ذلك

المنكر الأول وثمراته النكدة بلا جدال .

على أنه إلام نحاكم الناس في أمر ما يرتكبونه من منكرات ؟ بأي ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم : إن هذا منكر فاجتنبوه ؟ أنت تقول : إن هذا منكر فيطلع عليك عشرة من هنا ومن هناك يقولون : لك كلا ! ليس هذا منكراً لقد كان منكراً في الزمان الخالي ، والدنيا تتطور ، والمجتمع يتقدم ، وتختلف الاعتبارات .

فلا بد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال ، ولا بد من قيم معترف بها ، نقيس إليها المعروف والمنكر ، فمن أين نستمد هذه القيم ؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان ؟

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم - وهي متقلبة لاتثبت على حال ؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها ، وإلى خضم لا معالم فيه !

فلا بد ابتداءً من إقامة الميزان .. ولابد أن يكون هذا الميزان ثابتاً لا يتأرجح مع الأهواء .. هذا الميزان الثابت هو ميزان الله .. فماذا إذا كان المجتمع لا يعترف - ابتداءً - بسلطان الله ؟ ماذا إذا كان لا يتحاكم إلى شريعة الله ؟ بل ماذا إذا كان يسخر ويهزأ وينكّل بمن يدعوه إلى منهج الله ؟

ألا يكون جهداً ضائعاً ، وعبثاً هازلاً ، أن نقوم في مثل هذا المجتمع لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، في جزئيات وجانبيات من شئون الحياة ، تختلف عليها الموازين والقيم ، وتتعارض فيها الآراء والأهواء ؟!

إنه لا بد من الاتفاق مبدئياً على حكم ، وعلى ميزان ، وعلى سلطان ، وعلى جهة يرجع إليها المختلفون في الآراء والأهواء ..

لا بد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة . والنهي عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة .. وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان ! فلتوفر الجهود المبعثرة إذن ، ولتحشد كلها في جبهة واحدة ، لإقامة الأساس الذي عليه وحده يقام البنيان !

وإن الإنسان ليرثي أحياناً ويعجب لأناس طيبين ، ينفقون جهدهم في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » في الفروع ، بينما الأصل الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم ، ويقوم عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مقطوع !

فما غناء أن تنهى الناس عن أكل الحرام مثلاً في مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا ؛ فيستحيل ماله كله حراماً ؛ ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال .. لأن نظامه الاجتماعي والاقتصادي كله لا يقوم على شريعة الله . لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن السكر في مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب الخمر ، ولا يعاقب إلا على حالة السكر البيِّن في الطريق العام . وحتى هذه لايعاقب فيها بحد الله . لأنه لايعترف ابتداءً بحاكمية الله ؟! .

وما غناء أن تنهى الناس عن سبِّ الدين ؛ في مجتمع لايعترف بسلطان الله ؛ ولا يعبد فيه الله . إنما هو يتخذ أرباباً من دونه ؛ ينزلون له شريعته وقانونه ؛ ونظامه وأوضاعه ، وقيمه وموازينه . يضعون هم الشرائع والقوانين ؛ ويضعون هم القيم والموازين ؟!

ما غناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الأحوال ؟ ما غناء النهي عن هذه الكبائر - فضلاً عن أن يكون النهي عن الصغائر - والكبيرة الكبرى لانهي عنها .. كبيرة الكفر بالله ، برفض منهجه للحياة ؟!

إن الأمر أكبر وأوسع وأعمق ، مما ينفق فيه هؤلاء « الطيبون » جهدهم وطاقتهم واهتمامهم .. إنه - في هذه المرحلة - ليس أمر تتبع الفرعيات - مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هذه حدود الله . فحدود الله تقوم ابتداء على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه . فإذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة ؛ تتمثل في اعتبار شريعة الله هي المصدر الوحيد للتشريع ؛ واعتبار ربوبية الله وقوامته هي المصدر الوحيد للسلطة .. فكل جهد في الفروع ضائع؛ وكل محاولة في الفروع عبث .. والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سائر المنكرات .. والرسول ﷺ يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » . وقد يجيء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيه تغيير المنكر بأيديهم ؛ وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه ، إن هم كانوا حقاً على الإسلام .

وليس هذا موقفاً سلبياً من المنكر - كما يلوح في بادىء الأمر - وتعبير الرسول ﷺ بأنه تغيير دليل على أنه عمل إيجابي في طبيعته . فإنكار المنكر بالقلب ، معناه احتفاظ هذا القلب بإيجابيته تجاه المنكر .. إنه ينكره ويكرهه ولايستسلم له ، ولايعتبره الوضع

الشرعي الذي يخضع له ويعترف به .. وإنكار القلوب لوضع من الأوضاع قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنكر ، ولإقامة الوضع « المعروف » في أول فرصة تسنح ، وللتربص بالمنكر حتى تواتي هذه الفرصة .. وهذا كله عمل إيجابي في التغيير .. وهو على كل حال أضعف الإيمان . فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان ! أما الاستسلام للمنكر لأنه واقع ، ولأن له ضغطاً - قد يكون ساحقاً - فهو الخروج من آخر حلقة ، والتخلي حتى عن أضعف الإيمان . هذا وإلا حقت على المجتمع اللعنة التي حقت على بني إسرائيل :

﴿ لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ۝ كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .. » .

أقول : لقد فهم الكثيرون من قرّاء السيد رحمه الله هذا الكلام فهماً خاطئاً ، فأصبحوا ينكرون على من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر في مجتمعاتنا مما أصبح معه من الواجبات وضع الأمور في مواضعها ولذلك نقول :

إنّه من سنّة رسول الله ﷺ أن نقدّم الدعوة إلى الأهم على المهمّ ثمّ وثمّ .. فعندما أرسل ﷺ معاذاً إلى اليمن أمره أن يدعو إلى شهادة ألّا إله إلّا الله ... فإن هم أجابوا لذلك فليدعهم إلى الصلاة ... فإن هم أجابو إلى ذلك فليعلمهم بأمر الزكاة وهكذا ...

فليس من السنّة أن تأتي إلى إنسان مرتدٍّ عن الإسلام فتبدأ بدعوته إلى ترك التختم بالذهب مثلاً ، وهو لايعترف بالإسلام أصلاً ، ولو أنّك فعلت فلست آثماً ، بل أنت مأجور ولكنّ الأصل أن تدعوه أولاً إلى الإيمان ، فإذا استجاب ؛ فادعه إلى فهم الإسلام والالتزام بكل ما فيه ، وليس عليك من حرج في أن تقدّم مُهمّاً على أهم ، ولكنّ السنة أن نقدّم الأهم على المهمّ ، وأن تتساهل ابتداء فيما اختلف فيه العلماء لتنتقل فيما بعد إلى آفاق العزائم ، فتعلّم النّاس وتربيهم على أن يأخذوا بالأحوط ، مع البيان أنّه أحوط دون الإلزام به وكأنّه أمر مجمع عليه . وأما إذا كان إنسان مسلماً ابتداءً ولكنّه على جهل فهذا لا عليك أن تبدأ معه البيان على ضوء العلم في الأصول والفروع ، وأن تنهاه عن المنكر في الأصول والفروع وأن تأمره بالمعروف أصولاً وفروعاً . هذا كلّه في حق الفرد كفرد

أمّا في الخطاب الجماعي ، فالزمان والمكان والأشخاص هي التي تحدّد الموضوع ، فإذا كنت تخاطب روّاد المساجد فلا عليك أن تتحدث عن كل شيء من الأصول إلى الفروع ،

ولكنّ الحكمة أن تتخيّر موضوعك بحيث يناسب روّاد مسجدك ، ولكن ليس من الحكمة إذا كنت تخاطب الأمريكيين غير المسلمين مثلًا في أمريكا أن تبدأ الحديث معهم في الكلام عن كراهية المجيء إلى المسجد لمن تشمّ منه رائحة الثوم والبصل ، وغير ذلك من الروائح التي لا تألفها الأذواق ، قد يكون هذا جزءاً من موضوع ولكن لايصلح أن يكون هو الموضوع وأن يصاغ بصيغة طلب .

ونحب أن نقول : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدخل فيه الدعوة إلى الأصول والفروع ، والمسلم من أخلاقه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكن عليه أن يكون حكيماً في الدخول والخروج وتخيّر الموضوع .

وهل يعتبر كلام الأستاذ سيد نهياً لنا عن أن نشغل أوقاتنا في صراع جزئي مع المنكرات الجزائية في المجتمع بحيث نستغرق في ذلك ؟ قد يكون كلامه يفيد شيئاً من ذلك ، ولكن ليس هذا من باب أنه لو فعل بعض المسلمين ذلك يكونون قد ارتكبوا حراماً ، ولكن من باب ألا ينسينا واجب واجبات أخرى .

إنّ الجهد الرئيسي للدعوة الإسلامية ينبغي أن ينصبّ على استبدال نظام جاهلي بنظام إسلامي ، بالوسائل المشروعة المتاحة المستطاعة ، هذا هو الفقه الصحيح للعمل العام ، ولكن ونحن نسير لذلك ، فلا حرج على من يحاول إزالة منكر جزئي ، بما لا يؤثر على السيّر العام نحو الهدف الكبير .

هذه هي المسألة في إطارها العلمي والفقهي وفي إطار فقه الدعوة المعاصرة .

إنّ كثيرين من النّاس يرون أنّ تغيير منكر جزئي باليد لا يجوز قبل قيام السّلطة الإسلامية ويستدلون على ذلك بأن رسول الله ﷺ لم يكسّر الأصنام إلا بعد الفتح ، وهذا خطأ فقد ثبت في السُنة أن رسول الله ﷺ اشترك هو وعليّ بن أبي طالب في كسر صنم لقريش من على الكعبة قبل الهجرة وهربا ، وهذا إبراهيم عليه السّلام كسّر الأصنام ولا سلطة .

إنّه من حيث الجواز يجوز لكلّ مسلم أن يغيّر منكراً أوجب الشرع تغييره ، وهو إنْ فعل مأجور ، لكن هل يجب عليه ذلك ؟ هل يحتاج إلى إذن إن كان منتسباً لجماعة تتضرّر بسبب فعلته ؟ كل ذلك له موازينه الشرّعية والفتوى البصيرة من أهلها هي التي تعطي الجواب الصحيح على ضوء الموازنات الصحيحة .

إن هناك صوراً من النهي عن المنكر قد تُرتّب على غير الناهي ضرراً لغيره ، أمثال هذه الصور نصّ الغزالي في إحيائه على أن على الناهي ألا يقدم عليها قبل استئذان من يصيبه الضرر ، ومن المعلوم أنّ ذلك لا تدخل فيه صورة ما إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حق إنسان هو من باب فروض العين .

قلنا هذا الكلام لأنّ ناساً كادوا أن يعطلوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بسبب فهمهم الخاطىء لآراء صاحب الظلال .

قد لا توجد فائدة في أن أنهى سكيراً عن شرب الخمر إذا كان مرتداً أو كافراً أصلياً ، وقد لا توجد فائدة في أن أنهى كافراً عن سبِّ الدين .

ولكن قد يكون من المناسب أن أسأل السّكير عما إذا كان يؤمن بالإسلام وعمّا إذا كان يفهمه ، ثمّ بعد ذلك أدعوه إلى الإيمان وفهم الإسلام ، وأنهاه إذا كان مؤمناً عن شرب الخمر .

وقد يكون من المناسب أن أسأل ساب الدّين عن سبب سبابه ، فأدعوه إلى الإسلام من خلال ذلك ، وفي كل الأحوال لو أنني نهيتُ أمثال هؤلاء فلست مأزوراً ، بل أنا مأجور وكفى ذلك غناءً .

إنّ فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم ما ينبغي أن يعرفه المسلم وأن يتحقق به ولا تمكين للمسلم إلا بهذا : ﴿ **الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾ . إنهم كذلك قبل السلطة وبعدها ، وإذا لم يكونوا كذلك قبل السلطة فلن يكونوا كذلك بعدها ، وقد غلط ناس عطّلوا الصلاة ، والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بحجة أنّ ذ لك لا يكون إلا بعد السلطة ، وهو فهم خاطىء للآية ، ونخشى أن يتسرّب لنا هذا الفهم الخاطىء .

إنّه كما أنّنا نصلي في كل الحالات ، ونزكي في كل الحالات ، فعلينا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر في كل الحالات ، ملاحظين ما مرّ من تقديم الأصول على الفروع ، مع اعتبارنا أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في الأصول مأجور .

لقد رأيت نماذج من الناس استمرؤوا السكوت على المنكر في كل الأحوال ، بحجة أن المجتمع جاهلي ، وواقعوا المنكر بحجة أن المجتمع جاهلي .

لقد كان رسول الله ﷺ أميناً والمجتمع جاهلي ، وكان يعبد الله والمجتمع جاهلي ، وكان مطهراً من مواقعة عادات الجاهلية على غلبتها ، وهذا لم يكن تكليفاً ، أفبعد أن منّ الله علينا بالتكليف والبيان ، يصل بعض الناس إلى تعطيل أحكام الله بسبب فهم خاطىء لكلام رجل ، كلامه في الأصل يحتمل الخطأ والصواب .

إنّه لمن أصعب أنواع الجهل ألّا يعرف إنسان أن يضع الكلمة التي يسمعها أو يقرؤها في محلها

ودعونا نتأمّل الآيات التي كتب فيها الشهيد رحمه الله ما كتب : ﴿ **لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلُوه لبئس ما كانوا يفعلون لولا ينهاهم الربّانيُّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾

لقد وُجد عيسى في مجتمع جاهلي كان على رأسه الرومان الوثنيون ولم يكن اليهود في ظل دولة مسلمة ومع ذلك لعنهم عيسى ، السبب عصيانهم واعتداؤهم دون تحديد لهذا العصيان وهذا الاعتداء في الآية ، ثم وصفهم الله عز وجل بقوله ﴿ **كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه** ﴾ لاحظ تنكير كلمة (المنكر) الآتية في سياق نفي مما يعمّ كل منكر ، ثم جاءت بعد ذلك آية تقول ﴿ **لولا ينهاهم الربانيُّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت** ﴾ دون تحديد لنوع الكلام الآثم ولا الحرام المأكول ، أليس وضع أبناء المسلمين اليوم يشبه وضع المجتمع الذي وجد فيه عيسى عليه السلام ، فهل إذا سكتَ علماؤنا وعبّادنا عن الكلمة الآثمة والكسب الحرام والاعتداء والعصيان والمنكر لا يكونون قد وقعوا فيما وقع فيه علماء بني إسرائيل . وهل الآيات فرّقت بين أصول وفروع ؟

نرجوا أن نكون بهذا البيان قد وضعنا الأمور في مواضعها بالنسبة لهذا الموضوع الخطير .

نقول :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود** ﴾ يقول صاحب الظلال : إن الذي ألّب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة ؛ وجمع بين اليهود .. من بني قريظة وغيرهم ، وبين قريش في مكة ، وبين القبائل الأخرى في

الجزيرة .. يهودي ..

والذي ألَّب العوام ، وجمع الشراذم ، وأطلق الشائعات ، في فتنة عثمان رضي الله عنه وما تلاها من النكبات .. يهودي ..

والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول الله ﷺ وفي الروايات والسير .. يهودي ..

ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة ؛ ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال « الدستور » بها في عهد السلطان عبد الحميد ، ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدي أتاتورك .. يهودي ..

وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود !

ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية .. يهودي .. ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودي .. ووراء معظم النظريات الهدّامة لكل المقاسات والضوابط يهود !

ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمداً ، وأعرض مجالًا ، من تلك التي شنها عليه المشركون والوثنيون — على ضراوتها — قديماً وحديثاً .. إن المعركة مع مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاماً في جملتها . وكذلك كانت المعركة مع فارس في العهد الأول . أما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة ؛ ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية .. (التي تُعدّ الماركسية مجرد فرع لها) وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية » .

وحتى لا يفهم فاهم من قوله تعالى : ﴿ **ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى** ﴾ أنَّ ذلك في النصارى جميعاً ، ومن أجل أن يفهم النص على ما أنزل عليه أنّه في النصارى الذين مآلهم الدخول في الإسلام متى عرض عليهم يقول صاحب الظلال : « وإذا كان الواقع التاريخي قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذي دخل فيه الإسلام عليهم المدينة ؛ في صورة كيد لم ينته ولم يكف حتى اللحظة الحاضرة ؛ وإذا كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الإسلام في كل أرجاء الأرض اليوم في حقد خبيث وكيد لئيم .. فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى

الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم ـــ فيما عدا الحالات التي وقع فيها ما تصفه الآيات التي نحن بصددها فاستجابت قلوب للإسلام ودخلت فيه . وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كذلك ، يلاقون من ظلمها الوبال ! ـــ أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يخب أوارها قط ـــ إلا في الظاهر ـــ منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك !

لقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان ، كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين في الأندلس ، ثم في حملات الاستعمار والتبشير على الممالك الإسلامية في إفريقية أولًا ، ثم في العالم كله أخيراً .

ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الإسلام ـــ على كل ما بينهما من أحقاد ـــ ولكنهم كانوا في حربهم للإسلام كما قال عنهم العليم الخبير : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ حتى مزقوا دولة الخلافة الأخيرة . ثم مضوا في طريقهم ينقضون هذا الدين عروة عروة . وبعد أن أجهزوا على عروة « الحكم » ها هم أولاء يحاولون الإجهاز على عروة « الصلاة » !

ثم ها هم أولاء يعيدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنيين . فيؤيدون الوثنية حيثما وجدت ضد الإسلام . عن طريق المساعدات المباشرة تارة ، وعن طريق المؤسسات الدولية التي يشرفون عليها تارة أخرى ! وليس الصراع بين الهند وباكستان على كشمير وموقف الصليبية منها ببعيد .

وذلك فوق إقامة واحتضان وكفالة الأوضاع التي تتولى سحق حركات الإحياء والبعث الإسلامية في كل مكان على وجه الأرض . وإلباس القائمين بهذه الأوضاع أثواب البطولة الزائفة ودق الطبول من حولهم ، ليستطيعوا الإجهاز على الإسلام ، في زحمة الضجيج العالمي حول الأقزام الذين يلبسون أردية الأبطال !

هذا موجز سريع لما سجله الواقع التاريخي طوال أربعة عشر قرناً ، من مواقف اليهودية والصليبية تجاه الإسلام ، لا فرق بين هذه وتلك ؛ ولا افتراق بين هذا المعسكر

وذاك في الكيد للإسلام ، والحقد عليه ، والحرب الدائبة التي لا تفتر على امتداد الزمن .

وهذا ما ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغداً ، فلا ينساقون وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة ، التي تنظر إلى أوائل النص القرآني ــ دون متابعة لبقيته ، ودون متابعة لسياق السورة كله ، ودون متابعة لتقريرات القرآن عامة ، ودون متابعة للواقع التاريخي الذي يصدق هذا كله ــ ثم تتخذ من ذلك وسيلة لتخدير مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التى تضمر لهم الحقد وتبيت لهم الكيد ؛ الأمر الذي تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها ، وهي بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة .

إن هذه المعسكرات لا تخشى شيئاً أكثر مما تخشى الوعي في قلوب العصبة المؤمنة ــ مهما قل عددها وعدتها ــ فالذين ينيمون هذا الوعي هم أعدى أعداء هذه العقيدة . وقد يكون بعضهم من الفرائس المخدوعة ، ولكن ضررهم لا يقل ــ حينئذ ــ عن ضرر أعدى الأعداء ، بل إنه ليكون أشد أذىً وضرراً .

☆ ☆ ☆

المقطع السابع

يمتد هذا المقطع من الآية (٨٧) إلى نهاية الآية (١٠٨) وهذا هو :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

☆ ☆ ☆

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا

وَءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

☆ ☆ ☆

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

☆ ☆ ☆

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى

ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

☆ ☆ ☆

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ

ٱلْأَثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

محلّ هذا المقطع في السورة :

تتألف سورة المائدة من ثلاثة أقسام وخاتمة وهذا المقطع هو المقطع الثاني من القسم الثالث الذي ابتدىء بقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ فهو استمرار للمقطع السابق ومن ثَمّ فإن له صلة كبيرة في قضية البلاغ ، لقد انصبَّ الكلام في المقطع الأول من القسم الثالث على بلاغ الكافرين ، وانصبَّ الكلام هنا على بلاغ المؤمنين ، ولذلك كان في هذا المقطع تفصيل لكثير مما أُجمل في أوّل سورة المائدة كما سنرى .

كلمة في المقطع :

آخر آية في المقطع ختمت بقوله تعالى : ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ لاحظ صلة ذلك بمحور السورة : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ بدأ المقطع بالنهي عن تحريم الطيبات ، وعن أكل الحلال الطيب لينتقل إلى الأيمان ، إذ جرت العادة أنّ النّاس إذا أرادوا أن يحرِّموا على أنفسهم شيئاً أقسموا ، فذكرت الفقرة الأيْمان المنعقدة وكفارتها ، وارتباط ذلك بمحور السورة واضح ، فهل مما يدخل في نقض العهد ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ هذه الصورة التي ذكرتها الفقرة ؟

أجاب المقطع على ذلك . ومن النهي عن تحريم الطيبات ينتقل السياق إلى فقرة جديدة

تذكر فيها الخبائث ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾ ففي هذه الفقرة تبيان لبعض ما أخذ علينا العهد باجتنابه ، وحكمة ذلك ، وما أبيح لنا بعد ذلك ، ومن الكلام عما أحل لنا وحرم ، وعن أكل الطيبات يأتي الكلام عن الصيد للمُحْرِم ، وعما يجوز له من صيد البحر . وعن حكمة بعض الأمور في الحج . ومن ذلك ينتقل السياق إلى كراهية السؤال عمّا لم يرد فيه تحريم ابتداءً ، ليصل إلى بعض ما حرّم أهل الجاهلية على أنفسهم مما لم ينزل به الله سلطاناً . فالسياق لا زال في قضايا التحريم والتحليل مما له صلة بقضايا الطعام ، وإذ قررت السورة طريق الهداية والضلال ، فإنّ آيةً تأتي لتبيّن أن ضلال الضالّين لا يضرّنا إن كنّا مهتدين . ثم تأتي فقرة أخيرة في المقطع حول الوصيّة في بعض الأحوال والشهادة والأيْمان . والملاحظ أن الفقرة الأولى في هذا المقطع ذكرت فيها الأيْمان ، وأن الفقرة الأخيرة ذكرت فيها الأيْمان ﴿ **ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تردّ أيْمان بعد أيمانهم** ﴾ فكأن المقطع كله في قضايا ينبغي أن تُراعىٰ ، مما هو نوع نقض لميثاق مع الله ، أو هو شرح لبعض الحالات التي يتمّ فيها توثيق أمام الله ، ومَاهي المخارج في ذلك إن المقطع يحدّثنا عن أمور لو فعلها الإنسان يفسق عن أمر الله - عزّ وجل - وعن أمور هي من نوع نقض الميثاق ، أو من قطع ما أمر الله به أن يوصل .

إنّ ابتداء المقطع بذكر الأيْمان ، وانتهائه بذكر الأيْمان ، يدّل على أنّه مقطع واحد ، وانتهاء المقطع بقوله تعالى : ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى في المحور ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ لدليل على أنّ المقطع يفصّل في المحور .

رأينا فيما مرّ قضيتين : صلة آيات المقطع ببعضها ، وصلة المقطع بمحور السورة من البقرة . ولنلاحظ الآن ما يلي : لم يبقَ معنا بعد هذا المقطع إلا خاتمة السورة فكأنّ هذا المقطع هو المقطع الأخير . فلنلاحظ صلة هذا المقطع بأول مقطع في سورة المائدة . بدأت سورة المائدة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود** ﴾ وفي هذا المقطع ترى حكم الأيْمان المنعقدة ، وفي المقطع الأول في الآية الأولى منه جاء قوله تعالى : ﴿ **غير مُحِلّي الصيد وأنتم حرم** ﴾ وههنا يأتي تفصيل لموضوع صيد المحْرِم . وفي المقطع الأول تأتي الآية الثانية منه وفيها : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد** ﴾ ويأتي في هذا المقطع قوله تعالى : ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد** ﴾ وفي المقطع

الأول يذكر الله - عز وجل - ما حرم علينا : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ..** ﴾ ويأتي في هذا المقطع ذكر ما حرّمه الناس ولم يحرمه الله . ﴿ **ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام** ﴾ . وفي المقطع الأول يأتي قوله تعالى : ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون** ﴾ ويأتي في هذا المقطع قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضلّ إذا اهتديتم** ﴾ . وفي المقطع الأول يأتي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنَّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا** ﴾ . ويختم هذا المقطع بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا شهادة بَينِكُم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ..** ﴾ فههنا فقرة عن إقامة الشهادة في حالة من الحالات .

فما بين المقطع الأول ، والمقطع الأخير صلات واضحة ، وما بين المقاطع التي ذكرت في الوسط ، والمقطع الأول والأخير صلات واضحة كذلك ، فالسورة لها سياقها الخاص ، ومع ذلك فإنها تفصِّل في محورها من سورة البقرة لتأخذ محلها في بناء صرح المعاني القرآنية على تسلسل معيّن ، ونسق معيّن .

ولعل في الكلمة الأخيرة عن السورة ما يزيد هذا الأمر بياناً ، فلنبدأ عرض معاني المقطع :

المعنى العام للمقطع :

يبدأ هذا المقطع بالنهي عن تحريم ما أحل الله بالسير في غير سنة المسلمين في أمر النّساء ، أو الطعام ، أو الشّراب ، أو اللباس ، أو العادات ، أو غير ذلك . وكما نهى عن تحريم الحلال ، فقد نهى عن الاعتداء ، لأن الله لا يحب أهله . والاعتداء في هذا المقام يحتمل التضييق على الأنفس بتحريم المباحات ، أو تعذيب الجسد . ويحتمل الإسراف في تناول الحلال ، فيكون طلباً بالأخذ من الحلال بقدر الكفاية والحاجة ، إذ دين الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه ، لا إفراط ولا تفريط . ثم أمر الله - عز وجل - بالأكل من الحلال الطيّب ، كما أمر بالتقوى في جميع الأمور باتّباع طاعته ورضوانه ، وترك مخالفته وعصيانه . إذ مقتضى الإيمان بالله أن يُتَّقى . رأينا أنّ سورة المائدة امتداد لسورة النساء ، وهي من هذه الحيثيّة تكمِّل بناء التقوى ، وتدلُّ على طريقها ، وهي في الوقت نفسه تحرير للإنسان من كل الصفَات التي يضل بسببها أصحابها ، فهي تخلية وتحلية .

ولذلك فإننا نجد في هذا المقطع عملية البناء وإزالة الأنقاض تتعاضدان ، وعملية التحلية بالتقوى والتخلية عن الفسوق تتكاتفان ، ومن ثمّ نجد في هذا المقطع النهي عن تحريم ما أحل الله ، وذكر بعض ما حرّم أبداً ، وذكر بعض ما حرّم في بعض الأحوال ، والنهي عن السؤال ومؤاخذة من يحرّم ما أحل الله ، كفعل الجاهليين في بعض الشؤون . وبيان لحكم الله في جانب من موضوع الوصايا ، وكل ذلك ينتظمه المحور الذي تدور حوله سورة المائدة فلنرجع إلى المعنى العام في المقطع .

إنه قد يرافق تحريم الحلال - أو معنى من معاني الاعتداء يمين ، ومن ثمّ فقد بيّن الله - عز وجل - حكم الأيْمان المنعقدة في هذا المقام بعد أن بين حكم يمين اللغو في سورة البقرة ، فبيّن هنا أنّ الله يؤاخذ باليمين التي يرافقها تصميم وقصد ، وأن مثل هذه اليمين كفارتها لمن يجب عليه أن يحنث فيها ، أو يجوز - إذا أراد الحنث - واحد من ثلاثة ، إما إطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، أو عتق رقبة ، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفّر بصيام ثلاثة أيام ، ثم بيّن الله - عز وجل - أن هذه هي كفّارة اليمين الشرعية ، وأمر بحفظ الأيْمان ، إما بالبر بها ، أو بالتكفير عنها ، وأنّ هذا البيان لأحكامه يقتضي منّا شكراً .

وبعد أن بيّن الله - عزوجل - لنا عدم جواز تحريم ما أحلّ ، طالبنا بالالتزام بما حرّم ، وبيّن لنا أنّ تعاطي الخمر والقمار مما حرّم ، وأنّ مما حرّم الأنصاب : وهي الحجارة التي كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، وأنّ مما حرم الأزلام : وهي قداح أي : أقلام كانوا يستقسمون بها ، ويستفتحون بها ، ويلتزمون بتوجيهها الأعمى . ثمّ بيّن الله - عز وجل - أن هذه الأشياء كلها شر وسخط من فعل الشيطان وعمله ودعوته ووسوسته ، آمراً إيانا بتركها لنكون من حزب الله ، ومن عباده المفلحين . ثم بيّن تعالى ما هو مراد الشيطان من دعوته لنا إلى الخمر والميسر ؟ ألا وهو إيقاع العداوة والبغضاء بيننا بذلك ، وتحصيل الغفلة عن الله . فحيثما وُجد الخمر كان العداء والشر ، وحيثما وجد القمار - جداً أو هزلاً - وجدت الشحناء . وإنّما يريد الله لحزبه أن يكونوا متحابّين ، ومن ثمّ حرّمهما عليهم ، وحيثما وجدت الخمرة والقمار كانت الغفلة عن الله ، والله يريد منا أن نكون ذاكرين ، ولذلك حرم علينا الخمرة والقمار ، وحضّنا على الانتهاء عنهما بعد أن أظهر لنا الحِكمة في التحريم ، ثم بيّن الله - عزوجل - أنّ من آمن ، وعمل صالحاً ، واتّقى وأحسن فليس عليه جناح فيما طعم من أنواع المباحات وما أكثرها ، وأنه تعالى يحب المحسنين .

في بداية المقطع بيّن أنه لا يحب المعتدين ، وههنا بيّن أنه يحب المحسنين ، وهذا يؤكد فهمنا أنّ المقطع فيه تحرير وبناء ، وتخلية وتحلية ، وكذلك السورة كلها .

ثمّ بين الله ـــ عز وجل ـــ هنا ـــ بعد أن بيّن في أوّل السورة حرمة الصيد على المحرِم أنّ الله ـــ عز وجل ـــ قد يبتلينا في حالة إحرامنا بضعيف الصيد وصغيره حتى لو شئنا أن نناله بأيدينا لنِلْناه ، وقد يبتلينا بالكبار منه حتى لو شئنا أن نناله بأسلحتنا لنِلْناه ، وذلك كله اختبار لنا لتظهر طاعة من يطيع منّا في سرّه وجهره فيما نهانا عنه وحرّمه علينا . إنّه قد يختبرنا بالصّيد يغشانا في رحالنا نتمكن من أخذه بالأيدي والسّلاح في حالة إحرامنا ، ليظهر من يخاف الله بالغيب مِمّن لا يخافه ، ثمّ بين تعالى أنّ من يعتدي بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدّم فإنّ له عذاباً أليماً لمخالفته أمر الله وشرعه ، ثمّ نهى الله ـــ عز وجل ـــ عن قتل الصيد في حال الإحرام ، وهذا تحريم منه تعالى للصيد في تلك الحالة ونهي عن تعاطيه ، وما يدخل في هذا وما يستثنى منه سنراه ، ثمّ بيّن تعالى أنّ من أصاب صيداً عمداً أو خطأً فعليه الجزاء ، مع ملاحظة أنّ المتعمّد مأثوم ، والمخطىء غير ملوم . وأن هذا الجزاء ينبغي أن يكون من مثل ما قتله المحْرِم إذا كان له مِثل من الحيوان الإنسي ، وهل تصح القيمة أولا تصح ؟ قولان للفقهاء ، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة كما رواه البيهقي . وتفصيل هذا سنراه . هذا الجزء يجب أن يكون الحكم فيه في المثلي ، أو بالقيمة في غير المثلي ، لرجلين عدلين من المسلمين ، واختلف العلماء في القاتل هل يجوز أن يكون أحد الحكَمَيْن أولا ؟ على قولين سنراهما ، هذا الجزاء يجب أن يصل إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ، ويوزّع لحمه على مساكين الحرم ، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة ، وإذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعَم ، أو لم يكن الصيد من ذوات الأمثال فإنه يقوّم مثله من النعم لو كان موجوداً ، ثم يُشترى به طعام فيتصدق به لكل مسكين مُدّ على رأي ، ومُدّان على رأي آخر ، فإن لم يجد صام عن إطعام كل مسكين يوماً ، وبعضهم قال : هو في الأصل مُخيّر بين الجزاء والإطعام ، فإن لم يجد فالصيام . واختلفوا هل لا يجوز الإطعام إلا في الحرم على قولين ، وتفصيل ذلك كله سيأتي ، وإنما فرض الله الجزاء والكفّارة تأديباً ، ثمّ بين الله ـــ عز وجل ـــ أنّ هذا الحكم لا يُطالَب به أحدٌ قبل نزوله ، فإنّ ما كان من قبل ذلك فهو عفو ، ثمّ هدّد الله من يجترىء على الصيد وهو مُحرِم بحيث يتكرر منه الاجتراء بالانتقام منه ، فالله ـــ عز وجل ـــ عزيز منتقم بمعنى : أنّه منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ، ولا يمنعه من الانتقام

أحد ممّن يريد أن ينتقم منه ، ولا يمنعه من عقوبة من أراد عقوبته مانع ؛ لأنّ الخلق خلقه ، والأمر أمره ، له العزّة والمنعة ، وهو ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه ، ثمّ بيّن تعالى أنّ الصيد المحرّم على المحرِم هو صيد البَر ، وأمّا صيد البحر وطعامه مما اصطدناه وما لَفَظَهُ فهو مباح لنا في كل حال ، منفعة لنا وقوتاً ، ثمّ أمرنا بتقواه ، كيف لا وإليه سنحشر ونحاسب . ثمّ بيّن الله ــ عز وجل ــ في هذا المقام ماهيّة الحِكمة من جعله الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد من شعائره ، فبيّن أنّ الحكمة في ذلك شيئان . الأوّل : انتعاش الناس في أمر دينهم ونهوضهم إلى أغراضهم في معاشهم . والثاني : هو أن نزداد علماً بالله ، علماً بمالكيته لما في السمٰوات والأرض من خلال ممارسة شعائر الحج ، وعلماً بأنه بكل شيء عليم من خلال ذلك كذلك .

ثمّ أمرنا الله ــ عزّ وجل ــ في هذا السياق أن نعلم أنّه شديد العقاب ، كما أنه غفور رحيم حتى لا تنسينا رؤية الجلال عن مشاهدة الجمال ، ولا تُجرِّئَنا رؤية الرحمة على المعصية ، كما لا تُقنطنا رؤية العقوبة من الرحمة . ثمّ بيّن أنّ على الرسول ﷺ البلاغ والله هو الذي يعلم كل شيء فيحاسب ، وفي هذا المقام ــ مقام البيان أن على الرسول البلاغ فقط ــ يأمر الله رسوله أن يبيّن أنّ القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار ، ثمّ نادى أصحاب العقول الصحيحة المستقيمة أن يتقوه باجتناب الحرام وتركه ، والقناعة بالحلال والاكتفاء به للوصول إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ثمّ أدّب الله ــ عز وجل ــ عباده فنهاهم عن السؤال عن أشياء لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ، لأنّها إن أظهرت لهم تلك الأمور رُبّما ساءتهم ، وشقّ عليهم سماعها ، مبيّنا لهم أنّهم إن سألوا عن هذه الأشياء التي نهوا عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تُبيّن لهم ، وعندئذ يكون سؤالهم من أجل فهم الوحي ، وأما قبل ذلك فيكون من باب التكلّف ، ثمّ طمأنهم الله تعالى عن عفوه عما كان منهم قبل ذلك ؛ إذ أنّه الغفور الحليم الذي لايعاقب قبل البيان . ثمّ بيّن تعالى الحكمة في النهي عن الأسئلة وماذاك إلا لعلمه تعالى بالطبيعة البشرية ، فلقد سأل المسائل قوم من قبلنا فأجيبوا عنها ، ثمّ لم يؤمنوا بها ، فأصبحوا كافرين أي بسببها . أي : فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد ، بل على وجه الاستهزاء والعناد ، يفهم من ذلك أن طاقة البشر في موضوع الإيمان محدودة والله ــ عز وجل ــ إنّما ينزِّل على عباده بما يتناسب وهذه الطاقة ، وعندما يسأل الناس قد لا يوفقون في سؤالهم ، فإذا ما أجيبوا ترتب على ذلك حرج ومشقّة ، فنهوا أن يبتدئوا سؤالاً ، وسمح لهم أن يستفهموا . وأن يتفقّهوا . ثمّ بيّن

الله ــ عز وجل ــ حكمه في قضية من قضايا الجاهليين ، فقد كان الجاهليون يتركون بعض الأنعام لا يجيزون حلبها لأحد من الناس ، وهذه هي البحيرة ، ويتركون بعض الأنعام يسيّبونها لآلهتهم فلا يحملون عليها شيئاً ، وهذه هي السائبة . وكانت الناقة البكر إذا بكّرت في أول نتاجٍ بأنثى ثم ثنّت بأنثى يسيّبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذَكر ، وهذه هي الوصيلة ، وسنرى تفسيرا آخر للوصيلة ، وكان الفحل من الإبل إذا لقح عدداً من الإناث دعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء وسمّوه الحامي .

بين الله ــ عز وجل ــ أن هذا كله ليس من دينه ولا شرعه ، وليست هذه الأشياء عنده قربة ، ولكن المشركين افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه ، وليس ذلك بحاصل لهم بل هو وبال عليهم ، وهم في هذا كله كاذبون على الله وجهلة لاعقل لهم إذ يضيّعون المال بلا مقابل ، والجنون في هؤلاء أنّهم إذا دُعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه ، وإلى ترك ما حرّمه مما فيه مصلحتهم في دنياهم وأخراهم قالوا : يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد ، من الطرائق والمسالك مع ما عليه الآباء من الجهل والضلال ، فلا علم ولا هداية ، ولا فهم ولا معرفة ، فكيف يتّبعونهم والحالة هذه ، ألا إنه لا يتّبعهم في هذه الحالة إلا من هو منهم وأضلّ سبيلاً . ثمّ أمر الله ــ عز وجل ــ عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ، ويفعلوا الخير بجدهم وطاقتهم ، مخبراً لهم أنّه من أصلح أمره لا يضرّه فساد من فسد من النّاس ، سواء كان قريباً منه أو بعيداً . وأن لله المرجع ، وهو الذي سيحاسب ويجزي كلّاً بعمله ، ثم بيّن الله ــ عز وجل ــ أنه في حالة كون الواحد منا مسافراً وأدركته الوفاة فإنّ عليه في هذه الحالة أن يوصي ، وأن يشهد على وصيته اثنين من عدول المسلمين ، فإذا لم يتوافر له ذلك فليشهد اثنين من غير المسلمين ، وإنّما جاز استشهاد غير المسلمين في هذه الحالة للضرورة عند فقد المسلمين . قال شريح : لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلّا في سفر ، ولاتجوز في سفر إلا في الوصيّة . فإذا شكّ ورثة الميّت بأنّهما خانا أو غلّا أو غير ذلك ، حبسا بعد صلاة يجتمع فيها الناس ، فيحلفان بالله أنّهما لا يشتريان بأيْمانهما أي : لا يعتاضان بها عوضاً من الدنيا الفانية الزائلة ، ولو كان المشهود عليهم قريباً فإنّهما لا يحابيان ، وأنّهما لا يكتمان الشهادة ، وأنّهما إن فعلا ذلك من تحريف الشهادة ، أو تبديلها ، أو تغييرها ، أو كتمانها بالكلية ، يكونان من الآثمين ، فإن اشتهر وظهر وتحقّق من الشاهدين الوصيّيْن أنهما خانا أو غلّا شيئاً من المال الموصى به إليهما ، وظهر عليهما بذلك ، وتحقق ذلك

بالخبر الصحيح على خيانتهما ، فليقم اثنان من الورثة المستحقّين للتركة ــ وليكونا من أول من يرث ذلك المال ــ فيقسمان بالله : إن قولنا : إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ، وما اعتدينا فيما قلنا فيهما من الخيانة ، وإن كنا قد كذبنا عليهما فإنّا إذاً لمن الظالمين . ثمّ بيّن الله ــ عز وجل ــ حكمة هذا الحكم الأخير وهي أنّ ذلك أقرب أن يقيم الشاهدان الأصليّان الشهادة على الوجه الأصلي ؛ فيحملهما على الإتيان بها على وجهها تعظيم الحلف بالله ، ومراعاة جانبه ، وإجلاله ، والخوف من الفضيحة بين الناس ، إن ردّت اليمين على الورثة فيحلفون ويستحقون ما يدّعون ، ثمّ ختم الله هذا بالأمر بتقواه ، والأمر بالسمع والطاعة له ، مبيّناً أنه لا يهدي القوم الفاسقين أي : الخارجين عن طاعته والمتابعة لشريعته . وخَتْمُ هذا المقطع كله بقوله تعالى ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ يذكّر بقوله تعالى : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ من آيتي سورة البقرة اللتين قلنا عنهما : إنهما محور سورة المائدة ضمن السّياق القرآني العام ، ولا شك أن هذا المقطع قد بين جوانب من الفساد في الأرض ، كتحريم الحلال ، والاعتداء ، وكالخمر ، والميسر ، والأنصاب ، والأزلام ، والصيد حالة الإحرام ، والسؤال في غير محله ، وتحريف الشهادة ، كما بيّن جوانب من الفسوق عن أمره لا يهدى معها أصحابها .

ملاحظات حول السياق :

رأينا أن هذا المقطع ابتدأ بالكلام عن الأيمان ، وانتهى بكلام عن نوع من الأيْمان وهذا يشير إلى وحدة المقطع ، وقد رأينا في هذا المقطع قوله تعالى : ﴿ **ما على الرّسول إلا البلاغ** ﴾ وكنّا رأينا من قبل أن المقطع السابق على هذا المقطع قد ابتدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ فذكر البلاغ في هذا المقطع يشير إلى أن هذا المقطع استمرار للمقطع السابق ،وهذايؤ كدما قلناه من قبل إن القسم الثالث من سورة المائدة يتألف من مقطعين ، وأن القسم الثالث كله هو في أمور تدخل في باب البلاغ ، ومن هنا ندرك سرّ تعرّض السورة في أوائلها لبعض المعاني مجملة ، ثمّ تفصيلها في قسمها الأخير ، هناك جاءت في سياق ، وههنا تأتي في سياق ، هناك تأتي في سياق الأمر بالوفاء بالعقود ، وههنا تأتي في سياق الأمر بالبلاغ ، ونكرّر هنا ما قلناه من قبل من أنّ على الدّعاة إلى الله أن يلاحظوا إذن أهمية التركيز على تبليغ معاني القسم الثالث في مقطعيه ، مع ملاحظة أن المقطع الأوّل في جملته تركيز على معان يتوجّه فيها الخطاب لغير

المؤمنين ، وأن المقطع الثاني هو في جملته تركيز على معان يتوجه فيها الخطاب للمؤمنين ، نقول هذا كله بين يدي المعنى الحرفي للمقطع الثاني من القسم الثالث والذي هو المقطع السابع .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم** ﴾ الطيبات : ما طاب ولذّ من الحلال ، ومعنى لا تحرّموا أي : لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم ، أو لا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً منكم وتقشفا ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ . أي : ولا تجاوزوا الحدّ الذي حدّ لكم في تحريم أو تحليل ، أو لا تتعدّوا حدود ما أُحل لكم إلى ما حرِّم عليكم ، أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات ﴿ **إنّ الله لا يحب المعتدين** ﴾ . أي : المتجاوزين حدوده ﴿ **وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً** ﴾ نهى عن تحريم الطيبات ثمّ أمر بالأكل منها ﴿ **واتقوا الله** ﴾ في الوقوف عندما أحلّ وحرّم ﴿ **الذي أنتم به مؤمنون** ﴾ دلّ هذا على أن الإيمان بالله يوجب تقواه فيما أمر به ونهى عنه ، وإذ يقترن تحريم الطيبات باليمين عادة ، كان مناسباً هنا أن يذكر حكم الأيمان . ولذلك قال : ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم** ﴾ مرّ معنا في سورة البقرة موضوع اليمين اللغو ، والخلاف فيه فلغو اليمين : هو الساقط الذي لا يتعلق فيه حكم ، وتعريفه عند الحنفية : أن يحلف على شيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن . وعند الشافعي رحمه الله : هو ما يجري على اللسان بغير قصد ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان** ﴾ تعقيد الأيمان توثيقها ، والمعنى : ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم ، أو ولكن يؤاخذكم بنكث ما عقدتم ﴿ **فكفّارته** ﴾ . أي :فكفّارة نكثه ، أو فكفّارة معقود الأيمان ما سيأتي ، والكفّارة هي التي من شأنها أن تكفّر الخطيئة أي تسترها ﴿ **إطعام عشرة مساكين** ﴾ هو أن يغذيهم ويعشيهم ، ويجوز أن يعطيهم بطريق التمليك لكل واحد نصف صاع من بُرّ ، أو صاع من شعير ، أو صاع من تمر ، وعند الشافعي رحمه الله مدُّ لكل مسكين والمدُّ ربع صاع ﴿ **من أوسط ما تطعمون أهليكم** ﴾ قال الحنفية أي : غداءً وعشاءً من بُرٍّ إذ الأوسع ثلاث مرات مع الإدام ، والأدنى مرّة من تمر أو شعير والأوسط غداء وعشاء ﴿ **أو كسوتهم** ﴾ قال الحنفية : وأدنى الكسوة ثوب يغطي العورة ، والعورة عندهم من السُرّة إلى ما تحت الركبة ﴿ **أو تحرير رقبة** ﴾ . أي : عتقها واشترط الشافعي أن تكون مؤمنة ، ولم يشترط الحنفية ذلك ؛ لإطلاق النص فيجوز عندهم

أن تكون كافرة أو مؤمنة ، والحانث مخيّر بين واحدة من هذه الثلاث المذكورات . قال ابن كثير : فهذه خصال ثلاث في كفّارة اليمين أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع ، وقد بدأ بالأسهل . فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة ، كما أن الكسوة أيسر من العتق فترقّى فيها من الأدنى إلى الأعلى ، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصوم ثلاثة أيام : ﴿ **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام** ﴾ وعدم الوجود في اختيار ابن جرير هو أن لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفّارة اليمين ، واختلف العلماء هل يجب في صيام الثلاثة أيام التتابع ، أو يستحب ولا يجب ويجزىء التفريق ؟ قولان للعلماء ، أوجب الحنفية والحنابلة وهو قول للشافعي التتابع ، ولم يوجب ذلك مالك ﴿ **ذلك كفّارة أيمانكم إذا حلفتم** ﴾ . أي : وحنثتم فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأنّ الكفّارة لا تجب بنفس الحلف . قال الحنفية : ولذا لم يجز التكفير قبل الحنث ﴿ **واحفظوا أيمانكم** ﴾ بأن لا تحلفوا أصلاً ، أو بالبرّ بها إن لم يكن الحنث خيراً ، أو بالتكفير عنها إن كان في الحنث خير ﴿ **كذلك يبيّن الله لكم آياته** ﴾ . أي : بمثل هذا البيان يوضّح الله لكم أعلام شريعته وأحكامه وذلك من تمام نعمته أن يكون البيان واضحاً ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ . أي : من أجل أن تتحققوا بمقام الشكر على نعمته فيما يعلّمكم ، ويسهّل عليكم المخرج من كل ما يمكن أن يكون فيه حرج .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ **لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ يقول صاحب الظلال : « ما أحله الله فهو الطيب ، وما حرمه فهو الخبيث . وأن ليس للإنسان أن يختار لنفسه غير ما اختاره الله له . من وجهين : الوجه الأول أن التحريم والتحليل من خصائص الله الرازق بما يجري فيه التحليل والتحريم من الرزق ، وإلا فهو الاعتداء الذي لا يحبه الله ، ولا يستقيم معه إيمان .. والوجه الثاني أن الله يحل الطيبات ، فلا يحرم أحد على نفسه تلك الطيبات التي بها صلاحه وصلاح الحياة ، فإن بصره بنفسه وبالحياة لن يبلغ علم الحكيم الخبير الذي أحل هذه الطيبات . ولو كان الله يعلم فيها شراً أو أذىً لوقاه عباده . ولو كان يعلم في الحرمان منها خيراً ما جعلها حلالاً .. ولقد جاء هذا الدين ليحقق الخير والصلاح ، والتوازن المطلق ، والتناسق الكامل ، بين طاقات الحياة البشرية جميعاً ، فهو لا يغفل حاجةً من حاجات الفطرة البشرية ؛ ولا يكبت كذلك طاقة بناءة من طاقات الإنسان ، تعمل عملًا سوياً ، ولا تخرج عن الجادة . ومن ثم حارب الرهبانية ، لأنها

كبت للفطرة ، وتعطيل للطاقة وتعويق للطاقة عن إنماء الحياة التي أراد الله لها النماء ، كما نهى عن تحريم الطيبات كلها لأنها من عوامل بناء الحياة ونموها وتجددها . لقد خلق الله هذه الحياة لتنمو وتتجدد ، وترتقي عن طريق النمو والتجدد المحكومين بمنهج الله . والرهبانية وتحريم الطيبات الأخرى تصطدم مع منهج الله للحياة . لأنها تقف بها عند نقطة معيّنة بحجة التسامي والارتفاع . والتسامي والارتفاع داخلان في منهج الله للحياة ، وفق المنهج الميسر المطابق للفطرة كما يعلمها الله .

فوائد :

١ ــ الصاع في زمن رسول الله ﷺ على رأي فقهاء الحنفية وآخرين يعدل حوالي أربعة كيلو غرامات في عصرنا إلا قليلاً ، والمد ربع صاع فهو يعدل أقل من كيلو غرام من الأوزان العالمية المتعارف عليها في عصرنا . والصاع والمدّ على النصف من ذلك على رأي الشافعية وآخرين .

٢ ــ استدل الحنفية بوجوب التتابع في كفّارة اليمين بقراءة شاذّة هي « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » قال الأعمش : وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً فلا أقل أن يكون خبراً واحداً، أوتفسيراً من الصّحابة وهو في حكم المرفوع .

٣ ــ هناك خلاف كثير بين العلماء حول الكسوة المجزأة في الكفارة وقد رأينا أدنى ما يجوز عند الحنفية ووافقهم على ذلك مالك وأحمد ، وقال الشافعي : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص ، أو سراويل ، أو إزار ، أو عمامة أو مقنعة أجزأه ذلك . واختلف أصحابه في القلنسوة والخف والصحيح عدم الإجزاء .

٤ ــ وفي سبب نزول هذه الآيات نذكر الروايات التالية :

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : « نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ ، قالوا: نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبيَ ﷺ ، فأرسل إليهم ، فذكر لهم ذلك ، فقالوا : نعم ، فقال النبي ﷺ : « لكنيّ أصوم وأفطر ، وأصلي وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني رواه ابن أبي حاتم ، وروى ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس نحو ذلك ــ وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في

السر ، فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبيَ ﷺ فقال : « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، لكني أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء ، وإنّي حرّمت عليّ اللحم ، فنزلت ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ . وكذا رواه الترمذي وقال : حسن غريب . وروى ابن جرير ... عن مجاهد قال : أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يتبتَّلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ **واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون** ﴾ . قال ابن جريج عن عكرمة : أنّ عثمان بن مظعون ، وعلي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، والمقداد بن الأسود ، وسالماً مولى أبي حذيفة في أصحاب تبتّلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرّموا طيّبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل ، وهمّوا بالاختصاء ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ يقول : لا تسيروا بغير سنة المسلمين ، يريد ما حرّموا من النّساء والطعام واللّباس ، وما أجمعوا من قيام الليل وصيام النّهار ، وما همُّوا به من الاختصاء ، فلماّ نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال :

إن لأنفسكم حقاً ، وإن لأعينكم حقاً ، صوموا وأفطروا ، وصلّوا وناموا ، فليس منّا من ترك سنتنا : فقالوا : اللهم سلّمنا واتّبعنا ما أنزلت ، وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة ولها شاهد في الصحيحين من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه كما تقدم . وقال أسباط : عن السدي في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيّبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبُّ المعتدين** ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكَّر النّاس ، ثمّ قام ولم يزدهم على التخويف ، فقال ناس من أصحاب النبي ﷺ كانوا عشرة منهم : على بن أبي طالب ، وعثمان بن مظعون : ما حقنا إن لم نحدث عملاً ، فإنّ النصارى قد حرّموا على أنفسهم فنحن نحرّم ، فحرّم بعضهم أن يأكل اللحم والوَدَك وأن يأكل بنَهار ، وحرّم بعضهم النّوم ، وحرّم بعضهم النّساء ، فكان عثمان بن مظعون ممّن حرم النساء ، وكان لا يدنو من أهله ولا تدنو منه ، فأتت امرأته عائشة رضي الله عنها وكان يقال لها الحولاء ، فقالت لها عائشة ومن

عندها من أزواج النبي ﷺ : ما بالك يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين ؟ فقالت: وكيف أمتشط وأتطيب وما وقع عليَّ زوجي وما رفع عني ثوباً ، منذ كذا وكذا ، قال : فجعلن يضحكن من كلامها . فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن ، فقال : « ما يضحككن ؟ » قالت : يا رسول الله إن الحولاء سألتها عن أمرها فقالت : ما رفع عني زوجي ثوباً منذ كذا وكذا ، فأرسل إليه فدعاه فقال : « مالك يا عثمان ؟ » قال : إني تركته لله لكي أتخلى للعبادة ، وقصّ عليه أمره ، وكان عثمان قد أراد أن يجبَّ نفسه ، فقال رسول الله ﷺ : « أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك » ، فقال : يا رسول الله إني صائم ، فقال : « أفطر » فأفطر وأتى أهله ، فرجعت الحولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت ، فضحكت عائشة وقالت : مالك يا حولاء ؟ فقالت : إنه أتاها أمس ، وقال رسول الله ﷺ : « ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والنّوم ؟ ألا إني أنام وأقوم ، وأفطر وأصوم ، وأنكح النساء ، فمن رغب عني فليس مني » . فنزلت : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا** ﴾ يقول لعثمان : لا تَجُبَّ نفسك فإنّ هذا هو الاعتداء ، وأمرهم أن يكفروا عن أيمانهم فقال : ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان** ﴾ رواه ابن جرير .

٥ — روى الأعمش .. عن عمرو بن شرحبيل قال : جاء معقل بن مُقرِّن إلى عبد الله بن مسعود فقال : إني حرّمت فراشي فتلا هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ الآية . وروى الثوري ... عن مسروق قال : كنّا عند عبد الله بن مسعود فجيء بضرع فتنحّى رجلٍ فقال له عبد الله : أدن ، فقال : إنّي حرمت أن آكله ، فقال عبد الله : أدن فاطعم وكفّر عن يمينك ، وتلا هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ الآية . رواه ابن أبي حاتم .

٦ — روى ابن أبي حاتم أن زيد بن أسلم قال :إن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله ، وهو عند النبي ﷺ ثمّ رجع إلى أهله فوجدهم لم يُطْعموا ضيفهم انتظاراً له ، فقال لامرأته : حبستِ ضيفي من أجلي ، هو عليّ حرام ، فقالت امرأته : هو عليّ حرام .وقال الضيف : هو عليّ حرام ، فلما رأى ذلك وضع يده ، وقال : كلوا باسم الله ، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فذكر الذي كان منهم ، ثمّ أنزل الله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ . وهذا أثر منقطع . وفي البخاري في قصة

الصدّيق مع أضيافه شبيه بهذا ، وفيه ، وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء ـ كالشافعي وغيره ـ إلى أنّ من حرّم مأكلًا أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنّه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضاً ، لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلَّ الله لكم** ﴾ ولأن الذي حرَّم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدّم لم يأمره النبي ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلًا ، أو مشرباً ، أو ملبساً ، أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس ، وكما في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم** ﴾ ثم قال : ﴿ **قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم** ﴾ الآية (التحريم: ١، ٢) . وكذلك ها هنا لما ذكر هذا الحكم عقّبه بالآية المبيّنة لتكفير اليمين ، فدلّ على أنّ هذا مُنزَّل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير ، والله أعلم .

كلمة في السياق :

قلنا إن محور سورة المائدة من سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ ... **وما يضل به إلا الفاسقين ◦ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ . وإنّ الفقرة التي مرّت معنا لها صلة بنقض العهد ، سواء في ذلك ما ورد فيها من تحريم الحلال ، أو الاعتداء ، أو ما كان فيها من كلام عن الأيمان ، وسنرى أن الفقرة الثانية التي ستأتي لها صلة بقطع ما أمر الله به أن يوصل ففيها قوله تعالى : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر** ﴾ وسيذكر في الفقرة الثالثة من المقطع مظهر من مظاهر الإفساد في الأرض في قتل المحرِم الصيد ، وهكذا تتضح معنا شيئاً فشيئاً صلةُ سورة المائدة بمحورها من سورة البقرة .

ولنلاحظ أن أول آية تأتي في الفقرة اللاحقة تعلل للأمر باجتناب الخمر والميسر بالفلاح ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ والفلاح ضد الخسران ولذلك ارتباطه كذلك بمحور السورة .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر** ﴾ . أي : القمار ﴿ **والأنصاب** ﴾ . أي : الأصنام لأنها تنصب فتعبد ﴿ **والأزلام** ﴾ . أي : القداح التي يستقسم بها وقد مرت معنا في أول السورة ﴿ **رجس** ﴾ . أي : نجس أو خبيثة مستقذرة ﴿ **من عمل الشيطان** ﴾ لأنه من

آثار دعوته فكأنه عمله ﴿ **فاجتنبوه** ﴾ أي : الرجس أو عمل الشيطان ، والمعنى واحد ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ . أي : لعلكم تحصّلون صفة الفلاح ، وقد تأكّد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية من وجوه ، حيث صُدِّرت الجملة بإنّما التي تفيد الحصر ، وقرنهما بعبادة الأصنام ، وجعلهما رجساً من عمل الشيطان ، ولا يأتي منه إلا الشر البحت ، وأمر بالاجتناب ، وهو أبلغ في النهي من الترك ، لأن الترك يشعر بإمكانية الأخذ ، والاجتناب فيه معنى النهي عن الاقتراب والملامسة أصلاً ، وجعل الاجتناب من الفلاح ، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خساراً ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقِع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة** ﴾ بعد أن بيّن في الآية السابقة تحريمهما ذكر في هذه الآية حكمة التّحريم ، وهي ما يتولد عن الخمر والميسر من الوبال ، وهو وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقمار ، وما يؤدّيان إليه من الصدّ عن ذكر الله ، وعن مراعاة أوقات الصلاة . وخُصّت الصلاة من بين الذكر لزيادة درجتها كأنه قال : وعن الصلاة خصوصاً ، وإنّما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولاً ، ثمّ أفردهما آخراً ، لأنّ الخطاب للمؤمنين ، وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر ، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر ، وإظهار أن ذلك جميعاً من أعمال أهل الشرك ، فكأنه لا مباينة بين عابد الصّنم وشارب الخمر والمقامر . ثمّ أفردهما بالذكر ليعلم أنّهما المقصودان بالذكر ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ أي فانتهوا . وهذه الصيغة فيها أبلغ أنواع النهْي كأنه قيل : قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والزواجر فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون ؟ أم أنتم على ما كنتم عليه كأنْ لم توعَظوا ولم تزجروا ؟ ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا** ﴾ . أي : وكونوا حذرين مع طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام أي : اجمعوا مع الطاعة الخشية والحذر لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيّئة ، وعمل كل حسنة ﴿ **فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ . أي : فإن أعرضتم عن الطاعة والحذر فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول ، لأنه ما كلّف إلا البلاغ المبين بالآيات ، وإنما أضررتم أنفسكم حين أعرضتم عمّا كُلفتموه ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح** ﴾ . أي : إثم ﴿ **فيما طعموا** ﴾ قبل نزول تحريم الخمر والميسر ﴿ **إذا ما اتقوا** ﴾ الشرك ﴿ **وآمنوا** ﴾ بالله ﴿ **وعملوا الصالحات** ﴾ بعد الإيمان ﴿ **ثم اتقوا وآمنوا** ﴾ بأن تركوا الخمر والميسر بعد التحريم إيماناً واحتساباً ﴿ **ثم اتقوا وأحسنوا** ﴾ بترك المحرمات كلها مع مراقبة الله ، وفعل ما أمر به من خير في حقّ الله والناس ، ويحتمل أن يكون المراد بالأمر الأول في التقوى النّهيُ عن الشّرك ، وفي الأمر الثاني النهي عن المحرمات . وفي الأمر الثالث النهي عن الشبهات

﴿ والله يحب المحسنين ﴾ الذين اجتمع لهم فعل الحسن مع الإخلاص لله ومراقبته :

كلمة في السياق :

١ ــ نلاحظ أنه قد ورد في هذه الفقرة قوله تعالى : ﴿ **فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ وسنرى أنه سيرد في الفقرة الثالثة من هذا المقطع قوله تعالى : ﴿ **ما على الرّسول إلا البلاغ والله يعلم ما تُبدون وما تكتمون** ﴾ وهذا يدلّ على أن هذا المقطع استمرار للمقطع السابق عليه والذي بدايته : ﴿ **يا أيها الرّسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته** ﴾ وهذا يؤكد : أن هذين المقطعين يشكلان قسماً واحداً ، يحدِّد معاني رئيسية في قضية البلاغ لأهل الكفر ولأهل الإيمان .

٢ - يُلاحظ أن الآية الأخيرة في الفقرة التي مرّت معنا ذكرت الإيمان والعمل الصالح ، وذكرت التقوى والإيمان والعمل الصالح ، وذكرت التقوى والإيمان ، وذكرت التقوى والإحسان ، **وهي مجمل المعاني المطلوبة التي ذُكرت في سورة البقرة قبل محور السورة .**

فالإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ... وقبل محور السورة من سورة البقرة ورد الأمر بالعبادة ، وقد ذكر قبل محور السورة مباشرة الإيمان والعمل الصالح ، وقبل الأمر بالعبادة ذكرت صفات المتقين والكافرين ، وههنا ربطت قضية تحريم الخمر والميسر وغير ذلك بذلك كله .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾ قال صاحب الظلال : « إن غيبوبة السكر ــ بأي مسكر ــ تنافي اليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم ليكون موصولًا بالله في كل لحظة ، مراقباً لله في كل خطرة ، ثم ليكون بهذه اليقظة عاملًا إيجابياً في نماء الحياة وتجددها ، وفي صيانتها من الضعف والفساد ، وفي حماية نفسه وماله وعرضه ، وحماية أمن الجماعة المسلمة وشريعتها ونظامها من كل اعتداء . والفرد المسلم ليس متروكاً لذاته وللذاته ؛ فعليه في كل لحظة تكاليف تستوجب اليقظة الدائمة . تكاليف لربه ، وتكاليف لنفسه ، وتكاليف لأهله ، وتكاليف للجماعة المسلمة التي يعيش فيها ،

وتكاليف للإنسانية كلها ليدعوها ويهديها . وهو مطالب باليقظة الدائمة لينهض بهذه التكاليف . وحتى حين يستمتع بالطيبات فإن الإسلام يحتّم عليه أن يكون يقظاً لهذا المتاع ، فلا يصبح عبداً لشهوة أو لذة . وإنما يسيطر دائماً على رغباته فيلبيها تلبية المالك لأمره .. وغيبوبة السكر لا تتفق في شيء مع هذا الاتجاه .

ثم إن هذه الغيبوبة في حقيقتها إن هي إلا هروب من واقع الحياة في فترة من الفترات ؛ وجنوح إلى التصورات التي تثيرها النشوة أو الخمار . والإسلام ينكر على الإنسان هذا الطريق ويريد من الناس أن يروا الحقائق ، وأن يواجهوها ، ويعيشوا فيها ، ويصرفوا حياتهم وفقها ، ولا يقيموا هذه الحياة على تصورات وأوهام .. إن مواجهة الحقائق هي محك العزيمة والإرادة ؛ أما الهروب منها إلى تصورات وأوهام فهو طريق التحلل ، ووهن العزيمة ، وتذاوب الإرادة . والإسلام يجعل في حسابه دائماً تربية الإرادة ، وإطلاقها من قيود العادة القاهرة .. والإدمان .. وهذا الاعتبار كاف وحده من وجهة النظر الإسلامية لتحريم الخمر وسائر المخدرات .. وهي رجس من عمل الشيطان .. مفسد لحياة الإنسان .

وقد اختلف الفقهاء في اعتبار ذات الخمر نجسة كبقية النجاسات الحسيّة ، أو في اعتبار شربها هو المحرم . والأول قول الجمهور . والثاني قول ربيعة بن سعد والمُزَني صاحب الشافعي وبعض المتأخرين من البغداديين ..

فوائد :

١ ــ مرّ معنا في سورتي البقرة والنساء شيء عن موضوع السّير التدريجي في الأمة حتىّ حرِّمت الخمر حرمتها النهائية ، ولذلك فسنكتفي هنا بنقل بعض النصوص :

أ ــ روى الإمام أحمد ... عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في البقرة ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير** ﴾ فدُعي عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في النساء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قال : حي على الصلاة نادى : لا يقربنّ الصلاة سكران . فدعي عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت

الآية التي في المائدة . فدعي عمر فقرئت عليه ، فلمّا بلغ قول الله تعالى : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ . قال عمر : انتهينا ، انتهينا ، وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنّسائي .

ب ــ ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ : « أيها الناس إنّه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : من العنب ، والتمر ، والعسل ، والحنطة ، والشعير ، والخمر : ما خامر العقل » هذا ما كان في زمانهم ، **أما اليوم فالخمرة عشرات الأنواع وتستخرج من عشرات المواد الأولية ، كلها حرام .**

جـ – روى الإمام أحمد .. عن عبد الرحمن بن وَعْلَة قال : سألت ابن عباس عن بيع الخمر ، فقال : كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف أو من دوس فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « يا فلان ، أما علمت أن الله حرّمها ؟ فأقبل الرجل على غلامه فقال : اذهب فبعها ، فقال رسول الله ﷺ : « يا فلان بماذا أمرته ؟ » . فقال : أمرته أن يبيعها قال : « إنّ الذي حرّم شربها حرّم بيعها » فأمر بها فأفرغت في البطحاء .. ورواه مسلم والنسائي .

د ــ روى الإمام أحمد .. عن عبد الرحمن بن غنم : أنّ الدّاري كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر ، فلمّا كان عام حرمت ، جاء براوية فلمّا نظر إليه ضحك فقال : « أشعرت أنهّا قد حرّمت بعدك ؟ » فقال : يا رسول الله ألا أبيعها وأنتفع بثمنها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لعن الله اليهود ، انطلقوا إلى ما حرّم عليهم من شحم البقر والغنم فأذابوه فباعوه إنه مايأكلون ، وإن الخمر حرام وثمنها حرام ، وإن الخمر حرام وثمنها حرام ، وإن الخمر حرام وثمنها حرام » .

هـ ــ وروى الإمام أحمد .. عن نافع بن كيسان أن أباه أخبره : أنّه كان يتّجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق ، يريد بها التجارة ، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني جئتك بشراب طيّب ، فقال رسول الله ﷺ : « يا كيسان إنها قد حرّمت بعدك » ، قال : فأبيعها يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنها حرّمت وحرم ثمنها » فانطلق كيسان إلى الزقاق فأخذ بأرجلها ثم هراقها .

و ــ وروى الإمام أحمد .. عن أنس قال : كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح ، وأُبي

بن كعب ، وسهيل بن بيضاء ، ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة وأنا أسقيهم حتى كاد الشراب يأخذ منهم ، فأتى آتٍ من المسلمين فقال : أما شعرتم أنّ الخمر قد حرِّمت ؟ فما قالوا حتى ننظر ونسأل ، فقالوا : يا أنس اكفِ ما بقي في إنائك ، فوالله ما عادوا فيها وما هي إلا التمر والبسر ، وهي خمرهم يومئذ . وأخرجاه في الصحيحين أيضاً .

ز ــ روى أحمد .. عن قيس بن سعد بن عبادة : أن رسول الله ﷺ قال : « إن ربي تبارك وتعالى حرّم عليّ الخمر والكوبة [1] والقنين[2] ، وإياكم والغبيراء[3] ، فإنها ثلث خمر العالم » .

ح ــ روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله حرّم على أمتي الخمر ، والميسر ، والمزر ، والكوبة ، والقنين ، وزادني صلاة الوتر » . قال يزيد : القنين : البرابط ، تفرد به أحمد .

ط ــ روى الإمام أحمد .. عن عبد الله بن عمرو أنّ رسول الله ﷺ قال : « من قال عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من جهنم » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ الله حرّم الخمر ، والميسر ، والكوبة ، والغبيراء ، وكل مسكر حرام » .

ي ــ روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : خرج رسول الله ﷺ إلى المربد ، فخرجت معه فكنت عن يمينه ، وأقبل أبو بكر فتأخرّت له ، فكان عن يمينه وكنت عن يساره ، ثم أقبل عمر فتنحيت له فكان عن يساره فأتى رسول الله ﷺ المربد فإذا بزقاق على المربد فيها خمر ، قال ابن عمر : فدعاني رسول الله ﷺ بالمدية ، قال ابن عمر : وما عرفت المدية إلا يومئذ ، فأمر بالزقاق فشقت ، ثم قال : « لعنت الخمر ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وآكل ثمنها » .

ك ــ روى الحافظ أبو بكر البيهقي ... عن مصعب بن سعد عن سعد قال : أنزلت في الخمر أربع آيات فذكر الحديث ، قال : وصنع رجل من الأنصار طعاماً ، فدعانا فشربنا الخمر قبل أن تحرّم حتى انتشينا ، فتفاخرنا ، فقالت الأنصار : نحن أفضل وقالت قريش : نحن أفضل ، فأخذ رجل من الأنصار لحي جزور فضرب به أنف سعد ففزره وكان

---

(١) – الكوبة : النرد او الطبل الذي يسمّى الدربكة (٢) – والقنين : نوع من أنواع لعب الروم يتقامرون به وفسّر بالبربط الذي هو عود النغم (٣) – الغُبَيْراء : نوع من أنواع الشراب المسكر يتخذه أهل الحبشة من الذرة .

أنف سعد مفزوراً فنزلت : ﴿ **إنما الخمر والميسر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ أخرجه مسلم . من حديث شعبة

ل ـــ روى الحافظ البيهقي .. عن ابن عباس قال : إنّما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار ، شربوا فلمّا أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلمّا أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته ، فيقول : صنع بي هذا أخي فلان ، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن : والله ، لو كان رؤوفاً رحيماً ما صنع هذا بي ، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ فقال ناس من المتكلفين : هي رجس وهي في بطن فلان ، وقد قتل يوم أحد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا** ﴾ إلى آخر الآية . ورواه النسائي .

م ـــ روى ابن جرير ... عن أبي بريدة عن أبيه قال : بينا نحن قعود على شراب لنا ، ونحن على رملة ، ونحن ثلاثة ـــ أو أربعة ـــ وعندنا باطية لنا ، ونحن نشرب الخمر حِلّا ، إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ فأسلّم عليه ، إذ نزل تحريم الخمر : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام** ﴾ إلى آخر الآيتين ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ ، فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ ، قال : وبعض القوم شَرْبته في يده ، قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ، ثم صبّوا ما في باطيتهم ، فقالوا : انتهينا ربنا » .

س ـــ روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن جابر بن عبد الله قال : كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعها من المسلمين ، فحمل منها بمال ، فقدم بها المدينة ، فلقيه رجل من المسلمين فقال : يا فلان إنّ الخمر قد حرّمت فوضعها حيث انتهى على تل ، وسجّى عليها بأكسية ، ثم أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله بلغني أنّ الخمر قد حرّمت ، قال : « أجل » قال : لي أن أردها على من ابتعتها منه ؟ قال : « لا يصلح ردّها » ، قال : لي أن أهديها إلى من يكافئني منها ؟ قال لا . قال : فإن فيها مالًا ليتامى في حجري ، قال : « إذا أتانا مال البحرين فإننا نعوّض أيتامك من ما لهم » . ثمّ نادى بالمدينة ، فقال رجل : يا رسول الله ، الأوعية ننتفع بها قال : « فحلوا أوكيتها » فانصبت حتى استقرت في بطن الوادي » هذا حديث غريب .

ع ـ روى الإمام أحمد .. عن أنس بن مالك : أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمراً ، فقال : « أهرقها » . قال : « أفلا نجعلها خلاً ؟ قال : « لا » . ورواه مسلم وأبو داود والترمذي .

ف ـ روى أحمد .. عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال : « من ترك الصلاة سكراً مرة واحدة ، فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسُلبها ، ومن ترك الصلاة سكراً أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » . قيل : وما طينة الخبال ؟ قال : « عصارة أهل جهنم » .

ص ـ روى أحمد وأبو داود ... عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « كل مخمّر خمر ، وكلّ مسكر حرام . ومن شرب مسكراً بخست صلاته أربعين صباحاً ، فإن تاب ، تاب الله عليه ـ فإن عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينه الخبال قيل وماطينة الخبال يا رسول الله ؟ قال : صديد أهل النار ، ومن سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » . تفرّد به أبو داود .

ق ـ روى الشافعي رحمه الله .. عن ابن عمر : أنّ رسول الله ﷺ قال : « من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب حُرمها في الآخرة » . أخرجه البخاريُّ ومسلم .

ر ـ روى مسلم ... عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر فمات وهو يُدْمنها لم يتب لم يشربها في الآخرة » .

ش ـ روى أحمد ... عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة منّان ولا عاقّ ولا مُدمن خمر » .

ت ـ روى البيهقي ... عن عثمان بن عفان قال : اجتنبوا الخمر فإنّها أمُّ الخبائث ، إنّه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبّد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة غَويّة ، فأرسلت إليه جاريتها فقالت ندعوك لشهادة ، فدخل معها ، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطيّة خمر ، فقالت . إني والله ما دعوتك لشهادة ، ولكني دعوتك لتقع عَليّ أو تقتل هذا الغلام ، أو تشرب هذا الخمر ، فسقته كأساً فقال : زيدوني ، فلم يرم حتى وقع عليها ، وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر ، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه . وهذا إسناد صحيح .

ث ــ في الصحيحين : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

خ ــ روى الإمام أحمد .. عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت النبي ﷺ يقول : « من شرب الخمر لم يرضَ عنه الله أربعين ليلة ، إن مات ، مات كافراً ، وإن تاب تاب الله عليه ؛ وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قالت ، قلت : يا رسول الله وما طينة الخبال ؟ . قال : « صديد أهل النار » .

٢ ــ الميسر : هو القمار ، ويدخل فيه أصناف كثيرة ، ونوادي القمار في العالم تفنّنت في ابتداع أنواع منه ، كما أنّ كثيراً من المؤسسات تقوم على القمار من اليانصيب ، إلى سباق الخيل . وللأئمة كلام كثير في الميسر وما يدخل فيه ، ومن كلامهم : كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز ، حتى الكعاب ، والجوز ، والبيض التي تلعب بها الصبيان ، ومن كلام الأعرج الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار . وقال القاسم بن محمد : كل ما ألهى عن ذكر الله ، وعن الصلاة فهو من الميسر ، ويدخل في الميسر المحرّم أنواع من اللعب ولو لم تكن على مال ومن ذلك اللعب بالنّرد . ففي صحيح مسلم « قال رسول الله ﷺ : من لعب النّردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه» . وفي موطأ مالك ومسند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لعب بالنّرد فقد عصى الله ورسوله » . وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قوله : « مثل الذي يلعب بالنّرد ثمّ يقوم فيصلي مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثمّ يقوم فيصليّ » . وروى عبد الله عن الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قوله : « إياكم وهاتان الكعبتان الموسومتان (أي فصا النرد) اللتان تزجران زجراً فإنهما ميسر العجم » . وأما الشّطرنج . فقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنّه قال : الشطرنج من الميسر رواه ابن أبي حاتم . وقال عبد الله بن عمر إنه شرّ من النّرد ونصَّ على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد ، وكرهه الشافعي رحمه الله كراهة تنزيهية إذا لم يله عن واجب ولم يكثر حتى يلهي عن ذكر الله ، وإذا كان الهدف منه مران التفكير ، قال الحنفية : وكره تحريماً اللعب بالنرد ــ الطاولة ــ والشطرنج والمنقلة الصينية والدحل والكعب والورق المنقش الذي يسميه العامة (شدّة) ونحو ذلك وإن لم يقامر . وأباح أبو يوسف الشطرنج إذا لم يقامر به ولم يداوم ، ولم يخل

بواجب كتأخير صلاة ، ولم يكثر الحلف عليه .
والحكمة في تحريم الميسر هي ما ذكره الله من كونه يثير البغضاء ، ويصدّ عن ذكر الله ، وهو يحطم الأعصاب ، ويذهب المال ، وينقل الملكية نقلًا غير معقول ، ويقلل الإنتاج العام للأمة .

٣ ـــ في سبب نزول الآية الأخيرة يروي الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما حرّمت الخمر قال ناس : يا رسول الله أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها فأنزل الله ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا** .... ﴾ إلى آخر الآية ، ولمّا حولت القبلة قال ناس يا رسول الله : إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فأنزل الله ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** .... ﴾ وروى الإمام مسلم والترمذي والنسائي عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : لما نزلت ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ فقال النبي ﷺ : « قيل لي أنت منهم » . ومن أحقُّ برسول الله ﷺ أن يكون منهم ؟

٤ ـــ في الفقرة الأولى من هذا المقطع نهينا عن تحريم ما أحل الله ، وعن الاعتداء ، وفي هذه الفقرة نهينا عن الخمر والميسر ، وفي كل نهينا عن نوع من أنواع الفساد في الأرض . وفي الانتهاء موافقة الميثاق الذي أُخذ علينا . وفي مقام الشكر والإحسان ما يرشحنا للاهتداء بهدي الله . وفي الاعتداء ما يرشحنا للضلال . ومن ثم نجد هذا المقطع يعمِّق ما به نستحق الهداية ، ويحرِّرنا مما به نستحق الضلال .

كلمة في السياق

بدأ المقطع بالنهي عن تحريم ما أحل الله لنا من الطيبات ، وثنى في فقرته الثانية بتبيان أنواع من الخبائث ، وتنتهي الفقرة الثانية بآية تبين نفي الجناح عن المؤمنين فيما طعموا ، وذلك مقدمة للكلام عن تحريم أكل صيد البر للمحرِم ، وعن تحليل صيد البحر له ، وذلك مضمون الفقرة الثالثة ، ولأن هناك ناساً تميل طبيعتهم إلى التشدّد والرغبة في الحظر فقد جاءت الفقرة الرابعة في المقطع تقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَلكم تسؤكم** ... ﴾ وهكذا تتعانق المعاني في فقرات المقطع ، وتتكامل ،

آخذة محلها في السياق القريب والسياق العام ...

فصل في محاولة للفهم :

عند قوله تعالى : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثمّ اتقوا وأحسنوا والله يحبُّ المحسنين** ﴾ قال صاحب الظلال :

« ولم أجد في أقوال المفسرين ما تستريح إليه النفس في صياغة العبارة القرآنية على هذا النحو وتكرار التقوى مرة مع الإيمان والعمل الصالح ، ومرة مع الإيمان ، ومرة مع الإحسان .. كذلك لم أجد في تفسيري لهذا التكرار في الطبعة الأولى من هذه الظلال ما تستريح إليه نفسي الآن .. وأحسن ما قرأت ــ وإن كان لا يبلغ من حسي مبلغ الارتياح ــ هو ما قاله ابن جرير الطبرى : « الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل . والاتقاء الثاني الاتقاء بالثبات على التصديق ، والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل » . وكان الذي ذكرته في الطبعة الأولى في هذا الموضع هو : « إنه توكيد عن طريق التفصيل بعد الإجمال فقد أجمل التقوى والإيمان والعمل الصالح في الأولى . ثم جعل التقوى مرة مع الإيمان في الثانية ، ومرة مع الإحسان ــ وهو العمل الصالح ــ في الثالثة .. ذلك التوكيد مقصود هنا للاتكاء على هذا المعنى . ولإبراز ذلك القانون الثابت في تقدير الأعمال بما يصاحبها من شعور باطني . فالتقوى .. تلك الحساسية المرهفة برقابة الله ، والاتصال به في كل لحظة . والإيمان بالله والتصديق بأوامره ونواهيه . والعمل الصالح الذي هو الترجمة الظاهرة للعقيدة المستكنة . والترابط بين العقيدة الباطنة والعمل المعبر عنها .. هذه هي مناط الحكم ، لا الظواهر والأشكال .. وهذه القاعدة تحتاج إلى التوكيد والتكرار والبيان » .

وأنا اللحظة لا أجد في هذا القول ما يريح أيضاً .. ولكنه لم يفتح عليَّ بشيء آخر .. والله المستعان » .

أقول : الذي أفهمه من الآية : أنه لا جناح على من طعم الحلال إذا اجتمع له التقوى ، والإيمان ، والعمل الصالح ، وأداه ذلك إلى الارتقاء إلى حقيقة التقوى والإيمان ، ثم أداه ذلك إلى الارتقاء إلى مقام التقوى والإحسان ، مما يشير إلى أن التحقق بالتقوى والإحسان هو أرقى المقامات ، يليه التحقق بالتقوى والإيمان ، يليه الحد الأدنى

من التقوى والإيمان والعمل الصالح ، فإذا كان الإنسان تقياً مؤمناً عاملاً وأكل حلالاً حتى ارتقى إلى حقيقة الإيمان والتقوى ثم إلى حقيقة التقوى والإحسان ، فهذا لا جناح عليه فيما طعم حالاً أو مآلاً ، أما إذا كان أكل الحلال لا يرافقه ارتقاء بل يرافقه انحدار فذلك الذي تحذّر منه الآية ، فأكل الحلال يحتاج إلى شكر ، وشكره الارتقاء إلى المقامات العالية من التقوى والإيمان ، ثم إلى التقوى والإحسان ، وعلى هذا الفهم فإن الآية تحضّ المؤمنين العاملين أن يؤدوا شكر الإطعام المباح بالارتقاء إلى المقامات العليا وتحذّر من النزول .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليبلونّكم الله** ﴾ معنى يبلو : يختبر وهو من الله لإظهار ما علم من العبد على ما علم ، لا لعلم ما لم يعلم ﴿ **بشيء من الصيد** ﴾ أفاد التعبير : التقليل ليفيد أنه ليس من الفتن العظام ﴿ **تناله أيديكم ورماحكم** ﴾ . أي : تنالونه أخذاً بأيديكم يعني : صغار الصيد ، وفراخه ، وضعافه ، وطعناً برماحكم وذلك كبار الصيد ﴿ **ليعلم الله من يخافه بالغيب** ﴾ . أي : ليعلم الله خوف الخائف منه بالامتناع عن الاصطياد موجوداً ، كما كان يعلم قبل وجوده أنه يوجد ، ليثيبه على عمله لا على علمه فيه ﴿ **فمن اعتدى بعد ذلك** ﴾ . أي : فمن صاد بعد هذا الإعلام والإنذار ﴿ **فله عذاب أليم** ﴾ . أي : لمخالفته أمر الله وشرعه ، وقد ظهر الابتلاء هذا على أشُده يوم الحديبية قال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون والابتلاء مستمر إلى يوم القيامة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد** ﴾ . أي : المصيد ﴿ **وأنتم حرم** ﴾ . أي : في حال إحرامكم أي وأنتم محرمون للحج أو للعمرة أو لهما معاً ﴿ **ومن قتله منكم متعمداً** ﴾ . أي : ذاكراً لإحرامه ، أو عالماً أن ما يقتله مما يحرم قتله عليه . قال النسفي : فإن قتله ناسياً لإحرامه ، أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فهو مخطىء ، وإنما شرط التعمد في الآية مع أن محظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ ، لأن مورد الآية فيمن تعمّد ... ولأن الأصل فعل المتعمّد ، والخطأ ملحق به للتغليظ . ﴿ **فجزاءٌ مثل ما قتل من النّعَم** ﴾ . أي : فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد . قال النسفي : وهو قيمة الصيد يقوّم حيث صيد ، فإن بلغت قيمته ثمن هدي خُيّر بين أن يهدي من النّعم ما قيمته قيمة الصيد ، وبين أن يشتري بقيمته طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره ، وإن شاء صام عن طعام كلّ مسكين يوماً . وعند محمد والشافعي : مثله : نظيره من النّعم ، فإن لم يوجد له نظير من

النعم فكما مرّ ﴿ **يحكم به** ﴾ . أي : بمثل ما قتل ﴿ **ذوا عدل منكم** ﴾ . أي : حكمان عادلان من المسلمين ﴿ **هدياً بالغ الكعبة** ﴾ معنى بلوغه الكعبة أن يذبح بالحرم إن كان هدياً من النّعم ، وأما في حالة القيمة فعند الشافعي كذلك أنّ التصدّق ينبغي أن يكون في الحرم ، وعند الحنفية فحيث شاء الإنسان ﴿ **أو كفارةٌ طعام مساكين** ﴾ التقدير فجزاء ، أو كفارة من طعام مساكين ﴿ **أو عدل ذلك صياماً** ﴾ العَدل ما عادل الشيء من غير جنسه ، كالصوم والإطعام ، والإشارة في ذلك إلى الطعام ، يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً . ومذهب الحنفية قائم على التخيير بين الهدي والإطعام والصيام ، والخيار في ذلك إلى القاتل عند أبي حنيفة وأبي يوسف . وعند محمد رحمه الله إلى الحكمين ﴿ **ليذوق وبال أمره** ﴾ . أي : فعليه الجزاء بأن يكفّر أو يصوم ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام ، والوبال المكروه ، والضّرر الذي ينال في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه ﴿ **عفا الله عما سلف** ﴾ . أي : عمّا كان منكم من الصيد قبل التحريم ﴿ **ومن عاد فينتقم الله منه** ﴾ . أي : ومن عاد إلى قتل الصيد بعد التحريم ، أو في ذلك الإحرام فإنّ الله هو ينتقم منه ﴿ **والله عزيز** ﴾ يلزم من شاء ما شاء ﴿ **ذو انتقام** ﴾ ممن جاوز حدود الإسلام ﴿ **أحل لكم صيدُ البحر** ﴾ . أي : كل مصيدات البحر ، أي كل دوابه ، والحنفية لا يحلون للأكل من دواب البحر إلا السمك كبيراً أو صغيراً . ومع ذلك فقد أحلوا للمحرم صيد البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل ﴿ **وطعامه** ﴾ قال النسفي : وما يطعم من صيده والمعنى أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر ، وأحل لكم أكل المأكولات منه وهو السمك هذا مذهب الحنفية وأما غيرهم فقد فسر الآية بأن صيده ما أخذ منه حياً . وطعامه : ما لفظه ميتاً ﴿ **متاعاً لكم وللسيارة** ﴾ . أي : منفعة لكم وقوتاً أيها المخاطبون ولكل مسافر ، أو أحل لكم تمتيعاً لمقيمكم يأكله طرياً ولمسافركم يتزوده قديداً ﴿ **وحرم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً** ﴾ . أي : ما دمتم محرمين ، وصيد البر أي ما صيد فيه : وهو ما يفرخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات كالبط فإنه بري لأنه يتولد في البر ، والبحر له مرعى كما للناس متجر ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أن تصطادوا في الحرم أو في الإحرام ﴿ **الذي إليه تحشرون** ﴾ . أي : تبعثون فيجزيكم على أعمالكم ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس** ﴾ . أي : صيرّ أو خلق الله الكعبة والبيت الحرام انتعاشاً للناس في أمر دينهم ، ونهوضاً إلى أغراضهم في معاشهم ومعادهم ، لما يتمُّ من أمر حجهم وعمرتهم وأنواع منافعهم ، فاقتضى ذلك أحكاماً خاصة من أمثال ما مر ، وكذلك ﴿ **والشهر الحرام** ﴾ . أي :

الشهر الذي يؤدى فيه الحج ، وهو ذو الحجة لأنه مختص من بين الأشهر بإقامة موسم الحج ، فاقتضى ذلك اختصاصه بأحكام خاصة منفعةً ومصلحة للناس ، ويحتمل أن يكون المراد بالشهر الحرام جنس الأشهر الحرم فيكون المراد رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ﴿ **والهدي** ﴾ . أي : ما يُهدى إلى مكة ﴿ **والقلائد** ﴾ وهي البُدْن التي تقلّد كرمز على أنها هدي إلى الحرم ، وخصّت بالذكر وهي من الهدي لأنّ الثواب فيها أكثر وبهاء الحج معها أظهر ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى جعل الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قياماً للناس وما خصت به لذلك من أحكام ﴿ **لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأنّ الله بكل شيء عليم** ﴾ . أي : لتعلموا أن الله يعلم مصالح ما في السموات وما في الأرض ويملك كل ما فيهما ، فيحكم ويشرع ويأمر ويحظر بعلم وحكمة ، وكيف لا وهو بكل شيء عليم ﴿ **اعلموا أنّ الله شديد العقاب** ﴾ . أي : لمن استخفّ بأحكامه ، ولمن استخف بالحرم والإحرام ﴿ **وأنّ الله غفور رحيم** ﴾ ومن مغفرته ورحمته أن يغفر آثام من عظّم المشاعر الحرام ﴿ **ما على الرسول إلا البلاغ** ﴾ هذا تشديد في إيجاب القيام بما أمر به ، وأنّ الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ ، وقامت عليكم الحجة ، ولزمتكم الطاعة ، فلا عذر لكم في التفريط ﴿ **والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ﴾ فلا يخفى عليه نفاقكم أو وفاقكم ﴿ **قل لا يستوي الخبيث والطيب** ﴾ لمّا أخبر أنه يعلم ما يبدون وما يكتمون ذكر أنه لا يستوي عنده خبيثهم وطيبهم ، بل يميّز بينهما فيعاقب الخبيث أي الكافر ، ويثيب الطّيب أي المسلم ، ولا يستوي عنده الحلال والحرام ، ولا صالح العمل وطالحه ، ولا جيّد النّاس ورديئهم ﴿**ولو أعجبك كثرة الخبيث**﴾ سواء كان رجالاً أو مالاً أو أعمالاً ﴿ **فاتقوا الله يا أولي الألباب** ﴾ بإيثار الطيّب وإن قلّ ، على الخبيث وإن كثر ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ دلّ هذا على أن الفلاح مقرون بإيثار ما يحبه الله .

ملاحظات حول السياق :

١ ــ بدأت سورة المائدة بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود أُحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلىٰ عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم مايرْيد ٥ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد** ﴾ .

وقد جاءت الفقرة الأولى من هذا المقطع تنهى عن تحريم ما أحل الله ، وجاءت الفقرة

الثانية مبينة بعض ما حرّم الله ، وجاءت الفقرة الثالثة في النهي عن الصيد للمحرم ، وستأتي الفقرة الرابعة وفيها تبيان ضلال أهل الجاهلية في تحريمهم بعض بهيمة الأنعام . وهكذا نجد أن المقطع تتسلسل معانيه ، وأنها مرتبطة بالمقطع الأول من السورة مما يشعر بوحدة السورة ، وارتباط أوائلها بأواخرها ، فضلًا عن الصّلات المتعدّدة بين كل جزء في السورة وما قبله وما بعده .

٢ ــ لاحظنا أن التعليل للنهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام كان ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ ونلاحظ أنّ الفقرة التي نهت عن قتل الصيد للمحرم تنتهي بقوله تعالى ﴿ **فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون** ﴾ فالآيات تدلنا على طريق الفلاح الذي هو ضدُّ الخسران فمن خالف خسر ، وارتباط ذلك بمحور السورة بقوله تعالى ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ لا يخفى .

٣ ــ إن صيد المحرِم ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر ، واتخاذ الأنصاب والأزلام ، وتحريم ما أحل الله ، له صلة بنقض العهد ، ولبعضه صلة بقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ولبعضه صلة بالإفساد في الأرض ، وكل ذلك لا يخفى على المتأمل .

نقول :

عند قوله تعالى ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد** ﴾ قال صاحب الظلال :

« لقد جعل الله هذه المحرمات تشمل الإنسان والطير والحيوان والحشرات بالأمن في البيت الحرام . وفي فترة الإحرام بالنسبة للمحرِم حتى وهو لم يبلغ الحرم . كما جعل الأشهر الحرم الأربعة التي لا يجوز فيها القتل ولا القتال وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثم رجب .. أقول : لقد نسخ تحريم القتل والقتال فجاز في شريعتنا القتل والقتال العادلان في الأشهر الحرم وقد ألقى الله في قلوب العرب ــ حتى في جاهليتهم ــ حرمة هذه الأشهر . فكانوا لا يُروِّعون فيها نفساً ، ولا يطلبون فيها دما ، ولا يتوقعون فيها ثأراً ، حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه ، فكانت مجالا آمناً للسياحة والضرب في الأرض وابتغاء الرزق .. جعلها الله كذلك لأنه أراد للكعبة ــ بيت الله الحرام ــ أن تكون مثابة أمن وسلام . تقيم الناس وتقيهم الخوف والفزع . كذلك جعل الأشهر الحرم لتكون منطقة أمن في الزمان كالكعبة منطقة أمن في المكان .

ثم مد رواق الأمن خارج منطقة الزمان والمكان ، فجعله حقاً للهدي ــ وهو النعم ــ الذي يطلق ليبلغ الكعبة في الحج والعمرة ، فلا يمسه أحد في الطريق بسوء . كما جعله لما يقلّد من الهدي معلناً احتماءه بالبيت العتيق .

« وبعد فإنها ليست منطقة الأمان في الزمان والمكان وحدهما . وليس رواق الأمن الذي يشمل الحيوان والإنسان وحدهما .. وإنما هي كذلك منطقة الأمان في الضمير البشري .. ذلك المصطرع المترامي الأطراف في أغوار النفس البشرية .. هذا المصطرع الذي يثور ويغور فيطغى بشواظه وبدخانه على المكان والزمان ، وعلى الإنسان والحيوان ! .. إنها منطقة السلام والسماحة في ذلك المصطرع ، حتى ليتحرج المحرم أن يمدّ يده إلى الطير والحيوان .. وهما ــ في غير هذه المنطقة ــ حل للإنسان . ولكنهما هنا في المثابة الآمنة في الفترة الآمنة في النفس الآمنة .. إنها منطقة المران والتدريب للنفس البشرية لتصفو وترِقَ وترف فتتصل بالملأ الأعلى ، وتتهيأ للتعامل مع الملأ الأعلى .

ألا ما أحوج البشرية المفزعة الوجلة ، المتطاحنة المتصارعة .. إلى منطقة المران التي جعلها الله للناس في هذا الدين ، وبينها للناس في هذا القرآن » .

ولقد بيّن ــ جل جلاله ــ الحكمة في جعله الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قياماً للناس بأنها ﴿ **ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم** ﴾ وفي هذا المقام يقول صاحب الظلال :

« تعقيب عجيب في هذا الموضع ، ولكنه مفهوم أن الله يشرع هذه الشريعة ، ويقيم هذه المثابة ، ليعلم الناس أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وأن الله بكل شيء عليم .. ليعلموا أنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكنونات نفوسهم ، وهتاف أرواحهم . أنه يقرر شرائعه لتلبية الطبائع والحاجات ، والاستجابة للأشواق والمكنونات ، فإذا أحست قلوب الناس رحمة الله في شريعته ، وتذوّقت جمال هذا التطابق بينها وبين فطرتهم العميقة علموا أن الله يعلم ما في السماوات والأرض وأن الله بكل شيء عليم » .

فوائد

١ ــ فيما يحرم صيده وقتله على المحرم خلاف بين العلماء ، فالشافعي يرى أنّ المحرّم هو المأكول ، وما تولّد منه دون غيره ، ويجوز عنده للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه

ولا فرق بين صغاره وكباره ، فالعلّة الجامعة كونها لا تؤكل . والجمهور على حرمة صيد ما يؤكل وما لا يؤكل ولا يستثني من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال : « خمس فواسق يقتلن في الحلّ والحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور » . وقال مالك عن نافع عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « خمس من الدوابّ ليس على المحرم في قتلهن جُناح : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور » . ورواه أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله ، قال أيوب : قلت لنافع : فالحية ؟ قال : الحية لا شك فيها ، ولا يختلف في قتلها ، ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور الذئب ، والسبع ، والنّمر ، والفهد ؛ لأنها أشدُّ ضرراً منه . وقالوا : فإن قتل المحرم ما عداهن فداه كالضبع والثعلب والوبر (هرّ البرّ) ونحو ذلك . قال مالك : وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها ، وصغار الملحق بها من السباع العوادي . وقال أبو حنيفة : يقتل المحرم الكلب العقور والذئب لأنه كلب برّي ، فإن قتل غيرهما فداه ، إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه ، وهذا قول الأوزاعي ، والحسن بن صالح : وقال زفر بن الهذيل : يفدي ما سوى ذلك ، وإن صال عليه ، وقال بعض الناس : المراد بالغراب ها هنا : الأبقع وهو الذي في بطنه وظهره بياض دون الأدرع وهو الأسود ، والأعصم وهو الأبيض ، لما رواه النسائي ... عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « خمس يقتلهن المحرم : الحية ، والفأرة ، والحدأة ، والغراب الأبقع ، والكلب العقور » . والجمهور على أن المراد به أعمّ من ذلك لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه ، وقال مالك رحمه الله : لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه . وقال مجاهد بن جبر وطائفة : لا يقتله بل يرميه ، ويروى مثله عن علي . وقد روى هُشيم ـــ .. عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ أنه سئل عما يقتل المحرم ، فقال : « الحية ، والعقرب ، والفويسقة ، ويرمي الغراب ولا يقتله ، والكلب العقور ، والحدأة ، والسبع العادي » . ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

وعندما تكون المسألة فيها أخذ ورد بين الأئمة فينبغي أن يلاحظ الإنسان ألا يقرب ما أجمعوا عليه ، ثم يحتاط لدينه بمطالبته نفسه بالعزيمة ، ويعذر الناس إذا أخذوا بالرّخصة أي : بالقول الأخفّ من أقوال الأئمة .

٢ ــ الجمهور على أن العامد والنّاسي سواء في وجوب الجزاء على من صاد وهو محرم . وقال الزهري : دل الكتاب على العامد ، وجرت السنّة على النّاسي ، ومعنى هذا أنّ القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمّد وعلى تأثيمه بقوله : ﴿ **ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه** ﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ ، وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء على الخطأ ، كما دلّ الكتاب عليه في العمد . وأيضاً فإنّ قتل الصيد إتلاف ، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان ، لكن المتعمّد مأثوم ، والمخطىء غير ملوم : وكثيراً ما يكون الفارق بين الخطأ والعمد لا من حيث الجزاء الدنيوي بل في الإثم والعقوبة الأخرويين .

٣ ــ حكم الصحابة في النّعامة ببدنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز . ومن قصصهم في هذا الباب ما يلي : أخرج ابن أبي حاتم .. عن ميمون بن مهران : أنّ أعرابياً أتى أبا بكر فقال : قتلت صيداً وأنا محرم ، فما ترى عليّ من الجزاء ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبيّ بن كعب وهو جالس عنده : ما ترى فيما قال ؟ فقال الأعرابي : أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك . فإذا أنت تسأل غيرك ؟ فقال أبو بكر : وما تنكر ؟ يقول الله تعالى : ﴿ **فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم** ﴾ فشاورت صاحبي ، حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به . وهذا إسناد جيّد لكنه منقطع . أفترى أنّ الصدّيق قد بيّن له الحكم برفق وتؤدة لمّا رآه أعرابياً جاهلاً ، وإنما دواء الجهل التعليم ، فأمّا إذا كان المعترض منسوباً إلى العلم فقد روى ابن جرير ... عن قبيصة بن جابر قال : خرجنا حجاجاً فكنّا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا فتماشى نتحدث ، قال : فبينما نحن ذات غداة إذ سنح (مرّ من اليمين إلى اليسار وعكسه : برح) لناظبي أو برح فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ حشاه ، فركب ودعه ميتاً ، قال : فعظمنا عليه ، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقصّ عليه القصّة فقال : وإذا إلى جنبه رجل كأنّ وجهه قلب فضة ــ يعني عبد الرحمن بن عوف فالتفت عمر إلى صاحبه فكلّمه ، قال : ثم أقبل على الرجل فقال : أعمداً قتلته أم خطأ ؟ فقال الرجل : لقد تعمدت رميه ، وما أردت قتله ، فقال عمر : ما أراك إلا شركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها واستبق إهابها ، قال : فقمنا من عنده ، فقلت لصاحبي : أيها الرجل عظّم شعائر الله ، فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه ، اعمد إلى ناقتك فانحرها فلعل ذلك يعني أن يجزىء عنك . قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة ﴿ **يحكم به ذوا عدل منكم** ﴾ فبلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدّرّة ، قال : فعلا صاحبي

ضرباً بالدرة ، وجعل يقول أقتلت في الحرم وسفّهت الحكم ؟ قال : ثم أقبل عَليّ فقلت : يا أمير المؤمنين لا أحل لك اليوم شيئاً يحرم عليك مني ، فقال : يا قبيصة بن جابر إني أراك شابّ السن ، فسيح الصدر ، بيّن اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء ، فيفسد الخلق السيء الأخلاق الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب . وروى ابن جرير ... عن ابن جرير البجلي قال : أصبت ظبياً وأنا محرم ، فذكرت ذلك لعمر ، فقال : ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك ، فأتيت عبد الرحمن وسعداً ، فحكما عليّ بتيس أعفر . وروى ابن جرير أيضاً : أن أربد (وهو ابن عبد الله البجلي) أوطأ ظبياً فقتله وهو محرم . فأتى عمر ليحكم عليه ، فقال له عمر : احكم معي ، فحكما فيه جَدْياً قد جمع الماء والشجر (أي : رعى الماء والشجر) ثم قال عمر ﴿ **يحكم به ذوا عدل** ﴾ .

٤ ــ لو أن الصحابة حكموا في صيد ما بمقابل ، كما رأينا في حكمهم في مقابل بقرة الوحش ببقرة . هل يكتفى فيه بحكمهم ، أو يحتاج القاتل إلى تحكيم مستأنف ؟ قال الشافعي وأحمد : يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة ، وجعلاه شرعاً مقرّراً لا يعدل عنه ، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين ، وقال مالك وأبو حنيفة : بل يجب الحكم في كل فرد فرد ، سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا ، لقوله تعالى : ﴿ **يحكم به ذوا عدل منكم** ﴾ ونحن لا نرغب أن نرجّح لمعرفتنا بقصورنا ، ولكنّا هنا نلفت النظر إلى أنّ اشتراط التحكيم المستأنف فيه مصلحة متجدّدة ، فمثلاً قيمة النعامة قديماً غير قيمتها حديثاً .

٥ ــ في قوله تعالى : ﴿ **فجزاء مثل ما قتل من النعم ... أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً** ﴾ جعل مالك ، وأبو حنيفة ، وأبو يوسف ، ومحمد بن الحسن ، والشافعي في أحد قوليه ، وأحمد في المشهور عنه أن « أو » هنا للتخيير ، فالقاتل مخيّر بين هذا ، أو هذا ، ومن الفقهاء من ذهب إلى أنّها للترتيب ، فلا تصح القيمة ، أو الصيام إلا في حالة كون المصيد غير مثلي ، أو في حالة عدم الوجود والقدرة ، والأمر فيه سعة ، والمهم أن نعرف أن ذبح الهدي محله في الحرم لمن اختاره جزاءً ، وما سواه فيه خلاف .

٦ ــ روى ابن جرير أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال : « إنّ البحر قد قذف حيتاناً كثيرة ميتة أفنأكلها ؟ فقال : لا تأكلوها . فلمّا رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة فأتى هذه الآية ﴿ **وطعامه متاعاً لكم وللسيارة** ﴾ فقال

اذهب فقل له فليأكله ، فإنه طعامه » . وقد استدلّ الجمهور على حلّ ميتة البحر بآية المائدة هذه ، وبما رواه الإمام مالك بن أنس ، عن جابر بن عبد الله قال : بعث رسول الله ﷺ بعثاً ، قِبَل الساحل ، فأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، وهم ثلاثمائة وأنا فيهم ، قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش فجُمِع ذلك كله ، فكان مِزْوَدَيْ تمر ، قال : فكان يُقوِّتُنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني ، فلم يكن يُصيبنا إلا تمرة تمرة ، فقلت : فما تغني تمرة ؟ فقال : فقد وجدنا فقدها حين فنيت ، قال : ثم انتهينا إلى البحر ، فإذا حوت مثل الظَّرب فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة ، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ، ثم أمر براحلة فرحلت ، ومرت تحتهما فلم تصبهما . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين . وفي صحيح مسلم من رواية أبي الزبير عن جابر : فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم ، فأتيناه فإذا بدابّة يقال لها العنبر ، قال : قال أبو عبيدة : ميتة ، ثم قال : لا . نحن رسل رسول الله ﷺ ، وفي سبيل الله وقد اضطررتم فكلوا ، قال : فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمنّا ، لقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن ، ويقتطع منه القدْر كالثور ، أو : كقدر الثور ، قال : ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا ، فأقعدهم في وقب عينيه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها ، وتزودنا من لحمه وشائق ، فلمّا قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له ، فقال : « هو رزق أخرجه الله لكم ، هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ » قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله . وفي بعض روايات مسلم : أنهم كانوا مع النّبي ﷺ حين وجدوا هذه السمكة ، فقال بعضهم : هي واقعة أخرى ، وقال بعضهم : بل هي قضية واحدة . ولكن كانوا أولًا مع النّبي ﷺ ثمّ بعثهم سريّة مع أبي عبيدة فوجدوا هذه في سريّتهم تلك مع أبي عبيدة ، والله أعلم .

وروى مالك عن أبي هريرة قال : سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله ﷺ هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » . وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأهل السنن الأربعة ، وصححه البخاري ، والترمذي ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، وغيرهم . وقد رُوي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه ، والأدلة في أكل ميتة البحر واضحة كالشمس . ولاشك أن ما أنتن من الميتة إذا ترتب على أكله ضرر قطعي لا يجوز إلا في حالة الضرورة ، وأما موضوع ما يجوز أكله

من حيوان البحر وما لا يجوز . فقد رأينا أن الخلاف قائم بين من لا يُجيز إلا أكل السمك وما أشبهه ، ومن يُجيز أكل كل دابة في البحر والأمر فيه سعة .

٧ ــ إذا صاد المحرم صيداً متعمداً أو مخطئاً حرم عليه أكله لأنه في حقه كالميتة . وهل هو في حق غيره من المحلين والمحرمين كذلك ؟ قال مالك والشافعي في أحد قوليه ذلك ، وقال آخرون بإباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون ، فإن أكل الصائدُ المحرِم الصيدَ أو شيئاً منه هل يلزمه جزاء ثان ؟ قولان للعلماء ، وقال أبو حنيفة : عليه قيمة ما أكل ، وأما إذا صاد حلال (غير محرم) صيداً فهل يجوز للمحرم أكله ؟ ذهب ذاهبون إلى إباحة ذلك مطلقاً منهم عمر بن الخطاب ، والزبير ، وسعيد بن جبير ، والكوفيون ، وذهب ذاهبون إلى كراهته ، منهم علي ، وابن عمر ، وفصل مالك ، والشافعي ، وأحمد ، بين ما إذا كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد أو لا ، فإن قصده لا يحلّ له ، وإلا حلّ له ، واستدلوا لمذهبهم بحديث الصعب بن جثامة : أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً ، وهو بالأبواء أو بودّان ، فردّه عليه ، فلما رأى ما في وجهه قال : « إنّا لم نردّه عليك إلا أنّا حُرُم » . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، وله ألفاظ كثيرة ، قالوا : فوجهه أنّ النبي ﷺ ظنّ أن هذا إنما صاده من أجله ، فردّه لذلك ، فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنّه يجوز له الأكل منه ، ويشهد لذلك حديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش وكان حلالاً لم يحرم ، وكان أصحابه محرمين ، فتوقفوا في أكله ، ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال : « هل كان منكم أحد أشار إليها أو أعان في قتلها ؟ » . قالوا : لا قال : « فكلوا » . وأكل منها رسول الله ﷺ ؛ وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة . وروى الإمام أحمد ... عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « صيد البر لكم حلال » قال سعيد ــ وأنتم حرم ــ ما لم تصيدوه أو يصد لكم » . وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي . ورواه الشافعي رضي الله عنه عن جابر ثم قال : وهذا أحسن حديث روي في هذا الباب وأقيس . وروى مالك رضي الله عنه .. عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : رأيت عثمان بن عفان بالعَرْج ، وهو محرم في يوم صائف ، قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان ، ثم أتي بلحم صيد ، فقال لأصحابه : كلوا ، فقالوا : أوَلا تأكل أنت ؟ فقال إني لست كهيئتكم ، وإنما صِيدَ من أجلي . وبهذه المناسبة نحبُّ أن نذكّر أنّ فترة الحج فترة مران على السلام الحق ، ويمارس المحرم هذا السلام مع الأحياء كلها ، ولكنه يقتل الفواسق حتى في حالة إحرامه كرمز

على أنَّه في صراع مع الشر لا يهدأ ، وفي الحكم الذي ذكرناه ، نلاحظ أن المسلم لا يتناقض مع نفسه ، فهو لا يقتل ما حرّم عليه ثمّ يأكله ، فيبني حلاً على حرمة .

٨ ـــ جاء في الحديث : « ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى » وروى البغوي في معجمه أنّ ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا ، فقال النبي ﷺ : قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » . نذكر هذا بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾ .

٩ ـــ رأينا أنّ سورة المائدة امتداد لسورة النساء من حيث كونها طريقاً وتعميقاً لقضية التقوى ، ولقد ختمت هذه الفقرة بقوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون** ﴾ فلا فلاح إلا بتقوى ، ولا تقوى إلا باتباع كتاب الله في كل حال .

كلمة في السياق :

بعد أن بيّن الله ـــ عز وجل ـــ أنه لا يصح لنا أن نحرّم طيبات ما أحل لنا ، وبيّن لنا بعض الخبائث التي حرّمت علينا ، وبعد أن ذكر أن صيد البر حال الإحرام لا يجوز ـــ وهي حالة مستثناة من الحل العام ـــ ينهانا في الفقرة اللاحقة أن نسأل ؛ رغبة في التحريم ، ويبين لنا أن ما حرّمه أهل الجاهلية على أنفسهم ، من عند أنفسهم ليس حراماً ، بل إن ما حرّموه على أنفسهم من عند أنفسهم دليل على ضحالة العلم والعقل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ، إن تُبْدَ لكم تسؤكم** ﴾ . أي : تغمُّكم وتشق عليكم ، إذ تؤمرون بتحمّلها فتعرّضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها ، وفي هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء ممّا لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ؛ لأنها إن أُظهرت لهم تلك الأمور ربّما ساءتهم ، وشقّ عليهم سماعها ﴿ **وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّل القرآن تُبدَ لكم** ﴾ يحتمل معنيين . الأول : وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي ـــ وهو ما دام الرسول ﷺ بين أظهركم ـــ تبد لكم تلك التكاليف التي تسوؤكم ، ويترتب على ذلك تفريط . والمعنى الثاني : أي : وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها حين يُنَزَّل الوحي على رسول الله ﷺ تُبيّن لكم ، وعلى هذا يكون المعنى : إن السؤال لتفهم الوحي جائز ، وأما السؤال ابتداءً فقد يترتب عليه ضرر عام ، وهذا لا يجوز ﴿ **عفا الله عنها** ﴾ . عفا الله عما سلف من

مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها ﴿ **والله غفور حليم** ﴾ ومن حلمه أنه لا يعاقبكم إلا بعد الإنذار ﴿ **قد سألها** ﴾ . أي : سأل مثل هذه المسائل ﴿ **قوم من قبلكم** ﴾ من الأمم السابقة ﴿ **ثم أصبحوا بها** ﴾ . أي : بسببها ﴿ **كافرين** ﴾ كما حدث لبني إسرائيل ، وعرف ذلك منهم ﴿ **ما جعل الله** ﴾ . أي : ما شرع ذلك ، ولا أمر به ، ثم بين هذا الذي لم يشرعه ولم يأمر به ﴿ **من بحيرة** ﴾ البحيرة : الناقة إذا نتجت خمسة أبطن ، آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها ، وامتنعوا من ركوبها ، وذبحها ، ولا تطرد عن ماء ، ولا مرعى ﴿ **ولا سائبة** ﴾ هي الناقة يسيبونها لآلهتهم ، ويعاملونها كالبحيرة في عدم الانتفاع بها ، كان الرجل منهم يقول : إذا قدمت من سفري ، أو برأت من مرضي فناقتي سائبة ﴿ **ولا وصيلة** ﴾ هي الشاة إذا ولدت سبعة أبطن ، فإن كان السابع ذكراً أكله الرجال ، وإن كان أنثى أرسلت في الغنم ، وكذا إن كان ذكراً وأنثى ، وقالوا وصلت أخاها ، فالوصيلة بمعنى الواصلة ﴿ **ولا حام** ﴾ وهو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن ، قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ، ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى ﴿ **ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب** ﴾ بتحريمهم ما حرّموا ونسبتهم هذا التحريم إليه ﴿ **وأكثرهم لا يعقلون** ﴾ فأفعالهم وتصوراتهم لا عقل فيها ولا فهم ، ومن جهلهم وعدم عقلهم فإنهم كما قال الله بعد ذلك ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول** ﴾ . أي : هلموا إلى حكم الله ورسوله بأن هذه الأشياء غير محرمة أو إلى حكم الله مطلقاً ﴿ **قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ . أي : كافينا ذلك ﴿ **أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ . أي : الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدي ، وإنما يعرف اهتداؤه بالحجّة . وآباء هؤلاء لا علم ، ولا هداية ، فكيف يكفيهم ما عليه آباؤهم وهم كذلك .

والسياق العام لهذه الفقرة على الشكل التالي :

نهاهم عن السؤال ابتداء ، وسمح لهم بالسؤال لاستجلاء الوحي ، ثمّ علّل سبب منع السؤال ، ثم ابتدأ تبيان حكمه في موضوع تحريم الانتفاع في أنواع من الحيوان ، ثم بيّن جهالة الجاهليين في رفضهم الاحتكام إلى الله ورسوله ، واتباعهم آباءهم في القضايا غير المعقولة المعنى ، والتي تدلّل على الجهل والضلال ، كهذه القضية المذكورة في وسط الفقرة ، وقد دلّت الآية على أن غير شرع الله لا يقوم على عقل ، ولا علم ، ولا هداية .

نقل وتعليق :

عند قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَلكم تسؤكم** ﴾

يقول صاحب الظلال : «إن المعرفة الغيبية في الإسلام إنما تطلب لمواجهة حاجة واقعة وفي حدود هذه الحاجة الواقعة .. فالغيب وما وراءه تصان الطاقة البشرية أن تنفق في استجلائه واستكناهه ، لأن معرفته لا تواجه حاجة واقعية في حياة البشرية . وحسب القلب البشري أن يؤمن بهذا الغيب كما وصفه العليم به . فأما حين يتجاوز الإيمان به إلى البحث عن كنهه فإنه لا يصل إلى شيء أبداً ، لأنه ليس مزوداً بالمقدرة على استكناهه إلا في الحدود التي كشف الله عنها .. فهو جهد ضائع . فوق أنه ضرب في التيه بلا دليل ، يؤدي إلى الضلال البعيد . وأما الأحكام الشرعية فتطلب ويسأل عنها عند وقوع الأقضية التي تتطلب هذه الأحكام .. وهذا هو منهج الإسلام ..

ففي طوال العهد المكي لم يتنزَّل حكم شرعي تنفيذي ـــ وإن تنزلت الأوامر والنواهي عن أشياء وأعمال ـــ ولكن الأحكام التنفيذية كالحدود والتعازير والكفارات لم تتنزل إلا بعد قيام الدولة المسلمة التي تتولى تنفيذ هذه الأحكام .

ووعى الصدر الأول هذا المنهج واتجاهه ، فلم يكونوا يفتون في مسألة إلا إذا كانت قد وقعت بالفعل ، وفي حدود القضية المعروضة دون تفصيص للنصوص ، ليكون للسؤال والفتوى جديّتهما وتمشيهما كذلك مع ذلك المنهج التربوي الرباني :

كان عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ يلعن من سأل عما لم يكن .. ذكره الدارمي في مسنده .. وذكر عن الزهري قال : بلغنا أن زيد بن ثابت الأنصاري كان يقول إذا سئل عن الأمر : أكان هذا ؟ فإن قالوا : نعم قد كان ، حدث فيه بالذي يعلم . وإن قالوا : لم يكن ، قال : فذروه حتى يكون . وأسند عن عمار بن ياسر ـــ وقد سئل عن مسألة ـــ فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا . قال : دعونا حتى يكون فإذا كان تجشمناها لكم . وقال الدارمي : حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ، قال : حدثنا ابن فضيل عن عطاء ، عن ابن عباس ، قال : ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ، كلهن في القرآن ، منهنّ ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام** ﴾ .. ﴿ **ويسألونك عن المحيض** ﴾ .. وشبهه .. ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم . وقال مالك : أدركت هذا البلد (يعني المدينة) وما عندهم علم غير الكتاب والسُنة . فإذا نزلت نازلة ، جمع الأمير مَن حضر من العلماء فما اتفقوا عليه أنفذه . وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله !

وقال القرطبي في سياق تفسيره للآية : روى مسلم عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات، ومنعاً وهات . وكره لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .. قال كثير من العلماء : المراد بقوله : « وكثرة السؤال » : التكثير من السؤال في المسائل الفقهية تنطُّعاً ، وتكلُّفاً فيما لم ينزل ، والأغلوطات ، وتشقيق المولدات . وقد كان السلف يكرهون ذلك ويرونه من التكلف . ويقولون : إذا نزلت النازلة وفّق المسؤول لها ..

إنه منهج واقعي جاد . يواجه وقائع الحياة بالأحكام ، المشتقة لها من أصول شريعة الله ، مواجهة عملية واقعية .. مواجهة تقدر المشكلة بحجمها وشكلها وظروفها كاملة وملابساتها ، ثم تقضي فيها بالحكم الذي يقابلها ويغطيها ويشملها وينطبق عليها انطباقاً كاملًا دقيقاً .. فأما الاستفتاء عن مسائل لم تقع ، فهو استفتاء عن فرض غير محدد . ومادام غير واقع فإن تحديده غير مستطاع . والفتوى عليه حينئذ لا تطابقه لأنه فرض غير محدد . والسؤال والجواب عندئذ يحملان معنى الاستهتار بجدية الشريعة ؛ كما يحملان مخالفة للمنهج الإسلامي القويم . ومثله الاستفتاء عن أحكام شريعة الله في أرض لا تقام فيها شريعة الله لغير التفقه ، والفتوى على هذا الأساس لغير مريد العمل ! ! إن شريعة الله لا تستفتى إلا ليطبق حكمها وينفذ .. فإذا كان المستفتي والمفتي كلاهما يعلمان أنهما في أرض لا تقيم شريعة ، ولا تعترف بسلطان الله في الأرض وفي نظام المجتمع وفي حياة الناس .. أي : لا تعترف بألوهية الله في هذه الأرض ولا تخضع لحكمه ولا تدين لسلطانه .. فما استفتاء المستفتي ؟ وما فتوى المفتي ؟ إنهما — كليهما — يرخصان شريعة الله ، ويستهتران بها ، شاعرين أو غير شاعرين سواء ! ومثله تلك الدراسات النظرية المجردة لفقه الفروع وأحكامه في الجوانب غير المطبقة .. إنها دراسة للتلهية ! لمجرد الإيهام بأن لهذا الفقه مكاناً في هذه الأرض التي تدرسه في معاهدها ولا تطبقه في محاكمها ! وهو إيهام يبوء بالإثم من يشارك فيه ، ليخدّر مشاعر الناس بهذا الإيهام ! إن هذا الدين جد . وقد جاء ليحكم الحياة . جاء ليعبِّد الناس لله وحده ، وينزع من المغتصبين لسلطان الله هذا السلطان فيرد الأمر كله إلى شريعة الله لا إلى شرع أحد سواه .. وجاءت هذه الشريعة لتحكم الحياة كلها ، ولتواجه بأحكام الله حاجات الحياة الواقعية وقضاياها ، ولتدلي بحكم الله في الواقعة حين تقع بقدر حجمها وشكلها وملابساتها . ولم يجيء هذا الدين ليكون مجرد شارة أو شعار . ولا لتكون شريعته

موضوع دراسة نظرية لا علاقة لها بواقع الحياة . ولا لتعيش مع الفروض التي لم تقع ، وتضع لهذه الفروض الطائرة أحكاماً فقهية في الهواء ! .

هذا هو جدّ الإسلام . وهذا هو منهج الإسلام . فمن شاء من « علماء » هذا الدين أن يتبع منهجه بهذا الجد فليطلب تحكيم شريعة الله في واقع الحياة . أو على الأقل فليسكت عن الفتوى والقذف بالأحكام في الهواء ! .

تعليق :

أن تحاول الحركة الإسلامية تصوّر الفرعيّات التي يمكن أن تواجهها بعد خمسين عاماً ثمّ تكرّس جهودها كلها من أجل ذلك فذلك استنفاد للطاقات في غير محلّها ، وأن تشتغل الحركة الإسلامية أو المفتونَ بعمليّات التبرير للجاهلية والجاهليين فذلك عبث وهجوم على دين الله ، ولكن أن يوجد المفتي القادر على أن يفتي المسلم في حياته المعاصرة فيما ينبغي فعله أو تركه في ظل الأنظمة الكافرة فذلك فرض لابد منه ، وأن تسير الحركة الإسلامية في الأوضاع المعاصرة على ضوء الفتوى المبصرة من أهلها ، فذلك فرض الفروض ، وأن يجيب فقهاء المسلمين خلال العصور على كل سؤال ولو كان سؤالًا لا يقع إلا مرّة في العصر فذلك ليس عبثاً .

ثمّ إن دراسة الفقه هي الطريقة الوحيدة لإيجاد الرّجل الفقيه ، وإنّ التعرف على طرق استنباط الأحكام من خلال ما فعله علماء المسلمين خلال العصور هو الطريق العملي لإيجاد العقلية الفقهية القادرة على حلّ المشاكل اليومية .

إنّه لا بد من دراسة الفقه ، ولا بد من وجود الفقيه ، ولا بد من استيعاب العلوم التي يحتاجها وجود الفقيه ، وكل ذلك من فروض الكفايات في الأمة ، وأن يسأل المكلف عمّا يحلّ له وعمّا يحرم عليه في أي ظرف وفي أي مجتمع فهذا كذلك من الفرائض .

فما قاله صاحب الظلال ينبغي حمله على غير مثل هذه الحالات ، لقد فهم الكثيرون عن صاحب الظلال ما لم يرده ، فمثلًا تجد بعضهم يحارب أصل دراسة الفقه اعتماداً على رأي (سيد رحمه الله) بينما (سيد رحمه الله) في أوسع ما قال « ومثله تلك الدراسات النظرية المجردة لفقه الفروع وأحكامه في الجوانب غير المطبقة » فهو يُحمل على مثل هذا

ونحن نعتبر حملته هذه نفسها خطأً ففي الحديث « ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل خير من أن تصلي ألف ركعة » إن دراسة كل أبواب الفقه جزء من عملية إبقاء الإسلام كله حياً .

فوائد :

١ ــ ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالأشياء التي نهوا عن السؤال عنها الآيات والمعجزات غير أن مجموع ما ورد من أسباب نزول يدلّ على المعنى الذي اتجهنا إليه واخترناه ، وهو اختيار عامّة المفسرين ولنذكر هنا ما ورد من أسباب نزول لهذه الآيــة :

ــ روى البخاري ... عن أنس بن مالك قال : خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، وقال فيها : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيراً » قال : فغطّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين . فقال رجل :مَنْ أبي ؟ قال : « فلان » . فنزلت هذه الآية : ﴿ **لا تسألوا عن أشياء** ﴾ .

ــ روى ابن جرير ... عن قتادة في قوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم** ﴾ الآية ، قال : فحدثنا أن أنس بن مالك حدّثه أنّ رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر فقال : « لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بيّنته لكم » فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت لا ألتفت يميناً ولا شمالًا إلا وجدت كُلًّا لافّاً رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل كان يُلَاحي فيُدعىٰ إلى غير أبيه ، فقال : يا نبيّ الله مَن أبي ؟ قال : « أبوك حذافة » قال : ثم قام عمر ، أو قال فأنشأ عمر فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولًا عائذاً بالله ــ ، أو قال : أعوذ بالله ــ من شر الفتن ، قال : وقال رسول الله ﷺ « لم أر في الخير والشر كاليوم قط ، صوِّرت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط » .

ــ روى البخاري ... عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً ، فيقول الرجل : مَن أبي ؟ . ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدلكم**

تسؤكم ﴾ حتى فرغ من الآية كلها . تفرد به البخاري .

ـــ روى الإمام أحمد ... عن عليّ قال : لمّا نزلت هذه الآية ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً** ﴾ قالوا : يا رسول الله ، أفي كل عام ؟ فسكت ، فقالوا : أفي كل عام ؟ فسكت ، قال : فقالوا : أفي كل عام ؟ فقال : « لا ، ولو قلت نعم لوجبت ، » . فأنزل الله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم** ﴾ الآية . وكذا رواه الترمذي وابن ماجه .

وممّا يعين على فهم معنى هذه الآية الأحاديث الثلاثة الآتية :

ـــ روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ : « أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرّم فحُرِّم من أجل مسألته » .

ـــ وفي صحيح مسلم عن رسول الله أنه ﷺ قال : « ذروني ما تركتكم ، فإنّما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » .

ـــ وفي الحديث الصحيح أيضاً : « إنّ الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان ، فلا تسألوا عنها » . من النصوص المذكورة سابقاً نستطيع أن نحصي عدداً من الحالات التي نهي المسلمون أن يسألوا عنها :

- السؤال استهزاء ، والسؤال عن غير ما هو ديني ، والسؤال عن أمر ذي طابع خاص ويريد صاحبه أن يقحم رسول الله ﷺ فيه ، والسؤال عمّا يسوء وليس من باب الديانات ، والسؤال الذي يترتب عليه تضييق على المسلمين ، أو يدلّ على غلو عند صاحبه ، والسؤال عمّا سكت الله عنه ، والسؤال الذي فيه طابع الجدل والمماحكة ، وقد قررنا القاعدة من قبل وهي عدم ابتداء الرسول ﷺ بالسؤال عن شيء جديد ، وجواز الاستيضاح عن شيء نزل من الوحي ، أو تقرّر من الدين بقصد الفهم والعمل .

٢ ـــ قد يتساءل متسائل عن بداية وجود ما ذكر الله من أمر البحيرة وغيرها وفي النصوص التالية بيان : روى البخاري ... أنّ عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول

الله ﷺ : « رأيت جهنم يَحْطِمُ بعضها بعضاً ، ورأيت عَمْراً يجر قُصْبه ، وهو أوّل من سيّب السوائب » . تفرّد به البخاري .

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون : « يا أكثم رأيت عمرو بن لُحَي بن قَمَعة بن خِنْدف يجرّ قُصْبه في النار ، فما رأيت رجلًا أشبه برجل منك به ، ولا به منك » ؟ فقال أكثم : تخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غيّر دين إبراهيم ، وبحّر البحيرة ، وسيّب السائبة ، وحمى الحامي » .

وروى الإمام أحمد ... عن عبد الله بن مسعود عن النّبي ﷺ قال : « إنّ أوّل من سيّب السوائب ، وعبد الأصنام ، أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإنّي رأيته ، يجرّ أمعاءه في النّار » تفرّد به أحمد .

فعمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة ، أحد رؤساء خزاعة الذين وُلوا البيت بعد جُرْهُم ، وكان أول من غيّر دين إبراهيم الخليل ، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرّعاع من النّاس إلى عبادتها ، والتقرّب بها . وشرع هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها ، ومن هذه النصوص ، ومن الآية الواردة في هذا الموضوع ، نعرف أنّ تحريم الحلال في الشريعة الإسلامية كتحليل الحرام كلاهما كفر وضلال ، وكلامنا في الحرام القطعي ، أو في الحلال القطعي ، ومن هنا نفهم خطأ الذين يسارعون إلى التحليل والتحريم من عند أنفسهم دون علم . فما أجرأ هؤلاء على النار ، وإنّا لنرى في عصرنا ناساً يهجمون على الفتوى في أمور من عند أنفسهم لو عرضت على مالك أو أحمد أو الشافعي لبقي الشهور يفكر فيها وهم يفتون فيها دون تفكير أصلًا .

٣ ــ روى ابن أبي حاتم ... عن مالك بن نَضْلة قال : أتيت النبي ﷺ في خُلقان من الثياب فقال لي : « هل لك من مال ؟ » قلت : نعم ، قال : « من أي المال ؟ » قال : فقلت : من كلّ المال من الإبل والغنم والخيل والرقيق ، قال : فإذا آتاك الله مالًا فليُرَ عليك » . ثم قال : تنتج إبلك وافية آذانها ؟ قال : قلت نعم ، قال : وهل تنتج الإبل إلا كذلك ؟ قال : « فلعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها ، وتقول : هذه بحيرة . وتشق آذان طائفة منها ، وتقول : هذه حرم » . قلت : نعم ، قال : « فلا

تفعل . إن كل ما آتاك الله لك حل » . ثم قال : ﴿ **ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام** ﴾ . من هذا النّص ندرك جهل أهل الجاهلية حيث حاولوا شكر النّعمة عن غير طريق الشكر ، كما ندرك أن طريق الشكر هو التزام أمر الله ، وهو في هذا المقام أن يدفع الإنسان زكاة ماله للفقراء ، أو يمنح شيئاً منه للمحتاجين ، أو يوسّع على نفسه وعلى الناس فيه .

٤ ــ قد يتساءل متسائل عن الصلة بين هذه الفقرة التي مرّت معنا وبين ما قبلها وما بعدها ؟ والجواب : في هذا المقطع يقرر الله أحكاماً متعددة ، فأن يأتي خلال هذا المقطع ما يحجر السؤال عن المسكوت عنه ، ويبيح السؤال عما نزل ، فذلك شيء منسجم مع ما قبله وما بعده ، وأن يقرّر خلال ذلك حكم ما حرمه الجاهليون على أنفسهم ، وأن يسفه فعلهم في مقطع يبدأ بالنهي عن تحريم الطيبات ، كل ذلك واضح الصّلات ، وفي هذه الفقرة التي تمنع السؤال المتعنّت وتقرر الحكم النهائي في تسفيه عادة جاهلية ، أن يسفّه المقلدون للآباء تقليداً أعمى ، كل ذلك ينسجم مع جو المقطع ، وفي مقطع هو جزء من سورة المائدة التي تعمّق معنى التسليم لله والإيمان به والاهتداء بكتابه أن تأتي فقرة تمنع السؤال ، وتقرّر الأحكام ، وتسفّه تقليد الضّلال والجهال ، كل ذلك سائر على نسق يكمّل بعضه بعضاً .

كلمة في السياق :

لنتذكّر أن محور سورة المائدة من سورة البقرة هما الآيتان المبدوءتان بقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ...** ﴾ ولنتذكر أن في هاتين الآيتين يرد قوله تعالى : ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ...** ﴾ وقد رأينا أن سورة المائدة وضّحت الكثير من معالم طريق الهدى ، وحدّدت الكثير من صفات المهتدين وبيّنت طريق الضلال ، وحدّدت صفات الذين يستحقون الضلال ، وقد سارت السورة موضحة هذا وذاك ، فإذا استقرت المعالم فقد آن الأوان ليبيّن لأهل الإسلام أنّ ضلال الضالين لا يضرّ المهتدين ، وهذا هو مضمون الآية اللاحقة التي تشكّل فقرة برأسها ، وهي الفقرة الخامسة في المقطع السابع الذي هو المقطع الثاني في القسم الثالث من السورة ، وسنرى محلّ الفقرة في سياق المقطع والقسم وهي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ﴾ الزموا إصلاح أنفسكم أي : عليكم أنفسكم وما كلّفتم من إصلاحها ﴿ **لا يضرّكم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ . أي : لا يضرّكم الضُّلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن تركهما مع القدرة عليهما لايجوز ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ . أي : المهتدون والضالون راجعون إلى الله ، وهو سيخبر الجميع بأعمالهم ، ويحاسبهم عليها ، ثم يجزي الجميع على أعمالهم .

فائدة :

من المهم جداً أن نعرف فهم السلف رضي الله عنهم لهذه الآية ، فإنّ فهمهم لها عاصم من الغلو والخطأ : روى الإمام أحمد رحمه الله ... أنّ أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيُّها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم** ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله — عز وجل — أن يعمّهم بعقابه » ، وقال أبو بكر : يا أيها الناس إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب الإيمان . وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه . وروى أبو عيسى الترمذي ... عن أبي أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أيَّةُ آية ، قلت : قول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم** ﴾ قال : أما والله لقد سألتَ عنها خبيراً ، سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحّاً مطاعاً ، وهوى مُتَبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوام ، فإنّ من ورائكم أياماً ، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهنّ مثل أجر خمسين رجلًا يعملون كعملكم » وزاد بعضهم : قيل : يا رسول الله ، أجر خمسين رجلًا منا أو منهم ؟ قال : « بل أجر خمسين منكم » . ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب صحيح .

وقال عبد الرزاق ... أن ابن مسعود رضي الله عنه سأله رجل عن قول الله تعالى :

﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم ﴾ فقال : إن هذا ليس بزمانها ، إنّها اليوم مقبولة : ولكنّه قد يوشك أن يأتي زمانها ، تأمرون فيُصنَع بكم كذا وكذا ، أو قال : فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ .

وروى أبو جعفر الرازي ، ... عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ ﴾ الآية . قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً ، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس ، حتى قام كلُّ واحد منهما إلى صاحبه ، فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر ؟ فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك ، فإن الله يقول : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ الآية . قال : فسمعهما ابن مسعود فقال : مه ، لم يجيء تأويل هذه بعد ، إنّ القرآن أنزل حيث أنزل ، ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ . ومنه آي قد وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير ، ومنه آي يقع تأويلهن اليوم ، ومنه آي يقع تأويلهن عند الساعة على ما ذكر من الساعة ، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب ما ذكر من حساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم واحدة ، وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيعاً ، ولم يذق بعضكم بأس بعض ، فأمروا وانهوا ، فإذا اختلفت القلوب والأهواء . وألبستم شيعاً ، أو ذاق بعضكم بأس بعض ، فامرؤ ونفسه ، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية .

وروى ابن جرير ... عن سفيان بن عقال ، قال : قيل لابن عمر : لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه ، فإن الله قال : ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ ، فقال ابن عمر : إنها ليست لي ولا لأصحابي ، لأنّ رسول الله ﷺ قال : « ألا فليبلِّغ الشاهد الغائب » فكنا نحن الشهود ، وأنتم الغُيَّب ، ولكنّ هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا ، إن قالوا لم يقبل منهم .

وروى ابن جرير أيضاً ... عن سوار بن شبيب قال : كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليد في العين ، شديد اللسان ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، نفر ستة ، كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه ، وكلهم مجتهد لا يألوا ، وكلهم بغيض إليه أن يأتي دناءة إلّا الخير ، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك ، فقال رجل من القوم : وأي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك ، فقال الرجل : إني لست إياك

أسأل ، وإنما أسأل الشيخ ، فأعاد على عبد الله الحديث فقال عبد الله : لعلك ترى لا أبالك أني سآمرك أن تذهب فتقتلهم ، عظهم وانههم ، وإن عصوك فعليك نفسك ، فإنّ الله ــ عز وجل ــ يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ﴾ الآية . وروى أيضاً .. عن أبي مازن قال : انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة ، فإذا قوم من المسلمين جلوس . فقرأ أحدهم هذه الآية ﴿ **عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ** ﴾ فقال أكثرهم : لم يجيء تأويل هذه الآية اليوم . وروى أيضاً ... عن جبير بن نفير قال : كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ وإني لأصغر القوم ، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، فقلت أنا : أليس الله يقول في كتابه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم** ﴾ ؟ فأقبلوا عليَّ بلسان واحد وقالوا : تنتزع آية من القرآن لا تعرفها ولا تدري ما تأويلها !! فتمنّيت أنّي لم أكن تكلّمت ، وأقبلوا يتحدثون ، فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حدث السن ، وإنك نزعت آية ولا تدري ما هي ، وعسى أن تدرك ذلك الزمان : إذا رأيت شحّاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بنفسك لا يضرّك من ضل إذا اهتديت . وروي أيضاً ... أنّ الحسن تلا هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ فقال الحسن : الحمد لله بها ، والحمد لله عليها ، ما كان مؤمن فيما مضى ، ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله . وروي أيضاً أن سعيد بن المسيّب قال : إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا يضرّك من ضل إذا اهتديت . وكذا قال غير واحد من السلف . والذي نقوله تعليقاً على هذا كله :

١ ــ أن الجماعة المسلمة متكاتفة متضامنة ، ومن مظاهر تكاتفها : تواصيها بالحق والصبر ، وأمرها لبعضها بالمعروف ، وتناهيها عن المنكر ، فإذا حققت هذا لا يضرها من ضلّ إذا اهتدت ، ولكنها إذا تركت التواصي بالحق والصبر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تكون مهتدية .

٢ ــ إن من الهداية الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، والدعوة إلى الخير ، فمن لم يفعل هذا يكون قد ترك من الهدى ، فالآية لا تفيد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الأمر بالمعروف جزء من الهداية .

ولكن قال الفقهاء إذا ترجح لديك عدم فائدة الأمر بالمعروف ، فلا يجب عليك

الأمر بالمعروف ، وإذا لاحظنا السياق والآية التي قبل هذه الآية ندرك أن الكلام في حالة هي : عندما يصرُّ الكافرون على التقليد ، وندعوهم فلا يستجيبون ، فإنّ ضلالهم لا يضرّنا عند الله .

كلمة في السياق :

١ ــ جاءت هذه الآية في سياق القسم المبدوء بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ وهذا يفيد أنّ من جملة المعاني التي أمر رسول الله ﷺ أن يبلغها المؤمنين هذا المعنى ، وهو أن على أهل الإيمان أن يبذلوا جهدهم كاملاً في إصلاح أنفسهم ، وأخذها بأسباب الهداية ، وأنهم إن فعلوا ذلك لن يضرّهم ضلال الضُّلال .

٢ ــ جاء قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ...** ﴾ بعد فقرات النهي عن تحريم الطيبات ، وتبيان بعض المحرمات ، وبعد النهي عن صيد البر للمحرم ، وبعد النهي عن السؤال المتعنت ، مما يشير إلى أن هذه المعاني من الهداية التي ينبغي أن يأخذ المسلم نفسه بها ، وأنه إن فعلها لا يضرّه ضلال الضُّلال في شأنها .

٣ ــ وفي سياق الآية الواعظة التي تذكّرنا بالرجوع إلى الله ﴿ **إليه مرجعكم جميعاً** ﴾ تأتي الفقرة الخامسة والتي تحدثنا عن وصيّة المغترب إذا مات ليُختَم المقطع بموضوع متصل بالأَيْمان ، التي جاء حديث عنها في بداية المقطع ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ...** ﴾ .

٤ ــ لقد رأينا صلة المقطع الذي بأيدينا الآن بالمقطع الأول من السورة ومما ورد في المقطع الأول من السورة قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط** ﴾ والفقرة السادسة في هذا المقطع تبدأ بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت ...** ﴾ . وقبل أن نعرض الفقرة الأخيرة في المقطع فلننقل ما قاله صاحب الظلال عن الآية التي مرّت معنا .

نقل عن آية ﴿ لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم ﴾

من كلام صاحب الظلال في آية ﴿ **عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾

« إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت ، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولًا ، ثم في الأرض جميعاً . وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته ، وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته . وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت ، والطاغوت : هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه .. والأمة المسلمة قوّامة على نفسها أولًا ، وعلى البشرية كلها أخيراً . وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية كما فهم بعضهم قديماً ــ وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثاً ــ أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ــ إذا اهتدى هو بذاته ــ ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة بإقامة شريعة الله في الأرض ــ إذا هي اهتدت بذاتها ــ وضل الناس من حولها . إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر ، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان ــ وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله ، واغتصاب سلطانه ، وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته .

« وكلا والله إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد . ولا يصلح إلا بعمل وكفاح . ولابد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ولتقرير ألوهية الله في الأرض ، ولرد المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان ، ولإقامة شريعة الله في حياة الناس ، وإقامة الناس عليها .. ولابد من جهد . بالحسنى حين يكون الضالون أفراداً ضالين ، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة ، وبالقوة إن وجدت حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى ، وتعطل دين الله أن يوجد ، وتعوق شريعة الله أن تقوم » ا هـ

﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ﴾ حضور الموت : مشارفته وظهور أماراته ، والتقدير العام : شهادة بينكم حين حضور أحدكم الموت حين الوصية شهادة اثنين ، وفي النّص دليل على وجوب الوصيّة **﴿ ذوَا عدل منكم ﴾** هذه صفة للشاهدين ، اشترط العدالة لهما ، وأن يكونا منا ، وهل المراد بـ (**منكم**) من المسلمين ، أو من أقارب الميت ، ومن يلوذ به لأنهم هم الأعلم بحالات الميت ، قولان للمفسرين ، والجمهور على أن المراد هو الأول ، أي من المسلمين **﴿ أو آخران من غيركم ﴾** . أي : من غير المسلمين على القول الذي عليه الجمهور **﴿ إن أنتم**

ضربتم في الأرض ﴾ . أي : سافرتم فيها ﴿ **فأصابتكم مصيبة الموت** ﴾ فهذان شرطان لجواز استشهاد غير المسلمين ﴿ **تحبسونهما من بعد الصلاة** ﴾ أي : توقفانهما للحلف من بعد الصلاة ، لأنه وقت اجتماع الناس ﴿ **فيقسمان بالله إن ارتبتم** ﴾ أي : فيحلفان بالله إن شككتم في أمانتهما ، والتقدير إن ارتبتم في شأنهما فحلّفوهما ﴿ **لا نشتري به ثمناً** ﴾ . أي : لا نشتري بالله ، أو بالقَسَم عوضاً من الدنيا ﴿ **ولو كان ذا قربى** ﴾ . أي : ولو كان المقسم له قريباً منّا أي : لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ، ولو كان من نقسم له ذا قربى منّا ﴿ **ولا نكتم شهادة الله** ﴾ . أي : الشهادة التي أمر الله بحفظها وتعظيمها ﴿ **إنّا إذاً لمن الآثمين** ﴾ . أي : إن كتمنا ﴿ **فإن عُثر على أنهما استحقا إثماً** ﴾ . أي : فإن اطّلع على أنهما فعلا فعلًا ما أوجب إثماً واستوجبا أن يقال إنهما لمن الآثمين ﴿ **فآخران** ﴾ . أي : فشاهدان آخران ﴿ **يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان** ﴾ . أي : من الذين جني عليهم وهم أهل الميت وعشيرته ، والأوليان تثنية أوْلى ، والمراد به الأحق بالشهادة لقرابة أو معرفة كأنه قيل ومن هما اللذان يشهدان الشهادة المعاكسة ، فقيل الأوليان ﴿ **فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما** ﴾ . أي : ليميننا أحق بالقبول من يمين هذين الوصيّين الخائنين ﴿ **وما اعتدينا** ﴾ . أي : وما تجاوزنا الحقّ في يميننا ﴿ **إنّا إذاً لمن الظالمين** ﴾ أي : إنْ حَلَفْنَا كاذبين ﴿ **ذلك** ﴾ أي الحكم الذي مر ذكره ﴿ **أدنى** ﴾ أي أقرب ﴿ **أن يأتوا بالشهادة على وجهها** ﴾ أي : أن يأتي الشهداء على تلك الحادثة كما حملوها بلا خيانة فيها ﴿ **أو يخافوا أن تردّ أيمان بعد أيمانهم** ﴾ . أي : يتكرر أيمان شهود آخرين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور كذبهم ، فصار المعنى : ذلك أقرب أن تؤدوا الشهادة بالحق والصدق إما لله أو لخوف العار والافتضاح بردّ الأيمان ﴿ **واتقوا الله** ﴾ . أي : في الخيانة واليمين الكاذبة ﴿ **واسمعوا** ﴾ . أي : سماع قبول وإجابة ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ . أي : الخارجين عن الطاعة .

فوائد :

١ ــ قال ابن كثير : اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل إنه منسوخ رواه العوفي عن ابن عباس .وقال حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم :إنها منسوخة ،وقال آخرون وهم الأكثرون ــ وهو الذي رجّحه ابن جرير ــ : بل هو محكم ومن ادعى نسخه فعليه البيان .

٢ ـ واختلفوا هل الاثنان شاهدان ، أو وصيّان ، على قولين ، القول الأول : أنهما شاهدان على الوصية ، والقول الثاني أنهما وصيّان ، ومن قال إنهّما شاهدان قال : فإن لم يكن معهما وصيّ ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان : الوصاية والشهادة . واختلفوا هل المرادبالصلاة المذكورة صلاة المسلمين في حالة كون الشاهدين غير المسلمين أو صلاتهما في دينهما .

٣ ـ وفي سبب نزول هذه الآيات يروي الترمذي وأبو داود عن ابن عباس بإسناد حسن غريب هذه الرواية ، قال : خرج رجل من بني سهم مع تميم الداريّ وعدي بن بدّاء ، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم . فلمّا قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب ، فأحلفهما رسول الله ﷺ ووجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما . وأن الجام لصاحبهم ، وفيهم نزلت ﴿ **يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم** ﴾ الآية .

وقد اجتزأنا بذكر هذه الرواية لحسن سندها ، وأعرضنا عن ذكر غيرها في موضوعها مع أن فيه زيادة تفصيل لعدم الاطمئنان إلى السند مع ملاحظة اشتهار أصل القصة في الصّدر الأول ، وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين ، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر رواه ابن جرير ، وكان تميم وصاحبه نصرانيين وقتها . قال ابن كثير : وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه كان سنة تسع من الهجرة ، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً يحتاج مدعي نسخه إلى فاصل في هذا المقام .

٤ ـ وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح عن الشعبيّ قصة حدثت بعد رسول الله ﷺ تدلّ على أنّ هذا الحكم معمول به غير منسوخ ، وهذه هي القصة :

أن رجلًا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا (اسم بلدة معروفة أيامها ولذلك أشار إليها بقوله) هذه ، قال : فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، قال : فقدما الكوفة فأتيا الأشعري ، يعني أبا موسى الأشعري رضي الله عنه ، فأخبراه ، وقدما الكوفة بتركته ووصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، قال : فأحلفهما

بعد العصر بالله ما خانا ، ولا كذبا ، ولا بدّلا ، ولاكتما ، ولا غيّرا ، وإنها لوصية الرجل وتركته ، قال : فأمضى شهادتهما » . وقد دلّ عمل أبي موسى ، وعدم إنكار الناس ، ورواية الشعبي للحادثة دون نكير ، على صحّة اتجاه من ذهب إلى أنّ الحكم غير منسوخ .

كلمة في السياق :

فى هذا المقطع عدة فقرات كلها مبدوءة بـ « يأيها الذين آمنوا » الأولى :في النهي عن تحريم الطيبات . والثانية : في تقرير حرمة الخمر والميسر .والثالثة :في حرمة صيد المحرم . والرابعة : في النهي عن السؤال مع تقرير عدم حرمة أنواع من الأنعام .والخامسة : في التأكيد على أن هداية المهتدين لاتضر معها ضلالة الضالين .والسادسة : في طريق الوصول إلي حق وراث من مات في سفر ، وما بين النهي عن تحريم الطيبات في الفقرة الأولى ، وتحريم الاعتداء على ما لم يأذن به الله في الفقرة الثالثة ، وتحريم السؤال المتعنت مع تبيان إباحة بعض الأنعام في الفقرة الرابعة ، وتحريم أكل مال من مات في سفر في المجموعة الأخيرة ، صلات واضحة ، والصلة بين هذا كله وبين الإقبال على الأنفس في الهداية في الفقرة الخامسة لا تخفى . ولذلك كله صلاته بمحور السورة من البقرة فالسّورة بيّنت في قضية الهداية والضلال ، وفي قضية الفسوق وأسبابه ، وفي أنواع من نقض الميثاق ، وفي أنواع من الإفساد في الأرض ، وفي أنواع من قطع ما أمر الله به أن يوصل .

فإذا اتضح محل المقطع الأخير في السياق فلنذكر كلمة حول أقسام السورة تكون بمثابة المقدمة للكلام عن خاتمتها .

كلمة في أقسام السورة :

قلنا : إن السورة تتألف من ثلاثة أقسام وخاتمة ، وقد عرضنا الأقسام الثلاثة ولم تبق إلا الخاتمة . وقد رأينا كيف أن الأقسام الثلاثة فصّلت في محور السورة ، ورأينا صِلاتها فيما بينها . وقد ركّز القسم الأول على الوفاء بالعقود ، وترك الإفساد في الأرض ، وإذ كان الناس في هذا الشأن قسمين : مهتدين ، وكافرين ، فقد جاء القسم الثاني لينهى رسول الله ﷺ عن الحزن على الذين يسارعون في الكفر ، وركّز السياق على وصل ما

أمر الله به أن يوصل . ثم جاء القسم الثالث ليطالب رسول الله ﷺ بالبلاغ بأمور عينها القسم ، وهكذا تجد أن الأقسام تتكامل معانيها في السورة ، وتتواصل ، والمقاطع تتكامل معانيها وتتواصل ، والفقرات تتكامل معانيها وتتواصل ، وكلّ ذلك بما يكمّل معاني سورة النساء ، فبين السورتين تكامل ، كل ذلك والسورة مشدودة إلى محورها في سورة البقرة تفصّل فيه .

والملاحظ أن الآية الأولى في محور سورة المائدة ختمت بقوله تعالى : ﴿ **وما يضلّ به إلا الفاسقين** ﴾ وأن آخر آية في القسم الثالث ختمت بقوله تعالى : ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ وكما ترى فإن المعنى واحد ، وسنرى كيف أن خاتمة السورة مرتبطة بما قبلها من القسم الثالث ، وبما قبلها من مضمون السورة ، وأنها كذلك مرتبطة بمحور السورة من البقرة فلنر خاتمة السّورة :

خاتمة السورة

تمتد خاتمة السورة من الآية (١٠٩) إلى نهاية الآية (١٢٠) **وهذه هي :**

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ

ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

– بدأ القسم الثالث بالأمر بالبلاغ ، وحدّد في مقطعه الأول مضامين من البلاغ لغير المسلمين ، ثم جاء المقطع الثاني في القسم فحدّد مضامين من البلاغ لأهل الإيمان ، ثم جاءت خاتمة السورة لتطوي الزمن وتعرض علينا في آيتها الأولى كيف أن الله سيجمع الرّسل عليهم السلام ، ويسألهم عن جواب أقوامهم لهم ، كأن هذه النّقلة تشير إلى أن رسول الله ﷺ قد بلّغ ، وأن على الناس أن يستجيبوا ، وأنّ الرسول ﷺ شهيد على الموقف ، ومن بين الرّسل جميعاً يخصّ المسيح عليه السلام بكلام تتقرّر فيه صحة ما دعا رسول الله ﷺ إليه في شأنه مما يخدم معاني المقطع الأول في القسم الثالث ومعاني في القسمين الأول والثاني ﴿ **يوم يجمع الله الرّسل فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علّام الغيوب إذ قال الله ياعيسى ابن مريم ...** ﴾ .

فالخاتمة مرتبطة بالقسم السابق عليها مباشرة ، و مرتبطة بمحور السورة ، وكلّ ذلك قد جاء من خلال عرض مشهد من مشاهد يوم القيامة ، يعرض الله – عز وجل – علينا فيه حقيقة عيسى وأمّه ، وحقيقة دعوته ، وذلك بعد أن مر معنا أكثر من مرة كفر الذين غلوا في شأنه ، فكأنّ السورة ذكرت في السياق ما يناسبه من شأن القائلين بألوهية المسيح عليه السلام ، حتى إذا فرغت السورة من تقرير الأحكام ، وبيان ما يقتضيه سياقها ، خلصت إلى ذكر حقيقة المسيح وأمه عليهما السلام ، وحقيقة دعوته .

– لقد رأينا في السورة نقض اليهود والنصارى للمواثيق ، ورأينا غلوّ النصارى في المسيح عليه السلام وأمه في أكثر من مكان ، وفي خاتمة السورة يأتي تقرير مسألة المسيح وأمه عليهما السلام على حقيقتها التي ينبغي أن يرجع النّاس إليها .

– قلنا عن سورة المائدة إنها استمرار لسورة النساء في كونها تفصّل هي وسورة النساء ، وسورة الأنعام بعدهما ، في مقطع الطريقين : الطريق إلى التقوى ، والطريق إلى الكفر والنفاق . وفصّلت سورة النساء بشكل أخص في الآية : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وفصلت سورة المائدة بشكل أخص في قوله تعالى : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين ۝ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

وتأتي خاتمة سورة المائدة لتقرِّر أن دعوة عيسى عليه السلام هي الدعوة المحمدية نفسها : ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم** ﴾ . فبعد أن تمّ التفصيل للطريقين في سورة النساء ، وسورة المائدة ، تأتي خاتمة سورة المائدة لتقرِّر أن ما دعا إليه القرآن الناس جميعاً ، من عبادة الله وحده ، هو لباب دعوة كل رسول ، ومنهم عيسى عليه الصلاة والسلام .

وتأتي خاتمة سورة المائدة وفيها تقرير لحقيقة عيسى عليه السلام ، ودعوته بين يدي سورة الأنعام التي تناقش الكافرين بكفرهم وتقيم عليهم الحجة . فكأنّ هذه الخاتمة هي الربط ما بين سورتي المائدة والنساء ، وبين سورة الأنعام ، وهي السور الثلاث التي تفصّل مقطعاً كاملًا من سورة البقرة .

– وفي الخاتمة نموذج على ناس نقضوا العهد في شأن عيسى ، ونموذج على ناس وصلوا ما أمر الله به أن يوصل وهم الحواريون . وفي المقطع نموذج على صلاح المصلحين في الأرض ، وفيها إعلام بما ينْجي عند الله وهو الصدق ، وإعلان أن المالكية لله ـــ عز وجل ـــ وهو الإعلان الذي رأيناه في أواخر سورة البقرة ، وأواخر سورة آل عمران ، وهو الذي ينبغي أن يقرّ به الإنسان ليكون ممن يعبد الله وحده .

ولئن كان من خلال هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة يتقرر : ﴿ **قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ فإن ذلك درس لمن يكتم شهادة الله في الدنيا ، ويخون الأمانة . وصلة ذلك بالفقرة السابقة على الخاتمة واضحة ، إذ هي في أداء الشهادة والأمانة .

وأن تختم السورة التي تربي على الوفاء بالعهود ، ووصل ما أمر الله به أن يوصل ، والإصلاح في الأرض بهذه الخاتمة التي ترينا هول المقام يوم القيامة ، وشدة التدقيق حتى مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فذلك واضح الدلالة على أن ما طولبتم به أيها الناس ، أنتم محاسبون عليه فخذوا الأمر بمنتهى القوة .

وهكذا نجد أنّ خاتمة السورة في محلها ، تؤدي أكثر من خدمة للسياق ، فهي تربي على معانيها ، وتكمّل معاني قسمها ، وتضع الأمور في مواضعها بالنسبة لقضايا تعرَّض

لها سياق سورة المائدة ، وهي إذ قدمتها هناك في خطاب أهل الدنيا . فإنها هنا تعرضها والقيامة قد قامت ، وهي مع ذلك ترتبط بمحور سورة المائدة من البقرة وكما أنها مقدمة لسورة الأنعام .

المعنى العام :

تبدأ خاتمة سورة المائدة بالإخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة ، وعما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم ، ولهول ذلك اليوم ، ولكونه موقفاً تذهل فيه العقول ، نفوا أن يكون لهم علم بما أجيبوا ، وذلك من هول الموقف ، وحسن الأدب مع الله ، إذ لا علم لهم بالنسبة لعلم الله المحيط ، إذ هو وحده العليم بالظواهر والبواطن . فعِلمُ الرسل بالنسبة لعلم الله كأنه لا علم ، لأن الله وحده علّام الغيوب كلها ، ثمّ ذكر الله ــ عز وجل ــ ما مَنَّ على عبده ورسوله عيسى عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات ، وأمره إياه أن يذكر نعمته عليه في خلقه إياه من أمّ بلا أب . وجعله إياه آية ودلالة قاطعة على كمال قدرته عز وجل على الأشياء ، وأمره أن يذكر نعمته على والدته مريم ؛ حيث جعله لها برهاناً على براءتها ممّا نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ، ومن أجلّ نعمه عليه التي أمره أن يتذكرها ما أيده به من جبريل عليه السلام ، فجعله نبياً داعياً إلى الله في صغره وكبره ، فأنطقه في المهد صغيراً شهد ببراءة أمّه من كل عيب ، واعترف لله بالعبودية ، وأخبر عن رسالته ودعوته إلى عبادته في صغره وكبره ، ثمّ أمره أن يتذكر نعمة تعليمه الكتاب والتوراة ، وما أكرمه به من الخوارق والمعجزات ، من تصوير الطين وتشكيله على هيئة الطائر بإذن الله له في ذلك ، فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله أي : فينفخ في تلك الصورة التي شكّلها بإذن الله له في ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه ، ومن ذلك إبراء الأعمى والأبرص بإذن الله ، ومن ذلك دعوته فيقومون أحياءً بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته . ثمّ أمر أن يذكر نعمته عليه في كفّه بني إسرائيل عنه حين جاءهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوته ورسالته من الله إليهم ، فكذبوه واتهموه بأنّه ساحر وسعوا في قتله وصلبه ، فنجّاه منهم ، ورفعه إليه ، وطهّره من دنسهم ، وكفاه من شرِّهم ، ثمّ أمره أن يذكر نعمته عليه بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً ، إذ ألهم حوارييه الإيمان به واتّباعه ، فاستجابوا له وانقادوا وتابعوا . ثمّ ذكر الله ــ عز وجل ــ في هذا السياق قصة اقتراح المائدة على عيسى من قِبَل حوارييه وجوابه ودعاءه الله من أجلها ، وردُّ الله

عليه ، وبيانُ سنة الله في حالة اقتراح الآيات من قِبَل الناس ، وكيف أنّه إن استجاب للاقتراح . ثمّ كفر أحد مِمّن شاهد الآية يستحق عذاباً شديداً . وهل أنزل الله المائدة ، أو لم ينزلها ؟ قولان للمفسرين : ففي الأسانيد الصحيحة إلى الحسن ومجاهد ما يفيد أن الحواريين بعد أن عرفوا ما يترتب على النّزول قالوا : لا حاجة لنا ، فلم تنزل . وسيأتي تفصيل ذلك . وهل هذا التذكير لعيسى بنعم الله عليه بعد إصعاده إلى السماء ، أو يوم القيامة . قولان للمفسرين ، والسّياق يفيد الثاني :

وبعد إذ يأمر الله عيسى يوم القيامة أن يتذكّر نعمه عليه ، ويعدّدها له ، يخاطب عبده ورسوله عيسى قائلًا له بحضرة من اتّخذه وأمّه إلهين من دون الله ، هل كان ذلك بأمره ؟ وفي هذا تهديد ، وتوبيخ ، وتقريع للنّصارى ، في الدنيا والآخرة ، فيجيب عيسى بكمال الأدب منزّها الله ، معلناً أنه لم يكن له أن يقول مثل هذا الكلام قائلًا لله ـــ عز وجل ـــ إن كان صدر مني هذا فقد علمته يارب ، فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلته ، لا أردته في نفسي ، ولا أضمرته .

ثمّ ذكر أنّه ما دعاهم إلّا إلى الذي أرسله الله به ، وأمره أن يبلّغه ، وهو عبادة الله ، وأنه كان يشهد على أعمالهم ما دام فيهم وبين أظهرهم ، فلمّا رفعه الله ـــ عز وجل ـــ لم يعد إلا الله رقيباً عليهم ، وهو وحده الشهيد على كل شيء ، ثمّ ردّ المشيئة إلى الله في أمر تعذيبه إياهم ، أو مغفرته لهم . وفي ردّه المشيئة لله في هذا المقام تبرٌّ من النّصارى الذين كذبوا على الله ورسوله عيسى ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وعندئذ يقول الله تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى بن مريم فيما أنهاه إليه من التبري من النّصارى الملحدين الكاذبين على الله ورسوله ، ومن ردّ المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل : مبيّناً جلّ جلاله أن يوم القيامة هو اليوم الذي ينفع الموحدين توحيدهم ، فهم وحدهم الذين يدخلهم جنته ماكثين فيها أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ، ولهم من الله الرضى ، وأي فوز أكبر وأعظم من هذا ؟ . ثم يختم الله ـــ عز وجل ـــ السورة بتبيان أن الله هو الخالق للأشياء ، المالك لها ، المتصرِّف فيها ، القادر عليها ، فالجميع ملكه ، وتحت قهره ، وقدرته وفي مشيئته ، فلا نظير ، ولا وزير ، ولا عديل ، ولا والد ، ولا ولد ، ولا صاحبة ، ولا إله غيره ، ولا رب سواه .

وفي انتهاء سورة المائدة بهذه الخاتمة التي هي تسجيل لموقف من مواقف يوم القيامة

مجموعة من الحكم العظيمة المرتبطة بسياق السورة العام ، فهي من ناحية درس للنصارى الذين نقضوا عهد الله وميثاقه ، ودرس للصادقين المهتدين ، فإذا كان محور السورة يتحدث عما به يكون الضلال وعمّا به تكون الهداية ، وإذا كانت السورة تحريراً من أسباب الضلال وتحقيقاً بأسباب الهداية ، فمن خلال هذا العرض لمشهد من مشاهد يوم القيامة نعرف طريق الله ، ونعرف ضلال الضالين ، ونعرف طريق النجاة ، وفيما سيأتي مزيد من البيان لهذه المعاني :

المعنى الحرفي :

﴿ **يوم يجمع الله الرسل** ﴾ الخطاب للمؤمنين أن يتذكروا أو يحذروا هذا اليوم الذي يجمع الله الرسل ويوجه لهم فيه الخطاب ﴿ **فيقول ماذا أجبتم** ﴾ . أي : ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى الإيمان ، وفي السؤال توبيخ لمن أنكرهم ﴿ **قالوا لا علم لنا** ﴾ يحتمل أنهم قالوا ذلك تأدُّباً : علمنا ساقط مع علمك سبحانك ، ومغمور به فكأنه لا علم لنا ، ويحتمل أن يكون المراد : لا علم لنا بإخلاص قومنا فأنت وحدك تعلم الظاهر والباطن ، ويحتمل أن يكون المراد : لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا ، ويحتمل أن يكون هول الموقف دعاهم إلى البراءة من علمهم ، وهذا هو الذي يجمع فيه بين قولهم هذا وشهادتهم على أقوامهم . قال السدي : نزلوا منزلًا ذهلت فيه العقول ، فلما سئلوا قالوا : لا علم لنا ، ثم نزلوا منزلًا آخر فشهدوا على قومهم ، رواه ابن جرير ﴿ **إنّك أنت علّام الغيوب** ﴾ نفوا علمهم ، ووصفوا الله بالعلم الكامل المحيط بكل شيء . ومن ذلك الغيوب كلها ﴿ **إذ قال الله** ﴾ . أي : في ذلك اليوم الذي يجمع فيه الرسل ﴿ **يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك** ﴾ حيث طهرتهاواصطفيتها على نساء العالمين ﴿ **إذ أيّدتك بروح القدس** ﴾ . أي : إذ قوّيتك بجبريل عليه السلام ، أيّد به لتثبت الحجة عليهم ، ويحتمل أن يكون المراد بروح القدس الكلام الذي يحيا به الدّين وأضافه إلى القدس لأنه سبب الطهر من أوضار الآثام ، فالقدس الطهر ﴿ **تكلّم النّاس في المهد** ﴾ . أي : تكلّم الناس طفلاً إعجازاً ﴿ **وكهلاً** ﴾ . أي : وكبيراً تبلّغ النّاس دعوة الله ﴿ **وإذ علمتك الكتاب** ﴾ فسّرها بعضهم بالكتابة والخط ، وتحتمل مطلق الكتاب أي جنسه ، وتحتمل ما أطلعه الله عليه من غيوب اللوح المحفوظ وتحتمل ما افترضه الله على عباده ﴿ **والحكمة** ﴾ . أي : الكلام المحكم الصّواب ، الموافق لمقتضى الحال ، والمناسب للمقام ﴿ **والتوراة** ﴾ كتاب موسى عليه السلام ﴿ **والإنجيل** ﴾ كتابه

الذي أوحاه الله إليه ﴿ **وإذ تخلق** ﴾ معطوف على ما أمر أن يتذكره من نعم الله ، **وتخلق** بمعنى تقدِّر ﴿ **من الطين كهيئة الطير** ﴾ . أي : تصنع من الطين هيئة مثل هيئة الطير ﴿ **بإذني** ﴾ . أي : بتسهيلي ﴿ **فتنفخ فيها** ﴾ . أي : في الهيئة التي كان يقدِّرها ﴿ **فتكون طيراً بإذني** ﴾ . ﴿ **وتبرىء الأكمه** ﴾ . أي الذي خُلق أعمى ﴿ **والأبرص بإذني وإذ تُخرج الموتى** ﴾ . أي : من القبور أحياء ﴿ **بإذني وإذ كففتُ بني إسرائيل عنك** ﴾ . أي : حين همّوا بقتله ، أي اليهود ﴿ **إذ جئتهُم بالبينات** ﴾ . أي : المعجزات الواضحات ﴿ **فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ وصفوا المعجزة بالسِّحر ، والرسول بالساحر ﴿ **وإذ أوحيتُ إلى الحواريين** ﴾ . **أي** : وإذ ألهمت الحواريين . والحواريون : هم الخواص أو الأصفياء ﴿ **أن آمنوا** ﴾ . **أي** : آمنوا ﴿ **بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون** ﴾ . أي : اشهد بأننا مخلصون لله في إسلامنا وجوهنا إليه ﴿ **إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك** ﴾ . أي : هل يفعل أو هل يطيعك ربك إن سألته ؟ والعرب تستعمل استطاع وأطاع بمعنى واحد ﴿ **أن ينزّل علينا مائدة من السماء** ﴾ المائدة هي الخوان إذا كان عليه الطعام ﴿ **قال اتقوا الله** ﴾ . أي : في اقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ إذ الإيمان يوجب التقوى ﴿ **قالوا نريد أن نأكلَ منها** ﴾ . أي : تبركاً ﴿ **وتطمئن قلوبنا** ﴾ . أي : وتزداد يقيناً ﴿ **ونعلم أن قد صدقتنا** ﴾ . **أي** : نعلم صدقك عياناً كما علمناه استدلالاً ﴿ **ونكون عليها من الشاهدين** ﴾ . أي : نشهد بما عاينّا لمن بعدنا ، ولمّا كان السؤال لزيادة العلم لا للتعنّت ﴿ **قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا** ﴾ . أي : يكون يوم نزولها عيداً لمن في زماننا من أهل ديننا ولمن يأتي بعدنا ، أو للمتقدمين منا والأتباع ﴿ **وآية منك** ﴾ . أي : على صحة نبوتي ﴿ **وارزقنا وأنت خير الرازقين** ﴾ . **أي** : وأعطنا ما سألناك وأنت خير المعطين ﴿ **قال الله إني منزّلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين** ﴾ وعدهم الإنزال ، وشرط عليهم في حالة الإنزال شرطاً ، هذا الشرط هو أنّ من يكفر بعد إنزالها فإنّ الله يعذبه تعذيباً لا يعذبه أحداً من عالمي زمانهم ، فهل قبلوا الشرط وأنزل الله المائدة ، أو أنهم تركوا السؤال بعد سماعهم هذا الشرط ؟ قولان للمفسرين ، وسيأتي في الفوائد ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله** ﴾ الجمهور على أنّ هذا السؤال يكون في يوم القيامة ﴿ **قال سبحانك** ﴾ . أي : أنزهك من أن يكون لك

شريك ﴿ **ما يكون لي** ﴾ . أي : ما ينبغي لي ﴿ **أن أقول ما ليس لي بحق** ﴾ . أي : أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿ **إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه** ﴾ . أي : إن صح أني قلته فيما مضى فقد علمته والمعنى : أني لا أحتاج إلى الاعتذار لأنك تعلم أني لم أقله ولو قلته لعلمته لأنك ﴿ **تعلم ما في نفسي** ﴾ . أي : ما في ذاتي ﴿ **ولا أعلم ما في نفسِك** ﴾ . أي : ما في ذاتك إذ نفس الشيء ذاته وهويته ، والمعنى : تعلم معلومي ، و معلومك ﴿ **إنك أنت عَلّام الغيوب** ﴾ ومن ذلك علم ما انطوت عليه النفوس ومن كان كذلك لا يصل إلى علمه علم أحد ﴿ **ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به** ﴾ . أي : ما أمرتهم إلا بما أمرتني به ، ثمّ فسّر ما أمره به ﴿ **أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنتُ عليهم شهيداً** ﴾ . أي : رقيباً ﴿ **ما دمتُ فيهم** ﴾ مدّة كوني فيهم ﴿ **فلمّا توفيتني كنتَ أنتَ الرّقيبَ عليهم** ﴾ . أي : الحفيظ ﴿ **وأنت على كل شيء شهيد** ﴾ . أي : من قولي وفعلي وقولهم وفعلهم ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ عَلم عيسى عليه السلام أنّ منهم من آمن ومنهم من أقام على الكفر ، فقال في جملتهم إن تعذب من كفر منهم فإنهم عبادك الذين علمتهم جاحدين لآياتك ، مكذّبين لأنبيائك ، وأنت العادل ، فإنهم كفروا بعد وجوب الحجة عليهم ، وإن تغفر لمن أقلع منهم وآمن فذلك فضل منك ، وأنت عزيز لايمتنع عليك ماتريد ، حكيم في ذلك ، أو عزيز بمعنى قادر على الثواب ، حكيم بمعنى لايعاقب إلا عن حكمة وصواب ﴿ **قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ . أي : قال الله لعيسى عليه السلام: هذا يوم ينفع الصادقين فيه صدقهم المستمر في دنياهم وآخرتهم وهو يوم القيامة ﴿ **لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم** ﴾ بالسعي المشكور ﴿ **ورضوا عنه** ﴾ بالجزاء الموفور ﴿ **ذلك الفوز العظيم** ﴾ لأنه باق ، بخلاف الفوز في الدنيا فهو غير باق ﴿ **لله ملك السمٰوات والأرض وما فيهن** ﴾ هذا تعظيم لله من أن يكون معه إله آخر وهو مالك كل شيء ﴿ **وهو على كل شيء قدير** ﴾ من المنع والإعطاء والإيجاد والإفناء .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى على لسان الحواريين ﴿ **إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء** ﴾ قال صاحب الظلال :

« ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى .. المستخلَصين منهم وهم

الحواريون .. فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد ..

إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى . فآمنوا . وأشهدوا عيسى على إسلامهم .. ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا ، يطلبون خارقة جديدة تطمئن بها نفوسهم ، ويعلمون منها أنه صدقهم . ويشهدون بها له لمن وراءهم .

فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم .. لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان . ولقد صدّقوا فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان ، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن ..

هذا هو الفارق الكبير بين حواريي عيسى عليه السلام ــ وحواريي محمد ﷺ ــ ذلك مستوى ، وهذا مستوى .. وهؤلاء مسلمون ، وأولئك مسلمون .. وهؤلاء مقبولون عند الله ، وهؤلاء مقبولون .. ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله » .

٢ ــ لاحظنا أن اقتراح الآيات على الرّسل ليس هو الأدب مع الله ورُسُله ، وأنّ الاستجابة في هذه الحالة يرافقها شروط ، ويشبه ما ورد هنا ما وقع لرسولنا عليه الصلاة والسلام كما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك ، قال : « وتفعلون ؟ » قالوا : نعم ، قال فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إنّ ربك يقرأ عليك السّلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذّبته عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ، قال : « بل باب التوبة والرحمة » .

٣ ــ يلاحظ أن ما قاله عيسى عليه السلام في هذا الموقف ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ... ﴾ يقوله رسولنا عليه الصلاة والسلام في موقف من مواقف يوم القيامة ، فقد روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس . إنكم محشورون إلى الله ــ عز وجل ــ حفاة عراة غُرْلًا ﴿ كما بَدَأْنا أول خلق نعيده ﴾ وإنّ أوّل الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ، فلمّا توفّيتي كنت أنتَ الرقيبَ عليهم وأنت على كل شيء شهيد ◌ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم

منذ فارقتهم » .

٤ ــ قال ابن كثير عن آية ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ... ﴾ وهذه الآية لها شأن عظيم ، ونبأ عجيب ، وقد ورد في الحديث أنّ النّبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها ثم ساق روايات منها :

أ ــ روى الإمام أحمد ... عن أبي ذر رضي الله عنه قال : صلى النّبي ﷺ ذات ليلة ، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ فلمّا أصبح قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ، قال : « إنّي سألت ربي ــ عز وجل ــ الشفاعة لأمتي فأعطانيها ، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً » .

ب ــ روى ابن أبي حاتم .... عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّ النبي ﷺ تلا قول عيسى ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ . فرفع يديه فقال : « اللّهم أمّتي » وبكى ، فقال الله يا جبريل ، اذهب إلى محمد ــ وربك أعلم ــ فأسأله ما يبكيه ، فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ــ وهو أعلم ــ فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمّتك ، ولا نسوءك .

٥ ــ أخرج ابن وهب عن عبد الله بن عمر قال : « آخر سورة أنزلت سورة المائدة » . وهذا يجعل لهذه السورة أهمية خاصة إذ أنها نزلت بعد أن وصلت التربية الربانية لهذه الأمة إلى مرحلة عالية من النضج .

٦ ــ يلاحظ أنّ ما يسمّى بالأناجيل الأربعة المعتمدة عند النصارى حالياً ليس فيها إشارة إلى موضوع نزول مائدة من السماء ، ونحن وإن كنا نجزم أن هذه الأناجيل ليست هي الإنجيل الذي أنزل على عيسى ، وإن كانت قد تحوي فقرات منه ، لأنها كما ذكرنا من قبل تمثل مدرسة بولس الذي ذكر في رسائله أنه لم يتلقه عن أحد ، وأنه لم يتتلمذ على تلاميذ المسيح المباشرين ، كما ذكر هو ــ إلا خمسة عشر يوماً ، ثم دخل في صراع معهم ، ومن ثم لا نعتبر ما أثبتته هذه الأناجيل ، أو رفضته إلا في الحدود التي أقرها وحي الله وحتى في هذه القضايا فإننا نستأنس استئناساً . وفي موضوع المائدة لا نجد كلاماً عن رسولنا ﷺ حول نزولها أو عدمه ، وعلماء المسلمين أكثرهم على نزولها ، والثابت عن مجاهد والحسن أنهما كانا يقولان بعدم نزولها . قال ابن كثير تعليقاً على ما

ذهب إليه الحسن ومجاهد . وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النّصارى ، وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله ، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ، ولا أقل من الآحاد والله أعلم ، ولكنّ الذي عليه الجمهور أنّها نزلت ، وهو الذي اختاره ابن جرير » أقول : يلاحظ في الأناجيل المذكورة أن فيها كلاماً عن مائدة من مثل ما ورد في الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا :

« فرفع يسوع عينيه ونظر أنّ جمعاً كثيراً مقبلاً إليه ، فقال لفيلبس : من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء ؟ وإنّما قال هذا ليمتحنه لأنه هو عَلِمَ ، ما هو مزمع أن يفعل ، أجابه فيلبس : لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ، ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً ، قال له واحد من تلاميذه وهو أندراوس أخو سمعان بطرس : هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ، ولكن ما هذا لمثل هؤلاء ، فقال يسوع : اجعلوا الناس يتكئون ، وكان في المكان عشب كثير . فاتكأ الرجال وعددهم نحو خمسة آلاف ، وأخذ يسوع الأرغفة وشكر ووزع على التلاميذ والتلاميذ أعطوا المتكئين ، وكذلك من السمكتين بقدر ما شاؤوا فلما شبعوا قال لتلاميذه : اجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء ، فجمعوا وملأوا اثنتي عشرة قفّة من الكسر من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين ، فلمّا رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا : إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم » فهل مثل هذا الكلام أصله قصة المائدة ثم حرّفت وبدّلت كغيرها فأصبحت على هذه الشاكلة ، وكان أصلها ما ورد في القرآن ، أو أن ما ذكره القرآن كان حادثاً آخر . يلاحظ أن إنجيل مرقص ذكر القصة السابقة التي ذكرها إنجيل يوحنا ، وذكر قصة أخرى في الإصحاح الثامن هي : « في تلك الأيام إذ كان الجمع كثيراً جداً ولم يكن لهم ما يأكلون ، دعا يسوع تلاميذه وقال لهم : إني أشفق على الجمع لأن الآن لهم ثلاثة أيام يمكثون معي . وليس لهم ما يأكلون ، وإن صرفتهم إلى بيوتهم صائمين يخورون في الطريق ، لأن قوماً منهم جاؤوا من بعيد ، فأجابه تلاميذه : من أين يستطيع أحد أن يشبع هؤلاء خبزاً هنا في البرّية ؟ فسألهم : كم عندكم من الخبز ؟ فقالوا : سبعة . فأمر الجمع أن يتكئوا على الأرض وأخذ السبع خبزات ، وشكر وكسر وأعطى تلاميذه ليقدّموا ، فقدّموا إلى الجمع وكان معهم قليل من صغار السمك ، فبارك وقال أن يقدموا هذه أيضاً ، فأكلوا وشبعوا ، ثمّ رفعوا فضلات الكسر سبعة سلال . وكان الآكلون نحو أربعة آلاف ، ثم صرفهم ، وللوقت دخل السفينة مع تلاميذه وجاء إلى نواحي دلمانوثة » . وبعدها .. « فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء

لكي يجربوه فتنهد بروحه وقال لماذا يطلب هذا الجيل آية الحق أقول لكم لن يُعطَى هذا الجيل آية » .

فهل في هذا النص الأخير إشارة إلى موضوع طلب المائدة ثم حُرِّف وصيغ هذه الصياغة المحرفة ؟ كل ذلك ممكن ولا يترتب على كون المائدة نزلت أو لم تنزل شيء عملي ، فنحن مؤمنون بنزولها إن كانت قد نزلت ، وبعدمه إن لم تكن نزلت ، ونؤمن بأنّ القرآن هو الحق الخالص .

كلمة في السياق :

بهذه الخاتمة تنتهي سورة المائدة **وفيها يعرض الله مشهداً من مشاهد يوم القيامة حيث** يخاطب الله الرسل عامّة ، **ويسألهم عما أجيبوا ويذكّر عيسى بنعَمِه ، ومن ذلك إظهاره** لاستجابته له عندما طلب الحواريّون منه المائدة واشتراطه ، ثمّ **سؤاله عما إذا كان أمر** الخلق بعبادته ، وجواب عيسى بأنه لم يَدعُ إلا لعبادة الله ، **وجواب الله له عمّا أعدّ** للصادقين ، وفي هذا ربط لنهاية السورة بما ذكر فيها **من قصة النّصارى ، وفي ذلك وضع** للأمور في نصابها من أنّ النّجاة الحقيقيّة هي في عبادة الله ، والصدق معه ، والتسليم بربوبيته ، وفي هذا المقام نتذكّر أنّ سورة المائدة امتداد لسورة النّساء ، **فهي تفصل في** حيّز المحور العام لسورة النساء الذي هو ﴿ **اعبدوا ربكم** ... ﴾ مع كونها تختص بمحور خاص بها وهو ﴿**وما يضل به إلا الفاسقين ◦ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** .. ﴾ وههنا موضوع سيبرز معنا في ما بعد بشكل أوضح ، كيف تفصّل سورة في محورها ، وتخدم محل ذلك المحور في سياقه من سورة البقرة ، وهو موضوع نؤثر هنا أن نمسه مساً رفيقاً لأنه ستأتي أمثلة واضحة عليه ، وعندئذ نقف عنده وقفات أطول ونكتفي هنا أن نقول :

إن سورة النساء ، والمائدة ، والأنعام ، تفصّل في المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة ، فسورة النساء تفصّل في الخمس آيات الأولى فيه . وسورة المائدة تفصّل في الآيتين التاليتين ، وسورة الأنعام تفصّل في الآيتين الأخيرتين من المقطع ، وسورة المائدة تفصّل في محورها ، ومحورها مرتبط بما قبله ، ومن ثم يظهر فيها ما له صلة بما قبل المحور من معان ، فهي امتداد لسورة النساء من ناحية ، وهي تفصل في محورها من ناحية أخرى ، ومع هذا وهذا فلها سياقها الخاص بها ، وعلى ضوء ما ذكرناه ندرك كيف أنّ

سورة المائدة فصّلت في موضوع العبادة ، والتقوى ، وبشّرت أهل الإيمان والعمل الصالح ، وعرّفت على الله ، وعمّا يقرّب إليه ، وما يبعد عنه ، مع أنها قررت القضايا التي بها يكون الإنسان من الفاسقين ، فحذّرت منها ، وضربت الأمثلة على أنواع من نقض الميثاق ، أو قطع ما أمر الله به أن يوصل ، أو على أنواع من الإفساد في الأرض ، وطالبت بما يقابل ذلك من أخلاق الإيمان .

ولنذكّر بشيء كنّا ذكرناه من قبل : بدأ المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ ... وانتهى بقوله تعالى : ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ . وبدأت سورة النساء بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ وانتهت بقوله تعالى : ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ .

وهذا يشعرنا أن محور سورة النساء هو المقطع كله ، ولكن من خلال المعاني رأينا وسنرى أن الآيات الأربع الأخيرة في المقطع فصلتها سورتا المائدة والأنعام .

فصل في عالمية القرآن :

لم يحدّثنا القرآن الكريم إلا عن خمسة وعشرين رسولًا ، ولكنه أخبرنا أنه أرسل إلى كل أمّة لها لسانها الخاص رسولًا ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا** ﴾ . (النحل : ٣٦) ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾ (إبراهيم : ٤٠) إن اختيار خمسة وعشرين رسولًا من مجموع الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الذي تحتاجه البشرية لاستيعاب كل ما يلزمها في قضية العبرة والقدوة ، وبما يغطي الحياة كلها فمن خلال هذه القصص الحق لا يجد الإنسان حالة إلا ويرى العبرة والقدوة التي تلائم الحال التي هو عليها ، ومن ثم كانت قصص القرآن ـــ على محدودية عددها ـــ مغطية للحياة البشرية في كل الأزمان والأمكان .

وقد أخذت قصص أقوام الأنبياء وخاصة بني إسرائيل والنصارى حيزاً كبيراً ، وما ذلك إلا لأن ما وقعوا به يشبه ما وقعت به الأمم الأخرى ، وما يمكن أن تقع فيه أمتنا ، ولذلك فإنه وإن لم يذكر في القرآن كل الأمم وانحرافاتها ، وكل الأديان وانحرافاتها ، فإنّه ما من حادثة ولا انحراف إلا وقد قصّ علينا فيه ما نعرف أنه انحراف ، ومن خلال ما ذكر نعرف حكم ما لم يذكر . فمثلًا في هذا العالم ديانات كبرى ، كالديانة البوذية والمجوسية ، والبرهمية ، والكونفوشيوسية ، لم تُذكر صراحة في القرآن ، ولكن من التتبع

نعرف أن فيما ذكر في القرآن ما نعرف به حكم كل جزئية في هذه الديانات ، بحيث يعرف الإنسان حكم الله فيها ، إنّ كثيراً ممّا قاله النصارى في شأن المسيح عليه السلام ، قاله البوذيون في شأن بوذا ، فمن عرف الحكم في هؤلاء ، عرفه في هؤلاء ، ومن عرف بم أقيمت به الحجة على هؤلاء ، عرف كيف يقيم الحجة على هؤلاء .

ولعل التركيز الأكبر الذي نراه على الديانتين اليهودية والنصرانية يعود إلى أنّ ما عند هؤلاء أكثر إيهاماً للإنسان ، ومن ثمّ فإنّه يمكن أن يكون أشد إضلالاً ، فإذ تقوم الحجة عليهما فإنّها على غيرهما أكثر إلزاماً ، وسنرى أمثلة ذلك فيما بعد ممّا يؤكد ما ذكرناه من أن ما ذُكر في القرآن كاف في الرّد على ما لم يُذكر ، ومن هذا وغيره تتأكد عالمية القرآن ، وهذا وحده كافٍ للدلالة على أن القرآن ليس وليد بيئة ، بل هو كتاب الله عز وجل .

كلمة أخيرة في سورة المائدة :

بدأنا بعرض سورة المائدة على أنهّا مقاطع ، وانتهينا على أنهّا أقسام ، كل قسم يضمّ أكثر من مقطع ، وقد رأينا أدلّة ذلك ، ورأينا أنّ سورة المائدة تتألّف من ثلاثة أقسام وخاتمة : القسم الأول : ويتألف من ثلاثة مقاطع ، كان التركيز فيها بشكل مباشر أو ضمني على الوفاء بالعهود ، وعلى وصل ما أمر الله به أن يوصل ، وعلى النهي عن الإفساد في الأرض ، وفيها تحدّد طريق الهداية ، وطريق الضلال ثم جاء القسم الثاني : وقد ابتدأ بالنهي عن الحزن على الذين يسارعون في الكفر ، وفيه تعمّقت معرفة طرق الضلال ، وعمّق موضوع الالتزام بالكتاب ، وموضوع وصل ما أمر الله به أن يوصل ، وقطع ما أمر الله به أن يقطع ، وقد شمل القسم الثاني مقطعين ، ثمّ جاء القسم الثالث : آمراً بالبلاغ ، معتمداً على ما ورد في القسمين الأولين ، وقد جاء القسم الثالث على مقطعين : المقطع الأول في بلاغ أهل الكتاب ، والمقطع الثاني في بلاغ أهل الإيمان ، ثمّ جاءت الخاتمة فنقلتنا مباشرة إلى نتيجة البلاغ من خلال عرض مشهد من مشاهد يوم القيامة إذ يسأل الله ــ عز وجل ــ الرّسل عن موقف أقوامهم من البلاغ ، ويخص عيسى عليه السلام بالحوار ليخدم الحوار موضوع البلاغ في القسم الثالث وما سبقه مما له علاقة في موضوعه ، وبهذا تكون سورة المائدة قد عرّفتنا على الفسوق ، والخسران ، وعلى ما يقابل ذلك ، وعرّفتنا على ما به يستحق أحد الهداية أو الضلال ، وعرّفتنا على المواثيق التي لا ينبغي أن تُنقض ، وعلى ما به تنقض وعلى ما أمر الله به أن يوصل ، وعلى

ما به يقطع ، وعلى الإفساد في الأرض ، وعلى ما به يستأصل ، وارتباط ذلك بمحور السورة واضح ، وقد فصّلنا في ذلك كله ، وهذا أوان الانتقال إلى تفسير سورة الأنعام .

☆ ☆ ☆

سورة الأنعام

وهي السورة السادسة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الخامسة من قسم الطوال
وآياتها مائة وخمس وستون
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة الأنعام :

قلنا إن سورة النساء ، والمائدة ، والأنعام تفصل في المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة . وأن سورة الأنعام محل تفصيلها الآيتان الأخيرتان من هذا المقطع واللتان هما : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

ولو أنك نظرت في السورة نظرة تأمل لوجدتها تفصيلًا لهاتين الآيتين : فالآية الثانية من سورة الأنعام هي قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلًا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون** ﴾ لاحظ صلتها بقوله تعالى : ﴿ **وكنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾

والآية الأخيرة في السورة هي : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ لاحظ صلة الآية الأخيرة من سورة الأنعام بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ . والآية التي بعدها في سورة البقرة ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ .

إن الآية الثانية في المحور هي ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ والملاحظ أن كثيراً من آيات سورة الأنعام مبدوءة بقوله تعالى (**وهو**) وكثير من هذه الآيات تفصيل لكون الأرض بما فيها مخلوقة للإنسان .

﴿ **وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون** ﴾ ٣

﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ ١٨

﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم ....** ﴾ ٦٠

﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ....** ﴾ ٦١

﴿ **وهو الذي خلق السمٰوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون ...** ﴾ ٧٣

﴿ **وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ...** ﴾ ٩٧

﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ﴾ ٩٨

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء ... ﴾ ٩٩

﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان .... ﴾ ١٤١

وآخر آية في السورة : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض .... ﴾١٦٥

ولقد جاءت آيات المحور في حيِّز قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً ... فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ . فالمحور جاء يناقش الكافرين بالله ، ويقيم عليهم الحجة في سياق الأمر بعبادة الله وتوحيده ، ومن ثمّ فإنّ سورة الأنعام التي هي تفصيل لذلك المحور ، تبدأ بما يشير إلى ذلك : ﴿ الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ ومنها ﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ .

﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم ﴾ ٥٦

﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونُردُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ... ﴾ ٧١ ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ... ﴾

﴿ وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفُون ◦ بديع السمٰوات والأرض أنّىٰ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ◦ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ◦ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ... ﴾ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ... ﴾

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ◦ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ◦ قل أغير الله أبغي ربًا وهو رب كل شيء .. ﴾ ١٦٤

من هذه المقتطفات ندرك أن سورة الأنعام تفصّل في محورها من سورة البقرة الآتي في حيز قوله : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ... ﴾ ومن ثم فهي تفصيل للمحور في سياقه من سورة البقرة .

وقد رأينا منذ الكلام عن سورة آل عمران أن محاور السُّور من سورة البقرة لها امتدادات معان في سورة البقرة نفسها ، وأن السُّور التي تفصّل في محاور من سوره البقرة ، تفصّل في هذه المحاور وامتدادات معانيها ، فتشد إلى المحور من سورة البقرة ما هو ألصق به ، ثمّ تفصّل الجميع أو تبني على الجميع

وأثناء عرضنا لسورة البقرة رأينا صلة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالًا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ . فالله الذي خلق ما في الأرض للإنسان ، أباح له أن يأكل منها إلا ما حرّم عليه . وفي سورة الأنعام تأتي تفصيلات في هذه الشؤون وغيرها مما يعتبر تفصيلًا لامتدادات معاني المحور في سورة البقرة .

فمثلًا يوجد في سورة الأنعام تفصيل وحوار في ما أحلّ وحرّم من المطعومات وهذه نماذج :

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

☆ ☆ ☆

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ

وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ

قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا

فسورة الأنعام تفصّل في محورها من سورة البقرة ، وفي محلّ هذا المحور من مقطعه ، وفي امتدادات معاني هذا المحور من سورة البقرة .

تأتي سورة الأنعام كلًّا متكاملًا ، فهي تفصّل في ما ذكر ، ولكن ضمن سياقها الخاصّ بها ، ووحدتها الخاصة بها ، فإذا لاحظت أن سورة الأنعام مكية ، وأن سورة البقرة مدنية — أي متأخرة في النزول عنها — ثم رأيت كيف أن سورة الأنعام تفصّل فيما أجمل في سورة البقرة ، أو تبني عليه ، أدركت مظهراً من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن ، وأنّ كل شيء فيه يدلّك على أنّه يستحيل أن يكون بشريّ المصدر ، بل هو كلام الله — عز وجل — وسنرى أثناء عرض السورة مزيداً من بيان ارتباط سورة الأنعام بمحورها ومحله من سياقه ، وامتدادات معانيه في سورة البقرة ، ولكنّا أحببنا هنا أن نضع نقاط علّام كبرى .

لقد فصّلت سورة النساء ، والمائدة ، والأنعام في مقطع الطريقين من سورة البقرة ، المقطع الذي دلّ على طريق التقوى ، وحدّد طريق الانحراف ، وناقش أصل الانحراف ، وهو الكفر ، مدلّلا على وجوب التوحيد والعبادة ، شكراً لله على ما أعطى الإنسان وسخره له . إن مقطع الطريقين بدأ بالدعوة إلى العبادة ، معلّلا لوجوبها بخلق الله عز وجل للإنسان ، وخلقه الأشياء من أجله ، وانتهى بمناقشة الكافرين بالله ، وإقامة الحجة عليهم من خلال ظاهرتي الحياة والعناية ، وجاءت السور الثلاث لتفصّل في هذا كله مع ملاحظة : أنّ كلّا من السور الثلاث تفصّل في محورها الخاصّ بها ، وتخدم في موضوع المقطع كله ، فكل سورة من السور الثلاث تخدم في تفصيل محورها بشكل أوّلي ، وتخدم بقية المقطع ، فتمّ بالسور الثلاث التعريف على الله ، وتقرير الرجوع إليه ، وتفصيل ماهية التقوى وطريقها سلبا أو إيجابا أي : ما ينبغي أن يحذر ، وما ينبغي أن يفعل ، وسورة الأنعام كما ذكرنا تفصّل في محورها الذي هو ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ مع كونها تكمّل بناء معرفة الطريقين اللذين دلّت عليهما سورة النساء وسورة المائدة .

فصول ونقول

فصل في نقل عن الألوسي في وجه مناسبة سورة الأنعام لسورة المائدة :

قال الألوسي : « ووجه مناسبتها لآخر المائدة على — ما قال بعض الفضلاء — أنها افتتحت بالحمد وتلك اختتمت بفصل القضاء وهما متلازمان كما قال سبحانه : ﴿ **وقُضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ وقال الجلال السيوطي في وجه المناسبة : أنه تعالى لمّا ذكر في آخر المائدة ﴿ **لله ملك السموات والأرض وما فيهن** ﴾ على سبيل الإجمال افتتح جل شأنه هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله ، فبدأ سبحانه بذكر خلق السموات والأرض ، وضم تعالى إليه أنه جعل الظلمات والنور ، وهو بعض ما تضمنه ما فيهن ، ثم ذكر عز اسمه أنه خلق النوع الإنساني ، وقضى له أجلا ، وجعل له أجلًا آخر للبعث ، وأنه جل جلاله منشىء القرون قرناًبعد قرن ثم قال تعالى : ﴿ **قل لمن ما في السموات** ﴾ الخ .. فأثبت له ملك جميع المظروفات لظرف المكان . ثم قال عز من قائل : ﴿ **وله ما سكن في الليل والنهار** ﴾ فأثبت أنه جل وعلا ملك جميع المظروفات لظرف الزمان . ثم ذكر سبحانه خلق سائر الحيوان من الدوابّ والطير ، ثم

خلق النوم واليقظة والموت . ثم أكثر عز وجل في أثناء السورة من الإنشاء والخلق لما فيهن من النيّرين والنجوم ، وفلق الإصباح ، وفلق الحب والنوى ، وإنزال الماء وإخراج النبات والثمار بأنواعها ، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات ، إلى غير ذلك مما فيه تفصيل ما فيهن ، وذكر عليه الرحمة وجهاً آخر في المناسبة أيضاً وهو أنه سبحانه لما ذكر في سورة المائدة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ الخ .. وذكر جل شأنه بعده ﴿ **ما جعل الله من بحيرة** ﴾ الخ .. فأخبر عن الكفار أنهم حرّموا أشياء مما رزقهم الله تعالى افتراء على الله عزّ شأنه ، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئاً من ذلك ؛ فيشابهوا الكفار في صنعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز ، ساق جلّ جلاله هذه السورة لبيان حال الكفار في صنعهم ، فأتى به على الوجه الأبين ، والنّمط الأكمل ، ثم جادلهم فيه ، وأقام الدلائل على بطلانه ، وعارضهم وناقضهم إلى غير ذلك ، مما اشتملت عليه السورة ، فكانت هذه السورة شرحاً لما تضمنته تلك السورة من ذلك على سبيل الإجمال ، وتفصيلًا وبسطاً وإتماماً وإطناباً ، وافتتحت بذكر الخلق والملك ، لأن الخالق المالك هو الذي له التصرف في ملكه ومخلوقاته ، إباحةً ومنعاً ، وتحريماً وتحليلًا ، فيجب أن لا يعترض عليه سبحانه بالتصرف في ملكه ، ولهذه السورة أيضاً اعتلاق من وجه بالفاتحة لشرحها إجمال قوله تعالى : ﴿ **رب العالمين** ﴾ وبالبقرة لشرحها إجمال قوله سبحانه : ﴿ **الذي خلقكم والذين من قبلكم** ﴾ وقوله عزّ اسمه ﴿ **الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله تعالى جل وعلا ﴿ **والأنعام والحرث** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ الخ .. وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق والتقبيح لما حرموه على أزواجهم وقتل البنات . وبالمائدة من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها . وقد يقال : إنه لما كان قطب هذه السورة دائراً على إثبات الصانع ، ودلائل التوحيد حتى قال أبو إسحق الإسفرايني : إن في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد ناسبت تلك السورة من حيث إن فيها إبطال ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام ، وتوبيخ الكفرة على اعتقادهم الفاسد ، وافترائهم الباطل هذا ، ثم أنه لما كانت نِعَمُه سبحانه وتعالى مِمّا تفوت الحصر ، ولا يحيط بها نطاق العد ، إلا أنها ترجع إجمالًا إلى إيجاد وإبقاء في النشأة الأولى ، وإيجاد وإبقاء في النشأة الآخرة ، وأشير في الفاتحة ــ التي هي أم الكتاب ــ إلى الجميع ، وفي الأنعام إلى الإيجاد الأول ، وفي الكهف إلى الإبقاء الأول . وفي سبأ الإيجاد الثاني ، وفي فاطر إلى الإبقاء الثاني ابتدئت هذه الخمس بالتحميد .

نقول من الظلال تعرِّف على السورة :

يقول صاحب الظلال : هذه السورة مكيّة .. من القرآن المكي .. القرآن الذي ظل يتنزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً .. ، يحدثه فيها عن قضية واحدة . قضية واحدة لا تتغير ، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر . ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديد حتى لكأنما يطرقها للمرة الأولى ؟ لقد كان يعالج القضية الأولى ، والقضية الكبرى ، والقضية الأساسية ، في هذا الدين الجديد « قضية العقيدة » ممثلة في قاعدتها الرئيسية .. الألوهية والعبودية ، وما بينهما من علاقة . لقد كان يخاطب بهذه القضية « الإنسان » . الإنسان بما أنه إنسان .. وفي هذا المجال يستوي الإنسان العربي في ذلك الزمان ، والإنسان العربي في كل زمان . كما يستوي الإنسان العربي وكل إنسان في ذلك الزمان وفي كل زمان !

إنها قضية « الإنسان » التي لا تتغير ، لأنها قضية وجوده في هذا الكون ، وقضية مصيره . قضية علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الأحياء ، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء .. وهي قضية لا تتغير ، لأنها قضية الوجود والإنسان !

لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ، ووجود هذا الكون من حوله كان يقول له : من هو ؟ ومن أين جاء ؛ وكيف جاء ، ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف ؟ من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول ؟ ومن ذا الذي يذهب به وما مصيره هنا ؟ .. وكان يقول له : ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه والذي يحس أن وراءه غيباً يستشرفه ولا يراه ؟ من أنشأ هذا الوجود الملىء بالأسرار ؟ من ذا يدبره ومن ذا يحوره ؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذي يراه ؟ .. وكان يقول له كذلك : كيف يتعامل مع خالق هذا الكون ، ومع الكون أيضاً ، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد . وكانت هذه القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود الإنسان . وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده ، على توالي الأزمان ..

.... وهذه السورة ــ مع ذلك ــ تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة .. إنها في كل لمحة منها وفي كل موقف ، وفي كل مشهد ، تمثل « الروعة الباهرة » .. الروعة التي تبده النفس ، وتشده الحس ، وتبهر النفس أيضاً ؛ وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعها وموحياتها مبهوراً . نعم ! هذه حقيقة ؟ حقيقة في نفسي وحسي وأنا أتابع سياق السورة ومشاهدها وإيقاعاتها .. وما أظن بشراً ذا قلب لا يجد منها لونا من هذا الذي أجد .. إن

الروعة فيها تبلغ فعلاً حد البهر . حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهوراً مبدوهاً !
إنها ــ في جملتها ــ تعرض « حقيقة الألوهية » .. تعرضها في مجال الكون والحياة ، كما تعرضها في مجال النفس والضمير ، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود ، كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون .. وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية ، والنشأة الحياتية ، والنشأة الإنسانية ، كما تعرضها في مصارع الغابرين ، واستخلاف المستخلفين .. وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون ، وتواجه الأحداث ، وتواجه النّعماء والضّراء كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة ، وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة .. وأخيراً تعرضها في مشاهد القيامة ، ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ربها الخالق ..

إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة ، بكل مقوماتها وبكل مكوناتها . وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية ، وتطوّف بها في الوجود كله ، وراء ينابيع العقيدة وموحياتها المستسرّة والظاهرة في هذا الوجود الكبير .. إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السمٰوات والأرض ، تلحظ فيها الظلمات والنّور ، وترقب الشمس والقمر والنّجوم . وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات ، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها ؛ وتقف بها على مصارع الأمم الخالية . وآثارها البائدة والباقية . ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر ، وأسرار الغيب والنفس ، والحي يخرج من الميت ، والميت يخرج من الحي ، والحبة المستكنة في ظلمات الأرض ، والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم . ثم تموج بالجن والإنس ، والطير والوحش ، والأولين والآخرين ، والموتى والأحياء ، والحفظة على النفس بالليل والنهار ..

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس ، وأقطار الحس .. ثم إنها اللمسات المبدعة المحيية ، التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال .. وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر ، جديد نابض ، كأنما تتلقاه النفس أول مرة ، وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان !

وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها ، متشابكة معها ؛ في المجرى المتصل المتدفق !

.....روى أبو بكر بن مردويه ــ بإسناده ــ عن أنس بن مالك قال : قال رسول

الله ﷺ « نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سدّ ما بين الخافقين ، لهم زجل بالتسبيح ، والأرض بهم ترتج » . ورسول الله يقول : « سبحان الله العظيم . سبحان الله العظيم » . هذا الموكب ، وهذا الارتجاج ، واضح ظلهما في السورة ، إنها هي ذاتها موكب . موكب ترتج له النفس ، ويرتج له الكون ! .. إنها زحمة من المواقف والمشاهد والموحيات والإيقاعات ! .. وهي — كما قلنا من قبل — تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها ، ومتشابكة معها ، في المجرى المتصل المتدفق . »

فصل : بمناسبة أن سورة الأنعام تعمِّق معاني العقيدة :

الذين يتكلمون عن موضوع تعميق العقيدة يفطنون إلى الكثير ممّا يعمّقها ، وقد يغيب عن بعضهم أشياء ، وهذا التفسير يعتبر من مهمّاته الإشارة إلى مثل ذلك كلما جاءت مناسبة ، وسيستكمل هذا الموضوع في القسم الثاني من هذه السلسلة (سلسلة الأساس في المنهج) ونحب هنا أن نشير إلى نقطة في هذا الموضوع فنقول : إن تعميق الإيمان يحتاج إلى جانبين : جانب نظري وجانب عملي . أما الجانب النظري فيتمثل في الأدلة والبراهين، وأما الجانب العملي فيتمثل في المذكِّرات قال تعالى: ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ (الرعد : ٢٨) والذكر والصلاة من أهم المذكِّرات ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ والأصحاب كانوا مكلفين بأوائل سورة المزّمل التي أمرت بالقيام الطويل ، والذكر الكثير لما في ذلك من آثار على القلب .

وقد يجتمع الجانبان في بعض العبادات : كعبادة التفكر وكقراءة القرآن . فالقرآن يقدّم الدليل وهو في الوقت نفسه مذكّر ، والتفكر نوع تذكّر . وهو الدليل على الدليل . فإذا ما اتضح ذلك فإننا نذكّر القارىء بالإكثار من التفكر في مخلوقات الله ، وبالإكثار من قراءة القرآن ، مع التفكر والتدبر ، ونذكره بالإكثار من الصلاة ومن الذكر بأنواعه من استغفار ، إلى صلاة على رسول الله ﷺ إلى تسبيح وتكبير وتهليل ، إلى غير ذلك من الأذكار ، إذا ما أراد أن ينمو إيمانه ويطمئن قلبه ببرد اليقين .

آثار :

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلًا جملة ، حولها

وأما القسم الثاني في السورة فيمتدّ من الآية (٩٥) حتى نهاية السورة أي نهاية

سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح ، وروى الحاكم بإسناد قال عنه صحيح على شرط مسلم ، عن جابر ، قال لما نزلت سورة الأنعام سبّح رسول الله ﷺ ثم قال : لقد شيّع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق » . وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سدّ ما بين الخافقين ، لهم زجل بالتسبيح ، والأرض بهم ترتجّ ، ورسول الله ﷺ يقول : سبحان الله العظيم . سبحان الله العظيم » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « نزلت عليَّ سورة الأنعام جملة واحدة ، وشيّعها سبعون ألفاً من الملائكة ، لهم زجل بالتسبيح والتحميد » . وروى سفيان الثوري ... عن أسماء بنت يزيد قالت : نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ﷺ إنْ كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة » . وفي رواية أخرى عن أسماء قالت : نزلت سورة الأنعام على رسول الله ﷺ وهو في مسير في زجل من الملائكة وقد نظموا ما بين السماء والأرض » .

أقول : وحول كون السّورة نزلت بمكة كلها دفعة واحدة ، أو أن بعض آياتها نزلت في المدينة خلاف كبير ، مرجعه إلى الاختلاف في قوة بعض الروايات . وقد رجّح صاحب الظلال ، كما رجح غيره من قدماء المفسرين ، أنها نزلت جملة واحدة في مكة ، وناقش آخرون في ذلك ، وسيمر معنا في عرض السورة شيء مما له صلة بذلك .

كلمة في أقسام السورة ومقاطعها :

تتألف سورة الأنعام من قسمين :

القسم الأول ويمتدّ حتى نهاية الآية (٩٤) بدايته بداية السورة : ﴿ **الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ ونهايته قوله تعالى ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون** ﴾ .

لاحظ أن الآية الأولى في القسم الأول تتحدث عن الشرك في الدنيا ، وأن الآية الأخيرة تتحدث عن حال الشرك وأهله يوم القيامة .

الآية(١٦٥) : يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحي** ﴾ وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم** ﴾ .والصلة واضحة بين ما خلق الله للإنسان ، وبين كون الإنسان خليفة على هذه الأرض . ومن تأمل مقدمتي القسمين ومضمونهما اتضح له بما لا يقبل الجدل صلة ذلك بمحور السّورة : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾

يتألف القسم الأول من سورة الأنعام من ثلاثة مقاطع كما سنرى ويتألف القسم الثاني من مقطعين .

كلمة في بعض العلامات التي تدلنا على المقاطع :

من الملاحظ أنّ الآية الأولى في سورة الأنعام مبدوءة بـ (**الحمد لله**) ثم تأتي الآية الثانية مبدوءة بقوله تعالى : (**هو**) ، والآية الثالثة مبدوءة بقوله تعالى : (**وهو**) ثم تتكرر كلمة (**وهو**) في السورة كثيراً كما رأينا ، فكأنها معطوفة على (**هو**) الأولى في السورة ، وإنّ من العلامات التي تحدّد بدايات ونهايات بعض المقاطع في السورة أن نرى (**وهو**) فقد اعتدنا في السياق القرآني أن نرى مقطعاً تشبه بدايته نهايته ، ولذلك نرى أن آخر مقطع في السورة بدايته ﴿ **وهو الذي أنشأ جنات معروشات** ﴾ .

فأول آية فيه مبدوءة بقوله تعالى : (**وهو**) وآخر آية فيه مبدوءة بقوله تعالى : (**وهو**) . ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ..** ﴾

وقد نرى مقاطع ليست مبدوءة بمثل هذا ولا مختومة بمثله ، وقد نرى مقاطع مبدوءة بذلك وليست مختومة به ، ولقد جرينا على أن نعتمد مثل هذه العلامات حيث وجدت وساعد المعنى في تحديد بداية المقطع أو نهايته ، ولكن الشيء الأكثر تحديداً والذي يجعلنا نحدّد به المقطع أو القسم بشكل دائم بداية ونهاية هو المعنى . وسنرى ذلك واضحاً في هذه السورة .

وكما قلنا فإن السورة تنقسم إلى قسمين كبيرين ، وكل قسم يتألف من أكثر من مقطع ، وسنرى كيف أنّ المعاني مع بعض العلامات تحدّد لنا الأقسام والمقاطع على صعوبة ذلك لقوة تلاحم معاني السّورة حتى قال صاحب الظلال : « **فلا يمكن تجزئة**

السورة إلى مقاطع ، كل منها يعالج جانبا من الموضوع **إنّما هي موجات .. وكل موجة** تتفق مع التي قبلها وتكمّلها » ولكن ومع كون السّورة موجات ، **فسنرى كيف أن** نقاط علام واضحة تحدّد لنا أقسام السورة **ومقاطع كل قسم** .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول من القسم الأول في السّورة :

ويمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (١٧) وهذا هو :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾

وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ * وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

كلمة في تحديد المقطع :

سيأتي بعد الآية الأخيرة من هذا المقطع قوله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ . وهي أوّل آية مبدوءة بقوله تعالى (**وهو**) بعد الآية الثالثة من السّورة ، وهي علامة من جملة العلامات التي نستأنس بها لتحديد المقطع .

فالذي دلّنا على نهاية المقطع المعنى من ناحية ، وأن هناك أكثر من دليل نستأنس به لبداية المقطع اللاحق ونهايته ، وتحديد بداية ونهاية المقطع اللاحق هو تحديد ضمني للمقطع السابق .

كلمة في المقطع الأول :

قلنا إن محور سورة الأنعام من سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

وفي المقطع الأول من سورة الأنعام تأتي الآيات الثلاث الأولى لتقرر هذه المعاني وتبني عليها ، فتقرّر أنّ الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض ، وخلق الظلمات والنّور . وتقرّر أنّ الله عزّ وجل خلق الإنسان من طين ، وجعل له أجلًا ، ثم جعل أجلا أخيراً للبشر جميعاً ، وأن لله الألوهية في السمٰوات والأرض ، وأنه يعلم السرّ والجهر ، ومع ذلك فالنّاس يشركون بربهم ، ويشكّون بالله واليوم الآخر .

إن الآيات الثلاث الأولى التي تشكّل مقدمة السورة ، تتكلم عن كل معاني المحور ، وتقرر ما قرّرته ، وتبني على ذلك ، وتتحدث عن كفر الإنسان وشكّه وافترائه ، فالصلة واضحة جداً بين مقدّمة السورة في آياتها الثلاث ، وبين محور سورة الأنعام من البقرة ، وإذ كان محور السورة يعجّب من كفر الكافرين ، فإن الآيات السبع التي تأتي بعد المقدمة تحدّثنا عن مواقف الكافرين إذا جاءتهم الآيات ، وكيف أنهّم يكذّبون بالحق إن جاءهم ، وأنه لو أُنزل عليهم كتاب من السماء فلمسوه لزعموا أنه سحر ، وكيف أنهم يقترحون أن ينزل على الرسول ملك ، وخلال ذلك يلفت الله عز وجل نظرهم إلى القرون الماضية ليعتبروا ، وأما كون بعثة الرسول ﷺ من البشر فذلك مقتضى حكمة الله عز وجل وابتلائه ، وبيّن الله عز وجل لرسوله ﷺ أن الاستهزاء بالرّسل صلوات الله وسلامه عليهم سنّة ماضية ، وأن عقوبة الله لهؤلاء المستهزئين سنة ماضية ، وهكذا نجد أن الفقرة التي تأتي بعد مقدمة سورة الأنعام كلها تصبّ في النقاش المباشر مع الكافرين . وصلة ذلك بمحور السورة من البقرة واضحة : ﴿ **كيف تكفرون بالله** ... ﴾ .

ثم يختم المقطع بأوامر توجّه إلى رسول الله ﷺ تأمره أن يعلن فيها مجموعة إعلانات وبأن يقول مجموعة أقوال ، قول يأمرهم به أن يسيروا في الأرض ليكتشفوا عاقبة المكذّبين ، وقول يُوجّه لهم فيه سؤالًا عن السمٰوات والأرض لمن هي ، ثمّ يقرّر أنها لله عز وجل ، وقول يعلن فيه رسول الله ﷺ أنّه لا يتخذ ولياً إلا الله ، وقول يعلن فيه رسول الله ﷺ خوفه من الله وخشيته من عذابه يوم القيامة ، وهكذا نجد أن المقطع

الأول في السورة فصَّل في مضمون محور السورة ، وبنى عليه وناقش الكافرين . وبيّن الموقف الصّحيح لأهل الإيمان ، وكل ذلك كان ضمن سياق السورة الخاص الذي يبدأ بالتعريف على الله عز وجل ، وما تقتضيه هذه المعرفة من شكر لله عز وجل ، ثم تبدأ السورة في مناقشة الكافرين ، وتبيان الخطأ في مواقفهم ، وتعلّم أهل الإيمان ماهيّة الموقف الحق . فإذا اتضح محل المقطع بالنسبة للسياق القرآني العام ، وأن لسورة الأنعام سياقها الخاص بها . فلنبدأ بعرض المعاني العامة للمقطع الأول :

المعنى العام :

يبدأ الله عز وجل السورةَ مادحاً نفسَه الكريمة ، وحامداً لها على خلقه السمٰوات والأرض لعباده ، وجعله الظلمات والنور منفعة لعباده ، وقد جمع لفظ الظلمات ووحدّ لفظ النور لكونه أشرف ، وبيّن أنه مع هذا كُله كَفَر به أكثر عباده ، وجعلوا له شريكاً وعدلًا ، واتخذوا له صاحبة وولداً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ثمّ بيّن تعالى أنّه خلق أبانا آدم ــ الذي هو أصلنا ومنه خرجنا من طين ، فانتشرنا في المشارق والمغارب . وقد قضى لكل إنسان أجله الخاص ، وقدّر وقضى لهذا العالم كله أجله وهو عمر الدنيا بكمالها ، ثم انتهاؤها وقضاؤها وزوالها وانتقالها ، والمصير إلى الدار الآخرة . وهذا أمر لا يعلمه إلا هو ، ومع هذا فإنّ النّاس يشكّون في أمر الساعة ، وقد بيّن استحقاقه للحمد ، وكمال قدرته ، ومظاهر هذه القدرة ، ومظاهر إنعامه على خلقه ، وكيف أنّه مع ذلك يشرك به من أشرك ، ويشكّ باليوم الآخر من يشك ، ومن هذه المقدمة ندرك أن المحور العام للسورة مناقشة الكفر وأهله ، وتقرير قدرة الله ، والتدليل على عنايته لاستخراج الشكر وإكمال المعرفة بالله ، وهذه القضايا هي التي نجدها في آيتي سورة البقرة اللتين قلنا عنهما إنهما محور سورة الأنعام .

ثمّ بدأ الكلام بعد المقدمة مقرِّراً أنه تعالى هو المدعو والمسمى الله في السمٰوات وفي الأرض ، أي يعبده ويوحّده ويقر له بالإلهية من في السمٰوات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رغبا ورهباً ، إلا من كفر من الجن والإنس ، وأنه يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض من سرّ وجهر ، فيعلم سرّنا وجهرنا ، ويعلم كسبنا وجميع أعمالنا ، خيرها وشرها ، وبعد أن يخبر سبحانه عن ربوبيته للسمٰوات والأرض ، وإحاطة علمه بما فيها ، يخبر عن المشركين المكذّبين المعاندين أنهم كلّما أتتهم آية أي : دلالة ومعجزة وحجّة مّما يدلّ على وحدانية الله ، وصدق رسله الكرام ، فإنهم

يُعرضون عنها ، فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها . وكمثال على ذلك تكذيبهم بالقرآن الذي هو أعظم آية وأكبرها إعجازاً ، ثمّ هدّدهم وتوعّدهم وعيداً شديداً على تكذيبهم بالحق ، بأنه لابدّ أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، وليجدُنَّ غِبّه وليذوقُنَّ وباله ، ثم قال تعالى واعظاً ومحذّراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنّكال الدنيوي ما حلّ بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة ، الذين كانوا أشدّ منهم قوّة وأكثر جمعاً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، واستعلاءً في الأرض وعمارة لها ، أعطاهم من الأموال والأولاد والأعمال والجاه العريض ، والسّعة والجنود ، وأكثر عليهم من أمطار السماء ، وينابيع الأرض ، استدراجاً وإملاءً لهم ، ثم أهلكهم بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترحوها ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ليختبرهم ، فعملوا مثل أعمالهم فأهلكوا كإهلاكهم .

إنّ الإنسان لو تأمّل هذا الموضوع ، فتأمّل فعل الله في الأمم السالِفة فإنّه يتّعظ ويؤمن ، ويترك الكبر والكفر ، ويعمل لله ، ويعمل لآخرته ، ويوقن أنّه كان واجب السابقين الشكر لم يشكروا ، وأنّ واجب اللاحقين الشكر فليشكروا ، والمتأمل يرى كيف أن المقطع يسير على نسق المحور العام لسورة الأنعام في مناقشة الكافرين ، بالتدليل على قدرة الله ، واستخراج شكره ، والتهييج على معرفته ، وتقرير الرجوع إليه . ثمّ يستمرُّ المقطع بالإخبار عن المشركين ، وعنادهم ومكابرتهم للحق ، ومباهتتهم ومنازعتهم فيه ، حتى لو أنزل عليهم كتاب من السماء فعاينوه ورأوا إنزاله ، وباشروا ذلك لقالوا : إنّ هذا سحر واضح ، فالعلّة في كفر الكافرين إذن هي مرضهم لا قلّة الآيات ولا انعدامها ، فالآيات موجودة وكثيرة ، ولكن طبيعتهم الجاحدة هي التي تستكبر عن الرؤية والإيمان ، وكأثر عن هذه الطبيعة الكافرة الجاحدة اقتراحهم الاقتراحات من أجل الإيمان — في زعمهم — وهم كذبة ، ومن اقتراحاتهم ما قصّه الله علينا في هذا السياق أنهّم اقترحوا أن ينزل عليهم ملك من السماء ليكون مع رسول الله نذيراً . وقد ردّ الله عليهم أنّه لو نزّل الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب ، فتلك سنّة الله ، ثمّ بيّن لهم أنّه حتى لو أنزل مع الرسول البشري مَلَكاً ، أي : لو بعث إلى البشر رسولاً ملكياً لكان على هيئة الرجل لتمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ منه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبّسون على أنفسهم في قبول رسالة الرّسول البشريّ ، فلو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل ؛ لأنهم لا يستطيعون النّظر إلى الملائكة من النّور ، وفي هذه الحالة يبقى الالتباس ، والخلاصة أنهم اقترحوا نزول الملك وذلك يخالف السُّنن ؛ لأن الملك من عالم الغيب ، وقد أمروا أن يؤمنوا بالغيب ؛ ممتحَنين في ذلك ، وهم لا يقومون بواجبهم ويقترحون على الله تغيير سننه ، ولو أنّه

سبحانه غيرها لما أفادهم ذلك شيئاً ، لأنّ العلّة في الأصل موجودة فيهم . فالعلّة هي الطبيعة الكافرة الجاحدة ، ولاشكّ أنّ اقتراح الآيات والمقترحات الفاسدة وتعليق الإيمان عليها يجرح قلب رسول الله ﷺ المكلّف من الله بالدعوة إليه ، ومن ثمّ اتجه السياق ليعزّي رسول الله ﷺ بأنّ رسلاً من قبله قد استهزىء بهم ، فأحاط بأقوامهم العذاب ونزل بهم في النهاية ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذّبه من قومه ، ووعدٌ له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة ، ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للناس : أن يضربوا في الأرض معتبرين فينظروا ما أحلّ الله بالقرون الماضية ــ الذين كذبوا رسله وعاندوهم ــ من العذاب والنّكال والعقوبة في الدنيا مع ما ادّخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة ، وكيف نجّى رسله وعباده المؤمنين ، هذا هو المعنى الأوّل الذي أمر رسول الله ﷺ أن يقوله للناس ، ثم أمره أن يوجّه لهم سؤالًا ، وأن يجيب على هذا السؤال ، وأن يبني عليه ، أمره أن يسألهم لمن ما في السموات والأرض ، وأن يجيب هو على هذا السؤال بأن الله هو مالك السموات والأرض ، وأن الله الذي هو مالك السموات والأرض قد كتب على ذاته المقدسة الرحمة ، وأقسم بذاته المقدسة أنه سيجمع عباده يوم القيامة ، وذلك من مظاهر رحمته ، وأخبرنا عن هذا اليوم بأنّه هو اليوم الذي لا شك في وقوعه ، ولا ريب عند عباد الله المؤمنين فيه ، فأما الجاحدون المكذّبون فهم في ريبهم يترددون ، وهم سيخسرون أنفسهم يوم القيامة ؛ لعدم تصديقهم بالمعاد ؛ وعدم خوفهم شرّ ذلك اليوم . والله الذي هو مالك ما في السموات وما في الأرض ، مالك كل دابّة في السموات والأرض ، الجميع عباده وخلقه ، وتحت قهره وتصرّفه وتدبيره لا إله إلا هو ، وهو السّميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم ، وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ بالأمرين السابقين أمره أن يأمرهم بالاعتبار ، وأن يبلّغهم مالكية الله لما في السموات والأرض ورجوع الخلق إليه ، أمره أن يعلن ، أنّه ــ أي رسول الله ــ لا يتخذ وليّاً إلا الله الذي خلق السموات والأرض ، الذي أبدعهما على غير مثال سبق ، إذ هو الرّازق لعباده من غير احتياج إليهم ، ثمّ أمر أن يعلن أنّه أُمر أن يكون أول الناس إسلاماً وألّا يكون مشركاً ، ثم أمره أن يعلن أنه يخاف عذاب الله العظيم إن عصاه ، وهو العذاب الذي من صرفه الله عنه فقد رحمه ، وذلك أعظم أنواع الفوز ، وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للكافرين ما رأينا ، وأن يعلن لهم ما مرّ معنا ، بيّن لرسوله أنّه هو الله مالك الضّر والنّفع ، وأنّه المتصرّف في خلقه بما يشاء ، لا معقّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ، وأنّه لا يكشف الضّرّ إلا هو ، ولا يصيب بالخير إلا هو ، وإذا أراد أن يصيب أحداً بضرٍّ فلا يكشفه أحد ، وإذا أراد أن

يصيب أحداً بخير فإنّه القادر على كل شيء . ومجيء الآية الأخيرة في سياق الأمر بالتّبليغ والأمر بالإعلان واضح الحكمة ؛ إذ قد يترتب على البيان أو الإعلان ضرر ، فوضّح أنّ النّفع والضّر بيد الله وحده ، فليطمئن رسول الله ﷺ ومن بعده المؤمنون .

ومن خلال هذه المعاني ندرك كيف أنّ المقطع عرّفنا على الله ، وناقش الكفرة ولفت نظر الكافرين ليعتبروا ، وردّ على اقتراح من مقترحاتهم ، وأمر رسوله أن يبلغهم معاني ، وأن يعلن لهم مواقف ، وطمأنه على النتيجة .

فائدة :

إنّ الجحود والإنكار واقتراح الآيات علاجه ما ذُكر في هذا المقطع ، ومن ثمّ فإنّ على دارس المقطع أن ينتبه إلى ما لفت إليه النظر ، وأن ينتبه إلى الأوامر المصدرة بكلمة (قل) فإنها تمثّل الموقف المداوي والمكافىء لمواقف الكافرين .

المعنى الحرفي :

﴿ **الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور** ﴾ هذا تعليم بأن من خلق يستحق الحمد ، وإن لم يحمده الجاحدون . وفي كتابنا « الله جل جلاله » من سلسلة الأصول الثلاثة تحدثنا عن ظاهرة حدوث الكون ، وعن ظاهرة الحكمة فيه ، وكيف أنهما يدلّان على الله بما لا يقبل الجدل ، فليراجع . وفي قوله تعالى : ﴿ **خلق السمٰوات والأرض** ﴾ إشارة إلى ظاهرة الحدوث وفي قوله : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ إشارة إلى ظاهرة الحكمة ، وأن الواجب لله الشكر على ما خلق وجعل ، ومعنى جعل هنا : أحدث وأنشأ والمجوس يقولون : بقدم الظلمة والنور . والماديون يقولون : بقدم العالم . وفي النّص ردٌّ على الجميع وفي كتابنا المذكور رد علمي وعقلي على فكرة قدم المادّة ، وأفرد النّور لإرادة الجنس ؛ ولأنّ ظلمة كل شيء تختلف باختلاف ذلك الشيء فظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الموضع المظلم يخالف كل واحد منهما صاحبه ، والنّور ضرب واحد لا يختلف كما تختلف الظلمات ، وحتى في الظلمة القلبية فظلمة الكفر غير ظلمة النفاق ، وظلمتهما غير ظلمة الفسوق ، ونور الهداية واحد ﴿ **ثمّ الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ أي : ومع هذا كله فإن الكافرين يساوون به غيره . تقول : عدلت هذا بهذا إذا ساويته به ، واستعمال (**ثمّ**) في المقام يفيد استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته ، فما أفظع فعلهم ! إنّه بدلًا من أن يحمدوه كفروا نعمته وعدلوا به سواه مما لا يقدر على شيء من الخلق .

﴿ **هو الذي خلقكم من طين** ﴾ . أي ابتدأ خلق أصلكم أي آدم منه ﴿ **ثم قضى أجلًا** ﴾ . أي : حكم بالموت وقدّره وقضاه ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾ . أي : أجل القيامة ، ويحتمل أن يكون المراد بالأجل الأول : ما بين أن يخلق الإنسان إلى أن يموت . وبالأجل الثاني البرزخ : وهو ما بين الموت والبعث ، ويحتمل أن يكون المراد بالأجل الأول : النوم ، وبالثاني : الموت . ويحتمل أن يكون المراد بالأجل الثاني هو الأول ويكون التقدير : ثمّ قضى أجلًا مسمّى عنده أي معلوم ﴿ **ثمّ أنتم تمترون** ﴾ تحتمل أن تكون من المرية فيكون المعنى : ثم أنتم تشكون ، ويحتمل أن يكون من المراء فيكون المعنى ثم أنتم تجادلون ويفيد مجيء (ثم) في هذا المقام استبعاد أن يمتروا فيه بعدما ثبت أنّه محييهم ومميتهم ﴿ **وهو الله في السمٰوات وفي الأرض** ﴾ . أي : وهو المعبود فيهما ، أو هو المعروف بالإلهية فيهما ، أو هو الذي يقال له الله فيهما ﴿ **يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون** ﴾ . أي من الخير والشرّ ويثيب عليه ويعاقب .

كلمات ونقول في الآيات الثلاث :

هذه الآيات الثلاث هي مقدمة السورة ، كما أنهّا مقدمة المقطع الأول ، وبحكم أنهّا مقدمة السّورة فهي تشير إلى مضمونها ، وإذ كان مضمون السورة مرتبطاً بمحور السّورة من البقرة ، فإن هذه الآيات الثلاث تكاد تعرض لمحور السورة بشكل واضح .

ولنعقد مقارنة بين محور سورة الأنعام من سورة البقرة وهذه المقدمة :

﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثمّ يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ هذه هي الآية الأولى في المحور ، لاحظ صلتها بالآية الثانية من مقدمة سورة الأنعام :

﴿ **هو الذي خلقكم من طين ثمّ قضى أجلًا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون** ﴾ . والآية الثانية في محور السورة هي : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثمّ استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

لاحظ صلة معانيها بالآية الأولى والثالثة من مقدمة سورة الأنعام ﴿ **الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور ...** ﴾ ﴿ **وهو الله في السمٰوات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم** ﴾ إن محور سورة الأنعام من سورة البقرة يعجّب من كفر الكافرين ، وينكر عليهم ، ومقدمة سورة الأنعام تدلّنا على الشكر بدل الكفر ﴿ **الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض** ﴾ كما أنها تعرض علينا مواقف الكافرين ﴿ **ثمّ الذين كفروا**

بربهم يعدلون ﴾ ﴿ **ثمّ أنتم تمترون** ﴾ . لقد أقامت الآيتان اللتان هما محور سورة الأنعام من سورة البقرة الحجة على الكافرين من خلال ظاهرتي الحياة والعناية ، وكلاهما مرتبط بظاهرة الخلق ، وههنا تتحدث الآيات الثلاث عن هذه الظواهر كلها ، وفي هذه الآيات الثلاث يقول صاحب الظلال :

« إن هذه الموجة العريضة الشاملة في مطلع السورة ، إنّما تخاطب القلب البشري والعقل البشري بدليل « الخلق » ودليل « الحياة » ممثلين في الآفاق وفي الأنفس ، ولكنها لا تخاطب بهما الإدراك البشري خطاباً جدلياً ، لاهوتياً أو فلسفيا ! ولكن خطاباً موحياً موقظاً للفطرة ، حيث يواجهها بحركة الخلق والإحياء ، وحركة التدبير والهيمنة ؛ في صورة التقرير لا في صورة الجدل ؛ وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله ؛ ومن شهادة الفطرة الداخلية بصدق هذا التقرير فيما تراه . ووجود السماوات والأرض ، وتدبيرهما وفق هذا النظام الواضح ؛ ونشأة الحياة ــ وحياة الإنسان في قمتها ــ وسيرها في هذا الخط الذي سارت فيه ، كلاهما يواجه الفطرة البشرية بالحق ، ويوقع فيها اليقين بوحدانية الله ، والوحدانية هي القضية التي تستهدفها السورة كلها ــ القرآن كله ــ وليست هي قضية (**وجود**)الله . فلقد كانت المشكلة دائماً في تاريخ البشرية هي مشكلة عدم معرفة الإله الحق ، بصفاته الحقه ؛ ولم تكن هي مشكلة عدم الإيمان بوجود إله !

... ودليل الخلق ودليل الحياة كما أنهما صالحان لمواجهة المشركين لتقرير الوحدانية ، ولتقرير الحاكمية ، هما كذلك صالحان لمواجهة اللوثات الجاهلية الحديثة التافهةفي إنكار الله . والحقيقة أن هناك شكاً كثيراً فيما إذا كان هؤلاء الملحدون يصدقون أنفسهم ! فأغلب الظن أنها بدأت مناورة في وجه الكنيسة ؛ ثم استغلّها اليهود لرغبتهم في تدمير قاعدة الحياة البشرية الأساسية ، كي لا يبقى على وجه الأرض من يقوم على هذه القاعدة غيرهم ــ كما يقولون في بروتوكولات حكماء صهيون ــ ومن ثم تنهار البشرية وتقع تحت سيطرتهم ، بما أنهم هم وحدهم الذين سيحافظون على مصدر القوة الحقيقية الذي توفره العقيدة !

.... إن وجود هذا الكون الذي ابتدأ بهذا النظام الخاص ، يستلزم – بمنطق الفطرة البديهي وبمنطق العقل الواعي على السواء ــ أن يكون وراءه خالق مدبّر ، فالمسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يملك الإدراك البشري أن يعبرها ، إلا بتصور إله ينشىء ويخلق ويوجد هذا الوجود . .... كذلك نشأة هذه الحياة . والمسافة بينها وبين المادة ــ أياً كان مدلول المادة

ولو كان هو الإشعاع ـ لا يمكن تعليلها إلا بتصور وجود إله خالق مدبّر . يخلق الكون بحالة تسمح بنشأة الحياة فيه ؛ وتسمح بكفالة الحياة أيضاً بعد وجودها . والحياة الإنسانية بخصائصها الباهرة درجة فوق مجرّد الحياة ... ولابد من إرادة مدبِّرة تمنح الإنسان الحياة ، وتمنحه خصائص الإنسان .

....إن التعليل الإسلامي لانبثاق الحياة في درجاتها المتفاوتة هو الحل الوحيد لهذه الظاهرة التي لا تعللها المحاولات المادية البائسة !» .

* * *

ولنعد إلى عرض المعنى الحرفي ، فبعد المقدمة تأتي مجموعتان في المقطع الأول :

مجموعة تبين بعض مواقف الكافرين ، وتناقشهم ، وتحذرهم ، ومجموعة تأمر رسول الله ﷺ أن يخاطبهم بمعان :

﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم** ﴾ أي : وما يظهر لهم دليل قط من الأدلّة التي يجب فيها النظر والاعتبار وتؤدي إلى الإيمان ﴿ **إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ . أي : إلا كانوا تاركين للنظر فيها لا يلتفتون إليها لقلة خوفهم وتدبّرهم في العواقب وأعظم آية القرآن ، وأعظم دليل على إعراضهم عن الآيات تكذيبهم له ﴿ **فقد كذبوا بالحق** ﴾ . أي بالقرآن وهو أعظم آية وأكبرها ، بدليل أنهم تُحدّوا فعجزوا عنه ﴿ **لما جاءهم** ﴾ . أي حين جاءهم ﴿ **فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون** ﴾ . أي فسوف يأتيهم أنباء الشيء الذي كانوا به يستهزؤون وهو القرآن ، أي أخباره وأحواله يعني : سيعلمون بأي شيء استهزءوا ، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا ، أو يوم القيامة ، أو عند ظهور الإسلام وعلوّ كلمته ﴿ **ألم يروا** ﴾ . أي : هؤلاء المكذّبون ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من قرن** ﴾ القرن : هو مدة انقضاء أهل كل عصر ﴿ **مكنّاهم في الأرض ما لم نُمكّن لكم** ﴾ الخطاب هنا أول ما يتوجه لأهل مكة لأنهم أوّل من خوطب بهذا القرآن ، والتمكين في البلاد إعطاء المكنة ، والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم ، من البسطة في الأجسام ، والسّعة في الأموال ، والاستظهار بأسباب الدنيا ﴿ **وأرسلنا السماء عليهم مدراراً** ﴾ . أي : وأرسلنا المطر عليهم كثيراً ﴿ **وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم** ﴾ . أي : من تحت أشجارهم والمعنى : عاشوا في الخصب بين الأنهار والثمار وسُقوا الغيث المدرار ﴿ **فأهلكناهم بذنوبهم** ﴾ ولم يغن عنهم سلطانهم وما كانوا فيه شيئاً ﴿ **وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين** ﴾ . أي : جيلاً آخر بدلاً منهم لنختبرهم ، فعملوا مثل أعمالهم ، فأهلكوا كإهلاكهم ، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فما أنتم بأعز على الله منهم ، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم فأنتم أولى بالعذاب

ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

فوائد :

١ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فأهلكناهم بذنوبهم** ﴾ يقول صاحب الظلال :

« وهي حقيقة ينساها البشر حين يُمكّن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تمّ بمشيئة الله ؛ ليبلوهم فيه : أيقومون عليه بعهد الله وشرطه من العبودية له وحده ، والتلقي منه وحده ـ بما أنه صاحب الملك وهم مستخلَفون فيه ـ أم يجعلون من أنفسهم طواغيت تدّعي حقوق الألوهية وخصائصها ؛ ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرّف المالك لا المستخلَف .. إنها حقيقة ينساها البشر ـ إلا من عصمهم الله ـ وعندئذ ينحرفون عن عهد الله ، وعن شرط الاستخلاف ؛ ويمضون على غير سنة الله ؛ ولا يتبيّن لهم في أوّل الطريق عواقب هذا الانحراف ، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون .. حتى يستوفي الكتاب أجله ؛ ويحق وعد الله .. ثم تختلف أشكال النّهاية : مرّة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال ـ بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام ـ ومرة يأخذهم بالسنين ، ونقص الأنفس والثمرات ـ كما حدث كذلك لأقوام ـ ومرّة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض ؛ فيعذب بعضهم بعضاً ، ويدمّر بعضهم بعضاً ، ويؤذي بعضهم بعضاً ، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً ؛ فتضعف شوكتهم في النهاية ؛ ويسلط الله عليهم عباداً له ـ أو عصاة ـ يخضدون شوكتهم ، ويقتلعونهم ممّا مُكّنُوا فيه ؛ ثمّ يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم .. وهكذا تمضي دورة السُّنّة .. السعيد من وعى أنها السنة ، ومن وعى أنه الابتلاء ؛ فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه . والشقي من غفل عن هذه الحقيقة ، وظنّ أنه أوتيها بعلمه ، بحيلته ، أوتيها جزافاً بلا تدبير .

وإنه لممّا يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستهتر الفاسد ، أو الملحد الكافر ، مُمكَّناً في الأرض ، غير مأخوذ من الله .. ولكن النّاس إنما يستعجلون ، إنهم يرون أوّل الطريق أو وسطه ؛ ولا يرون نهاية الطريق .. ونهاية الطريق لا تُرى إلا بعد أن تجيء ! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث .. والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون ـ في حياتهم الفردية القصيرة ـ نهاية الطريق ؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم ويحسبونه نهاية الطريق !

إنّ هذا النّص في القرآن : ﴿ **فأهلكناهم بذنوبهم** ﴾ .. وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً

في القرآن الكريم .. إنما يقرّر حقيقة ، ويقرر سنّة ، ويقرّر طرفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ .. إنه يقرر حقيقة الذنوب تهلك أصحابها ، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم ؛ وأن هذه سُنة ماضية ــ ولو لم يرها فرد في عمره القصير ، أو جيل في أجله المحدود ــ ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب ؛ وحين تقوم حياتها على الذنوب .. كذلك هي جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ : فإنّ هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال ؛ من عوامله ، فعل الذنوب في جسم الأمم ؛ وتأثيرها في إنشاء حالة تنتهي إلى الدمار ؛ إما بقارعة من الله عاجلة ، وإما بالانحلال البطيء الفطري الطبيعي ، الذي يسري في كيان الأمم ــ مع الزمن ــ وهي توغل في متاهة الذنوب !

وأمامنا في التاريخ القريب ــ نسبياً ــ الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي ، والدعارة الفاشية ، واتخاذ المرأة فتنة وزينة ، والترف والرخاوة ، والتلهي بالنعيم .. أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان ــ وقد أصبحوا أحاديث ــ وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله ، وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة ، كفرنسا وانجلترا ــ كذلك ــ على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض .

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها .. ولكن هذا التفسير يضطر إلى مماحكات مضحكة في تفسير أحداث وأطوار في حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على أساس القاعدة الاعتقادية .

والتفسير الإسلامي ــ بشموله وجديّته وصدقه وواقعيّته ــ لا يغفل أثر العناصر المادية ــ التي يجعلها التفسير المادي هي كل شيء ــ ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة ؛ ويبرز العناصر الفعالة الأخرى .. التي لا ينكرها إلا أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود .. يبرز قدر الله من وراء كل شيء ؛ ويبرز التغيّر الداخلي في الضمائر والمشاعر ، والعقائد والتصوّرات ؛ ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي .. ولا يغفل عاملًا واحداً من العوامل التي تجري بها سنَّة الله في الحياة » .

٢ ــ في قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم** ﴾ يمكن أن نحمل الآية على المخاطبين الأوّلين فيها وهم أهل مكة ، وعندئذ يكون واضحاً أن الأمم السابقة ، والأقوام السابقين قد مُكّن لهم ما لم يمكّن لأهل

مكة وما لم يوسّع عليهم ، وكل مكذّب يأخذ عبرة من هذا الخطاب ، ويمكن أن نحمل الآية على أن المخاطبين بها العرب ، وواضح أن ما أعطى الله الأمم الأخرى والأجيال السابقة ، كبني إسرائيل ، والرومان ، واليونانيين ، والصينيين ، والمصريين ، لم يعطه العرب ، وكل قوم يستطيعون الاعتبار بهذا الخطاب ، والسؤال : هل يمكن أن نجعل الخطاب للأجيال كلها بعد نزول القرآن ؟ إننا إن حملنا الآية هذا الحمل فهذا يحتاج منا إلى إثبات أنه قد مرّت قرون قبل نزول القرآن مكّنت في الأرض ما لم تمكن به القرون اللاحقة على نزول القرآن حتى عصرنا ، ونقول نحن نحتاج إلى إثبات بسبب أن النص القرآني يحتمل ، والذي نقوله : إن من ينظر إلى مثل سدّ الصين العظيم ، والأهرام ، وآثار بعلبك ، وشبكة المياه الجوفية الموجودة في بلاد الشام من عصر الرومان ، وما يقال إن المناخ العالمي قد تغيرّ ، وأن الجفاف يزداد ، وأن المناطق الصحراوية تمتد ، وما يقال تاريخياً عن تمكين أقوام بأعيانهم في الأرض ، أما التمكين الحالي ففي الغالب ليس تمكيناً لأقوام بل لشعوب من مجموعة أقوام ، أو لدول ، أو لاتحادات ، إن مثل هذه المعاني تجعلنا نقول باحتمال النص للفهم الأخير . والله أعلم .

ولنرجع إلى عرض آيات المجموعة الأولى فبعد أن وضّح الله إعراضهم عن الآيات ، وتكذيبهم للقرآن ، ووعظهم بما أصاب الأمم السابقة ، عاد إلى تبيان طبيعتهم الجاحدة ، فقال : ﴿ **ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس** ﴾ القرطاس الورق ، والكتاب المكتوب ﴿ **فلمسوه بأيديهم** ﴾ . أي : اجتمع لهم مع المعاينة اللمس ﴿ **لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ . أي : واضح وإنما يقولون ذلك تعنّتاً ، وعناداً للحق بعد ظهوره ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك** ﴾ . أي : وقالوا : هلا أنزل على النبي ﷺ ملك يعلمنا أنّه نبي ﴿ **ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر** ﴾ . أي لقضي أمر هلاكهم ﴿ **ثم لا ينظرون** ﴾ . أي ثمّ لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين ، لأنهم إذا شاهدوا مَلكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون ، ومجيء (ثمّ) في هذا المقام يفيد أنّ عدم الإنظار أشدّ من قضاء الأمر ، لأنّ مفاجأة الشّدة أشد من نفس الشّدة ﴿ **ولو جعلناه ملكاً** ﴾ . أي : ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا (لأنهم كانوا يقولون تارة لولا أنزل على محمد ملك ، وتارة يقولون ما هذا إلا بشر مثلكم ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة) ﴿ **لجعلناه رجلاً** ﴾ . أي لأرسلناه في صورة رجل ﴿ **وللَبسنا عليهم مايلبسون** ﴾ . أي لخلطنا وأشكلنا عليهم من أمره إذا كان ، فيسلكون معه كسلوكهم معك يا محمد ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة الإنسان هذا إنسان وليس بملك ،

يقال : لَبَست الأمر على القوم وألبسته إذا أشبهته وأشكلته عليهم .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بتعريفنا على الله ، وعلى إحاطة علمه من خلال ظاهرتي الحياة والعناية ، أو من خلال ظاهرة الخلق ، ودلّتنا على أن مقتضى الخلق الحمد ، وبينت لنا أن من مواقف الكافرين الشرك والشك . ثمّ ذكرت السورة موقف الكافرين من الآيات ، ولفتت نظرهم إلى مصارع الكافرين . ثمّ بينت لنا أنّ سبب الكفر ليس مرتبطاً بقلّة الآيات ، بل بشيء آخر ، حتى إن الكافرين لو أنزل عليهم كتاب من السماء فلمسوه بأيديهم لقالوا عن ذلك إنه سحر ، فالعلّة فيهم إذ كفروا .

ثمّ جاءت آية تذكر لنا نموذجاً على اقتراحاتهم المتعنتة المستهزئة ، ثم جاء الردّ عليهم بآية ، وسيأتي تهديد لهم في آية لاحقة ، ثمّ تأتي بعد ذلك المجموعة الثانية وفيها إيضاحات لما ينبغي أن يقال لهم . وهكذا نجد أن النقاش الذي بدأ في محور سورة الأنعام من سورة البقرة مع الكافرين تأتي تفصيلاته هنا .

فوائد :

١ ـــ في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس** ﴾ قال الألوسي :

« وعن الكلبي : وغيره أنها نزلت في النضر بن الحارث . وعبد الله بن أبي أمية . ونوفل بن خويلد لما قالوا لرسول الله ﷺ يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله . وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك** ﴾ قال الألوسي : أخرج ابن المنذر . وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحق قال : « دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم فيما بلغني فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب . والنضر ابن الحارث بن كلدة . وعبد بن عبد يغوث . وأبي بن خلف بن وهب . والعاص بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويُرى معك فأنزل الله تعالى قوله سبحانه : ﴿ **وقالوا لولا أنزل** ﴾ الخ ..

٢ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثمّ لا ينظرون** ﴾ قال الألوسي : وقد قيل : إن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـــ وهُم هُم ـــ إنما رأوا

الملك في صورة البشر ولم يره منهم على صورته غير النبي ﷺ رآه كذلك مرتين مرة في الأرض بجياد ومرة في السماء ، ولا يخفى أن هذا محتاج إلى نقل عن الأحاديث الصحيحة والذي صحّ من رواية الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رأى جبريل عليه السلام مرتين كما ذكر على صورته الأصلية لكن ليس فيه أن أحداً من إخوانه الأنبياء غيره عليه الصلاة والسلام لم يره كذلك ، ولم يرد هذا ــ كما قال ابن حجر وناهيك به حافظاً في شيء من كتب الآثار ، وأما رؤية النبي ﷺ وكذا رؤية غيره من الأنبياء غير جبريل عليه السلام ، على الصورة الأصلية فهي جائزة بلا ريب ، وظاهر الأخبار وقوعها أيضاً لنبينا عليه الصلاة والسلام ، وأما وقوع رؤية سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلم أقف فيها على شيء لا نفياً ولا إثباتاً ، وعدم رؤية جبريل عليه السلام لو صح لا يدل على عدم رؤية غيره ، إذ ليست صور الملائكة كلهم كصورته عليه الصلاة والسلام في العظم ، وخبر الخصمين والأضياف لإبراهيم . ولوط . وداود عليهم السلام ليس فيه دلالة على أكثر من رؤية هؤلاء الأنبياء للملائكة بصورة الآدميين ، وهي لا تستلزم أنهم لا يرونهم إلا كذلك وإلا لاستلزمت رؤية نبينا ﷺ جبريل عليه السلام بصورة دحية بن خليفة الكلبي رضي الله تعالى عنه مثلاً عدم رؤيته عليه الصلاة والسلام إياهم إلا بالصورة الآدمية وهو خلاف ما تفهمه الأخبار » .

أقول : إن التركيب النفسي والروحي والقلبي للرّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يختلف ، فهم بشر ولكنهم يوحى إليهم ، ومن ثمّ فسنّة الله فيهم غير سنّته في بقية خلقه ، ثمّ إن الآية تفيد أنّه لو أنزل ملك بناءً على اقتراحهم لقضي الأمر ، وتلك سنّة من سنن الله أنّه لو استجاب لاقتراح قوم بإنزال ملك وهو اقتراح متعنت فإنّه يأتيهم العذاب ، فلا نحتاج إذن لبحث إمكان رؤية الملائكة بسبب من الآية .

٣ ــ فهمنا من الآيتين الأخيرتين أن لهذا العالم قوانين وسنناً ، وأن الملائكة في خلقتهم الكاملة لا يراهم البشر في قوانين هذا العالم إلا من خصّه الله بخصائص معيّنة كالرّسل ، وهذا شيء واضح لأن الحواسّ البشرية محدودة بحسب القوانين الإلهية ، فالأذن مثلاً لا تستطيع أن تسمع الأصوات التي تقل ذبذباتها إلى ١٣ ذبذبة في الثانية ، ولا تستطيع أن تسمع الأصوات إذا ارتفعت ذبذباتها فوق ٣٠٠٠٠ ذبذبة في الثانية ، وكذلك العين لا ترى المادة إذا وصلت إلى حالة من الوجود لطيفة جداً ، وكذلك إذا وصلت المادة إلى حالة من الكثافة مرتفعة جداً وقد حسب إينشتاين الحالة التي لا ترى فيها المادة إذا

وصلت إلى ثقل نوعي معيَّن (راجع إينشتاين من سلسلة اقرأ) وهذا كله ضمن عالم المادة ، فكيف بعالم الغيب ، فما أجهل من يكفر ، وما أحمق من يرفض الإيمان بما يقوله رسول الله ﷺ بعد أن قامت الأدلة على صدق رسالته .

ولنعد إلى السياق فبعد أن ردّ الله على هؤلاء المكذبين المتعنتين عزّى رسوله ﷺ بقوله : ﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون** ﴾ . أي : فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزؤون به وهو الحق ، حيث أهلكوا من أجل استهزائهم .

وبهذا انتهت المجموعة الأولى من المقطع الأول بعد أن بيّنت لنا طرفاً من مواقف الكافرين وطبيعتهم واقتراحاتهم ، وتأتي الآن المجموعة الثانية ويتوجه فيها الخطاب لرسول الله ﷺ بلفظة (قل) ليردّ ويعالج ويعلن وهذه هي المجموعة الثانية :

﴿ **قل سيروا في الأرض ثمّ انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ يفيد قوله تعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض ثم انظروا** ﴾ إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها ، وإيجاب النظر في آثار الهالكين ، ونبّه ، على ذلك بثم ؛ لتباعد ما بين الواجب والمباح ، ونفهم من الآية أنّ النظر في مصارع المكذبين دواء ، ويأتي الآن الدواء الثاني ، فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يسألهم ﴿ **قل لمن ما في السموات والأرض قل لله** ﴾ أمره أنّ يسألهم ويجيب ، وفي ذلك إشارة فكأنه قال : لا خلاف بيني وبينكم على هذه الحقيقة ، وأنكم لا تقدرون أن تنسبوا من المخلوقات شيئاً إلى غيره ، هذه هي الحقيقة الأولى ، والحقيقة الثانية هي : ﴿ **كتب على نفسه الرحمة** ﴾ أصل معنى كتب : أوجب ، ولا يجب للعبد على الله شيء في الأصل ، وإنما المراد أنه وعد وعداً مؤكداً وهو منجزه لا محالة ، و ذكر النفس بهذه الصيغة يفيد الاختصاص ورفع الوسائط ، ولمالكيته للسموات والأرض ولكتابته على نفسه الرحمة فإنه أقسم ﴿ **ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾ . أي لا شك فيه أي في هذا اليوم ، أو في هذا الجمع ، وقد فهمنا : أن إيجاد هذا اليوم هو أثر مالكيته ورحمته وهذا معنى سنراه كثيراً إذ أن من عرف أسماء الله وصفاته يدرك أنّ اليوم الآخر بديهي الوجود ، كأثر عن هذا الجلال والكمال ﴿ **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** ﴾ . أي : الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة باختيارهم الكفر ، هم الذين لا يؤمنون بهذا اليوم ، ولا يخافون شر ما يصيبهم فيه ، قرّر مجيء اليوم الآخر وخسارة الكافرين فيه بعد تقرير مالكيته ورحمته ، ثم يعود ليقرر مالكيته وسمعه وعلمه فقال :

﴿ **وله ما سكن في الليل والنّهار** ﴾ إن اعتبرنا سكن من السكنى فإنه يتناول في هذا المقام الساكن والمسافر ، وإن اعتبرناه من السكون فمعناه : أنّ له ما سكن ، وما تحرك فيهما ، فاكتفى بأحد الضدّين عن الآخر ، وذكر السكون لأنّه أكثر من الحركة ، وفي الإشارة إلى الحركة والسكون في هذا المقام إقامة حجة على الكافرين إذ وجود الحركة والسكون تقتضي حدوث العالم ، وحدوث العالم يدلّ على خالقه ، وخالقه هو مالكه ، وخالقه لا يغيب عنه شيء ولذلك ختمت الآية بقوله : ﴿ **وهو السميع العليم** ﴾ يسمع كل موجود وكل مسموع ، ويعلم كل معلوم فلا يخفى عليه شيء ، وإذ كان الأمر كذلك فليحذر المكلفون يوم القيامة ، فإن النّاقد بصير ، والحساب عسير إلا من يسّره له الله ، وفي مجموع ما ورد في هاتين الآيتين دواء آخر لمن أراد أن يعالج الكفر ، وحجة لمن أراد أن يناقش أهله .

فوائد :

عند قوله تعالى : ﴿ **كتب على نفسه الرحمة** ﴾ قال صاحب الظلال :

« ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً ؛ وتسعهم جميعاً ؛ وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم . وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات . فأما في حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها في كل مواضعها ومظاهرها ؛ ولكننا نذكر منها لمحات في مجاليها الكبيرة : إنها تتجلى ابتداء في وجود البشر ذاته . في نشأتهم من حيث لا يعلمون . وفي إعطائهم هذا الوجود الإنساني الكريم ؛ بكل ما فيه من خصائص يفضّل بها الإنسان على كثير من العالمين . وتتجلى في تسخير ما قدّر الله أن يسخره للإنسان ، من قوى الكون وطاقاته . وهذا هو الرزق في مضمونه الواسع الشامل . الذي يتقلب الإنسان في بحبوحة منه في كل لحظة من لحظات حياته . وتتجلى في تعليم الله للإنسان ، وبإعطائه ابتداءً الاستعداد للمعرفة ؛ وتقدير التوافق بين استعداداته هذه وإيحاءات الكون ومعطياته .. هذا العلم الذي يتطاول به بعض المناكيد على الله ، وهو الذي علمهم إياه ! وهو من رزق الله بمعناه الواسع الشامل كذلك . وتتجلى في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض ، بموالاة إرسال الرسل إليه بالهدى ، كلّما نسي وضل ؛ وأخذه بالحلم كلما لجّ في الضلال ؛ ولم يسمع صوت النذير ؛ ولم يصغ للتحذير . وهو على الله هين . ولكنّ رحمة الله وحدها هي التي تمهله ؛ وحلم الله وحده هو الذي يسعه . وتتجلى في تجاوز الله ـــ سبحانه ـــ عن سيئاته إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب ، وبكتابة

الرحمة على نفسه ممثلة في المغفرة لمن أذنب ثم أناب .

وتتجلى في مجازاته عن السيئة بمثلها ، ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها . والمضاعفة بعد ذلك لمن يشاء . ومحو السيئة بالحسنة .. وكله من فضل الله . فلا يبلغ أحد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته . حتى رسول الله ﷺ كما قال عن نفسه ، في معرفةٍ كاملة بعجز البشر وفضل الله .

والإقصار منا عن متابعة رحمة الله في مظاهرها ، وإعلان القصور والعيّ عنها ، هو أجدر وأولى . وإلا فما نحن ببالغين من ذلك شيئاً ! وإن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن ؛ فيتصل به ، ويعرفه ؛ ويطمئن إليه ــ سبحانه ــ ويأمن في كنفه ؛ ويستروح في ظله .. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تمليها واستجلائها ، فضلاً عن وصفها والتعبير عنها .

فلننظر كيف مَثَّل رسول الله ﷺ لهذه الرحمة بما يقربها للقلوب شيئاً ما :

أخرج الشيخان بإسنادهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ لَما قضى الله الخلق ــ وعند مسلم : لما خلق الله الخلق ــ كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » .. وعند البخاري في رواية أخرى : « إنّ رحمتي غلبت غضبي » ..

وأخرج الشيخان بإسنادهما عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « جعل الله الرحمة مئة جزء . فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابّة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » .

وأخرج مسلم بإسناده عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله مئة رحمة . فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم ، وتسعة وتسعون ليوم القيامة » . وله في أخرى : « إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مئة رحمة ، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض . فجعل منها في الأرض رحمة واحدة : فبها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض . فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة » .

وهذا التمثيل النبوي الموحي ، يقرِّب للإدراك البشري تصور رحمة الله تعالى .. ذلك

إذ ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالها في الخلائق الحية ويتملاها ويعجب لها ، وإلى رحمة القلوب البشرية بالطفولة والشيخوخة ، والضعف والمرض ؛ وبالأقرباء والأوداء والأصحاب ؛ وبرحمة الطير والوحش بعضها على بعض ــ ومنها ما يدعو إلى الدهش والعجب ــ ثم يرى أن هذا كله من فيض رحمة واحدة من رحمات الله سبحانه .. فهذا مما يقرب إلى إدراكه تصور هذه الرحمة الكبرى شيئاً ما !

وكان رسول الله ﷺ لا يني يُعلِّم أصحابه ويذكرهم بهذه الرحمة الكبرى . عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبي . فإذا أمرأة من السبي تسعى قد تحلّب ثديها ، إذ وجدت صبياً في السبي ، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال ﷺ « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ » . قلنا : لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه . قال : « فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » .. (أخرجه الشيخان) . وكيف لا . وهذه المرأة إنما ترحم ولدها ، من فيض رحمة واحدة من رحمات الله الواسعة ؟ ومن تعليم رسول الله ﷺ لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية بهذا الأسلوب الموحي ، كان ينتقل بهم خطوة أخرى ، ليتخلقوا بخُلق الله هذا في رحمته ، ليتراحموا فيما بينهم ، وليرحموا الأحياء جميعاً ؛ ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها ، كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل .

عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الراحمون يرحمهم الله تعالى . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .. (أخرجه أبو داود والترمذي) .

وعن جرير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » ... (أخرجه الشيخان والترمذي) .

وفي رواية لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ : « لا تُنزع الرحمة إلا من شقي » .

وعن أبي هريرة كذلك . قال : « قَبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس . فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبّلتُ منهم أحداً ، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « من لايَرحم لا يُرحم » .. (أخرجه الشيخان) . ولم يكن ﷺ يقف في تعليمه لأصحابه ــ رضوان الله عليهم ــ عند حدّ

الرحمة بالنّاس . وقد علم أن رحمة ربه وسعت كل شيء . وأن المؤمنين مأمورون أن يتخلقوا بأخلاق الله ؛ وأن الإنسان لا يبلغ تمام إنسانيته إلا حين يرحم كل حي ؛ تخلقاً بخُلق الله سبحانه . وكان تعليمه لهم بالطريقة الموحية التي عهدناها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش ، فوجد بئراً ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ، ثم أمسكه بفيه حتى رقَى ، فسقى الكلب ؛ فشكر الله تعالى له فغفر له » . قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً قال : « في كل كبد رطبة أجر » ... (أخرجه مالك والشيخان) .

وفي أخرى : أن امرأة بغيّاً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع (أي أخرج) لسانه من العطش فنزعت له موقها (أي خفها) فغفر لها به .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبيه رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر . فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان لها ، فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرّش (أو تفرش) — (أي ترخي جناحيها وتدنو من الأرض) فلما جاء رسول الله ﷺ قال : « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » . ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال : من أحرق هذه ؟ قلنا : نحن . قال : إنه لا ينبغي أن يعذّب بالنار إلا رب النار » .. أخرجه أبو داود .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فحرقت . فأوحى الله تعالى إليه : أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ؟ » ... (أخرجه الشيخان)

وهكذا علّم رسول الله ﷺ أصحابه هدي القرآن . ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاولتهم للرحمة .. إنهم إنما يتراحمون برحمة واحدة من رحمات الله الكثيرة ؟ ! » .

ولنعد إلى السياق والعرض :

كعلاج وحوار وإقامة حجة تأتي المجموعة الثانية في المقطع ، وقد جاء في آيتها الأولى أمر بالسير والاعتبار بمصارع الكافرين ، وفي الآيتين الثانية والثالثة لفت نظر إلى مالكية الله

ورحمته وما يترتب عليهما ، وفي ذلك علاج وإقامة حجة ، وبعد ذلك تأتي الآن آيتان تأمران رسول الله ﷺ أن يعلن معاني عن تحقّقات ذاته الشريفة ، مما يفهم منه أنّه في الردّ على الكافرين نحتاج إلى إقامة حجة وإعلان موقف ، ولذلك نرى أن الآيتين التاليتين فيهما إعلان موقف ﴿ **قل أغير الله أتخذ ولياً** ﴾ . أي ناصراً ومعبوداً ، أي لا أتخذ ، ثمّ وصف الله ذاته بقوله : ﴿ **فاطر السمٰوات والأرض** ﴾ . أي مخترعهما ﴿ **وهو يطعِم ولا يطعم** ﴾ . أي وهو يَرزق ولا يُرزق ، أي المنافع كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع ، والمعنى : كيف لا أتخذ الله نصيراً ومعبوداً ؛ وهو الخالق والرازق ! وغيره لا يخلق ولا يرزق ؛ فلا يصلح ولياً ولا نصيراً ، وبعد هذا الإنكار على اتخاذ غير الله ولياً أمر الله رسوله أن يعلن ﴿ **قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم** ﴾ لأنه أسبق أمته إلى الإسلام فهو أوّل الملتزمين به ﴿ **ولا تكونَنَّ من المشركين** ﴾ . أي وقيل لي لا تكونن من المشركين ، والمعنى أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك ، دلّ هذا على أنّ الشّرك والإسلام لا يجتمعان ، وأنّ الإسلام هو وحده الذي ينفي كلّ شرك ، ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن ﴿ **قل إني أخاف إن عصيتُ ربي عذابَ يوم عظيم** ﴾ . وهو يوم القيامة . ﴿ **من يُصرَف عنه يومئذ فقد رحمه** ﴾ . أي : من يصرف عنه العذاب يوم القيامة فقد رحمه الله الرحمة العظمى وهي النّجاة ﴿ **وذلك الفوز المبين** ﴾ الفوز : حصول الربح ونفي الخسارة ، والنّجاة يوم القيامة هي الفوز الكامل الواضح ، وأيُّ فوز أعظم من الجنة والزحزحة عن النار ! وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن هذا الإعلان ، ذكرَه ، بما يساعده على إقامة حقيقة هذا الإعلان والبيان ﴿ **وإن يمسسك الله بضُرّ** ﴾ من مرض أو فقر أو ذلّ أو إيذاء أو ابتلاء أو غير ذلك من البلاء ﴿ **فلا كاشف له إلا هو** ﴾ . أي : فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿ **وإن يمسسك بخير** ﴾ من غنى أو صحّة أو نصر أو غير ذلك من نعمه ﴿ **فهو على كل شيء قدير** ﴾ . أي قادر على الإيصال والإدامة والإزالة . وتعليقاً على هذه الآيات الثلاث الأخيرة والآية التي بعدها قال صاحب الظلال :

« فما أحوج من يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها ، وبإعراضها وعنادها ، وبالتوائها وكيدها ، وبفسادها وانحلالها .. ما أحوج من يواجه هذا الشر كله ، أن يستصحب في قلبه هذه الحقائق وهذه المشاعر .. مخافة المعصية والولاء لغير الله . ومخافة العذاب الرعيب الذي يترقّب العصاة .. واليقين بأن الضار والنافع هو الله . وأن الله هو القاهر فوق عباده ؛ فلا معقّب على حكمه ، ولا رادَّ لما قضاه .. إن قلباً لا يستصحب

هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف « إنشاء » الإسلام من جديد في وجه الجاهلية الطاغية . وهي تكاليف هائلة تنوء بها الجبال !

ثم ما أحوج العصبة المؤمنة ــ بعد أن تستيقن حقيقة مهمتها في الأرض اليوم ؛ وبعد أن تستوضح حقيقة العقيدة التي تدعو إليها ، ومقتضياتها من إفراد الله سبحانه بالولاء بكل مدلولاته ، وبعد أن تستصحب معها في مهمتها الشاقة تلك الحقائق والمشاعر .. ما أحوجها بعد ذلك كله إلى موقف الإشهاد والقطع والمفاصلة والتبرؤ من الشرك الذي تزاوله الجاهلية البشرية اليوم ، كما كانت تزاوله جاهلية البشرية الأولى . وأن تقول ما أمر رسول الله ﷺ أن يقوله ؛ وأن تقذف في وجه الجاهلية ؛ بما قذف به في وجهها الرسول الكريم ، تنفيذاً لأمر ربه العظيم :

﴿ قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون ﴾ ..

إنه لابد أن تقف العصبة المسلمة في الأرض ، من الجاهلية التي تغمر الأرض ، هذا الموقف ، لابد أن تقذف في وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية ، قاطعة ، مزلزلة رهيبة .. ثم تتجه إلى الله تعلم أنه على كل شيء قدير ، وأنه هو القاهر فوق عباده . وأن هؤلاء العباد ــ بما فيهم الطواغيت المتجبرون ــ أضعف من الذباب ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ! وأنهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن الله ؛ وليسوا بنافعين أحداً إلا بإذن الله ، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولابد أن تستيقن العصبة المسلمة كذلك أنها لن تُنصر ولن يتحقق لها وعد الله بالتمكين في الأرض ، قبل أن تفاصل الجاهلية على الحق عند مفترق الطريق . وقبل أن تعلن كلمة الحق في وجه الطاغوت ، وقبل أن تشهد على الجاهلية هذا الإشهاد ، وتنذرها هذه النذارة ، وتعلنها هذا الإعلان ، وتفاصلها هذه المفاصلة . وتتبرأ منها هذه البراءة . إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي ؛ إنما جاء منهجاً مطلقاً خارجاً عن قيود الزمان والمكان . منهجاً تتخذه الجماعة المسلمة حيثما كانت في مثل الموقف الذي تنزّل فيه هذا القرآن . وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماماً ؛ وقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا القرآن لينشىء الإسلام في الأرض إنشاء .. فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين . والشعور الواضح بحقيقة قدرة الله وقهره . والمفاصلة الحاسمة مع

الباطل وأهله .. لتكن هذه عدة الجماعة المسلمة .. والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ... » .

أقول : إن إعلان المسلم مثل هذه الإعلانات هو جزء من الدعوة ، وجزء من الحجة ، وجزء من العلاج للنفس الكافرة ، كما أنّه تقوية لذات المسلم ، وارتقاء بمشاعره وهكذا تنتهي المجموعة الثانية في المقطع وبها ينتهي المقطع الأول .

فوائد :

١ ـــ بعد أن ذكر الله عز وجل في المقطع إعراض الكافرين عن الآيات ، وأنّه لو أُنزل عليهم كتاباً من السماء فلمسوه بأيديهم ما آمنوا ، وبعد أن ذكر الله عز وجل اقتراح الكافرين أن يُنزّل عليهم ملَك ، وبعد أن بيّن أن هذا الاقتراح أثر من آثار الاستهزاء ، فإنّه أمر رسوله ﷺ أن يقول أربعة أقوال ، ولذلك جاءت أربعة أوامر بلفظة « قل » إن مجموع هذه الأقوال تدلّ على الدّواء ، فمن أراد من أهل الكفر أن يؤمن فهذا هو الطريق : ١ ـــ السير في الأرض والاعتبار بعاقبة المكذبين ٢ ـــ معرفة مالكية الله لكل شيء ورؤية رحمة الله في كل شيء ٣ ـــ رؤية خلق الله للكون كله وأن يرتب على ذلك إسلام الوجه لله ٤ ـــ إعلان المسلم خوفه من عذاب الله
وبناءً على ذلك نقول : إن الداعية إلى الله عليه أن يركّز على هذه المعاني كلها ، ومن المعنى الأخير نعرف أنّ وجود الخائفين من الله هو تذكير عملي للكافرين ، وإنّ ختم الآيات بقوله تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو** ... ﴾ يشير إلى أن المسلم عليه أن يقول للكافرين ما أمر به من أوامر في هذا المقام ، معتمداً على الله ، متوكلًا عليه ، عارفاً أن النّفع والضرّ بيده وحده .

٢ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم** ﴾ قال ابن كثير : وفي حديث سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام ، فانطلقا معه ، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال : « الحمد لله الذي يُطعِم ولا يطعَم ، ومنّ علينا فهدانا ، وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاء حسن أبلانا ، الحمد لله غير مودع ولا مكفي ولا مكفور ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسانا من العري ، وهدانا من الضّلال ، وبصّرنا من العمى ، وفضّلنا على كثير ممّن خلق تفضيلًا ، الحمد لله رب

العالمين » . وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلا هو ...** ﴾ يقول ابن كثير : « وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » أقول : إن في أذكار رسول الله ﷺ ، وفي دعواته أعظم عرض للمعاني الإسلامية ، وأعظم تطبيق لمعاني العبودية ، والمعرفة لله ، وأعظم تحقيق لأوامر الله كلها فليتأمل هذا وليفهم .

٣ ـ عند قوله تعالى : ﴿ **قل إني أمرت أن أكون أوّل من أسلم ولا تكونن من المشركين** ﴾ يقول صاحب الظلال : « قضية واحدة محدّدة لا تقبل ليناً ولاتميّعاً .. إما إفراد الله سبحانه بالتوجّه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة ؛ والإقرار له وحده بالحاكمية في كل أمر من هذه الأمور ، ورفض إشراك غيره معه فيها ؛ وولاء القلب والعمل ، في الشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك .. إما هذا كله فهو الإسلام .. وإما إشراك أحد من عباده معه في شيء من هذا كله فهو الشرك . الذي لا يجتمع في قلب واحد مع الإسلام » .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة الأنعام من سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ۝ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهُنَّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ وقد رأينا صلة المقطع الذي مرّ معنا بهذا المحور ، فالمقطع عدا عن تعرضه لمعاني المحور ، فإنّه قد ناقش الكافرين ، ودلّهم على الطريق الصحيح للإيمان ، وكل ذلك قد مرّت معنا تفصيلاته . وقد أشار محور السورة إلى قهر الله وحكمته وعلمه ، فمن مظاهر قهر الله الموت والبعث ، ومن مظاهر حكمة الله أن خلق الأرض وما فيها للإنسان ، ومن مظاهر علم الله خلقه السمٰوات والأرض على مثل هذا الإتقان ، هذا كله قد أشارت إليه آيتا المحور ، وبعد المقطع الأول من سورة الأنعام يأتي المقطع الثاني وبدايته : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ ونهايته : ﴿ **وهو الذي خلق السمٰوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير** ﴾ .

لاحظ الصلة بين بداية المقطع الثاني ونهايته ، وبين المعاني الموجودة في البداية

والنهاية ، وبين محور السورة من البقرة .

إن الآية الأولى في المقطع الثاني يرد فيها قوله تعالى : ﴿ **وهو الحكيم الخبير** ﴾ كما يرد ذلك في الآية الأخيرة كذلك . ومعاني المقطع كلها تدور حول القهر الإلهي ، والحكمة والعلم ، فذلك مضمون المقطع الثاني ولذلك كله صلته بالمحور .

لاحظ الآن ما يلي : في محور السورة من سورة البقرة كلام عن القهر الإلهي وعن الحكمة ، وعن العلم : ﴿ **ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ هذا من مظاهر قهره ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ هذا من مظاهر حكمته ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ فهذا حديث عن علمه . فإذا عرفنا أن مضمون المقطع الثاني من القسم الأول من سورة الأنعام يتلخص بأنه عرض لمظاهر من القهر الإلهي ، ولمظاهر من علم الله وحكمته ، أدركنا صلة المقطع في المحور . وسنرى صلة المقطع بما قبله وبما بعده .

تلخيص وتقديم :

جاء المقطع الأول وفيه مقدمة ، هي مقدمة السورة كلها وتتألف من آيات ثلاث .

ثمّ عرض علينا المقطع موقف الكافرين من الآيات : ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنهما معرضين** ﴾ وجاءت آيات بعد ذلك تعالج هذا الموقف . ثمّ عرض علينا المقطع اقتراحاً من اقتراحات الكافرين : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك** ﴾ وجاءت آيات تعالج وضع الكافرين جملة وانتهت بقوله تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو** ﴾ ثم جاء المقطع الثاني وبدايته ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ فبعد أن أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للكافرين ما يقول ، ومن جملة ذلك :

﴿ **قل إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم** ﴾ بعد ذلك يأتي المقطع الثاني وهو في سياقه الرئيسي . يتحدث كما سنرى عن القهر الإلهي ، والحكمة ، والعلم ، ولكنّه يسير على النّسق الذي رأيناه في المقطع الأول ، إذ نجد فيه عرضاً لمواقف الكافرين ، واقتراحاتهم ، وعلاجاً لها ، ونكاد نجد في كل مجموعة منه عرضاً لموقف من مواقف الكافرين ، وعرضاً لمشهد من مشاهد الآخرة .

فلننتقل للحديث عن المقطع الثاني :

المقطع الثاني

يمتدّ هذا المقطع من الآية (١٨) إلى نهاية الآية (٧٣) :

بدايته قوله تعالى: ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾

ونهايته قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير** ﴾ .

لاحظ انتهاء الآية الأولى في المقطع بقوله تعالى : ﴿ **وهو الحكيم الخبير** ﴾ . وانتهاء الآية الأخيرة بذلك ، وفيما بين البداية والنهاية تفصيل لمظاهر من قهر الله وحكمته وعلمه ، وإقامة حجة على النّاس بذلك . يتألف المقطع من جولتين الجولة الأولى تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ وتستمر حتى تأتي آية مبدوءة بقوله تعالى : (**وهو**) وفيها تفصيل لمظهر من مظاهر القهر الإلهي . ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضىٰ أجلٌ مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ . ثم تأتي الجولة الثانية من هذا المقطع وتبدأ كذلك بقوله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ .

إنهما جولتان في مقطع واحد ، يفصّل في القهر الإلهي والحكمة والعلم ، ومن خلال التأمّل في الجولتين نرى أنّ الجولة الأولى يغلب عليها التفصيل في القهر الإلهي ، وأن الجولة الثانية يغلب عليها التفصيل في الحكمة والعلم ، لاحظ بداية الجولة الأولى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم** ﴾ . ولاحظ بداية الجولة الثانية : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة** ﴾ .

من هاتين البدايتين ندرك ما قلناه من أنّ الجولة الأولى يغلب عليها التفصيل في القهر الإلهي ، وأن الجولة الثانية يغلب عليها التفصيل في الحكمة والعلم ، وكلا الجولتين تفصلان في القهر الإلهي ، والحكمة ، والعلم ، ومن خلال مظاهر حكمة الله وعلمه تقام الحجة على الكافرين ، ومن خلال مظاهر القهر الإلهي يُعجَّبُ الإنسان من كفر الكافرين ، وصلة ذلك بمحور السورة واضحة ؛ إذ المحور يقيم الحجة على الكافرين من خلال ظاهرتي الحياة والعناية ، ومن خلال التذكير بالعلم والحساب ، ويعجّب من كفر الكافرين ، ولنا عودة على السياق فيما بعد ، فلنبدأ عرض المقطع بعرض الجولة الأولى منه :

الجولة الأولى من المقطع الثاني

وتمتدّ من الآية (١٨) إلى نهاية الآية (٦٠) وهذه هي :

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

☆ ☆ ☆

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا

يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾

☆ ☆ ☆

وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾

قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾

☆ ☆ ☆

قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾

وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ

فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾
إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

☆ ☆ ☆

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾

☆ ☆ ☆

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

☆ ☆ ☆

وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾

قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

☆ ☆ ☆

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

كلمة في هذه الجولة :

تبدأ الجولة بالحديث عن قهر الله وحكمته وعلمه ، وتنتهي بالحديث عن مظاهر من علمه وحكمته وقهره : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ... ﴾ ﴿ **وهو**

الذي يتوفاكم بالليل .... ﴾ وفيما بين ذلك حديث عن مظاهر العلم والقهر والحكمة : ﴿ **قل أي شيء أكبر شهادة** ﴾ ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ...** ﴾

﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار ...** ﴾ ﴿ **فأخذناهم بالبأساء والضراء ...** ﴾

﴿ **فقُطع دابر القوم الذين ظلموا ...** ﴾ ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون** ﴾

ومن خلال ذلك نرى وحدة الجولة .

والجولة تعرض مواقف للكافرين ، وترد عليها ، وتقصُّ علينا اقتراحات الكافرين المتعنة ، وتناقشهم فيها ، وتأمر رسول الله ﷺ أن يقول كلاماً محدداً ؛ ولذلك يتكرّر فيها الأمر « قل » ومن ثمّ فهي استمرار للمقطع الأول ؛ ففيها منه شبه ، وذلك مظهر من مظاهر وحدة سياق السّورة .

والجولة مع هذا كله تفصّل في محور السورة من سورة البقرة ، ويكفي أن تقارن آخر آية فيها : ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثمّ يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمّى ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ . يكفي أن تقارن هذه الآية بقوله تعالى في المحور : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ .

حتى تدرك الصلة بين الجولة وبين محور سورة الأنعام من سورة البقرة .

وإذ تقرّرت وحدة الجولة ومحلها في سياق السورة ومحلها بالنسبة للسياق القرآني العام فلننتقل إلى عرض معانيها العامة .

المعنى العام :

يقرّر الله تعالى في بداية هذه الجولة أنّه هو القاهر فوق عباده ، فهو الذي خضعت له الرّقاب ، وذلّت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوّه وقدرته الأشياء ؛ فاستكانت وتضاءلت بين يديه ، وتحت قهره وحكمه ، فلا تنفذ مشيئة إلا بمشيئته ، ولا يكون إلا

ما أراد ، ثم يقرّر أنّه الحكيم في أفعاله ، الخبير بمواضع الأشياء ومحالها ؛ فلا يعطي إلا عن علم ، ولا يمنع إلا عن علم ، وبعد أن قرّر الله — عز وجل — قهره وحكمته وعلمه — وآثار هذه الصفات مرئية معلومة ، فمن لم يشاهد من خلالها خالقها فإنّه يكون عديم الإدراك — بعد هذا التقرير يأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يسأل الكافرين عن أعظم الأشياء شهادة ، ثم يأمره أن يجيب : أن الله هو أعظم الأشياء شهادة ، وأن الله الأعظم شهادة هو يشهد على رسالة رسوله ﷺ وما يقال له وما يُردُّ عليه ، وشهادة الله لرسوله قائمة في المعجزات التي أظهرها على يده ، وأعظمها هذا القرآن الذي يدلّ دلالة لا تقبل شكاً على أنه من عند الله ؛ بما فيه من إعجاز ؛ وبما فيه من معجزات ؛ لذلك قال بعد ذلك ﴿ **وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ . أي : والقرآن نذير لكل من بلغه ، وفيه الشهادة على أن محمداً رسول الله ، بحكم كونه معجزة لا تكون إلا من عنده سبحانه ، ثمّ أمر الله رسوله أن يسألهم وأن يجيب ملقّناً إياه الحجّة ، أمره أن يسألهم عما إذا كانوا يشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، ثم أمره أن يقول بأنه لا يشهد شهادتهم بعد أن أفهمهم أن شهادة رسول الله ﷺ هي شهادة الله بكتابه ، ثم أمره أن يعلن ويقرر وحدانية الله ، وأن يعلن براءته من شركهم ، وإذ أخبر تعالى عما نعرف به صدق رسالة رسوله ﷺ ذكر عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جاء به رسوله ﷺ ، كما يعرفون أبناءهم ؛ بما عندهم من الأخبار ، والأنباء عن المرسلين المتقدمين ، والأنبياء ؛ فإن الرسل بشروا بمجيء محمد ﷺ ، وصفته ، وبلده ، ومهاجره ، وصفة أمته ، فما أوضح استحقاق الكافرين لخسارة أنفسهم يوم القيامة بعدم إيمانهم بهذا الأمر الجليّ الظاهر الذي بشّرت به الأنبياء ، ونوّهت به في قديم الزمان وحديثه ، وفي هذا السياق قرّر تعالى أنّه لا أظلم ممّن تَقوَّلَ على الله ؛ فادّعى أنّ الله أرسله ، ولم يكن أرسله ، ثمّ لا أظلم ممّن كذّب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته ، وأن الظالمين من هؤلاء ، وهؤلاء من المفترين والمكذبين لا يفلحون ، وإذ كان رسوله ﷺ من المفلحين ، ومن كذّبه لا يفلح ، فذلك علامة من أعلام رسالته ، وإذا عاقب الله من لم يؤمن برسوله ﷺ ، فذلك أثر من آثار قهره ، الذي صُدّرت بالكلام عنه هذه الجولة ، وبهذه المعاني التي قرّرت قهر الله وحكمته وعلمه ، وأنّه الأعظم شهادة ، وأنّه منزل القرآن ، وأنّ محمداً ﷺ رسوله ، وأنّ رسالة محمد ﷺ لا يرقى إليها شك ، من حيث أدلتها ، أو من حيث شهرتها عند أهل الكتاب ، والظلم الأكبر ظلم من لا يؤمن برسول الله ﷺ ، بعد تقرير هذه المعاني ينقلنا الله تعالى إلى

مشهد من مشاهد يوم القيامة ، إذ يحشر الكافرين والمشركين فيسألهم عن معبوداتهم الباطلة التي كانوا يعبدونها من دونه ، ويعطونها صفات الألوهية وخصائصها وحقوقها ، فما تكون حجتهم ومعذرتهم إلا أن يقسموا أنهم ما كانوا مشركين ، كذبوا على الله في الدنيا ، ويكذبون على الله في الآخرة ، وفي كل من الحالين فإنهم لا يكذبون إلا على أنفسهم وإذ كان كذبهم كله — سواء في ذلك كذبهم على الله في الإشراك به في الدنيا ، إلى كذبهم في الآخرة — لا قيمة له ولا نفع فيه فليلاقوا عاقبة هذا الكذب .. وهذا مظهر من مظاهر قهره الذي بدأ بذكره المقطع ، أن يحشر الكافرين والمشركين إليه يوم القيامة ويجازيهم ، ثمّ بيّن الله لرسوله ﷺ أنّ من المشركين من يجيء ليسمع قراءة رسول الله ﷺ ، ولا يستفيدون شيئاً ؛ لأن الله جعل على قلوبهم أغطية فلا يفقهون القرآن ، وجعل في آذانهم صمماً عن السماع النافع لهم ، وذلك عقوبة لهم بما اجترحوه ، وما اتصفوا به ، وعقوبتهم أثر من آثار قهره كذلك ، ثمّ إنهم مهما رأوا من الآيات ، والدّلالات ، والحجج البينات ، والبراهين ، فإنهم لا يؤمنون بها ؛ إذ لا فهم عندهم ، ولا إنصاف ، وعند المحاجّة والمناظرة يزعمون أنّ هذا القرآن مأخوذ من كتب الأوائل ، ومنقول عنهم ، يقولون هذا وهم لا يفهمون هذا القرآن ولا يعقلونه ، ثم يزيدون في عتوّهم إذ ينهون الناس عن اتّباع الحق ، وتصديق الرسول ﷺ ، والانقياد للقرآن ، ويبتعدون هم عنه ؛ فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ولا يَدَعون أحداً ينتفع ، وهم بهذا الصنيع لا يهلكون إلا أنفسهم ، ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم ، وهم لا يشعرون ، وبعد عرض حالهم هذا ، يعرض الله مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، وموقفاً لهؤلاء المشركين الكافرين هناك ، في مقابل موقفهم هذا ، ومن ثم يذكر الله حالهم إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال ، فعند ذلك يتمنّون أن يُردّوا إلى الدار الدنيا ؛ ليعملوا عملاً صالحاً ، ولا يكذّبوا بآيات ربهم ، ويكونوا من المؤمنين ؛ عندئذ يظهر ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر ، والتكذيب ، والمعاندة ، وقد بيّن الله تعالى في هذا المقام أنهم ما طلبوا العَودة إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان ، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه ؛ جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ؛ ليتخلصوا مما شاهدوا من النار . ولو أن الله ردّهم إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة . فهم كذبة في زعمهم أنهم لو عادوا إلى الدنيا لعملوا صالحاً ، بل لو أنهم أعيدوا لعادوا إلى كفرهم ولقولهم : أن لا حياة إلا الدنيا ، وأنه لا معاد ولا بعث ، وكما

يوقفون على النار فإنهم يوقفون بين يدي الله ليسألهم أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون ، عندئذ يقرون مقسمين بالله إنه حق ، ولكن أنى ينفعهم ذلك ؟ فليس لهم إلّا العذاب يذوقون مسّه ؛ بكفرهم بربهم وبالبعث وبالرُّسل ، وفي هذا السياق يقرّر الله خسارة من كذّب بلقائه ، وخيبته إذا جاءته الساعة بغتة ، ندامته على ما فرّط من العمل ، وما أسلف من قبيح الفعل ، حيث يقودهم عملهم إلى النار ، ثم قرّر الله ـــ عز وجل ـــ حقيقة الحياة الدنيا ، وأنها ليست إلا لهواً ولعباً .

وأنّ الدار الآخرة هي الدار ، وهي الأحسن لأهل التقوى والإيمان ، وفي هذا المقام يسلي الله نبيّه ﷺ عن تكذيب قومه له ، ومخالفتهم إياه ، بتذكيره أن الله محيطٌ علماً بتكذيبهم ، وبحزن رسول الله ﷺ ، وتأسفه عليهم ، مبيّناً لرسوله ﷺ أنّ تصديقهم مستمر له في الحقيقة ، فهم لا يتهمونه بالكذب في نفس الأمر ؛ ولكن الظالمين يعاندون الحق ، ويدفعونه بصدورهم . ثمّ بيّن الله لرسوله ﷺ أنه إنْ يُكذَّب فقد كذّبت رسلٌ من قبله ، وكان منهم الصبر على التكذيب والأذى ، وكان لهم النصر في العاقبة ، وتلك سنة الله ، وقد عرّف الله رسوله ﷺ بأخبارهم كيف نُصروا ، وأيدوا على من كذّبهم من قومهم ، ليكون له فيهم أسوة ، وبهم قدوة ، ثمّ أدّب الله رسوله ﷺ ليزداد صبراً ، بأنّه إن شقّ عليه الإعراض فليأتهم بآية ، بدخوله سرباً في الأرض ، أو بصعوده سلّماً في السّماء ، وما هو بفاعل إلا بإذن الله . فليصبر ، ثمّ بيّن الله لرسوله ﷺ أنه لو شاء أن يهدي الناس لهداهم ولكن له حكمة في ذلك ، فلا يتصوّر معها هداية الخلق جميعاً إلا جاهل ، ثمّ بيّن الله لرسوله ﷺ أنّ الذي يستجيب لدعوته هو من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه ، أما موتى القلوب من الكفار ، فلا سماع لهم ، ولا استجابة منهم ، وسيروْن مغبّة أمرهم ، إذ يبعثون ويرجعون إلى الله ، وهكذا نرى من خلال ما مرّ عرضاً لأحوال الكافرين ، ومظاهر من قهر الله لهم في الآخرة ، وهو المعنى الذي بدأ به المقطع . و كما قصّ الله علينا في المقطع الأول اقتراحاً من اقتراحاتهم وردّ عليهم ، ففي هذا المقطع يقصّ الله علينا كذلك اقتراحاً من اقتراحاتهم المتعنّتة ، إنهّم يطلبون آية أي : خارقاً على مقتضى ما يريدون وما يتعنتون ، وقد بيّن الله ـــ عز وجل ـــ أنه قادر على ذلك ، ولكنّ حكمته تقتضي تأخير ذلك ؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ، ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة ، كما فعل بالأمم السابقة ، ثمّ قرّر جهل الأكثرين من بني الإنسان ، ثمّ بيّن تعالى أنّ كلّ نوع من أنواع الحيوان إنّما هوأمّة من الأمم أليس هذا آية تدل على الله ! بدليل أنّه لا ينسى أحداً منها من تدبيره ورزقه ، فمن لم ير مثل هذه الآيات فأي آية تجعله يؤمن ؟ !

وفي هذا السياق يذكّر الله — عز وجل — أنّ مرجع الجميع إليه ، ثمّ بين تعالى أنّ مثل المكذّبين بآيات الله في جهلهم ، وقلة علمهم ، وعدم فهمهم ، كمثل أصمّ : وهو الذي لا يسمع ، أبكم : وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه ؟ ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يوجه سؤالًا للكافرين فيه تقرير أن الله المتصرّف في خلقه بما يشاء ، الذي لا معقّب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ؛ بل هو وحده الإله لا شريك له ، بدليل أنّه في حالة مجيء الساعة لا يدعون غيره ؛ لعلمهم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ، فكيف يشركون به غيره ؟! وفي هذا السياق يقرّر الله سُنّة من سننه ، هي مظهر من مظاهر قهره ، هذه السنّة هي أنّه كلّما أرسل إلى أمّة رسولًا ، فلم يستجيبوا له ، يبتليهم بالفقر ، وضيق العيش ، والأمراض ، والأسقام ، والآلام ، من أجل أن يرجعوا إلى الله ، ويتضرعوا إليه ويخشعوا فإذا لم يتضرعوا ويرجعوا ، وزادت قسوة قلوبهم ، وأصرّوا على ما هم عليه من الشرك ، والفساد ، والمعاصي ، وتمادوا بالإعراض ، والغفلة ، والتناسي ، فعندئذ يفتح الله عليهم أبواب الجاه والرزق ، وكل ما يختارون ، وهذا استدراج منه وإملاء لهم — عياذاً بالله من مكره — حتى إذا فرحوا بما أعطوا من الدنيا ؛ عندئذ يأخذهم الله بغتة ؛ فإذا هم آيسون من كل خير ، وهذه السنّة مظهر من مظاهر قهر الله وحكمته وعلمه ، ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يسأل هؤلاء المكذّبين المعاندين أنّه لو سلبهم الله سمعهم ، وأبصارهم ، وختم على قلوبهم ، فهل أحد غير الله يقدر على ردّ ذلك إليهم ؟ لا شك أنّ الجواب : لا يقدر على ذلك أحد سواه ، إلا إذا أراد إنسان أن يماحك ، ثم لفت الله نظر رسوله ﷺ إلى ما يبيّنه ويوضّحه ويفسّره ، ثمّ هؤلاء الكافرون مع هذا يعرضون عن الحق ، ويصدّون الناس عن اتباعه ، ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يسألهم أنّه في حالة مجيء العذاب مباغتاً لهم أو ظاهراً يعاينونه ، هل يهلك الله إلا الظالمين ؟ وذلك لأنّ الرسل ما أرسلوا إلّا للتبشير والإنذار ، فمن آمن وأصلح فإنه يستحق الأمن من الله لا العذاب ، والذين يستحقون العذاب هم الفاسقون ، ومن ثمّ فإن عذاب الله إذا جاء يصيبهم وحدهم .

وفي هذا السياق نعرف سنة من سننه — عز وجل — أنّ عذابه لا يصيب به من يقوم بشرعه وحقّه ، وإنّما يصيب به من كفر بما جاءت به الرّسل ، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته ، وارتكبوا مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته .

ثم أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أوامر : أن يعلن عن كونه لا يملك ولا يتصرف بخزائن الله ، وأنه لا يعلم الغيب ؛ لأن الله وحده هو الذي يعلم الغيب ، وأنه ليس إلا بشراً من البشر ، وليس ملكاً ، وأنه عبد لله مطيع ، لا يخرج عما أوحى الله إليه قيد شبر ، ولا أدنى منه ، ثمّ أمره أن يسأل هل يستوي من اتّبع الحق وهُدي إليه ، ومن ضلّ عنه فلم ينقَد له ، ومجيء هذا السؤال في هذا السياق يفيد أن العبودية لله هي الإبصار الحقيقي ، وهي الهداية الكاملة ، ثمّ هيّجهم الله للتفكر ، إذ التّفكّر في هذا المقام يدلّهم على أنّ محمداً عبد الله ورسوله حقاً وصدقاً ، ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن ينذر بهذا القرآن من يخاف أن يحشر إلى الله يوم القيامة ، حيث لا وليّ ولا شفيع لأحد من دون الله ؛ إذ لا حاكم في ذلك اليوم إلا الله ، فأمثال هؤلاء هم المرشحون للتقوى والعمل الصالح والإيمان ، ثمّ نهى الله رسوله ﷺ أن يطرد الذين يعبدون الله ويسألونه ، وأمر ألا يبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات ، بل أن يجعلهم جلساءه وأخصّاءه وحسابهم على الله ، وهدّده أنّه إن طرد أمثال هؤلاء فإنّه والحالة هذه يكون ظالماً ، ثمّ بيّن حكمة اتّباع الرسل من الضعفاء وهي الابتلاء ، والاختبار ، والامتحان ، لأهل الكبر ، هل يتخلّون عن كبرهم ، أو أنهّم يتكبرون على الضعفاء ، وعلى الحق ، ويستبعدون أن يمنّ الله على أمثال هؤلاء الضعفاء ، والله – عز وجل – هو الأعلم بالشاكرين له ، بأقوالهم ، وأفعالهم ، وضمائرهم ؛ فيوفّقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يكرم المؤمنين بردّ السلام عليهم وتبشيرهم برحمة الله الواسعة الشاملة ، التي أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ، وأن من رحمته أنّه يعامل من عصى ثم رجع عما كان عليه من المعاصي ، وأقلع وعزم على ألّا يعود – وأصلح العمل في المستقبل – بالمغفرة والرّحمة . ثمّ بيّن تعالى أنّ تبيانه للحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد ، وذم المجادلة والعناد ، وتفصيله لما يحتاجه المخاطبون من بيان للآيات ، كل ذلك من أجل أن تقوم الحجة ، ومن أجل أن تظهر طريق المجرمين المخالفين للرّسل ، ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن أنه على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إليه ، بينما هم قد كذّبوا بالحق الذي جاءه من عند الله ، وأن يعلن لهم أن ما يستعجلون به من العذاب لا يملكه رسول الله ﷺ ، وأنّ مرجع الأمر إلى الله ، إن شاء عجّل لهم ما سألوه من العذاب ، وإن شاء أنظرهم وأجّلهم ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ، وهو جلّ جلاله خير مَنْ فصّل ، وخير من يفصل في الحكم بين عباده ، ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول : لو كان

مرجع ذلك إليه لأوقعتُ بكم ما تستحقونه من العذاب ، ولكن الأمر لله ، وهو الأعلم بالظالمين ، ثمّ بيّن تعالى إحاطة علمه بالغيب كله ، وبجميع الموجودات برّيّها وبحريّها ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ويعلم الحركات حتى من الجمادات ، فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنّهم وإنسهم ؟ ثمّ بيّن تعالى أنّه يتوفى عباده في منامهم بالليل ، وهذا هو التوفي الأصغر ، ويعلم ما كسبوه من الأعمال بالنهار ، مبيّناً بذلك إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم ، في حال سكونهم وحركتهم ، وأنّه إذ يتوفى عباده في منامهم ، ويبعثهم من موتهم الأصغر هذا ، فمن أجل أن ينال كل واحد أجله الذي كتبه له ، ثم المرجع إلى الله ، ثم يخبر الجميع بأعمالهم ، ويجزيهم على ذلك . والنّوم والاستيقاظ أثر من آثار قهر الله لعباده ؛ إذ لا يستطيعون الخروج عن سننه ، فالجولة كلها عرض لآثار قهر الله وعلمه وحكمته ، ومناقشة للكفرة بالله ورسله ، وعرضٌ لما أعدّ الله لهم من عذاب يوم القيامة وسنعرض الجولة على مجموعات لطولها .

المعنى الحرفي :

المجموعة الأولى

﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ القهر : بلوغ المراد بمنع الغير من بلوغه والمعنى : وهو الغالب المقتدر العالي على عباده ﴿ **وهو الحكيم** ﴾ في تنفيذ مراده ﴿ **الخبير** ﴾ بمن يستحق القهر من عباده ﴿ **قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم** ﴾ . أي : مَنْ أعظم الأشياء شهادة ؟ الجواب : الله أكبر شهادة ، والله الأكبر شهادة شهيد بين رسوله وبين الكافرين على أن محمداً رسول الله ﴿ **وأوحِيَ إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ . أي : لأنذركم به يا أهل مكة ، ولأنذر به من بلغه هذا القرآن إلى قيام الساعة ، ومجيء هذا النص بعد ذكر شهادة الله يوحي أن من شهادة الله لرسوله إنزاله هذا القرآن المعجز عليه ﴿ **أئنكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى** ﴾ في هذا الاستفهام معنى الإنكار والتبكيت ﴿ **قل لا أشهد** ﴾ . أي : بما تشهدون به وإنما أشهد على وحدانيته ﴿ **قل إنما هو إله واحد** ﴾ فليس هناك من إله معه ؛ ومن ثمّ فإننا لا نعطي صفات الألوهية ، أو خصائصها ، أو حقوقها لأحد سواه ﴿ **وإنني بريء مما تشركون** ﴾ به ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ . أي : التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى ﴿ **يعرفونه** ﴾ . أي : يعرفون رسول الله ﷺ بحِلْيته ونعته الثابتين في الكتابين (كما فصلنا ذلك في الفصل الخامس من كتابنا « الرسول » من سلسلة الأصول

الثلاثة) ﴿ **كما يعرفون أبناءهم** ﴾ من حيث الوضوح والجلاء ﴿ **الذين خسروا أنفسهم** ﴾ من المشركين والملحدين ومن أهل الكتاب الجاحدين ومن الكفار أجمعين ﴿ **فهم لا يؤمنون** ﴾ . أي : برسول الله ﷺ ، وأي خسارة أعظم من خسارة الجنة ودخول النار ؟ ﴿ **ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته** ﴾ الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، وأشنعه اتخاذ المخلوق معبوداً . وافترى بمعنى اختلق ، والمعنى : لا أحد أظلم لنفسه من اثنين : من اختلق على الله الأكاذيب ، فوصفه بما لا يليق به . ومن كذّب بآيات الله كالقرآن والمعجزات ، فهؤلاء أظلم الظالمين ؛ وهؤلاء لا يفلحون ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ . أي : إن الأمر والشأن عدم فلاح هؤلاء ، وكيف يفلحون عند الله وقد جمعوا بين أمرين باطلين ، فكذبوا على الله ما لا حجة عليه ، وكذّبوا بما ثبت بالحجة .

نقول وتعليق :

عند قوله تعالى : ﴿ **لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ قال الألوسي :

« أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه القرآن ، ووصل إليه من الأسود والأحمر ، أو من الثقلين ، أو لأنذركم به أيها الموجودون ، ومن سيوجد إلى يوم القيامة . قال ابن جرير : من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ .

وأخرج أبو نُعيم وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : « قال رسول الله ﷺ من بلغه القرآن فكأنما شافهته » . واستدل بالآية على أن أحكام القرآن تعم الموجودين يوم نزوله ، ومن سيوجد بعد ، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . واختلف في ذلك هو بطريق العبارة في الكل أو بالإجماع في غير الموجودين وفي غير المكلفين . فذهب الحنابلة إلى الأول ، والحنفية إلى الثاني ، وتحقيقه في الأصول . وعلى أن من لم يبلغه القرآن غير مؤاخذ بترك الأحكام الشرعية ، ويؤيده ما أخرجه أبو الشيخ عن أبيّ بن كعب قال : « أُتي رسول الله ﷺ بأسارى فقال لهم : هل دعيتم إلى الإسلام ؟ فقالوا : لا فخلى سبيلهم ثم قرأ ﴿ **وأوحي إليّ** ﴾ الآية » .

وعند النّص نفسه يقول صاحب الظلال :

فكل من بلغه هذا القرآن من الناس ، بلغة يفهمها ، ويحصل منها محتواه ، فقد قامت عليه الحجة به ، وبلغه الإنذار ، وحق عليه العذاب ، إن كذب بعد البلاغ .. (فأما من

يحول عدم فهمه للغة القرآن دون فهمه لفحواه فلا تقوم عليه الحجة به ؛ ويبقى إثمه على أهل الدين ، الذين لم يبلغوه بلغته ، التي يفهم بها مضمون هذه الشهادة .. هذا إذا كان مضمون القرآن لم يترجم إلى لغته ».

أقول : كان بعض شيوخنا يرى أنّه متى سمع أحد باسم محمّد ﷺ فإنّ عليه أن يبحث ، وإذا لم يبحث فإنّه آثم معذّب عند الله ، وكان يأخذ ذلك من قوله علية الصلاة والسلام في الحديث الصحيح « والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ثمّ لم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار » وعلى هذا الاتجاه فإنّ مجرد السّماع باسم رسول الله ﷺ وبرسالته يعتبر تبليغاً للسامع ، وبه تقوم الحجة عليه .

وكان بعض العلماء يفرّق بين من بلغته الدعوة عن طريق مسلم مشافهة أو سماعاً أو كتابة ، وبين من لم يبلغه عن هذا الطريق ، فمن قرأ عن الإسلام بقلم مسلم ، أو سمع عن الإسلام بالراديو ، أو التلفزيون ، أو بالخطاب المباشر من مسلم ، فقد قامت عليه الحجة ، ويدخل في ذلك بلا شك من وقعت بيده ترجمة مسلم للقرآن الكريم ، وعلى رأي هؤلاء فإن من لم يسمع عن رسول الله ﷺ إلا من كافر فإنّ الحجة لم تقم عليه .

ويرى بعض العلماء أن مجرد السماع باسم محمد ﷺ ورسالته ، مع وجود القدرة على التعرّف من خلال الكتاب أو عن طريق مسلم كاف لإقامة الحجة ، وعلى هذا فمتى وجد المسلم في مكان أو وجد الكتاب الذي يشرح الإسلام بلغة يفهمها أهل مكان ، وتسامع أهل ذلك المكان باسم رسول الله ﷺ ، فقد قامت عليهم الحجة .

ولنا عودة على هذا الموضوع ، ويكفي هنا أن نعرف أنّه حيث يستطيع المسلمون أن يبلغوا بالدعوة ثمّ لا يبلغون ؛ فإنهم آثمون ، والإثم يُوجد حيث تُوجد الاستطاعة ، واستطاعة كل إنسان بحسبه ، وفي الحديث « بلّغوا عني ولو آية » ومن الحديث نفهم أنه يفترض على المسلمين التبليغ ، وأنه بالآية تقوم الحجة ، وفي الفوائد ما يؤكد هذا .

فوائد :

١ ــ بدأ المقطع بإعطائنا تصوراً عاماً عن مضمون المقطع من خلال ذكر قهر الله ، وعلمه وحكمته ، وإذ ثبت القهر والعلم والحكمة لله ــ عز وجل ــ فقد أثبت الله أنه الأكبر شهادة ، وشهد لرسوله ﷺ بالرسالة ، وأقام الحجة على ذلك بالقرآن ،

وبالبشارات ، وبيّن أنه لا أحد أظلم من الكافرين ، وقد ختمت الآيات التي مرّت معنا بذكر أنّ أفظع الظلم ظلم الكافرين المفترين على الله ، أو المكذبين بآياته ؛ ومن ثم فإننا نفهم أن هناك تصوراً خاصاً للمسلمين حول مفهوم العدل والظلم ، يفترق من الأساس مع أيّ تصور آخر في هذا العالم .

٢ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿ **أي شيء أكبر شهادة** ﴾ على أنّه يجوز إطلاق اسم الشيء على الله تعالى ، فالشيء اسم للموجود ، ولا يطلق على المعدوم ، والله تعالى موجود ولذلك صح إطلاق لفظ الشيء عليه جل جلاله وسبحانه .

٣ ـ أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب عند قوله تعالى : ﴿ **ومن بلغ** ﴾ « من بلغه القرآن فكأنّما رأى النّبي وكلّمه » وأخرج ابن جرير عنه « من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ » وأخرج عبد الرزاق عن قتادة أنّ رسول الله ﷺ قال : « بلّغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب فقد بلغه أمر الله » وقال الربيع بن أنس : « حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذي أنذر » ولنعد للعرض .

﴿ **ويوم نحشرهم جميعاً** ﴾ . أي : واذكر يوم نحشرهم جميعاً ﴿ **ثم نقول** ﴾ توبيخاً ﴿ **للذين أشركوا** ﴾ . أي : مع الله غيره ﴿ **أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون** ﴾ . أي : أين آلهتكم التي جعلتموها وزعمتموها شركاء لله ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم** ﴾ . أي : كفرهم يعني : ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم ، وقاتلوا عليه ، وجادلوا عنه إلا جحوده والتبرؤ منه ، والحلف على الانتفاء من التديّن به ، أو ثمّ لم يكن جوابهم إلا أن قالوا .... فسمّى جوابهم فتنة ؛ لأنه كذب ، أو المراد بفتنتهم حجتهم ، وقال ابن جرير : والصواب ثم لم يكن قِبَلَهم عند فتنتنا إياهم اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿ **إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ هذا قولهم عندما رأوا مغبة الشرك ، وقد ذكر الله رسوله به ، ثمّ أمره أن يعتبر فقال : ﴿ **انظر كيف كذبوا على أنفسهم** ﴾ . أي : بقولهم ما كنّا مشركين ﴿ **وضلّ عنهم** ﴾ . أي : غاب عنهم ﴿ **ما كانوا يفترون** ﴾ إلهيته وشفاعته فهم كانوا يشركون بالله ؛ زاعمين أن شركاءهم يشفعون لهم فأين مزاعمهم ؟ لقد اتضحت لهم الأكاذيب عندما رأوا بطلانها عياناً .

في الآية الثانية من هذا المقطع أمر الله رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ **قل إنما هو إله**

واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ وفي هذه الآيات الثلاث يعرض الله علينا موقفهم يوم القيامة إذ يُسألون عن شركائهم ، وكيف أنهم يتبرأون من هؤلاء الشركاء وفي ذلك دعوة للتبرؤ من الشرك في الحياة الدنيا ، والشرك الذي ينبغي أن يتبرأ منه الإنسان في الحياة الدنيا أوسع مدلولًا مما يفهمه الكثيرون ، وفي توضيح هذا الجانب يقول صاحب الظلال : « إن الشرك ألوان ، والشركاء ألوان ، والمشركين ألوان .. وليست الصورة الساذجة التي تتراءى للناس اليوم حين يسمعون كلمة الشرك وكلمة الشركاء وكلمة المشركين : من أن هناك ناساً كانوا يعبدون أصناماً أو أحجاراً ، أو أشجاراً ، أو نجوماً ، أو ناراً .. الخ .. هي الصورة الوحيدة للشرك !

إن الشرك في صميمه هو الاعتراف لغير الله ــ سبحانه ــ بإحدى خصائص الألوهية .. سواء كانت هي الاعتقاد بتسيير إرادته للأحداث ومقادير الكائنات . أو كانت هي التقدم لغير الله بالشعائر التعبدية والنذور وما إليها . أو كانت هي تلقي الشرائع من غير الله لتنظيم أوضاع الحياة .. كلها ألوان من الشرك ، يزاولها ألوان من المشركين ، يتخذون ألواناً من الشركاء .

والقرآن الكريم يعبّر عن هذا كله بالشرك ؛ ويعرض مشاهد من يوم القيامة تمثل هذه الألوان من الشرك والمشركين والشركاء ؛ ولا يقتصر على لون منها ، ولا يقصر وصف الشرك على واحد منها ؛ ولا يفرق في المصير والجزاء بين ألوان المشركين في الدنيا وفي الآخرة سواء .. ولقد كان العرب يزاولون هذه الألوان من الشرك جميعاً :

كانوا يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله ، لها مشاركة ــ عن طريق الشفاعة الملزمة عند الله ــ في تسيير الأحداث والأقدار . كالملائكة . أو عن طريق قدرتها على الأذى ــ كالجن بذواتهم أو باستخدام الكهان والسحرة لهم ــ أو عن طريق هذه وتلك ــ كأرواح الآباء والأجداد ــ وكل أولئك كانوا يرمزون له بالأصنام التي تعمرها أرواح هذه الكائنات ؛ ويستنطقها الكهان ؛ فتحل لهم ما تحل ، وتحرم عليهم ما تحرم .. وإنما الكهان في الحقيقة .. هم الشركاء !

وكانوا يزاولون الشرك في تقديم الشعائر لهذه الأصنام ، وتقديم القربات لها والنذور ــ وفي الحقيقة للكهان ــ كما أن بعضهم ــ نقلا عن الفرس ــ كانوا يعتقدون في الكواكب ومشاركتها في تسيير الأحداث ــ عن طريق المشاركة لله ــ ويتقدمون لها كذلك بالشعائر (ومن هنا علاقة الحلقة المذكورة في هذه السورة من قصة إبراهيم عليه

السلام بموضوع السورة كما سيأتي) ..

وكذلك كانوا يزاولون اللون الثالث من الشرك بإقامتهم لأنفسهم - عن طريق الكهان والشيوخ - شرائع وقيماً وتقاليد ، لم يأذن بها الله .. وكانوا يدّعون ما يدّعيه بعض الناس اليوم من أن هذا هو شريعة الله ! » .

فوائد :

١ - إن أمر الله لرسوله ﷺ أن يتذكر موقف المشركين يوم القيامة ، وبراءتهم من كفرهم ، وأمره بالاعتبار بذلك فيه تعزية لرسول الله ﷺ ، وتسلية عن موقف الكافرين منه ، وفي ذلك أيضاً عرض لنوع من أنواع القهر الإلهي ، ولفت نظر إلى أن الدنيا وحدها ليست إلا وجهاً من أوجه التدبير الإلهي ، ويظهر فيها بعض أنواع القهر ، ولكن الآخرة هي الوجه الآخر .

٢ - يلاحظ أن هذه الجولة التي نحن فيها تتألف من آية هي مقدمتها ومجموعات ، وقد رأينا أنّ المجموعة الأولى - وهي التي مرت معنا - فيها عرض لموقف من مواقف الكافرين في الدنيا ، وبيان لموقف من مواقفهم في الآخرة حين يجْزَون جزاء مواقفهم في الدنيا ، وفي المجموعة الثانية كذلك عرض لموقف من مواقفهم ، ثمّ عرض لمواقف لهم يخزون فيها في الآخرة وهذه هي المجموعة الثانية

المجموعة الثانية في الجولة

﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ . أي : حين تتلو القرآن ، أي يجيئون ليستمعوا قراءتك ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنّة** ﴾ أي : أغطية ﴿ **أن يفقهوه** ﴾ . لئلا يفقهوه ﴿ **وفي آذانهم وقراً** ﴾ . أي : ثقلاً يمنع السمع ﴿ **وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** ﴾ لجحودهم وطبيعتهم الكافرة المتكبرة ﴿ **حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ الأساطير : هي الأكاذيب ومفردها أسطورة ، والمعنى : أنه بلغ تكذيبهم بالآيات إلى أنهم يجادلونك وينكرون ، وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون عن القرآن - الذي هو كلام الله - إنه أكاذيب ﴿ **وهم** ﴾ . أي : المشركون ﴿ **ينهون عنه** ﴾ . أي : ينهون الناس عن القرآن ، أو عن الرسول ﷺ واتباعه والإيمان به ﴿ **وينأون عنه** ﴾ . أي : ويبعدون عنه بأنفسهم فيضلون ويضلون ﴿ **وإن يهلكون**

إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ أي : وما يهلكون إلا أنفسهم بمعنى أنّ الضرر لا يتعدّاهم إلى غيرهم ، وإن كانوا يظنّون أنهم يضرّون رسول الله ﷺ ولكنهم لا يشعرون بهذا ، هذا حالهم في الدنيا ، فكيف يكون حالهم يوم القيامة ؟ **﴿ ولو ترى إذ وُقِفوا على النار ﴾** . أي : إذا أروها حتى يعاينوها ، أو حبسوا على الصراط فوق النار ، أي لو رأيت هذا المشهد لشاهدت أمراً عظيمًا **﴿ فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذبَ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين ﴾** تمنّوا الرّدّ إلى الدُّنيا ليؤمنوا وليتركوا التكذيب ، والمعنى : يا ليتنا نردُّ وإن رددنا لم نكذب بل نكون من المؤمنين ، ولكن أنّى لهم الرجوع ؟ **﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾** . أي : بل ظهر لهم ما كانوا يخفون من الناس في الدنيا من قبائحهم وفضائحهم فى صحفهم ، وإذ ظهر هذا فقد قامت الحجة عليهم **﴿ ولو رُدّوا ﴾** . أي : إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار **﴿ لعادوا لما نُهوا عنه ﴾** من الكفر **﴿ وإنهم لكاذبون ﴾** . أي : فيما وعدوا من أنفسهم فإنهم لا يوفون به ، فأيُّ طبيعة هذه الطّبيعة ؟ إذا عرفنا هذا أدركنا لمَ استحقوا الخلود في النار ، لأنهم لو بقوا أبداً لكانوا كافرين أبداً .

وبهذا تكون المجموعة الثانية من هذه الجولة قد انتهت ، وفيها كما في المجموعة الأولى موقف للكافرين في الدنيا ، ومشهد من مشاهد يوم القيامة ، ولننتقل إلى المجموعة الثالثة لنجد موقفاً في الدنيا ومشهداً من مشاهد يوم القيامة .

المجموعة الثالثة

﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ . أي : ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها ولا حشر ولا نشر ، وأكدوا هذا المعنى بقولهم **﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾** وهذا أعظم الجهل ؛ لأنّ من عرف الله وقدرته لم يستغرب خلقه لنا مرة ثانية ، ومن عرف الله وعرف عدله أيقن بالحساب والجزاء في دار غير هذه الدار ، وقد أخبر الله أنّه فاعل على لسان رسله عليهم السلام ، فأيُّ جهل بعد ذلك أن لا يؤمن الإنسان بالبعث **﴿ ولو ترى إذ وُقِفوا على ربهم ﴾** . أي : أوقفوا بين يديه وهو تعبير عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاقبه فماذا يقول الله لهم في هذا الموقف **﴿ قال أليس هذا بالحق ﴾** . أي : أليس البعث وهذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تزعمون،وقوله بالحق أي بالكائن الموجود ، وهذا تعيير لهم على التكذيب بالبعث وقولهم

لما كانوا يسمعون من حديث البعث : ما هو بحق ﴿ **قالوا بلى وربنا** ﴾ أقروا وأكدوا الإقرار باليمين حيث لا ينفعهم إقرارهم ﴿ **قال** ﴾ . أي : الله ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ . أي : بسبب كفركم ، وفي معرض إنكارهم لليوم الآخر يأتي في السياق مجموعتان ، مجموعة تقرر جزاء من لم يؤمن بالآخرة ، ومجموعة فيها تعزية وتسلية وتوجيه لرسول الله ﷺ ، وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول : إن هاتين المجموعتين استمرار للمجموعة السابقة وفي موضوعها ، ولكنا سنعرضهما على أنهما المجموعة الرابعة والخامسة .

المجموعة الرابعة

﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله** ﴾ . أي : ببلوغ الآخرة وما يتصل بها من لقاء الله ﴿ **حتى** ﴾ هذه غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم لأن خسرانهم لا غاية له ﴿ **إذا جاءتهم الساعة** ﴾ . أي : القيامة لأنّ مدة تأخرهم مع تأبّد ما بعدها كساعة واحدة ﴿ **بغتة** ﴾ . أي : فجأة ، والبغتة : هي ورود الشيء على صاحبه من غير علمه بوقته ﴿ **قالوا يا حسرتنا** ﴾ هذا نداء تفجّع معناه يا حسرة احضري فهذا أوانك ﴿ **على ما فرّطنا فيها** ﴾ . أي : على ما قصّرنا في الحياة الدنيا أو في السّاعة ، أي قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها ﴿ **وهم يحملون أوزارهم** ﴾ . أي : آثامهم ﴿ **على ظهورهم** ﴾ خصَّ الظَّهر لأن المعهود حمل الأثقال على الظهور ، كما عهد الكسب بالأيدي ، وهو مجاز عن اللزوم على وجه لا يفارقهم ﴿ **ألا ساء ما يزرون** ﴾ . أي : ألا بئس شيئاً يحملونه ، ومجيء (ألا) في هذا السياق يفيد تعظيم ما يذكر بعده ﴿ **وما الحياة الدنيا** ﴾ هذا جواب لقولهم إن هي إلا حياتنا الدنيا وتقييم لها ﴿ **إلا لعب ولهو** ﴾ اللعب : ترك ما ينفع لما لا ينفع . واللهو : الميل عن الجدّ إلى الهزل ، والمعنى : ما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو ، أو ما أعمال الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، لأنها لا تعقب منفعة كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة ﴿ **وَلَلدّار الآخرة** ﴾ . أي : ولدار الساعة الآخرة ﴿ **خير للذين يتقون** ﴾ فيه دليل على أن ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ . قيمة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة ؛ فتعملون للآخرة ، وأفلا تعقلون عن الله فتسمعون وتطيعون وتؤمنون وتتقون ؟ وهكذا يتكامل الردّ على دعوى الكافرين أنه لا

معاد من خلال التذكير بحقيقة الحياة الدنيا ، وستأتي المجموعة الخامسة لتكمّل الردّ ، وقبل أن نعرض المجموعة الخامسة نحب أن ننقل هنا ما قاله صاحب الظلال في هذا المقام مذكّراً بأبعاد التصور الإسلامي لقضية الحياة : يقول صاحب الظلال :

« فالحياة - في التصور الإسلامي - ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد ؛ وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس ؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا .

إن الحياة - في التصور الإسلامي - تمتد طولاً في الزمان ، وتمتد عرضاً في الآفاق ، وتمتد عمقاً في العوالم ، وتمتد تنوعاً في الحقيقة .. عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة - في التصور الإسلامي - تمتد في الزمان ، فتشمل هذه الفترة المشهودة - فترة الحياة الدنيا - وفترة الحياة الأخرى ؛ والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار ! . وتمتد في المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر ؛ داراً أخرى : جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ؛ وناراً تسع الكفرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ..

وتمتد في العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ؛ ولا نعلم نحن عنه إلا ما أخبرنا به الله . وجود يبدأ من لحظة الموت ، وينتهي في الدار الآخرة . وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنساني في صور لا يعلمها إلا الله .

وتمتد الحياة في حقيقتها ؛ فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا ، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى .. في الجنة وفي النار سواء . وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا ... ولا تساوي الدنيا - بالقياس إليها - جناح بعوضة ! . والشخصية الإنسانية - في التصور الإسلامي - يمتد وجودها في هذه الأبعاد من الزمان وفي هذه الآفاق من المكان ، وفي هذه الأعمال والمستويات من العوالم والحيوات ... ويتسع تصورها للوجود كله ؛ وتصورها للوجود الإنساني ؛

ويتعمق تذوقها للحياة ؛ وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها ؛ بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات .. بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يتضاءل تصورهم للوجود الكوني ، وتصورهم للوجود الإنساني ؛ وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعهم في ذلك الجحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا !

ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم ، ويبدأ الاختلاف في النظم ويتجلي كيف أن هذا الدين منهج للحياة متكامل متناسق ؛ وتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه : تصوراً واعتقاداً ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً ..

إن إنساناً في هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات غير إنسان يعيش في ذلك الجحر الضيق ، ويصارع الآخرين عليه ، بلا انتظار لعوض عما يفوته ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به .. إلا في هذه الأرض ومن هؤلاء الناس !.

إن اتساع التصور وعمقه وتنوعه ينشيء سعة في النفس ، وكبراً في الاهتمامات ، ورفعة في المشاعر ! ينشأ عنها هي خلق وسلوك ، غير الذين يعيشون في الجحور وسلوكهم . فإذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه ، طبيعة هذا التصور ، والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة ، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته ، استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله ، وأنه مناط العوض والجزاء ؛ وصلح الفرد واستقام سلوكه - متى استيقن الآخرة كما هي في التصور الإسلامي — وصلحت الأوضاع والأنظمة ، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها ؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة فيخسرون الدنيا والآخرة .

والذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة فيقولون : إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا ؛ وإلى إهمال هذه الحياة ؛ وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها ؛ وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعاً إلى نعيم الآخرة .. الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة — كما هي في التصورات الكنسية المنحرفة — وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم ... فالدنيا — في التصور الإسلامي — هي مزرعة الآخرة . والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه

الحياة ، ورفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعاً .. كل أولئك هو زاد الآخرة وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوّضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى .. فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن ، أو تفسد وتختل ، أو يشيع فيها الظلم والطغيان ، أو تتخلف في الصلاح والعمران .. وهم يرجون الآخرة وينتظرون فيها الجزاء من الله ؟.

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين ؛ ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا ــ مع ادعائهم الإسلام ــ فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف ؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف ! لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين ؛ ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة . فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة . وهو يعي حقيقة هذا الدين ثم يعيش في هذه الحياة الدنيا سلبياً أو متخلفاً ، أو راضياً بالشر والفساد والطغيان . إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى . ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة . ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقوامها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها . ويكافح الشر والفساد والظلم محتملاً الأذى والتضحية حتى الشهادة ، وهو إنما يقدم لأنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا ؛ وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى .

وكل جزئية في النظام الإسلامي منظور فيها إلى حقيقة الحياة الآخرة ، وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع ، وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد في الحق وتحرج وتقوى ؛ وما تنشئه في النشاط الإنساني من تسديد وثقة وتصميم ، من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين في الآخرة . ومن أجل ذلك كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة » .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور السّورة هو ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون** ﴾ لاحظ كلمة ﴿ **إليه ترجعون** ﴾ ثمّ تذكر أن المجموعات التي مرت معنا كلها فيها حديث عن هذه الرّجعة ، وما يكون فيها ، وتذكّر أن المجموعة

الخامسة التي ستمرّ معنا إنما هي امتداد لما قبلها ، فالجولة إذن تفصّل في محور السورة بشكل واضح ، وهي مع تفصيلها للمحور لها سياقها الخاص بها ، فهي ترينا نماذج على القهر الإلهي في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فلنتذكر ونحن نقرأ ما تبقّى من الجولة : السياق الخاصّ لها وهو : عرض نماذج من القهر الإلهي ، والحكمة والعلم الإلهيين .

ولننتقل إلى المجموعة الخامسة في الجولة .

المجموعة الخامسة

﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك** ﴾ . أي : لا ينسبونك إلى الكذب ولكن يكذّبون ما جئت به ﴿ **ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ فيه دلالة على أنهم ظلموا بجحودهم ، والمعنى أن تكذيبك تكذيب لله لأنك رسوله المصدَّق بالمعجزات ، فهم لا يكذّبونك في الحقيقة ، وإنّما يكذّبون الله ، لأن تكذيب الرّسول تكذيب للمرسِل ﴿ **ولقد كُذبت رسل من قبلك** ﴾ فتلك طبيعة النفس البشرية الكافرة في كل عصر أنها تكذّب الرّسل ﴿ **فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا** ﴾ الصبر : حبس النفس على المكروه ، والمعنى : أنهم صبروا على تكذيب قومهم وإيذائهم ﴿ **حتى أتاهم نصرنا** ﴾ . أي : استمر صبرهم حتى جاءهم النّصر ، فما بعد التكذيب والإيذاء إلا النصر ، وما بعد الصبر ، إلا النصر ، تلك سنة الله في دعوته ورسله ، قال صاحب الظلال :

« إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم ، ضارب في شعاب الزمن ، ماض في الطريق اللاحب ، ماض في الخط الواصب .. مستقيم الخطَى ، ثابت الأقدام . يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون ، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة . وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء .. والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ، ولا ينكص ولا يحيد .. والعاقبة هي العاقبة ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق .. إن نصر الله دائماً في نهاية الطريق » .

هذه سنة الله - عز وجل - ولذلك عقّب الله - عز وجل - على قوله : ﴿ **حتى أتاهم نصرنا** ﴾ بقوله : ﴿ **ولا مبدّل لكلمات الله** ﴾ . أي : لمواعيده في نُصرة رسله ﴿ **ولقد جاءك من نبأ المرسلين** ﴾ . أي : ولقد جاءك بعض أنبائهم وقصصهم ، وما

كابدوا من مصابرة المشركين وكيف كانت العاقبة لهم ﴿ **وإن كان كَبُرَ عليك إعراضهم** ﴾ . أي : وإن كان عظم وشق عليك كفرهم وعدم استجابتهم للإسلام ﴿ **فإن استطعت أن تبتغِيَ نفقاً في الأرض** ﴾ . أي : سرباً ومنفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تُطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿ **أو سُلّماً في السماء فتأتيهم بآية** ﴾ . أي : أو تجعل لك سلماً في السّماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية منها ، والمعنى إنك لا تستطيع ذلك ، والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض ، أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم ، ولكنّ لله مراداً ﴿ **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** ﴾ . أي : لجعلهم بحيث يختارون الهدى ، ولكن لما علم أنهّم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك ﴿ **فلا تكوننَّ من الجاهلين** ﴾ . أي : من الذين يجهلون ذلك ، ويجهلون ما فيه من الحِكَم العظيمة ﴿ **إنّما يستجيب الذين يسمعون** ﴾ . أي : إنما يجيب دعاءك الذين يسمعون دعاءك بقلوبهم ، أمّا غيرهم وهم الكفار **فهؤلاء** لا يسمعون ، ولا يستجيبون ولذلك قال ﴿ **والموتى** ﴾ . أي : الكفار لأنهم موتى القلوب ، فشبّههم الله بأموات الأجساد ﴿ **يبعثهم الله ثم إليه يُرجعون** ﴾ **فحينئذ** يسمعون وأما قبل ذلك فلا .

كلمة في السياق :

ــ تشكل المجموعات الثلاث الأخيرة كلًّا متكاملًا ، فهي كلها تعالج قول الكافرين ﴿ **وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا** ﴾ من خلال الحجة ، والموعظة ، والتذكير ، والتسلية لرسول الله ﷺ ، وتبصيره بحكمة الله ــ عز وجل ــ ولقد رأينا أن من حكمة الله ــ عز وجل ــ أن لا يهدي كل المكلفين ، فذلك من مظاهر قهره وحكمته وعلمه ، فالله ــ عز وجل ــ لا يهدي من لا يستحق الهداية ، وهو أعلم بهم ، وذلك من حكمته ، وذلك من آثار قهره ، وتعذيبهم كذلك هو أثر من آثار قهره وعلمه وحكمته ، وهذا يذكرنا بالسياق الخاص للجولة .

ــ يلاحظ أن آخر آية في المجموعة الأخيرة هي : ﴿ **والموتى يبعثهم الله ثمّ إليه يرجعون** ﴾ ولنتذكر أن محور السورة من البقرة فيه : ﴿ **ثمّ إليه ترجعون** ﴾ والخطاب هناك للكافرين ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم ... ثم إليه ترجعون** ﴾ وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن الجولة تفصلّ في محور السورة من البقرة . ولها سياقها الخاص ، كما لها ارتباطها بالسياق القرآني العام .

فوائد :

١ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإنهم لا يكذّبونك ولكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ ذكر ابن كثير الروايات التالية :

أ ـ روى سفيان الثوري ... عن علي قال : قال أبو جهل للنّبي ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذّب ما جئت به ، فأنزل الله ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ . ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

ب ـ روى ابن أبي حاتم عن أبي يزيد المدني : أنّ النّبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه ، فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابىء ! فقال : والله إني أعلم أنه لنبي ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً ؟ وتلا أبو يزيد ﴿ **فإنهم لا يكذّبونك ولكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ . وقال أبو صالح وقتادة : يعلمون أنّك رسول الله ويجحدون .

ج ـ ذكر محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس بن شريق ، ولا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوها إلى الصباح ، فلّما هجم الصبح تفرّقوا فجمعتهم الطريق فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر له ما جاء به ، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم لئلا يُفْتَتَنُوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً أن صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود ، فلمّا أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا ، فلمّا كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً فلمّا أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ، ثمّ تفرّقوا فلمّا أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثمّ أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها وما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفَرَسَيْ رهان ، قالوا : منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

د ــ روى ابن جرير عن السدي في قوله : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ لما كان يوم بدر قال الأخنس ابن شريق لبني زهرة : يا بني زهرة ، إن محمداً ابن أختكم ، فأنتم أحق من ذبَّ عن ابن أخته ، فإنه إن كان نبياً لَمْ تقاتلوه اليوم ، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كفّ عن ابن أخته ، قفوا ها هنا حتى ألقى أبا الحكم ، فإن غُلِب محمدٌ رجعتم سالمين ، وإن غَلَب محمد فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئاً ــ فيومئذ سمي الأخنس وكان اسمه أبيّ ــ فالتقى الأخنس وأبو جهل ، فخلا الأخنس بأبي جهل ، فقال : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد ، أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا ؟ فقال أبو جهل : ويحك والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسّقاية والحجابة والنّبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ فآيات الله محمد ﷺ » .

بين يدي المجموعة السادسة :

قلنا إن المجموعات الثلاث الأخيرة تشكل كلّاً متكاملًا يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا** ﴾ ولكنّا عرضناها على أنهّا ثلاث مجموعات لسهولة العرض ، وإلا فإنها تكاد تكون فقرة واحدة تبدأ بقوله تعالى : (**وقالوا**) والآن تأتي مجموعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وقالوا لولا نزّل عليه آية** ﴾ فكأنها معطوفة على ﴿ **وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا** ﴾ ولسهولة العرض فإننا سنعرض المجموعة اللاحقة على أنها المجموعة السادسة في الجولة ، وإنما أشرنا إلى هذا ليعلم أن الجولة يمكن أن تقسم تقسيمات أخرى كأن نقسمها إلى فقرات ، وكل فقرة إلى مجموعات . فلننتقل إلى المجموعة السادسة :

المجموعة السادسة

﴿ **وقالوا لولا نُزّل عليه آية من ربه** ﴾ . أي : هلّا أنزل عليه خارق على مقتضى ما كانوا يريدون و يتعنتون ﴿ **قل إن الله قادر على أن يُنزّل آية** ﴾ كما اقترحوا ﴿ **ولكنّ أكثرهم لا يعلمون** ﴾ . أي : لا يعلمون أنّ الله قادر على أن يأتي بآية ، ولا يعلمون ما يترتب على نزول الآية المقترحة من عذاب عاجل لمن كفر ، ثم لفت النظر إلى آياته في الكون ﴿ **وما من دابة في الأرض** ﴾ الدابّة : اسم لما يدبُّ ، وتقع على المذكر والمؤنّث ﴿ **ولا طائر يطير بجناحيه** ﴾ قيدّ الطيران بالجناحين لنفي المجاز ﴿ **إلا أمم**

أمثالكم ﴾ . أي : إلا خلق أمثالكم في الحياة والموت ، والاحتياج إلى مدبّر يدبّر أمرها ، وفي القوانين التي تخضع لها وتنتظمها **﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾** . أي : ما تركنا في الكتاب من شيء ، والكتاب يحتمل أن يكون المراد به اللوح المحفوظ ، ويحتمل أن يكون المراد به القرآن . فإن أُريد به اللوح المحفوظ كان المراد : ماتركنا من شيء لم نكتبه في اللوح المحفوظ ، وإن كان المراد به القرآن كان المعنى : ما تركنا في القرآن من شيء يحتاج الخلق إلى بيانه إلا وقد اشتمل عليه القرآن ، وقد جاء هذا التقرير في سياق الكلام عن كون كلّ نوع من دوابّ الأرض ، وكل نوع من الطيور ، أمة لها من الخصائص ، والقوانين ، واللغة ، والعادات ، ما به تسمّى أمة ، وعلم دراسات الحيوانات أعطانا ـــ حتى الآن ـــ من هذا الكثير ، فإشارة القرآن إلى ذلك هنا معجزة منفردة ، وهو في الوقت نفسه دليل على أنه ما من شيء إلا وفي القرآن بيان عنه . **﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾** في تفسير الحشر هنا اتجاهان للمفسرين ، الاتجاه الأول : اتجاه من يفسر حشر البهائم بأنه موتها ، والاتجاه الثاني يفسِّر حشرها ببعثها وإقامة العدل فيما بينها ، ثم إفنائها ، وفي الفوائد سنذكر مزيداً عن هذا الموضوع ، ولما ذكر من خلائقه وآثار قدرته في هذه الآية ما يشهد لربوبيته ، وينادي على عظمته ، قال : **﴿ والذين كذّبوا بآياتنا صُمٌّ ﴾** . أي : لا يسمعون كلام المنبّه **﴿ وبكمٌ ﴾** . أي : لا ينطقون بالحق **﴿ في الظلمات ﴾** . أي : خابطون فيها ، وجُمعت الظلمات لكثرة أنواعها ، ظلمة الجهل ، والحيرة ، والكفر ، والغفلة عن تأمل ذلك والتفكر فيه **﴿ من يشأ الله يضلله ﴾** . أي : من يشأ الله ضلاله يضلله ، وفي هذا إيذان بأنّه فعّال لما يريد **﴿ ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾** بأن يهديه للإسلام وفي هذا الكلام دليل على خلق الأفعال ، وإرادة المعاصي ، ونفي وجوب الأصلح عليه ، وهي قضايا خالف بها المعتزلة ، وإذ وصل السياق إلى هذا المعنى تأتي مجموعة أوامر بلفظ (**قل**) موجهة لرسول الله ﷺ تأمره أن يقول معاني محددة للكافرين ، فيها ردود على اقتراحهم الآيات .

ولقد استخرج صاحب الظلال من هذا المقام ـــ مقام اقتراح الآيات والموقف منها درساً سجّله وننقله بين يدي العلاج القرآني الذي ستعرضه المجموعات اللاحقة :

فصل في الموقف من الاقتراحات

يقول صاحب الظلال :

« من هنا لا ينبغي لصاحب الدعوة إلى هذا الدين ، أن يستجيب لاقتراحات المقترحين ممن يوجّه إليهم الدعوة ، في تحوير منهج دعوته عن طبيعة الربانية ؛ ولا أن يحاول تزيين هذا الدين لهم وفق رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم .. ولقد كان المشركون يطلبون الخوارق ـــ وفق مألوف زمانهم ومستوى مداركهم كما حكى عنهم القرآن في مواضع منه شتى ، منها في هذه السورة ﴿ **وقالوا : لولا أنزل عليه ملك !** ﴾ ... وفي السور الأخرى ما هو أشد إثارة للعجب من هذه الاقتراحات . ذلك كالذي حكاه عنهم في سورة الإسراء: ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ٭ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ٭ أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ٭ أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترق في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه !** ﴾ .. وكالذي حكاه عنهم في سورة الفرقان : ﴿ **وقالوا ماهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ٭ أو يُلقىٰ إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها !** ﴾ .

والتوجيه القرآني المباشر في هذه الموجة من السورة نهى رسول الله ﷺ والمؤمنين أن يرغبوا في إتيانهم بآية ـــ أية آية ـــ مما يطلبون . وقيل للرسول ﷺ : ﴿ **وإن كان كَبُر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سُلّماً في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونَنَّ من الجاهلين ٭ إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون** ﴾ .. وقيل للمؤمنين الذين رغبت نفوسهم في الاستجابة للمشركين في طلبهم آية عندما أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها! قيل لهم : ﴿ **إنَّما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ٭ ونقلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ .. ليعلموا أولاً : أن الذي ينقص المكذبين ليس هو الآية ، والدليل على الحق ، ولكن الذي ينقصهم أنهم لا يسمعون ، وأنهم موتى وأن الله لم يقسم لهم الهدى ـــ وفق سنة الله في الهدى والضلال كما أسلفنا ـــ ثم ليعلموا كذلك : أن هذا الدين يجري وفق سنة لا تتبدل ، وأنه أعز من أن يصبح تحت رغبات المقترحين وأهوائهم !

وهذا يقودنا إلى المجال الأشمل لهذا التوجيه القرآني .. إنه ليس خاصاً بزمن ، ولا

محصوراً في حادث ولا مقيداً باقتراح معين . فالزمن يتغير ، وأهواء الناس تتمثل في اقتراحات أخرى ، وأصحاب الدعوة إلى دين الله ينبغي ألا تستخفهم أهواء البشر .

وهناك من يضعون على الإسلام أقنعة أخرى ، ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات .. كالاشتراكية .. والديمقراطية .. وما إليها .. ظانين أنهم يخدمون الإسلام بهذه التقدمة الذليلة ! .. إن « الاشتراكية » مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشر ؛ قابل للصواب والخطأ . وإن « الديمقراطية » نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك ، يحمل صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ أيضاً .. والإسلام منهج حياة يشمل التصور الاعتقادى ، والنظام الاجتماعي الاقتصادى ، والنظام التنفيذي والتشكيلي .. وهو من صنع الله المبرَّأ من النقص والعيب .. فأين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لمنهج الله — سبحانه — عند البشر بوصفه بصفة من أعمال البشر ؟ بل أين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لله — سبحانه — عند العبيد بقول من أقوال هؤلاء العبيد ؟ ! ..

لقد كان كل شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه .. يتخذونهم أولياء : ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** .... ﴾ فهذا هو الشرك ! فما الوصف الذي يطلق إذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده ، ولكنهم — ويا للنكر والبشاعة ! — يستشفعون لله — سبحانه — عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم ؟ ! ..

إن الإسلام هو الإسلام . والاشتراكية هي الاشتراكية . والديمقراطية هي الديمقراطية .. ذلك منهج الله ، ولا عنوان له ولا صفة إلا العنوان الذي جعله الله له ، والصفة التي وصفه بها .. وهذه وتلك من مناهج البشر . ومن تجارب البشر . وإذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس .. ولا ينبغي لصاحب الدعوة إلى دين الله ، أن يستجيب لإغراء الزي الرائج من أزياء الهوى البشري المتقلِّب . وهو يحسب أنه يحسن إلى دين الله !

على أننا نسأل هؤلاء الذين هان عليهم دينهم ، ولم يقدّروا الله حق قدره .. إذا كنتم تقدمون الإسلام اليوم للناس باسم الاشتراكية ، وباسم الديمقراطية ، لأن هذين زيّان من أزياء الاتجاهات المعاصرة .. فلقد كانت الرأسمالية في فترة من الفترات هي الزي المحبوب عند الناس وهم يخرجون بها من النظام الإقطاعي ! كما كان الحكم المطلق في فترة من الفترات هو الزي المطلوب في فترة التجميع القومي للولايات المتناثرة كما في ألمانيا وإيطاليا أيام بسمرك وما تزيني مثلاً ! وغداً من يدري ماذا يكون الزي الشائع من الأنظمة الاجتماعية الأرضية ، وأنظمة الحكم التي يضعها العبيد للعبيد ، فكيف ياترى ستقولون غداً عن الإسلام ؟ لتقدموه للناس في الثوب الذي يحبه الناس ؟ !

إن التوجيه القرآني في هذه الموجة التي نحن بصددها ـــ وفي غيرها كذلك ـــ يشمل هذا كله .. إنه يريد أن يستعلي صاحب الدعوة بدينه ؛ فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين ، ولا يحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه ، ولا مخاطبة الناس به بغير منهجه ووسيلته .. إن الله غني عن العالمين . ومن لم يستجب لدينه عبودية له ، وانسلاخاً من العبودية لسواه ، فلا حاجة لهذا الدين به ، كما أنه لا حاجة لله ـــ سبحانه ـــ بأحد من الطائعين أو العصاة . ثم إنه إذا كان لهذا الدين أصالته من ناحية مقوماته وخصائصه ، التي يريد الله أن تسود البشرية . فإن له كذلك أصالته في منهجه في العمل ، وفي أسلوبه في خطاب الفطرة البشرية ... إن الذي نزّل هذا الدين بمقوماته وخصائصه ، وبمنهجه الحركي وأسلوبه ، هو ـــ سبحانه ـــ الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما توَسْوِس به نفسه .. » .

☆ ☆ ☆

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** ﴾ ينقل ابن كثير ما أخرجه الحافظ أبو يعلى عن جابر بن عبد الله قال : قَلّ الجراد في سنة من سِنِي عمر رضي الله عنه التي ولي فيها ، فسأل عنه فلم يخبَر بشيء فاغتمّ لذلك فأرسل راكباً إلى كذا ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى العراق يسأل هل رؤي من الجراد شيء أم لا ؟ قال : فأتاه الراكب الذي من قِبَل اليمن بقبضة جراد ، فألقاها بين يديه ، فلما رآها كبر ثلاثاً ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خلق الله ــ عز وجل ــ ألف أمة ، منها ستمائة في البحر ، وأربعمائة في البر ، وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد . فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه » . وفي حالة صحة هذا الحديث فالمراد بذكر العدد إما التكثير فلا يفهم منه الحصر ، وإما أن يكون المراد الأمم الرئيسية التي خلقها الله ، أو الأمم ذات الإدراك المرتفع .

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى عن هذه الأمم : ﴿ **ثم إلى ربهم يُحشرون** ﴾ نقل ابن كثير في معنى الحشر قولين ، القول الأول أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس قال : موت البهائم حشرها وذكر أنه رُوي عن مجاهد والضحاك مثله ، والقول الثاني إن حشرها هو بعثها يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿ **وإذا الوحوش حُشِرَت** ﴾ ثم ذكر مجموعة آثار تشهد لهذا القول وهذه هي مع حذف الأسانيد :

أ ــ روى الإمام أحمد ... عن أبي ذر : أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال : « يا أبا ذر هل تدري فيم تنتطحان ؟ » قال : لا ، قال : « لكن الله يدري وسيقضي بينهما » .

ب ــ روى ابن جرير . عن أبي ذر قال : بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزان فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون فيم انتطحتا ؟ » قالوا : لا ندري ، قال : « لكن الله يدري وسيقضي بينهما » . ورواه من طريق آخر عن أبي ذر فذكره وزاد : قال أبو ذر : ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً .

ج ــ وروى عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه ... عن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة » .

د ــ وروى عبد الرزاق ... عن أبي هريرة في قوله ﴿ **إلا أمم أمثالكم ، ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ قال يحشر الخلق كلهم يوم القيامة . البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجمّاء من القرناء ، ثم يقول كوني تراباً ، فلذلك يقول الكافر : ﴿ **يا ليتني كنت تراباً** ﴾ .

هذان اتجاهان للمفسرين في هذا الموضوع ، والذي نفهمه نحن أنّ ما نص الله ورسوله ﷺ على حشره يحشر ، وما لم ينص على حشره فموته حشره حتى لا يقال إن الجراثيم وما أشبهها في الخلق تبعث وتحشر أو نقول : إن هناك حدّاً معيّناً من الإدراك إذا وجد ترتب عليه حشر ، وإذا لم يوجد لم يكن حشر ، ويتحقق العدل الإلهي في الحيوانات التي لا تحشر بالشكل الذي يعلمه الله ــ عز وجل ــ ونرجو أن نكون بذلك قد جمعنا بين القولين بما لم نعطّل به نصاً ، ولم نشأ أن نتحدث عن هذا الموضوع بما يبعد هذا التفسير عن بساطته وسهولة الوصول إلى معانيه .

٣ ــ رأينا أن هناك اتجاهين للمفسرين في تفسير الكتاب في قوله تعالى : ﴿ **ما فرّطنا في الكتاب من شيء** ﴾ قال الألوسي : ذاكراً أدلة من ذهب إلى أن المراد بذلك القرآن :

« والمراد من الكتاب القرآن ، واختاره البلخي وجماعة . فإنه ذكر فيه جميع ما يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا ، بل وغير ذلك ، إما مفصّلاً ، وإما مجملاً ، فعن الشافعي عليه الرحمة : ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله تعالى الهدى فيها .

وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « لعن الله تعالى الواشمات ، والمستوشمات ، والمتنمصات ، والمتفلّجات للحسن ، المغيرات خلق الله تعالى ، فقالت له امرأة في ذلك . فقال : ما لي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى . فقالت له : قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول . قال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ . قالت : بلى . قال : فإنه عليه الصلاة والسلام قد نهى عنه » . وقال الشافعي رحمه الله تعالى مرة بمكة : سلوني عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله تعالى . فقيل له ؟ ما تقول في المحرم يقتل الزنبور : فأجاب بأنه يقتله واستدل عليه بنحو استدلال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه .

وأخرج ابن جرير . وابن أبي حاتم عنه أنه قال : يقال : أنزل في هذا القرآن كل علم

وبين لنا فيه كل شيء . ولكن علمنا يقصر عما بُيّن لنا في القرآن » وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله سبحانه وتعالى لو أغفل شيئاً لأغفل الذرّة والخردلة والبعوضة » وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ، وقال المرسي : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر الله تعالى به » .

كلمة في السياق :

ذكرت المجموعة السادسة اقتراحاً للكافرين وردّت عليه ، وبعد هذا الردّ تأتي الآن مجموعات تعالج المرض ، وتقيم الحجة ، وتشرح بعض سنن الله ، وتأمر رسول الله ﷺ أن يوجه الحوار ، وأن يناقش ، وأن يعلن ، وكل ذلك يجري على نسق واحد ، نسق يحقق تكامل الجولة ضمن سياقها ، ويكمّل تفصيل المحور ، والملاحظ أن الأمر « قل » الموجه لرسول الله ﷺ يتكرّر في هذه المجموعات ، وقد مرّت معنا من قبل ست مجموعات في هذه الجولة وها قد وصلنا إلى المجموعة السابعة وهي مصدرة بقوله تعالى : ﴿ **قل** ﴾ .

المجموعة السابعة

﴿ **قل أرأيتكم** ﴾ . أي : هل علمتم أنّ الأمر كما يقال لكم فأخبروني بما عندكم ﴿ **إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون** ﴾ معناه : أخبروني إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة من تدعون غير الله ؟ وفي هذا تبكيت لهم أي أتخصون آلهتكم بالدعوة إذا أصابكم ضر ، أم تدعون الله دونها ؟ ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أنّ غير الله إله فادعوه ليخلصكم ولكنّهم كاذبون ﴿ **بل إياه تدعون** ﴾ . أي : بل تخصّونه بالدُّعاء دون الآلهة المزعومة ﴿ **فيكشف ما تدعون إليه إن شاء** ﴾ . أي : فيكشف ما تدعونه إلى كشفه إن أراد أن يتفضّل عليكم ﴿ **وتنسون ما تشركون** ﴾ . أي : وتتركون آلهتكم أو لا تذكرون آلهتكم في ذلك الوقت لأنّ أذهانكم وقتذاك مغمورة بذكر ربكم وحده إذ هو القادر على كشف الضرّ دون غيره .

إن رجوع الإنسان إلى الله ساعة الشدّة وإقباله عليه بالدّعاء وإفراده بذلك ، لدليل أيما دليل على استكنان الإيمان بالله وتوحيده في الفطرة البشرية ، ولقد علّق صاحب

الظلال على الآية الأخيرة ﴿ **بل إياه تدعون** ... ﴾ بقوله :

« بل تدعونه وحده ؛ وتنسون شرككم كله ! .. إن الهول يعرّي فطرتكم ـ حينئذ ـ فتتجه بطلب النجاة إلى الله وحده . وتنسى أنها أشركت به أحداً . بل تنسى هذا الشرك ذاته .. إن معرفتها بربها هي الحقيقة المستقرة فيها ؛ فأما هذا الشرك فهو قشرة سطحية طارئة عليها ، بفعل عوامل أخرى . قشرة سطحية في الركام الذي ران عليها . فإذا هزّهاالهول تساقط هذا الركام ، وتطايرت هذه القشرة ، وتكشّفت الحقيقة الأصلية ، وتحركت الفطرة حركتها الفطرية نحو بارئها ، ترجوه أن يكشف عنها الهول الذي لا يد لها به ، ولا حيلة لها فيه ..

هذا شأن الفطرة في مواجهة الهول ، يواجه السياق القرآني به المشركين .. فأما شأن الله ـ سبحانه ـ فيقرره في ثنايا المواجهة . فهو يكشف ما يدعونه إليه ـ إن شاء ـ فمشيئته طليقة ، لا يرد عليها قيد . فإذا شاء استجاب لهم فكشف عنهم ما يدعون كله أو بعضه ؛ وإن شاء لم يستجب ، وفق تقديره وحكمته وعلمه .

هذا هو موقف الفطرة من الشرك الذي تزاوله أحياناً ، بسبب ما يطرأ عليها من الانحراف ، نتيجة عوامل شتى ، تغطي على نصاعة الحقيقة الكامنة فيها .. حقيقة اتجاهها إلى ربها ومعرفتها بوحدانيته .. فما هو موقفها من الإلحاد وإنكار وجود الله أصلاً ؟ نحن نشك شكاً عميقاً ـ كما قلنا من قبل ـ في أن أولئك الذين يمارسون الإلحاد في صورته هذه صادقون فيما يزعمون أنهم يعتقدونه . نحن نشك في أن هناك خلقاً أنشأته يد الله ، ثم يبلغ به الأمر حقيقة أن ينطمس فيه تماماً طابع اليد التي أنشأته ، وفي صميم كينونته هذا الطابع ، مختلطاً بتكوينه ، متمثلاً في كل خلية وفي كل ذرة . إنما هو التاريخ الطويل من العذاب البشع ، ومن الصراع الوحشي مع الكنيسة ، ومن الكبت والقمع ، ومن إنكار الكنيسة للدوافع الفطرية للناس مع استغراقها هي في اللذائذ المنحرفة .. إلى آخر هذا التاريخ النكد الذي عاشته أوربا قروناً طويلة .. هو الذي دفع الأوربيين في هذه الموجة من الإلحاد في النهاية .. فراراً في التيه ، من الغول الكريه . ذلك إلى استغلال اليهود لهذا الواقع التاريخي ؛ ودفع النصارى بعيداً عن دينهم ؛ ليسلس لهم قيادهم ، ويسهل عليهم إشاعة الانحلال والشقاء فيهم ، وليتيسر لهم استخدامهم ـ كالحمير ـ على حد تعبير « التلمود » و « برتوكولات حكماء صهيون » .. وما كان اليهود ليبلغوا من هذا كله شيئاً إلا باستغلال ذلك التاريخ الأوربي النكد ، لدفع الناس إلى الإلحاد هرباً

من الكنيسة . ومع كل هذا الجهد الناصب ، المتمثل في محاولة « الشيوعية » ــ وهي إحدى المنظمات اليهودية ــ لنشر الإلحاد ، خلال أكثر من نصف قرن ، بمعرفة كل أجهزة الدولة الساحقة ، فإن الشعب الروسي نفسه لم يزل في أعماق فطرته الحنين إلى عقيدة في الله .. ولقد اضطر « ستالين » الوحشي ــ كما يصوره خَلَفه خروشوف ! ــ أن يهادن الكنيسة ، في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأن يفرج عن كبير الأساقفة ، لأن ضغط الحرب كان يلوي عنقه للاعتراف للعقيدة في الله بأصالتها في فطرة الناس مهما يكن رأيه ورأي القليلين من الملحدين من ذوي السلطان حوله .

ولقد حاول اليهود ــ بمساعدة « الحمير » الذين يستخدمونهم من الصليبيين ــ أن ينشروا موجة من الإلحاد في نفوس الأمم التي تعلن الإسلام عقيدة لها وديناً . ومع أن الإسلام كان قد بهت وذبل في هذه النفوس .. فإنّ الموجة التي أطلقوها عن طريق أتاتورك في تركيا .. انحسرت على الرغم من كل ما بذلوه لها ــ (وللبطل) ــ من التمجيد والمساعدة . وعلى كل ما ألّفوه من الكتب عن (البطل) والتجربة الرائدة التي قام بها .. ومن ثم استداروا في التجارب الجديدة يستفيدون من تجربة أتاتورك ، ألّا يرفعوا على التجارب الرائدة راية الإلحاد . إنما يرفعون عليها راية الإسلام ،. كي لا تصدم الفطرة ، كما صدمتها تجربة أتاتورك . ثم يجعلون تحت هذه الراية ما يريدون من المستنقعات والقاذورات والانحلال الخلقي ، ومن أجهزة التدمير للخامة البشرية بجملتها في الرقعة الإسلامية .

غير أن العبرة التي تبقى من وراء ذلك كله ، هي أن الفطرة تعرف ربها جيداً ، وتدين له بالوحدانية ، فإذا غشّى عليها الرّكام فترة ، فإنها إذا هزها الهول وتساقط عنها ذلك الركام كله وتعرَّت منه جملة ، عادت إلى بارئها كما خلقها أول مرة .. مؤمنة طائعة خاشعة .. أما ذلك الكيد كله فحسبه صيحة حق تزلزل قوائمه ، وترد الفطرة إلى بارئها سبحانه . ولن يذهب الباطل ناجياً ، وفي الأرض من يطلق هذه الصيحة . ولن يخلو وجه الأرض ــ مهما جهدوا ــ ممن يطلق هذه الصيحة » .

وبعد أن أقام الله الحجة على المشركين من خلال واقعهم وإذ كان السياق في موضوع التهديد بالعذاب الرباني ﴿ **إن أتاكم عذاب الله** ﴾ فإن الآية التالية تبين لهم سنّة الله في معاملته للأمم حتى لا يستبطئوا عذاب الله مع تكذيبهم رسوله فقال : ﴿ **ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك** ﴾ . رسلًا فكذبوهم ﴿ **فأخذناهم بالبأساء والضراء** ﴾ . أي : بالبؤس

والضر ، ويدخل في البؤس القحط ، والجوع ، وفي الضر المرض ، ونقصان الأنفس ، والأولاد ﴿ **لعلهم يتضرعون** ﴾ . أي : يتذللون ، ويتخشّعون لربّهم ، ويتوبون عن ذنوبهم إذ المفروض أن تتخشّع النّفوس عند نزول الشدائد ﴿ **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا** ﴾ . أي : هلّا تضرعوا بالتّوبة عند إنزال البأساء والضّراء بهم ، وهذا يفيد نفي التضرع وإنما استعملت (لولا) في هذا المقام ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم ﴿ **ولكن قست قلوبهم** ﴾ فلم ينزجروا بما ابتلوا به بل زادوا عتواً بدلاً من أن يتضرعوا ﴿ **وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾ فصاروا معجبين بأعمالهم على قبحها وسوئها كما نرى المنحرفين عن أمر الله ــ وما أكثرهم ــ يسمّون انحرافهم أسماءً تدل على عجبهم وافتخارهم بما هم فيه من ضلال ﴿ **فلما نسوا ما ذُكِّروا به** ﴾ من الوحي والبأساء والضراء أي : تركوا الاتعاظ به ؛ ولم يزجرهم ؛ فأعرضوا عنه ، وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿ **فتحنا عليهم أبواب كل شيء** ﴾ من الصّحة ، والسّعة ، وصنوف النعمة ، ورخاء الدنيا ، ويسرها من جاه ورفاه ومجد ، وهذا استدراج منه تعالى ، وإملاء لهم عياذاً بالله من مكره ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا** ﴾ . أي : من الأموال والأولاد والأرزاق والجاه وتيسير الأمور ﴿ **أخذناهم بغتة** ﴾ . أي : على غفلة أي فجأة ﴿ **فإذا هم مبلسون** ﴾ . أي : آيسون من كل خير ومتحسرون ، وأصل الإبلاس : الإطراق حزناً لما أصاب الإنسان أو ندماً على ما فاته ﴿ **فقُطع دابر القوم الذين ظلموا** ﴾ . أي : أهلكوا عن آخرهم ، ولم يترك منهم أحد إذ عندما يقطع دابرهم لا يبقى منهم أحد ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾ هذا إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة ، وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم ، أو احمدوا الله على إهلاك من لم يحمد الله .

ومن الآيات نعرف كما قال صاحب الظلال :

إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة ، وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة ! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة . يبتلي الطائعين والعصاة سواء . بهذه وبذاك سواء .. والمؤمن يُبتلى بالشدة فيصبر ، ويُبتلى بالرخاء فيشكر ، ويكون أمره كله خيراً .. وفي الحديث : « عجباً للمؤمن إن أمره كله له خير ــ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ــ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (رواه مسلم) .

كلمة في السّياق :

ـــ إن صلة قوله تعالى : ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** ﴾ بسياق الجولة الذي عنوانه ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ واضحة ، فقَطْعُ دابر الذين ظلموا مظهر من مظاهر القهر الإلهي ، وذلك مظهر من مظاهر ارتباط المجموعة التي مرّت معنا بسياق الجولة الخاص الذي تحدثنا عنه كثيراً ، وقد آن الآوان لنتذكر محلّ هذه الجولة بالنسبة لسياق السورة الخاص :

بدأت سورة الأنعام بقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثمّ الذين كفروا بربهم يعدلون ۝ هو الذي خلقكم من طين ثمّ قضى أجلًا وأجل مسمى عنده ثمّ أنتم تمترون** ﴾ لاحظ كلمتي (يعدلون) و (تمترون) إن الشرك والامتراء ، أو الشرك والشك ، مرَضَان من أمراض النفس البشرية ، والجولة التي بين أيدينا تعالج الشرك ، والشك ، والامتراء منذ بدايتها ، ففي المجموعة الأولى ورد قوله تعالى : ﴿ **قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون** ﴾ . وفي المجموعة الثانية ورد قوله تعالى: ﴿ **ثمّ لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ وذكرت المجموعات الأربع اللاحقة مجادلة المشركين ، ثم جاءت المجموعة السابعة وفيها عودة إلى التوحيد ﴿ **بل إياه تدعون** ﴾ وتأتي المجموعة الثامنة لتكمل الحوار مع الشرك وأهله ، فالجولة إذن ـــ مع أن لها سياقها الخاصّ بها ـــ ترتبط بسياق السورة الخاص بروابط متعدّدة ، وهي في هذا كله تفصّل في محور السورة من البقرة .

فوائد :

١ ـــ روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال : « إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج » . ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ﴾ . وروى ابن أبي حاتم أنّ الحسن البصري قال : من وسّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له ، ومن قتّر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له ، ثم قرأ : ﴿ **فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ﴾ قال : مكر بالقوم ورب الكعبة ؛ أعطوا

حاجتهم ثم أخذوا . وروى ابن أبي حاتم أيضاً أن قتادة قال : بغت القومَ أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم ، وغرتهم ، ونعمتهم ؛ فلا تغتروا بالله فإنه لايغتر بالله إلا القوم الفاسقون .

وروى ابن أبي حاتم أيضاً ... عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « إذا أراد الله بقوم بقاء — أو نماء — رزقهم القصد والعفاف ، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم — أو فتح عليهم — باب خيانة ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ﴾ كما قال : ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ . وهذا الموضوع مما ينبغي أن يعرفه كل إنسان ، فإن أكثر الناس غافلون عن هذا المقام إذا أصابهم النعماء جعلوها علامة على الرضى ، وإذا أصابهم غير ذلك جعلوها علامة السخط ، ولم يرافق ذلك عندهم تضرع وإنابة وتوبة ، وكثيرون من الناس يغترون بما عليه الناس من نعمة ، أو يحكمون على مقاماتهم عند الله بما يرون من صعوبات تعترضهم ، وكل هؤلاء معرفتهم بالله قاصرة ، وإدراكهم لقهر الله وفعله محدود . وعلينا أن ندرك في هذا المقام أن الاستدراج والإملاء قد يكون لفرد ، وقد يكون لأمة ، وقد يكون لقوم ، وقد يكون لدولة . فليحذر الإنسان سخط الله ، وليحاسب نفسه .

٢ — بمناسبة الكلام عن الأمم التي أرسل الله لها رسلًا وسنّة الله فيها قال صاحب الظلال : « ولقد عرف الواقع البشري كثيراً من هذه الأمم ، التي قصّ القرآن الكريم على الإنسانية خبر الكثير منها ، قبل أن يولد « التاريخ » الذي صنعه الإنسان ! فالتاريخ الذي سجّله بنو الإنسان حديث المولد ، صغير السن ، لايكاد يعي إلا القليل من التاريخ الحقيقي للبشر على ظهر الأرض ! وهذا التاريخ الذي صنعه البشر حافل — على قصره — بالأكاذيب والأغاليط ، وبالعجز والقصور عن الإحاطة بجميع العوامل المنشئة ، والمحرّكة للتاريخ البشري ، والتي يكمن بعضها في أغوار النفس ، ويتوارى بعضها وراء ستر الغيب ، ولا يبدو منها إلا بعضها . وهذا البعض يخطىء البشر في جمعه ، ويخطئون في تفسيره ، ويخطئون أيضاً في تمييز صحيحه من زائفه — إلا قليلًا — ودعوى أي بشر أنه أحاط بالتاريخ البشري علماً ، وأنه يملك تفسيره تفسيراً « علمياً » وأنه يجزم بحتمياته المقبلة أيضاً .. هي أكبر أكذوبة يمكن أن يدّعيها بشر ! ومن عجب أن بعضهم يدعيها ! والأشد إثارة للعجب أن بعضهم يصدقها ! ولو قال ذلك المدعي : إنه يتحدث عن (توقعات) لا عن (حتميات) لكان ذلك مستساغاً .. ولكن إذا

وجد المفتري من المغفلين من يصدقه فلماذا لا يفتري ؟ ! .

والله يقول الحق ، ويعلم ماذا كان ولماذا كان . ويقص على عبيده ــ رحمة منه وفضلًا ــ جانباً من أسرار سننه وقدره ؛ ليأخذوا حذرهم ويتعظوا ؛ وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة ؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيراً كاملًا صحيحاً . ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون ، واستناداً إلى سنة الله التي لا تتبدّل .. هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها .. » .

« ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة ؛ وكان لها من التمكين في الأرض ؛ وكان لها من الرخاء والمتاع ؛ ما لا يقل ــ إن لم يزد في بعض نواحيه ــ عما تتمتع به اليوم أمم مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع ؛ مخدوعة بما هي فيه ؛ خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء ..

هذه الأمم لاتدرك أن هناك سنة ، ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة . والذين يدورون في فلكها يبهرهم اللألاء الخاطف ، ويتعاظمهم الرخاء والسلطان ، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم ، وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه ، وهي تتمرّد على سلطانه ، وهي تدعي لأنفسها خصائص ألوهيته ، وهي تعيث في الأرض فساداً ، وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله ..

ولقد كنت ــ في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية ــ أرى رأى العين مصداق قول الله سبحانه : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء** ﴾ .. فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية .. مشهد تدفّق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب ! .. لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك ! وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه ، وشعورهم بأنه وقف على « الرجل الأبيض » وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مرذولة ، وفي وحشية ــ كذلك بشعة ! وفي صلف على أهل الأرض كلهم لا يصل إليه صلف النازية الذي شهر به اليهود في الأرض كلها ، حتى صار عَلماً على الصلف العنصري . بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى ! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين ..

كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية ، وأتوقع سنة الله ، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين . ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ٥

فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ ..

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية . والبشرية ــ وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء ــ تذوق منها الكثير . على الرغم من هذا النتاج الوفير ، ومن هذا الرزق الغزير !

إن العذاب النفسي ، والشقاء الروحي ، والشذوذ الجنسي ، والانحلال الخلقي .. الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم ، ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع ؛ وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء ! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية ، التي تباع فيها أسرار الدولة ، وتقع فيها الخيانة للأمة ، في مقابل شهوة أو شذوذ .. وهي طلائع لا تخطىء على نهاية المطاف !

وليس هذا كله إلا بداية الطريق.. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ــ على معاصيه ــ ما يحب فإنما هو استدراج » .. ثم تلا : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ﴾ ... (رواه ابن جرير وابن أبي حاتم) .

غير أنه ينبغي ، مع ذلك ، التنبيه إلى سنة الله في تدمير (الباطل) أن يقوم في الأرض (حق) يتمثل في (أمة) .. ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .. فلا يقعدنّ أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجرى سنة الله بلا عمل منهم ولا كد . فإنهم حينئذٍ لا يمثلون الحق ، ولا يكونون أهله .. وهم كسالى قاعدون ... » .

ثم تأتي المجموعة الثامنة في الجولة الأولى من المقطع الثاني من سورة الأنعام وفيها حوار وعرض سنن ، وإقامة حجة ، وهي مبدوءة بكلمة « قل » ويتكرّر فيها هذا الأمر أكثر من مرّة فلنر المجموعة :

المجموعة الثامنة

﴿ **قل** ﴾ . أي : يا محمد لهؤلاء المكذّبين المعاندين ﴿ **أرأيتم إن أخذ الله سمعَكم وأبصارَكم** ﴾ بأن أصمّكم وأعماكم أي سلبكم إياها كما أعطاكموها وهذا تدليل على قدرة الله ، كما هو تذكير بطرق النظر المؤدية إلى الإيمان لأنه وارد في سياق اقتراحهم الآيات ﴿ **وختم على قلوبكم** ﴾ فسلب العقول والتمييز ، ثمّ سألهم : ﴿ **من إله غير الله يأتيكم به** ﴾ . أي : هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ؟ بل

لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ **انظر كيف نصرِّف الآيات** ﴾ . أي : نكرّرها ونبيّنها ونوضّحها ونفسّرها ، دالة على أنه لا إله إلا الله ، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ، وبدلا من رؤية الآيات والوصول من خلالها إلى الإيمان يقترحون الآيات والمعجزات تعنتا وعناداً ، ﴿ **ثم هم يصدفون** ﴾ . أي : ثم هم يعرضون عن الآيات بعد ظهورها ، والصدوف : الإعراض عن الشيء .

ثمّ يأتي أمر آخر لرسول الله ﷺ بصيغة (قل) : ﴿ **قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتةً** ﴾ . أي : فجأة بأن لم نُظهر أماراته ﴿ **أو جهرةً** ﴾ . أي : ظهرت أماراته ﴿ **هل يُهلَك إلا القوم الظالمون** ﴾ . أي : ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشِّرين ومنذرين** ﴾ مبشّرين بالجنان لأهل الإيمان ، ومنذرين بالنيران لأهل الكفران ، قال النسفي : ولم نرسلهم ليقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة والأدلة الساطعة . وقال ابن كثير : مبشّرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات ﴿ **فمن آمن وأصلح** ﴾ . أي : فمن آمن من قلبه بما جاءوا به ، وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ . أي : بالنسبة لما يستقبلونه ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ . أي : بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا فالله وليهم فيما خلّفوه، وحافظهم فيما تركوه ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون** ﴾ . أي : ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل ، وبما خرجوا عن أوامر الله وطاعته ، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته ، جعل العذاب ماسّاً كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام ، وقوله تعالى : ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ يعني أن ذلك بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى بالكفر وفي هذه المجموعة بيان أن العذاب لا يصيب إلا الظالمين الفاسقين ، وأن المؤمنين الصالحين في أمان في دنياهم وأخراهم ، والآن يأتي أمر آخر بصيغة (قل) : ﴿ **قل لا أقول لكم عندي خزائن الله** ﴾ . أي : قسمه للخلق وأرزاقه ، أو لست أملك خزائنه ولا أتصرف فيها ﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ . أي : ولا أقول لكم إني أعلم الغيب إنما ذاك من علم الله — عز وجل — ولا أطّلع منه إلا على ما أطلعني عليه ﴿ **ولا أقول لكم إني ملك** ﴾ . أي : ولا أدعي أنّي ملك ، إنّما أنا بشر من البشر يوحى إليَّ من الله — عز وجل — شرّفني بذلك وأنعم عليَّ به ، والمعنى : لا أدعي هذا ولا هذا أي : لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر ، من ملك خزائن الله ، وعلم الغيب ، ودعوى الملكية ، فلماذا تكذبون دعوتي ورسالتي ! ﴿ **إن أتبع إلا**

ما يوحى إليّ ﴾ . أي : لست أخرج عنه قيد شبر ، ولا أدنى منه ، وما أخبركم إلا بما أنزل الله عليّ ﴿ **قل هل يستوي الأعمى والبصير** ﴾ هذا مثل للضال والمهتدي ، أو لمن اتّبع ما يوحى إليه ومن لم يتبع ، أو لمن يدّعي المستقيم وهو النبوة مع الدليل والبرهان ، والمحال وهو الإلهية ﴿ **أفلا تتفكرون** ﴾ من أجل ألا تكونوا ضالين ، أو من أجل أن تعلموا أني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر ، أو من أجل أن تعلموا أن اتّباع ما يوحى إليّ مِمّا لا بدّ لي منه . وتعليقا على هذه الآية ، وتبياناً لكون العقل بدون الوحي أعمى ، وتوضيحاً لمحل العقل بالنسبة للإنسان يقول صاحب الظلال :

« ثم .. إنّ اتباع الوحي وحده هداية وبصر ، والمتروك بغير هذا الهادي متروك أعمى .. هذا ما تقرره هذه الآية في وضوح وصرامة .. فما شأن العقل البشري في هذا المجال ؟ سؤال جوابه في التصور الإسلامي واضح بسيط .. إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي ، وإدراك مدلولاته .. وهذه وظيفته .. ثم هذه هي فرصته في النور والهداية ، وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيداً عن الوحي ، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف ، وسوء الرؤية ، ونقص الرويّة ، وسوء التقدير ، وسوء التدبير .

يتعرض لهذا كله بسبب طبيعة تركيبه ذاتها في رؤية الوجود أجزاء لا كلًا واحداً . تجربة بعد تجربة ، وحادثة بعد حادثة ، وصورة بعد صورة .. حيث يتعذر عليه أن يرى الوجود جملة ليقيم على أساس هذه الرؤية الكاملة أحكاماً ، ويضع على أساسها نظاماً ، ملحوظاً فيه الشمول والتوازن .. ومن ثم يظل ـــ حين ينعزل عن منهج الله وهداه ـــ يرتاد التجارب ، ويغيّر الأحكام ، ويبدّل النّظام ، ويضطرب بين الفعل وردود الفعل ، ويتخبط من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال .. وهو في ذلك يحطم كائنات بشرية عزيزة ، وأجهزة إنسانية كريمة .. ولو اتبع الوحي لكفىٰ البشر هذا الشر كله ؛ وجعل التجارب والتقلبات في « الأشياء » وفي « المادة » وفي « الأجهزة » وفي « الآلات » .. وهي مجاله الطبيعي الذي يمكن أن يستقل فيه . والخسارة في النهاية مواد وأشياء . لا أنفس وأرواح .

ويتعرض لهذا كله ـــ بعد طبيعة تركيبه ـــ بسبب ما ركب في الكيان البشري من

شهوات وأهواء ونزعات ، لا بد لها من ضابط يضمن أن تؤدي وظائفها في استمرار حياة البشرية وارتقائها ، ولا تتعدى هذا الحد المأمون ، فتؤدي إلى تدمير الحياة وانتكاسها ، وهذا الضابط لا يمكن أن يكون هو العقل البشري وحده ، فلابد لهذا العقل الذي يضطرب تحت ضغط الأهواء والشهوات والنزعات ــ وهي شتى ــ من ضابط آخر يضبطه هو ذاته ؛ ويحرسه بعد أن يضبطه من الخلل أيضاً ، ويرجع إليه هذا العقل بكل تجربة ، وكل حكم في مجال الحياة البشرية ؛ ليقوِّم به تجربته وحكمه وليضبط به اتجاهه وحركته .

والذين يزعمون للعقل البشري درجة من الأصالة في الصّواب كدرجة الوحي ، باعتبار أن كليهما ــ العقل والوحي ــ من صنع الله فلا بد أن يتطابقا .. هؤلاء إنما يستندون إلى تقريرات عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر ، ولم يقل بها الله سبحانه .

والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي ــ حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر ــ إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله .. فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجّة هي عقلهم البشري ، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به . لأن الله ــ سبحانه ــ يعلم أن العقل وحده يضل ، وأن الفطرة وحدها تنحرف . وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة ، إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي ، وهو النور والبصيرة .

والذين يزعمون أن الفلسفة تغني العقل عن الدين ؛ أو أن العلم ــ وهو من منتجات العقل ــ يغني البشرية عن هدى الله ؛ إنما يقولون قولًا لا سند له من الحقيقة ولا من الواقع كذلك .. فالواقع يشهد أن الحياة البشرية التي قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو على العلم ، هي أبأس حياة يشقى فيها « الإنسان » مهما فتحت عليه أبواب كل شيء ؛ ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد ؛ ومهما تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق ، وليس مقابل هذا أن تقوم الحياة على الجهل والتلقائية ! فالذين يضعون المسألة هكذا مغرضون فإن الإسلام منهج حياة يكفل للعقل البشري الضمانات التي تقيه عيوب تركيبه الذاتي ، وعيوب الضغوط التي تقع عليه من الأهواء والشهوات والنزعات . ثم يقيم له الأسس ، ويضع له القواعد تكفل له انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة ، كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التي يعيش في ظلها ــ وفق

شريعة الله ـــ فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك . والعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير ، وبترك وحي الله وهداه أعمى » .

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ يقول صاحب الظلال : « ولقد شاعت في الجاهليات المتنوعة صور من « النبوءات » الزائفة ، يدّعيها « متنبئون » ويصدقها مخدوعون .. ومن بينها نبوءات السحر والكهانة والتنجيم والجنون ! حيث يدعي المتنبئون قدرتهم على العلم بالغيب ، والاتصال بالجن والأرواح ، وتسخير نواميس الطبيعة بالرقى ، والتعاويذ ، أو بالدعوات والصلوات ، أو بغيرها من الوسائل والأساليب . وتتفق كلها في الوهم والضلالة ، وتختلف بعد ذلك في النوع والشكل والمراسم والأساليب .

« فنبوءة السحر يغلب عليها أنها موكلة بالأرواح الخبيثة تسخرها للاطلاع على المجهول أو السيطرة على الحوادث والأشياء . ونبوءة الكهانة يغلب عليها أنها موكلة « بالأرباب ! » . لا تطيع الكاهن ، ولكنها تلبي دعوته وصلواته وتفتح لها مغالق المجهول في يقظته أو منامه وترشده بالعلامات والأحلام ، ولا تلبي سائر الدعوات والصلوات ! ولكنهما ـــ نبوءة السحر ونبوءة الكهانة ـــ تخالفان نبوة الجذب والجنون المقدس . لأن الساحر والكاهن يدريان بما يطلبان ، ويريدان قصداً ما يطلبانه بالعزائم والصلوات ، ولكن المصاب بالجذب أو الجنون المقدس مغلوب على أمره ، ينطق لسانه بالعبارات المبهمة وهو لا يعنيها ، ولعله لا يعيها . ويكثر بين الأمم التي تشيع فيها نبوة الجذب أن يكون مع المجذوب مفسر يدعي العلم بمغزى كلامه ، ولحن رموزه وإشاراته . وقد كانوا في اليونان يسمون المجذوب « مانتي » manti ويسمون المفسر « بروفيت » prophet أي المتكلم بالنيابة عن غيره . ومن هذه الكلمة نقل الأوربيون كلمة النبوة بجميع معانيها . وقلما يتفق الكهنة والمجذوبون، إلا أن يكون الكاهن متولياً للتفسير والتعبير عن مقاصد المجذوب ، ومضامين رموزه وإشارته . ويحدث في أكثر الأحيان أن يختلفا ويتنازعا لأنهما مختلفان بوظيفتهما الاجتماعية ، مختلفان بطبيعة النشأة والبيئة . فالمجذوب ثائر لا يتقيد بالمراسم والأوضاع المصطلح عليها ، والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث ـــ في أكثر الأحيان ـــ من آبائه وأجداده . وتتوقف الكهانة على البيئة التي تنشأ فيها الهياكل والصوامع المقصودة في الأرجاء القريبة والبعيدة ؛ ولا يتوقف

الجذب على هذه البيئة ، لأنه قد يعتري صاحبه في البرية ، كما يعتريه في الحاضر المقصود من أطراف البلاد » .

وهكذا حفلت الجاهليات — ومنها الجاهليات التي انحرفت عن التصور الصحيح الذي جاءت به الرسالات السماوية — بمثل هذه التصورات الباطلة عن طبيعة النبوة وطبيعة النبي . وكان الناس ينتظرون ممن يدعي النبوة مثل هذه الأمور ؛ ويطالبونه بالتنبؤ بالغيب تارة ، وبالتأثير في النواميس الكونية عن طريق الكهانة أو طريق السحر تارة .. ومن هذا المعين كانت اقتراحات المشركين على رسول الله ﷺ ولتصحيح هذه الأوهام كلها جاءت التقريرات المكررة في القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول ومنها هذا التقرير :

﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم : إني ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إلى . قل : هل يستوي الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ ﴾ ..

أقول : لقد أكرم الله رسوله ﷺ بأن أطلعه على بعض الغيوب ، وقد يكرم الله — عز وجل — مسلماً بأن يلهمه حقاً ، أو يجري على لسانه كلمة حق ، أو يريه رؤيا حق ، وبعض ذلك قد يكون له صلة بأمر غيبي . وقد يكرم الله المسلمين باستجابة دعاء فيسخر لهم ما يسخر ولكنّ ذلك ليس هو الأساس الذي يبني عليه المسلم مواقفه .

إن كثيرين من مسلمي عصرنا بسبب من رؤية كرامة لولي ، أو بسبب من إلهام حق لصالح يتابعون صاحب ذلك في كل شيء وينسون تكليف الله لهم في القيام بأمره ونصرة شريعته ، ووجوب التعاون مع المسلمين على الخير ، ووجوب كون المسلمين صفاً واحداً . إن هذه الآية تصحح مفاهيم خاطئة كثيرة في أمر النبوة وفي أمر الدخول في الإسلام ، وفي أمر المتابعة عليه . فليس رسول الله ملكاً ومن ثمّ يُتابَع ، وليس رسول الله عالماً بالغيب ومن ثمّ يُتابَع ، وليس بيد رسول الله ﷺ خزائن الله ومن ثمّ يتابع ، إنه يُتابَع لأنه رسول الله ﷺ ، وقد يعطيه الله ويعطي من تابعه ، وقد يكرمه الله بشيء من علم الغيب ، ثم هو أكرم على الله من ملائكته ولكنّ صفته هي أنّه رسول الله ﷺ .

ولا زالت القضايا التي صححتها الآية محل غلط عند كثير من المسلمين : فالرّفاه عند بعضهم هو الهدف من حمل الإسلام والمطالبة بإقامته ، إن الرفاه سيتحقق بإذن الله ،

ولكن الدخول في الإسلام والمطالبة بإقامته مطلوب من الإنسان في كل حال وجد رفاه أو لم يوجد .

والصف الإسلامي يقدّم قيادته الراشدة ، وهذه القيادة واجبة الطاعة على تفصيلات . وقد يكرم الله - عز وجل - هذه القيادة بإلهام ، ولكن وجود القيادة ووجوب طاعتها ليس متعلقاً بذلك .

كلمة في السياق :

في المجموعات الثمان التي مرت معنا في هذه الجولة - بل فيها وفيما قبلها - جرى حوار شامل مع الكافرين والمشركين - بصرف النظر عن استعداداتهم - مما يشير إلى أنه لابد من إقاملا الحجة على كل كافر سواء آنسنا منه خيراً أو لم يؤنس منه أي خير .

وبعد ، فقد يستجيب لدعوة الله من تغلبه نفسه في بعض الأحوال ، وقد يستجيب لدعوة الله فقراء وضعفاء وعجزة ، وقد يستجيب لدعوة الله ناس هم في موازين الناس أغبياء إلى آخر ما يمكن أن يقال في هذا الشأن ، فما أدب الداعية في ذلك ؟ إن المجموعة التاسعة في هذه الجولة تتحدث عن هذا كله :

تتحدث عمن هم محلّ الرجاء في الدعوة وتتحدث عن أدب الداعية مع المستجيبين ! .

☆ ☆ ☆

المجموعة التاسعة

بعد أن أمر الله رسوله ﷺ بمجموعة أوامر بصيغة « قل » ليجابه بها الكافرين ، ويحذّرهم ويردّ عليهم في مقابل اقتراحاتهم ، وجّه الله رسوله توجيهين في أمر ونهي ، الأمر هو ﴿ **وأنذر به** ﴾ أي : وأنذر بالوحي ، أي : بالقرآن . ﴿ **الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾ أي : المسلمون المقرّون بالبعث إلا أنهم مفرّطون في العمل فينذرهم بما أوحي إليه ، أو أهل الكتاب لأنهم مقرّون بالبعث ، ومن هنا نفهم أن الإنذار بالقرآن إنما

يستفيد منه المؤمنون بيوم القيامة ، ولا يؤمن أحد بالقيامة إلا بعد إيمان بالله والرسول ، ومن ثَمّ فإنّ الداعية يركز أول ما يركّز على موضوع الإيمان بالله ، والرسول ، واليوم الآخر ، وإقامة الحجة على الناس بذلك ، وهذ الذي نفهمه من كلام ابن عمر « كنا نُؤتى الإيمان قبل القرآن » ومن أجل هذا المعنى كتبنا سلسلة الأصول الثلاثة ، ومن هنا نفهم أهمية هذا التوجيه في قضية الدعوة ﴿ **ليس لهم من دونه وليٌ ولا شفيع** ﴾ . أي : وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعاً لهم ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾ . أي : لعلهم بهذا الإنذار يدخلون في زمرة أهل التقوى ، نفهم من ذلك أن الإنذار بالقرآن والوحي من أهله طريق من طرق التحقق بالتقوى ، وبعد الأمر السابق يأتي نهي ، فبعد أن أمر النبي ﷺ بالإنذار من أجل التقوى ، أمر بعد ذلك بتقريب المتقين ونُهي عن طردهم ، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم — أي عبادته — ويواظبون عليها ووسمهم بالإخلاص ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** ﴾ . أي : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك ، والمراد بدعاء ربهم عبادته ، والمراد بالغداة والعشيّ دوامهم ومواظبتهم على العبادة ، والمراد بإرادتهم وجهه إخلاصهم له إذ يعبّر بالوجه عن ذات الشيء وحقيقته ، وقد يراد بالغداة والعشي الإشارة إلى صلاة الصبح والعصر ، أو الصلوات المكتوبة كلها ﴿ **ما عليك من حسابهم من شيء** ﴾ . أي : ليس عليك من ذنوبهم من شيء ﴿ **وما من حسابك عليهم من شيء** ﴾ . أي : كما أنك لا تحاسب عنهم فهم لا يحاسبون عنك ﴿ **فتطردهم** ﴾ أي حسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم وإذ كان الأمر كذلك فكيف تطردهم ﴿ **فتكون من الظالمين** ﴾ . أي : إن طردتهم والحالة هذه فإنّك تكون من الظالمين ، والظلم يكون في حالة الطّرد المباشر ، أو في حالة التسبّب ، وهذا التوجيه من أهَم التوجيهات في قضية الدعوة إلى الله ، فإنّه لا يجوز طرد ولا إبعاد الذين يعبدون الله حتى ولو أخطأوا ، أو قصّروا ، أو أذنبوا ، لا يجوز طردهم لا صراحة ، ولا تسبباً ما داموا متصّفين بهذه الصفة ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض** ﴾ . أي : ومثل تلك الفتنة العظيمة ، ابتلينا الأغنياء بالفقراء ، والعظماء بالعامة ، إذ كان أول المستجيبين لدعوة الله هم الفقراء ، والضعفاء ، والمساكين ، وفي ذلك ابتلاء واختبار وامتحان للطرفين للكبار والضعفاء ، للضعفاء ، فلا تميل أعينهم عن أهل الحق ، وللأغنياء والكبراء ﴿ **ليقولوا أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا** ﴾ . أي : أهؤلاء أنعم الله عليهم بالإيمان ونحن المقدّمون والرؤساء ، وهم

الفقراء ، إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق ، وممنوناً عليهم من بينهم بالخير ، وقد قال الله في جواب ذلك ﴿ **أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾ . أي : أليس هو أعلم بالشاكرين له ، بأقوالهم ، وأفعالهم ، وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه إلى صراط مستقيم ، وبعد النهي عن طرد أهل التقوى أمره بتطييب قلوبهم وتبشيرهم ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم** ﴾ . أي : فأكرمهم بردِّ السلام عليهم ، وبشِّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، وفي أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يقول : « سلام عليكم » إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم ، وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً وتطييباً لقلوبهم ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ أمره أن يقول لهم هذا فيبشرهم بسعة رحمة الله ، وقبوله التوبة منهم ، ومعنى النص : وعدكم بالرحمة وعداً مؤكّداً ، وأوجبها على نفسه الكريمة تفضّلًا منه وامتناناً وإحساناً . ومن رحمته ﴿ **أنه من عمل منكم سوءاً** ﴾ . أي : ذنباً ﴿ **بجهالة** ﴾ . أي : بسبب من الجهل ، ولا يعصي أحد ربه إلا بجهل ، إما بنسيانه بما يتعلق بالمعصية من المضرّة ، أو لأن مجرد إيثار المعصية على الطاعة جهل ﴿ **ثم تاب من بعده** ﴾ . أي : من بعد السوء أو العمل ﴿ **وأصلح** ﴾ . أي : وأخلص توبته ﴿ **فأنه غفور رحيم** ﴾ . أي : فشأنه أنه غفور رحيم ، يغفر لأهل الإيمان ويرحمهم ، فمن رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على ألا يعود ، وأصلح العمل في المستقبل ، فقد وعده الله بالمغفرة والرّحمة ، ثمّ ختم الله هذا التوجيه بقوله ﴿ **وكذلك نُفصّل الآيات** ﴾ . أي : ومثل ذلك التفصيل البيِّن نفصل آيات القرآن ونوضّحها في صفة أحوال النّاس ، ممن هو مطبوع على قلبه ، أو من يرجى إسلامه ﴿ **ولتستبينَ سبيلُ المجرمين** ﴾ . أي : ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل بهذا البيان .

الفوائد :

١ ـ يذكر ابن كثير سبب نزول الآيات : ﴿ **وأنذر به ...** ﴾ وما بعدها فلننقل رواياته مع حذف الأسانيد :

أ ـ روى الإمام أحمد ... عن ابن مسعود قال : مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خبّاب ، وصهيب ، وبلال ، وعمّار فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل فيهم القرآن ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾ .

ب ــ روى الإمام ابن جرير ... عن ابن مسعود قال : مرّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب ، وبلال ، وعمّار ، وخبّاب ، وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمّد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين مَنّ الله عليهم من بيننا ؟ ونحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم أن نتّبعك ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** ﴾ ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض** ﴾ إلى آخر الآية .

ج ــ روى الحاكم في مستدركه .. أن سعداً قال : نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ منهم ابن مسعود ، قال : كنّا نستبق إلى رسول الله ﷺ ، وندنو منه ونسمع منه فقالت قريش : يدني هؤلاء دوننا فنزلت : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ . قال الحاكم عن هذه الرواية : على شرط الشيخين . وأخرجها ابن حبّان في صحيحه .

د ــ روى ابن جرير ... عن عكرمة في قوله : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾ الآية . قال : جاء عتبة بن ربيعة ، ومطعم بن عدي ، والحارث بن نوفل وقَرَظَة بن عبد عمرو بن نوفل ، في أشراف من بني عبد مناف من أهل الكفر ، إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب : لو أنّ ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنّما هم عبيدنا وعسفاؤنا ، كان أعظم في صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتّباعنا إياه ، وتصديقنا له ، قال : فأتى أبو طالب النّبي ﷺ فحدّثه بالذي كلموه فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون ، وإلى ما يصيرون من قولهم ؟ فأنزل الله ــ عز وجل ــ هذه الآية ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾ قال : وكانوا بلالاً ، وعمار بن ياسر ، وسالماً مولى أبي حذيفة ، وصبيحاً مولى أسيد ، ومن الحلفاء ابن مسعود ، والمقداد بن عمرو ، ومسعود بن القاري ، وواقد بن عبد الله الحنظلي ، وعمرو بن عبد عمرو ، وذو الشمالين ، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب ، وأشباههم من الحلفاء . ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا** ﴾ الآية . فلما نزلت أقبل عمر رضي الله عنه فاعتذر من مقالته فأنزل الله ــ عز وجل ــ : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا** ﴾ الآية .

ومن أسباب النزول هذه ندرك معنىً إسلامياً عظيماً يغيب عن كثير من النّاس إذ يبيعون المستضعفين بالأغنياء ، والعادين بالأذكياء ، والمغمورين بأصحاب الجاه وفي هذا المقام يقول صاحب الظلال :

« نحن في حاجة إلى وقفة طويلة أمام هذه النصوص .. والبشرية بجملتها في حاجة إلى هذه الوقفة كذلك إن هذه النصوص لا تمثل مجرد مبادىء وقيم ونظريات في « حقوق الإنسان » ! .. إنها أكبر من ذلك بكثير .. إنها تمثل شيئاً هائلاً تحقق في حياة البشرية فعلاً .. تمثل نقلة واسعة نقلها هذا الدين للبشرية بجملتها .. تمثل خطاً وضيئاً على الأفق بَلَغته هذه البشرية ذات يوم في حياتها الحقيقية .. ومهما يكن من تراجع البشرية عن هذا الخط الوضيء الذي صعدت إليه في خطو ثابت على حداء هذا الدين ، فإن هذا لا يقلل من عظمة تلك النقلة ؛ ومن ضخامة هذا الشيء الذي تحقق يوماً ؛ ومن أهمية هذا الخط الذى ارتسم بالفعل في حياة البشر الواقعية .. إن قيمة ارتسام هذا الخط وبلوغه ذات يوم ؛ أن تحاول البشرية مرة ومرة ومرة الارتفاعَ إليه ، ما دام أنها قد بلغته ، فهو في طوقها إذن وفي وسعها .. والخط هناك على الأفق ، والبشرية هي البشرية ، وهذا الدين هو هذا الدين .. فلا يبقى إلا العزم والثقة واليقين ..

وقيمة هذه النصوص أنها ترسم للبشرية اليوم ذلك الخط الصاعد بكل نُقطِه ومراحله .. من سفح الجاهلية الذي التقط الإسلامُ منه العربَ ، إلى القمة السامقة التي بلغ بهم إليها ، وأطلقتهم في الأرض يأخذون بيد البشرية من ذلك السفح نفسه إلى تلك القمة التي بلغوها !

فأما ذلك السفح الهابط الذي كان فيه العرب في جاهليتهم — وكانت فيه البشرية كلها — فهو يتمثل واضحا في قولة « الملأ » من قريش : « يا محمد ، رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ! » .. أو في احتقار الأقرع بن حابس التميمي ، وعُيَيْنَة بن حصن الفزاري ، للسابقين من أصحاب رسول الله ﷺ بلال ، وصهيب ، وعمار ، وخباب ، وأمثالهم من الضعفاء ؛ وقولهما للنبي ﷺ : إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا فإن وفود العرب تأتيك ، فنستحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبُد ! » .

.. هنا تتبدى الجاهلية بوجهها الكالح وقيمها الهزيلة ، واعتباراتها الصغيرة .. عصبية

النسب والجنس واعتبارات المال والطبقة .. وما إلى ذلك من اعتبارات . هؤلاء بعضهم ليسوا من العرب ! وبعضهم ليسوا من طبقة الأشراف ! وبعضهم ليسوا من ذوي الثراء ! .. ذات القيم التي تروج في كل جاهلية ؛ والتي لا ترتفع عليها جاهليات الأرض اليوم في نعراتها القومية والجنسية والطبقية !

هذا هو سفح الجاهلية .. وعلى القمة السامقة الإسلام ! الذي لا يقيم وزناً لهذه القيم الهزيلة ولهذه الاعتبارات الصغيرة ، ولهذه النعرات السخيفة ! .. الإسلام الذي نزل من السماء ولم ينبت من الأرض . فالأرض كانت هي هذا السفح .. هذا السفح الذي لا يمكن أن ينبت هذه النبتة الغريبة الجديدة الكريمة .. الإسلام الذي يأتمر به — أول من يأتمر — محمد ﷺ محمد رسول الله الذي يأتيه الوحي من السماء ، والذي هو من قبل في الذؤابة من بني هاشم في الذروة من قريش .. والذي يأتمر به أبو بكر صاحب رسول الله ﷺ في شأن « هؤلاء الأعبد » .. نعم هؤلاء الأعبد الذين خلعوا عبودية كل أحد ؛ وصاروا أعبداً لله وحده فكان من أمرهم ما كان !

وكما أن سفح الجاهلية الهابط يرتسم في كلمات الملأ من قريش ، وفي مشاعر الأقرع وعيينة ، فإن قمة الإسلام السامقة ترتسم في أمر الله العلي الكبير ، لرسوله ﷺ : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين** ۝ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟** ۝ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربك على **نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم** ﴾ ..

ويتمثل في سلوك رسول الله ﷺ مع« هؤلاء الأعبد » .. الذين أمره ربهم أن يبدأهم بالسلام وأن يصبر معهم فلا يقوم حتى يقوموا ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم — وهو بعد ذلك — رسول الله وخير خلق الله ، وأعظم من شرفت بهم الحياة !

ثم يتمثل في نظرة « هؤلاء الأعبد » لمكانهم عند الله ؛ ونظرتهم لسيوفهم واعتبارها « سيوف الله » ونظرتهم لأبي سفيان « شيخ قريش وسيدهم » بعد أن أخّره في الصف المسلم كونه من الطلقاء الذين أسلموا عام الفتح وذهبوا طلقاء عفو رسول الله ﷺ

وقدمهم هم في الصف كونهم من السابقين إلى الإسلام ، وهو في شدة الابتلاء .. فلما أن عاتبهم أبو بكر رضي الله عنه في أمر أبي سفيان ، حذره صاحبه رسول الله ﷺ أن يكون قد أغضب « هؤلاء الأعبد » ! فيكون قد أغضب الله — يا الله ! فما يملك أي تعليق يبلغ هذا المدى وما نملك اليوم إلا أن نتملاه ! — ويذهب أبو بكر رضي الله عنه يترضّى « الأعبد » ليرضى الله : « يا أخوتاه أغضبتكم » ؟ فيقولون : « لا يا أخي . يغفر الله لك » !

أي شيء هائل هذا الذي تحقق في حياة البشرية ؟ أية نقلة واسعة هذه التي قد تمت في واقع الناس؟ أي تبديل في القيم والأوضاع ، وفي المشاعر والتصورات ، في آن ؟ والأرض هي الأرض ، والبيئة هي البيئة ، والناس هم الناس ، والاقتصاد هو الاقتصاد .. وكل شيء على ما كان ، إلا وحياً نزل من السماء على رجل من البشر ، فيه من الله سلطان .. يخاطب فطرة البشر من وراء الركام ، ويحدو للهابطين هنالك عند السفح ، فيستجيشهم الحداء — على طول الطريق — إلى القمة السامقة .. فوق .. هنالك عند الإسلام !

ثم تتراجع البشرية عن القمة السامقة ؛ وتنحدر مرة أخرى إلى السفح . وتقوم — مرة أخرى — في نيويورك ، وواشنطن ، وشيكاغو .. وفي جوهانسبرج .. وفي غيرها من أرض « الحضارة ! » تلك العصبيات النتنة ، عصبيات الجنس واللون ، وتقوم هنا وهناك عصبيات « وطنية » و « طبقية » لا تقل نتناً عن تلك العصبيات ..

ويبقى الإسلام هناك على القمة .. حيث ارتسم الخط الوضيء الذي بلغته البشرية .. يبقى الإسلام هناك — رحمة من الله بالبشرية — لعلها أن ترفع أقدامها من الوحل ، وترفع عينيها عن الحمأة وتتطلع مرة أخرى إلى الخط الوضيء ، وتسمع مرة أخرى حداء هذا الدين وتعرج مرة أخرى إلى القمة السامقة على حداء الإسلام ..

ونحن لا نملك — في حدود منهجنا في هذه الظلال — أن نستطرد إلى أبعد من هذه الإشارة .. لا نملك أن نقف هنا تلك « الوقفة الطويلة » التي ندعو البشرية كلها أن تقفها أمام هذه النصوص ودلالتها . لتحاول أن تستشرف المدى الهائل الذي يرتسم من خلالها في تاريخ البشرية ؛ وهي تصعد على حداء الإسلام من سفح الجاهلية الهابط ، إلى القمة السامقة البعيدة .. ثم تهبط مرة أخرى على عواء « الحضارة المادية » الخاوية من الروح والعقيدة ! ولتحاول كذلك أن تدرك إلى أين يملك الإسلام اليوم أن يقود خطاها مرة أخرى ، بعد أن فشلت جميع التجارب ، وجميع المذاهب ، وجميع الأوضاع ،

وجميع الأنظمة ، وجميع الأفكار ، وجميع التصورات التي ابتدعتها البشر لأنفسهم بعيداً عن منهج الله وهداه .. فشلت في أن ترتفع بالبشرية مرة أخرى إلى تلك القمة وأن تضمن للإنسان حقوقه الكريمة في هذه الصورة الوضيئة ، وأن تفيض على القلوب الطمأنينة ـــ مع هذه النقلة الهائلة ـــ وهي تنقل البشرية إليها بلا مذابح ، وبلا اضطهادات ؛ وبلا إجراءات استثنائية تقضي على الحريات الأساسية ، وبلا رعب ، وبلا تعذيب ، وبلا جوع ، وبلا فقر ، وبلا عَرَض واحد من أعراض النقلات التي يحاولها البشر في ظل الأنظمة البائسة التي يصنعها البشر ، ويتعبد فيها بعضهم بعضاً من دون الله .. فحسبنا هذا القدر هنا .. وحسبنا الإيحاءات القوية العميقة التي تفيض بها النصوص ذاتها ، وتكسبها في القلوب المستنيرة » .

٢ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ ينقل ابن كثير ما يلي :

أ ـــ روى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لمّا قضى الله الخلق ، كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش ، إنّ رحمتي غلبت غضبي » أخرجاه في الصحيحين .

ب ـــ روى ابن مَردوَيه ... عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق ، أخرج كتاباً من تحت العرش : إنّ رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين ، فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً ، مكتوب بين أعينهم عتقاء الله » .

ج ـــ ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً قولُه ﷺ لمعاذ بن جبل : « أتدري ما حقُّ الله على العباد ؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً » . ثم قال : « أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » وقد رواه الإمام أحمد .. عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فما أعظم رحمة الله وما أقبح من لم ينل من هذه الرحمة يوم القيامة ، وما أعقل من عمل للوصول إلى استحقاق رحمة الله الكاملة بسلوك طريق ذلك ، والتّحقّق بالصفات التي يعطي الله أصحابها رحمته ، وهي مذكورة بقوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله** ﴾ وهذا

موضوع سيأتي .

٣ ــ هناك قراءة صحيحة بنصب قوله تعالى : ﴿ **سبيلَ المجرمين** ﴾ ومعناها : ولتستبين يا محمد سبيلَ المجرمين فتعامل كلًّا منهم بما يجب أن يعامل به .

فالآية إذن في قراءتيها تبيّن أن سبيل المجرمين قد بيّنت بهذ القرآن ، وأن المقصود الأول بهذا البيان هو رسول الله ﷺ ثمّ ورثُته والمسلمون ، إن إحدى الحِكَم الكبيرة لتصريف الآيات في هذا القرآن هي هذه .

وتعليقاً على هذا المعنى يقول صاحب الظلال :

« إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة ! إن هذا المنهج لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب . إنما يُعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً .. إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين. وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق !

إن هذا المنهج هو الذي قرره الله ــ سبحانه ــ ليتعامل مع النفوس البشرية . ذلك أن الله ــ سبحانه ــ يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر ؛ والتأكد من أن هذا باطل ممحض وشر خالص ؛ وأن ذلك حق ممحض وخير خالص .. كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق ؛ ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحادّه ويحاربه إنما هو على الباطل .. وأنه يسلك سبيل المجرمين ؛ الذين يذكر الله في آية أخرى أنّه جعل لكل نبي عدواً منهم ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين** ﴾ .. ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون ؛ عن ثقة ، وفي وضوح ، وعن يقين . إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح . واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات . ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشاً وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم . فهما صفحتان متقابلتان ، وطريقان مفترقتان .. ولابد من وضوح الألوان والخطوط . ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين . ويجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين ، ووضوع العنوان المميز للمؤمنين ، والعنوان المميز للمجرمين ، في عالم الواقع لا في عالم النظريات . فيعرف

أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون . وبعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم ، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم . بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان ، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين .. وهذا التحديد كان قائماً ، وهذا الوضوح كان كاملًا ، يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية . فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول ﷺ ومن معه . وكانت سبيل المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين .. ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل ، وكان الله ــ سبحانه ــ يفصِّل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة ــ ومنها ذلك النموذج الأخير ــ لتستبين سبيل المجرمين !

وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بَدّلتها وأفسدتها التحريفات البشرية . حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة ، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك .. لا يجدي معها التلبيس .

ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا . إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين ، في أوطان كانت في يوم من الأيام للإسلام ، يسيطر عليها دين الله ، وتحكم بشريعته .. ثم إذا هذه الأرض ، وإذا هذه الأقوام ، تهجر الإسلام حقيقة ، وتعلنه اسماً . وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقاداً وواقعاً . وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقاداً ! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله . وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله ــ وحده ــ هو خالق هذا الكون المتصرِّف فيه . وأن الله ــ وحده ــ هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله . وأن الله ــ وحده ــ هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله ..

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام . أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله . ومدلول الإسلام في جانب ؛ وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر .

هذه هي المشقة الكبرى .. وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل .

أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة ؛ وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة كي تنطلق طاقتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة ، ولا يعوّقها غبش ولا يميعها لبس . فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم « المسلمون » وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم « المجرمون » .

أقول : إن شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ لها مضمونها ولها نواقضها فمن أتى بالمضمون ولم يأت ناقضاً من نواقض الشهادتين فهو المسلم ، وقد يكون فاسقاً أو تقياً ، ولكن إذا لم يدرك الإنسان مضمون الشهادتين ، أو أتى بناقض من نواقضهما ، فإنه لا يكون مسلماً ، فمثلاً من مضمون الشهادتين أن يعرف الإنسان الإسلام ويؤمن به ويسلم لله فيه ، فإذا جهل الإسلام ولم يعرف أن يصفه كما هو ولو وصفاً إجمالياً فإنه لا يكون مسلماً حتى قال فقهاء الحنفية : لو أن صغيرة تزوجت ثمّ بلغت عند زوجها وسألها عن الإسلام فلم تعرف أن تصفه فإن عقدها ينفسخ ، عندما كانت صغيرة كانت مسلمة تبعاً لأبويها ، فلمّا بلغت أصبحت مكلفة بالإسلام ، وعليها أن تعرفه ، فإذا لم تعرفه لا تكون مسلمة ، ولكن ليس شرطاً أن تحسن وصفه ، بل يكفي في حقّها أنها لو سئلت عن شيء معلوم من الدين بالضرورة أن تعرفه ، وفقهاء الشافعية لا يعتبرون منكر ذلك كافراً إلا بعد البيان .

فلا بد إذن من معرفة مضمون الشهادتين ، ولا بد من ترك النواقض ، وقد مرّ معنا في سورة المائدة أن كفر نظام ما لا يعني بالضرورة كفر كل فرد فيه ابتداءً .

تلخيص وتذكير :

إن مما ينبغي أن يبقى على ذكر منا : أن الإنذار بالقرآن طريق من طرق التقوى ، ولذلك فإن على الدّعاة إلى الله أن يحيوا مجالس الوعظ ، وأن يكثروا منها ، من أجل أن يتابعوا قضية الإيمان ، كما أن على الدعاة أن يعطوا المستجيبين لدعوة الله حقوقهم ، فلا تتطلع أعينهم إلى غيرهم زهداً بهم ، ورغبة بأهل الدنيا . وإن مما تفهمنا إياه آيات المجموعة التاسعة أن من سبيل المجرمين الترفّع على أهل الإيمان ، مما يفهم منه ضمناً أن التواضع لأهل الإيمان من سبيل المؤمنين .

ثمّ تأتي المجموعة العاشرة في الجولة وفيها أوامر لرسول الله ﷺ تأمره أن يعلن عدّة إعلانات تكاد تكون الردّ الأخير في هذه الجولة على اقتراحات الكافرين .

المجموعة العاشرة

وإذ وصل السياق إلى ما مرّ فإنّ الله يأمر رسوله ﷺ أن يعلن ثلاثة إعلانات : الإعلان الأول : ﴿ **قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله** ﴾ . أي : قل إنّي صُرفت وزُجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله ﴿ **قل لا أتبع أهواءكم** ﴾ . أي : لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتّباع الهوى دون اتّباع الدليل ، وفي النّص بيان للسبب الذي به وقعوا في الضلال وهو اتّباع الهوى ﴿ **قد ضللت إذاً** ﴾ . أي : إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال ﴿ **وما أنا من المهتدين** ﴾ في شيء ، وهذا يعني أنكم لستم مهتدين أبداً ، والإعلان الثاني : ﴿ **قل إنّي على بيّنة من ربي** ﴾ لمّا نفى أن يكون الهوى مُتّبعاً ، نبّه على ما يجب اتّباعه وهو شريعة الله ، والمعنى : إني من معرفة ربي وأنّه لا معبود سواه على حجة واضحة ، أو إني على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إليّ ﴿ **وكذّبتم به** ﴾ . أي : بالله حيث أشركتم به غيره ويمكن أن يكون المراد : وكذبتم بالبيّنة أي بالقرآن ، فيكون المعنى : إنّي على حجّة من جهة ربي وهو القرآن ، وكذّبتم بهذه البيّنة ، ثمّ عقّبه بما دلّ على أنهّم أحقّاء بأن يعاقبوا بالعذاب لذلك فقال : ﴿ **ما عندي ما تستعجلون به** ﴾ . أي : من العذاب ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ . أي : إنما أمر ذلك إلى الله إن شاء عجّل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجّلكم لما له من الحكمة العظيمة ﴿ **يقصّ الحق** ﴾ . أي : لا يفعل إلا حقاً ولا يأمر إلا بحق فيما يحكم به ، ويقدّره ، ﴿ **وهو خير الفاصلين** ﴾ . أي : خير الفاصلين بالقضاء الحق إذ الفصل : هو القضاء ، ثم يأتي الإعلان الثالث ﴿ **قل لو أن عندي** ﴾ . أي : في قدرتي وإمكاني ﴿ **ما تستعجلون به** ﴾ . أي : من العذاب ﴿ **لقُضيَ الأمر بيني وبينكم** ﴾ . أي : لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي ﴿ **والله أعلم بالظالمين** ﴾ ومن ثم فهو ينزل العذاب على مقتضى علمه وحكمته في الوقت المناسب .

فائدة :

بمناسبة هذه الآية الأخيرة يقول ابن كثير : فإن قيل فما الجمع بين هذه الآية ، وبين ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : « لقد لقيتُ من قومك وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلَال ، فلم يجبني إلى ما

أردت . فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال : إنّ الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردّوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال : فناداني ملك الجبال وسلّم عليّ ثمّ قال : يا محمد إنّ الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً » . وهذا لفظ مسلم . فقد عُرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنى بهم وسأل لهم التأخير لعلّ الله يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً .

فما الجمع بين هذا وبين قوله في هذه الآية الكريمة ﴿ **قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين** ﴾ فالجواب ــ والله أعلم ــ أنّ هذه الآية دلت على أنّه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم ، وأمّا الحديث فليس فيه أنّهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنّه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكّة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً ، فلهذا استأنى بهم وسأل الرّفق لهم » وبهذه المناسبة نقول : إنّ ما أنزله الله على رسوله ﷺ من وحي سواء كان قرآناً أو سنة يكمل بعضه بعضاً ، ولا ينقض بعضه بعضاً وكيف لا يكون كذلك وهو من علم الله ، وعلم الله محيط ، وذلك من أعظم الأدلة على كون هذا الإسلام دين الله ، ولكن الجاهلين وحدهم هم الذين يظنون غير ذلك أو يتوهمون .

وبعد هذا الحوار الطويل يعود السياق إلى صيغة التقرير في موضوع المعرفة الربانية فيقول : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ... ﴾ ولو أنّك تأمّلت لوجدت أن هناك صلة ظاهرة بين بداية المقطع وهذه الآية ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ... وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** .... ﴾ وما بين ذلك حوار لمن ينكر ذلك ، وما بين ذلك تقرير لمقتضى ذلك ، وما بين ذلك هداية لما ينبغي أن يترتب على الإيمان بذلك . فما أعظم هذا القرآن إذ يجول بك السياق ثم يردك إلى محور السورة ، وتبقى جولاته كلها في الإطار الذي يعمّق محور السورة ، وبما أنّ خاتمة الجولة الأولى من المقطع الثاني تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ﴾ فلنقدم للآية بنقل عن الظلال حول الفارق بين العقلية المسلمة وغيرها :

« إن القرآن ــ وهو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية التي تنشىء التصور

الإسلامي والعقلية الإسلامية ــ يقرر أن هناك عالماً للغيب وعالماً للشهادة فليس كل ما يحيط بالإنسان غيباً ، وليس كل ما يتعامل معه من قوى الكون مجهولًا .

إن هنالك سنناً ثابتة لهذا الكون ؛ يملك « الإنسان » أن يعرف منها القدر اللازم له ، حسب طاقته وحسب حاجته ، للقيام بالخلافة في هذه الأرض . وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية ؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة ، وتعمير الأرض ، وترقية الحياة ، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها . وإلى جانب هذه السنن الثابتة ــ في عمومها ــ مشيئة الله الطليقة ، لا تقيدها هذه السنن وإن كانت من عملها . وهناك قدَر الله الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها . فهي ليست آلية بحتة ، فالقَدَر هو المسيطر على كل حركة فيها ؛ وإن جرت وفق السنة التي أودعها الله إياها . وهذا القدَر الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها « غيب » لا يعلمه البشر علم يقين ؛ وأقصى ما يصل إليه الناس هو الظنون و « الاحتمالات » .. وهذا ما يعترف به العلم البشري أيضاً .

وإن ملايين الملايين من العمليات لتتم في كيان الإنسان في اللحظة الواحدة ؛ وكلها « غيب » بالقياس إليه　هي تجري في كيانه ، ومثلها ملايين العمليات التي تتم في الكون من حوله ؛ وهو لا يعلمها !

وإن الغيب ليحيط بماضيه وماضي الكون . وحاضره وحاضر الكون . ومستقبله ومستقبل الكون .. وذلك مع وجود السنن الثابتة التي يعرف بعضها ، وينتفع بها انتفاعاً علمياً منظماً في النهوض بعبء الخلافة .

وإن « الإنسان » ليجيء إلى هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد قدومه ، وإنه ليذهب عن هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد رحيله .. وكذلك كل شيء حي .. ومهما تَعلّم ومهما عرف ، فإن هذا لن يغيّر من هذا الواقع شيئاً .

إن العقلية الإسلامية عقلية « غيبية علمية » لأن « الغيبية » هي « العلمية » بشهادة « العلم » والواقع .. أما التنكر للغيب فهو « الجهلية » التي يتعالم أصحابها وهم بهذه الجهالة ! وإن العقلية الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله ؛ وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل ، والتي تمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض ، والتعامل معها على قواعد ثابتة .. فلا يفوت المسلم « العلم »

البشري في مجاله ، ولا يفوته إدراك الحقيقة الواقعية ؛ وهي أن هنالك غيباً لا يُطلع الله عليه أحداً ، إلا من شاء ، بالقدر الذي يشاء .

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها « الفرد » فيتجاوز مرتبة « الحيوان » ، إلى مرتبة « الإنسان » وهي نقلة بعيدة الأثر في تصوّر الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي ، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود ؛ وفي إحساسه بالكون ، وما وراء الكون من قدرة وتدبير . كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض . فليس من يعيش في الحيّز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود ، وأن وراء الكون .. ظاهره وخافيه .. حقيقة أكبر من الكون ، هي التي صدر عنها ، واستمد من وجودها وجوده . حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بها العقول .

... « لقد كان الإيمان بالغيب هو مفترق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم المادة ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان — كجماعة الماديين في كل زمان — يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى .. إلى عالم المادة ، الذي لا وجود فيه لغير المحسوس ، ويسمون هذا « تقدمية » . وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها . فجعل صفتهم المميّزة هي صفة : « الذين يؤمنون بالغيب » .. والحمد لله على نعمائه ؛ والنكسة للمنتكسين والمرتكسين » .

والذين يتحدثون عن « الغيبية » و « العلمية » يتحدثون عن « الحتمية التاريخية » كأن كل المستقبل مستبين ، و « العلم » في هذا الزمان يقول : إن هناك « احتمالات » وليست هنالك « حتميات » !

ولقد كان ماركس من المتنبئين «بالحتميات » ! ولكن أين نبوءات ماركس اليوم ؟ لقد تنبأ بحتمية قيام الشيوعية في انجلتر ، نتيجة بلوغها قمة الرقي الصناعي ومن ثم قمة الرأسمالية في جانب والفقر العمالي في جانب آخر .. فإذا الشيوعية تقوم في أكثر الشعوب تخلفاً صناعياً .. في روسيا والصين وما إليها .. ولا تقوم قط في البلاد الصناعية الراقية !

ولقد تنبأ لينين وبعده ستالين بحتمية الحرب بين العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي وها هو ذا خليفتهما « خرشوف » يحمل راية « التعايش السلمي » .

ولا نمضي طويلًا مع هذه « الحتميات » التنبؤية . فهي لا تستحق جدية المناقشة ! إن هنالك حقيقة واحدة مستيقنة هي الغيب ، وكل ما عداها احتمالات . وإن هنالك حتمية واحدة هي وقوع ما يقضي به الله ويجري به قَدَره . وقدر الله غيب لا يعلمه إلا هو . وإن هنالك ـــ مع هذا ـــ سنناً للكون ثابتة ، يملك الإنسان أن يتعرف إليها ، ويستعين بها في خلافة الأرض ، مع ترك الباب مفتوحاً لقدر الله النافذ ؛ وغيب الله المجهول .. وهذا قوام الأمر كله .. » .

المجموعة الحادية عشرة

﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ المفاتح جمع مِفْتَح وهو المفتاح ، جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالأغلال والأقفال ، ومن علّمه الله مفاتحها وكيفيّة فتحها توصّل إليها فأراد أنّه هو المتوصِّل إلى المغيّبات وحده لا يَتوصّل إليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ؛ ويعلم فتحها فهو المتوّصل إلى ما في الخزائن ، ويدخل في ذلك العذاب والرّزق ، وما غاب عن العباد من الثّواب والعقاب والآجال والأحوال وخصّ الرسول ﷺ من مفاتح الغيب خمساً بالذكر سنراها في الفوائد﴿ **ويعلم ما في البر** ﴾ . أي : من النّبات والدّوابّ وغير ذلك ﴿ **والبحر** ﴾ من الحيوان ، والجواهر ، والعناصر وغير ذلك ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾ . أي : ما من ورقة تسقط إلا ويعلم عددها وأحوالها قبل السقوط وبعده ﴿ **ولا حبّة في ظلمات الأرض** ﴾ إلّا يعلمها ﴿ **ولا رطب** ﴾ . أي : ذي رطوبة ﴿ **ولا يابس** ﴾ إلا يعلمه كذلك ، والجميع في كتاب مبين ﴿ **إلا في كتاب مبين** ﴾ واحد وهو هنا إما علم الله ، أو اللوح المحفوظ قال صاحب الظلال وهو يعرض هذه الآية :

« إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط ؛ الذي لا يندّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طباق الجو ، من حي وميت ويابس ورطب ...

ولكن أين هذا الذي نقوله نحن ـــ بأسلوبنا البشري المعهود ـــ من ذلك النسق

القرآني العجيب ؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد ، من ذلك التصوير العميق الموحي ؟

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وعالم الغيب وعالم الشهود ، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح ، ووراء حدود هذا الكون المشهود .. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل التصور والمشاهد من كل فج وواد . وهو — إذ يحاول أن يرتاد — أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل ؛ البعيدة الآماد والآفاق والأغوار .. مفاتحها كلها عند الله ، لا يعلمها إلا هو .. ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر ، المكشوفة كلها لعلم الله . ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض ، لا يحصيها عد ، وعين الله على كل ورقة تسقط ، هنا وهنا وهناك . ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله . ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض ، لا يند شيء عن علم الله المحيط ..

إنها جولة تدير الرؤوس ، وتذهل العقول .. جولة في آماد الزمان ، وآفاق المكان ، وأغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول .. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف ، يعيا بتصور آمادها الخيال .. وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات .. ألا إنه الإعجاز !

وننظر في هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز ، الناطق بمصدر هذا القرآن . ننظر إليها من ناحية موضوعها ، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر فليس عليه طابع البشر .. إن الفكر البشري حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع – موضوع شمول العلم وإحاطته – لا يرتاد هذه الآفاق. إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود . إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته .. فما اهتمام الفكر البشري بتقصّي وإحصاء الورق الساقط من الشجر ، في كل أنحاء الأرض ؟ إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداءً . لا يخطر على باله أن يتتبّع ويحصي ذلك الورق الساقط في أنحاء الأرض . ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ، ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل ! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق ، ويعبر عنه الخالق ! وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض ؟ إن أقصى ما يحفل به بنو البشر هو الحَب الذي يخبأونه هم في جوف الأرض

ويرتقبون إنباته .. فأما تتبع كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض فمما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به ، ولا أن يلحظوا وجوده ، ولا أن يعبر به عن العلم الشامل ! إنما الحَب المخبوء في ظلمات الأرض شأن يحصيه الخالق ، ويعبر عنه الخالق ، وما اهتمام الفكر البشري بهذا الإطلاق : « ولا رطب ولا يابس » .. إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بين أيديهم .. فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشامل . فهذا ليس من المعهود في اتجاه البشر وتعبيراتهم كذلك ! إنما كل رطب وكل يابس شأن يحصيه الخالق ويعبر عنه الخالق !

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة ، وكل حَبة مخبوءة ، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين ، وفي سجل محفوظ .. فما شأنهم بهذا ، وما فائدته لهم ؟ وما احتفالهم بتسجيله ؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك ، الذي لا يندّ عنه شيء في ملكه ، الصغير كالكبير ، الحقير كالجليل ، والمخبوء كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب .. إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع .. مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعاً ، والحَب المخبوء في أطواء الأرض جميعاً ، والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعاً .. إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري ؛ كذلك لا تلحظه العين البشرية ، ولا تلمّ به النظرة البشرية .. إنه المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده ؛ المشرف على كل شيء ، المحيط بكل شيء .. الحافظ لكل شيء ، الذي تتعلق مشيئته وقَدَره بكل شيء .. الصغير كالكبير ، والحقير كالجليل ، والمخبوء كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب .. والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بني البشر يدركون جيّداً حدود التصور البشري وحدود التعبير البشري أيضاً . ويعلمون ــ من تجربتهم البشرية ــ أن مثل هذا المشهد ، لا يخطر على القلب البشري ، كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضاً .. والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله ، ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه أصلًا !

وهذه الآية وأمثالها في القرآن الكريم تكفي وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم .. كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع في التعبير ذاته ، فنرى آفاقاً من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر ، على هذا المستوى السامق : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ .. آماد وآفاق وأغوار في « المجهول » المطلق ، في الزمان والمكان ، وفي الماضي والحاضر والمستقبل ، وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان .

﴿ **ويعلم ما في البر والبحر** ﴾ .. آماد وآفاق وأغوار في « المنظور » ، على استواء وسعة وشمول .. تناسب في عالم الشهود والمشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار في عالم الغيب المحجوب .

﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾ .. حركة الموت والفناء ، وحركة السقوط والانحدار ، من علو إلى سفل ،ومن حياة إلى اندثار .

﴿ **ولا حبة في ظلمات الأرض** ﴾ .. حركة البزوغ والنّماء . المنبثقة من الغور إلى السطح ، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق .

﴿ **ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾ ..التعميم الشامل ، الذي يشمل الحياة والموت والازدهار والذبول ، في كل حي على الإطلاق .. فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق ؟ ومن ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال ؟ .. من ذا الذي يبدع هذا كله وذلك ، في مثل هذا النص القصير .. من ؟ إلا الله !

ثم نقف عند قوله تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ ..

نقف لنقول كلمة عن « الغيب » و « مفاتحه » واختصاص الله ــ سبحانه ــ « بالعلم » بها .. ذلك أن حقيقة الغيب من « مقومات التصور الإسلامي » الأساسية ؛ لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية ، ومن قواعد « الإيمان » الرئيسية .. وذلك أن كلمات « الغيب » و « والغيبية » تُلاك في هذه الأيام كثيراً ــ بعد ظهور المذهب المادي ــ وتوضع في مقابل « العلم » و « العلمية » .. والقرآن الكريم يقرر أن هناك « غيباً » لا يعلم « مفاتحه » إلا الله . ويقرر أن ماأوتيه الإنسان من العلم قليل .. وهذا القليل إنما آتاه الله له بقدر ما يعلم هو ــ سبحانه ــ من طاقته ومن حاجته ، وأن الناس لا يعلمون ــ فيما وراء العلم الذي أعطاهم الله إياه ــ إلا ظناً ، وأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً .. كما يقرر ــ سبحانه ــ أن الله قد خلق هذا الكون ، وجعل له سنناً لا تتبدّل وأنه علّم الإنسان أن يبحث عن هذه السنن ويدرك بعضها ، ويتعامل معها ــ في حدود طاقته وحاجته ــ وأنه سيكشف له من هذه السنن في الأنفس والآفاق ما يزيده يقينا وتأكداً أن الذي جاءه من عند ربه هو الحق .. دون أن يخل هذا الكشف عن سنن الله التي لا تبديل لها بحقيقة « الغيب » المجهول للإنسان ، والذي سيظل كذلك مجهولًا ، ولا بحقيقة طلاقة مشيئة الله وحدوث كل شيء بقدر غيبي خاص من الله ،

ينشيء هذا الحدث ويبرزه للوجود .. في تناسق تامّ في العقيدة الإسلامية ، وفي تصوّر المسلم النّاشيء من حقائق العقيدة .. » .

كلمة في السياق :

تتألف المجموعة الحادية عشرة التي هي خاتمة الجولة الأولى من المقطع الثاني من سورة الأنعام تتألف هذه المجموعة من آيتين : آية ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ... ﴾ والآية التالية ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل** ... ﴾ .

وهاتان الآيتان تعودان بنا إلى **بداية المقطع** كله لتكونا بمثابة إعادة النهر **إلى مجراه الرئيسي ، فهما** تأتيان نهاية لجولة **ومقدمة لجولة أخرى في مقطعهما** .

بدأ المقطع بقوله تعالى ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ ثم جرى حوار شامل ، ثم عاد المقطع إلى الكلام عن الله بصيغة التقرير :

﴿ وعنده مفاتح الغيب ... ﴾ ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ... ﴾

وتأتي الآية الأولى في **الجولة الثانية** على نفس الوتيرة : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة** ﴾ **وهكذا يعود** السياق إلى مجراه الرئيسي

فلنَر الآية الثانية في المجموعة الحادية عشرة : ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل** ﴾ . أي : **يقبض** أنفسكم عن التصرف بالتّمام في المنام ، وفي هذا إخبار عن أنّه يتوفى عباده في منامهم بالليل . وهذا هو التوفي الأصغر ﴿ **ويعلم ما جرحتم بالنهار** ﴾ . **أي** : ما كسبتم فيه من الآثام ، وهذه جملة معترضة دلّت على إحاطة علمه تعالى بخلقه ، في ليلهم ونهارهم ، في حال سكونهم وحال حركتهم ﴿ **ثمّ يبعثكم فيه** ﴾ . أي : ثمّ يوقظكم في النّهار ، أو التقدير ثمّ يبعثكم في النهار ويعلم ما جرحتم فيه ، فقدّم الكسب لأنّه أهم ولا يعني هذا أنه لا يعلم ما جرحنا بالليل ولا أنه لا يتوفانا بالنهار . فتخصيص الشيء بالذكر لا يدّل على نفي ما عداه ﴿ **ليقضى أجل مسمى** ﴾ . أي : لتوفى الآجال على الاستكمال ﴿ **ثمّ إليه مرجعكم** ﴾ . أي : ثمّ إلى الله رجوعكم بالبعث بعد الموت ﴿ **ثمّ ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ . أي : في ليلكم ونهاركم ويستدل بالنوم والاستيقاظ بعده على البعث وتفهم من خلال النوم كثير من قضايا عالم البرزخ .

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ﴾ نذكر هذه الرواية . روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال : « مفاتح الغيب خمس ﴿ **إنّ الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير** ﴾ . وفي حديث عمر أن جبريل حين تبدّى له في صورة أعرابي فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان فقال له النبي ﷺ فيما قال له : « خمس لا يعلمهن إلا الله » ثم قرأ : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ الآية .

٢ ــ يقول النسفي بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ﴾ : وعندك أيها الإنسان مفاتح العيب فمن آمن بغيبه أسبل الله السّتر على عيبه .

٣ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل ....** ﴾ يروي ابن كثير ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس عن النّبي ﷺ قال : « مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ويردّ إليه ، فإن أذن الله في قبض روحه قبضه وإلا ردّ إليه » . فذلك قوله : ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل** ﴾ . أقول إنّ الله ــ عزّ وجل ــ أسند الوفاة في الآية إلى ذاته الكريمة ، وفي هذا الحديث أسندت الوفاة إلى عالم الأسباب ، وإسناد ما لعالم الأسباب دخل فيه إلى الله لأنه هو الفاعل على الحقيقة وهو الخالق : « الله خالق كل شيء » .

٤ ــ سمّى الله ــ عز وجل ــ في الآية الأخيرة النّوم وفاة ، وسمّاه في مكان آخر الموت وهو الموت الأصغر فمن النّوم نعلم شيئاً عن عالم الموت وعن عالم البرزخ ــ وهو العالم الذي نكون فيه بعد الموت فقد أعطانا الله بهذا النّوم صورة مصغّرة عن الموت ، وعن عالم البرزخ ، وعن عذاب القبر ، أو نعيمه ، فنحن نرى النائم ساكناً هادئاً لا نرى على جسمه أثراً ، ومع ذلك فقد يكون في عذاب أو نعيم ، كأن يرى نفسه يتلذّذ أو يتعذّب وهو ساكن هادىء لا نرى عليه أثراً في كثير من الأحيان ، ولا يعني هذا أنّ حال الميت والنائم واحد بل يعني هذا أنّ النّوم صورة مصغّرة عن الموت ، بل إنّ ما يكون للإنسان بعد الموت أكثر وضوحاً مما يكون للإنسان في عالم اليقظة ، فلذلك العالم قوانينه ، والنوم هو المثال المقرب ، وفي كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في المجلد الرابع كلام نفيس عن هذا الموضوع فليراجع ، ولقد قال رسول الله ﷺ في حديث صحيح « النّوم أخو الموت » .

ملاحظة حول السياق :

يلاحظ أن المقطع الأول من سورة الأنعام وردت فيه كلمة (قل) كثيراً ، وكذلك هذا المقطع في جولتيه ، مما يشير إلى أن الحوار مع الكافرين شيء رئيسي في سياق هذه السورة وصلة ذلك بمحور السورة ﴿ **كيف تكفرون بالله** ﴾ لا تخفى ، فالمحور فيه إقامة حجة على الكافرين ، وفي هذه السّورة تقام الحجة على الكافرين مرة بعد مرة :

كانت الآية الثانية من الجولة التي مرّت معنا : ﴿ **قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ...** ﴾ ثم بعد آيات جاء قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ...** ﴾ . ثمّ بعد آيات جاء قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم** ﴾ ثم تأتي بعدها مباشرة ﴿ **قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة** ﴾ .

ثم جاء بعد ايتين قوله تعالى : ﴿ **قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ...** ﴾

ثم جاءت بعد خمس آيات ثلاث آيات كلٌّ منها مبدوء بقوله تعالى (قل) .

﴿ **قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ..** ﴾

﴿ **قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ...** ﴾

﴿ **قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ...** ﴾

وسنرى في الجولة الثانية من المقطع كيف يتكرّر الأمر (قل) كذلك

إن السّورة حوار شامل مع الكافرين في كل الاتجاهات الرئيسية للكفر ، سواء كانت نظرية، أو كانت عملية، ولذلك فإن على الداعية إلى الله أن يتملىّ حججها ويعرف كيف يقرع بها .

كلمة في السياق :

انتهت معنا الجولة الأولى من المقطع الثاني بعد أن ختمت بالتذكير بالموت الأصغر والموت الأكبر ، وكلاهما مظهر من مظاهر قهر الله ـــ عز وجل ـــ وذلك يشير إلى صلة خاتمة الجولة ببدايتها ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ . والمقطع نفسه لا يزال مستمراً وذلك أننا نعلم في علم البلاغة أنه إذا طال الفصل حسن التكرار ، وقد بدأ

المقطع بقوله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ وها هي الآية (٦١) تقول : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ...** ﴾ ونلاحظ أن آخر شيء في سياق الجولة الثانية ، هو قوله تعالى في الآية (٧٣) ﴿ **وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير** ﴾ لاحظ أنه منتهٍ بقوله تعالى : ﴿ **وهو الحكيم الخبير** ﴾ . فذلك مع المعاني مما دلّنا على بداية المقطع ونهايته .

وقد رأينا كيف أن الجولة الماضية لها سياقها الخاص كما أن لها محلها في السياق الخاص لسورة الأنعام مع كونها تفصل في محور السورة من البقرة لاحظ صلة آخر آية مرّت معنا في الجولة بمحور السورة :

﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم** ﴾

وفي الآية الأخيرة ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثمّ يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى** ﴾

وفي محور السورة : ﴿ **ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾

وفي الآية الأخيرة : ﴿ **ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾

فالصلة واضحة بين هذه الآية ومحور السورة من البقرة ، والصلات التي تربط بين المقطع وبين المحور كثيرة كما رأينا وسنرى . ولنا عودة على هذا الموضوع

ولننتقل إلى عرض الجولة الثانية من المقطع الثاني :

✡ ✡ ✡

الجولة الثانية من المقطع الثاني

وتمتدّ من الآية (٦١) إلى نهاية الآية (٧٣) وهذه هي :

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

☆ ☆ ☆

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

☆ ☆ ☆

قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

☆ ☆ ☆

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ

ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

كلمة في هذه الجولة :

قلنا إن هذه الجولة استمرار للمقطع الثاني فهي تذكّرنا بالقهر الإلٓهي ، والعلم الإلهي ، والحكمة الإلهية . فالجولة بعد أن تذكّرنا في آياتها الأولى بمظاهر علم الله ، وحكمته ، وقهره من خلال التذكير بالموت ، والحساب ، واستجابة الدعاء حال الكرب ، والتعذيب في الدنيا ، تذكّر رسول الله ﷺ أنه مع هذا كله فإنّ قومه يكذّبون بالقرآن . وفي هذا السياق يذكّر الله رسوله ﷺ ـــ وهو تذكير لنا . ألا يجلس مع القوم الظالمين حال خوضهم في آيات الله ، وأن يعرض عمّن اتخذ دينه لعباً ولهواً ، وأن يقيم الحجة على الكافرين من خلال إعلان الاستمرار على دين الله ، واستنكار العودة إلى الكفر بعد الهداية ، ثمّ تذكرنا الجولة بالإسلام لله رب العالمين ، وإقامة الصلاة ، والتذكير بأن الله هو الخالق والقادر والمالك والعليم والحكيم والخبير .

مقطع في جولتيه يقيم الحجة على الكافرين ، ويبيّن لهم فساد ما هم فيه ، ويحدّد للمسلم بعض المواقف منهم ، ويبيّن ما يقتضيه الإيمان بالله ومعرفته ، وصلة ذلك بمحور السورة الذي ينكر على الكافرين كفرهم ، والذي يعجّب من حالهم ، والذي يقيم الحجة على الكافرين من خلال ظاهرتي الحياة والعناية ، إن صلة هذا المقطع بمحور السورة واضحة . ولقد قلنا إن محور سورة الأنعام آتٍ في سياق الأمر :

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ من سورة البقرة ، ولذلك آثاره في سورة الأنعام ومن ثم نرى المقطع ينتهي بقوله تعالى :

﴿ **قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونُردّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين * وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون * وهو الذي خلق السمٰوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير *** ﴾ . وقد بدأ هذا المقطع بقوله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ ـ لاحظ قوله تعالى ﴿ **وهو الحكيم الخبير** ﴾ ـ وانتهى بآية مبدوءة بقوله

تعالى « وهو » ومنتهية بقوله تعالى ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ فما بين بداية المقطع ونهايته صلة واضحة .

المعنى العام :

يكرِّر الله ــ عزّ وجل ــ في بداية هذه الجولة ذكر قهره لعباده . فهو الذي قهر كل شيء ، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء . وأنّه يرسل من الملائكة من يحفظون بدن الإنسان ويحصون عمله ، وأنه إذا حان أجل الإنسان واحتضر توفته الملائكة المكلفون بذلك ، وأن هؤلاء الملائكة لا يفرّطون في حفظ روح المتوفى بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ــ عزّ وجل ــ إن كان من الأبرار ففي عليين ، وإن كان من الفجّار ففي سجين . وأنّ مردّ الخلائق كلّهم إلى الله يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعدله وهو الذي له الحكم وحده وهو الأسرع حساباً ، وبعد أن ذكر الله قهره ، وبعض مظاهر قهره ، امتنّ على عباده في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البرّ والبحر وهم الحائرون الواقعون في المهامه البريّة ، وفي اللجج البحريّة إذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له ، جهراً وسراً ، واعدين الله أنه إن أنجاهم من ضائقتهم هذه ليكونُنَّ من الشاكرين لله بالقيام بأمره . وهنا أمر الله رسوله ﷺ أن يقول ويعلن أن الله وحده هو الذي ينجي من هذه الظلمات ، ومن كل كرب ، ثم بعد هذا الإنجاء يوجد من يشركون بعبادته ودعائه آلهة أخرى . وبعد أن ذكر الله ــ عز وجل ــ مظهراً من مظاهر قهره ، ورحمته ، وكفر عباده ، ذكر الله ــ عز وجل ــ مظاهر أخرى من مظاهر قهره ، فذكّر بقدرته على أن يبعث عذاباً من فوق رؤوس عباده ، وعلى أن يبعث عذاباً من تحت أرجلهم ، أو يجعلهم ملتبسين شيعاً : فرقاً متخالفين ، ويسلّط بعضهم على بعض بالعذاب والقتل ، ثمّ ذكر أنّه يوضح الآيات ، ويبيّنها ، ويفسّرها ؛ من أجل أن يفهموا ويتدبّروا عن الله آياته وحججه وبراهينه .

وبعد هذا البيان ذكر الله ــ عزّ وجل ــ تكذيب قوم محمّد ﷺ للقرآن ، وهو الحق الذي ليس وراءه حق ، ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن أنّه ليس عليهم بحفيظ ، وأنّ لكل نبأ حقيقة ، ولكل خبر وقوعاً ، ولو بعد حين . وأنهّم سيرون ويعلمون ، وفي هذا تهديد ووعيد لهم على تكذيبهم ما لا يحتمل التكذيب ، ثمّ أمر الله رسوله ﷺ ــ وهو أمر لكل مؤمن ــ أنّه إذا رأى الذين يكذّبون بآيات الله أن يعرض عنهم حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ، وفي حالة الجلوس نسياناً ، فقد

أمر ألا يعود . والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذّبين الذين يحرّفون آيات الله ، ويضعونها على غير مواضعها ، فإن جلس أحد معهم ناسياً فلا يقعد بعد التذكير مع القوم الظالمين . ثمّ وعد الله المتقين أنهم إذا تجنّبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم ، وتخلّصوا من إثمهم . ثمّ بيّن الله تعالى حكمة الأمر بالإعراض عن الذين يخوضون بآيات الله ، أنه من أجل أن يتقوا ذلك ولا يعودوا إليه ، ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يترك ، ويدع ، ويعرض ، ويمهل المتخذين دينهم لعباً ولهواً ، والمغرورين بالحياة الدنيا ، ثم أمره أن يذكّر الناس بهذا القرآن ، وأن يحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، من أجل أن تنجو الأنفس ولا تهلك يوم تحبس عن الخير ودرك المطلوب ، إذ لاقريب ولا أحد يشفع لنفس كافرة ولو بذلت كل مبذول . ثمّ بيّن تعالى كيف أنّ هؤلاء الذين لا يقبلون التذكير يهلكون بكسبهم السيء ، وأن لهم شراباً من حميم وعذاباً أليماً بسبب كفرهم . ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن أنّه لا يدعو ـــ هو ولا المسلمون ـــ من دون الله أحداً ، وكيف يفعلون وهم يعلمون أنّه لا يضرّ ولا ينفع إلا الله ، وكيف يفعلون فيرتدُّون بعد إذ هداهم الله ، إنهم لن يفعلوا ذلك فيكونوا كالمستجيبين لدعوة الشياطين ، الذين يزعمون للإنسان - في حالة حيرته وضلاله - أنهم يدعونه إلى الحق والهدى ، وهم كاذبون ، إذ لا هدى إلا هدى الله الذي استجاب له الرسول ﷺ والمؤمنون ، وهو الذي أمرهم بالإسلام له - جل جلاله - كما أمرهم أن يقيموا الصلاة ويتقوه إذ هو الذي إليه المرجع .

ثمّ ختم الله ـــ عز وجل ـــ هذا المقطع كله بتقرير أنّه هو الذي خلق السمٰوات والأرض بالعدل ، فهو مالكهما وخالقهما ، والمدبّر لهما ولمن فيهما وكما ذكر بدء الخلق بقدرته ، فقد ذكّر في هذا المقام أنه كذلك الخالق ليوم القيامة ، ثم ذكر الله أن من صفاته ـــ عز وجل ـــ أن قوله الحق وله الملك ، وأظهر ما يظهر هذا لخلقه يوم ينفخ في الصور . ثم وصف ذاته بأنه عالم الغيب والشهادة ، وأنه الحكيم الخبير

كلمة في السياق :

إن السياق الخاص للمقطع كله بجولتيه يكاد يكون عرضاً لمظاهر من قهر الله وحكمته وعلمه ، وهي المعاني التي ذكرتها أول آية فيه ، ولذلك رأينا في المقطع مظاهر من قهره عز وجل في الدنيا وفي الآخرة ، ورأينا استعراضاً لمظاهر من علمه ، ولمظاهر من

حكمته ، ولعل آخر آية في المقطع تدل على هذا كله : ﴿ **وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير** ﴾

ولقد رأينا أن سياق سورة الأنعام يكاد يكون عرضاً لمظاهر خلق الله للأشياء والإنسان ، وكيف ينحرف المنحرفون مع ذلك فيشركون ويمترون ، ولقد رأينا كيف أن الجولة الأولى من هذا المقطع ركّزت على الشرك وحاورت أهله ، وسنرى في هذه الجولة مثل ذلك ﴿ **قل من يُنجِّيكم من ظلمات البر والبحر** .. ﴾ ﴿ **قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا** ... ﴾ وهكذا نجد أن المقطع في جولتيه يمضي على نسق واحد مع السياق الخاص للسورة ، وهو مع هذا وهذا يفصّل في محور السورة من سورة البقرة ، كما رأينا أدلة ذلك وكما سنرى . فلننتقل الآن إلى التفسير الحرفي للجولة الثانية :

المعنى الحرفي :

﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حَفَظة** ﴾ . أي : ملائكة حافظين لكم ، وآخرين حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون ليكون ذلك أزجر للعباد عن ارتكاب الفساد إذا تفكروا أن صحائفهم تُقرأ على رؤوس الأشهاد ﴿ **حتى إذا جاء أحدكم الموت** ﴾ حتى هنا لغاية حفظ الأعمال أي : وذلك أدب الملائكة مع المكلف مدة الحياة إلى أن يأتيه الممات ﴿ **توفته رسلنا** ﴾ . أي : استوفت روحه وهم ملك الموت وأعوانه ﴿ **وهم لا يفرِّطون** ﴾ . أي : لا يتوانون ولا يؤخرون ﴿ **ثمَّ رُدّوا إلى الله** ﴾ . أي : إلى حكمه وجزائه أي المتوفون تردّهم الملائكة إلى الله ﴿ **مولاهم الحق** ﴾ . أي : مالكهم الذي يلي أمورهم ، العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿ **ألا له الحكم** ﴾ في الدنيا والآخرة ، وإن نازعه في الدنيا في الظاهر من لا يعرفه فإنّه يوم القيامة لا حكم لغيره ﴿ **وهو أسرع الحاسبين** ﴾ إذ هو لا يشغله حساب عن حساب ويحاسب جميع الخلائق في الوقت القصير جداً .

فائدة :

نقل النسفي بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ثم ردُوا إلى الله** ... ﴾ هذه الحكمة المذكورة: الردّ إلى من ربّاك خير من البقاء مع من آذاك . وذكر ابن كثير بهذه المناسبة حديثاً رواه الإمام أحمد وقال ابن كثير عنه : حديث غريب . وهذا هو الحديث : عن أبي هريرة

رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروْح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يُعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروْح ريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله — عز وجل — وإذا كان الرجل السوء قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغسّاق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة فإنه لا يفتح لك أبواب السماء ؛ فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الثاني » .

﴿ **قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر** ﴾ ذكر الظلمات هنا مجاز عن مخاوف البر والبحر ، ويحتمل أن يكون المراد بظلمات البرِّ الصواعق ، وبظلمات البحر الأمواج ﴿ **تدعونه** ﴾ . أي : فيحينئذ تفردونه بالدعاء وحده ﴿ **تضرّعاً** ﴾ . أي : معلنين الضراعة ﴿ **وخفية** ﴾ . أي : ومسرّين الدعاء في أنفسكم كذلك ﴿ **لئن أنجانا من هذه** ﴾ . أي : يقولون وهم في الخطر : لئن خلّصنا من هذه الظلمات ﴿ **لنكوننّ من الشاكرين** ﴾ . أي : لله وحده بالاعتراف له ، والإخلاص له ، والعمل له ﴿ **قل الله يُنجّيكم منها** ﴾ . أي : من الظلمات ﴿ **ومن كل كرب** ﴾ . أي : ومن كل غمّ وحزن ﴿ **ثم أنتم تشركون** ﴾ بعد ذلك ولا تشكرون ، فما أكثر غفلة الإنسان ، وما أكثر كفره ﴿ **قل هو القادر** ﴾ . على كل شيء فلا يغرنّكم الأمن ﴿ **على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم** ﴾ كما أمطر على قوم لوط ، وعلى أصحاب الفيل الحجارة ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقارون . واتجه ابن عباس في تفسير من فوقكم أو من تحت أرجلكم اتجاهاً آخر ففسّر ﴿ **من فوقكم** ﴾ « بالأئمة والأمراء السّوء . وفسّر ﴿ **من تحت أرجلكم** ﴾ بخدم السوء ، قال ابن جرير : وهذا القول وإن كان له وجه صحيح لكنّ الأوّل : أظهر وأقوى » ومن عرف ما كانت عليه روسيا في ظل القياصرة ، وما آلت إليه في ظل الحكم الشيوعي ، عرف فظاعة العذاب

على حسب ما فسّره به ابن عباس ، ويحتمل أن يكون المراد بالفوق والتحت حبس المطر والنبات ﴿ **أو يلبسكم شيعاً** ﴾ . أي : أو يخلطكم فرقاً مختلفين على أهواء شتى كل فرقة منكم لها هدى ومصلحة تخالف الأخرى، ومعنى خلطهم هنا أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال ﴿ **ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ بأن يقتل بعضكم بعضاً ، ومن عرف ما حدث في الحربين العالميتين الأولى والثانية . إذ قتل فيهما عشرات الملايين ، وجرح فيهما عشرات الملايين عرف معنى هذه الآية ﴿ **انظر كيف نصّرف الآيات** ﴾ . أي : نكرّرها بالوعد والوعيد ﴿ **لعلهم يفقهون** ﴾ . أي : يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه .

فائدة :

هذه الآية عامّة ، والخطاب فيها لكل أهل الأرض ولمّا نزلت أراد رسول الله ﷺ أن يأخذ الأمن من الله لأمّته في الحياة الدنيا ألّا تصيبهم هذه الثلاثة فأعطي أمانا في الأولى والثانية ، ومنع الثالثة ، ولا يعني الأمان من الأولى والثانية ألا يصيب بعض الأمة شيء من ذلك ، بل ورد ما يدّل على الإصابة لبعض بقاع هذه الأمة ، وأمّا الثالثة فما أكثر ما عُذّب المسلمون بها ولا يزالون ، وقد نقل ابن كثير عند هذه الآية روايات كثيرة حول ما ذكرناه . وأحاديث لها علاقة بالآية وبعضها يشبه الآخر ، فلننقل منها ، ما لا يؤدي إلى التكرار مع التعليق المناسب :

أ ـــ روى البخاري ... عن جابر بن عبد الله قال : لمّا نزلت هذه الآية ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أعوذ بوجهك » . ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » . ﴿ **أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هذا أهون ـــ أو قال : ـــ أيسر » .

ب ـ روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ... عن سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم** ﴾ فقال : « أما إنّها كائنة ولم يأت تأويلها بعد » وأخرجه الترمذي ثم قال : هذا حديث غريب .

وقد جاء تأويلها في عصرنا وتأويل بعضها من قبل ، ونحن ننتظر المزيد من تأويلها ،

ففي عصرنا حدث خسف في المغرب في أغادير من أرض الإسلام ، وعذبت قرى في تركيا من فوقها ، وفي كل يوم تقريباً نسمع غرقاً وزلزالاً وحرقاً .

ج ــ روى الإمام أحمد ... عن سعد بن أبي وقاص قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية ، فدخل فصلى ركعتين ، فصلينا معه ، فناجى ربه ــ عز وجل ــ طويلا ثم قال : « سألت ربي ثلاثاً : سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسَّنَة فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » . انفرد بإخراجه مسلم . ولا يعني هذا أنه لا يصيب الجوع والغرق أجزاءً من هذه الأمة ، فإنّ هذا حاصل ، ولكن الاستئصال للعالم الذي هو أمة الدعوة ، أو للمسلمين الذين هم أمة الإجابة لا يكون .

د ــ روى الإمام أحمد ... عن خبّاب بن الأرتّ ــ مولى بني زهرة وكان قد شهد بدراً مع رسول الله ﷺ أنه قال : راقبت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها رسول الله ﷺ ، حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله ﷺ من صلاته ، قلت : يا رسول الله ، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صلّيت نحوها . فقال رسول الله ﷺ : « أجل إنها صلاة رغب ورهب . سألت ربي ــ عز وجل ــ فيها ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ؛ سألت ربي ــ عز وجل ــ أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا ، فأعطانيها ، وسألت ربي ــ عزّ وجل ــ أن لا يُظهر علينا عدواً من غيرنا فأعطانيها ، وسألت ربي ــ عز وجل ــ أن لا يلبسنا شيعاً فمنعنيها » .

ورواه النسائي وابن حبان والترمذي . وقال حسن صحيح .

والملاحظ أنه وإن سُلّط على جزء من أجزاء الأرض الإسلامية عدو فإن التسليط الكلي لا يكون فمثلًا في الاجتياح المغولي والتتري للأمة الإسلامية بقيت أجزاء لم تحتل كمصر والمغرب ، وفي الاجتياح الاستعماري الحديث بقيت أجزاء كثيرة مستقلة كالحجاز ، ونجد ، واليمن ، وهكذا لم يمر عصر على الإطلاق بحيث يسلّط على هذه الأمة غيرها تسليطاً كاملًا .

هـ ــ روى الإمام أحمد ... عن شدّاد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها ، وإني أعطيت الكنزين الأبيض والأحمر ، وإني سألت ربي ــ أن لا يهلك أمّتي بسنة بعامة

وأن لايسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامة ، وأن لا يلبسهم شيعاً ، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض ، فقال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يردّ ، وإني قد أعطيتك لأمّتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامة ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وبعضهم يقتل بعضاً ، وبعضهم يسبي بعضاً » . قال : وقال النبي ﷺ : « إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين ، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة » . إسناده جيد قوي . وقد وقع الكثير مما تحدث عنه هذا الحديث ، وما أكثر معجزاته عليه الصلاة السلام ، وإن كل كلمة من كلماته لمعجزة لو عقل الناس وفهموا ، فعليه الصلاة والسلام .

و ــ روى الحافظ ابن مردويه ... عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « دعوت ربي ــ عز وجل ــ أن يرفع عن أمتي أربعاً ، فرفع الله عنهم ثنتين ، وأبى عليّ أن يرفع عنهم ثنتين : دعوت ربي أن يرفع الرجم من السماء ، والغرق من الأرض ، وأن لايلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض . فرفع الله عنهم الرجم من السماء ، والغرق من الأرض ، وأبى الله أن يرفع اثنتين : القتل والهرج » . وكما قلنا من قبل إن الذي رُفع إنما هو الرجم الكلي ، أو الغرق الكلي ، أما التعذيب الجزئي فإنه واقع ، وقد رأينا الحديث السابق قد وردت فيه كلمة « بعامة » مما يدل على أن المراد الإهلاك الكلي وهو الذي رفع .

ز ــ روى أبو جعفر الرازي في أثر عن أبي بن كعب : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ . قال : فهي أربع خلال : منها اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة ، ألبسوا شيعاً ، وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان لا بد منهما واقعتان الرَّجم والخسف .

وقد وقع شيء من ذلك كما ذكرنا في عصرنا في أغادير إذ خسف بها جميعاً وهي بلدة مغربية غلب عليها الفسوق والجهل ــ وتحدثت الإذاعات عن الأعاصير التي اجتاحت البنغال في مرحلة من المراحل ، ونادراً ما يمر عام إلا ونسمع الكثير من مثل ذلك .

ح ــ روى ابن مردويه ... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « سألت ربي لأمتي أربع خصال فأعطاني ثلاثاً ، ومنعني واحدة . سألته أن لا تكفر أمتي واحدة فأعطانيها ، وسألته أن لا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يظهر عليهم

عدواً من غيرهم ، فأعطانيها . وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها » في هذا الحديث إشارة إلى أن هذه الأمّة لا تكفر دفعة واحدة . وهذا ما حصل ، فرغم قوة الردّة عن الإسلام في عصرنا فإن الإسلام على غاية من القوة عند أهله . وبعد :

فإن هذه الآية خطاب للبشرية كلها ، والبشرية كلها يصيبها ما هدّدها الله به من هذه الثلاثة بلا استئصال . فكل فترة نسمع بخسف أو زلزال أو غرق ، أو حرق في مكان ما من الأرض ، والحروب المستعرة ، والحروب المحتملة مما تشيب له الرؤوس ، ولكون الأمة الإسلامية جزءاً من البشرية ؛ فقد دعا رسول الله ﷺ ربه ليرفع عن أمته ما هددت به الآية فأجيب إلى بعضها ومنع الآخر . وقد رأينا في التعليقات على ما ذكرناه ما فيه الكفاية ، ونسأل الله أن يجعلنا دائماً مع الحق ، ومن أهله ، ومع أهله .

﴿ **وكذّب به قومك وهو الحق** ﴾ . أي : وكذّب بالقرآن قومك وهوالصدق الذي ليس وراءه حق ويحتمل أن يكون المراد : وكذّب بالعذاب قومك وهو الحق الذي لا يتخلف — إذا أراد الله — وهل المراد بقومه قريش أو العرب عامّة ؟ يحتمل هذا وهذا ﴿ **قل لست عليكم بوكيل** ﴾ . أي : بحفيظ أوكل إليه أمركم إنّما أنا منذر ﴿ **لكل نبأ** ﴾ . أي : لكل شيء ينبىء به القرآن من أمر الدنيا والآخرة ﴿ **مُسْتَقَر** ﴾ . أي : وقت استقرار وحصول لابد منه ﴿ **وسوف تعلمون** ﴾ هذا تهديد ووعيد أكيد بوقوع ما أخبر به القرآن ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا** ﴾ . أي القرآن ، أي يخوضون في الاستهزاء به والطّعن فيه ﴿ **فأعرض عنهم** ﴾ . أي : لا تجالسهم وقم عنهم ﴿ **حتى يخوضوا في حديث غيره** ﴾ . أي : غير القرآن مما يحلّ فحينئذ يجوز أن تجالسهم ﴿ **وإما ينسينّك الشّيطان** ﴾ . أي : ما نهيت عنه من عدم الجلوس معهم حال الخوض منهم ﴿ **فلا تقعد بعد الذكرى** ﴾ . أي : بعد أن تتذكر ﴿ **مع القوم الظّالمين** ﴾ الكافرين الجاحدين ، وأي ظلم أكبر من ظلم الله بالاستهزاء بآياته وتكذيبها ﴿ **وما على الذين يتقون** ﴾ . أي : وما على المتقين ﴿ **من حسابهم** ﴾ . أي : من حساب هؤلاء الذين يخوضون في القرآن تكذيباً واستهزاءً ﴿ **من شيء** ﴾ . أي : وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم ﴿ **ولكن ذكرى** ﴾ . أي : ولكن عليهم أن يذكّروهم إذا سمعوهم يخوضون بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهة لهم ، وموعظتهم ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾ . أي : لعل هؤلاء الخائضين يتقون الله فيؤمنون ، ويتركون الكفر ، ويجتنبون الخوض حياءً أو كراهة لمسائتهم ، وفي زماننا هذا حيث كثر الخوض في آيات الله ،كم ينبغي أن يكون المسلم على ذكر من هذه الآية ﴿ **وذر الذين**

اتخذوا دينهم ﴾ الذي كُلّفوه ودُعوا إليه وهو دين الإسلام ﴿ **لعباً ولهواً** ﴾ . أي : سخروا به واستهزؤوا ، واللهو : ما يشغل الإنسان من هوى وطرب . فما أشدّ جهل هؤلاء إذ يلعبون بالإسلام ، ويلهون به ﴿ **وغرَّتهم الحياة الدنيا** ﴾ فظنّوها الهدف والغاية ، وأنّها كل شيء ؛ ففتنوا ببهجتها ، وزينتها ، ونسوا الآخرة ، وكفروا بها ، أو غفلوا عنها ، ومعنى ذرهم أي : اتركهم ، وأعرض عنهم ، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ﴿ **وذكّر به أن تبسل نفس بما كسبت** ﴾ . أي : وَعِظ بالقرآن ؛ مخافة أن تسلم نفس إلى الهلكة ، والعذاب ، و ترتهن بسوء كسبها ، وأصل الإبسال المنع وأي عذاب أفظع من منع دخول الجنة ! فكيف إذا رافقه دخول النار ! ﴿ **ليس لها** ﴾ . أي : لهذه النفس الهالكة ﴿ **من دون الله وليٌّ** ﴾ ينصرها بالقوة ﴿ **ولا شفيع** ﴾ يدفع عنها بالمسألة ، والمعنى وذكّر بالقرآن كي لا تبسل نفس عادمة ولياً وشفيعاً بكسبها ﴿ **وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها** ﴾ العدل : الفدية لأن الفادي يعدل المفدى بمثله ، والمعنى : وإن تفد كل فداء لا يؤخذ منها ولا يقبل ﴿ **أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** ﴾ الحميم : هو الماء الحارّ ، والمعنى : أولئك الهلكى لهم شراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم ، والمبسلون : هم الهالكون المتخذون دين الله لعباً ولهواً . ﴿ **قل** ﴾ لهؤلاء الكافرين ﴿ **أندعوا من دون الله** ﴾ . أي : أنعبد من دون الله الضار النافع ﴿ **ما لا ينفعنا ولا يضرنا** ﴾ . **أي : ما لا** يقدر على نفعنا لو دعوناه ، ولا على ضرنا إن تركناه ﴿ **ونُرَدّ على أعقابنا** ﴾ . أي : أو نرد راجعين إلى الشرك ؟ ﴿ **بعد إذ هدانا الله** ﴾ للإسلام وأنقذنا من كل مظهر من مظاهر الشرك ! ﴿ **كالذي استهوته الشياطين في الأرض** ﴾ . أي : أننكص مشبهين من استهوته الشياطين في الأرض ؛ فأضلته وذهبت به كل مذهب ﴿ **حيران** ﴾ . أي : تائهاً ضالًا عن الجادّة لا يدري كيف يصنع ﴿ **له** ﴾ . أي : لهذا الحيران ﴿ **أصحاب يدعونه إلى الهدى** ﴾ . أي : يدعونه إلى أن يهدوه الطريق ، سمّى الطريق المستقيم الهدى ﴿ **ائتنا** ﴾ . أي : يقولون له : ائتنا ، وهو ضارب في التيه لا يجيبهم ، ولا يأتيهم ، وهذا تشبيه للضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان ، والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم ، وهذا وجه من وجوه فهم الآية ، والوجه الآخر أن أصحابه هم أولياؤه في الشر يدعونه إلى ما يزعمون أنه هدى ، وما هو بهدى ؛ لأن الهدى هدى الله ، فيستجيب لهم ويترك هدى الله فهو واقع بين تأثيرين ، تأثير شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وعلى كل حال ﴿ **قل إن هدى الله** ﴾ وهو الإسلام ﴿ **هو**

الهدى ﴾ . أي : وحده وما وراءه ضلال ﴿ **وأُمِرنا لنسلم لرب العالمين** ﴾ . أي : قل إن هدى الله هو الهدى ، وقل أمرنا لنسلم أي : لأن نسلم لرب العالمين ﴿ **وأن أقيموا الصلاة** ﴾ . أي : وأمرنا لأن نقيم الصلاة فصار المعنى : وأمرنا للإسلام ولإقامة الصلاة وكذلك ﴿ **واتقوه** ﴾ . أي : وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في كل الأحوال ﴿ **وهو الذي إليه تحشرون** ﴾ . أي : يوم القيامة ، أمر أولًا بالإعلان عن أنه لا هدى إلا هدى الله ، وأن يعلن عمّا أمر به من إسلام لله ، وإقام صلاة ، وتقوى ، وأن يعلن أن مرجع الخلق إلى الله ، وهذه أمهات الهدى ، فمن لم يحقق هذه في نفسه فإن أصل الهداية لم يتحقق به ، ومن هنا نعلم أن كل ما عليه الخلق من غير الإسلام ضلال ﴿ **وهو الذي خلق السمٰوات والأرض بالحق** ﴾ . أي : بالحكمة أو المعنى خلقها محقاً ﴿ **ويوم يقول كن فيكون** ﴾ اليوم هنا بمعنى الحين والمعنى أنه خلق السمٰوات والأرض بالحق والحكمة ، وحين يقول لشيء من الأشياء كن فيكون ذلك الشيء ﴿ **قوله الحق** ﴾ . أي : الحكمة . أي : لا يكون شيئاً من السمٰوات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب ﴿ **وله الملك يوم ينفخ في الصور** ﴾ الصور : القرن بلغة اليمن ، والمعنى : أن الملك له وحده يوم ينفخ في الصور ، وله الملك في كل حين ولكنّه هناك لا ينازعه منازع ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ . أي : عالم السرّ والعلانية ، عالم الظاهر والباطن ، عالم ما غاب عن العباد وما هو مشهود لهم ﴿ **وهو الحكيم** ﴾ في الإفناء والإحياء ﴿ **الخبير** ﴾ بالحساب والجزاء . وبهذا انتهى المقطع .

فـوائد :

١ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإما ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾ وما جاء قبلها من نهي عن مخالطة الذين يخوضون بآيات الله يقول صاحب الظلال :

وقد جاء في قول القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» بصدد الآية :

« وفي هذه الآية ردّ من كتاب الله ـــ عز وجل ـــ على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج وأتباعَهم لهم أن يخالطوا الفاسقين ، ويصوّبوا آراءهم تقية .. » .

ونحن نقول : إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية في الحدود التي بينتها . أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور . لأنه ـــ في ظاهره ـــ إقرار

للباطل ، وشهادة ضد الحق . وفيه تلبيس على الناس ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله . وفي هذه الحالة يكون النهي والمفارقة .

كذلك روى القرطبي في كتابه هذه الأقوال :

« قال ابن خويز منداد : من خاض في آيات الله تُركت مجالسته وهُجر ــ مؤمناً كان أو كافراً ــ قال : وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ، ودخولَ كنائسهم والبِيَع ، ومجالسة الكفار وأهل البدع ، وألا تُعتقد مودتهم ، ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم . وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي : اسمع مني كلمة : فأعرض عنه ، وقال : ولا نصف كلمة . ومثله عن أيوب السَّختياني . وقال الفُضيل بن عياض : من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها ؛ ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة ، وإذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رَجَوْت أن يغفر الله له . وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : « من وقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام » ..

فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله .. وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية ؛ ومن يقره على هذا الادعاء .. فليس هذا بدعة مبتدع ؛ ولكنه كفر كافر ، أو شرك مشرك ، مما لم يكن في زمانهم . فمنذ أن قام الإسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى ، وهو يزعم الإسلام . ولم يقع شيء من ذلك إلا بعد الحملة الفرنسية التي خرج بعدها الناس من إطار الإسلام ــ إلا من عصم الله ــ وكذلك لم يعد في قول هؤلاء السلف ما ينطبق على هذا الذي كان ! فقد تجاوز كل ما تحدثوا عنه بمثل هذه الأحكام .. » .

أقول : نص فقهاؤنا على أن خلطة الفاسق مكروهة ، فكيف بخلطة الكافر ، ولابدّ أن نفرّق بين الخلطة التي يقتضيها عمل دنيوي مشترك فهذه ضرورة تقدّر بقدرها ، ولا مانع شرعياً منها إذا كان العمل جائزاً شرعاً ، لقد آجر بعض الصحابة نفسه ليهود ، وتعامل الرسول ﷺ في أمور المعاملات مع غير المسلمين ، فهذا ممّا لا حرج فيه ، وقد يضطر الإنسان بحكم عمله ــ أن يجالس غير المسلمين ، كالمدرس في مدرسة يدرّس فيها كافر ومسلم فهذا ممّا لا حرج فيه ، إلا إذا خاض هؤلاء في آيات الله طعناً واستهزاءً فعليه أن يوقفهم عند حدّهم وإذا لم يستطيع فعليه أن يقوم .

٢ ـ قال بعضهم المراد بالصور في الآية ـ وفي هذا المقام ـ جمع صورة أي : يوم ينفخ فيها فتحيا . قال ابن جرير : والصحيح أن المراد بالصور القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . قال ابن جرير : والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ » وقال الإمام أحمد .... عن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابي : يا رسول الله ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه » . ثم يذكر ابن جرير حديثاً طويلًا رواه أبو القاسم الطبراني في كتابه المطولات ، وينقل ابن كثير طرفاً منه ثم يقول : هذا حديث مشهور وهو غريب جداً ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة وفي بعض ألفاظه نكارة تفرّد به إسماعيل بن رافع ، قاضي أهل المدينة ، وقد اختلف فيه ، فمنهم من وثّقه ، ومنهم من ضعّفه . ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة ، كأحمد بن حنبل ، وأبي حاتم الرازي ، وعمرو بن علي الفلاس ، ومنهم من قال فيه هو متروك . وقال ابن عدي : أحاديثه كلها فيها نظر ، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء . قلت : وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة ، قد أفردتها في جزء على حدة ، وأما سياقه فغريب جداً ، ويقال جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً ، فأنكر عليه بسبب ذلك ، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول : إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث » والذي أقوله إن هذا الحديث بعد ما رأينا من الكلام فيه يمكن أن نعتبره محاولة لإعطاء صورة متسلسلة عما سيكون من خلال نصوص متعددة ، منها الصحيح ، ومنها المنكر، جمعها جامعها وجعلها حديثاً واحداً ، وحاسبه على فعله علماء المسلمين . وسننقل ما اجتزأه منه ابن كثير مع ملاحظة ما مرّ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو في طائفة من أصحابه فقال : « إنّ الله لمّا فرغ من خلق السمٰوات والأرض ، خلق الصور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخصاً بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر » . قلت : يا رسول الله وما الصور ؟ قال : « القَرْن » قلت كيف هو ؟ قال : « عظيم والذي بعثني بالحق إن أعظم دارة فيه كعرض السموات والأرض ، ينفخ فيه ثلاث نفخات : النفخة الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول : انفخ . فينفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السمٰوات والأرض إلا من شاء الله ، ويأمره فيطيلها ويديمها ولا يفتر ، وهي كقول الله ﴿ **وما**

ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾ (صٓ : ١٥) فيسيّر الجبال ، فتمرّ مرّ السحاب فتكون سراباً ، ثم ترتج الأرض بأهلها رجّاً ، فتكون كالسفينة المرميّة في البحر تضربها الأمواج تكفأ بأهلها كالقنديل المعلّق في العرش ترجرجه الرِّياح ، وهو الذي يقول : ﴿ **يوم ترجف الراجفة ۝ تتبعها الرادفة ۝ قلوب يومئذ واجفة** ﴾ (النازعات : ٦ ، ٧ ، ٨)فيميد الناس على ظهرها ، وتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة من الفزع ، حتى تأتي الأقطار ، فتأتيها الملائكة فتضرب وجوهها ، فترجع ، ويولي الناس مدبرين ما لهم من أمر الله من عاصم ، ينادي بعضهم بعضاً ، وهو الذي يقول الله تعالى ﴿ **يوم التناد** ﴾ (غافر : ٣٢) فبينما هم على ذلك إذ تصدّعت الأرض من قطر إلى قطر ، فرأوا أمراً لم يروا مثله ، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم ، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل ، ثم انشقت فانتثرت نجومها ،وانخسفت شمسها وقمرها » . قال رسول الله ﷺ : « الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك » . قال أبو هريرة : يا رسول الله من استثنى الله — عز وجل — حين يقول ﴿ **ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ ؟ (النمل : ٨٧)قال : « أولئك الشهداء » . وإنمّا يصل الفزع إلى الأحياء ، وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وآمنهم منه ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه . قال : وهو الذي يقول الله — عز وجل — ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ۝ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى النّاس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ (الحج : ٢) فيكونون في ذلك العذاب ما شاء الله إلا أنّه يطول ، ثمّ يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق أهل السمٰوات والأرض إلا من شاء الله ، فإذا هم قد خمدوا ، وجاء ملك الموت إلى الجبار — عزّ وجل — فيقول : يارب ، قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت ، فيقول الله — عز وجل وهو أعلم بمن بقي — فمن بقي ؟ فيقول : يارب بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقي جبريل و ميكائيل ، وبقيت أنا ، فيقول الله — عز وجل — ليمت جبريل وميكائيل فيُنْطِق الله العرش فيقول : يارب يموت جبريل وميكائيل ؟ فيقول : اسكت ، فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي ، فيموتان ، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول : يا رب قد مات جبريل وميكائيل . فيقول الله — عز وجل وهو أعلم بمن بقي — فمن بقي ؟ فيقول بقيت أنت

الحي الذي لا تموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقيت أنا ، فيقول الله ليمت حملة عَرشي ، فيموتوا ، ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتي ملك الموت فيقول : يارب قد مات حملة عرشك فيقول الله ــ وهو أعلم بمن بقي ــ فمن بقي ؟ فيقول : يارب بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت أنا فيقول الله : أنت خلق من خلقي ، خلقتك لما رأيت ، فمت فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، كان آخراً كما كان أولًا طوى السمٰوات والأرض طيَّ السِّجِّل للكتب ، ثم دحاهما ثم يلقفهما ثلاث مرات ، ثم يقول أنا الجبار أنا الجبار ثلاثاً ثم هتف بصوته ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ ثلاث مرات فلا يجيبه أحد ثم يقول لنفسه ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ يقول الله ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ فيبسطهما ويسطحهما ثم يمدّهما مدّ الأديم العكاظي ﴿ **لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً** ﴾ ثم يزجر الله الخلق زجرة ، فإذا هم في الأرض المبدلة مثل ما كانوا فيها من الأولى ، من كان في بطنها كان في بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثمّ ينزل الله عليهم ماء من تحت العرش ، ثم يأمر الله السماء أن تمطر ، فتمطر أربعين يوماً ، حتى يكون الماء فوقهم اثنى عشر ذراعاً ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطراثيث ــ أو كنبات البقل ــ حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت قال الله ــ عز وجل ــ ليحيى حملة عرشي فيحيون ، ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور ، فيضعه على فيه ثمّ يقول : ليحيىٰ جبريل وميكائيل فيحييان ، ثم يدعو الله الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نوراً ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقبضها جميعاً ، ثمّ يلقيها في الصور ، ثمّ يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ، فينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كأنهّا النحل ، قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول : وعزتي وجلالي ليرجعن كل روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ، فتدخل في الخياشيم ، ثم تمشي في الأجساد كما يمشي السَّمّ في اللديغ ، ثم تنشقّ الأرض عنهم ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه ، فتخرجون سراعاً إلى ربكم تنسلون ﴿ **مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾ (القمر : ٨) حفاة عراة غرلًا فتقفون موقفاً واحداً ، مقداره سبعون عاماً ، لا ينظر إليكم ، ولا يقضى بينكم ، فتبكون حتى تنقطع الدموع ثم تدمعون دماً ، وتعرقون حتى يلجمكم العرق ــ أو يبلغ الأذقان ــ وتقولون من يشفع لنا إلى ربنا فيقضي بيننا ؟ فتقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلّمه قبلًا ، فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه فيأبى ويقول : ما أنا بصاحب ذلك

فيستقرئون الأنبياء نبياً نبياً كلما جاؤوا نبياً أبى عليهم ــ قال رسول الله ﷺ ــ : « حتى تأتوني فأنطلق إلى الفحص فأخر ساجداً » قال أبو هريرة : يا رسول الله وما الفحص ؟ قال : « قدام العرش حتى يبعث الله إليّ ملكاً فيأخذ بعضدي ويرفعني فيقول لي : يا محمد فأقول : نعم يارب . فيقول الله ــ عز وجل ــ : ما شأنك ــ وهو أعلم ــ فأقول : يارب وعدتني الشفاعة فشفعني في خلقك فاقض بينهم ، قال الله : قد شفعتك ، أنا آتيكم أقضي بينكم » قال رسول الله ﷺ : « فأرجع فأقف مع الناس ، فبينما نحن وقوف إذ سمعنا من السماء حِسّاً شديداً ، فهالنا فينزل أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافّهم ، وقلنا لهم: أفيكم ربنا ،قالوا: لا، وهو آت ، ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلي من نزل من الملائكة ، وبمثلي من فيها من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض ، أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافّهم ، وقلنا لهم أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا ، وهو آت ، ثمّ ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبّار ــ عزّ وجل ــ في ظلل من الغمام والملائكة فيحمل عرشه يومئذ ثمانية ــ وهم اليوم أربعة ــ أقدامهم في تخوم الأرض السفلى ، والأرض والسموات إلى حُجزَهم ، والعرش على مناكبهم ، لهم زجل في تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذي العرش والجبروت ، سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت سُبّوح قدوس قدوس قدوس ، سبحان ربنا الأعلى ، رب الملائكة والروح ، سبحان ربنا الأعلى ، الذي يميت الخلائق ولا يموت . فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه ، ثم يهتف بصوته : يا معشر الجن والإنس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم ، وأبصر أعمالكم ، فأنصتوا إليّ ، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تُقرأ عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه ، ثمّ يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم ، ثم يقول ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ۝ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ۝ ولقد أضل منكم جبلًا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ۝ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴾ أو ــ بها تكذبون ــ شك أبو عاصم ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ فيميز الله الناس ، وتجثو الأمم يقول الله تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾

(الجاثية : ٢٨)فيقضي الله — عز وجل — بين خلقه إلا الثقلَين : الجن والإنس ، فيقضي بين الوحوش ، والبهائم ، حتى إنه ليقضي للجماء من ذات القرن ، فإذا فرغ من ذلك فلم تبقَ تبعة عند واحدة للأخرى ، قال الله لها كوني تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر ﴿ **يا ليتني كنت تراباً** ﴾ (النبأ : ٤٠)ثم يقضي الله بين العباد ، فكان أول ما يقضي فيه الدماء ، ويأتي كل قتيل في سبيل الله ، ويأمر الله — عز وجل — كل قتيل فيحمل رأسه تشخب أوداجه فيقول : يارب فيم قتلني هذا ؟ فيقول — وهو أعلم — : فيم قتلتهم ؟ فيقول : قتلتهم لتكون العزة لك ، فيقول الله له : صدقت . فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس ، ثم تمر به الملائكة إلى الجنة . ثم يأتي كل من قتل على غير ذلك يحمل رأسه تشخب أوداجه فيقول : يارب فيم قتلني هذا ؟ فيقول – وهو أعلم –: لم قتلتهم ؟ فيقول يارب قتلتهم لتكون العزة لى فيقول : تعست . ثم لا تبقي نفس قتلَها إلا قتل بها ، ولا مظلمة ظَلمها إلا أخذ بها ، وكان في مشيئة الله إن شاءعذّبه،وإن شاء رحمه ، ثمّ يقضي الله تعالى بين من بقي من خلقه حتى لا تبقى مظلمة لأحد عندأحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم ، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه إلى أن يخلص اللبن من الماء ، فإذا فرغ الله من ذلك ، نادى مناد يسمع الخلائق كلهم ، ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فلا يبقى أحد عبد من دون الله إلا مثّلت له آلهته بين يديه ، ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عُزير ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ابن مريم ، ثم يتبع هذا اليهود ، وهذا النصارى ، ثم قادتهم آلهتهم إلى النار وهو الذي يقول : ﴿ **لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون** ﴾ (الأنبياء : ٩٩)فإذا لم يبقَ إلا المؤمنون فيهم المنافقون ، جاءهم الله فيما شاء من هيئته ، فقال : يا أيها الناس ، ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون ، فيقولون والله ما لنا إله إلا الله ، وما كنا نعبد غيره ، فينصرف عنهم ، وهو الله الذي يأتيهم فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يأتيهم فيقول : يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون ، فيقولون والله ما لنا إله إلا الله ، وما كنا نعبد غيره ، فيكشف لهم عن ساقه ، ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم ، فيخرّون للأذقان سجداً على وجوههم ويخرُّ كل منافق على قفاه ، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر ، ثم يأذن الله لهم فيرفعون ويضرب الله الصراط بين ظهراني جهنم كحد الشفرة — أو كحد السيف — عليه كلاليب ، وخطاطيف ، وحسك كحسك السعدان ، دونه جسر دحْض مزلّة ، فيمرون كطرف العين ، أو كلمح البرق ، أو كمرّ

الرِّيح ، أو كجياد الركاب ، أو كجياد الرجال ، فناج سالم ، وناج مخدوش ، ومكردس على وجهه في جهنم ، فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة . قالوا : من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون من أحقُّ بذلك من أبيكم آدم عليه السلام ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلّمه قبلًا ، فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بنوح فإنه أول رسل الله ،فيؤتى نوح فيُطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ويقول عليكم بإبراهيم ، فإن الله اتخذه خليلًا ، فيؤتى إبراهيم ، فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ويقول : عليكم بموسى فإن الله قرّبه نجياً ، وكلّمه ، وأنزل عليه التوراة ، فيؤتى موسى ، فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بروح الله وكلمته ، عيسى ابن مريم ، فيؤتى عيسى ابن مريم فيطلب ذلك إليه فيقول ما أنا بصاحبكم ولكن عليكم بمحمد » . قال رسول الله ﷺ : « فيأتوني ولي عند ربي ثلاث شفاعات وعدنيهن ، فأنطلق فآتي الجنة ، فآخذ بحلقة الباب ، فأستفتح ، فيفتح لي ، فأحيّا ويرحب بي ، فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربي خررت ساجداً ، فيأذن الله لي من تحميده ، وتمجيده ، بشيء ما أذن به لأحد من خلقه ، ثم يقول : ارفع رأسك يا محمد ، واشفع تشفّع ، وسل تعطه ، فإذا رفعت رأسي يقول الله ــ وهو أعلم ــ ما شأنك ؟ أقول : يارب وعدتني الشفاعة فشفّعني في أهل الجنة فيدخلون ، فيقول الله شفّعتك وقد أذنت لهم في دخول الجنة » وكان رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده ، ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ، ومساكنكم ، من أهل الجنة بأزواجهم ، ومساكنهم ، فيدخل كل رجل منهم على اثنين وسبعين زوجة ، سبعين مما ينشىء الله ــ عز وجل ــ وثنتين آدميتين من ولد آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله ، لعبادتهما الله في الدنيا ، فيدخل على الأولى في غرفة من ياقوتة ، على سرير من ذهب ، مُكلل باللؤلؤ ، عليها سبعون زوجاً من سندس وإستبرق ، ثم إنه يضع يده بين كتفيها ، ثم ينظر إلى يده من صدرها ، ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت ، كبدها له مرآة وكبده لها مرآة . فبينا هو عندها لا يملها ولا تمله ، ما يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يفتر ذَكَرُه وما تشتكي قبلها ، فبينا هو كذلك ، إذ نودي إنا قد عرفنا أنك لا تَمل ولا تُمل ــ إلا أنه لا منيّ ولا منيّة ــ إلا أنّ لك أزواجاً غيرها ، فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة ، كلما أتى واحدة

قالت له : والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ، ولا في الجنة شيء أحبُّ إليّ منك . وإذا وقع أهل النار في النار ، وقع فيها خلق من خلق ربك ، أوبقتهم أعمالهم ، فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تجاوز ذلك ، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ، ومنهم من تأخذه جسده كله إلا وجهه حرّم الله صورته عليها » قال رسول الله ﷺ : « فأقول : يارب شفّعني فيمن وقع في النار من أمّتي . فيقول : أخرجوا من عرفتم ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، ثم يأذن الله في الشفاعة ، فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع ، فيقول الله : أخرجوا من وجدتم في قلبه زنة دينار إيماناً ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، ثم يشفع الله فيقول : أخرجوا من وجدتم في قلبه إيماناً ثلثي دينار . ثم يقول : ثلث دينار ثم يقول : ربع دينار . ثم يقول : قيراطاً . ثم يقول حبة من خردل ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، وحتى لا يبقى في النار من عمل لله خيراً قطُّ ، ولا يبقى أحد له شفاعة إلا شفع ، حتى أن إبليس ليتطاول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يُشفع له ، ثم يقول : الله بقيت وأنا أرحم الراحمين . فيدخل يده في جهنم فيخرج منها ما لا يحصيه غيره ، كأنهم حُممٌ فيلقون على نهر يقال له نهر الحيوان ، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، فما يلي الشمس منها أخيضر ، وما يلي الظل منها أصيفر ، فينبتون كنبات الطراثيث ، حتى يكونوا أمثال الذر ،مكتوب في رقابهم « الجهنميون عتقاء الرحمن ، يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب ، ما عملوا خيراً لله قط ، فيمكثون في الجنة ما شاء الله ، وذلك الكتاب في رقابهم ، ثم يقولون ربنا امح عنا هذا الكتاب فيمحوه الله — عز وجل — عنهم » .

كلمة في السياق :

لقد رأينا هذا المقطع في جولتيه أنه ناقش الكافرين وهذا يقابل قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **كيف تكفرون بالله** ﴾ وتحدث كثيراً عن الرجوع إلى الله ، وناقش كفر الكافرين في ذلك وهذا يقابل ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ وتحدث عن خلق السموات والأرض ، وعن كثير من سننه في الأرض ، وعن مظاهر علمه ، وهذا فيه رشحة من قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾ فالمقطع كله إذن يخدم المحور ، وكما انسجم المقطع مع السياق القرآني العام ، فإنّ المقطع منسجم في تسلسله الخاص ، إذ تحدّث عن

مجموعة مظاهر من مظاهر قهر الله ، وعلمه ، وحكمته ، وهي المعاني التي بدأ بها المقطع ، والتي يدور المقطع في سياقه الخاص حولها ، والكفر بدايته واحدة ولكن منحنياته ومنعرجاته كثيرة جداً ، وقد ناقش المقطع كثيراً من هذه المنحنيات والمنعرجات ، والإيمان بالله بدايته واحدة ، ولكنه يُبتنى عليه مواقف وسلوكيات ، وقد حدّد المقطع كثيراً من مواقف وسلوكيات الإيمان بالله ، والإيمان بالله يقتضي فهماً لحوادث الكون على شكل مُعيّن ، وقد حدّد المقطع كثيراً من الفهوم لأسرار هذا الكون على حقيقتها .

وكنّا ذكرنا من قبل أنّ المقطع سائر على النسق المستمر للسياق الخاص للسورة في معالجة الشرك والامتراء ، وتقرير خلق الله للأشياء ، واستحقاق الله الحمد مما تعرضت له مقدمة السورة .

والآن يأتي مقطع آخر هو المقطع الثالث في القسم الأول من سورة الأنعام .

وهو يعرض لقضايا التوحيد ، ولقضايا الشرك ، من خلال قصة إبراهيم وعرضه لمسيرة موكب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على مرّ العصور .

وبهذا يستكمل القسم الأول من أقسام سورة الأنعام مسيرته الطويلة في التقرير والعرض والمناقشة وتأكيد ما ينبغي أن يؤكّد .

☆ ☆ ☆

المقطع الثالث

ويمتد من الآية (٧٤) إلى نهاية الآية (٩٤) وهذا هو :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ

دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ
وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ
وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ
وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ
ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

☆ ☆ ☆

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ
ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا
وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى
خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ
صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن

قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

☆ ☆ ☆

كلمة في المقطع :

يبدأ المقطع بالكلام عن التوحيد من خلال الكلام عن إبراهيم عليه السلام ، وينتهي بعرض مشهد من مشاهد يوم القيامة يُؤنَّب فيه المشركون : ﴿ **وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء** ﴾ وفي وسط المقطع نرى كلاماً عن دعاة التوحيد وهم الرّسل عليهم الصلاة والسلام ومن والاهم . وفي البداية والنهاية والوسط نجد نقاشاً وحواراً مع أهل الشّرك والكفر مّما يؤكد وحدة المقطع ، كما يؤكد صلته بالسياق الخاص لسورة الأنعام الذي حددته الآيات الأولى فيها : ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ ﴿ **ثم أنتم تمترون** ﴾

والمقطع يحدثنا عن كفر الكافرين بالله ، وشرك المشركين به ، كما يحدثنا عن حال هؤلاء الكافرين إذا رجعوا إلى الله ، وذلك له صلة بمحور السورة ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثمّ استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات** ﴾ لاحظ قوله تعالى في المقطع على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿ **إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة** ﴾ إنّه من ملاحظة ذلك ندرك الصلة بين المقطع ومحور السورة من البقرة .

وبعد هذا الذي قدّمناه عن وحدة المقطع ، ومحله في السياق الخاص لسورة الأنعام ، وصلته بمحور السّورة من البقرة ، فلننقل ما قدّم به سيد قطب لهذا المقطع مبيّناً وحدته وتلاحمه قال رحمه الله :

« هذا الدرس بطوله لحمة واحدة ؛ يتناول موضوعاً متصل الفقرات .. إنه يعالج الموضوع الأساسي في السورة — وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية . وما بينهما من ارتباطات — ولكنه يعالجه في أسلوب آخر غير ما جرى به السياق منذ أول السورة .. يعالجه في أسلوب القصص والتعقيب عليه .. مع استصحاب المؤثرات الموحية التي تزخر بها السورة .. ومنها مشهد الاحتضار الكامل السمات ؛ وذلك كله في نَفَس طويل رتيب يتوسط الموجات المتلاحقة التي تحدثنا عنها في تقديم السورة ..

والدرس — في جملته — يعرض موكب الإيمان الموصول منذ نوح — عليه السلام— إلى محمد ﷺ ، وفي مطلع هذا الموكب يستعرض حقيقة الألوهية — كما تتجلى في فطرة عبدٍ من عباد الله الصالحين ، إبراهيم عليه السلام — ويرسم مشهداً رائعاً حقاً للفطرة السليمة ، وهي تبحث عن إلهها الحق ، الذي تجده في أعماقها ، بينما هي تصطدم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها .. إلى أن يخلص لها تصور حق ، يطابق ما ارتسم في أعماقها عن إلهها الحق . ويقوم على ما تجده في أطوائها من برهان داخلي هو أقوى وأثبت من المشهود المحسوس . ذلك حين يحكي السياق عن إبراهيم عليه السلام بعد اهتدائه إلى ربه الحق ، واطمئنانه إلى ما وجده في قلبه منه : ﴿ **وحاجّه قومه . قال : أتحاجّونّي في الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به . إلا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شيء علماً ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟** ﴾ .

ثم يمضي السياق مع موكب الإيمان الموصول ؛ يقوده الرهط الكريم من رسل الله على توالي العصور ؛ حيث يبدو شرك المشركين وتكذيب المكذبين لغواً لا وزن له . يتناثر على جانبي الموكب الجليل ، الماضي في طريقه الموصول . وحيث يلتحم آخره مع أوله ، فيؤلف الأمة الواحدة ، يقتدي آخرها بالهدى الذي اهتدى به أولها ، دون اعتبار لزمان أو مكان ودون اعتبار لجنس أو قوم ، ودون اعتبار لنسب أو لون .. فالحبل الموصول

بين الجميع هو هذا الدين الواحد الذي يحمله ذلك الرهط الكريم .

إنه مشهد رائع كذلك ؛ يبدو من خلال قول الله تعالى لرسوله الكريم بعد استعراض الموكب العظيم : ﴿ **ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ۝ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنّبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ۝ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل : لا أسألكم عليه أجراً ، إن هو الا ذكرى للعالمين** ﴾ .

وبعد استعراض هذا الموكب الجليل يأتي التنديد بمن يزعمون أن الله لم يرسل رسلًا ، ولم ينزل على بشر كتاباً .. إنهم لم يقدروا الله حق قدره . فما قدر الله حق قدره من يقول : إنه ـــ سبحانه ـــ تارك الناس لأنفسهم وعقولهم وما يتعاورها من الأهواء والشهوات والضعف والقصور . فما يليق هذا بألوهية الله وربوبيته ، وعلمه وحكمته، وعدله ورحمته .. إنما اقتضت حكمة الله وعلمه ورحمته وعدله أن يرسل إلى عباده رسلًا ، وأن ينزل على بعض الرسل كتباً ، ليحاولوا جميعاً هداية البشر إلى بارئها ، واستنقاذ فطرتها من الركام الذي يرين عليها ، ويغلق منافذها ، ويعطل أجهزة الالتقاط والاستجابة فيها .. ويضرب مثلًا الكتاب الذي أنزل على موسى . وهذا الكتاب الذي يصدق ما بين يديه من الكتب جميعاً ..

وينتهي الدرس الطويل المتلاحم الفقرات باستنكار الافتراء ممن يفتري على الله ، وادعاء من يزعم أنه يوحى إليه من الله ، وادعاء القدرة على تنزيل مثل ما أنزل الله .. وهي الدعاوى التي كان يدّعيها بعض من يواجهون الدعوة الإسلامية ، وفيهم من ادعى الوحي وفيهم من ادعى النبوة .

وفي الختام يأتي مشهد الاحتضار المكروب للمشركين :

﴿ **ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطوا أيديهم : أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ۝ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ! لقد تقطّع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون** ﴾ .

وهو مشهد كئيب مكروب رعيب ، يجلله الهون ، ويصاحبه التنديد والتأنيب جزاء

الاستكبار والإعراض والافتراء والتكذيب » .

أقول : إنه في السورة التي تناقش الكافرين ، وتقيم عليهم الحجة يأتي في وسطها ـ تقريباً ـ هذا المقطع الذي يذكر الله ـ عز وجل ـ فيه حوار إبراهيم لأبيه وقومه ، وما منّ الله به على إبراهيم وذريّته ـ ومنهم محمّد ﷺ ـ وكيف أنّه مع كثرة الوحي واستمراره وظهوره في التاريخ يوجد من ينكر أصل الوحي مع وجود التوراة وظهور هذا القرآن . وفي هذا السياق يبيّن الله ـ عز وجل ـ أنه لا أظلم من الكاذبين على الله ، أو المدّعين أن الله أوحى إليهم ولم يوح ، أو المتحدّين لله في وحيه . هؤلاء يذكّرنا الله ـ عز وجل ـ كيف تكون وفاتهم وكيف يكون قدومهم على الله .

فالمقطع يبني في سياق السورة لبنات في صرح التعريف على الله ـ عز وجل ـ وسننه ، ويقيم الحجة على الكافرين ، ويدلّ على طريق الإيمان ، وصلة ذلك بمحور السورة ، ومحلّه من مقطعه ، وامتدادات هذا المحور في سورة البقرة ، تكاد لاتخفى على المتأمل .

المعنى العام للمقطع :

بعد إذ قامت الحجة على أهل الكفر ، وأتتهم الموعظة ، وعلم أهل الإيمان كيف ينبغي أن يقولوا وأن يفعلوا .. يأتي هذا المقطع مبتدئاً بالكلام عن إبراهيم عليه السلام إذ يناقش أباه ، متعجباً من عبادته غير الله ، مبيناً له أنه هو والسالكين مسلكه تائهون ، لا يهتدون أين يسلكون ، بل هم في حيرة وجهل ، وأمرهم في الجهالة والضلال بيّن واضح لكل ذي عقل سليم ، إذ يعبدون الأصنام من دون الله ، ومن بداية المقطع نعلم أن هذا المقطع سائر على النسق العام للسورة في التعجيب من الكفر ومناقشة أهله من خلال قصة أبي الأنبياء مع قومه . ثم قص الله ـ عز وجل ـ في هذا المقام كيف أنه أرى إبراهيم ملكوت السمٰوات الأرض ، وهل هذه الرؤية بيان لوجه الدلالة على وحدانية الله ، أو هذه الرؤية رؤية كشف قلبي روحي من باب انكشاف شيء من عالم الغيب ؟ قال ابن كثير : فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عياناً ، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحِكَم الباهرة ، والدلالات القاطعة ، من أجل أن يصل إلى اليقين الكامل ، ثمّ قصّ الله ـ عز وجل ـ قصة قوله عن النجم ، ثم عن القمر ، ثم عن الشمس ﴿ **هذا ربي** ﴾ ورفضه لربوبية

النجم ، ثم القمر ، ثم الشمس ، واختلف المفسرون في هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة ، أي هل فعلاً كان ينتقل في التأمل حتى وصل إلى ربوبية الله ؟ أو أنه كان يناظر قومه في هذا الكلام ؟ وهل في قوله : ﴿ **هذا ربي** ﴾ استفهام أو تقرير ؟. رجّح ابن جرير أن المقام مقام نظر . ورجّح ابن كثير أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام . قال ابن كثير : فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام ، التي هي على صور الملائكة السماوية ، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسّلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده في الرّزق والنّصر ، وغير ذلك ممّا يحتاجون إليه ، وبيّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيّزة ، وهي القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل ، وأشدُّهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس ، ثم القمر ، ثم الزهرة ، فبيّن أولًا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ؛ فإنها مسخّرة ، مقدّرة بسير معيّن لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالًا ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام ، خلقها الله منيرة ؛ لما له في ذلك من الحِكَم العظيمة ، وهي تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار ، ثم تبدو في الليلة القابلة على ــ هذا المنوال ــ ومثل هذه لا تصلح للإلهية ، ثم انتقل إلى القمر فبيّن فيه مثل ما بيّن في النّجم ، ثم انتقل إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، وأقام عليهم الحجة بأنه لا شيء من هذه المخلوقات مهما كبرت وعظمت يستحق الربوبية ، أعلن براءته من عبادتهن ، وموالاتهن ، وأعلن أنه إنما يعبد خالق هذه الأشياء ، ومخترعها ، ومسخّرها ، ومقدّرها ، ومدبّرها ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، وخالق كل شيء ، وربه ومليكه وإلهه ، ثم أخبر تعالى عن خليله حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد ، وناظروه بشبهٍ من القول كيف أنكر عليهم أن يجادلوه في أمر الله ، وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصّره الله وهداه إلى الحق ، وأنّه على بيّنة من ربه ، فكيف يلتفت إلى أقوالهم الفاسدة ، وشبههم الباطلة ، ومن ذلك تخويفهم إياه بآلهتهم ، والدليل قائم على بطلان قولهم فيما ذهبوا إليه ، وذلك أنّ هذه الآلهة التي يعبدونها لا تؤثّر شيئاً ؛ فهو لا يخافها ، ولا يباليها؛ إذ لا يضر ولا ينفع إلا الله الذي أحاط علمه بجميع الأشياء ، فلا تخفى عليه خافية ، فكيف لا يعتبرون ولا يتعظون ، ولا ينزجرون ، ثم أقام عليهم الحجة

بتبيان أنّ الأحقّ بالأمن هو من يعبد الله الذي يملك الضُّرَّ والنفع ، وأن الأحق بالخوف هو الذي لا يعبده ، وأن الذين اجتمع لهم الإيمان والإخلاص والتوحيد هم المستحقون للأمن في الدنيا وفي الآخرة . ثمّ ذكر الله ــ عز وجل ــ أنّ هذه الحجّة مِنَّة من الله على إبراهيم ، وبها تقوم الحجة على قومه ، وليس مثل حجّة الله حجّة ، وليس مثل علمه علمٌ ، ولكن الكفر يرفض الحجّة لا لقصور فيها بل لعمى وصمم عند أهله . ثمّ ذكر الله ما منّ به على إبراهيم من رزقه إسحق ، بعد أن طعن في السن ، ومن بعده يعقوب بن إسحق ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه ، وتركهم ، ونزح عنهم ، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض ، فعوّضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه ، وعلى دينه ، كإسحق ويعقوب ، وكلاً مَنّ عليه بالهداية الكاملة ، التي هي النّبوة والرّسالة ، مثلِ ما منّ الله على نوح عليه السلام من قبل بالهداية الكاملة ، والذريّة الصالحة الباقية ، فكلّ مَنْ في الأرض من الخلق ذريّته ، وقد جعل الله من ذرية إبراهيم عليه السلام الأنبياء والرّسل الكثيرين : داود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس .وكل هؤلاء قد ذكروا في هذا السياق ، وذكر معهم لوط كذلك ، وليس من ذرية إبراهيم الحسّية بل هو من أبنائه في المعنى ، لأنه قد استجاب لدعوته ، وكما منّ الله على هؤلاء بالهداية ، فقد منّ على كثير من آبائهم ، وذريّاتهم ، وإخوانهم بالهداية والاجتباء ؛ وتلك سنة الله يهدي من يشاء مِمّن استجاب لدعوته ولم يشرك به معه غيره . وفي هذا السياق ذكر الله أنّ هؤلاء جميعاً لو أشركوا لأحبط الله أعمالهم ، وفي ذلك تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته ، وهكذا يتّضح لنا ما منّ الله به على إبراهيم ، من التّوحيد والدّعوة إليه ، ورفض الشرك ، وإقامة الحجة على أهله ، وأن ذلك لم يزل دأب المهتدين من قبله ومن بعده وإن الشرك لا يرافقه إلا حبوط العمل ، ثمّ قرر الله - عز وجل - أنّ هؤلاء المذكورين قد آتاهم الله الكتاب والحُكْم والنّبوة ، أنعم عليهم بذلك رحمة للعباد ؛ ولطفاً منه بالخليقة ، فإن يكفر من كفر بالكتاب والحكمة والنّبوة ــ كأهل مكة وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومجوس وكتابيين ــ، فقد وكّل الله بها من لا يكفر بها ، ولا يجحد منها شيئاً ، ولا يردّ منها حرفاً إلى يوم القيامة ، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها .

ثمّ قرر الله ــ عز وجل ــ أنّ هؤلاء الذين سبق ذكرهم هم أهل الهدى ، فعلى رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم وبهداهم ، وهو أمر لأمّته جميعاً ؛ إذ إنّ أمّته تبع له فيما يشرّعه

ويأمرهم به ، وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ أن يقتدي بهؤلاء ، أمره أن يعلن أنّه لا يطلب من أحد أجراً على البلاغ والتبليغ لدعوة الله وكتابه ، وأنّه ما يريد بهذا البلاغ وهذا القرآن إلا أن يذكّر الخلق جميعاً من أجل أن يرشدوا من العمى إلى الهدى ، ومن الغيّ إلى الرّشاد ، ومن الكفر إلى الإيمان . وهكذا استقرّ السياق على الكلام على محمد ﷺ ودعوته ودينه ومهمته ، وأنه استمرار لإبراهيم في ذريته ودعوته ، وأنه على سنّة الرسل السابقين ، غير مبتدع بل متّبع ، وإذ استقر السياق على هذا فقد بدأ السياق يناقش من يكفر بدعوة محمد ﷺ ، ويناقش بعض أفكارهم وكلامهم ، فبيّن أنّ الذين يزعمون أنّ الله لم ينزل على أحد من خلقه وحياً لم يعرفوا الله حق معرفته ، ولم يعظّموه حقّ تعظيمه ، وفي هذا دليل على أن السورة كلها تناقش الكفر بالله ، وما يترتب على الكفر ، كما تصف الإيمان ، وما يترتب على هذا الإيمان ، مع تذكيرها بنعم الله على الإنسان ، وتذكيرها بصفات الله ، وهذا كله ينسجم مع محور السورة العام ، وهما آيتا البقرة اللتان أشرنا إليهما في أكثر من مكان . ولنرجع إلى السياق . فإذ كان قائلوا هذا الكلام يوم نزول القرآن هم اليهود أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله أمره أن يذكر لهم قضية جزئية تقوم بها الحجة ، جوابا على نفيهم العام وهي :

من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وهو التوراة التي قد علمتم — وكل أحد — أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدى للناس ؛ ليستضاء بها في كشف المشكلات ؛ ويهتدى بها من ظلم الشبهات . هذه التوراة التي تظهرون منها ما تظهرون، وتحرّفون منها ما تحرّفون ، وتبدّلون وتتأولون منها ما تتأولون ، وتكتمون منها ما تكتمون . ومن أنزل هذا القرآن الذي علّم الله فيه الخلق من خبر ما سبق ، ونبأ ما يأتي مما لا يحيط به أحد . من أنزل هذا كله إلا الله ؟ ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول جواباً على هذا السؤال غيَر منتظر جوابهم : الله ، وأن يدَعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين ؛ فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين . نفهم من هذا كله أن الإيمان بالله ، والمعرفة له ، يقتضيان إيماناً بأن الله يهدي عباده ، وينزل عليهم وحياً وكتباً ، فمن زعم أن الله لا يتدخل في هداية عباده ، أو لا يرسل رسلاً ، أو لا يوحي وحياً ، فإنه ما عرف الله ولم يهتد بهداه ، ولم يعظّمه التعظيم اللائق به . وإذ يستقر هذا المعنى يقرّر الله أنّه هو الذي أنزل هذا القرآن ، وجعله مباركاً ، وجعله يصدّق الكتب السابقة عليه ، وأنّه أنزله من أجل أن ينذر به الخلق جميعاً ، مبتدئاً

بمكة العظيمة أمّ الدنيا جميعها . ثمّ بيّن أنّ من آمن بالله وباليوم الآخر فإنّه يؤمن بهذا القرآن ويقيم الصلاة ويحافظ عليها ، ومن ثَمّ نعلم أنّه ما من إنسان لا يؤمن بهذا القرآن إلا وهو كافر باليوم الآخر ، أو أن إيمانه باليوم الآخر غير صحيح . وإذ تقرّر أنّ من أصل الإيمان بالله ومن أصل معرفته وتعظيمه : الإيمان بما أنزل؛ فإن الله يقرّر بعد ذلك أنّه لا أحد أظلم ممّن كذب على الله فجعل له شركاء أو ولداً ، أو ادّعى أنّ الله أرسله إلى النّاس ولم يرسله ، وكذلك من ادّعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي بما يفتريه من القول ، ثمّ بيّن حال هؤلاء الظالمين إذ هم في سكرات الموت وغمراته وكرباته ، والملائكة تضربهم وتعذبهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، قائلين لهم : اليوم تهانون غاية الإهانة ؛ كما كنتم تكذبون على الله ، وتستكبرون عن اتّباع آياته ، والانقياد لرسله ، ويوم القيامة يقال لهم : كما بدأناكم أعدناكم ، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فها هو قد جاء ، وكل ما أعطيناكم في الحياة الدنيا من النّعم والأموال والجاه وغير ذلك تركتموه وراء ظهوركم ، فأين آلهتكم المزعومة التي أشركتموها مع الله في العبادة ؟! لقد تقطعت ما بينكم وبينهم من الوشائج والصلات ، وذهب عنكم ، وضاع ما كنتم تزعمونه من رجاء في الأصنام والأنداد .

وهكذا عرض الله علينا ما يناله هؤلاء الظالمون من تقريع وتوبيخ ساعة موتهم ويوم بعثهم ، وما بعد ذلك من العذاب أشد ؛ لأنّهم لم يؤمنوا بالله حقّ الإيمان ، ولم يعظّموه حقّ التّعظيم ، ولم يعرفوه حق المعرفة ، بحيث يؤمنون به ، وبصفاته التي تقتضي إيماناً باليوم الآخر ، وإيماناً بالرّسل ، وإيماناً بالوحي ، وبُعْداً عن الكذب عليه أو تكذيب رسله .

وبتقرير هذه المعاني ينتهي المقطع ، بعد إذ تقرر فيه أن من مقتضيات الإيمان بالله توحيده وخوفه وحده . وأنّ من مِنَن الله على من وحّده أن يهديه ، وأنّ محمداً عليه الصلاة والسلام مظهر من مظاهر استمرار التوحيد والهداية ، وأنه لا يزال أهل التوحيد والهداية موجودين ، وأن من تعظيم الله وكمال معرفته الإيمان بأنه ينزل وحياً ويرسل رسلًا ، وأن محمداً عليه الصلاة السلام هو الذي يعظم الله حق التعظيم ، ويعرفه حق المعرفة ، وأن قرآنه مما أنزل الله ، وأن من لم يؤمن بالقرآن ، أو ادّعى على الله ما لم يتصف به ، أو ادّعى أن الله أنزل عليه ولم ينزل أظلم الخلق ، وأن هؤلاء الظالمين سيرون مغبة ظلمهم توبيخ ، وتقريع ، يوم يموتون ، ويوم يبعثون ، وهذه المعاني كلها لها صلة

ما بالمحور العام للسورة : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** .... ﴾ كما أن لها صلة بالسياق الخاص لسورة الأنعام؛ ولذلك ذكر في أول المقطع وأوسطه الشرك ، والمقطع بمجموعه يعمّق المعنى الصحيح للتوحيد .

فائدة :

نلاحظ هنا أنه قد ذكر إبراهيم في سورة الأنعام ، ومن قبل ذكر في سورة البقرة وغيرها . ويذكر في سور كثيرة من القرآن . وكذلك غيره من الرّسل ، كما تذكر قصص أقوام في أكثر من مكان . والشيء الذي ينبغي أن نلاحظه أنه في كل مكان تذكر قصة ، أو تكرر ، فإنها تذكر لتخدم غرضاً يتفق مع السياق الخاص ، ويتفق مع السياق القرآني العام ، ومن ثم فإنها تؤدي حيث ذُكرت غرضاً خاصاً في محلها ، فقصة إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة تؤدي غرضاً ينسجم مع السياق الخاص والعام في سورة البقرة ؛ حيث تخدم موضوع القيام حق القيام بأمر الله ، وقصة إبراهيم عليه السلام هنا تخدم موضوع الإيمان بالله ، والطريق إليه ، وما يقتضيه هذا الإيمان من أمن ، وما يكافىء الله ـــ عز وجل ـــ به أهل التوحيد . وهكذا ، ومن تأمّل كيف أنّ القصّة الواحدة تؤدي كل مرة غرضاً خاصاً في سياقها الجزئي والكلي ، إن من تأمل هذا الموضوع ظهر له شيء من إعجاز هذا القرآن وكيف أنّه لا تنقضي عجائبه .

المعنى الحرفي للمقطع :

﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة** ﴾ هذا استفهام توبيخي أي أتتخذها آلهة وهي لا تستحق الإلهية ﴿ **إني أراك وقومك في ضلال مبين** ﴾ . أي : في ضلال بيّن واضح ، وأيّ ضلال أكبر من اتخّاذ غير الله إلهاً ﴿ **وكذلك** ﴾ . أي : وكما أريناه قبح الشرك ﴿ **نُري إبراهيم ملكوتَ السمٰوات والأرض** ﴾ الملكوت من الملك لأن الواو والتاء تزادان للمبالغة والمعنى وكما أريناه قبح الشرك أرينا بصيرته لطائف خلق السمٰوات والأرض ﴿ **وليكون من الموقنين** ﴾ . أي : أريناه ذلك من أجل أن يكون من الموقنين ، أو من أجل أن يستدل ويكون من الموقنين عياناً كما أيقن بياناً ﴿ **فلما جنّ عليه الليل** ﴾ . أي : أظلم وهو معطوف على ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه** ﴾ . ﴿ **رأى كوكباً** ﴾ قال النسفي : أي الزهرة أو المشتري ، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى

طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أنّ النَّظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها ليس بإله ، لقيام دليل الحدوث فيها ، ولأن محدثاً أحدثها ، ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها ، وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها . وقد بدأ لمّا رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه .. قال لهم : ﴿ **قال هذا ربي** ﴾ . أي : في زعمكم ، أو المراد أهذا ربي ؟ استهزاءً بهم وإنكاراً عليهم ، والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت ، والصحيح أن هذا قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل ، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأنه أدعى إلى الحق ، وأنجا من الشغب عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ﴿ **فلمّا أفل** ﴾ . أي : غاب ﴿ **قال لا أحب الآفلين** ﴾ . أي : لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال . لأنّ ذلك من صفات المخلوقين لا الخالق ﴿ **فلما رأى القمر بازغاً** ﴾ . أي : مبتدئاً في الطلوع ﴿ **قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننّ من القوم الضالين** ﴾ . أي : نبّه قومه بهذا على أن من اتخذ القمر فهو ضالّ ، وإنّما احتج عليهم بالأفول دون البزوغ ــ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ــ لأن الاحتجاج بالأفول على بطلان الإلهية أظهر؛ لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب . ﴿ **فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر** ﴾ . أي : أعظم من القمر والنّجم ﴿ **فلمّا أفلت قال يا قوم إني بريء ممّا تشركون** ﴾ به من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها ﴿ **إني وجهت وجهيَ للذي فطر السمٰوات والأرض** ﴾ . أي : للذي دلّت عليه هذه المحدثات على أنه منشئها ﴿ **حنيفاً** ﴾ . أي : مائلاً عن الأديان كلها إلى الإسلام ﴿ **وما أنا من المشركين** ﴾ بالله شيئاً من خلقه ﴿ **وحاجّه قومُه** ﴾ . أي : في توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه ﴿ **قال أتحاجّونّي في الله** ﴾ . أي : في توحيده ﴿ **وقد هدان** ﴾ . أي : إلى التوحيد ﴿ **ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً** ﴾ قال هذا لمّا خوّفوه : أن معبوداتهم تصيبه بسوء والمعنى : إني لا أخاف معبوداتكم في وقت قطّ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرّة ، إلا إذا شاء ربي أن يصيبني منها بضرّ فهو قادر على أن يجعل فيما شاء نفعاً ، وفيما شاء ضراً لا الأصنام ﴿ **وسع ربي كلّ شيء علماً** ﴾ . أي : فلا يصيب عبداً شيء من ضر أو نفع إلا بعلمه ﴿ **أفلا تتذكرون** ﴾ فتميِّزون بين القادر والعاجز ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم** ﴾ . أي : وكيف أخاف معبوداتكم وهي مأمونة الخوف ﴿ **ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به** ﴾ . أي : بإشراكه ﴿ **عليكم سلطاناً** ﴾ . أي : حجة إذ الإشراك لا يصح أن يكون عليه الحجة .والمعنى : وما لكم لاتنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف

﴿ **فأي الفريقين أحق بالأمن** ﴾ فريق الموحِّدين وفريق المشركين أيهما أحق بالأمن من العذاب ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ وإنما قال فأي الفريقين ولم يقل فأينا احترازاً من تزكية نفسه ثم أجاب هو بنفسه عن السؤال ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبِسوا إيمانهم بظلم** ﴾ . أي : ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ، فالظلم هنا الشرك ﴿ **أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ هذا تتمة كلام إبراهيم عليه السلام ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيمَ على قومه** ﴾ المراد بها جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله ﴿ **فلما جَنَّ عليه الليل** ﴾ إلى ﴿ **وهم مهتدون** ﴾ ﴿ **نرفع درجاتٍ من نشاء** ﴾ . أي : في العلم والحكمة ﴿ **إنّ ربك حكيم** ﴾ في رفعه من يشاء ﴿ **عليم** ﴾ بمن يستأهل ذلك .

فصول :

في قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر** ﴾ سمّى الله أبا إبراهيم (آزر) وعند هذه التسمية وفي هذه الآية تدور معارك كلامية بين المسلمين ، وبين غيرهم ، وبين المذاهب الإسلامية نفسها . وسبب هذه المعارك يعود إلى شيئين :

الشيء الأول : أن كتب العهد القديم تسمّي أبا إبراهيم (تارح) .

والشيء الثاني : أن بعض المذاهب الإسلامية تعتبر أن آباء الرسول ﷺ وأجداده ليس فيهم كافر ، وبناءً عليه فقد حملوا كلمة الأب في الآية على أنّ المراد بها العمّ ، وأكثر المفسرين على أنّ صرف الحقيقة في الآية إلى المجاز لا داعي له ، وأما كتب العهد القديم فقد اعتدنا فيها - كما أثبت ذلك رحمة الله بن خليل الهندي في كتابه القيم (إظهار الحق) - أن تترجم الإسم من لغة إلى لغة ، فمن لا يعرف هذه الحالة عنهم يقع في اللبس ، وبناءً عليه فلا يبعد أن يكون الاسم (تارح) هو الترجمة لاسم (آزر) غير أن العقاد في كتابه (إبراهيم أبي الأنبياء) يرى أن كلمة (تارح) نفسها يمكن أن يكون لفظها الأصلي (آزر) .

وكما دارت معركة حول هذه الآية ، فقد دارت معركة حول قول إبراهيم عن الشمس والقمر والنجم ﴿ **هذا ربي** ﴾ هل هذا نظر أو مناظرة كما رأينا ؟ . والذين ذهبوا إلى أنه مناظرة ، ذهبوا إلى ذلك فراراً من أن يثبتوا أن إبراهيم كان على غير التوحيد في بداية أمره ، وفي أخبار التلمود من كتب اليهود إشارة إلى هذه الحادثة التي سجّلها القرآن . وأنها حصلت لإبراهيم وهو ابن ثلاث سنين ، ومع أن هذه الروايات لا يثبت

بها شيء ولكن آثرنا نقلها ومن ثمّ فقد عقدنا ثلاثة فصول :

فصل : في اتجاهات المفسرين في شأن (آزر) وفصل في تحليل العقاد حول كلمة (آزر) وفصل في الأخبار التلمودية .

فصل في اتجاهات المفسرين حول آزر :

قال الألوسي : آزر بزنة آدم علم أعجمي لأبي إبراهيم عليه السلام وكان من قرية من سواد الكوفة ، وقال الزجاج : ليس بين النسابين اختلاف في أن اسم أبي إبراهيم عليه السلام تارح بتاء مثناة فوقية وألف بعدها مهملة مفتوحة ، وحاء مهملة . ويروى بالخاء المعجمة . وأخرج ابن المنذر بسند صحيح عن ابن جريج أن اسمه تيرح أو تارح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن اسم أبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام يازر ، واسم أمه مثلى . وإلى كون آزر ليس اسماً له ذهب مجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهما . واختلف الذاهبون إلى ذلك . فمنهم من قال : إن آزر لقب لأبيه عليه السلام . ومنهم من قال : اسم جده . ومنهم من قال : اسم عمه ــ والعم والجد يسميان أباً مجازاً ــ . ومنهم من قال : هو اسم صنم : وروي ذلك عن ابن عباس . والسدي . ومجاهد رضي الله تعالى عنهم . ومنهم من قال : هو وصف في لغتهم ومعناه المخطىء . وعن سلمان التيمي قال : بلغني أن معناه الأعوج . وعن بعضهم أنه الشيخ الهرم بالخوارزمية . وعلى القول بالوصفية يكون منع صرفه للحمل على موازنه وهو فاعل المفتوح العين فإنه يغلب منع صرفه لكثرته في الأعلام الأعجمية . وقيل : الأولى أن يقال : إنه غلب عليه فألحق بالعلم . وبعضهم يجعله نعتاً مشتقاً من الأزر بمعنى القوة . أو الوزر بمعنى الإثم . ومنع صرفه حينئذ للوصفية ، ووزن الفعل ؛ لأنه على وزن أفعل . وعلى القول بأنه بمعنى الصنم يكون الكلام على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي عابد آزر . ... والذي عوّل عليه الجم الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام وادّعوا أنه ليس في آباء النبي ﷺ كافر أصلًا لقوله عليه الصلاة والسلام : « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ، والمشركون نجس » وتخصيص الطهارة بالطهارة من السفاح لا دليل له يعوّل عليه . والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب . وقد ألّفوا في هذا المطلب الرسائل واستدلوا له بما استدلوا ، والقول بأن ذلك قول الشيعة ــ كما ادعاه الإمام الرازي ــ ناشىء من قلة التتبع ، وأكثر هؤلاء على أن آزر اسم لعم إبراهيم عليه السلام » .

أقول : إنّ كثيرين من المفسرين لم يعرّجوا على هذا الموضوع لرؤيتهم أنّ الأمر أوضح من أن يعرّج عليه ، ولذلك فقد اكتفوا بتقرير أن آزر هو أبو إبراهيم ، والملاحظ أن الألوسي يميل إلى ترجيح القول بأن آزر عمّ وليس أباً .

فصل في تحليل العقاد في الجمع بين اسم آزر وتارح :

قال « فإن إبراهيم قد انحدر إلى أرض كنعان من أرض أشور ، واعتقد شراح الكتب الإسرائيلية في غير موضع أن الآباء الأوّلين يُنسبون إلى بلادهم أو أممهم كما يقال : ابن مصر ، وابن أوربة ، وأبناء الشرق ، وأبناء الغرب ، وأبناء النيل .

فإذا نسب إبراهيم إلى آشور فمن الجائز جداً أن يكون تارح وآزر لفظين مختلفين لاسم واحد ، كما انتسب القوم إلى اسم جد قديم كما يقال في النسبة إلى عدنان وقحطان . ونظرة واحدة في اسم آشور ونطقها إلى اليوم في العراق وسورية تقرّب لنا هذا الاحتمال الذي يبدو بعيداً لأول وهلة .

فقد كُتبت آشور تارة آزور ، وتارة أثور ، وتارة أتور بالتاء ، وتارة أسور بالسين ..

ولا يخفى كذلك أن كلمة تارح تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية ، وتنطق تيرا وتيره عند الذين لا يستطيعون النطق بالحاء ..

فإذا لاحظنا ذلك كله فليس أقرب من تحويل أتور وأتير إلى تيره وتيرح ، وقد وردت في تاريخ يوسيفوس بغير الحاء ، ووردت في تاريخ يوسيبوس أثور ، وهو مكتوب باليونانية ، وقد ورد في التوراة اسمان بمعنى الأميرة أحدهما بالحاء وهو سارح (٤٦ تكوين) والآخر بغير الحاء وهو سار أو ساره ..

ومؤدى هذا أن (آزر) هي النطق الصحيح الذي عرف به اسم أسور القديم ، وأن تيره وتيرح هي نطق الذين يكتبونها أتيره أو تيرح ، وينطقون بكلمة أتور بين الواو والياء . روى صاحب (المزهر) عن الأصمعي أن رجلين « اختلفا في الصقر فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما فيه ، فقال : لا أقول كما قلتما إنما هو الزقر ، وعلى هذا يتخرج جميع ما ورد من التداخل نحو قلى يقلي وسلى يسلي » .

وإذا اختلفت الحروف في اللهجة العربية الواحدة هذا الاختلاف فلا محل للجزم

بالتخطئة حين تختلف السين والزاي ، أو التاء والثاء في لغات تباعدت بينها الآماد ..

وأياً كان القول في نسبة إبراهيم إلى آزر بمعنى أسور ، فهو أقرب من القول بأن أباه سمي تارحاً من الحزن أو من الكسل ، وليس عليه دليل من وقائع التاريخ والجغرافية ولا من الاشتقاق . وتفيد هذه الملاحظة فائدة جلىٰ في معرض آخر من معارض سيرة الخليل ، فلم يكن تاريخ إبراهيم في الإسلام مستمداً من المصادر اليهودية ـــ كما زعم بعض المتسرعين من رواة الأخبار الدينية غير الإسلامية ـــ ، وإلا لما كان أيسر من تسمية أبيه تارحاً وتيرحاً وأتيرة وما شابه هذه التصحيفات ، ولما كان هناك سبب قط لتسميته بآزر على أي توجيه وإنما هذا بيّنة من بيّنات شتى على أن دعوة إبراهيم لم تصل إلى الحجاز من مصادر اليهود .. » .

أقول : بل عن طريق القرآن وحي رب العالمين .

فصل في بعض الأخبار التلمودية عن إبراهيم عليه السلام:

في معرض الكلام عن إبراهيم أبي الأنبياء نقل العقّاد بعض ما ورد من أخبار في كتب اليهود الأخرى – أي غيرما يسمىٰ بالعهد القديم حول إبراهيم عليه السلام –، ومن كلامه في هذا الموضوع :

« يطلق اسم خليل الله وحبيب الله في الكتب الإسرائيلية على أنبياء غير إبراهيم ، أشهرهم موسى ، ويعقوب ، وسليمان ، ويغلب على الكتب المتأخرة وصفه بالحبيب ، ويعتقدون أنه هو المقصود بقول أرميا في الإصحاح الحادي عشر « حبيبي في بيتي » .

وفي كثير من كتب المدراش والتعليم يقال إن الدنيا خلقت من أجله ، وأن أبناء نوح ضلوا عن سواء السبيل ، وعبدوا الأصنام ، وكان جد إبراهيم يدعى (رو) فسمى ابنه (سيروج) أي ذهبوا بعيداً ، وصدق في هذه التسمية ، لأن سيروج حين كبر وولد له ابن سماه ناحور ، وعلمه السحر والتنجيم وعبادة الأصنام ، وكان الشيطان(مسطمبا) يرسل أعوانه لكيد البشر ، ويطلقهم على البذور وهي على وجه الأرض كأنهم الغربان لتلتقطها وتفسدها . لهذا سمىٰ ناحور ابنه تيرح أو تارح ، ويقول شراح كتاب « اليوبيل » أحد هذه الكتب التعليمية إن الاسم بهذا المعنى غامض ولكنه قد يرجع إلى كلمة آرامية بمعنى المحو والشحوب .

وتزوّج تارح إيمتالي بنت كرناب ، فرزقا إبراهيم . وكان مولده مرصوداً في الكوكب فاطلع عليه النمروذ ، واستشار الملأ من قومه فأشاروا عليه بقتل كل طفل ، ذكر ، واستحياء البنات ، وإغداق العطايا والجوائز على أهليهن ، ليفرحوا بمولد البنات .

وأحس تارح أن امرأته حامل ، فلما أراد أن يتحقق من ذلك صعد الجنين إلى صدر أمّه فخوى بطنها ولم يظهر فيه حمل ، وهربت أمه حين جاءها المخاض فأوت إلى كهف ولدته فيه ، وتركته ثمة وهي تدعو له ، فبقي ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس ـــ على رواية بعض الكتب ـــ، ومكث في الكهف أقل من ذلك على روايات أخرى ، وأرسل الله جبريل يرعاه فجعل الطفل يمتص أصابعه فيرضع منها ويكبر قبل الأوان .

وخرج من الكهف ليلًا وهو في الثالثة فرأى النجوم فقال : هذه هي الأرباب . فلما أشرقت الشمس قال : كلا . بل هذه هي الرب . فلما أفلت وظهر القمر قال : بل هو هذا .. فلما أفل قال : ما هذه بأرباب . إنما الرب المعبود هو الذي يديرها ويسيرها ويبديها ويخفيها . وفي بعض الكتب أن أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوماً حيث تركته فوجدت في طريقها صبياً نامياً فسألها : ـــ ماذا جاء بك إلى الصحراء ؟ ..

فأنبأته بقصتها ، وعرّفها بنفسه فدهشت وعجبت لطفل يكبر ولم يمض على مولده شهر واحد .. قال لها : إنها قدرة الله الذي يرى ولا يُرى ..

ويظن جامعو الأساطير اليهودية أن وصف الله بهذه الصفة منقول من أصل عربي اطلع عليه يهود الأندلس ، ثم اختلفت تفصيلاته عند نقلها إلى العبرية .. قالت أمه وقد ازداد عجبها : أإله غير النمروذ ؟ .. قال : نعم يا أماه .. رب السمٰوات والأرض ، ورب النمروذ بن كنعان . فاذهبي وبلغي النمروذ ما سمعت .

وأنبأت زوجها تارح وكان أميراً من أمراء الملك ، فذهب إليه يطلب لقاءه ، فأذن له باللقاء فسجد بين يديه ، ولم يكن من عادتهم إذا سجد أحدهم بين يدي الملك أن يرفع رأسه بغير أمره ، فلما أمره الملك أن ينهض ويتكلم روى له القصة ففزع أعوانه ووزراؤه ، ثم ملكوا جأشهم وقالوا له : علام هذا الفزع من صبي لا حول له ولا قوة ، ومن أمثاله في المملكة ألوف وألوف . قال لهم النمروذ : وهل رأيتم صبياً في العشرين يتكلم وينطق بمثل هذا البيان ؟ ..

وخشي الشيطان أن يسبق الإيمان إلى قلب الملك فبرز لهم وأزال ما بهم من الروع ،

وحرّض الملك على قتل الصبي ، فحشد له جنداً من القادة والفرسان ، وخرجوا إلى الكهف الذي قيل لهم إن الصبي مختبىء فيه ، فإذا بينه وبينهم سحب لا ينفذ النظر إلى ما وراءها ، وإذا بهم مجفلون لا يقدرون على الثبات .

فلما عادوا إلى النمروذ وشرحوا له ما عاينوه قال لهم : لا مقام لنا بهذه الديار ! وخرج من بلده إلى أرض بابل فلحق به إبراهيم على جناح جبريل ، ولقي هناك أبويه ، ثم بدأنا بالدعوة إلى الله : الإله الأحد الذي لا إله غيره ، رب السموات ، ورب الأرباب ورب النمروذ . وأنذرهم أن يتركوا عبادة الصنم الذي صنعوه على مثال النمروذ . فإن له فماً ولكنه لا ينطق ، وعيناً ولكنه لا يبصر ، وأذناً ولكنه لا يسمع ، وقدماً ولكنه لا يسعى ، ولا ينفع نفسه ، ولا يغني عن غيره شيئاً . وأسرع أبوه إلى الملك يبلغه أن ابنه إبراهيم طوى مسيرة أربعين يوماً في أقل من يوم ، ثم لحق به إبراهيم إلى قصر الملك فهز عرشه بيديه وصاح به : « أيها الشقي ! إنك تنكر الحق ، وتنكر الله الحي الصمد . وتنكر عبده إبراهيم خادم بيته الأمين » .

ويخاف النمروذ فيأمر تارح أن يعود بابنه إلى موطنه ، ثم تتكاثر الروايات في عشرات من كتب المدراس والتفسيرات حول ما حدث بعد ذلك بين إبراهيم وقومه ، وبينه وبين الملأ والملك وكهنة الأرباب ، مما تغني هذه الأمثلة عن تفصيله واستقصائه ، وبعضه كما تقدم معوّل عليه عند اليهود ، وبعضه من قبيل ضرب الأمثال بالنوادر والأعاجيب ..

وليس من المطلوب أن نتتبع هذه القصص والنوادر لأنها تستوعب ألوف الصفحات ، ولكننا نأخذ منها ما ينتظم في أغراض هذا الكتاب ، ومنها ما يدل على تفكير واضعيه ، أو يفيد عند المقابلة بين المصادر ، أو يلاحظ فيه الوضع لطرافته الأدبية والفنية ، أو يتمم صورة أخرى ناقصة في خبر من الأخبار .

فمما ورد في « مدراش رباه » أن أباه حنق عليه حين كسر الأصنام فخاصمه إلى النمروذ ، فسأله النمروذ : إن كنت لا تعبد الصور والمشبهات فلماذا لا تعبد النار ؟

قال إبراهيم : أولى من عبادة النار أن أعبد الذي يطفئها .

قال النمروذ : فاعبد الماء إذن ؟

قال إبراهيم : بل أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذي يحمله .

قال النمروذ : إذن تعبد السحاب ..

قال إبراهيم : وأولى بالعبادة من السحاب ريح تبدده وتسير به من فضاء إلى فضاء ..

قال النمروذ : فما لك لا تعبد الريح ؟

قال إبراهيم : إن الإنسان يحتويها بأنفاسه فهو إذن أحق منها بالعبادة . ومغزى الحوار أن عقل الإنسان قادر بالنظر في خلق الله أن يصل إلى معرفة الخالق ، وينكر عبادة الأوثان ، فلما أعيا النمروذ أن يخضعه ، سَجنه ومنع عنه الطعام والماء ، ومضى عليه عام في غيابته ؛ فأيقن الحارس أنه قدمات ، ولكنه ناداه : إبراهيم : أأنت بقيد الحياة ؟ فسمع جوابه : نعم أنا بقيد الحياة . فأمر الملك بضرب عنقه ، فلم يعمل فيه السيف .. فأوقد له ناراً ودفع به إلى أحد أعوانه ليقذف به فيها ، فلما قاربها خرج من الأتون لسان من النار والتهم الجلاد ولم يقترب من إبراهيم ، فتشاور الملأ عند الملك في أمره ، فاتفقوا على إحراقه وإلقائه في النار من منجنيق بعيد ، مخافة من ألسنة النار . وضرع الملائكة إلى الله أن ينجيه ، فأذن لهم أن يعملوا لنجاته ما يستطيعون ، ولكنه أبى أن يعتمد في نجاته على أحد غير الله ، وإذا بالجمر من حوله كأنه فراش من الورد والريحان » .

أقول : إننا لا نستطيع إثبات شيء في أمر النبوات السابقة إلا إذا أقره الوحي الذي جاءنا عن رسولنا عليه الصلاة والسلام ، فإذا أقره فعندئذيكون داخلًا في الوحي الذي أمرنا أن نؤمن به ، وما عدا ذلك فالأمر يحتمل ، ونحن لم ننقل ما نقله العقاد إلا لأن فيه اتجاهاً جديداً فأحببنا ذكره لنفتح النظر في موضوع اختلفت فيه عبارات المفسرين .

فوائد :

١ ــ اختلف المفسرون في اسم أبي إبراهيم ، وهل آزر هو اسم له ، أو لقب ، أو نسب ، أو اسم صنم سمي به لتعلقه به فقال ابن جرير : والصواب أن اسم أبيه آزر ، ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارح ، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان ، كالكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقباً .

قال ابن كثير : وهذا الذي قاله جيد قوي .

٢ ــ ثبت في صحيح البخاري أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له أبوه : يا بنيّ اليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : أي ربّ ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقال : يا إبراهيم انظر ما وراءك ، فإذا هو بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار .

٣ ـــ أخرج ابن جرير عن مجاهد في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض** ﴾ قال أي مجاهد : فرجت له السمٰوات ، فنظر إلى ما فيهن ، حتى انتهى إلى العرش ، وفرجت له الأرضون السبع ، فنظر إلى ما فيهن . وزاد غيره : فجعل ينظر إلى العباد على المعاصي ويدعو عليهم ، فقال الله إني أرحم بعبادي منك لعلّهم أن يتوبوا أو يرجعوا .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في تفسيرها قال : فإنه تعالى جَلَا لَهُ الأَمرَ سِرّه وعلانيّته ، فلم يخف عليه من أعمال الخلائق ، فلمّا جعل يلعن أصحاب الذنوب ، قال الله : إنك لا تستطيع هذا ، فردّه كما كان قبل ذلك . قال ابن كثير : فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عياناً ، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهد بفؤاده وتحقّقه وعرفه ، وعلم ما في ذلك من الحِكَم الباهرة والدّلالات القاطعة ، كما روى الإمام أحمد والترمذي وصحّحه عن معاذ بن جبل في حديث المنام : « أتاني ربي في أحسن صورة فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : لا أدري يارب ، فوضع يده بين كتفيّ حتى وجدت برد أنامله بين ثدييّ فتجلى لي كلّ شيء وعرفت ذلك » . وذكر الحديث .

٤ ـــ رأينا في قول إبراهيم ﴿ **هذا ربي** ﴾ من يذهب إلى أن هذا المقام مقام نظر وتدبّر ، ومن يذهب إلى أنه مقام مناظرة . وقد جادل ابن كثير جدالاً عنيفاً وطويلاً ضد القول الأول مستشهداً بالآيات الكثيرة التي تثبت رفض إبراهيم للأصنام ابتداءً وسلامة فطرته ، وبالأحاديث التي تثبت أن كل مولود يولد على الفطرة إلى أن قال : فإذا ما كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يَكُ من المشركين ناظراً في هذا المقام ؟! بل هو أولى النّاس بالفطرة السليمة والمستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولاريب » . ورجّح النسفي : أنّ كلام إبراهيم هذا للمناظرة بدليل قوله تعالى : ﴿ **يا قوم إني بريء مما تشركون** ﴾ أقول : ولاشك أن من لاحظ ابتداء الكلام في قصة إبراهيم ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر** ﴾ ولاحظ نهاية الكلام ، ثم مجيء قوله تعالى بعد ذلك ﴿ **وحاجّه قومه ...** ﴾ يشعر أنّ المقام مقام مناظرة . وإن كان الظاهر غيره والله أعلم .

٥ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ يذكر ابن كثير مجموعة أحاديث نذكرها بدون إسنادها مع حذف المكرّر :

ــ روى البخاري ... عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ **ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ قال أصحابه : وأيُّنا لم يظلم ؟ فنزلت : ﴿ **إنّ الشرّك لظلم عظيم** ﴾ .

روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : لما نزلت الآية ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال : إنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿ **يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ إنما هو الشرك » .

ــ روى ابن مردويه ... عن عبد الله قال : لمّا نزلت ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « قيل لي أنت منهم » .

ــ روى الإمام أحمد ... عن جرير بن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فلمّا برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا ، فقال رسول الله ﷺ : « كأن هذا الراكب إياكم يريد » فانتهى إلينا فسلّم فرددنا عليه فقال له النبي ﷺ : « من أين أقبلت ؟ » قال : من أهلي وولدي وعشيرتي قال : « فأين تريد ؟ » قال : أريد رسول الله ﷺ ، قال : « فقد أصبته » . قال : يا رسول الله علّمني ما الإيمان ؟. قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » . قال : قد أقررت . قال : ثم إن بعيره دخلت يده في شبكة جرذان فهوى بعيره وهوى الرجل فوقع على هامته فمات ، فقال رسول الله ﷺ : « عليَّ بالرجل » فوثب إليه عمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه ، فقالا : يا رسول الله قبض الرجل !، قال : فأعرض عنهما رسول الله ﷺ ثم قال لهما رسول الله ﷺ : « أما رأيتما إعراضي عن الرجل فإني رأيت ملكين يدسّان في فيه من ثمار الجنة فعلمت أنه مات جائعاً » . ثم قال رسول الله ﷺ : « هذا والله من الذين قال الله ــ عز وجل ــ فيهم ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ الآية ، ثم قال : « دونكم أخاكم » فاحتملناه إلى الماء فغسّلناه وكفّنّاه ، وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال : « الحدوا ولا تشقوا ، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا » .

ــ روى ابن مردويه ... عن عبد الله بن سخبرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطي فشكر ، ومنع فصبر ، وظلم فاستغفر ، وظُلم فغفر » وسكت قال : فقالوا : يا رسول الله ما له ؟ قال : ﴿ **أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ .

ومن أجل أن يتحرر الإنسان من كل مظهر من مظاهر الشرك لابد له من علم وذكر ، ولابد له من معرفة بالله عقلية وقلبية ، ومعرفة بشريعته والتزام بها .

﴿ **ووهبنا له إسحٰق ويعقوب** ﴾ . أي : لإبراهيم ﴿ **كلًا هدينا** ﴾ . أي : هديناهم كلهم ﴿ **ونوحاً هدينا من قبل** ﴾ . أي : وهدينا نوحاً من قبل إبراهيم ﴿ **ومن ذريته** ﴾ يحتمل أن يكون ومن ذريّة نوح ، ويحتمل أن يكون ومن ذريّة إبراهيم . قال النسفي : والأول أظهر لأن يونس ولوطاً لم يكونا من ذرية إبراهيم . أقول : الملاحظ أن كتب العهد القديم تعتبر يونس من ذرية إبراهيم قال الألوسي : ومن الناس من ادّعى أن يونس من ذرية إبراهيم وصرّح في جامع الأصول أنه كان من الأسباط زمن شعيا ، وأما لوط فهو ابن أخي إبراهيم فإما أن نقول : دخل في الذرية تغليباً ، وإما أن نقول دخل في الذرية لأنه من المستجيبين لإبراهيم فأخذ حكم الذرية وهذا كله على القول الثاني ﴿ **داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون** ﴾ .

أي : وهدينا من ذريته هؤلاء ﴿ **وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ . أي : ومثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين ، ويحتمل أن يكون المراد باسم الإشارة هداية الذرية ، أو الهداية ، فيكون المعنى أن من أحسن نهدي له من ذريته ، وذلك من جزائه ، أو أن من أحسن يستحق الهداية كالمذكورين ﴿ **وزكريّا ويحيىٰ وعيسى وإلياس كلٌ من الصالحين** ﴾ .

أي : كلهم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأنه لا صلاح إلا بهذا ﴿ **وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلًا فضّلنا على العالمين** ﴾ . أي : بالنّبوة والرّسالة ﴿ **ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم** ﴾ . أي : كذلك فضّلناهم على العالمين ﴿ **واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم** ﴾ . أي : إلى الإسلام الذي هو دين الله الواحد في كل العصور ﴿ **ذلك هدى الله** ﴾ . أي : ما دان به هؤلاء المذكورون هو دين الله وهديه ﴿ **يهدي به من يشاء من عباده** ﴾ فضلًا ويضل من يشاء عدلًا ﴿ **ولو أشركوا** ﴾ .
أي : مع فضلهم وتقدمهم وما رفع لهم من الدرجات العلا ﴿ **لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ . أي : لبطلت أعمالهم ﴿ **أولئك الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ . أي : جنس الكتاب ممّا ينزله الله من وحي ﴿ **والحكم** ﴾ . أي : الحكمة أو المراد به فهم الكتاب لما يترتب عليه من قدرة على الحكم السديد ﴿ **والنبوة** ﴾ وهي أعلى مراتب البشر ، وأرقى مقامات العبودية لله ﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء** ﴾ . أي : فإن يكفر بالكتاب والحكم والنبوة هؤلاء من قريش ، وغيرهم من سائر أهل الأرض ﴿ **فقد وكّلنا بها**

قوماً ﴾ كالمهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة ﴿ **ليسوا بها بكافرين** ﴾ . أي : لا يجحدون منها شيئاً ، ولا يردّون منها حرفاً واحداً ﴿ **أولئك** ﴾ . أي : الأنبياء المذكورون ، مع من أضيف إليهم من الآباء والذرّيّة والإخوان ، وهم الأشباه ﴿ **الذين هدى الله** ﴾ . أي : هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿ **فبهداهم اقتده** ﴾ . أي : اقتد واتّبع ، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به . والمعنى : فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد إلا بهم . والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله ، وتوحيده والاستسلام له ، وفي أصول الدين دون الشرائع فإنّها مختلفة إلّا ما أقرّه الله منها ، ممّا ذكره ولم ينصّ على نسخه ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً** ﴾ . أي : على الوحي ، أو على تبليغ الرّسالة والدّعاء إلى التوحيد .
قال الحنفية مستدلين به على أصل مذهبهم : وفيه دليل على أنّ أخذ الأجر على تعليم القرآن ورواية الحديث لا يجوز » وهي قضية خلافية ، وقد استقرّت الفتوى في فقه الحنفية على الجواز بسبب تغيّر الحال ، والذي يبدو لي أن هناك فارقاً بين أخذ الأجر على مجرّد الدعوة وأخذ الأجر على التعليم ﴿ **إن هو إلا ذكرى للعالمين** ﴾ . أي : ما القرآن إلا عظة للجنّ والإنس .

فوائد :

١ ــ قال ابن كثير : وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية « إبراهيم » أو « نوح » على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال ، لأن « عيسى » عليه السلام إنّما ينسب إلى « إبراهيم » عليه السلام بأمّه « مريم » عليها السلام فإنّه لا أب له .

روى ابن أبي حاتم ... عن أبي حرب بن أبي الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيىٰ بن يعمر فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ ، تجده في كتاب الله ، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟ قال : أليس تقرأ سورة الأنعام ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان** ﴾ حتى بلغ ﴿ **ويحيىٰ وعيسى** ﴾ قال : بلى ، قال أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال : صدقت » .

فلهذا إذا أوصى الرجل لذريّته ، أو وقف على ذريته أو وهبهم ، دخل أولاد البنات فيهم ، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه ، واحتجوا بقول الشاعر العربي :

بنونا بنو أبنائنـــا وبناتنـــا بنوهن أبناء الرجال الأجانب

وقال آخرون : ويدخل بنو البنات فيهم أيضاً لما ثبت في صحيح البخاري : أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي : « إن ابني هذا سيّد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . فسماه ابناً ، فدلّ على دخوله في الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوُّز .

٢ ــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين** ﴾ قالوا : ومعنى توكيلهم بها أنهم وفّقوا للإيمان بها ، والقيام بحقوقها ، كما يوكّل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه . أقول : ومن الموكّلين من أشار إليهم الرسول ﷺ بقوله : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » .

٣ ــ روى البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس : أفي (ص) سجدة ؟ فقال نعم . ثم تلا ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب** ... ﴾ إلى قوله ﴿ **فبهداهم اقتده** ﴾ . ثم قال : هو منهم » وهذا فهم دقيق لابن عباس فما من موقف كريم من مواقف الرسل إلا وكان رسولنا إذا وُجد في مثل ظرفه يفعل مثله ، أو أحسن منه ، وقد أشرنا إلى مثل هذا في كتابنا « الرسول » من سلسلة الأصول الثلاثة .

﴿ **وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء** ﴾ . أي : وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده ، حين أنكروا بعثة الرسل ﷺ والوحي إليهم ، وذلك من أعظم رحمته ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ أو وما عظموا الله حق تعظيمه إذ كذّبوا رسله إليهم ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس** ﴾ الكتاب هنا التوراة ، أنزلها الله نوراً ليستضاء بها في كشف المشكلات ، وهدى ليهتدى بها في ظلم الشبهات ﴿ **تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً** ﴾ القرطاس الورقة، والمعنى : بعّضتموه وجعلتموه قراطيس مقطّعة ورقات ليتمكّنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء أو : تجعلون جملتها قراطيس أي : قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم ، وتحرّفون منها ما تحرّفون ، وتبدّلون وتتأوّلون ، وتقولون هذا من عند الله أي في كتابه وما هو من عند الله ﴿ **وعلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾ هناك اتجاهان في فهم هذا النصّ : الاتجاه الذي يجعله في أهل الكتاب كتتمة للخطاب السابق ، والاتجاه الذي يجعله خطاباً لهذه الأمة ، فعلى الأوّل يكون المعنى : وعلمتم يا

أهل الكتاب بالكتاب ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من أمور دينكم ودنياكم ، وعلى الاتجاه الثاني يكون المعنى : ومن أنزل القرآن الذي علّمكم الله فيه من خبر ما سبق ، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا آباؤكم ﴿ **قل الله** ﴾ . أي : قل الله أنزله ﴿ **ثم ذرهم في خوضهم يلعبون** ﴾ . أي : ثم دعهم في جهلهم وضلالهم وباطلهم الذي يخوضون فيه لاعبين حتى يأتيهم من الله اليقين ، فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين ﴿ **وهذا** ﴾ . أي : القرآن ﴿ **كتاب أنزلناه** ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **مبارك** ﴾ . أي : كثير المنافع والفوائد ﴿ **مصدق الذي بين يديه** ﴾ . أي : من الكتب ﴿ **ولتنذر أم القرى** ﴾ . أي : مكة ، وسميت أم القرى لأنها سرة الأرض ، وقبلة أهل التقوى ، وأعظمها شأناً ، ولأن الناس يؤمّونها ﴿ **ومن حولها** ﴾ . أي : من أحياء العرب ، ومن سائر طوائف بني آدم ، ومن عرب وعجم ، والمعنى : وهذا القرآن أنزلناه للبركات ، وتصديق ما تقدّم من الكتب ، ولإنذار أمّ القرى وما حولها من العالم ﴿ **والذين يؤمنون بالآخرة** ﴾ . أي : يصدّقون بالعاقبة ويخافونها ﴿ **يؤمنون به** ﴾ . أي : بالكتاب فأصل الدّين خوف العاقبة ، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن بالحق ﴿ **وهم على صلاتهم يحافظون** ﴾ خصّت الصلاة بالذّكر لأنها عَلَم الإيمان وعماد الدين ، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها .

نُقُول :

نحب أن ننقل بمناسبة هذه الآيات ما قاله صاحب الظلال والألوسي في قوله تعالى واصفاً كتابه بالبركة « مبارك » ثمّ ما قاله صاحب الظلال في قوله تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شيء** ﴾ ونقدم النقلين الأوّلين لأنهما كالدليل بالنسبة للنقل الثالث :

قال صاحب الظلال في شرحه لكون القرآن مباركاً كما وصفه الله في الآية :

﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون** ﴾ .

« إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل الله عليهم الكتب . وهذا الكتاب الجديد ، الذي ينكرون تنزيله ، هو كتاب مبارك .. وصدق الله .. فإنه والله مبارك .. مبارك بكل معاني البركة .. إنه مبارك في أصله . باركه الله وهو ينزله من

عنده . ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل .. قلب محمد الطاهر الكريم الكبير .. ومبارك في حجمه ومحتواه . فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر ، ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام ، في أضعاف حيزّه وحجمه ! وإن الذي مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من بني البشر ؛ وعالج قضية التعبير ، بالألفاظ عن المدلولات ، ليدرك أكثر مما يدرك الذين يزاولون فنّ القول ولا يعالجون قضايا التعبير ، أنّ هذا النّسق القرآني مبارك من هذه الناحية . وأن هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيّز - ولا في أضعاف أضعافه - عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات ! وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرّر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً متفرداً لا نظير له في كلام البشر .. وإنه لمبارك في أثره . وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطاباً مباشراً عجيباً لطيف المدخل ، ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن ، فيفعل ما لا يفعله قول قائل ذلك أن به من الله سلطاناً . وليس في قول القائلين من سلطان !

ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب .. وما نحن ببالغين لو مضينا شيئاً أكثر من شهادة الله له بأنه « مبارك » ففيها فصل الخطاب«وقال الألوسي في تفسير كلمة « مبارك » التي وصف الله بها القرآن : وقوله سبحانه ﴿ مبارك ﴾ أي : كثير الفائدة والنفع لاشتماله على منافع الدارين وعلوم الأولين والآخرين صفة بعد صفة قال الإمام : جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عن هذا الكتاب المتمسك به يحصل به عز الدنيا وسعادة الآخرة » .

وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى :

﴿ وما قدروا الله حقَّ قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ .

وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليّتهم ، يقوله أمثالهم في كل زمان ؛ ومنهم الذين يقولونه الآن ؛ ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر ، وأنها تطوّرت وترقت بتطور البشر وترقيهم .. لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم ، كالوثنيات كلها قديماً وحديثاً ، وترتقي بالزعم وتنحطّ بارتقاء أصحابها وانحطاطهم ، ولكنها تظل خارج دين الله كله . وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله ، وهي ثابتة على أصولها الأولى ؛ جاء بها

كل رسول ، فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة ؛ ثمّ وقع الانحراف عنها والتحريف فيها ، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد .

وهذا القول الذي ذكرته الآية يقوله - قديماً أو حديثاً - من لا يقدر الله حق قدره ، ومن لا يعرف كرم الله وفضله ، ورحمته وعدله .. إنهم يقولون : إن الله لا يرسل من البشر رسولاً ولو شاء لأنزل ملائكة ! كما كان العرب يقولون . أو يقولون : إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعنى بالإنسان « الضئيل » في هذه الذرة الفلكية التي اسمها الأرض بحيث يرسل له الرسل ، وينزل على الرسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير ! وذلك كما يقول بعض الفلاسفة في القديم والحديث . أو يقولون : إنه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل .. إنما هي أوهام الناس أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين . كما يقول الماديون الملحدون !

وكله جهل بقدر الله - سبحانه - فالله الكريم العظيم العادل الرحيم ، العليم الحكيم .. لا يدع هذا الكائن الإنساني وحده ، وهو يعلم سرّه وجهره ، وطاقاته وقواه ، ونقصه وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوراته وأفكاره ، واقواله وأعماله ، وأوضاعه ونظامه ، ليرى إن كانت صواباً وصلاحاً ، أو كانت خطأ وفساداً .. ويعلم - سبحانه - أن العقل الذي أعطاه له ، يتعرض لضغوط كثيرة من شهواته ونزواته ، ومطامعه ورغباته ، فضلاً عن أنّه موكّل بطاقات الأرض التي له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله ، وليس موكّلا بتصوّر الوجود تصوراً مطلقا ، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة . فهذا مجال العقيدة التي تأتي له من الله ، فتنشىء له تصوراً سليماً للوجود والحياة .. ومن ثم لا يكله إلى هذا العقل وحده ، ولا يكله كذلك إلى ما أودع فطرته من معرفة بربها الحق ، وشوق إليه ، ولياذ به في الشدائد .. فهذه الفطرة قد تفسد كذلك بسبب ما يقع عليها من ضغوط داخلية وخارجية ، وبسبب الإغواء والاستهواء الذي يقوم به شياطين الجن والإنس ، بكل ما يملكون من أجهزه التوجيه والتأثير .. إنما يكل الله الناس إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه ، ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفائها ، وليردّ عقولهم إلى صحتها وسلامتها ، وليجلو عنهم غاشية من داخل أنفسهم ومن خارجها .. وهذا هو الذي يليق بكرم الله وفضله ، ورحمته وعدله ، وحكمته وعلمه .. فما كان ليخلق البشر ثم يتركهم سدى .. ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولًا : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا ﴾ .. فتقدير الله قدره يقتضي الاعتقاد

بأنه أرسل إلى عباده رسلًا يستنقذون فطرتهم من الركام ، ويساعدون عقولهم على الخلاص من الضغوط ، والانطلاق للنظر الخالص والتدبر العميق . وأنه أوحى إلى هؤلاء منهج الدعوة إلى الله ، وأنزل على بعضهم كتباً تبقى بعدهم في قومهم إلى حين - ككتب موسى وداود وعيسى - أو تبقى إلى آخر الزمان كهذا القرآن .

ولما كانت رسالة موسى معروفة بين العرب في الجزيرة العربية ، وكان أهل الكتاب معروفين هناك ، فقد أمر الله رسوله أن يواجه المشركين المنكرين لأصل الرسالة والوحي ، بتلك الحقيقة : ﴿ **قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾

فائدة :

للمفسرين في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره ...** ﴾ **اتجاهان : اتجاه** أنها نزلت في قريش واختاره ابن جرير ، واتجاه أنها نزلت في طائفة من اليهود ، **أو في فنحاص** رجل من اليهود ، أو في مالك بن الصيف من اليهود أيضاً والذين **يرون أنها في مالك** بن الصيف يروون هذه الحادثة : أن جماعة من اليهود منهم مالك بن الصيف **كانوا يجادلون** النبي عليه الصلاة السلام فقال النبي عليه الصلاة و السلام له : **أليس في التوراة أن الله يبغض** الحبر السمين ؟ قال نعم . قال : فأنت الحبر السمين . **فغضب وقال : ما أنزل الله** على بشر من شيء » .

أقول : من الملاحظ في عصرنا أن بعض رجال الدّين من غير المسلمين إذا **فشلوا في** إقناع الإنسان بدينهم حاولوا تشكيكه في الأديان كلها ، وقد روى لي واحد من النصارى الذين أسلموا أن واحداً من علماء النصارى عندما فشل في إقناعه في العودة إلى النصرانية حاول أن يشككه بأصل الأديان كلها ولكن ﴿ **من يَهْد الله فهو المهتد** ﴾ .

﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً** ﴾ . أي : لا أحد أظلم ممن كذب على الله كهؤلاء الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴿ **أو قال أوحي إليّ ولم يوحَ إليه شيء** ﴾ . أي : كهؤلاء الذين يدّعون النبوة أمثال مسيلمة ﴿ **ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله** ﴾ . أي : ومن ادّعى أنه يعارض ما جاء من عند الله بما يفتريه من القول كالنّضر بن الحارث ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، **أي لا أحد أظلم من هؤلاء** الأنواع الثلاثة ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون** ﴾ من أمثال هؤلاء المذكورين ﴿ **في غمرات**

الموت ﴾ . أي : في شدائده وسكراته ﴿ **والملائكة باسطوا أيديهم** ﴾ . أي : يبسطون أيديهم بالعذاب يقولون : ﴿ **أخرجوا أنفسكم** ﴾ . أي : هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم وفي هذا تصوير للتشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ﴿ **اليوم تجزون عذاب الهون** ﴾ المراد باليوم وقت الإماتة وما يعذّبون به من شدّة النّزع ، والهون الهوان الشدّيد والمعنى : اليوم تهانون غاية الإهانة ﴿ **بما كنتم تقولون على الله غير الحق** ﴾ من أنّ له شريكاً أو ولداً ، أو أنه لا يرسل رسلاً ولم ينزل كتباً ، أو تزعمون أنّه أنزل عليكم ولم ينزل ﴿ **وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ فلا تؤمنون بها ولا تنقادون لها ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى** ﴾ هذا يقال لهم يوم القيامة . ومعنى فرادى منفردين بلا مال ولا معين ﴿ **كما خلقناكم أوّل مرّة** ﴾ . أي : على الهيئات التى ولدتم عليها في الانفراد ﴿ **وتركتم ما خوّلناكم** ﴾ . أي : ما ملّكناكم ﴿ **وراء ظهوركم** ﴾ فلم تحملوا منه نقيراً ﴿ **وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء** ﴾ .

أي : في استعبادكم وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا فى الدنيا من الأنداد والأصنام والشركاء ؛ ظانّين أنّها تنفعهم في معاشهم ومعادهم على حسب نوع المشركين والشركاء ﴿ **لقد تقطّع بينكم** ﴾ . أي : لقد وقع التقطّع بينكم ﴿ **وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون** ﴾ . أي : وضاع وبطل عنكم ما كنتم تزعمون أنّ ما عبدتموه شفيع لكم .

فائـدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم ..** ﴾ ينقل ابن كثير ما يلي : ثبت في الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال : « يقول ابن آدم : مالي مالي . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأبقيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » .

وقال الحسن البصري : يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَجٌ (أي ولد الضأن) فيقول الله - عز وجل - أين ماجمعت ؟ فيقول : يارب جمعته وتركته أَوْفَرَ ما كان . فيقول له : يا ابن آدم أين ما قدّمت لنفسك ؟! فلا يراه قدمّ شيئاً ، وتلا هذه الآية ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** ﴾ الآية . رواه ابن أبي حاتم .

كلمة في السياق :

هذا المقطع هو نهاية القسم الأول من السورة ، وقد أعطانا نموذجاً لأهل الإيمان وحجّة على الكفر وأهله . وكيف أن الكفر وأهله لا حجّة لهم ، ثم عدّد لنا مجموعة من النماذج الإيمانية الراقية ، وكيف أن هذه النماذج الراقية لا ينقطع المقتدون بها ، وأن الإيمان مستمر ، وأهله مستمرون ، وذكر لنا أنّ الذين لا يؤمنون بوحي الله لا يعرفون الله ، وذكر ما أعدّ الله للظالمين يوم القيامة ، فالمقطع سائر على سنن السورة في سياقها الخاص ، وفي تفصيلها لمحورها ، وبهذا المقطع ينتهي القسم الأول من سورة الأنعام ليبدأ القسم الثاني .

إنّه بعد هذه الموجات والجولات ، وبعد الحوار الشامل ، يأتي الآن قسم جديد يبدأ بالكلام عن الله بما هو ألصق بمحور السورة ، ثم يجول جولات مع الكافرين في مقطعه الأول ، ثم يعود السياق لذكر ما هو ألصق بمحور السورة ، ثمّ يجول جولات مع الكافرين لتنتهي السورة بذكر ما هو ألصق بمحور السورة ، فلا تنتهي السّورة إلا وقد فصّلت في محورها ، واستكملت سياقها في إقامة الحجة على الكفر وأهله .

☆ ☆ ☆

القسم الثاني من السورة

يكاد يكون واضحاً أن سورة الأنعام تنقسم إلى قسمين . القسم الأول : هو المقاطع الثلاثة السابقة التي بدأت بمقدمة السورة :

﴿ **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور** ﴾

والقسم الثاني هو ما تبقى من السورة وهو مقطعان وبدايته قوله تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله** ﴾
لقد أقام الله — عز وجل — الحجة على الكافرين في القسم الأول . وعرّفنا على ذاته .

ويأتي بعد ذلك القسم الثاني وفيه تعريف على الله ، وإقامة حجّة على الكافرين ومناقشتهم فيما ذهبوا إليه مما لا يقتضيه الإيمان بالله ومعرفته .

والقسم الثاني يتألف من مقطعين واضحي البدايات والنهايات فتحصل أن مجموع مقاطع السورة خمسة تأتي ضمن قسمين كبيرين .

بين يدي المقطع الأول من القسم الثاني :

يتألف المقطع الأول من القسم الثاني من مقدمة وثلاث فقرات .

تتحدث المقدمة عن الله — عز وجل — وعمّا خلق ، وعمّا فعل للإنسان ، ثمّ تأتي ثلاث فقرات معطوف بعضها على بعض ، وكلها مبدوءة بفعل ماض يتحدث عن مواقف للكافرين : ﴿ **وجعلوا لله شركاء ...** ﴾ ﴿ **وأقسموا بالله جهد إيمانهم ..** ﴾ ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ..** ﴾ فإذا انتهت الفقرة الأخيرة يعود السياق للحديث عمّا خلق الله للإنسان ، وبذلك يبدأ المقطع الثاني من القسم الثاني ﴿ **وهو الذي أنشأ جنات معروشات ...** ﴾ .

* * *

المقطع الأول من القسم الثاني من سورة الأنعام

ويمتد من الآية (٩٥) إلى نهاية الآية (١٤٠) وهذا هو :

« المقدمة »

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

الفقرة الأولى

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

الفقرة الثانية

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ

بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

☆ ☆ ☆

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى

ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

☆ ☆ ☆

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

☆ ☆ ☆

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ

أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

الفقرة الثالثة

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ

سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

كلمة في المقطع :

إن في هذا المقطع والذي بعده دلالة واضحة على أن محور سورة الأنعام هو الآيتان اللتان ذكرناهما من سورة البقرة فلنلاحظ الصلات : جاء في آيتي المحور قوله تعالى :

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ .

ويبدأ هذا المقطع بقوله تعالى : **﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ﴾** — كما يرد في الآيات الأولى منه **﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ﴾** . وجاء في آيتي المحور قوله تعالى : **﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾** .

ونجد في الآيات الأولى من المقطع قوله تعالى : **﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ... ﴾ ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبا متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾** .

ويسير المقطع عارضاً مواقف الكافرين ، ومقيماً الحجة عليهم حتى يصل إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وذلك مرتبط بقوله تعالى : **﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾** فالله خلق لكم وحدّد لكم طريقة الانتفاع ببعض الأشياء . ولقد قلنا من قبل إن قوله تعالى في سورة البقرة **﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾** وقوله تعالى : **﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ﴾** إنما

هو امتداد للكلام عن خلق الأشياء لصالح الإنسان . وههنا يذكر الله - عز وجل - شرط حلّ الذبائح ، ثم يسير المقطع مقيماً الحجّة على الكافرين حتى ينتهي بذكر ما حرم أهل الجاهلية على أنفسهم ، مما يتناقض مع إباحة الله الأشياء للإنسان وارتباط ذلك بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ واضح المعالم ، وسنرى أن المقطع الثاني من القسم استمرار للكلام عما خلق الله من أجلنا وعن موضوع التحريم . ولنبدأ عرض المعاني العامّة للمقطع :

المعنى العام :

يبتدىء المقطع بالإخبار عن الله أنه فالق الحب والنوى ، أي أنّه سبحانه الذي يشقه في الثرى فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها ، من الحبوب والثّمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها ، ويخرج النبات الحي من الحب والنّوى اللذين هما كالجماد الميت ، ويخرج الولد الصالح من الفاجر ، والفاجر من الصالح ، والحي من الأرض الميتة ، والميت مما هو حي . هذا كله فعل الله ، وفاعله هو الله وحده ، فكيف يصرف الناس عن الحق ويعدلون عنه إلى الباطل ؛ فيعبدون معه غيره ، أو يكفرون به ، ومن هذه البداية في هذا المقطع ندرك كيف أن المقطع يفصّل في محور السورة : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ه هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** .... ﴾ وسنرى ذلك واضحاً في كل ما يأتي .

- ثم أخبر تعالى أنه خالق الضياء والظلام ، فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرّة الصباح ، فيضيء الوجود ، ويستنير الأفق ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه ، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه ، وذلك من آثار قدرته - عز وجل - على خلق الأشياء المتضادّة المختلفة ، الدّالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه . وكما أنه فلق الإصباح ، فقد جعل الليل ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء ، وجعل الشمس والقمر بحساب مقنّن مقدّر ، لا يتغيرّ ولا يضطرب ، بل لكل منها منازل يسلكها ضمن النظام الدقيق للمجموعة الشمسية مع الأرض ، مما يترتب عليه ما يترتّب ، والجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف ، العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء .

- وكما فعل هذا كله فقد جعل النّجوم ليهتدي بها الإنسان في ظلمات البرّ والبحر ،

فلولاها لضاع الإنسان ولم يستطع أن يسلك طريقاً بحرياً ، ولا أن يهتدي في الظلام إلى طريق — وهو موضوع سنراه — فما أوضح آياته — جل شأنه — في الكون ، وكم فصّل آياته في كتابه ، ولكن العالم وحده هو الذي يعرفها ، ويعقلها ويؤمن بالله الذي خلق السموات والأرض ، وأنزل القرآن .

— وكما فعل ما مر كله فهو الذي أنشأنا من نفس واحدة — هي نفس آدم — ثمّ جعلنا نستمرُّ بالتزاوج والتوالد عن طريق الأرحام والأصلاب ، ولا يدرك عظمة هذه الآية — آية نشأتنا الأولى واستمرارنا عن طريق التزاوج والحمل — إلا من كان عنده فقه قلب يعي به كلام الله ومعناه .

- وكما فعل الله — عز وجل — ما مر فهو الذي أنزل من السماء ماءً بقدر ، مباركاً ورزقاً للعباد وإحياءً وغياثاً للخلائق ؛ رحمة من الله بخلقه ، فأخرج بهذا الماء كل أصناف النبات ومنه الزرع والشّجر الأخضر ، ومنه الذي يخلق الله فيه الحب الذي يركب بعضه بعضاً كالسنابل ، ومنه النخل الدانية العزوق القريبة المتناول ، ويُخرج بهذا الماء جنات من أعناب ، ويخرج به الزيتون والرمّان المتشابه في الورق والشّكل والمتخالف في الثّمار شكلًا وطعماً وطبعاً ، كل ذلك يستأهل النظر ، ولذلك أمر الله بالنظر إلى ثمره حين نضجه ؛ ليتفكر الإنسان في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود ، فبعد أن كان حطباً صار رطباً ، ولقد خلق سبحانه وتعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح الكثير إن في هذا كله لآيات ودلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء ورحمته لقوم يصدّقون به ، ويتّبعون رسله ، وبعد هذه الآيات التي دلّت على الله ، وسفّهت الكافرين به ، وأقامت الحجة على أهل الكفر بظاهرة العناية ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ والتي رأينا بعضاً من تفصيلاتها هنا تأتي الفقرة الأولى من المقطع فنجدنا أمام عرض لأنواع من الكفر ومناقشة لأهله : لقد ذكر الله عز وجل أنّ المشركين أشركوا في عبادته الجنّ ؛ فجعلوهم شركاء له في العبادة - تعالى الله عن شركهم وكفرهم - فإن قيل من يعبد الجن؟ فالجواب أنّ كل من أطاع الشيطان - وما أكثرهم - فقد عبد الجن . لقد عبد الإنسان الشيطان وترك عبادة الله وهو الذي خلقه! وكما عبد الجن فقد افترى على الله كذباً بأن جعل له بنين وبنات جهلاً وسفهاً وضلالاً ، تقدّس الله وتنزّه وتعاظم عمّا يصفه هؤلاء الجهلة الضالّون من الأولاد والأنداد والنّظراء والشّركاء ، وكيف لا ينزّه عن هذا وهو المنفرد

يخلقهم بغير شريك ولا معين ولا نظير ! وهو مبدع السموات والأرض ، وخالقهما ومنشئهما ومُحدثهما على غير مثال سبق ! ومن كان هذا شأنه فكيف يكون له ولد ! والولد إنما يتولد بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه ؛ لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة له ، وإذ لا صاحبة له فلا ولد له ، وكيف يكون له صاحبة أو ولد وهو الذي خلق كل شيء ! وهو الذي بكلّ شيء عليم ، ومن كان كذلك فإنّه لا نظير له

ـــ هذا الإله الذي خلق السموات والأرض وأبدعهما ، وخلق كل شيء والذي هو بكل شيء عليم ، هو ربنا ، لا الجنّ ولا غيرهم ، فهو الذي لا إله إلا هو وهو خالق كل شيء ، وهو الذي يستحقُّ العبادة وحده ؛ فاعبدوه وحده ؛ إذ هو الحفيظ والرقيب والمدبرّ لكل من سواه ، يرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار .

ـــ هذا الإله العظيم لا تدركه الأبصار في الدنيا ، ولا تحيط به لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فلا أحد يستطيع أن يحيط بكنه عظمته وجلاله على ما هو عليه ، أما هو فإنه يدرك الأبصار ، يراها ويحيط بها علماً على ما هي عليه ؛ لأنه خلقها ، إذ هو اللطيف الذي يعلم دقائق الأمور ومشكلاتها ، العليم بظواهر الأشياء وخفياتها .

وبعد أن قرّر المقطع شرك من أشرك وردّ عليهم الردّ البليغ العجيب المدهش الذي فيه وصف الذّات الإلهية مما يدّل على أنّ القرآن من عند الله ، إذ من يستطيع أن يصف الله هذا الوصف المدهش إلا هو - جل جلاله - .

ـــ ثمّ إنه بعد هذا الردّ المدهش والبلاغ العجيب يذكر الله ـــ عز وجل ـــ أنّه بإنزاله هذا القرآن قد أعطي البشر البصائر كلها أي : البينات والحجج التي يرى بها الإنسان الأشياء على ما هي عليه ، فمن أبصر بها وعلى ضوئها فمصلحة ذلك عائدة عليه ، ومن عَمِي عنها ولم يرَ بها فوبال ذلك عائد عليه ، ومحمّد عليه الصلاة و السلام مبلّغ وما هو بحافظ ولا رقيب . ثمّ بيّن تعالى أنّه بمثل هذا البيان الرائع ، وهذا التقرير العظيم ، وهذه الحجة الواضحة ، يبيّن الآيات ، ويوضّحهاويفسّرها ، ويكرّرها ، فأما الكافرون والمشركون والمنافقون ، فإنهّم بدلا من أن يؤمنوا يتّهمون محمداً عليه الصلاة

و السلام بأنّ هذا الكتاب أثر عن دراسته ومدراسته ، لا أثر عن نبوته والوحي إليه ، وأما العالمون فيؤمنون ، ويتضح لهم بهذا الإيمان الحقُّ كله في كل شيء نتيجة هذا التصريف للآيات بمثل هذا البيان والكمال .

وبعد هذا البيان يأتي الآن أمر ونهي لرسول الله ﷺ ولأمته من بعده .

أما الأمر فهو :

ـ أن عليه ﷺ أن يتبع ما أنزل الله عليه بالاقتداء به واقتفاء أثره والعمل به ، وأن عليه أن يعرض عن المشركين بالعفو والصفح ، واحتمال الأذى حتى يفتح الله ثم بيّن الله تعالى :

ـ أن لله حكمة في إضلال الضالّين ، فإنّه لو شاء لهدى الناس جميعاً ، ولو شاء لجمعهم على الهدى ، فله المشيئة والحكمة فيما يشاءه ويختاره ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وإذا كان الأمر كذلك فالله وحده هو الحفيظ على أقوالهم وأفعالهم ، وهو الوكيل على أمورهم وأرزاقهم ، وليس محمدٌ ﷺ بوكيل ولا بحفيظ بل هو مبلّغ فقط .

ـ ثمّ نهى الله رسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتّب عليه مفسدة أعظم منها ، وهي مقابلة المشركين بسبِّ إله المؤمنين ، وهو لا إله إلا هو ، يسبونه ظلماً وجهلاً ، فمن أجل ألا يقع هذا فعلينا ألا نواجه المشركين بسبِّ آلهتهم ، ثمّ بيّن تعالى أنه كما زيّن لهؤلاء القوم حبُّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار ، كذلك زُيّن لكل أمة ضالّة من الأمم الخالية عملهم الذي كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاءه ويختاره ، وإليه المعاد ، وسوف يحاسب الجميع على أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وبهذا تنتهي الفقرة الأولى من المقطع .

وتأتي الآن فقرة أخرى على نفس السنن .

تلك مبدوءة بـ : (وجعلوا) وهذه مبدوءة بـ : (وأقسموا)

ـ يخبر الله تعالى عن المشركين والكافرين أنهم يحلفون الأيمان المؤكّدة لئن جاءتهم معجزة خارقة ليصدقُنّها وهذا يفيد أنهم يدّعون أنّ الآيات ليست كافية للإيمان ، أو أنها غير موجودة ، وهذا كذب وافتراء وتعنّت منهم ولذلك فقد أمر الله رسوله أن يعلن

أن أمر الآيات إلى الله ، وأن الآيات عنده كثيرة ، وما أنزل فيه كفاية ولكنهم متعنتون ، ولذلك خاطب المؤمنين مبيناً لهم أن الكافرين إذا جاءتهم الآيات التي يقترحونها فإنهم لا يؤمنون ــ وذلك لأنّ سنّة الله أنّ من لم يؤمن أوّل مرّة بما أنزله الله مع قيام الحجة عليه فيه فإنّه لا يؤمن أبداً لأن الله يقلّب قلوب هؤلاء وأفئدتهم ؛ جزاءً لهم على عدم الإيمان ، ولذلك فإنهم لو جاءتهم الآيات المقترحة فإنهم يرفضونها ويبقون في كفرهم وضلالهم يلعبون ويتردّدون ويتحيرّون ، ثمّ بيّن تعالى أنّه لو أجاب سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننَّ بها ، فنزّل عليهم الملائكة تخبرهم بالرّسالة من الله بتصديق الرسل ، ولو بعث لهم الموتى فكلّموهم وأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ، ولو أنّه حشر عليهم الأمم فعرضت عليهم أمة بعد أمة فأخبرهم الجميع بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ، ولو حدث هذا كله فإنّه ماكان لهم أن يؤمنوا إلا إذا شاء الله هدايتهم ، وهو إن هدى يهدي فضلًا ، وإن أضل يُضل عدلًا . يهدي من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الضلال ، وذلك من آثار علمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته ، ولكنّ أكثر الخلق جاهلون بالله وبسننه ، وفي ذلك أمر للمؤمنين ألا يكونوا من الجاهلين وإذ تقررت هذه المعاني يخبر الله ــ عز وجل ــ رسوله ﷺ والمؤمنين بسنة من سننه هي أنّه :

ــ كما جعل لمحمد ﷺ أعداءً يخالفونه ويعاندونه فقد جعل لكل نبي من قبله أيضاً أعداءً من شياطين الإنس والجن يلقي بعض هؤلاء إلى الآخر القول المزيّن المزخرف ، وهو المزوق الذي يغتر سامعه - من الجهلة - بأمره ، وذلك كله بقدر الله وقضائه ومشيئته . فدع يامحمد ومن اتبعك هذا القول الكاذب المزخرف الغرور وأهله .

فإن الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين تميل قلوبهم وعقولهم وأسماعهم إليه ، فليرضَ هؤلاء هذا الزّخرف ، وليتبنّوه وليكتسبوا ما هم مكتسبون ، وليعملوا ما هم عاملون ، فلهم طريق ولك ولأتباعك طريق . ومن هذا العرض عرفنا أن العلّة التي منها يبدأ الزّيغ هي الكفر بالآخرة ، فهي التي يترتّب عليها كل شر ، ومن الآيات عرفنا أنّ من يضل فلا ستحقاقه الضلال بكفره وذنبه ، وإذا استقرت هذه المعاني فإنّ الله يأمر رسوله ﷺ أن يردّ على كل ما مرّ من كلام الكافرين واتجاهاتهم بالإعلان :

ــ أنه لا يقبل غير الله حكماً ، وقد حكم الله له ، وعليهم بكتابه البيّن المفصّل الكامل الحجّة ، هذا الكتاب الذي يعلم المنصفون من أهل الكتاب أنّه منزّل من الله

بالحق ؛ وذلك ممّا عندهم من البشارات في كتبهم ، ثمّ ينهى الله رسوله ﷺ أن يكون من الشاكّين ، ولم يشكّ عليه الصلاة والسلام وإنما هو الرب يأمر وينهى ، والأمر لرسوله ﷺ أمر لأمّته .

ـــ ثمّ بيّن ـــ عز وجل ـــ أنه قد جعل كتابه كاملًا وتاماً ، صادقاً فيما قال وفيما أخبر ، عدلًا فيما حكم وفيما أمر ، فكلّ ما أخبر به فحقّ لا مرية فيه ولا شكّ ، وكلّ ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكلّ ما نهى عنه فهو الباطل ، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة ، وليس لأحد أن يعقّب على حكمه ، أو ينقضه ، أو يبدّله ، أو يغيّره ، وأنّ الله هو السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، الذي يجازي كل عامل بعمله .

وبعد أن أمر الله ـــ عز وجل ـــ رسوله ﷺ أن يعلن أنه لا يرضى غير الله حكماً بيّن له في هذا المقام أنّ أكثر أهل الأرض على ضلال ، وأنّهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنّما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل ، وأنّ الله وحده هو الأعلم بمن يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، ولذلك فلا تبتغ غيره حَكَما لأنّ أكثرية أهل الأرض إن اتّبعتها تضلّك ، فما أعظم هذا البيان في هذا المقام إذ كثير من الناس تَغُره الأكثرية وتضلّه ، أما المسلم فالله هو وحده مصدر الهداية والإضلال عنده ، ومنه تتلقى الهداية . ولو خالف الخلق كلهم أمره فإنهم ضالون .

وفي هذا السياق ـــ سياق أن الحكم لله وحده وأنّه لا طاعة للخلق في معصية الله ـــ يقرّر الله ـــ عز وجل ـــ إباحة الذبائح إن ذكر عليها اسم الله ، وحرمتها إذا لم يذكر عليها اسم الله ، مع حوار مع المشركين في هذا المقام ، وكل ذلك منسجم مع سياق ما قبله وما بعده .

فلنَر المعاني ثمّ لنَر الارتباط :

يأمر الله ـــ عزّ وجلّ ـــ عباده المؤمنين ـــ أمر إباحة ـــ أن يأكلوا من الذّبائح ما ذكر عليه اسمه ، ومفهومه أنّه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه مما يستبيحه الكفار قديماً وحديثاً من أكل أنواع الميتات ، أو ما له حكمها ، ثمّ ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، مبيّناً لهم أنّه لا داعي إلى التحرّج في ذلك بعد أن بين لنا ما حرّم علينا ، ثم بيّن تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلالهم : الميتات ، وما ذكر عليه غير

اسم الله تعالى ، وإضلالهم البشر بغير علم ، وهدّدهم بأنّه هو الأعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم ؛ وسيجازيهم عليه .

- ثمّ أمر الله تعالى عباده أن يتركوا معصيته في السرّ والعلانية ، قليلها وكثيرها ، مبيّناً أن الذين يعملون الآثام - سواء كانت ظاهرة أو خفية - سيجزيهم على أعمالهم ، وفي ذكر هذه الآية في هذا السياق تهديد لمن يضلّون بأهوائهم ، ولمن يخالفون أمر الله في أكل مالم يُذكر اسم الله عليه .

- ثم نهى الله - عز وجل - نهياً جازماً عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح ، وعن أكل ما لم يذبح أصلًا من أنواع الميتات ، مبيّناً أنّ ذلك فسوق عن أمر الله ، ومخالفة لأمره ، وإذ يكثر جدال الكافرين في هذا المقام ؛ لأنهم لا يفرقون بين ما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر ، ولا يفرّقون بين الميتة والذبيحة ، متناسين أنّه لا فارق بين الإنسان وبين الحيوان من حيث إن لكل روحاً ، وأنّ الله الذي أباح للإنسان أن يزهق روح الحيوان أباح ذلك له بشرط ذكر اسمه عليه ، فإذ يكثر جدال الكافرين في هذا المقام بيّن الله - عز وجل - أنّ الشياطين يوحون إلى من يطيعونهم بمختلف الحجج من أجل أن يجادلوا المسلمين ، ثمّ هدّد الله المسلمين أنّهم إن أطاعوهم في ما يريدونهم عليه فإنهم مشركون حين يعدلون عن أمر الله إلى قول غيره ، ويقدمونه عليه .

ولو أنّنا تأمّلنا قوله تعالى : ﴿ **شياطين الجنّ والإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ فإننا نجد الصلة بين مجموعة الآيات التي بين أيدينا وبين التي قبلها . كما نرى أن هذه المجموعة نموذج ومثال على مجموعة أمور لها علاقة في السياق الجزئي . فهي نموذج على وساوس الشيطان وأوليائه فيما يخالف شرع الله والرضا بحكمه ، وهي نموذج على ما تقتضيه العبودية لله الذي خلق لنا ما في الأرض جميعاً ، فاقتضى ذلك أن نلتزم أمره في الانتفاع بما خلق بالطريق الذي حدده .

ولنعد إلى السياق :

فبعد هذه الجولة في موضوع الهداية والضلال وبعض متعلقاتهما يضرب الله مثلاً للمؤمن الذي كان ميتا - اي في الضلالة هالكا - فأحياه الله أي أحيا قلبه بالإيمان ، وهداه له ، ووفّقه لاتّباع رسله ، وجعل له نوراً يمشي به في النّاس فيهتدي كيف يسلك وكيف

يتصرف بين الناس على ضوء هذا القرآن ، وللكافر الغارق في الظلمات والجهالات والأهواء والضّلالات المتفرقة لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص ممّا هو فيه هل يستوي هذا مع هذا ؟ لا يستويان ، ومع ذلك فإن الكافر يستحسن ما هو عليه ، لأن الله زيّن له ما هو فيه قَدَراً من الله ، وحكمة بالغة منه لا إله إلا هو ولا شريك له ، ومن خلال العرض نعرف حكمة أخرى من حِكَم الإضلال : فقد بيّن الله ــ عزّ وجل ــ بعد أن ضرب المثل السابق للمهتدي والضال أنه كما جعل في مكة أكابر من المجرمين ، ودعاةً إلى الكفر والصدِّ عن سبيل الله ، وإلى مخالفة رسول الله ﷺ وعداوته كذلك جعل في كل قرية أكابر مجرميها ليدعوا إلى الضلالة بزخرف من القول والفعل ، وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم ، وهم لا يشعرون بذلك ، وإذن فإجرامهم هو سبب ضلالهم ، هؤلاء المجرمون الكبار إذا جاءتهم آية وبرهان وحجّة قاطعة رفضوا الإيمان حتى تأتيهم الملائكة من الله بالرّسالة كما تأتي إلى الرسل ، وإذاً فما أقسموا عليه في أول الفقرة من كونهم إذا جاءتهم آية يؤمنون بها محض كذب ؛ فإنّ الدوافع الأصلية لكفرهم هو حسدهم أن يبعث الله رسولًا غيرهم ، وهنا يبيّن الله أنّه هو الأعلم حيث يضع رسالته ، ومن يصلح لها من خلقه ، ثمّ أوعد الله هؤلاء المجرمين بأنه ستصيبهم يوم القيامة ذلّة دائمة ، لقد استكبروا في الدنيا فأعقبهم ذلك ذلًّا يوم القيامة ، ومع الذلة عذاب أليم شديد بسبب مكرهم ، ولما كان المكْرُ في الغالب إنما يكون خفياً : وهو التلطف في التّحيّل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة ؛ جزاءً وفاقاً ، وبعد إذ تقرّر أنّ الهدى من الله ، والضلال من الله ، وأن الضلال له أسباب ، ذكر الله ــ عزّ وجل ــ علامة من يريد هدايته ، ومن يريد ضلاله ، فأما علامة من يريد هدايته فهو شرح صدره للإسلام بأن ييسرّه للإسلام ، وينشّطه ويسهّله لذلك ، وأمّا علامة من يريد إضلاله فهو جعل صدره ضيقاً بلا إله إلا الله حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه ؛ حتى إنّه من شدة ضيقه بها ليصل إلى درجة الاختناق كشأن الذي يصعّد في السماء ، فإنه يضيق صدره لدرجة الاختناق ثم يختنق ، وكما جعل الله صدر من أراد إضلاله ضيّقاً حرجاً ، كذلك يسلط الله الشيطان عليه فيغويه ويصدّه عن سبيل الله ، ولما ذكر علامة من يريد إضلاله ، بيّن أنّ هذا القرآن وهذا الدّين هو صراط الله المستقيم ، وقد وضّح الله فيه الآيات وبيّنها وفسّرها لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله ﷺ ، وهؤلاء قد أعدّ الله لهم دار السلام وهي الجنة يوم القيامة ، وإنّما وصف الله الجنة هاهنا بدار السلام إشعاراً بأن سلوكهم الصراط المستقيم حقق لهم السلامة ، فكما سلموا من آفات

الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ، والله حافظهم وناصرهم ومؤيّدهم جزاءً على أعمالهم الصالحة ، ويجمع لهم مع الولاية الجنّة بمنّه وكرمه ، وبعد إذ وصل السياق إلى هذا المعنى فإنّه يحدثنا عن حشر شياطين الجنّ والإنس ، الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، الذين ذكروا في أوائل هذه الفقرة :

فيذكر يوم يُحشر الجنُّ وأولياؤهم من الإنس ، الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويعوذون بهم ، ويطيعونهم ، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، يومئذٍ يقال للجنّ إنّكم قد استكثرتم من إغواء الإنس وإضلالهم ، ويعترف أولياؤهم من الإنس في هذا المقام بأنّ كلّا من الجن والإنس قد استمتع بعضهم بالآخر حتى بلغوا الموت ، فيكون الجواب أن النار مأواهم ومنزلهم جميعاً أبداً بمشيئة الله وحكمه وعلمه ، ثمّ بيّن الله سنته في خلقه بأنّه إنما يولي النّاس بعضهم بعضاً بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان ، فليس الإيمان بالتمنيّ ، وفي ذلك تعليل لتوليّ هؤلاء الكافرين لبعضهم بعضاً ، أن ذلك ما كان لولا كسبهم السيء ، والكسب السيء هو أداة الوصول إلى النّار ، ثمّ يذكر الله ــ عز وجل ــ شيئاً آخر مما يقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة ، حيث يسألهم ــ وهو أعلم ــ : هل بلّغتهم الرسل رسالاته ؟ وهل قصّوا عليهم آياته ؟ وهل أنذروهم لقاء اليوم الآخر ؟ فيقرّون بأنّ هذا كله قد كان ، ولكنّهم اغترّوا بالحياة الدنيا ، وفرّطوا بها ، وشهدوا على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا كافرين ، فالحجّة إذن قائمة عليهم في الدنيا والآخرة ، لأنّ سنة الله أنه لا يعاجل النّاس بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولاً ينبههم ويقيم حجج الله عليهم ، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ، ولم يكن الله ليأخذهم على غفلة فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، وأنّ سنته أنّ لكل عامل في طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلّغه إياها ويجزيه بسببها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وما الله بغافل عن عمل عامل ، ويحصي عليه وله أعماله ويثبتها عنده ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه ، ثم يختم الله ــ عز وجل ــ هذه الفقرة الطويلة بتقرير أنه الغني عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، وهو مع ذلك رحيم بخلقه ، وأنه إن شاء أن يذهبنا إن خالفنا أمره ويستخلف بدلنا قوماً آخرين يعملون بطاعته ، فإنّه قادر على ذلك ، سهل عليه ، يسير لديه ، كما أذهب القرون الأولى ، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين ، وعلى كل حال فإن أمر القيامة آت ، وما أحد بمعجز الله بل هو القادر على الإعادة وإن صرنا تراباً ورفاتاً ، وفي الختام يأمر الله رسوله ﷺ أن

يقول لقومه استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنّون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي ، وسوف تعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، أتكون لي أو لكم ، مع العلم أن الظالمين لا يفلحون وأنتم كذلك . وفي هذا الإعلان تهديد شديد ، ووعيد لهم ، وقد أنجز الله وعده لرسوله ﷺ في الدنيا وهو منجز له وعده في الآخرة ، وبهذا تنتهي الفقرة الثانية في المقطع الأول من القسم الثاني .

في مقدمة المقطع كان الكلام عن الله وقدرته وعنايته بخلقه .

وفي الفقرة الأولى قصّ الله علينا كيف أنه مع كل هذا فقد جعلوا له شركاء .

وفي الفقرة الثانية بيّن لنا أنّ الكافرين أقسموا إن جاءتهم آية ليؤمننّ بها .

وتأتي الآن الفقرة الثالثة لتقصّ علينا من أفعال الكافرين وهي مبدوءة بـ ﴿ **وجعلوا ...** ﴾ . الفقرة الأولى مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وجعلوا لله شركاء الجن ....** ﴾

والفقرة الثانية مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم ....** ﴾

والفقرة الثالثة وهي الأخيرة في هذا المقطع مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ....** ﴾

لقد بيّن الله — عز وجل — في الفقرة الأخيرة كيف أنّ المشركين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً ، وجعلوا لله شريكاً من خلقه وهو خالق كل شيء . فجعلوا لله مما خلق وبَرَأ من الزروع والثمار والأنعام جزءًا وقسماً ، وجعلوا لشركائهم قسماً وحظاً فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه — وما كان لله — في زعمهم — لم يحصوه ولم يحفظوه بل يجعلوه للوثن ، فحقوق شركائهم محفوظة — وحق الله الذي ابتدعوه له ولم يشرعه لهم ضائع مع أنهم هم الذين اخترعوه ، فما أسوأ أحكامهم ، وما أجهلهم بخالقهم وحقوقه ! لم يعرفوا أنّ الله خالق كل شيء وهو مالكه ، ولم يتصرفوا بملكه على الوجه الذي يرضيه ، ولم يجعلوا له ما شرعه وأشركوا معه غيره ، ثم حفظوا حق غيره وضيّعوا ما أعطوه من حقوق ابتدعوها ، فأي جهل بالله أكبر ، وكما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً على طريقتهم التي رأيناها ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ، وزينوا لهم وأد البنات خشية العار ؛ ليهلكوهم بذلك ؛ وليخلطوا عليهم دين الله الذي هو دين الفطرة ،

وكل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته ، وله الحكمة التامة في ذلك كله ؛ إذ الأمر أمره ، والقهر قهره ، ولا يكون شيء في ملكه إلا بمشيئته ، وإذ كان الأمر كذلك فدع يا محمد ، ثم يا مسلم هؤلاء واجتنبهم وما هم عليه ، واحمد الله على الهدى ، فسيحكم الله بينك وبينهم ، وكما أخطأوا في ما مرّ أخطأوا كذلك بأن شرعوا لأنفسهم فجعلوا أنعاماً وحرثاً محرّمة إلا على من شاءوا ، وجعلوا أنعاماً محرّمة على الرّكوب ، وجعلوا أنعاماً لا يذكر عليها اسم الله لا إن ركبوا ، ولا إن حلبوا ، ولا أن حملوا ، ولا إن نتجوا ، وكل ذلك افتراء على الله وكذب عليه منهم في إسنادهم ذلك إلى شرع الله ودينه ، فإنّه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيه منهم ، ولذلك هدّدهم بأنّه سيجزيهم بما كانوا يفترون عليه ويسندونه إليه فيعذبهم . وكما أخطأوا في هذا كله فقد أخطأوا في تشريعهم لأنفسهم تحريم اللبن على الإناث وتحليله للذكور ، وجعل ولد الشاة إن كان ذكراً للذكور فقط ، يذبحونه ويأكلونه ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء ، وكل ذلك من عند أنفسهم ، وسيجزيهم الله على هذا الكذب ، ومجازاته لهم هي عين الحكمة وهو العليم بأعمال عباده ، من خير وشر ، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء ، وبهذا تمّ المقطع معرّفاً على الله ، مبيّنا عقائد وأفعالاً للكافرين ورادّاً عليها .

كلمة في السياق :

يتألف هذا المقطع من مقدمة وثلاث فقرات ، كل فقرة مبدوءة بفعل ماض يتكلم عن الكافرين : ﴿ **وجعلوا** ﴾ ، ﴿ **وأقسموا** ﴾ ، ﴿ **وجعلوا** ﴾ .

المقدمة تحدثت عما فعله الله لهذا الإنسان ، والفقرة الأولى تحدثت عن اتخاذ الإنسان شريكاً لله ، والفقرة الثانية تحدثت عن دعوى الكافرين أنهم يؤمنون لو جاءتهم آية ، والفقرة الثالثة تحدثت عن بعض ما شرعه الكافرون لأنفسهم في اثنتين من أكبر نعم الله على الإنسان : الأنعام والحرث .

فالمقطع في سياقه شديد الصلة ببعضه ، وهو شديد الصلة كذلك بمحوره من سورة البقرة ــ كما رأينا وكما سنرى ــ شديد الصلة فيما قبله وما بعده من سورة الأنعام .

المعنى الحرفي :

﴿ **إنّ الله فالق الحب والنوى** ﴾ الفَلْق : الشّقّ ، والمعنى : فلق الحب عن السنبلة ، والنواة عن النخلة . فهو فالق الحب والنوى بالنّبات والشجر ﴿ **يخرج الحي**

النامية ، والثمار اليانعة . وهي حشد من الحيوانات والمشاهد ، ومجال للتأمل والزيادة . لو نشاهدها بالحس المتوفز والقلب المتفتّح .

وها هو ذا الوجود كله ، جديداً كأنما نراه أول مرة . حياً يعاطفنا ونعاطفه ، متحركاً تدب الحركة في أوصاله ، عجيباً يشده الحواس والمشاعر . ناطقاً بذاته عن خالقه . دالًا بآياته على تفرده وقدرته ..

وعندئذ يبدو الشرك بالله ـــ والسياق يواجه الشرك والمشركين بهذا الاستعراض ـــ غريباً غريباً على فطرة هذا الوجود وطبيعته . وشأنها في ضمير من يشاهد هذا الوجود الحافل بدلائل الهدى ويتأمله . وتسقط حجة الشرك والمشركين في مواجهة هذا الإيمان الغامر في مجال الوجود العجيب » .

فوائد :

١ ـــ قال صهيب الرومي رضي الله عنه لامرأته وقد عاتبته في كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب ، إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه . رواه ابن أبي حاتم .

٢ ـــ قال ابن كثير : قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أنَّ الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر .

٣ ـــ إن هداية الإنسان بالنجوم لا يفقهها إلا عالم ، فلولا النجوم لما أمكن للإنسان أن يهتدي في ظلمات البر والبحر ، ويكفي أن نشير إلى أن خطوط الطول والعرض مبينة بشكل ما على وضع نجم القطب ، وأن ذلك كله أساس في اهتداء الإنسان في طيارته أو باخرته في عصرنا .

كلمة في السياق :

١ ـــ بدأ القسم الأول من سورة الأنعام بقوله تعالى ﴿ **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ ويبدأ القسم الثاني بمقدمة تتحدث عن مظاهر قدرة الله : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى ..** ﴾ ﴿ **وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ..** ﴾ ﴿ **وهو**

الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ ﴿ **وهو الذي أنزل من السماء ماءً** ... ﴾ ثمّ تأتي بعد هذه المقدمة فقرة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وجعلوا لله شركاء الجن** ... ﴾ لاحظ كلمة (يعدلون) في الآية الأولى من السورة ، والكلام عن الشركاء في الفقرة الأولى من القسم الثاني ، لترى كيف أنّ السورة ذات سياق واحد ، ولترى صحة ما اتجهنا إليه في تقسيم السورة إلى قسمين رئيسيين .

٢ — رأينا أن محور سورة الأنعام هو قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ... ﴾ أنكر عليهم كفرهم مع ظاهرة الإحياء والإماتة ، وأقام عليهم الحجة بظاهرة العناية ، وفي مقدمة هذا المقطع تفصيل لمظاهر من خلق كل شيء لصالح الإنسان ، وتدليل على القدرة بمظاهر من آثارها، فليتأمل ذلك.ولننتقل إلى الفقرة الأولى في المقطع .

« الفقرة الأولى »

﴿ **وجعلوا لله شركاء الجن** ﴾ بأن أطاعوا الشياطين فيما سوّلت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله بدلًا من التوحيد والإخلاص والعبادة والشّكر التي تقتضيها عناية الله التي رأينا مظاهرها قبل هذه الآية ﴿ **وخلقهم** ﴾ الضمير (هم) إما أن يعود على الجن ، وإما أن يعود على الجاعلين لله شركاء . والمعنى على الأول : وقد خلق الجن فكيف يكون المخلوق شريكاً . وعلى الثاني : والله هو الذي خلق هؤلاء المشركين فكيف يعبدون معه غيره وهو وحده الذي خلقهم ﴿ **وخرقوا له بنين وبنات** ﴾ . أي : واختلقوا له فنسبوا إليه بنين كالنّصارى ، وبنات كقول بعض العرب في الملائكة إنهم بنات الله ﴿ **بغير علم** ﴾ . أي : جاهلين بما قالوا أي : من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأ أو صواب . ولكن رمياً بقول عن جهالة ﴿ **سبحانه وتعالى عما يصفون** ﴾ . أي : تنزّه وتقدّس وتعاظم عما يصفونه به من الشريك والوالد ﴿ **بديع السّمٰوات والأرض** ﴾ . أي : مبدعهما على غير مثال سبق والمعنى : أن الولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون له ولد أو مِثْل ﴿ **أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة** ﴾ وهذا دليل آخر على استحالة أن يكون له ولد ، إذ الولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه ؛ لأنه خالق كل شيء ، فلا صاحبة له ولا ولد ﴿ **وخلق كل شيء وهو بكل**

شيء عليم ﴾ . أي : ما من شيء إلا وهو خالقه والعليم به ، ومن كان كذلك كان غنياً عن كل شيء ، والولد إنما يطلبه المحتاج ﴿ **ذلكم** ﴾ . أي : المستجمع للصفات السابقة ﴿ **الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه** ﴾ . أي : من اجتمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه خلقه ﴿ **وهو على كل شيء وكيل** ﴾ . أي : وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال ، رقيب على الأعمال ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ . أي : لا تحيط به ﴿ **وهو يدرك الأبصار** ﴾ . أي : يحيط بها ﴿ **وهو اللطيف** ﴾ . أي : العالم بدقائق الأمور ومشكلاتها ﴿ **الخبير** ﴾ . أي : العليم بظواهر الأشياء وخفياتها ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم** ﴾ البصيرة نور القلب الذي به يستبصر القلب ، كما أن البصر أثر جهاز العين الذي به تبصر ، والمعنى : قد جاءكم من الوحي والتنبيه بهذا القرآن ما هو للقلوب كالبصائر من الله ـــ عز وجل ـــ ﴿ **فمن أبصر** ﴾ فعرف الحق وآمن به وعمل ﴿ **فلنفسه** ﴾ أبصر وإياها نفع ﴿ **ومن عمي فعليها** ﴾ . أي : ومن عمي عن الحق وضلّ فعلىٰ نفسه عمي ، وإياها ضرّ بالعمى ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ . أي : بحافظ يحفظ أعمالكم ، ويجازيكم عليها ، إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم ﴿ **وكذلك نُصرّف الآيات** ﴾ . أي : نصرّف الآيات تصريفاً مثل ما تلونا عليك فنكرّرها ونؤكّدها ونوضّحها ونبيّنها ﴿ **وليقولوا درست** ﴾ . أي : وليقولوا درست نصرّفها ، ومعنى درست : قرأت كتب أهل الكتاب ﴿ **ولنبيّنه** ﴾ . أي : القرآن أو الآيات ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ الحق من الباطل ﴿ **اتبع ما أوحِيَ إليك من ربك** ﴾ وهو القرآن ولا تتبع أهواءهم ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ ولهذا فلا يجوز اتّباع غير وحيه وأمره ﴿ **وأعرض عن المشركين** ﴾ بالعفو والصفح واحتمال الأذى والهجران الجميل حتى يفتح الله وينصر بقتال أو بغيره ، فتقيم فيهم حكم الله وقتذاك بما يناسب ذلك الحال ﴿ **ولو شاء الله ما أشركوا** ﴾ هذا بيان أنهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله ، ولو علم منهم اختيار الإيمان لهداهم إليه ، ولكن علم منهم اختيار الشرك فشاء شركهم فأشركوا بمشيئته ﴿ **وما جعلناك عليهم حفيظاً** ﴾ . أي : مراعياً لأعمالهم مأخوذاً بجرائمهم ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ . أي : بموكل على أرزاقهم وأمورهم إن عليك إلا البلاغ ﴿ **ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله** ﴾ من آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة لئلا يكون سبّهم سببا لسبِّ الله ﴿ **فيسبّوا الله عَدْواً** ﴾ . أي : ظلماً وعدوانا ﴿ **بغير علم** ﴾ . أي : على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به ﴿ **كذلك زيّنا لكل أمّة**

عملهم ﴾ . أي : مثل ذلك التزيين الواضح البطلان ، زينّا لكل أمة من أمم الكفار ما هم عليه من العمل ﴿ **ثمّ إلى ربهم مرجعهم** ﴾ . أي : مصيرهم ﴿ **فينبئهم بما كانوا يعملون** ﴾ . أي : فيخبرهم بما عملوا ، ويجزيهم عليه .

قال الألوسي بمناسبة هذه الآية :

« واستدل بالآية على أن الطاعة إذا أدّت إلى معصية راجحة وجب تركها ، فإن ما يؤدي إلى الشر شر ، وهذا بخلاف الطاعة في موضع فيه معصية لا يمكن دفعها ، وكثيراً ما يشتبهان ، ولذا لم يحضر ابن سيرين جنازة اجتمع فيها الرجال والنساء ، وخالفه الحسن قائلاً : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا » للفرق بينهما .

ونقل الشهاب عن المقدسي أن الصحيح عند فقهائنا أنه لا يترك ما يطلب لمقارنة بدعة ، كترك إجابة دعوة لما فيها من الملاهي ، وصلاة جنازة لنائحة فإن قدر على المنع منع ، وإلا صبر ، وهذا إذا لم يقتد به وإلا يقعد لأن فيه شين الدين . وما روي عن أبي حنيفة رضي الله عنه - أنه ابتلي به - كان قبل صيرورته إماماً يقتدى به . ونقل عن أبي منصور أنه قال : كيف نهانا الله تعالى عن سب من يستحق السب لئلا يسب من لا يستحقه ، وقد أمرنا بقتالهم وإذا قاتلناهم قتلونا ، وقتل المؤمن بغير حق منكر ، وكذا أمر النبي ﷺ بالتبليغ والتلاوة عليهم وإن كانوا يكذبونه . وأنه أجاب بأن سب الآلهة مباح غير مفروض ، وقتالهم فرض ، وكذا التبليغ وما كان مباحاً ينهى عما يتولد منه ويحدث ، وما كان فرضاً لا ينهى عما يتولد منه . وعلى هذا يقع الفرق لأبي حنيفة رضي الله تعالى عنه فيمن قطع يد قاطع قصاصاً فمات منه فإنه يضمن الدية لأن استيفاء حقه مباح فأخذ بالمتولد منه ، والإمام إذا قطع يد السارق فمات لا يضمن لأنه فرض عليه فلم يؤخذ بالمتولد منه . ومن هنا لا تحمل الطاعة فيما تقدم على إطلاقها » .

أقول : يفهم من كلام الألوسي وبعض الأقوال التي نقلها أن الطاعة إذ كانت مفروضة أو واجبة أو سنة أو مندوبة فإننا نفعلها ولا نبالي بما يترتب على ذلك ، أما إذا كان أمر من الأمور مباحاً ولو فعل ترتّب على ذلك مفسدة أو مصلحة فإنّه عندئذ يتردّد في هذا الأمر فإن وجدت المصلحة أقدم وهو مأجور ، وإن وجدت المفسدة أحجم وهو مأجور ، وإن كثيراً من الأمور تحتاج إلى موازنات كثيرة قبل الإقدام على شيء منها .

فوائد :

١ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ يقول صاحب الظلال :

إن الذين يطلبون في سذاجة أن يروا الله ، كالذين يطلبون في سماجة دليلًا ماديًا على الله ! هؤلاء لا يدركون ماذا يقولون !

إن أبصار البشر وحواسهم وإدراكهم الذهني كذلك .. كلها إنما خلقت لهم ليزاولوا بها التعامل مع هذا الكون ، والقيام بالخلافة في الأرض .. وإدراك آثار الوجود الإلهي في صفحات هذا الوجود المخلوق .. فأما ذات الله ـ سبحانه ـ فهم لم يوهبوا القدرة على إدراكها . لأنه لا طاقة للحادث أن يرى الأزلي الأبدي . فضلًا عن أن هذه الرؤية لا تلزم لهم في خلافة الأرض . وهي الوظيفة التي هم معانون عليها وموهوبون ما يلزم لها ..

وقد يفهم الإنسان سذاجة الأولين . ولكنه لا يملك أن يفهم سماجة الآخرين ! إن هؤلاء يتحدثون عن « الذرة » وعن « الكهرب » وعن « البروتون » وعن « النيوترون » .. وواحد منهم لم يرَ ذرة ولا كهربًا ولا بروتونًا في حياته قط . فلم يوجد بعد الجهاز المكبر الذي يضبط هذه الكائنات .. ولكنها مسلّمة من هؤلاء ، كفرض ، ومصداق هذا الفرض أن يقدروا آثارًا معينة تقع لوجود هذه الكائنات ، فإذا وقعت هذه الآثار (جزموا) بوجود الكائنات التي أحدثتها ! بينما قصارى ما تصل إليه هذه التجربة هو « احتمال » وجود هذه الكائنات على الصفة التي ارتضوها ! .. ولكنهم حين يقال لهم عن وجود الله ـ سبحانه ـ عن طريق آثار هذا الوجود التي تفرض نفسها فرضًا على العقول ! يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويطلبون دليلًا ماديًا تراه الأعين .. كأن هذا الوجود بجملته ، وكأن هذه الحياة بأعاجيبها لا تكفي لتكون هذا الدليل » .

٢ ـ وحول قوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ تدور معركة كلامية كبيرة بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة . فالمعتزلة يحتجون بهذه الآية على نفي رؤية الله في الدنيا وفي الآخرة ، وأهل السنة يرفضون هذا الفهم ويعتبرونه ضلالًا ؛ لما تواترت به الأخبار عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات ، كما تدور المعركة بين أهل السنة أنفسهم حول رؤية رسول الله ﷺ ربه يوم المعراج .

فعائشة رضي الله عنها تستدل بهذه الآية على نفي الرؤية ، وابن عباس يثبتها روى الترمذي والحاكم وغيرهما عن عكرمة قال : سمعت ابن عباس يقول : رأى محمد ربه تبارك وتعالى ، فقلت : أليس الله يقول ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ الآية ، فقال لي : لا أمّ لك ذلك نوره الذي هو نوره إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء ، وفي رواية : لا يقوم له شيء . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وفي معنى هذا الأثر ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار حجابه النور — أو النار — لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

وإن للمؤمنين لأشواقاً إلى ربهم ومحبة له ، وما أوجد الله الشوق للقائه وما افترض محبته على خلقه ، وما جعل لذلك طريقه إلا وله مراد — عز وجل — في أن يذيقهم لذة النّظر إلى وجهه . وقد ردّ النسفي على المعتزلة قولهم بنفي الرؤية في الآخرة بقوله :

وتشبث المعتزلة بهذه الآية لا يستتب ، لأن المنفي هو الإدراك لا الرؤية ، والإدراك هو الوقوف على جوانب المرئي وحدوده ، وما يستحيل عليه الحدود والجهات يستحيل إدراكه لا رؤيته ، فنزل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم . ونفي الإحاطة التي تقتضي الوقوف على الجوانب والحدود لا يقتضي نفي العلم به ، فهكذا هذا ، على أن مورد الآية وهو التمدّح يوجب ثبوت الرؤية ، إذ نفي إدراك ما تستحيل رؤيته لا تمدُّح فيه ، لأن كل ما لا يُرى لا يدرك . وإنما التمدّح بنفي الإدراك مع تحقّق الرؤية ، إذ انتفاؤه مع تحقّق الرؤية دليل ارتفاع نقيصة التناهي والحدود عن الذات ، فكانت الآية حجة لنا عليهم .» اهـ .

أقول : والدّخول إلى عالم الإيمانيات بجدل الفلسفات مفسد للعقل وللقلب وللفطرة . فعالم الإيمان عالم تسليم بعد أن تقوم الحجة على صحة النقل وصحة الفهم وفي ذلك راحة العقل والقلب .

٣ — في قوله تعالى : ﴿ **وليقولوا درست** ﴾ ثلاث قراءات متواترة : دَرَسْتَ ، ودارسْتَ ، وَدَرَسَتْ ، وكل واحدة تعطي معنى يقوله الكافرون . أما الأولى :

فواضحة . وأما الثانية : فهي من المدارسة وهي واضحة . وأما الثالثة فمعناها : أي مضت هذه الآيات ، وانتهت ، وانمحت ، وتقادمت ، وهي من باب الأساطير ، وكل من الأقوال الثلاثة تسمعه من الكافرين في عصرنا ، الأول والثاني يقوله أهل الكتاب ، والثالث يقوله الملاحدة : أن الدين كله مرحلة من مراحل الحياة البشرية انتهت وانقضت . وفي هذا مظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن ، إن في عرضه لاتجاهات النّاس بأخصر الأقوال أو لاختياره الكلمة التي لا يحل غيرها محلها ، وممّا ذكرناه نفهم الحكمة في تعدّد القراءات المتواترة عن رسول الله ﷺ إذ في ذلك توسعة على الأمّة بما يسع لهجات العرب ، وفي ذلك معان جديدة ، وإنّما اقتصرنا في هذا التفسير على رواية حفص ذكراً وشرحاً لأنّها القراءة الأكثر انتشاراً في العالم الإسلامي .

٤ ـــ قال ابن كثير بمناسبة قوله تعالى :

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً ﴾ . وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السّدّي أنّه قال في تفسير هذه الآية : لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل ، فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه ، فإنا نستحيي أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب : كان يمنعهم ، فلما مات قتلوه . فانطلق أبو سفيان وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأميّة ، وأبيّ ابنا خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعمرو بن العاص ، والأسود بن البختري ، وبعثوا رجلًا منهم يقال له « المطّلب » قالوا : استأذن لنا على أبي طالب ، فأتى أبا طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك ، فأذن لهم عليه ، فدخلوا عليه فقالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، وإنّ محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه ، فتنهاه عن ذكر آلهتنا ، ولندعه وإلهه . فدعاه فجاء النّبي ﷺ . فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك ، قال رسول الله ﷺ : « ما تريدون ؟ » قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا ولندعك وإلهك ، فقال النبي ﷺ : « .... ، هل أنتم معطيّ كلمة ، إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم ، وأدّت لكم الخراج ؟ » قال أبو جهل : وأبيك لنعطيكها وعشرة أمثالها . قالوا : فما هي ؟ قال « قولوا لا إله إلا الله » فأبوا واشمأزوا ، قال أبو طالب : يا ابن أخي قل غيرها ، فإن قومك فزعوا منها ، قال : « يا عم : ما أنا بالذي يقول غيرها حتىٰ يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي ، ولو أتوا بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها » إرادة أن يؤيسهم ، فغضبوا وقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو

لنشتمنّك ونشتمنّ من يأمرك ، فذلك قوله : ﴿ **فيسبوا الله عدواً بغير علم** ﴾ .

ومن هذا القبيل ، وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها . ما جاء في الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « ملعون من سبّ والديه » . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يسبّ الرجل والديه ؟ قال : « يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه ، ويسبّ أمّه فيسبّ أمّه » . أو كما قال ﷺ » .

ومن ثم فإن الداعية إلى الله عليه أن يكون دقيقاً جداً في طرق الخطاب وفي مواقفه وفي مناقشاته . ففي كثير من الأحيان لا يؤدي التجريح المباشر والمواجهة به إلى خير في نقل الإنسان من حالة إلى حالة أطيب وأكرم ، ووضع الأمور في مواضعها هو الحكمة ، والحكمة معنى زائد على العلم ، ومعرفة الحكم الشرعي .

كلمة في الفقرة الأولى :

١ ـــ مرّت معنا مقدمة المقطع الأول ، وفيها عرض لمظاهر قدرة الله ، وعرض لبعض ما سخرّه الله للإنسان ، ثمّ جاءت الفقرة الأولى تحدثنا عن شرك المشركين ، فكأن السياق يقول : إنه مع كل مظاهر القدرة ومظاهر العناية يوجد مشركون ، وهذا يذكّرنا بالآية الأولى من سورة الأنعام : ﴿ **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثمّ الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ فالسورة إذن سائرة على نسق واحد وسياق واحد .

٢ ـــ رأينا أن محور سورة الأنعام هو قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾ وقد رأينا كيف أن الفقرة ناقشت الكافرين بظاهرة الخلق : ﴿ **وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم** ﴾ فالفقرة إذن تفصّل في محور السورة من البقرة .

٣ ـــ ووحدة الفقرة واضحة في كونها تقيم الحجة على الكافرين ، وتثبّت أهل الإيمان على اليقين ، وتأمرهم باتباع وحي الله والإعراض عن الجاهلين وتنهاهم أن يتسببوا بإيذاء الله ولو بسبّ آلهة المشركين ، وإذا عرفنا أن الفقرة بدأت بالحديث عن الشرك وهو إيذاء لله ـــ عز وجل ـــ وانتهت بالنهي عن سب آلهة المشركين إذا تسبّب عن ذلك سبُّ لله وإيذاء له ، أدركنا الصلة بين بداية الفقرة ونهايتها .

٤ ـــ يلاحظ أن الفقرة أقامت الحجة على الكافرين والمشركين بصور متعدّدة من خلال ظاهرة الخلق ، ومن خلال الحديث المدهش عن الكمال والجلال والجمال للذات

الإلهية ، ومن خلال التذكير بالوحي وكماله وإحاطته ، وبهذا كله تقوم الحجة على الكافرين مرة بعد مرّة ، وصلة ذلك بمحور السورة لا تخفى : ﴿ **كيف تكفرون بالله ؟ !** ﴾ .

٥ ــ وبعد أن قامت على الكافرين الحجة بعد الحجة ، ولم يبق أمامهم ما يواجهون به ، نجدهم يفرون إلى طلب الخوارق ، ولذلك فإن الفقرة الثانية في المقطع أولها ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها** ﴾ .
فلننتقل إذن إلى الفقرة الثانية في المقطع : ولنبدأ بكلمة بين يديها .

بين يدي الفقرة الثانية :

١ ــ بدأت الفقرة الأولى بقوله تعالى : ﴿ **وجعلوا** ﴾

وتبدأ الفقرة الثانية بقوله تعالى : ﴿ **وأقْسَموا** ﴾ وتستمر هذه الفقرة حتى تأتي الفقرة الثالثة وهي مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وجعلوا** ﴾ ﴿ **وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً** ﴾ .

ومن الكلمة الأولى في الفقرات الثلاث ندرك أن الكلام ينصبّ على مواقف للكافرين ومناقشتها ، وسنرى أن النقاش له صلة بقوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله** ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ... ﴾ لقد رأينا ذلك من قبل وسنراه فيما يأتي .

٢ ــ تبدأ الفقرة بذكر دعوى الكافرين أنهم إذا جاءتهم آية يؤمنون، فكأنهم يدّعون أن سبب كفرهم هو عدم وجود الآية ، ومن ههنا يبدأ الحوار ، فليست العلّة في عدم الآية بل العلّة فيهم : فقد قامت عليهم الحجة ابتداءً فلم يؤمنوا ، إن العلّة في آثامهم وضعف يقينهم بالآخرة وإصغائهم لإيحاءات الشياطين ولزخرف أقوالهم . هذا ما تقرره الفقرة في أولها

ونجد في وسطها قوله تعالى :

﴿ **وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله** ﴾

ونجد في أواخرها قوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي** ﴾ ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها**

غافلون ﴾ مما يدّل على أن السياق الرئيسي للفقرة مناقشة الكافرين في دعواهم أن عدم وجود الآيات هو سبب عدم إيمانهم .

٣ ــ والملاحظ أن الفقرة تبدأ بثلاث آيات : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننَّ بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ۝ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ۝ ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾ .

فهذه الآيات الثلاث تعرض علينا طلبهم الآية وتردّ وتعلّل ، ثمّ بعد ذلك تأتي آية تقول: ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن** ﴾

ثمّ بعد آيات كثيرة تأتي آية تقول : ﴿ **وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها** ﴾

ثمّ بعد آيات تأتي آية تقول : ﴿ **وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً** ... ﴾

من هذه الآيات الثلاث ندرك أن الفقرة لا تعرض علينا موقفاً واحداً للكافرين ، هو تعنتهم في طلب الآيات ، وادّعاؤهم أنهّم يؤمنون لو جاءتهم ، بل تعرض علينا مواقف أخرى لهم وتعالجها:عداوة الأنبياء ... المكر بالدعوة ... موالاة الظالمين لبعضهم بعضاً

فالفقرة في سياقها الرئيسي تعرض وتردّ ، وتعالج قضية بعينها ، وهي مع علاجها لهذه القضية تعالج مواقف للكافرين لها صلة بالقضية الرئيسية ، ولذلك فإننا سنعرض الفقرة على أنها مقدمة ومجموعات ثلاث ، المقدمة هي الآيات الثلاث الأولى ، والمجموعات الثلاث كلّ منها مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **وكذلك** ﴾ .

« الفقرة الثانية »

مقدمة الفقرة

﴿ **وأقسموا بالله جَهد أيمانهم** ﴾ . أي : حلفوا بالله جاهدين بأن أتوا بأوْكد الأيْمان ﴿ **لئن جاءتهم آية** ﴾ . أي : خارق من مقترحاتهم التي اقترحوا مجيئها أو يقترحون ﴿ **ليؤمننَّ بها** ﴾ . أي : بالآية أو ليؤمننَّ بالله ورسوله بسببها ، علّقوا الإيمان على مجيء الآيات المقترحة كأنّ الآيات التي أنزلت لا تكفيهم ﴿ **قل إنما الآيات عند الله** ﴾ . أي : وهو قادر عليها أي ليست عندي فكيف آتيكم بها ﴿ **وما يشعركم** ﴾ .

أي : وما يدريكم أيها المؤمنون ﴿ **أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ . أي : أن الآية المقترحة إذا جاءت لا يؤمنون بها ، والمعنى : أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وأنتم لا تعلمون ذلك ، وكان المؤمنون يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ، ويتمنون مجيئها ، فقال الله تعالى وما يدريكم أنهم لا يؤمنون ، على معنى إنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون ﴿ **ونقلّب أفئدتهم** ﴾ عن قبول الحق ﴿ **وأبصارهم** ﴾ عن رؤية الحق عند نزول الآية التي اقترحوها فلا يؤمنون بها ، ويمكن أن يكون المعنى : وما يشعركم أنهم لا يؤمنون ، وما يشعركم أنّا نقلّب أفئدتهم وأبصارهم ، فلا يفقهون ، ولا يبصرون الحق ﴿ **كما لم يؤمنوا به أول مرة** ﴾ . أي : كما كانوا عند نزول آياتنا أولاً لا يؤمنون بها فكذلك إذا جاءتهم الآيات كما اقترحوا ﴿ **ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ . أي : وندعهم في ظلمهم وما هم عليه يتحيّرون ويمكن أن يكون المعنى : وما يشعركم أنّا نذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿ **ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة** ﴾ حسب اقتراحهم بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة ﴿ **وكلّمهم الموتى** ﴾ حسب اقتراح آخر قالوا : فأتوا بآبائنا ﴿ **وحشرنا عليهم كل شيء** ﴾ أي : وجمعنا عليهم كل شيء ﴿ **قبلاً** ﴾ . أي : كفلاء بصحة ما بشّرنا به وأنذرنا ، وهي جمع قبيل والقبيل الكفيل وفسر الألوسي (قبلاً) بقوله : أي مقابلة ومعاينة حتى يواجهوهم كما روى عن ابن عباس وقتادة ﴿ **ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله** ﴾ إيمانهم فيؤمنوا وهذا جواب لقول المؤمنين لعلهم يؤمنون بنزول الآية ﴿ **ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾ أنّ هؤلاء لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية المقترحة .

فائدة :

- يروي ابن جرير سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم ..** ﴾ عن محمد بن كعب القرظيّ قال : كلّم رسول الله ﷺ قريشٌ فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً . وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدّقك ، فقال رسول الله ﷺ : « أيّ شيء تحبون أن آتيكم به ؟ » قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً ، فقال لهم : « فإن فعلت تصدقوني ؟ » قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لنتبعنّك أجمعون ، فقام رسول الله ﷺ يدعو ، فجاء جبريل عليه السلام فقال له : ما شئت ، إن شئت أصبَحَ الصفا ذهباً ، ولئن أرسَلَ آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذّبهم ، وإن شئت

فاتركهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله ﷺ : « بل يتوب تائبهم » فأنزل الله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾ .

كلمة في مقدمة الفقرة :

قلنا إن هذه الآيات الثلاث هي مقدمة الفقرة الثانية في المقطع الأول من القسم الثاني من سورة الأنعام ، وقد عرضت علينا الآيات دعوى الكافرين أنهم إذا جاءتهم آية يؤمنون ، وبينت أن الأمر ليس كذلك ، فقد تأتي الآية ولا يؤمنون إذا لم يشأ الله إيمانهم ، ومشيئة الله لا تنفك عن الحكمة ؛ فللّه سنن ولله حِكَم ، ومن سنن الله أن يقلب أفئدة وأبصار الكافرين فلا يؤمنون ، ولو كثرت عليهم الآيات ؛ عقوبة لهم ؛ لأن قلوبهم رفضت الإيمان مع قيام الحجة ابتداءً ، فهم وقفوا موقفاً يستحقون به عقوبة استمرارهم على الكفر ، فليبكوا على أنفسهم إذن بدلاً من أن يقترحوا ويتعنّتوا ، إنهم محكومون بالمشيئة الإلهية ، والمشيئة الإلهية مطلقة فليراجعوا أنفسهم . ولننتقل إلى المجموعة الأولى في الفقرة .

« المجموعة الأولى »

﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً** ﴾ . أي وكما جعلنا لك أعداءً من المشركين جعلنا لمن تقدّمك من الأنبياء أعداءً ؛ لما فيه من الابتلاء الذي هو سبب ظهور الثّبات والصبر وكثرة الثّواب والأجر ﴿ **شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ زخرف القول أي : المزوّق من القول وهو ما زيّنوه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ، والغرور هو ما يغتر به صاحبه، أو هو القول الخادع الذي يأخذ على غرّة والمعنى : يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس وكذلك بعض الجن إلى بعض ، وبعض الإنس إلى بعض الكلام المزخرف الخادع ﴿ **ولو شاء ربك ما فعلوه** ﴾ . أي : هذا الإيحاء ، يعني : ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة ولكنه امتحن بما يعلم أنّه أجزل في الثواب للمؤمنين ﴿ **فذرهم وما يفترون** ﴾ . أي : فدعهم وما يفترونه عليك وعلى الله فإنّ الله يجازيهم وينصرك ويخزيهم ﴿ **ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ . أي : ولتميل إلى زخرف القول قلوب الكفار ، والمعنى إن الشياطين يوحون زخرف القول ليغروا ولتميل إليه قلوب الكافرين بالآخرة

﴿ **وليرضوه** ﴾ . أي : الكافرون بالآخرة لأنفسهم ﴿ **وليقترفوا ما هم مقترفون** ﴾ . أي : وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام .

يقول صاحب الظلال بمناسبة الكلام عن شياطين الإنس والجن في الآية :

وشياطين الإنس أمرهم معروف ومشهود لنا في هذه الأرض ، ونماذجهم ونماذج عدائهم لكل نبي ، وللحق الذي معه ، وللمؤمنين به ، معروفة يملك أن يراها الناس في كل زمان فأما شياطين الجن ــ والجن كله ــ فهم غيب من غيب الله ، لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به مَنْ عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .. ومن ناحية مبدأ وجود خلائق أخرى في هذا الكون غير الإنسان ، وغير الأنواع والأجناس المعروفة في الأرض من الأحياء .. نقول من ناحية المبدأ نحن نؤمن بقول الله عنها ، ونصدق بخبره في الحدود التي قررها . فأما أولئك الذين يتترسون « العلم » لينكروا ما يقرره الله في هذا الشأن ؛ فلا ندري علام يرتكنون ؟ إن علمهم البشري لا يزعم أنه أحاط بكل أجناس الأحياء ، في هذا الكوكب الأرضي ، كما أن علمهم هذا لا « يعلم » ماذا في الأجرام الأخرى ، وكل ما يمكن أن « يفترضه » أن نوع الحياة الموجودة في الأرض يمكن أو لا يمكن في بعض الكواكب والنجوم .. وهذا لا يمكن أن ينفي ــ حتى لو تأكدت الفروض ــ أن أنواعاً أخرى من الحياة وأجناساً أخرى من الأحياء يمكن أن تعمر جوانب أخرى في الكون لا يعلم هذا « العلم » عنها شيئاً . فمن التحكم والتبجح أن ينفي أحد باسم « العلم » وجود هذه العوالم الحية الأخرى .

وأما من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ؛ والذي يتشيطن بعضه ويتمحض للشر والغواية ــ كإبليس وذريته ــ كما يتشيطن بعض الإنس .. من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ، نحن لا نعلم إلا ما جاءنا الخبر الصادق به عن الله ــ سبحانه ــ وعن رسول الله ﷺ . ونحن نعرف أن هذا الخلق مخلوق من مارج من نار . وأنه مزوّد بالقدرة على الحياة في الأرض وفي باطن وفي خارج الأرض أيضاً . وأنه يملك الحركة في هذه المجالات بأسرع مما يملك البشر . وأن منه الصالحين المؤمنين ، ومنه الشياطين المتمردين .

وأنه يرى بني آدم وبنو آدم لا يرونه ــ في هيئته الأصلية ــ وكم من خلائق ترى الإنسان ولا يراها الإنسان . وأن الشياطين منه مسلّطون على بني الإنسان يغوونهم ويضلونهم وهم قادرون على الوسوسة لهم ، والإيحاء بطريقة لا نعلمها . وأن هؤلاء

الشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الذاكرين . وأن الشيطان مع المؤمن إذا ذكر الله خنس وتوارى ، وإذ غفل برز فوسوس له ، وأن المؤمن أقوى بالذكر من كيد الشيطان الضعيف . وأن عالم الجن يحشر مع عالم الإنس ؛ ويحاسب ؛ ويجازى بالجنة وبالنار ، كالجنس الإنساني . وأن الجن حين يقاسون إلى الملائكة يبدون خلقاً ضعيفاً لا حول لهم ولا قوة » .

كلمة في الآيتين :

الآيتان اللتان مرّتا معنا هما الآيتان الأوليان في مجموعتهما وهما ترتبطان بما قبلهما بروابط شتى :

١ ــ فهما تكمّلان ذكر سنن الله في الصوارف عن الهداية :

ففي مقدمة الفقرة عرفنا أن من سنن الله أن يقلّب قلوب وأبصار الذين تقوم عليهم الحجة ابتداءً ويرفضونها ، وفي هاتين الآيتين يبين الله ــ عز وجل ــ أن من الصوارف عن الإيمان إيحاءات الإنس والجن ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة والذين يقترفون المعاصي يسمعون لهذه الإيحاءات ، وإذن فليست قلة الآيات سبب عدم الإيمان ، وإنما هي المعاصي والكفر بالآخرة والتمّرد على الله ورفض الحجة .

٢ ــ يرى بعضهم أن كلمة (وكذلك) في الآية الأولى من المجموعة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ **كذلك زينا لكل أمة عملهم** ﴾ في الآية السابقة على الفقرة ، ذكر ذلك الألوسي ، فالآية على هذا ترتبط بما قبلها من حيث إنّها تعرض بعض سنن الله ــ عز وجل ــ كما عرضت آية سابقة والألوسي يرجح أن (وكذلك) في الآية كلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عمّا يشاهد » فهي تعزية له على طلب الآيات من الكافرين وتعليقهم الإيمان عليها

فوائد :

١ ــ وصف الله ــ عز وجل ــ ما يوحي به شياطين الجن والإنس بـ (زخرف القول غروراً) ولو أنك تأملت ما تقذف به المطابع في العالم وما يقوله الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر من فلسفات وآراء ، لوجدته كلاماً مزخرفاً فارغاً ، ظاهره غرور وباطنه فراغ ، فليحذر المسلم أن يصغي بقلبه لكلام الذين لا يؤمنون بالآخرة .

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **شياطين الإنس والجن** ... ﴾ يذكر ابن كثير حديثاً

عن أبي ذرّ حول هذا الموضوع ويذكر روايات كثيرة له ثم يقول : **فهذه** طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته ، ونحن نجتزىء بذكر رواية منه :

روى ابن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر **تعوّذت** من شياطين الجنّ والإنس » ؟ قال : يا رسول الله ، وهل للإنس شياطين ؟ قال : « نعم ﴿ **شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ » .

أقول : وبعد كلام كثير قال ابن كثير :

وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من حديث أبي ذر للإنس شياطين منهم . وشيطان كل شيء ماردُه ، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال « الكلب الأسود شيطان » . ومعناه ــ والله أعلم ــ شيطان في الكلاب . وقال ابن جريج : قال مجاهد في تفسير هذه الآية : كفّار الجنّ شياطين يوحون إلى شياطين الإنس ــ كفار الإنس ــ زخرف القول غروراً .

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قدمت على المختار (أي ابن أبي عبيد الثقفي) فأكرمني وأنزلني حتى كاد يتعاهد مبيتي بالليل . قال لي : اخرج إلى الناس فحدثهم ، قال : فخرجت ، فجاء رجل فقال : ما تقول في الوحي ؟ فقلت : الوحي وحيان : قال الله تعالى : ﴿ **بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ قال : فهمُّوا بي أن يأخذوني ، فقلت لهم : ما لكم ذاك ، إني مفتيكم وضيفكم ، فتركوني ، وإنمّا عرّض عكرمة بالمختار وهو ابن أبي عبيد ــ قبّحه الله ــ ، وكان يزعم أنّه يأتيه الوحي ، وقد كانت أخته صفيّة تحت عبد الله بن عمر ، وكانت من الصالحات ، ولمّا أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه ، فقال : صدق ، قال الله تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ » .

ولنعد إلى سياق المجموعة وسياق الفقرة :

الكافرون يطلبون آيات ، وشياطين الجن والإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، وأنت أيها المسلم أين محلك ؟ وما هو موقفك ؟ وهل صحيح أنّه **لم تنزل** آيات ؟ وما دام للشياطين إيحاءات فليحذر المسلم منها ؟ إن الآيات اللاحقة في **المجموعة** تبيّن **هذا** كله :

فالمسلم لا يقبل حَكَماً إلا الله ، والقرآن كلام الله صدق وعدل ، والمسلم يعلم أن أكثر أهل الأرض ضالون ، ولذلك فإنّه لا يطيع أحداً في معصية الله :

ولنمر الآيات :

﴿ **أفغير الله أبتغي حَكَماً** ﴾ أي : قل يا محمد أفغير الله أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منّا من المبطل ﴿ **وهو الذي أنزل إليكم الكتاب** ﴾ . أي : القرآن المعجز ﴿ **مفصّلًا** ﴾ . أي : مبيّناً فيه الفصل بين الحق والباطل والشهادة لرسول الله ﷺ بالصدق وعلى الكافر بالافتراء ﴿ **والذين آتيناهم الكتاب** ﴾ . أي : كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿ **يعلمون أنه منزل من ربك بالحق** ﴾ عضّد الدّلالة على أنّ القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنّه حقٌّ لتصديقه ما عندهم وموافقته له ﴿ **فلا تكوننَّ من الممترين** ﴾ . أي : من الشاكّين فيه أيها السامع، أو فلا تكوننَّ من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ، ولا يشكّك جحودُ أكثرهم وكفرهم به ﴿ **وتمت كلمة ربك** ﴾ . أي : ما تكلم به ، أي تمّ كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد ﴿ **صدقاً وعدلًا** ﴾ صدقاً في وعده ووعيده وإخباره ، وعدلًا في أمره ونهيه وتشريعه ﴿ **لا مبدّل لكلماته** ﴾ . لا أحد يبدّل شيئاً من ذلك ﴿ **وهو السّميع العليم** ﴾ . أي : السّميع لإقرار من أقرّ ، العليم بإصرار من أصرّ ، أو السميع لما يقولون ، العليم بما يضمرون ﴿ **وإن تطع أكثر من في الأرض** ﴾ . أي : الكفار لأنهم الأكثرون ﴿ **يضلّوك عن سبيل الله** ﴾ . أي : عن دينه ﴿ **إن يتبعون إلا الظنّ** ﴾ فيما هم فيه فليسوا على علم ولا عقل وإن ادّعوا ذلك ﴿ **وإن هم إلا يخرصون** ﴾ . أي : يكذبون على الله فيما يدّعونه من ادّعاءات يمدحون بها أنفسهم فيما هم عليه ﴿ **إن ربّك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ . أي : هو يعلم الكفار والمؤمنين ، وهو أعلم بالمهتدي والضال ، فلا تفيد عنده الدعاوى .

كلمة في السياق :

حدّدت هذه الآيات موقف المسلم من اقتراحات الكافرين ومن وساوس الشياطين ، وبينت أنه إن أطاع أكثر أهل الأرض فإنّه يضل ، وأن الكفر لا يقوم على شيء يقيني أبداً بل مبناه على الظنون والأوهام وفي هذا السياق يأتي كلام عن أكل ما ذكر اسم الله عليه فما محلّ ذلك في السياق :

إن الآيات السابقة على هذه الآيات ذكرت : ﴿ **شياطين الإنس والجن يوحي**

بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾

﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾

وتأتي الآن آيات فيها : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ . فالآيات اللاحقة إذن تقدم لنا نماذج على وساوس الشياطين التي لا يصح لمسلم أن يصغي إليها أو يطيعها . هذه واحدة :

والآيات السابقة تبين أن الله ـــ عز وجل ـــ قد أنزل إلينا الكتاب مفصلاً ، وأن هذا الكتاب عدل وصدق ، وفي هذا السياق يأتي نموذج على ما يأمر به هذا الكتاب من صدق وعدل وعلى ما فيه من تفصيل ولذلك نجد في الآيات قوله تعالى : ﴿ **وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم** ﴾ . ثمّ إن سورة الأنعام محورها من سورة البقرة ﴿ **كيف تكفرون بالله ... هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ...** ﴾ فالآيات هنا تأتي لتحدّد لنا الكيفية المشروعة لنوع من أنواع الاستفادة من بعض ما خلقه الله لنا .

إن السّورة التي تناقش الكافرين بالله في كفرهم تبين في الوقت نفسه مقتضيات الإيمان الحق بالله ، ومن ذلك أن يذكر اسم الله على الذبائح ، ولذلك نجد أن الآية الأولى فيما يأتي تقول ﴿ **فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين** ﴾ فلنر الآيات :

﴿ **فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين** ﴾ . أي : إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه خاصة ، أي على ذبحه ، دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم المزعومة ، أو مات حتف أنفه ، أو لم يذكر اسم الله عليه ، دلّ ذلك على أن مقتضى الإيمان بالله الالتزام بشرعه في موضوع الذبائح ﴿ **وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم عليه** ﴾ . أي : وأي غرض لكم في ألّا تأكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه ﴿ **وقد فصّل لكم** ﴾ . أي : بيّن لكم ﴿ **ما حرّم عليكم** ﴾ مما لم يحرّم ﴿ **إلا ما اضطررتم إليه** ﴾ . أي : إلا ما اضطررتم إلى أكله مما حرّم عليكم ، فإنه حلال لكم في حال الضرورة ، والاضطرار شدّة الحاجة إلى الأكل ﴿ **وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم** ﴾ . أي : يضلّون فيحرّمون ويحلّلون بأهوائهم وشهواتهم من غير تعلّق بشريعة ، وعن غير علم أيّ علم ﴿ **إن ربك هو أعلم بالمعتدين** ﴾ . أي : المتجاوزين الحق إلى الباطل ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه** ﴾ . أي : علانيته وسرّه ، **ومن** علانيته الزّنا بالمحلّات العمومية ، ومن سرّه الزنا السريّ في البيوت ، أو المراد بالظاهر الشرك الجلي ، وبالباطن الشرك الخفي ، أو المعاصي الظاهرة كلها ، والمعاصي الباطنة

كلها كالحسد وغيره ﴿ **إن الذين يكسبون الإثم سيجزون** ﴾ . أي : يوم القيامة ﴿ **بما كانوا يقترفون** ﴾ . أي :بما كانوا يكتسبون في الدنيا ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه** ﴾ . أي : عند الذبح ﴿ **وإنه لفسق** ﴾ . أي : وإنّ أكله لفسق ﴿ **وإنّ الشّياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ . أي : ليوسوسون إلى أوليائهم من الكافرين والمشركين ﴿ **ليجادلوكم** ﴾ . أي : ليناقشوكم ﴿ **وإن أطعتموهم** ﴾في استحلال ما حرّمه الله ﴿ **إنكم لمشركون** ﴾ لأنّ من اتبع غير الله في دينه فقد أشرك به .

تعليق :

إن هذه الآيات توضح كيف أن الإيمان بالله له مستلزماته وله مقتضياته ، وأن الإيمان بالله يقتضي إيماناً بشريعته وتسليماً لها ، ورفضاً لشرائع غيره لاحِظ قوله تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ هذا النص كما سنرى في الفوائد نزل في مناقشة الكافرين للمسلمين في شأن شريعة الذبائح ، فإذا كان هذا هو الشأن فأي غفلة غفلها المسلمون حتى استطاع أعداؤهم أن يخدعوهم عن شريعة الله تحت شعارات العلمانية ، وفصل الدين عن الدولة ، وإبعاد الدين عن السياسة ؟ أي خديعة هذه الخديعة ؟ حتى أصبحت الدساتير والقوانين والأعراف والقيم والتصورات وغير ذلك لا تنضبط بإسلام ، ولا تحكم به ، ولا تبالي .

ألا ما أكثر الدوائر التي تسهر على هذا وتعمل له ، وما أكثر الذين يساعدون هذه الأوضاع على الاستمرار ، وما أكثر الذين يبررون لأنفسهم القعود عن العمل لتغيير هذه الأوضاع ، بل ما أكثر الذين يبررون لأنفسهم مسايرة هذه الأوضاع والتعاون معها .

وفي كثير من الأحيان تتظاهر الدوائر الماكرة ــ وهي تجهد لتعطيل الإسلام وإحلال غيره محله ــ أنها تحترم الدين ولا تحاربه ، وهو أسلوب أثبت قدرته على إنهاء الدين وتجميده بحيث لم يَفُقْهُ في ذلك إلا الأسلوب الشيوعي حديثاً ، وأسلوب محاكم التفتيش قديماً. يقول صاحب الظلال :

« وإن كان ينبغي أن ندرك دائماً أسلوب الجاهلية التي تقيم نظاماً أرضياً ، الحاكمية فيه للبشر لا لله ثم تزعم أنها تحترم الدين وتستمد منه أوضاعها الجاهلية .. أن ندرك أن هذا الأسلوب من أخبث الأساليب وأمهرها على الإطلاق ! ولقد عمدت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية إلى هذا الأسلوب في المنطقة التي كانت يوماً تحكم بشريعة الله بعدما تبين لها فشل التجربة التركية التي قام بها البطل الذي صنعوه

هناك ! .. لقد أدت لهم هذه التجربة دوراً هاماً في تحطيم الخلافة كآخر مظهر للتجمع الإسلامي في الأرض ، ولكنها بعلمانيتها السافرة قد عجزت عن أن تكون نموذجاً يؤثر في بقية المنطقة . لقد انخلعت من الدين فأصبحت أجنبية عن الجميع ، الذين ما يزال الدين عاطفة غامضة في قرارات نفوسهم .. ومن ثم غيّرت الصليبية والصهيونية في التجارب الكمالية التركية اللاحقة . فوضعت على هذه التجارب ستاراً من الدين وتقيم له أجهزة دينية تضفي عليه الصفة ، سواء بالدعاية المباشرة ، أو باستنكار جزئيات هزيلة يوهم استنكارها أن ماعداها سليم وكان هذا من أخبث الكيد الذي تكيده الإنس والجن لهذا الدين ..

على أن الأجهزة الصليبية والصهيونية التي تعمل بكل ثقلها في هذه الفترة ، وبكل تضامنها وتجمعها ، وبكل تجاربها وخبرتها ، تحاول أن تستر الغلطة في التجربة التركية ذاتها ، بأن تزعم أن هذه التجربة ذاتها كانت حركة من حركات البعث الإسلامي وأننا يجب ألا نصدقها فيما أعلنته عن نفسها من أنها (علمانية) تنبذ الدين وتعزله عن الحياة عزلًا !

ويجهد المستشرقون (وهم الأداة الفكرية للاستعمار الصليبي الصهيوني) في تطهير التجربة الكمالية من تهمة الإلحاد جهداً كبيراً .. ذلك أن انكشاف إلحادها جعلها تؤدي دوراً محدوداً .. وهو سحق آخر مظهر للتجمع الإسلامي في الأرض .. ولكنها عجزت بعد ذلك أن تؤدي الدور الآخر ـــ الذي تحاول أن تؤديه التجارب التالية في المنطقة ـــ من تفريغ المفهومات الدينية والحماسة الدينية في أوضاع وأشكال جاهلية ! ومن تبديل الدين باسم الدين ! ومن إفساد الخلق والمقومات الفطرية الأصلية باسم الدين أيضاً ! ومن إلباس الجاهلية ثوب الإسلام لتؤدي به دورها في كل البقاع التي ما يزال فيها عاطفة دينية غامضة ، وقيادتها بهذا الخطام المزور الخادع إلى محاضن الصليبية والصهيونية .. الأمر الذي عجزت عنه الحملات الصليبية والصهيونية طوال ألف وثلاث مئة عام ، من الكيد للإسلام ! » .

فوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم ، وغيره عن النّواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال : « الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلّع الناس عليه » .

٢ – الميتة حرام إلا للمضطر ، وما ذبحه المشركون حرام ، وما ذبحه مسلم فذكر غير اسم الله عليه فهو حرام ، وقد رأينا في سورة المائدة حلّ ذبيحة اليهودي والنصراني للمسلم ، وهناك قضية خلافية هي ما الحكم في ذبيحة المسلم إذا نسي أن يذكر اسم الله عليها ؟ أو ترك التسمية عمدا ؟ في هذه القضية ثلاثة اتجاهات ذكرها ابن كثير :

الاتجاه الأول : أن الذبيحة لاتحل سواء في ذلك متروك التسمية سهواً ، أو عمداً ، وعلى ذلك الكثير وهو اختيار أبي ثور وداود الظاهري ، واختاره بعض متأخري الشافعية .

الاتجاه الثاني : أنّ المسلم لايشترط التسمية في حقه بل هي مستحبة لأن المسلم يذبح على اسم الله سمّى أو لم يسمّ ، فإن تركت التسمية عمداً ، أو نسياناً لا يضر وهو مذهب الشافعي وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام مالك ، وعن الإمام أحمد ...

الاتجاه الثالث : إنْ تَرَك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضرّ ، وإن تركها عمداً لم تحل . هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك ، وأحمد ، وبه يقول أبو حنيفة ، وأصحابه ، وإسحٰق بن راهويه وكثير من السلف .

وكل من ذهب إلى اتجاه من هذه الاتجاهات وجّه النصوص إليها . قال النّسفي : ومن حق المتديّن أن لايأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لما في الآية من التشديد العظيم .

٣ – وفي سبب نزول الآية : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم** ﴾ يذكر ابن كثير رواية ويردّها ثم ذكر اتجاهاً آخر ، وآخر ما قاله في هذا الموضوع : وقال ابن جُريج : قال عمرو بن دينار .. عن عكرمة : إن مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم ، وكاتبتهم فارس . وكتبت فارس إلى مشركي قريش : إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتّبعون أمر الله ، فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكلونه ، وما ذبحوه هم يأكلونه . فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء ، فأنزل الله ﴿ **وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ ونزلت ﴿ **يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ . وقال السّدي : في تفسير هذه الآية : إن المشركين قالوا للمسلمين : كيف تزعمون أنكم تتّبعون مرضاة الله وما ذبح الله فلا تأكلونه ، وماذبحتم أنتم تأكلونه ؟ فقال الله تعالى ﴿ **وإن أطعتموهم** ﴾ فأكلتم الميتة ﴿ **إنكم**

لمشركون ﴾ وهكذا قال مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف رحمهم الله .

وقوله تعالى ﴿ **وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ أي : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدّمتم عليه غيره . فهذا هو الشرك كما قال تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ الآية (التوبة : ٣١) . **وقد روى** الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال : يارسول الله ما عبدوهم . **فقال** : « بلى ، إنهم أحلّوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتّبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » . اهـ كلام ابن كثير . فإذا كان اتّباع رجال الدين إذا أحلّوا الحرام أو حرّموا الحلال شركاً فكيف بطاعة الزعماء والساسة والمجالس التشريعية وغير ذلك في تعطيل شريعة الله أو في إلغائها ، أو في سنّ التشريعات المخالفة لها مع التأييد لهم والدّفاع عنهم واعتقاد أنّ ما فعلوه هو الحق .

٤ - اتضح من الآيات الأخيرة أن الإيمان بالله يقتضي إيماناً بشرعه وتسليماً له ، وأن عدم الإيمان والتسليم بشرعه ، وطاعة الكافرين في الانحراف عنه ورفضه شرك كبقية أنواع الشرك ، وهذا يؤكد لنا أن سورة الأنعام تفنّد الكفر ، وما يقوم على الكفر ، وتبني الإيمان بالله وما يقوم على هذا الإيمان .

عودة إلى السياق :

بعد أن عرفنا أنّه لا إيمان إلا بمشيئة الله ، وعرفنا حكمة الله وسننه في إضلال من يضل ، ورأينا نموذجاً على الهداية والضلال في موضوع الذبائح ، وعرفنا أن هذا القرآن حق وعدل ، بعد أن عرفنا هذا كله ؛ فاستقرّت في القلب قيمة الهداية الربانية ، تأتي الآن آية تبيّن فضل الله على من هداه ؛ وبذلك تنتهي المجموعة الأولى من الفقرة :

﴿ **أوَ مَن كان ميتاً فأحييناه** ﴾ . أي : أو من كان كافراً فهديناه لأن الإيمان حياة القلوب ﴿ **وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس** ﴾ . أي مستضيئاً به والمراد به **اليقين** ﴿ **كمن مَثَلُه في الظلمات** ﴾ . أي : كمن صفته في الظلمات يخبط فيها ﴿ **ليس بخارج منها** ﴾ . أي : لايفارقها ولا يتخلّص منها . والآية عامّة في كلّ من هداه الله ، وفي كل من أضلّه الله ، فبيّن أن مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي وجعل مستضيئاً يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان ، ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات لايتخلص منها ﴿ **كذلك** ﴾ . أي : كما زين للمؤمن إيمانه ﴿ **زُيّن للكافرين** ﴾ . أي : بتزيين الله ﴿ **ما كانوا يعملون** ﴾ أي : أعمالهم .

فائدة :

- بمناسبة قوله تعالى :﴿ **وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس** ﴾ يروي ابن كثير هذا الحديث يقول : وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم رش عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضلّ» .

تعليق :

بمناسبة هذه الآية يقول صاحب الظلال :

(إن هذه العقيدة تنشىء في القلب حياة بعد الموت ، وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات . حياة يعود بها تذوق كل شيء ، وتصور كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديداً كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي نوّره الإيمان .

هذه التجربة لا تنقلها الألفاظ . يعرفها فقط من ذاقها .. والعبارة القرآنية هي أقوى عبارة تحمل حقيقة هذه التجربة ؛ لأنها تصوّرها بألوان من جنسها ومن طبيعتها .

إن هذا الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية ، التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب . فهو موت .. وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله .. فهو موت .. وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية .. فهو موت ..

والإيمان اتصال ، واستمداد ، واستجابة .. فهو حياة ..

إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراف والاطلاع .. فهو ظلمة .. وختم على الجوارح والمشاعر .. فهو ظلمة .. وتيه في التيه وضلال .. فهو ظلمة ..

وإن الإيمان تفتح ورؤية ، وإدراك واستقامة .. فهو نور بكل مقومات النور . إن الكفر انكماش وتحجُّر .. فهو ضيق .. وشرود عن الطريق الفطري الميسر .. فهو عسر .. وحرمان من الاطمئنان إلى الكنف الآمن .. فهو قلق ..

وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود ..

وما الكافر ؟ إن هو إلا نبتة ضالة لا وشائج لها في تربة هذا الوجود ولا جذور .. إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود ، فهو منقطع الصلة بالوجود . لا تربطه به إلا

روابط هزيلة من وجوده الفردي المحدود . في أضيق الحدود . في الحدود التي تعيش فيها البهيمة . حدود الحس وما يدركه الحس من مظاهر هذا الوجود !

إن الصلة بالله ، والصلة في الله ، لتصل الفرد الفاني بالأزل القديم والأبد الخالد . ثم تصله بالكون الحادث والحياة الظاهرة .. ثم تصله بموكب الإيمان ، والأمة الواحدة الضاربة في جذور الزمان ، الموصولة على مدار الزمان .. فهو في ثراء من الوشائج وفي ثراء من الروابط . وفي ثراء من « الوجود » الزاخر الممتد اللاحب الذي لا يقف عند عمره الفردي المحدود .

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور ، فتتكشف له حقائق هذا الدين ، ومنهجه في العمل والحركة ، تكشفاً عجيباً .. إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يجده الإنسان في قلبه حين يجد هذا النور .. مشهد التناسق الشامل العجيب في طبيعة هذا الدين وحقائقه . ومشهد التكامل الجميل الدقيق في منهجه للعمل وطريقته . إن هذا الدين لا يعود مجموعة معتقدات وعبادات وشرائع وتوجيهات .. إنما يبدو « تصميماً » واحداً متداخلاً متراكباً متناسقاً .. متعاشقاً يبدو حياً يتجاوب مع الفطرة وتتجاوب معه في ألفة عميقة وفي صداقة وثيقة ، وفي حب ودود !

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور ؛ فتتكشف له حقائق الوجود ، وحقائق الحياة ، وحقائق الناس ، وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وتجري في عالم الناس .. تتكشف له في مشهد كذلك رائع باهر .. مشهد السُنّة الدقيقة التي تتوالى مقدماتها ونتائجها في نظام محكم ولكنه فطري ميسر .. ومشهد المشيئة القادرة من وراء السُنّة الجارية تدفع بالسنة لتعمل وهي من ورائها محيطة طليقة .. ومشهد الناس والأحداث وهم في نطاق النواميس وهي في هذا النطاق أيضاً .

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر وفي كل حدث يجد الوضوح في نفسه وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته ، ويجد الوضوح فيما يجري حوله سواء من سُنّة الله النافذة ، أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة . ويجد تفسير الأحداث والتاريخ في نفسه وعقله وفي الواقع من حوله كأنه يقرأ من كتاب .

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه .

ويجد الراحة في باله وحاله ومآله . ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها ، وفي استقبال الأحداث واستدبارها . ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين) .

كلمة في السياق :

١ - بالآية التي مرّت معنا أخيراً تنتهي المجموعة الأولى من الفقرة الثانية من المقطع الأول من القسم الثاني من سورة الأنعام : بدأت المجموعة بآية مبدوءة بكلمة (**وكذلك**) وستأتي مجموعة أخرى مبدوءة بكلمة (**وكذلك**) فكأن (**وكذلك**) الثانية معطوفة على (**وكذلك**) الأولى فيكون السياق الخاص للفقرة على الشكل التالي : يقسم الكافرون أنّه لو جاءتهم آية ليؤمِنُنَّ بها ، وليس هذا صحيحاً بل هذا جزء من مكر وخداع ، وصد عن سبيل الله بزخرف من القول ، وهذا ليس مستغرباً منهم ، فإن كل نبي كان له عدو من شياطين الإنس والجن ، وكل قرية فيها أكابر مجرميها ليمكروا فيها بهذا المعنى الأخير تبدأ المجموعة الثانية .

والدّليل على أن السياق لازال استمراراً لموضوع طلب الكافرين آية أن الآية الثانية من هذه المجموعة هي قوله تعالى : ﴿ **وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤتىٰ مثل ما أوتي رسل الله** ﴾ ودليل آخر وهو أن الله - عز وجل - قال في مقدمة هذه الفقرة : ﴿ **وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ۝ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ وسيأتي في هذه المجموعة قوله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ...** ﴾ .

٢ - يلاحظ أن الآية الأخيرة من المجموعة السابقة ختمت بقوله تعالى :

﴿ **كذلك زُيّن للكافرين ما كان يعملون** ﴾ ثمّ جاءت الآية ﴿ **وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها** ﴾ مما يوحي بالصلة القوية بين بداية المجموعة اللاحقة ونهاية المجموعة السابقة ويجعل لاحتمال العطف القريب وجهاً قوياً .

٣ - يُلاحظ أن المجموعة اللاحقة تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس** ﴾ وهذا يذكرنا بالآية الأولى في المجموعة السابقة ﴿ **شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ .

٤ - وسنرى أن المجموعة اللاحقة تكمّل ذكر أسباب الضلال فلنرها :

المجموعة الثانية

﴿ **وكذلك** ﴾ أي : وكما جعلنا في مكة مجرمين كباراً ليمكروا فيها ﴿ **جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها** ﴾ . أي : ليتجبروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصي وخص الأكابر - وهم الرؤساء - لأن ما فيهم من الرياسة والسّعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم ﴿ **وما يمكرون إلا بأنفسهم** ﴾ لأن مكرهم يحيق بهم وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ووعد لهم بالنّصرة ﴿ **وما يشعرون** ﴾ أنّه يحيق بهم وبال مكرهم ﴿ **وإذا جاءتهم** ﴾ . أي : هؤلاء الأكابر ﴿ **آية** ﴾ . أي : معجزة أو آية من القرآن تأمرهم بالإيمان ﴿ **قالوا لن نؤمن حتى نؤتىٰ مثل ما أوتي رسل الله** ﴾ . أي : مثل ما أعطوا من الوحي والرسالة والآيات ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ . أي : هو أعلم بمن يصلح للرّسالة والنّبوة ﴿ **سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله** ﴾ . أي : ذلّ وهوان يوم القيامة ﴿ **وعذاب شديد** ﴾ في الدارين من القتل والأسر وعذاب النّار ﴿ **بما كانوا يمكرون** ﴾ .

أي : في الدنيا ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ . أي : يوسّعه وينور قلبه ﴿ **ومن يرد** ﴾ الله ﴿ **أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً** ﴾ . أي : بالغاً في الضيق ﴿ **كأنما يصّعّد في السماء** ﴾ . أي : كما يضيق صدر الذي يصّعّد في السماء حتى ليصل إلى درجة الاختناق ﴿ **كذلك يجعل الله الرّجس** ﴾ . أي : العذاب في الآخرة واللعنة في الدنيا ﴿ **على الذين لا يؤمنون** ﴾ . أي : على الكافرين ﴿ **وهذا صراط ربك** ﴾ . أي : طريقه الذي اقتضته الحكمة وسنته في شرح صدر من أراد هدايته ، وجعله ضيقاً لمن أراد ضلاله أو : وهذا الدين أو وهذا القرآن طريق ربك ﴿ **مستقيماً** ﴾ أي عادلًا مطّرداً لا عوج فيه ﴿ **قد فصّلنا الآيات لقوم يذّكرون** ﴾ أي لقوم يتعظون ﴿ **لهم** ﴾ . أي : لهؤلاء الذين يذّكّرون ﴿ **دار السلام** ﴾ . أي : دار الله يعني الجنة أضافها إلى نفسه تعظيماً لها أو دار السلامة من كل آفة وكدر أو المراد بالسلام التحية فهي دار السلام لأن التحية فيها السلام ﴿ **عند ربهم** ﴾ . أي : في ضمانه ﴿ **وهو وليّهم** ﴾ . أي : محبهم أو ناصرهم على أعدائهم ﴿ **بما كانوا يعملون** ﴾ . أي : بأعمالهم أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون ، أو هو ولينا في الدنيا بتوفيق الأعمال ، وفي العقبى بتحقيق الآمال ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس** ﴾ . أي : أضللتم منهم كثيراً وجعلتموهم أتباعكم ﴿ **وقال أولياؤهم من الإنس** ﴾ . أي : الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم ﴿ **ربنا استمتع بعضنا ببعض** ﴾ . أي : انتفع الجنّ

بالإنس حيث دلّوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها ، وانتفع الجنّ بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم في إغوائهم ﴿ **وبلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا** ﴾ يعنون يوم البعث وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشّياطين ، واتّباع الهوى ، والتكذيب بالبعث ، وتحسّر على حالهم ﴿ **قال النار مثواكم** ﴾ . أي : منزلكم ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي يخلدون في عذاب النار الأبد كله ﴿ **إلا ماشاء الله** ﴾ إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب السّعير إلى عذاب الزمهرير أو إلى الحميم ﴿ **يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾ ، ﴿ **إنّ ربك حكيم** ﴾ فيما يفعل بأوليائه وأعدائه ﴿ **عليم** ﴾ بأعمالهم فيجزي كلّاً على وفق عمله .

كلمة في السياق :

في مقدمة الفقرة التي نحن فيها ، عرفنا من أسباب الضلال الرفض لدعوة الله ابتداءً مع قيام الحجة ، وعرفنا في المجموعة الأولى من أسباب الضلال إيحاءات شياطين الإنس والجن ، والكفر بالآخرة ، وارتكاب الآثام ، واتباع الظنون ، وعرفنا في هذه المجموعة أن من أسباب الضلال الكبر ، ومنافسة الأنبياء ، والمكر برسل الله وبالمؤمنين ، وعدم التذكر والاتعاظ ، وختمت المجموعة بذكر سبب آخر وهو استمتاع شياطين الإنس والجن ببعضهم بعضاً ، إنّ المتعة النفسية المحرّمة سبب من أسباب الضلال . وإذن فليست العلّة في ضلال الضالين هو قلة الآيات ، بل العلّة في العقلية الكافرة ، والنفسية الكافرة ، والسلوك المجرم الكافر ،فإذا ما استقر السياق على ذلك تأتي المجموعة الثالثة في الفقرة لتبين أن موالاة الشياطين لبعضهم بعضا سببها الكسب السيء لهؤلاء وهؤلاء ، فهناك صفة مشتركة تجمع بين الجميع ثمّ يسير السياق كما سنراه ، وقبل أن ننتقل إلى المجموعة الثالثة في الفقرة الثانية من المقطع الأول من القسم الثاني من سورة الأنعام فلنَر بعض الفوائد المتعلقة بالمجموعة التي مرّت معنا .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ يقول ابن كثير في شأن رسولنا عليه الصلاة والسلام : (هذا وهُم يعترفون بفضله ، وشرفه ونسبه ،وطهارة بيته ومرباه ومنشئه - صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه - حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه « الأمين » ، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار « أبو سفيان » حين سأله « هرقل » ملك الروم : وكيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال :

هل كنتم تتهمُونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، الحديث بطوله الذي استدّل به ملك الروم بطهارة صفاته عليه الصلاة والسلام على صدق نبوته وصحّة ما جاء به .
وروى الإمام أحمد .. عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم . » . انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعي وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً ، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه » . وروى الإمام أحمد عن المطّلب بن أبي وداعة قال : قال العبّاس : بلغه ﷺ بعض ما يقول النّاس ، فصعد المنبر فقال : « من أنا ؟ » قالوا : أنت رسول الله ، قال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً » صدق صلوات الله وسلامه عليه . وفي الحديث أيضاً المرويّ عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : قلّبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلًا أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم » . رواه الحاكم والبيهقي . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، فابتعثه برسالته ، ثمّ نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيّه ، يقاتلون على دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيّئاً فهو عند الله سيء » وروى الإمام أحمد أيضاً عن سلمان قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك » قلت : يا رسول كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال : « تبغض العرب فتبغضني » . وذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية .. عن أبي حسين قال : أبصر رجل ابن عباس وهو داخل من باب المسجد ، فلمّا نظر إليه راعه ، فقال : من هذا ؟ قالوا : ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ فقال : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾) وفي مقدمة كتابنا (الرسول) شرحنا موضوع (التلقي عن الله) وكونه يحتاج إلى استعداد خاص ليس كل إنسان مرشحاً له ، وكيف أن الاتصال بعالم الغيب لا يتحمّله كلّ عقل وكلّ قلب ، ومن ثم فإن الله

اصطفى من البشر رسلاً عنه إلى خلقه ، وجعل لهم علامات تدلّ على صدقهم ، وقد كان كتابنا (الرسول) كله نموذجاً وشرحاً وتطبيقاً لهذه العلامات في رسالة رسولنا عليه الصلاة والسلام ، الذي لم يجعل الله قلباً كقلبه ، ولا روحاً كروحه .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ . يذكر ابن كثير روايات متعدّدة لحديث ثم يقول فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً . ونحن نجتزىء منها برواية هي :

روى عبد الرزاق عن أبي جعفر قال : سئل رسول الله ﷺ : أي المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم ذكراً للموت ، وأكثرهم لما بعده استعداداً » قال : وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : « نور يُقذَف فيه ، فينشرح له وينفسح » . قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها ؟ قال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » . فهذه علامة إسلام المرء وعلامة إرادة الله به خيراً ، ومن تأمّل رأى ضعف هذا المعاني في عصرنا فلا حول ولا قوة إلا بالله .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَّد في السماء** ﴾ نقول : اختلفت عبارات المفسرين القدماء في شرح هذه الآية ، لعدم وضوح ما اتّضح في عصرنا من أمرها ، وأحقُّ الحقِّ فيها ما قاله ابن كثير : (وقال ابن المبارك عن ابن جريج : ضيقاً حرجاً بلا إله إلا الله ، حتى لا يستطيع أن تدخله ، كأنما يصَّعَّد في السماء من شدة ذلك عليه .... وقال السّدي : ﴿ **كأنما يصّعّد في السماء** ﴾ من ضيق صدره) . أقول : وفي هذا النصّ معجزة من أبلغ المعجزات القرآنية ، وذلك أنّه تبيّن في عصرنا أنّ الضغط الجوي يخف كلما ارتفع الإنسان في الجو حتى يتلاشى ، وأن الإنسان كلما صعد في السماء ضاق صدره حتى يصل لدرجة الاختناق ، فتشبيه الحالة المعنوية بهذه الحالة الحسية التي لم تكن معروفة يوم نزول القرآن ، ولم تعرف إلا بعد ثلاثة عشر قرناً ونيف ، إن هذا لمعجزة عظيمة تشهد على أن هذا القرآن أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض) .

وإن مجيء هذه المعجزة في سياق الفقرة التي بدأت بذكر طلب الكافرين آية ، وفي سياق الفقرة التي وصفت القرآن بالتفصيل والعدل والصدق لَقضية ذات دلالة .

بين يدي المجموعة الثالثة :

ختمت المجموعة الثانية بقوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم ...** ﴾ لقد كان بين شياطين الإنس والجن في الدنيا صلة ووئام فما الذي جمعهم ؟ لقد جمعهم الكسب السيء والغرور بالدنيا .

بهذا المعنى تبدأ المجموعة الثالثة ، وهي الأخيرة في فقرتها ، ثمّ تسير المجموعة في تقرير بعض سنن الله ، وفي التعريف على الله ، وتنتهي المجموعة بأمر رسول الله ﷺ أن يعلن :

﴿ **قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ وتختم المجموعة بذلك ، لاحظ الصلة بين أول آية في المجموعة ، وآخر آية ، من خلال كلمة الظالمين : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً** ﴾ ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ فلنر المجموعة .

المجموعة الثالثة

﴿ **وكذلك نوليّ بعض الظالمين بعضاً** ﴾ . أي : نجعل بعضهم أولياء بعض ، أو نتبع بعضهم بعضاً في النار ، أو نسلّط بعضهم على بعض ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ . أي : بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي ﴿ **يا معشر الجن والإنس** ﴾ . أي : يقال لهم يوم القيامة هذا على جهة التوبيخ ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي** ﴾ . أي : يقرؤون كتبي ﴿ **وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ . أي : يوم القيامة ﴿ **قالوا شهدنا على أنفسنا** ﴾ . أي : بوجوب الحجة علينا ، وتبليغ الرّسل إلينا ﴿ **وغرّتهم الحياة الدنيا** ﴾ فشغلتهم عن اليوم الآخر ، ومنعتهم عن الإيمان ﴿ **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ . أي : بالله ورسله ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل ، وقراءة الآيات ﴿ **أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** ﴾ أي : إن شأن الله أنّه لم يكن مهلك القرى بسبب ظلم أقدموا عليه ، إلا بعد إقامة الحجة ، أو إنه لم يكن ليهلك القرى ظالماً بمعنى أنّه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبّهوا برسول وكتاب ، لكان ظالماً وهو متعال عن الظلم ﴿ **ولكل** ﴾ . أي : من المكلفين ﴿ **درجات** ﴾ . أي : منازل ﴿ **ممّا عملوا** ﴾ . أي : من جرّاء أعمالهم وبهذه الآية استدل أبو يوسف ومحمد - رحمها الله - على أنّ للجّن الثواب بالطاعة فيدخلون الجنة لأنّه ذكر هذا النص عقيب ذكر الثقلين

الإنس والجن ﴿ **وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾ . أي : بساهٍ عن عملهم ﴿ **وربُّك الغني** ﴾ عن عباده وعن عبادتهم ﴿ **ذو الرحمة** ﴾ عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة ﴿ **إن يشأ يذهبكم** ﴾ أيها الظلمة ﴿ **ويستخلف من بعدكم ما يشاء** ﴾ . أي : من الخلق المطيع ﴿ **كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين** ﴾ . أي : من أولاد قوم آخرين ﴿ **إنَّ ما توعدون لآت** ﴾ . أي : إن الذي توعدونه من البعث والحساب والثواب والعقاب لكائن ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ . أي : بفائتين لنا بل سنحشركم، وهذا ردٌّ لقولهم من مات فقد فات ﴿ **قل يا قوم اعملوا على مكانتكم** ﴾ . أي : اعملوا على تمكّنكم من أمركم ، وأقصى استطاعتكم ، وإمكانكم ، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها ﴿ **إنّي عامل** ﴾ . أي : على مكانتي التي أنا عليها أي : اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي ، فإنّي ثابت على الإسلام ، وعلى مصابرتكم ، وهو أمر تهديد ووعيد ، ودليل ذلك ما بعده ﴿ **فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار** ﴾ . أي : فسوف تعلمون أيُّنا تكون له العاقبة المحمودة ، وهذا طريق في الإنذار ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ . أي : الكافرون . وبهذا انتهت الفقرة الثانية من المقطع الأول من القسم الثاني من سورة الأنعام .

فوائد :

١ - عند قوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم** .... ﴾ تثور معركة كلامية حول هل أرسل الله رسلًا للجن منهم أو أن الرسل جميعاً من الإنس ؟قال ابن كثير : (والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل كما قد نص على ذلك مجاهد ، وابن جريج ، وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف ، وقال ابن عباس : الرسل من بني آدم ، ومن الجن نُذُر . وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلًا ، واحتج بهذه الآية الكريمة وفيه نظر لأنها محتملة وليست بصريحة ....) .

٢ - وعند قوله تعالى : ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » .

كلمة في السّياق :

قلنا : إن الفقرة الثانية في هذا المقطع تتألف من مقدمة ، وثلاث مجموعات ، ولقد رأينا

تلاحم آياتها ، ونحب هنا أن نشير إلى الصلة بين مقدمتها وبين المجموعة الأخيرة :

بدأت الفقرة بقوله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها** ﴾ . ونلاحظ أنه في المجموعة الأخيرة قد جاء قوله تعالى : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** ﴾ مما يفهم منه أن الله لا يعذّب حتى تقوم الحجة،وإذ كان هؤلاء الكافرون يستحقون العذاب ، فإن الحجة عليهم قائمة ، وبالتالي فإن اقتراحهم الآيات لا محلّ له ، وقبل هذه الآية جاء قوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصُّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا** .. ﴾ ولذلك صلته بمقدمة الفقرة ، فإذا تذكرنا ما مرّ معنا من قبل حول السياق أدركنا شدة التلاحم بين آيات الفقرة .

تذكير ببعض معاني الفقرة : إن من جملة ما رأيناه في الفقرة أن علّة الضلال والكفر ليست قلة الآيات ، بل سبب ذلك الطغيان ، والافتراء على الله ، والكفر بالآخرة ، والعمل السيء ، وفي الفقرة بيان أن أكثرية أهل الأرض ضالة ، وأن الحكم العادل والصادق هو حكم الله في كتابه ، وفيها بيان أن الالتزام بشريعة الله هو مقتضى الإيمان ، وأن الانحراف عن شريعته شرك ، وأن الكفر موت ، والإيمان حياة ، وأن الله هو الأعلم حيث يضع رسالته ، وأن أكابر المجرمين يقفون ضد الرسل ، وفيها بيان علامة من يريد الله هدايته ، ومن يريد إضلاله ، وأن الهدى هداه وفيها بيان سنة الله في الإهلاك الدنيوي والأخروي ، وفيها بيان لمظاهر من قدرة الله فيها تحدٍ لمن لا يتّبعون شريعة الله ، وكل ذلك يأتي ضمن نسق محاورة الكفر وأهله ، والرد على أهله ، وتبيان مقتضيات الإيمان بالله ، وذلك محور سورة الأنعام كما رأينا ، ولننتقل إلى الفقرة الثالثة والأخيرة في المقطع الأول ، من القسم الثاني من سورة الأنعام :

بين يدي الفقرة الثالثة :

بدأ القسم الثاني بذكر مظاهر تدل على قدرة الله ، وعلى عناية الله بالإنسان ، ثمّ جاءت الفقرة الأولى تحدثنا عن شرك المشركين ، وفي المقدمة والفقرة تعجيب من شرك المشركين أفبعد كل الآيات التي تدلّ على الله ، أفبعد كلّ ما صنع الله للإنسان ، يشرك به المشركون وسارت الفقرة الأولى في سياقها . ثمّ جاءت الفقرة الثانية ورأينا الصّلة بينها وبين ما قبلها ، فما الصلة بينها وبين مقدمة المقطع ؟ لقد جاء في مقدمة المقطع :

﴿ **قد فصَّلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ ﴿ **قد فصَّلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾ ﴿ **إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ لاحظ الصلة بين هذه الآيات وبين بداية الفقرة الثانية : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننَّ بها** ﴾

لقد لفتت مقدمة المقطع النظر إلى الآيات قبل أن يعرض المقطع طلبهم للآيات وسار السياق حتى أوصلنا إلى الفقرة الثالثة :

الفقرة الأولى بدأت بقوله تعالى ﴿ **وجعلوا** ﴾ والفقرة الثانية بدأت بقوله تعالى ﴿ **وأقسموا** ﴾ والفقرة الثالثة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وجعلوا** ﴾ ثم لاحظ الصلة بين آخر آية في مقدمة المقطع . وأول آية في الفقرة الأخيرة :

آخر آية في مقدمة المقطع هي : ﴿ **وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ...** ﴾

لقد خلق الله - عز وجلّ - هذا للإنسان فماذا فعل الإنسان : ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ....** ﴾ لاحظ أن الآية الأخيرة في مقدمة المقطع تتحدث عن الحرث ، والآية الأولى في الفقرة الأخيرة تتحدث عن الحرث . فلنَر الفقرة الثالثة في المقطع .

« الفقرة الثالثة »

﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً** ﴾ . أي : جعلوا لله نصيباً مما خلق ولأصنامهم نصيباً ، دلَّ على ذلك ما بعده ﴿ **فقالوا هذا لله بزعمهم** ﴾ . أي : زعموا أنه لله ، والله لم يأمرهم بذلك ، ولا شرع لهم تلك القسمة ﴿ **وهذا لشركائنا** ﴾ . ﴿ **فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله** ﴾ . أي : لايصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قِرى الضيفان ، والتصدق على المساكين ﴿ **وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم** ﴾ بإنفاقهم عليها ، والإجراء على سنتها ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ . أي : ساء حكماً حكمهم ، في إيثار آلهتهم على الله ، وعملهم ما لم يشرع لهم . وفي قوله تعالى ﴿ **مما ذرأ** ﴾ إشارة إلى أن الله كان أولى ألا يكون لغيره شيء ، وأن يكون له الذرء كله ؛ لأنه هو الذي ذرأه ﴿ **وكذلك زَيَّن لكثير من المشركين** ﴾ . أي : كما زين لهم تجزئة المال زين لهم وأد البنات ﴿ **قتل أولادِهم شركاؤهم ليردوهم** ﴾ . أي : ليهلكوهم بالإغواء ﴿ **وليَلْبِسُوا عليهم دينهم** ﴾ . أي : وليخلطوا عليهم دينهم ،

ويشوهوه ، ودينهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل ، حتى زلّوا عنه إلى الشرك ﴿ **ولو شاء الله ما فعلوه** ﴾ لأن شيئاً ما لا يكون إلا بمشيئة الله ، فالكائنات كلها بمشيئته ﴿ **فذرهم ومايفترون** ﴾ . أي : فدعهم وما يختلقونه من الإفك ، أو فدعهم وافتراءهم ، لأنّ ضرر ذلك الافتراء عليهم ، لا عليك ولا علينا ﴿ **وقالوا هذه أنعام وحرث** ﴾ . أي : للأصنام ﴿ **حجرٌ** ﴾ أي حرام ﴿ **لا يطعَمُها إلا من نشاء بزعمهم** ﴾ الزعم : قول بالظن يشوبه الكذب ، وكانوا إذا عيّنوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا : لا يطعمها إلا من نشاء ، ثم لا يطعمونها إلا خدم الأوثان ، والرجال دون النساء ﴿ **وأنعام حُرّمت ظهورها** ﴾ هي البحائر ، والسوائب ، والحوامي ﴿ **وأنعام لايذكرون اسم الله عليها** ﴾ حالة الذبح ، وفي حالات أخرى ، وإنما يذكرون – إن ذكروا – أسماء الأصنام ﴿ **افتراء عليه** ﴾ . أي : قسّموا أنعامهم فقسم حجر ، وقسم لايركب ، وقسم لا يذكر اسم الله عليها ، ونسبوا ذلك إلى الله افتراءً عليه ﴿ **سيجزيهم بما كانوا يفترون** ﴾ هذا وعيد لهم ﴿ **وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا** ﴾ كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب : ما ولد منها حياً فهو خالص للذكور لا يأكل منه الإناث ، وما ولد ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث فهذا معنى قوله تعالى ﴿ **وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم** ﴾ . أي : سيجزيهم جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم ﴿ **إنه حكيم** ﴾ في جزائهم ﴿ **عليم** ﴾ باعتقادهم ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم** ﴾ إشارة إلى الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر ﴿ **سَفَهاً بغير علم** ﴾ لخفة أحلامهم وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم لا هم ﴿ **وحرّموا ما رزقهم الله** ﴾ من البحائر والسوائب وغيرها ﴿ **افتراءً على الله** ﴾ إذ نسبوا ذلك إليه ﴿ **قد ضلوا وما كانوا مهتدين** ﴾ إلى الصواب في تحريمهم ، وبهذا انتهت الفقرة الثالثة ، وبها انتهى المقطع .

فوائد :

١ – روى ابن مردويه في تفسير الآية الأخيرة عن ابن عباس قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين** ﴾ . وهكذا رواه البخاري في صحيحه .

٢ - من الأقوال التي تعين على فهم آيات هذه الفقرة ما نقله فيما يلي :

ا - روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام** ... ﴾ إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً ، أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءًا ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سميّ للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله ، فاختلط بالذي جعلوه للوثن ، قالوا هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسُقي ما سمي للوثن ، تركوه للوثن ، وكانوا يحرّمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فيجعلونه للأوثان ، ويزعمون أنهم يحرّمونه قربة لله ، فقال الله تعالى : ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً** ﴾ الآية وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدّي وغير واحد ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة ، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه ، وقرأ الآية حتى بلغ ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ .

ب - قال أبو بكر بن عيّاش عن عاصم بن أبي النّجود : قال لي أبو وائل : أتدري ما في قوله ﴿ **وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها** ﴾ قلت : لا ، قال : هي البحيرة ، كانوا لا يحجّون عليها . وقال مجاهد : كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ، في شيء من شأنها ، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا ، ولا إن حملوا ، ولا إن نتجوا ، ولا إن عملت شيئاً .

جـ - قال العوفي في قوله تعالى : ﴿ **وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا** ... ﴾ عن ابن عباس : فهو اللبن ، كانوا يحرمونه على إناثهم ، ويشربه ذكرانهم ، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك . وكذا قال السدي . وقال الشعبي : « البحيرة » لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنّساء . وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

أقول : إن الإنسان عندما يشرّع لنفسه تخرج منه الأعاجيب فالحمد الله الذي جعلنا مسلمين لا نتلقى إلا عن الله ورسوله .

٣ - لاحظنا من خلال الفقرة الأخيرة أن استقلال الإنسان بالتشريع غير وارد أصلاً . فالإنسان عبد لله وعليه أن يبقى في دائرة ما شرعه الله ، وألا يخرج عن ذلك ، وأي خروج سلبي أو إيجابي ، في الترك ، أو في الفعل ، إنما هو كذب على الله ، يستأهل به الإنسان عقوبة الله .

كلمة في سياق الفقرة الأخيرة :

كنّا ذكرنا من قبل أن لكل سورة محورها من سورة البقرة ، وأن السورة عندما تفصّل في محورها من سورة البقرة . إنّما تفصّل في المحور ، وامتداداته ، ومحلّه من سياق سورة البقرة .

وقلنا من قبل : إن من امتدادات محور سورة الأنعام في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ فلهذه الآية من سورة البقرة صلة بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ . وقد جاءت الفقرة الأخيرة لتبين لنا فعل الجاهليين في تحريم ما لم يحرم الله فهي تفصل إذن في محور السورة من سورة البقرة ، وفي امتدادات معانيه من السورة نفسها . ولقد رأينا من قبل محلّ الفقرة في مقطعها ، ومحلّ المقطع في سياق سورة الأنعام ، ومحلّ سورة الأنعام في السياق القرآني العام ، وللتذكير فقط نكتب كلمة مختصرة عن المقطع :

كلمة في سياق المقطع :

لقد تحدثنا كثيراً من خلال عرضنا لهذا المقطع الطويل عن سياق هذا المقطع وارتباطه بالمحور العام للسورة ، فمقدمة المقطع عرّفتنا على الله بما ينفي الكفر . والفقرة الثانية : عرّفتنا على موقف من مواقف المشركين والكافرين وردّته ، والفقرة الثانية عرفتنا على دعوى للكافرين وردّتها ، والفقرة الثالثة عرفتنا على أعمال للكافرين وردّتها ، وكل ذلك ضمن نسق واحد : الإيمان بالله يقتضي كذا وكذا . والكفر بالله ينبع منه كذا وكذا ، ثم تسفيه الكفر وما ينبع عنه ، والتعجيب منه ، والردّ على أهله ، وتحذيرهم ، وتبشير أهل الإيمان وتحذيرهم ، وكل ذلك بما ينسجم مع محور السورة : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

لقد رأينا ذلك وعرضناه ، ورأينا كيف أن السورة في سياقها الخاص تعالج الشرك

والامتراء ، وأن كلّ مقطع منها يضيف جديداً على هذا الموضوع ، مع كونه يفصل في المحور ، وسيأتي المقطع الثاني من القسم الثاني وهو نموذج كامل على وحدة المقطع ، وعلى محلّ المقطع في سياق السّورة ، وعلى صلة السورة بمحورها فلنره :

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني من القسم الثاني من سورة الأنعام
وهو المقطع الأخير

يمتد هذا المقطع من الآية (١٤١) إلى نهاية الآية (١٦٥) وهي نهاية السورة وهذا هو :

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

☆ ☆ ☆

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ

غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

☆ ☆ ☆

قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا

قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ
بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم
بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن
دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ
فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا
كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ
أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا
مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ
أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ
أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

☆ ☆ ☆

وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

كلمة في المقطع :

رأينا أن من امتدادات قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ .

وههنا يبدأ هذا المقطع بقوله تعالى : ﴿ **وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحبّ المسرفين ۞ ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ .

ثم تأتي الآيات بعد ذلك تناقش الكافرين فيما حرّموا : ﴿ **ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل ءآلذكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤني بعلم إن كنتم صادقين** ﴾ . وبعد مناقشات يأتي قوله تعالى :

﴿ **قل لا أجد فيما أوحي إلي محرّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً**

مسفوحاً أو لحم خنزير فإنّه رجس أو فسقاً أهِلّ لغير الله به فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم ﴾ . ﴿ **وعلى الذين هادوا حرَّمنا ....** ﴾

ثم يأتي حوار مع المشركين في دعواهم أن التحريم بأمر الله : ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ....** ﴾ ﴿ **قل هلمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ....** ﴾ ثم بينّ الله ـــ عز وجل ـــ المحرّمات الحقيقية : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ...** ﴾

ثم يسير السياق ليصل إلى أمر رسول الله ﷺ أن يعلن إعلانات ثلاثة ثم تنتهي السورة بقوله تعالى : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ..** ﴾ . إن صلة ذلك كله بقوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وفي الآية بعدها ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ وفي قوله تعالى . ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ . ﴿ **إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ..** ﴾ إن صلات هذا المقطع بذلك كله واضحة لا تكاد تخفى .

فالمقطع يفصّل في محوره ، وفي امتدادات محوره من سورة البقرة ، والمقطع مع هذا استمرار لما قبله ، إذ سبقه مباشرة الكلام عمّا حرّم المشركون من الأنعام . وهكذا سارت السورة تفصّل فيما أنعم الله على الإنسان ، وكيف ينبغي أن يقابل الإنسان ذلك ، وكيف سار الكافرون في طرق أخرى .

المعنى العام :

يبدأ المقطع بتبيان أنّ الله هو الخالق لكل شيء من الزروع ، والثمار ، والأنعام ، فيذكر الجنّات المخدومة وغير المخدومة ، وكلها من خلق الله ، ويذكر النّخل والزرع المختلف الأكل ، ويذكر الزّيتون والرّمّان المتشابه في المطعم ، وكيف أنّه أباح لنا الأكل من ثمره ، وأمرنا أن نؤدي حقّه يوم حصاده وأن لا نسرف في الإعطاء فنعطي فوق المعروف ، وكلّ ذلك تذكير بنعمه ، ثمّ يذكر أنّه أنشأ الأنعام كلها لنا ، فمنه ما نركب ونحمل عليه ، ومنه ما نأكل ونحلب ونستفيد من صوفها لحافاً وفراشاً ، ومن أوبارها ما نستعمله لكثير من الاستعمالات . وتعقيباً على ذكره هذه النعمة أمرنا أن نأكل مما رزقنا ، وألا نتّبع خطوات الشيطان باتّباع طريقه وأوامره ، كما اتبعها المشركون الذين

حرّموا ما رزقهم الله ، ثم ذكر نموذجاً على اتّباع خطوات الشيطان ، بذكر ما فعله العرب في جاهليّتهم ، وما يفعله غيرهم أو بعضهم وما يزال . فالعرب حرّموا الأنعام ، وجعلوها أجزاءً وأنواعاً ، بحيرة ، وسائبة ، ووصيلة ، وحامياً ، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام ، ثمّ ذكر أصناف الأنعام غنماً ، وماعزاً ، وبقراً ، وإبلاً ، وأنّه لم يحرّم من ذلك لا ذكراً ولا أنثى ، ولا شيئاً من أولادها ، وقد حرّم العرب من الذكور والإناث ، وحرّموا الذكور في بعض الأحوال على إناثهم ، وحرّم الهندوس على أنفسهم ذبح البقر وأكل لحمه ، ولا تزال طوائف من الناس تحرّم لحم الأنثى من الغنم والماعز والبقر ، ولا تزال طوائف تحرّم أكل الإبل ، وكل ذلك من اتّباع خطوات الشيطان ، ومن ثمّ ذكر الله — عزّ وجل — في هذا السياق الأصناف الثمانية : من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين . فمن يدّعي على الله أنّه حرّم الذكرين ، أو الأنثيين أو ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، فليخبر كيف حرّم الله عليهم ما زعموا . وكذلك خلق الله من الإبل ذكراً وأنثى ، ومن البقر ذكراً وأنثى ، فمن يدّعي أنّ الذّكرين محرمان ، أو الأنثيين محرمان ، أو ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، فإنّه يكذب على الله ، ولا أحد أظلم ممّن يفتري على الله كذباً ، وقد جرت سنة الله أنّه لا يهدي القوم الظالمين . فتقرّر بهذا أنّ الثمار ، والزروع ، والأنعام ، كلها خلق الله ، وأنّه خلقها لهذا الإنسان ، وأن الهجوم على التحريم بغير علم كذب على الله ، وهو أبلغ الظلم ، وهذا كله يذكّرنا بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** .... ﴾ التي هي محور هذه السورة ، وبامتدادات هذا المحور في سورة البقرة : ﴿ **كلوا مما في الأرض حلالًا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾

وبعد هذا التقرير المذكّر بما خلق الله لنا من الزروع والثمار والأنعام ، والمفنّد للهجوم على التحريم بغير علم ، تأتي ثلاث مجموعات مبدوءة بكلمة (قل) وبعضها مبدوءة بـ (قل) ومنتهية كذلك بآية بدايتها (قل) .

تبدأ المجموعة الأولى بأمر رسول الله ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين حرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ، أنّه لا يجد في الوحي المنزّل عليه حراماً على آكل يأكله إلا الميتات ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، وما أُهلّ به لغير الله ، والمراد من سياق هذه الآية الكريمة الردُّ على المشركين وأمثالهم ممّن يحرّمون — بآرائهم الفاسدة — ما لم يحرّمه الله ، ثمّ بيّن تعالى أنّه حتى هذه المحرّمات أباحها الله عند الاضطرار ، إذا لم يتلبس آكلها

ببغي وعداون ؛ وذلك من كمال غفرانه ورحمته ، هذا في كتاب الله الذي أنزله الله على محمد ﷺ ، وأمّا في الكتاب الذي أنزله الله من قبل فقد ذكر الله - عز وجل - أنه حرّم على اليهود كل ذي ظفر من البهائم والطير ، مالم يكن مشقوق الأصابع كالإبل ، والنّعام ، والإوز ، والبطّ ، وغير ذلك مما سيأتي ، كما حرّم عليهم شحوم البقر ، والغنم ، والماعز ، إلا ما كان شحماً في ظهر ، أو شحماً في حوية ، وسيأتي معناها ، أو شحماً مختلطاً بعظم فهذا مباح لهم ، وتحريم هذه الأشياء لم يكن لضرر فيها ، وإنما كان عقوبة لهم على بغيهم ومخالفتهم أوامر الله ، من أجل ذلك كان التضييق .

إذن فذاك الذي حرّم الله في القرآن ، وهذا الذي حرّم في التوراة من قبل . فمن ادّعى أنّ الله حرّم غير هذا المذكور فأين دليله ؟ وقد أمر الله رسوله ﷺ في حالة التكذيب أن يذكر بأنّ رحمة الله واسعة ، ولكنّ بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين ، فلا يطمعنّ أحد من هؤلاء المجرمين برحمته ، ولا شكّ أنّ المشركين ليس لهم دليل على أنّ الله حرّم شيئاً مما حرموا ولذلك فإنهم يفرون إلى المشيئة ، ولذلك فهم يدّعون أن ماهم عليه من الشرك ومن تحريم ماحرموا إنما هو بمشيئة الله ، وكونه بمشيئة الله فذلك علامة رضاه وتشريعه ، وهذا ذروة التكذيب ، إذ بهذا الزعم يكون كل ما فعله البشر شرعاً لله ، وبالتالي فليس هناك حاجة للرسل ، وفي هذا تكذيب للرسل في كل ما جاؤوا به . ولذلك بيّن الله تعالى ـــ بعد أن ذكر شبهتهم هذه ـــ أن تكذيبهم هذا ليس جديداً ، بل إنّ مَن قبلهم كذبوا مثل تكذيبهم حتى جاءهم العذاب . ثمّ أمر الله رسوله ﷺ أن يسألهم : هل عندكم علم بأن ما فعلتموه هو محلّ الرضى من الله ؟ فإن كان فأظهروه وبيّنوه وأبرزوه ، ومادام ليس عندهم علم فهم إذن لا يتّبعون إلا الوهم والخيال والاعتقاد الفاسد ، وهم كذبة على الله فيما ادّعوه ، وإذ قامت عليهم الحجة فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن أن لله الحجة البالغة ، فلو شاء لهدى الجميع ، ولكن له حكمه ، وله المشيئة المطلقة ، ولا يُسأل عما يفعل ، وإذا لم يثبت التحريم ، لا في الوحي الجديد ، ولا في الوحي القديم ، وليس عند هؤلاء علم يدلّ على أن ما حرّموه فيه مرضاة الله ، لم يبق إلا أن يطالبوا بإحضار الشهداء الذين يشهدون أنّ الله حرّم ما حرّموه ، ولنفرض أنهم قدّموا شهوداً فماذا يكون الموقف ؟ الموقف أن يرفض رسول الله ﷺ شهادتهم لأنهم شهود زور كذبة ، وألا يشهد معهم ، وألا يتّبع أهواء المكذبين لآيات الله ، الكافرين بالآخرة ، الذين يجعلون لله عديلاً وشريكاً . وبهذا انتهت المجموعة الأولى من هذا المقطع . ومن النقاش الطويل لموضوع تحريم بعض الأنعام ندرك كم لقضية التحريم من

الأهمية في هذا الدين ، وندرك موضع هذا المقطع ضمن السياق العام الدائر حول محور قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ فأن يدّعي أحد حق التشريع المطلق فذلك صرف للأمور عن مواضعها وانحراف . ثم تأتي المجموعة الثانية المصدّرة بكلمة (قل) وإذا كانت المجموعة الأولى تناقشهم فيما حرّموه ممّا لم يحرم ، فإن المجموعة الثانية تفصّل ما حرّم الله ، فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يعدّد لهؤلاء المشركين وغيرهم المحرمات - حقيقة - عند الله في كتابه القرآن ، وفي دينه الإسلام ، وفي وحيه الذي أنزله على رسوله ﷺ : **١** - الشرك **٢** - عقوق الوالدين **٣** - قتل الأولاد خشية الفقر **٤** - قربان الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ويدخل في ذلك الزنا **٥** - قتل النّفس التي حرّم الله إلا بالحق **٦** - أكل مال اليتيم **٧** - بخس المكيال والميزان **٨** - شهادة الزور **٩** - نكث العهد **١٠** - الانحراف عن صراط الله .

وبعد أن فصّل الله عز وجل المحرّمات ، عطف بالثناء على التوراة ورسولها ، واصفاً موسى عليه السلام بالإحسان ، وواصفاً التوراة بالكمال والإحاطة رحمة بمن أنزلت عليهم ، وهداية لهم ؛ من أجل أن يؤمنوا حق الإيمان ، وذكر التوراة في هذا السياق يشعر أن ما حرّمه الله على هذه الأمة في هذا المقام كان محرّماً في التوراة . وبعد أن أثنى على التوراة ، ورسولها ، أثنى على هذا القرآن الذي أنزله ، ووصفه بالبركة ، وأمر عباده باتّباعه ، وبتقوى الله ؛لعلهم يستحقون رحمة الله ، ثمّ خاطب العرب خاصّة ، مبيناًلهم أنّه أنزل هذا القرآن عليهم ، وبلغتهم ؛ لينقطع عذرهم ؛ ولئلا يقولوا إن كتب الله قد أنزلت على اليهود والنصارى من قبل ، وما كنا نفهم ما يقولون ، لأنهم ليسوا بلساننا ، ونحن في غفلة وشغل عمّا هم فيه، فبهذا الإنزال قطع الطريق على تعلّلهم أن يقولوا : لو أنّا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنّا أهدى منهم فيما أوتوه ، فها قد جاءهم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي ، قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام ، وهدى للقلوب ، ورحمة من الله لعباده ، فمن أظلم بعد ذلك ممن اجتمع له تكذيب آيات الله ، والعزوف عنها ، وصدّ الناس عنها . هؤلاء سيجزيهم الله على فعلهم أشدّ العذاب . وبهذا البيان لم تبق حجة لتحريم ما لم يحرّمه الله . وبهذا التّهديد بالعذاب ندرك خطورة التحريم القائم على الهوى ؛ لأنّه لا يعني إلا التكذيب لله ولرسوله ولكتابه ، وإلا الصدّ عن سبيل الله ، وحتى لا يستبطئوا العذاب ذكّرهم بالساعة وأشراطها ، وأنّهم يوم يشاهدون القيامة ، أو بعض أشراط يوم القيامة ، لا ينفع الإنسان الإيمان وقتذاك أي : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأمّا من كان مؤمناً قبل ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير

عظيم وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته . ثمّ هدّد الكافرين وأوعدهم بأن أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم : انتظروا إنا منتظرون . ثم هدد الله تعالى من فارق دين الله وخالفه ، وتفرّق فيه كأهل المِلَل ، والنّحَل ، والأهواء ، والضلالات ، ممن تركوا ما أحلّ الله ، أو حرموا ما أحل ، أو انحرفوا في الفهم ، كل هؤلاء أمر الله رسوله ﷺ أن يبرأ منهم ويتبرأ ، وأن يكل أمرهم إلى الله ، والله هو الذي سينبئهم بما كانوا يفعلونه . وختمت هذه المجموعة بتبيان فضل الله ، وعدله ، إذ جعل الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، لِيقبل عباده على الحسنات ، وليعرفوا عدله ، وأنّه يعاقب على السيئات ، وبهذا المعنى انتهت المجموعة الثانية من هذا المقطع ، وفيها بيّن الله المحرمات الرئيسية ، ورد على الضالّين ووعظهم وهدّدهم .

وتأتي المجموعة الثالثة وهي تأمر رسول الله ﷺ أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم ، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف . وهو الدين القائم الثابت . دين إبراهيم الحنيف عن كل باطل ، والمستقيم على أمر الله ، والطاهر من الشرك . ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن لهؤلاء المشركين إخلاصه لله ، وأنه لا يطلب ربّاً سواه ، وكيف يفعل والله رب كل شيء ؟ وهو الذي سيحاسب كل نفس على عملها ، وهو الذي لا يُحمّل نفساً إثم نفس أخرى ، ثم أمره أن يبلغهم أن إلى الله المرجع ، وأن الله سيحكم بين الجميع فيما اختلفوا فيه .

ثم يختم المقطع وتختم السورة بما يذكرنا بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ..** ﴾ بتقرير أن الله قد جعلنا خلائف في الأرض ، وجعل الأرض لنا ، ولكي يتم إعمار الأرض ، رفع بعضنا فوق بعض درجات ، وأن في ذلك ابتلاء للجميع ، هل يلتزم كل منهم بحكم الله فيما آتاه . ثم ختمت السّورة بالتذكير أنّ حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ، وأنه غفور رحيم لمن والاه واتّبع رسله فيما جاءوا به ، وبهذا تنتهي السورة . وسنعرض المقطع على أنه مقدمة ومجموعات ثلاث وخاتمة .

المعنى الحرفي :

« مقدمة المقطع »

﴿ **وهو الذي أنشأ** ﴾ . أي : خلق ﴿ **جنات معروشات** ﴾ . أي : مسموكات

مرفوعات ﴿ **وغير معروشات** ﴾ . أي : متروكات على وجه الأرض لم تعرش ، يقال عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكاً تعطف عليه القضبان ويمكن أن يسمى كل ما استنبته الناس من أشجار وأصلحوه وخدموه معروشاً ، وكل ما خرج في البر والجبال مما لم يخدم غير معروش ﴿ **والنخلَ والزرعَ مختلفاً أُكله** ﴾ في اللون والطعم ، والحجم والرائحة والأكل والثمر ، والضمير للنخل ، والزرع داخل في حكمه ، أو لكل منهما ، فإنَ النَخل يبلغ أنواع ثمره المئات ، ولكل منها حجم ولون وطعم . والزّرع منه القمح والفول والحمّص والعدس والبطاطا وغير ذلك ، ومع أن الكثير منها يجمعها أنها من النّشويات فإن لكلّ لوناً وطعماً ومنفعة ونكهة ﴿ **والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه** ﴾ في اللون وفي الطعم ﴿ **كلوا من ثمره إذا أثمر** ﴾ . أي : من ثمر كل واحد مما مر ، والأمر للإباحة ، وذكر أول الإثمار لا يعني أنه لا يباح إلا إذا أدرك ، بل إباحة الاستفادة موجودة قبل وبعد ، ولكن عملياً تبدأ الاستفادة منه في الطعام وقت الإثمار ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ . أي : زكاته أو صدقته وسيأتي في الفوائد ما له علاقة بها ﴿ **ولا تسرفوا** ﴾ . أي : بإعطاء الكل وتضييع العيال ﴿ **إنه لا يحب المسرفين** ﴾ لأنهم يضيّعون الحقوق ويتجاوزون الحدود ﴿ **ومن الأنعام حَمولةً وفرشاً** ﴾ . أي : وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال ، وما يفترش للتريّح ، أو الحمولة الكبار التي تصلح للحمل ، والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم لأنها دانية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها ، أو الحمولة ما تركبون ، والفرش ما تأكلون وتحلبون ، فالشاة لا تحمل ولكن تأكلون لحمها وتشربون لبنها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً ﴿ **كلوا مما رزقكم الله** ﴾ . أي : كلوا ما أحل الله لكم منها ولا تحرّموها كما فعل الجاهليون من عرب وغيرهم ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ . أي : طرقه في التحريم والتحليل ﴿ **إنه لكم عدو مبين** ﴾ . أي : واضح العداوة فاتهموه على دينكم ﴿ **ثمانية أزواج** ﴾ . أي أنشأ لكم حمولة وفرشاً ثمانية أزواج . أي أنشأ لكم ثمانية أزواج ﴿ **من الضأن اثنين ومن المعز اثنين** ﴾ . أي : زوجين اثنين ، والواحد إذا كان وحده فهو فرد ، وإذا كان معه غيره من جنسه سمّي كل واحد منهما زوجاً وهما زوجان ، والضأن جمع ضائن ، والمعز جمع ماعز ﴿ **قل ءآلذكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين** ﴾ المراد بالاستفهام هنا الإنكار ، والمراد بالذكرين الذكر من الضأن ، والذكر من المعز ، وبالأنثيين الأنثى من الضأن والأنثى من المعز . والنص إنكار أن يحرم الله من جنسي الغنم ضأنها ومعزها شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها أو مما تحمل الإناث

وذلك أنهم كانوا يحرّمون ذكور الأنعام تارة وإناثها طوراً ، وأولادهما كيفما كانت ذكوراً أو إناثاً ، أو مختلطة تارة ، وكانوا يقولون : قد حرّمها الله فأنكر الله ذلك عليهم ﴿ **نبئوني بعلم** ﴾ . أي : أخبروني بأمر معلوم من جهة الله يدلّ على تحريم ما حرّمتم ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ في أنّ الله حرّمه ﴿ **ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين** ﴾ . أي : زوجين من هذا وزوجين من هذا ﴿ **قل ءآلذكرين** ﴾ منهما ﴿ **حرّم أم الأنثيين** ﴾ منهما ﴿ **أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين** ﴾ . أي : أم ما تحمل إناثها ﴿ **أم كنتم شهداء إذْ وصّاكم الله بهذا** ﴾ يعني أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم ، ولما كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون : الله حرّم هذا الذي نحرمه ، فإنه سألهم على أسلوب العرب في التهكم ﴿ **أم كنتم شهداء** ﴾ على معنى أعرفتم التوصية به مشاهدين لأنكم لا تؤمنون بالرّسل ؟ ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً** ﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ﴿ **ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ . أي : الذين في علمه أنّهم يموتون على الكفر بسبب ما اجترحوه من الظلم وبهذا انتهت مقدمة المقطع .

كلمة في السياق :

١ - ذكر الله - عز وجل - في هذه المقدمة بعض ما خلقه للإنسان من جنات وأعناب وزروع وثمار ولذلك صلته بقوله تعالى ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ .

٢ - ناقشت المقدّمة تحريم الكافرين لبعض الأنعام ولذلك صلته بامتدادات المحور في سورة البقرة ﴿ **كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ والملاحظ أن قوله تعالى : ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ قد جاءت بنصها في الآية ﴿ **ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ لاحظ كذلك الصلة بين ﴿ **كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً** ﴾ وبين ﴿ **كلوا مما رزقكم الله** ﴾ .

٣ - وإذن فالمقدمة قرّرت أن الله خلق أشياءً للإنسان ، وأن الإنسان حرّم بعضها بدون علم ، وبعد ذلك تأتي المجموعة الأولى ، وفيها تحديد لبعض ما حرّمه الله ، ومناقشة للكافرين فيما حرّموه . وقبل أن نعرض المجموعة فلنذكر بعض الفوائد التي لها صلة بمقدمة المقطع .

فوائد :

١ - حرّم العرب في جاهليتهم أنواعاً من الأنعام كما رأينا ذلك في سورة المائدة ، وكما رأينا قبيل هذا المقطع من سورة الأنعام نفسها ، والكلام ههنا موجّه لهم أولاً ، ولكلّ من يشبههم على مدى الزمان في حالهم ثانياً كالهندوس الذين يحرّمون البقر ، وكبعض الطوائف التي تحرّم الإبل ، وكبعض الطوائف التي تحرّم الإناث من الغنم والبقر والماعز ، ولا شك أن كل من حرّم ما أحل الله كافر ، لأنه مكذّب لله ، والآيات واضحة في هذا .

٢ - عند قوله تعالى : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ تنشأ معركة فقهية ذات جوانب أصولية وفرعية كثيرة ، فأبو حنيفة يستدلّ بهذه الآية على وجوب العُشْر ، أو نصف العُشْر زكاة، من كل ما أخرجته الأرض ، قليلاً أو كثيراً ، مطعوماً أو غير مطعوم ، يصلح للتخزين أو لا يصلح ، ولا يقبل الأحاديث الصحيحة التي تقيّد هذا الإطلاق ، لأنه يعتبر أن أحاديث الآحاد - ولو كانت صحيحة - لا تقوىٰ على تخصيص القرآن ، لأن ذلك نسخ ، وأحاديث الآحاد لا تستطيع نسخ المتواتر لاحتمال الوهم عند رواتها ، وفسّر عطاء النّص فقال : يعطي من حضره يومئذ ما تيسّر وليس بالزّكاة . وقال مجاهد في تفسيرها : وعند الصرام يعطي القبضة ويتركهم فيتّبعون آثار الصرام . وقال ابن كثير : « وقد كان شيئاً واجباً في الأصل ثم إنّه فُصّل بيانه وبُيّن مقدار المخرج وكميته » . قال هذا رداً على من زعم أن الآية منسوخة والشافعية - وابن كثير منهم - لا يوجبون زكاة الزروع والثمار إلا إذا كانت مما يزرعه الآدميون ، وأن يكون قوتاً يصلح للادخار وأن يبلغ نصابه خمسة أوسق أي ما يعادل ٦١٧ كيلو غراماً فلا زكاة عندهم على الكمّون والقثّاء والبطيخ والقطن ، ولا على أمثال ذلك ، ولا على ما كان قليلاً وفي الآية كلام كثير ، فليراجع في المطولات .

٣ - قال أبو العالية في سبب نزول قوله : ﴿ **ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ : « كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً ، ثم تباروا فيه وأسرفوا ، فأنزل الله ﴿ **ولا تسرفوا** ﴾ . وقال ابن جريج : نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس جذّ نخلاً له فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته - فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة - فأنزل الله تعالى : ﴿ **ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ رواه ابن جرير عنه .

ولابن كثير فهم لطيف للنهي في قوله تعالى : ﴿ **كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ قال ابن كثير : إن النهي في قوله تعالى ﴿ **ولا تسرفوا** ﴾ يعود على الإسراف في الأكل قال : أي لا تسرفوا في الأكل لما به من مضرّة العقل والبدن » .

بين يدي المجموعة الأولى من المقطع :

تأتي بعد مقدمة المقطع المجموعة الأولى وهي مبدوءة بآية تبدأ بكلمة (قل) ﴿ **قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه** ... ﴾ وتنتهي بآية مبدوءة بكلمة (قل) ﴿ **قل هَلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون أنّ الله حرّم هذا** ﴾ .

فبعد مقدمة المقطع التي ناقشت التحريم بغير علم ، تأتي هذه المجموعة لتبين ما حرّم الله من الأنعام في شريعتنا وفي الشريعة الموسوية ، وتناقشهم في الطريقة التي اعتمدوها إلى آخر ما عرضته المجموعة فلنرها :

المجموعة الأولى من المقطع

﴿ **قل لا أجد فيما أُوحيَ إليّ** ﴾ . أي في ساعة نزول هذه الآية لأنّه حُرّم شيء آخر بعد ذلك ، أو في القرآن لأن وحي السُّنّة قد حرم غيره ، أو في الأنعام لأن الآية في ردّ البحيرة وأخواتها ، وأما الموقوذة ، والمتردّية ، والنطيحة التي ذكرت في سورة المائدة فهي من الميتة ، وفيه تنبيه على أنّ التحريم إنما يثبت بوحي الله وشرعه ، لا بهوى الأنفس ﴿ **محرّماً** ﴾ . أي : حيواناً حرم أكله ﴿ **على طاعم يطعمه** ﴾ . أي : على آكل يأكله ﴿ **إلا أن يكون ميتة** ﴾ . أي : إلا أن يكون الشيء المحرّم ميتة ﴿ **أو دماً مسفوحاً** ﴾ . أي : مصبوباً سائلاً ، فلا يحرم الدم الذي في اللحم ، والكبد ، والطحال ، وبقايا العروق ، ومكان الذبح ﴿ **أو لحم خنزير فإنّه رجس** ﴾ . أي : نجس ﴿ **أو فسقاً أُهِل لغير الله به** ﴾ . أي : ما رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله ، وسمّي فسقاً لتوغله في باب الفسق ﴿ **فمن اضطر** ﴾ . أي : فمن دعته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات ﴿ **غير باغ** ﴾ غير ظالم لمضطر مثله ، تارك لمواساته ﴿ **ولا عاد** ﴾ . أي : متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿ **فإنّ ربك غفور رحيم** ﴾ فلا يؤاخذ المضطر بل يغفر له ؛ وذلك من آثار رحمته ﴿ **وعلى الذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظُفُر** ﴾ . أي : ما له أصبع من دابّة أو طائر ، ﴿ **ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما** ﴾ . أي :

حرّمنا عليهم لحم كلّ ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه ، ولم يحرّم من البقر والغنم إلا الشحوم ، إلا ما استثني منها بقوله : ﴿ **إلا ما حملت ظهورهما** ﴾ . أي : ما اشتمل على الظهور والجنوب ﴿ **أو الحوايا** ﴾ . هي ما اشتمل على الأمعاء فشحم الخاصرة مباح لهم ﴿ **أو ما اختلط بعظم** ﴾ كالشحم الذي يخالط عظم الظهر ، ومعنى هذا أنّه حرّم عليهم من الشحوم ــ شحوم الكلى وشحوم الألية - والأمعاء ، أما الشحم الذي في الظهر ، أو الشحم المختلط مع الخاصرتين والبطن ، مما تكون الأمعاء داخلها ، فكل هذه مباحة لهم ،وسنرى في الفوائد بعض عبارات كتب اليهود مّما يستأنس به في هذا المقام ما دام لا يعارض نصاً ﴿ **ذلك** ﴾ . أي : هذا التضييق عليهم ﴿ **جزيناهم ببغيهم** ﴾ . أي : بسبب ظلمهم ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ فيما أخبرنا به ﴿ **فإن كذّبوك** ﴾ . أي : فيما أوحيتُ إليك من هذا ﴿ **فقل ربكم ذو رحمة واسعة** ﴾ بها يمهل المكذّبين ولا يعاجلهم بالعقوبة ﴿ **ولا يُردّ بأسُه عن القوم المجرمين** ﴾ . أي : فإنّه مع سعة رحمته فإنّ عذابه إذا جاء لا يردّ عن القوم المجرمين ، فلا يغتّر المكذّبون بسعة رحمته عن خوف نقمته .

وبعد أن بين الله - عز وجل - ما حرّمه في هذه الشريعة وما حرّمه في شريعة سابقة ، وبعد أن قرّر في المقدمة أنهم حرّموا ما حرّموا من الأنعام بلا علم ، فإنه في الآية اللاحقة يقيم الحجّة عليهم في دعواهم أن التحريم كان بمشيئته ، وبناءً عليه فإن ما حرّموه وما فعلوه هو محض الحق في زعمهم ، إن الآية اللاحقة تقيم عليهم الحجة في هذا الشأن ، وهكذا نجد أن الآيات تلاحق قضايا التحريم ملاحقة دقيقة حتى تنهي باطلها .

﴿ **سيقول الذين أشركوا** ﴾ احتجاجاً لشركهم وما حرّموه ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء** ﴾ ولكن شاء فهذا عذرنا ، يعنون أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله لهم بمشيئته ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك ؛ وإذا شاء فقد رضي ، فذلك دليل عندهم على أنّ ما فعلوه صحيح . جعلوا المشيئة تشريعاً ورضا ، ولا شكّ أن كل شيء بمشيئة الله ، لأنّه لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته ، ولكنّه أرسل رسله بأمره ، ورضاه لا يكون إلا بتنفيذ أمره وهم قد جعلوا المشيئة عين الرضا ، فكذّبوا رسل الله ولذلك قال الله ﴿ **كذلك كذّب الذين من قبلهم** ﴾ . أي : كتكذيبهم إيّاك ، كذّب المتقدمون رسلَهم ، وتشبّثوا بمثل هذا فلم ينفعهم ذلك ﴿ **حتى ذاقوا بأسنا** ﴾ . أي : حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿ **قل هل عندكم من علم** ﴾ . أي : من أمر معلوم يصحّ الاحتجاج به فيما قلتم ﴿ **فتخرجوه لنا** ﴾ أي : فتظهروه لنا ﴿ **إن تتبعون إلّا الظنّ** ﴾ .

أي : الوهم والخيال والاعتقادات الفاسدة ﴿ **وإن أنتم إلا تخرصون** ﴾ . أي : تكذبون على الله فيما ادّعيتموه ﴿ **قل فلله الحجة البالغة** ﴾ . أي : التامّة الكاملة عليكم بأوامره ونواهيه ، ولا حجة لكم على الله بمشيئته ﴿ **فلو شاء** ﴾ . هدايتكم ﴿ **لهداكم أجمعين** ﴾ ولكن له الحكمة في أن يعلق الهداية على أسبابها ، والضلال على أسبابه ، فخَلَق الهداية عند من يستحقّها بتوفيقه ، وخلق الضّلال عند من يستحقه بعدله ﴿ **قل هَلُمَّ شهداءكم** ﴾ . أي : هاتوا شهداءكم وقرّبوهم ﴿ **الذين يشهدون أنّ الله حرّم هذا** ﴾ . أي : ما زعموه محرّماً ﴿ **فإنْ شهدوا فلا تشهد معهم** ﴾ . أي : فلا تسلّم لهم ما شهدوا به ، ولا تصدّقهم ، لأنه إذا سلّم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم؛ فكان واحداً منهم وحاشاه – فإنهم شهود الزور الكذبة ﴿ **ولا تتبع أهواء الذين كذّبوا بآياتنا** ﴾ دلّ هذا على أن من كذّب بآيات الله فهو متبع للهوى إذ لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدّقاً بالآيات موحّداً لله ﴿ **والذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ فهم ملحدون بها ﴿ **وهم بربهم يعدلون** ﴾ . أي : يسوون به مخلوقاته ، فمن اجتمع له التكذيب بالآيات ، والكفر بالآخرة ، والشرك ، ما كان ليكون إلا متبعاً للهوى ، وبهذا تمّت المجموعة الأولى من هذا المقطع ، وقد ردّ بها على أولئك الذين يحرّمون ما أحلّ الله .

كلمة في السياق :

١ – قرّرت الآيات أن هؤلاء الذين يحرّمون ما لم يحرمه الله كذبة مكذبون بآيات الله ، كافرون بالآخرة ، مشركون بالله ، متبعون للهوى ، متّبعون للظنون ، وهذه أبشع صفات يمكن أن يتصف بها إنسان ، ومن هنا ندرك خطورة قضية التحريم والتحليل ، والهجوم عليها بلا علم ، وتلخيصاً لما مرّ معنا في المقطع نقول :

بدأ المقطع بذكر ما خلق للإنسان ، وما حَرّم الإنسان على نفسه بلا علم ، ثمّ بيّن حقيقة ما حرّمه الله ، ثمّ ناقش الكافرين في الأساس الذي اعتمدوه في موضوع التحريم ، وبعد نقاش وإقامة حجة ، ووصف لهؤلاء بما هم فيه ، يصل السياق إلى المجموعة الثانية ، وفيها تفصيل للمحرمات الأساسية في دين الله .

٢ – لاحظ أن الآية الأخيرة في المجموعة ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **وهم بربهم يعدلون** ﴾ وتذكّر أن أول آية في سورة الأنعام ختمت بقوله تعالى :﴿ **ثمّ الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ فالسّورة سياقها واحد .

فوائد :

١ - فسر علماؤنا قوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظُفُر** ﴾ بأنه ما له أصبع من دابّة ، أو طائر ، ليدخل فيه الإبل ، وذلك مفهوم من قوله تعالى : ﴿ **ومن البقر والغنم** ﴾ إذ ذكرهما ولم يذكر الإبل ؛ فدلّ ذلك على دخول الإبل في ذوات الظفر المذكورة سابقاً ، وقد تتبعنا ما يسمونها التوراة حالياً فرأينا فيها ما يلي :

في الإصحاح الثالث من سفر « اللاويين » « الشحم الذي يغشى الأحشاء وسائر الشحم الذي على الأحشاء والكليتين والشحم الذي عليهما الذي على الخاصرتين وزيادة الكبد مع الكليتين ينزعها ويوقدهما بنو هارون على المذبح على المحرقة التى فوق الحطب الذي على النار » ويتكرّر هذا الكلام مرات ، وفي آخر هذا الإصحاح هذا الكلام « كل الشحم للرب فريضة دهرية في أجيالكم في جميع مساكنكم لا تأكلوا شيئاً من الشحم ولا من الدّم » . وفي الإصحاح السابع (لاويين) أثناء الكلام عن شريعة ذبيحة الإثم : ويقرب منها كل شحمها الألية والشحم الذي يغشى الأحشاء والكليتين والشحم الذي عليهما الذي على الخاصرتين وزيادة الكبد مع الكليتين ينزعها ويوقدهن الكاهن على المذبح وقوداً ... » وفي الإصحاح نفسه « كل شحم ثور أو كبش أو ماعز لا تأكلوا وأما شحم الميتة وشحم المفترسة فيستعمل لكل عمل ولكن أكلا لا تأكلوه » أقول : لنا عودة على هذا النص ، وفي هذا الإصحاح الحادي عشر « كل ما شقّ ظلفاً وقسمه ظلفين ويجتر من البهائم فإياه تأكلون إلا هذه فلا تأكلوها مما يجتر ومما يشق الظلف الجمل لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفاً فهو نجس لكم، والوَبْر لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفاً فهو نجس لكم، والأرنب لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفاً فهو نجس لكم ، والخنزير لأنه يشق ظلفاً ويقسم ظلفين لكنه لا يجتر فهو نجس لكم، من لحمها لاتأكلوا ، وجثتها لا تلمسوا إنّها نجسة لكم » وبعد أن يتحدث عن حيوانات البحار والمياه يتحدث عن الطيور يقول : « وهذه تكرهونها من الطيور لا تؤكل إنها مكروهة النسر والأنوق والعقاب والحدأة والباشق على أجناسه وكل غراب على أجناسه والنّعامة والظليم والسأف والباز على أجناسه، والبوم والغوّاص والكركي والبجع والرّخم واللقلق والببغا على أجناسه، والهدهد والخفاش وكل دبيب الطير الماشي على أربع فهو مكروه لكم » ثم يذكر حيوانات تباح ثم يذكر حيوانات أخرى محرّمة كابن عرس والفأر والضبّ والجرذون والورل والوزغة والعصاية والحرباء » . وفي الإصحاح الثاني عشر من سفر التثنية : « وأما الدم فلا تأكله

على الأرض تسفكه كالماء » وفيه كذلك « احترز أن لا تأكل الدم لأن الدم هو النفس ، فلا تأكل النفس مع اللحم ، لا تأكله ، على الأرض تسفكه كالماء ، لا تأكله لكي يكون لك ولأولادك من بعدك خير إذا عملت الحق في عيني الرب » وفي الإصحاح الرابع عشر من سفر التثنية كلام عن المحرمات والمُحللات من الدوابّ .

ونحن نقلنا ما نقلناه هنا لنستأنس ببعض ما فيه على فهم النّص القرآني أو لترجيح فهم من الفهوم ، والملاحظ أن الشحم الذي على الخاصرتين ، داخل في التحريم على حسب النصوص التي ذكرناها ، فإذا صح هذا فإن البطن ، والخاصرتين ، هي الحوايا ، والشحم المختلط فيهما هو المباح ، لا ما كان على الخاصرتين ، والملاحظ أن بعضاً مما حرّم عليهم قد أبيح لنا من مثل الإبل والأرانب، وتفصيل ما يؤكل ومالا يؤكل من الحيوانات موجود في كتب الفقه فلتراجع وسنذكرها في كتاب الأساس في السنة .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه إلا ...** ﴾ يروي ابن كثير هذا الحديث عن ابن عباس وقد رواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي قال ابن عباس : ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت : يارسول الله ماتت فلانة - تعني الشاة - قال : « فلولا أخذتم مسكها » ؟ قالت : نأخذ مَسْك شاة قد ماتت ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : « إنما قال الله : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير** ﴾ . وإنكم لا تطعمونه ، أن تدبغوه فتنتفعوا به » . فأرسلت فسلخت مَسْكها فدبغته فاتخذت منه قربة حتى تخرّقت عندها . رواه أحمد والبخاري والنسائي .

٣ - وبمناسبة تحريم الشحوم على بني إسرائيل يروي ابن كثير مجموعة أحاديث بمعنى واحد نكتفي منها بما يحيط بمعناها :

روى الجماعة ... عن عطاء بن أبي رباح قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح : « إنّ الله ورسوله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » . فقيل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة . فإنها يدهن بها الجلود ، وتُطلى بها السفن ، ويستصبح بها النّاس (يستضيئون بها) ، فقال : « لا ، هو حرام » . ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك : « قاتل الله اليهود ، إن الله لمّا حرم عليهم شحومها جَملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه » . وروى ابن مردويه عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان قاعداً خلف المقام فرفع بصره إلى السماء فقال : « لعن الله اليهود - ثلاثاً - إنّ

الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها ، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرّم عليهم ثمنه » .

٤ - يلفت النسفي النظر عند قوله تعالى : ﴿ **ذلك جزيناهم ببغيهم** ﴾ إلى أن الذنب كان يرتّب عليه تشديد على بني إسرائيل بينما كانت بعض الهفوات سبباً في التخفيف على هذه الأمّة ، فمثلاً ترتب على المخالفة يوم كان الصوم يمتدّ من بعد النوم إلى نهاية اليوم الثاني أن خفّف الله عن المسلمين حكم الصوم حتى جعله من الفجر إلى المغرب ، فما أكثر رحمة الله بهذه الأمة ، وكم تحتاج هذه الأمة إلى شكر ، وقد عبر عن هذا كله بقوله :« وكيف نشكر من سبّب معصيتَهم لتحريم الحلال ومعصيةَ سالفنا لتحليل الحرام حيث قال : ﴿ **وعفا عنكم فالآن باشروهن** ﴾ .

٥ - وينبغي أن نتذكر أن ما ذكره الله تعالى من المحرمات في الآية من ميتة ، أو دم مسفوح ، أو لحم خنزير ، أو ما أهل به لغير الله ، قد أضافت لها السُّنة محرمات أخرى من ذلك مثلاً قوله عليه الصلاة والسلام : « حرام عليكم الحمر الأهلية وخيلها وبغالها وكل ذي ناب من السّباع وكل ذي مخلب من الطير » رواه النسائي وأبو داود وفي كتب السُّنّة وفي كتب الفقه تفصيلات ذلك . ولننتقل للكلام عن المجموعة الثانية :

بين يدي المجموعة الثانية :

تبدأ المجموعة الثانية بذكر المحرّمات الرئيسية في هذا الدين ، بل في كل شريعة لله - عز وجل - ثمّ تُذكّر العرب خاصة بفضل الله عليهم بإنزاله الإسلام عليهم ثمّ تذكّر وتعظ وتعمق في النفس لوازم الالتزام . والملاحظ أن الآيات الأولى التي تفصل في المحرّمات تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾وأنه في آخر المجموعة يأتي قوله تعالى : ﴿ **إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيَعاً لست منهم في شيء..** ﴾وهذا يؤكد وحدة المجموعة ، وأن المجموعة بعد أن بدأت بتفصيل المحرمات ذكرت ما يستنهض الهمم ويؤكد الالتزام . فلنر المجموعة :

« المجموعة الثانية »

تبدأ المجموعة بكلمة « قل » موجّهة لرسول الله ﷺ كي يبيّن للمسلمين ولغيرهم المحرّمات الرئيسية في هذا الدين ، وقد يتوهّم متوهم أنّ هذا الأمر وُجّه لرسول الله ﷺ

كي يقوله لليهود وهو خطأ سببه فهم خاطىء لما بعد الآيات التي ذكرت المحرمات فليلاحظ ذلك .

﴿ **قل** ﴾ . أي : للذين حرّموا الحرث والأنعام ، أو لكل الناس ﴿ **تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم** ﴾ . أي : تعالوا أتل الذي حرّمه ربكم عليكم ﴿ **ألّا تشركوا به شيئاً** ﴾ هذا أوّل المحرمات ﴿ **وبالوالدين إحساناً** ﴾ . أي : وأحسنوا بالوالدين إحساناً ، ولما كان إيجاب الإحسان تحريماً لتركه ذُكر في المحرّمات ، فالمحرّم الثاني ترك الإحسان إلى الوالدين ، فمن باب أولى العقوق ﴿ **ولاتقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ . أي : من أجل فقر ، أي من خشيته ﴿ **نحن نرزقكم وإياهم** ﴾ لأن رزق العبيد على مولاهم . فالمحرّم الثالث قتل الأولاد ﴿ **ولا تقربوا الفواحش** ﴾ . أي : الآثام ﴿ **ما ظهر منها** ﴾ أي : ما بينك وبين الخلق ﴿ **وما بطن** ﴾ . أي : ما بينك وبين الله فهذا المحرم الرابع الفواحش الظاهرة كالزنا الجهري وغيره ، والباطنة كالزنا السري وغيره ﴿ **ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق** ﴾ وقتلها قصاصاً قتل بحق ، والقتل على الردّة والرجم للزاني المحصن ، قتل بحق ، فالمحرّم الخامس قتل النفس بغير الحق ﴿ **ذلكم وصّاكم به** ﴾ . أي : المذكورات السابقات ، المفصّلات ، أمركم ربكم بحفظه ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ . أي : لتعقلوا عِظَمها عند الله ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن** ﴾ . أي : إلا بالخصلة التي هي أحسن : وهي حفظه وتثميره ﴿ **حتى يبلغ أشده** ﴾ . أي : حتى يبلغ مبلغ حلمه فادفعوه إليه ، فأكل مال اليتيم هو المحرّم السادس ﴿ **وأوْفوا الكيل والميزان بالقسط** ﴾ . أي : بالسوية والعدل ، فالمحرّم السابع إنقاص المكيال والميزان ﴿ **لا نكلّف نفساً إلا وسعها** ﴾ . أي : إلا ما يسعها ، ولا تعجز عنه ، وإنّما أتبَعَ الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك لأنّ مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان ممّا فيه حرج فأمر ببلوغ الوسع ، وأن ما وراءه معفوّ عنه ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا** ﴾ . أي : فاصدقوا ﴿ **ولو كان ذا قربىٰ** ﴾ . أي : ولو كان المقول له ، أو عليه ، في شهادة ، أو غيرها ، من أهل قرابة القائل ، فالمحرّم الثامن الكذب وشهادة الزور ﴿ **وبعهد الله أوْفوا** ﴾ ويدخل بعهد الله عهده على الاعتراف بربوبيته ، وعهده على طاعته في الأمر والنهي ، و عهده بما التزم به الإنسان نحوه ، من نذر ، أو يمين ، و عهده الذي عاهد الإنسان عليه الآخرين ، فيما يجوز فيه العهد ، أو يلزم ، فعلى الإنسان الالتزام به ، فالمحرم التاسع نقض العهد ﴿ **ذلكم وَصّاكم به** ﴾ . أي : ما مرّ أمركم به

﴿ **لعلكم تذكّرون** ﴾ . أي : لعلكم تتعظون ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُبُل** ﴾ . أي : الطرق المختلفة في الدّين ، من اليهوديّة ، والنّصرانيّة ، والمجوسيّة ، وسائر البدع ، والضلالات ﴿ **فتفرّق بكم عن سبيله** ﴾ . أي : فتفرّقكم عن صراط الله المستقيم : وهو دين الإسلام ، فهذا هو المحرّم العاشر ، اتّباع غير سبيل الله ﴿ **ذلكم وَصّاكم به لعلكم تتقون** ﴾ . أي : لتكونوا على رجاء إصابة التقوى ذكر أولاً (تعقلون) ثم (تذكّرون) ثم (تتقون) لأنهم إذا عقلوا تفكّروا ثمّ تذكّروا فاتّعظوا فاتقوا المحارم .

هذه هي المحرّمات في شريعتنا وفي كل شريعة لله بما في ذلك شريعة التوراة ثمّ جاء بعد ذلك في المجموعة ما يهيج على الالتزام ويبعث عليه : فلنَر تتمّة المجموعة :

﴿ **ثمّ آتينا موسى الكتاب** ﴾ قال ابن جرير تقديره : ثم قل يا محمد مخبراً عنّا : أنا آتينا موسى الكتاب . وردّ هذا ابن كثير واعتبر أنّ (ثمّ) هنا جاءت لتفيد مطلق العطف فإنّه لما ذكر القرآن وأثنى عليه ، ناسب أن يعطف بالثناء على التوراة مذكّراً بأن القرآن والتوراة كل من عند الله ، وفيهما من التوافق بالأصول الكمال . ﴿ **تماماً على الذي أحسن** ﴾ . أي : تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ في كلّ ما أمر به وقام بطاعة ربه قياماً كاملاً ﴿ **وتفصيلاً لكل شيء** ﴾ . وبياناً مفصّلاً لكل ما يحتاجون إليه في دينهم ﴿ **وهدى ورحمة لعلهم** ﴾ . أي : بني إسرائيل ﴿ **بلقاء ربهم يؤمنون** ﴾ . أي : يصدّقون بالبعث والحساب ، وبالرؤية ، دلّ هذا على أن كتب الله تعمّق الإيمان بالآخرة ﴿ **وهذا كتاب** ﴾ . أي : القرآن ﴿ **أنزلناه مبارك** ﴾ . أي : كثير الخير والمنافع ﴿ **فاتّبعوه واتّقوا** ﴾ الله في مخالفته ﴿ **لعلكم تُرحمون** ﴾ . أي : لترحموا باتّباعه وبتقوى الله ﴿ **أن تقولوا** ﴾ . أي : كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيّها العرب ﴿ **إنّما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا** ﴾ . أي : أهل التوراة والإنجيل ﴿ **وإن كنّا عن دراستهم** ﴾ . أي : عن تلاوة كتبهم ﴿ **لغافلين** ﴾ . أي : لا علم لنا بشيء من ذلك ، والمراد إثبات الحجة عليهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ ؛كي لا يقولوا يوم القيامة إن التوراة والإنجيل أُنزلا على طائفتين من قبلنا ، وكنا غافلين عمّا فيهما ﴿ **أو تقولوا** ﴾ أو كراهة أن تقولوا ، أو لئلا تقولوا ﴿ **لو أنّا أُنزِل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم** ﴾ . أي : لحدة أذهاننا ، وثقابة أفهامنا ، وغزارة حفظنا ﴿ **فقد جاءكم بيّنة من ربكم وهدى ورحمة** ﴾ . أي : إن صدقتم فيما كنتم تعدون من

أنفسكم ، فقد جاءكم ما فيه البيان الساطع ، والبرهان القاطع ، مع الهدى والرحمة فقفوا ﴿ **فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله** ﴾ . أي : لا أحد أظلم من مثل هذا ﴿ **وصَدَفَ عنها** ﴾ . أي : أعرض ﴿ **سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب** ﴾ وهو النّهاية في النّكاية ﴿ **بما كانوا يصدفون** ﴾ . أي : بسبب إعراضهم ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة** ﴾ . أي : أَقَمْنا حججَ الوحدانية ، وثبوت الرسالة ، وأبطلنا ما يعتقدون من الضّلالة ، فما ينتظرون في ترك الضلالة بعدها ، إلا إن تأتيهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم ﴿ **أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك** ﴾ . أي : أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابّة ، وهو موضوع سيأتي ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها** ﴾ لأنه وقتذاك لم يعد إيماناً بغيب ، وليس إيماناً اختيارياً ، بل هو إيمان لدفع العذاب والبأس عن أنفسهم ﴿ **لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً** ﴾ . أي : إخلاصاً ، فكما لا يقبل إيمان الكافر بعد طلوع الشمس من مغربها ، لا يقبل إخلاص المنافق أيضاً أو توبته ، وتقديره لا ينفع إيمان من لم يؤمن ، ولا توبة من لم يتب من قبل ﴿ **قل انتظروا** ﴾ إحدى الثلاث المذكورة ﴿ **إنّا منتظرون** ﴾ بكم إحداها ﴿ **إن الذين فرّقوا دينهم** ﴾ . أي : اختلفوا فيه ، وصاروا فرقاً ، كما اختلف اليهود والنصارى ، أو فرّقوا دينهم ، فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، وفي قراءة حمزة والكسائي (**فارقوا دينهم**) . أي : تركوه ﴿ **وكانوا شيَعاً** ﴾ أي : فرقاً ﴿ **لست منهم في شيء** ﴾ . أي : أنت منهم بريء ولا تسأل عنهم ولا عن تفرقهم ولست من عقابهم في شيء ﴿ **إنمّا أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون** ﴾ فيجازيهم على ذلك . ﴿ **مَن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ . أي : عشر حسنات أمثالها ﴿ **ومن جاء بالسيّئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾ لا بنقص ثواب ، ولا بزيادة عقاب . وبهذا تمت المجموعة الثانية التي فيها تقرير المحرمات الرئيسية في شريعة الله ، وتهييج العرب الذين هم المخاطبون الأُوَل بهذه الرسالة على حملها ، وتحذيرهم من تركها ، وترغيب الخلق بالحسنات ، وتخويفهم من السيئات .

كلمة في السياق :

بعد أن ناقشت مقدمة المقطع الذين يحرمون بغير علم ، وبعد أن ذكرت المجموعة الأولى المحرمات من الحيوانات في شريعتنا وشريعة موسى عليه السلام وهي منسوخة بشريعتنا في كل ما تعارض مع هذه الشريعة ، وناقشت الذين يحرمون غير ذلك ، وبعد

أن ذكرت المجموعة الثانية المحرمات الرئيسية ، وهيّجت على الالتزام بأسلوبي الترهيب والترغيب ، بعد هذا كله تأتي المجموعة الثالثة لتحدّد الطريق .

وقبل أن نعرضها نحب أن نذكر مجموعة فوائد مما له صلة بالمجموعة الثانية :

فوائد :

١ - روى داود الأودي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصيّة رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً** ﴾ إلى قوله ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ .

وروى الحاكم في مستدركه أن عبد الله بن خليفة سمع ابن عباس يقول : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ، ثم قرأ : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ الآيات . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد . وروى الحاكم أيضاً .. عن عبادة ابن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أيكم يبايعني على ثلاث ؟ » ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ حتى فرغ من الآيات فمن وفىٰ فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخّر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه » ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

فلنحاول أن نعرض أنفسنا على هذه الآيات فإن العلم بلا محاسبة للنّفس على العمل لا يكفي .

٢ - في الصحيحين من حديث ابن مسعود أنّه سأل رسول الله ﷺ أيّ الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك . قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » ثمّ تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ الآية .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وقال سعدُ بن عبادة : لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مُصْفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : أتعجبون من غيرة سعد . والله لأنا أغير من سعد ، والله أغير مني ، من أجل ذلك حرم

الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وجاء في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحلّ دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله الله وأنّي رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنّفس بالنفس ، والتّارك لدينه المفارق للجماعة » . وروى أبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها : أنّ رسول الله ﷺ قال : « لا يحلّ دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال : زان محصن يرجم ، ورجل قتل متعمداً فيقتل ، ورجل يخرج من الإسلام وحارب الله ورسوله فيقتل ، أو يصلب ، أو ينفى من الأرض » . وروى الإمام أحمد والتّرمذي والنّسائي وابن ماجه عن أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه أنّه قال وهو محصور : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث ، رجل كفر بعد إسلامه ، أوزنى بعد إحصانه أو قتل نفساً بغير نفس » فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام ، ولا تمنّيت أن لي بديني بدلاً منه بعد إذ هداني الله ، ولا قتلت نفساً ، فبم تقتلونني ؟ » وقال الترمذي : هذا حديث حسن . وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد : وهو المستأمن من أهل الحرب ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال : « من قتل معاهداً له ذمّة الله وذمّة رسوله فقد أخفر بذمّة الله ، فلا يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً » رواه ابن ماجه والتّرمذي وقال : حسن صحيح . وروى الترمذي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان : « إنكم ولّيتم أمراً هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم » .

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : خطّ رسول الله ﷺ خطاً بيده ثمّ قال : « هذا سبيل الله مستقيماً » ، وخط عن يمينه وشماله ، ثمّ قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ ﴿ **وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولاتتبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله** ﴾ . وكذا رواه الحاكم وقال : صحيح ، ولم يخرجاه .

وروى الإمام أحمد عن النّوّاس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ، هلمّوا ادخلوا الصّراط المستقيم جميعاً ولا تتفرّقوا ، وداع يدعو من فوق الصّراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنّك إن تفتحه تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتّحة محارم الله ، وذلك الداعي على رأس

الصراط كتاب الله ، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » ورواه الترمذي والنسائي أيضاً .

٣ - قال كعب الأحبار : « إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة » أي : هذه الوصايا العشر مذكورة في أوائل التوراة ، وقد تتبعت ما يسمّونه الآن بالتوراة فوجدت في الإصحاح العشرين من سفر الخروج وهو السفر الثاني من أسفار التوراة : « لا يكن لك آلهة أخرى أمامي .... » وهذا وما بعده يقابل (ألا تشركوا به شيئاً) « أكرم أباك وأمك .... » وهذا يقابل ﴿ **وبالولدين إحساناً** ﴾ « لا تقتل » وهذا يقابل : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم** ... ﴾ . ﴿ **ولا تقتلوا النفس** .... ﴾ . « لا تَزْنِ » وهذا يقابل : ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ « لا تسرق » وهذا يقابل : ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان** ﴾ . « لا تشهد على قريبك شهادة زور » وهذا يقابل : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا** ... ﴾ . وفي الإصحاح الخامس من سفر التثنية هذه الفقرات :

« لايكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة ما، فما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض، لاتسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور .... » . « لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً،لأن الرب لا يبرّىء من نطق باسمه باطلاً ... » « أكرم أباك وأمك أوصاك الرب إلهك .... » . « لا تقتل ولا تزن ولا تسرق ولا تشهد على قريبك شهادة زور ولا تشته امرأة قريبك » . وخلال ذلك وصية بحفظ السبت فهل تقابل هذه أمر الله لنا بالوفاء بعهد الله ؟ ولو أننا نظرنا إلى هذه الوصايا في التوراة ، لوجدناها تقابل بشكل ما الوصايا العشر في ديننا ، مع الاختلاف في محتوى بعض الألفاظ مما خالفت فيه شريعتنا شريعتهم بأمر الله ونسختها ؟ .

٤ - رأينا أن قوله تعالى في القرآن : ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ يقابل في التوراة الحالية « ولا تزنِ » وقد قال تعالى عن الزنا : ﴿ **ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً** ﴾ فهذا كله يجعل الزنا يدخل دخولاً أولياً في النهي ﴿ **ولا تقربوا الفواحش** ... ﴾ ، ولصاحب الظلال كلام طيب في هذا المقام :

يقول : « والفواحش : كل ما أفحش - أي تجاوز الحد - وإن كانت أحياناً تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا . ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد في هذا

الموضوع . لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها ، فتكون هذه واحدة منها بعينها . وإلا فقتل النفس فاحشة ، وأكل مال اليتيم فاحشة ، والشرك بالله فاحشة الفواحش . فتخصيص « الفواحش » هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق . وصيغة الجمع . لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها : فالتبرج ، والتهتك ، والاختلاط المثير ، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة ، والإغراء والتزين والاستثارة ... كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن . منها المستتر في الضمائر ومنها البادي على الجوارح . منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف وكلها مما يحطم قوام الأسرة ، وينخر في جسم الجماعة ، فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد ، ويحقر من اهتماماتهم ، ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد .

ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية ، كان التعبير : ﴿ **ولا تقربوا** ﴾ .. للنهي عن مجرد الاقتراب ، سداً للذرائع ، واتقاء للجاذبية التي تضعف معها الإرادة . لذلك حرمت النظرة الثانية - بعد الأولى غير المتعمّدة - ولذلك كان الاختلاط ضرورة تباح بقدر الضرورة . ولذلك كان التبرج - حتى بالتعطر في الطريق - حراماً ، وكانت الحركات المثيرة ، والضحكات المثيرة ، والإشارات المثيرة ، ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة .. فهذا الدين لا يريد أن يعرّض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنتاً في المقاومة . فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ، ويوقع العقوبات . وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح . وربك أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

وكذلك نعلم ما الذى يريده بهذا الدين ، وبحياة المجتمع كله وبحياة الأسرة ، من يزيّنون للناس الشهوات ، ومن يطلقون الغرائز من عقالها بالكلمة والصورة والقصة والفيلم وبالمعسكر المختلط وبسائر أدوات التوجيه والإعلام » !

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك** ﴾ نحب أن نتحدّث عن قضيتين : الأولى حول تأويل قوله تعالى : ﴿ **أو يأتي ربك** ﴾ والقضية الثانية حول المراد ببعض آيات الله في هذا المقام ؟ ولنتكلم عن القضيتين واحدة بعد أخرى :

أ - فسّر بعضهم قوله تعالى : ﴿ **أو يأتي ربك** ﴾ بأن المراد منه : أو يأتي أمر ربك ، بدعوى أنّ هذه الآية تشبه آيةً في سورة النّحل تتكلم عن نفس المقام هي قوله

تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك** ﴾ قال النّسفي : ﴿ **وجاء ربك** ﴾ . أي : أمر ربك وهو العذاب أو القيامة وهذا لأن الإتيان متشابه ، وإتيان أمره منصوص عليه محكم فيردّ إليه » والذين ردّوا التأويل قالوا : إن المقامين مختلفان .

ب - والقضية الثانية هي التي تشير إليها النصوص التالية :

ا - روى البخاري في تفسير هذه الآية ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها » . فذلك حين ﴿ **لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل** ﴾ .

ب - روى ابن جرير ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدّجال ، ودابّة الأرض » .

جـ - روي في الصحيحين وغيرهما ... عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ » قلت : لا أدري ، قال : « إنها تنتهي دون العرش فتخرّساجدة ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي ، فيوشك يا أبا ذرّ أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت ، وذلك حين ﴿ **لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل** ﴾ » .

د - روى الإمام أحمد ... عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدّخان ، والدابّة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، وخروج الدّجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو تحشر - النّاس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتَقيل معهم حيث قالوا » . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الأربعة وقال الترمذي : حسن صحيح .

هـ - روى الإمام أحمد ... عن ابن السعدي أن رسول الله ﷺ قال : « لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل » . فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو ابن العاص : إن رسول الله ﷺ قال : « إن الهجرة خصلتان : إحداهما أن تهجر

السّيئات ، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع ما تُقبّلت التوبة ، ولا تزال التوبة تقبل حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه ، وكفى الناس العمل » . وهذا الحديث حسن الإسناد .

و - روى ابن مردويه ... عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : سألت النبيّ ﷺ فقلت : يا رسول الله ، ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ فقال النبي ﷺ : « تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين فبينما الذين كانوا يصلون فيها ، يعملون كما كانوا يعملون قبلها ، والنّجوم لا ترى ، قد غابت مكانها ، ثمّ يرقدون ، ثمّ يقومون فيصلّون ، ثم يرقدون ، ثمّ يقومون تبطل عليهم جنوبهم ، حتى يتطاول عليهم الليل ، فيفزع الناس ولا يصبحون فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها ، فإذا رآها الناس آمنوا ، ولا ينفعهم إيمانهم » .

ز - روى ابن مردويه ... عن عبد الله بن أبي أوفى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليالٍ من لياليكم هذه ، فإذا كان ذلك يعرفها المتنفلون ؛ يقوم أحدكم يقرأ حزبه ، ثمّ ينام ، ثمّ يقوم فيقرأ حزبه ، ثمّ ينام ، فبينما هم كذلك ، إذ صاح الناس بعضهم في بعض ، فقالوا : ما هذا ؟ فيفزعون إلى المساجد ، فإذا هم بالشمس قد طلعت ، حتى إذا صارت في وسط السماء رجعت من مطلعها - قال حينئذ - لا ينفع نفساً إيمانها » . قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

والذي نحب أن نلفت إليه النظر في هذا الموضوع هو :

١ - إن الشمس في كل لحظة في شروق وغروب بالنسبة لمجموع الأرض ، ومن أجل هذا فإن حديث أبي ذرّ : « تدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ » قلت لا أدري قال : إنها تنتهي دون العرش فتخرّساجدة ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي » يمكن حمله على أن الشمس دائماً تحت العرش وأنها في كل لحظة ساجدة ، وأنها في كل لحظة تستأذن ربها في الاستمرار استئذاناً الله أعلم بكيفيّته ، فهي مستمرة على سنتها هذه ، وقانونها الذي فطرها الله عليه حتى تأتي اللحظة التي يريد الله بها أن يحدث الأحداث الكبرى من أشراط الساعة ، كمقدمة لقيام الساعة ، عندئذ يأمرها بتغيير سنّتها . ويحتمل أن يكون المراد من الحديث غروباً خاصاً لها ، بالنسبة لمجموع الكرة الأرضية ، تصبح فيه أقرب ما تكون إلى العرش في حالةٍ الله أعلم بها ، إذ إن موضوع دوران

الأرض ، وحركة الشمس ، وصلة ذلك بالعرش ، وارتباط هذا العالم بالعالم الغيبي ، لا نعرف عنه إلا القليل .

٢ - إن رؤية الشمس من مغربها آية لكل الأرض ، وليست لقطر دون قطر ، وهذا هو سرّ غيابها ليلتين عن بعض الأقطار ، وثلاث عن بعضها الآخر ، كما في بعض الآثار إذ عملية الرجوع تقتضي هذا الغياب الطويل عن بعض الأقطار .

٣ - وهل هناك لحظة وقوف تستمر فترة زمنية ما ؟ إنّ النّصوص التي تذكر استمرار الظلمة ثلاثة ليال تشعر بذلك .

٤ - هل نستطيع أن نقرب هذه القضية على ضوء معلومات العصر ؟ نقول : إن للشمس ثلاث دورات ــ أو حركات - حركة حول نفسها ، وحركة مع مجموعتها الشمسية باتجاه كوكبة الجاثي ، وحركة مع مجرتها ، وفي عملية صعود الشمس نحو كوكبة الجاثي فإنها تجر معها أسرتها الشمسية كلها ، وبعض علماء الكون يرون أن الشمس إذا وصلت إلى نقطة ما ، يعتبرونها رأس الموشور بالنسبة لسير الشمس في هذا الاتجاه ، فإن شيئاً ما سيحدث ، فلنفترض أنها وصلت إلى نقطة ما ، وأمرت بالرّجوع منها فماذا يحتمل أن يكون في لحظة الأمر ؟ التوقف ، والعودة إلى المسار الجديد ؟ ويكون ما ورد فى الأحاديث هو من مظاهر ما سيحدث ، ولعلنا نستطيع أن نفهم حديث أبي ذر على مثل هذا « تدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ » إذا عرفنا أن كل لحظة هي في غروب يصبح السؤال هكذا : « أتدري أين تذهب الشمس » الجواب : « إنها تنتهي دون العرش فتخرساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها ارجعي ، فيوشك يا أبا ذرّ أن يقال لها ارجعي من حيث جئت » فوصولها إلى ما دون العرش ، وصولها إلى رأس الموشور ، والأمر لها بالرجوع هو لحظة التغيّر للمسار الذي يترتب عليه ما ورد في الآثار . وإني وإن قررت هذا التقرير للتقريب لكن الذي ألقىٰ عليه الله هو الإيمان ، مع التسليم ، وترك الأمر لحين الوقوع ، فإذا وقع كما مرّ في الآثار المنقولة ، فذلك يثبت صدق النَّقَلة ، وعدم توهّمهم ، وإن حدث خلاف شيء من ذلك يكون بعض النقلة قد وهم ، لأن كلام رسول الله ﷺ هو الحق الذي لا ينقضه شيء .

٥ - إن آية ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها** ﴾ مفصّلة لما أجمل في الآية الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها** ﴾ وقد وردت الأحاديث مبينة لهذا الموضوع :

روى الإمام أحمد ... عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى : « إنّ ربكم - عز وجل - رحيم ، من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ، إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة ، أو يمحوها الله - عز وجل - ولا يهلك على الله إلا هالك » ورواه البخاري ومسلم والنسائي .

وروى الإمام أحمد أيضاً ... عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله - عز وجل - : من عَمِل حسنة فله عشر أمثالها وأزيدُ ، ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفِرُ ، ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة ، ومن اقترب إليّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً ، ومن اقترب إليّ ذراعاً ، اقتربت إليه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » رواه مسلم وابن ماجه أيضاً .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي ... عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : « من هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيّئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء ، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة » .

واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارة يتركها لله ، فهذا تكتب له حسنة على كفّه عنها لله تعالى ، وهذا عمل ونية ، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة ، كما جاء في صحيح مسلم « فإذا تركها من جرّائي » . أي : من أجلي - وتارة يتركها نسياناً وذهولًا عنها ، فهذا لا له ، ولا عليه ، لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شراً - وتارة يتركها عجزاً وكسلًا عنها ، بعد السعي في أسبابها ، والتلبّس بما يقرّب منها ، فهذا بمنزلة فاعلها ، كما جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قالوا : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنّه كان حريصاً على قتل صاحبه »

وروى الإمام أبو يعلى الموصلي أيضاً .. عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من همّ بحسنة كتب الله له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن همّ بسيّئة لم تكتب عليه حتى يعملها ، فإن عملها كتبت عليه سيّئة ، فإن تركها كتبت له حسنة ، يقول الله تعالى : إنما تركها من مخافتي » وروى الإمام أحمد .. عن خريم بن فاتك الأسدي : أن النبى ﷺ قال : « إنّ النّاس أربعة ، والأعمال ستة ، فالناس :

موسّع له في الدنيا والآخرة . وموسّع له في الآخرة ، ومقتور عليه في الدنيا موسّع له في الآخرة ، وشقي في الدنيا والآخرة والأعمال : موجبتان ، ومثل بمثل ، وعشرة أضعاف ، وسبعمائة ضعف ، فالموجبتان : من مات مسلماً مؤمناً لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة ، ومن مات كافراً وجبت له النار ، ومن همّ بحسنة فلم يعملها فعلم الله أنه قد أشعَرَها قلبه وحرص عليها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة لم تكتب عليه ، ومن عملها كتبت واحدة ، ولم تضاعف عليه ، ومن عمل حسنة كانت عليه بعشر أمثالها ومن أنفق في سبيل الله - عز وجل - كانت بسبعمائة ضعف » ورواه الترمذي والنسائي أيضا وروى ابن أبي حاتم ... عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبي ﷺ قال : « يحضر الجمعة ثلاثة نفر ، رجل حضرها بلغو فهو حظُّه منها ، ورجل حضرها بدعاء ، فهو رجل دعا الله ، فإن شاء أعطاه ، وإن شاء منعه ، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخطّ رقبة مسلم ، ولم يؤذ أحداً فهي كفّارة له إلى الجمعة التى تليها ، وزيادة ثلاثة أيّام ، وذلك لأنّ الله — عز وجل — يقول : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ وروى الطبراني .. **عن أبي مالك الأشعري قال** : قال رسول الله ﷺ : « الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك لأن الله تعالى قال : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾» وروى الإمام أحمد ... عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله » . ورواه النسائي وابن ماجه والترمذي وزاد : « فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ اليوم بعشرة أيام » ثم قال : هذا حديث حسن .

كلمة في المجموعة الثانية :

قصّ الله - عز وجل - علينا في هذه المجموعة ما حرّمه علينا ، وأشعرنا أن هذه المحرمات محرّمة عنده في كل شريعة ، وبيّن لنا حكمة إنزال القرآن على العرب ، ووعظ الناس جميعاً ، وخوّفهم بالموت ، وبالقيامة ، وأشراطها ، ثم رغّبهم بالطاعة ، وكرّه إليهم المعصية ، وأراهم فضله في الطاعة ، وعدله بالمعصية . ثم تأتي المجموعة الثالثة وهي مجموعة أوامر موجهة لرسول الله ﷺ ، ثمّ لأمته ، تحدّد الطريق ، ثم تأتي الخاتمة وهذه هي المجموعة الثالثة في هذا المقطع فلنرها :

« المجموعة الثالثة »

﴿ **قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم** ﴾ وهو دينه القويم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿ **ديناً قيماً** ﴾ . أي : قائماً ثابتاً ﴿ **ملّة إبراهيم حنيفاً** ﴾ أي : مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ بالله ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي** ﴾ . أي : عبادتي أو ذبحي أو حجي ﴿ **ومحياي ومماتي** ﴾ . أي : وما أتيته في حياتي ، وأموت عليه ، من الإيمان ، والعمل الصالح ﴿ **لله رب العالمين** ﴾ . أي : خالصة لوجهه ﴿ **لا شريك له** ﴾ . أي : في شيء من ذلك ﴿ **وبذلك** ﴾ . أي : بالإخلاص ﴿ **أُمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته ﴿ **قل أغير الله أبغي** ﴾ . أي : أطلب ﴿ **رباً** ﴾ والاستفهام للإنكار أي هذا مستحيل ﴿ **وهو ربُّ كلّ شيء** ﴾ . أي : وكل من دونه مربوب ، ليس في الوجود من له الربوبية غيره ، فكيف أبتغي رباً سواه ﴿ **ولا تكسب كل نفس إلا عليها** ﴾ . أي : كسب كل نفس عليها ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ . أي : لا تؤخذ نفس آثمة ، بذنب نفس أخرى ﴿ **ثم إلى ربكم مرجعكم** ﴾ . أي : مآلكم ومصيركم ﴿ **فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ من الأديان التي فرّقتموها ، ومن كان هذا شأنه ، ومن كان هذا عدله ، ومن كان المصير إليه كيف يُعْبَد سواه ؟ !

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفاً ...** ﴾ (النحل : ١٢٠) قال ابن كثير : وليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملّة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها ، لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً ، وأكملت له إكمالاً تامّاً ، لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ، ولهذا كان خاتم الأنبياء ، وسيد ولد آدم على الإطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام . وقد روى ابن مردويه ... عن ابن أبزى عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال : « أصبحنا على ملّة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين » وروى الإمام أحمد ... عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لرسول الله ﷺ : أيّ الأديان أحبّ إلى الله تعالى ؟ قال : « الحنيفية السمحة » . وروى الإمام أحمد أيضاً ... عن عائشة رضي الله عنها قالت : وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه ، لأنظر إلى زفن الحبشة أي إلى رقصهم ، حتى

كنت التي مللت فانصرفت عنه ، وقال رسول الله ﷺ يومئذ : « لتعلم يهود أن في ديننا فسحة ، إني أرسلت بحنيفية سمحة » وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين ، والزيادة بعد قولها : (انصرفت عنه) لها شواهد من طرق عدة .

٢ - روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال : ضحّى رسول الله ﷺ في يوم عيد بكبشين وقال حين ذبحهما : « وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

٣ - روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ كان إذا كبّر أي في الصلاة استفتح ثمّ قال : « وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » إلى آخر الآية . « اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعاً ، لا يغفر الذنوب إلا أنت . واهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد ، وقد رواه مسلم في صحيحه .

كلمة في المجموعة الثالثة وسياقها :

في آخر أمر في الوصايا العشر جاء قوله تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه** ﴾ وفي أواخر المجموعة الثانية جاء قوله تعالى : ﴿ **إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيَعاً لست منهم في شيء** ﴾ وأول أمر يأتي في المجموعة الثالثة هو : ﴿ **قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قِيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ .

لاحظ صلة ذلك ببعضه ، ولاحظ ذكر ملة إبراهيم ، وتذكّر أن آخر مقطع في القسم الأول من سورة الأنعام كان فيه حديث عن إبراهيم عليه السلام والتوحيد . ثمّ لاحظ أن الآية الثالثة ، والرابعة في المجموعة الثالثة ، تلقننا التوحيد الخالص وهو الموضوع الرئيسي في سورة الأنعام . ثم لاحظ أن الآية الخامسة تقول : ﴿ **قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثمّ إلى ربكم مرجعكم** ﴾

لاحظ صلة هذه الآية بموضوع الإيمان بالله وموضوع الرجوع إليه وتذكر محور السورة في البقرة : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً ... ثم إليه ترجعون** ﴾

لاحظ الصلة بين ﴿ **ثم إلى ربكم مرجعكم** ﴾ وبين ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾

ثمّ تذكّر أن الآية الثانية في المحور هي : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وأن خاتمة المقطع وخاتمة سورة الأنعام هي قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ﴾

إذا تذكرت هذا أدركت كيف أن لسورة الأنعام سياقها الخاص ، وأنها مع ذلك تفصّل في محورها . وإذا لم يبقَ في السورة إلا آية واحدة هي خاتمتها ، وهي في الوقت نفسه خاتمة المقطع فلنرها :

خاتمة السورة

﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ﴾ تملكونها وتتصرفون فيها والخلائف إما لأن بعضهم يخلف بعضاً ، أو هم خلفاء الله في أرضه ﴿ **ورفع بعضكم فوق بعض درجات** ﴾ في الشرف ، والرّزق ، والعقل وغير ذلك ﴿ **ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ . أي : ليختبركم فيما أعطاكم من نعمة الجاه ، والمال ، كيف تشكرون تلك النعمة ، وكيف يصنع الشريف بالوضيع ، والغني بالفقير ، والحاكم بالمحكوم ﴿ **إن ربك سريع العقاب** ﴾ لمن كفر ﴿ **وإنه لغفور رحيم** ﴾ لمن قام بشكره . ووصف العقاب بالسرعة لأن ما هو آت قريب .

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾

يذكر ابن كثير الأحاديث الآتية :

أ – روى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة : أنّ رسول الله ﷺ قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة ، خلق الله مائة رحمة ، فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها ، وعند الله تسعة وتسعون » ورواه مسلم والترمذي .

ب – وعن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله الخلق كتب

في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي » .

ح ـ وروى مسلم ... عن أبي هريرة أيضاً قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابّة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » .

كلمة في المقطع الأخير :

رأينا كيف أن المقطع ذكّر بنعمة الله على الإنسان في خلقه له النبات ، والأنعام ، وكيف أن بعض الخلق يحرّمون ما خلق الله لهم بدون علم . ثم إن المقطع بعد أن ردّ هذا التحريم ، بيّن ما حرّم الله ، وردّ على المشركين زعمهم من أن عقائدهم وأفعالهم دليل على رضا الله ، ثم بين المحرمات الرئيسية . ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن عن مجموعة من القضايا والالتزامات . ثم ذكّر الله البشرَ بنعمته عليهم ، إذ جعلهم خلائف في الأرض ؛ فسخّرها لهم ، وجعلهم يتصرفون بها ، ويملكونها ، وما ينبغي أن يقابل ذلك بالقيام بحق الله .

وكل هذا سائر على النسق العام للسورة ، بما يخدم سياقها الخاص ، وبما يفصّل في محورها ، وكلّ ذلك قد رأيناه .

ملاحظة : نلاحظ أن السورة تنقسم إلى قسمين كبيرين . القسم الأول من بدايتها إلى قوله تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾ والقسم الثاني من قوله تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾ إلى خاتمتها . والملاحظ أن القسمين يكادان يكونان متساويين ، من حيث الحجم ، وهذه الملاحظة نلاحظها في كثير من السور . ولعلّ القارىء لحظ هذا فيما مر ، وسيلحظه فيما يأتي ، وإنما نبّهنا عليه هنا لوضوح ذلك في هذه السورة . وقد يكون من حكمة ذلك أنه لو قرأ الإنسان في صلاة واحدة ركعتين مثلاً ، فإنه يستطيع أن يقف في الركعة الأولى عند القسم الأول ، ليأخذ حظه في الركعة الثانية بتلاوة القسم الثاني . وفي ذلك نوع من التنسيق بين العقل ، والقلب ، والعبادة ، ونوع من الترتيب ، والتنظيم يتفق مع ما أراده الله لهذه الأمة من الكمال ؛ بما أنزله عليها من هذا القرآن الكامل .

كلمة في سورة الأنعام :

كرّرنا كثيراً أن محور سورة الأنعام هو قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ۞ هو الذي خلق**

لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموٰات وهو بكل شيء عليم ﴾ وأن هذا المحور هو جزء من محور سورة النساء ، والمائدة ، والأنعام ، والمبدوء بقوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ۝ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ..** ﴾ .

وقد لاحظنا كيف أن سورة الأنعام سفّهت الكفر بالله ، وسفّهت صنيع أهله ، وفضحت كل مظاهره ، وذكّرت بالرجوع إلى الله ، وفصّلت كيف أنّ الله خلق هذه الأرض للإنسان بكل ما فيها ، وفصّلت فيما فعله الكافرون مما ينافي ذلك ، وناقشتهم ، وتتبعت مسارب الضلال في قلوبهم ، وعقولهم ، ولاحقتها ، وعرّفت الخلق على الله حقّ المعرفة ، ليتقوه حق التقوى ، فكمّلت بذلك عمل سورة النساء ، والمائدة ، وأدت حق محورها ، وتسلسلت المعاني فيها ، معنى وراء معنى ، يكمّل اللاحق السابق ، وينسجم السابق مع اللاحق ، وكل ذلك على مستوى من البيان عجيب ، ومن الإعجاز عظيم ، ومن تأمل مثل قوله تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البرِّ والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾ ومثل قوله تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون ۝ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ .

علم أن مثل هذا البيان لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ، ومن تأمل مثل قوله تعالى : ﴿ **يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء** ﴾ ومثل ما رأيناه من تلخيص لما في الكتب السابقة ، عرف كيف أنّ الكمال في هذا القرآن لايتناهى ، وأنّ الإعجاز فيه لايتناهى ، وعرف نعمة الله على هذه الأمّة ؛ إذ أنزل عليها هذا القرآن ، وعرف نعمة الله على البشرية بأن كان القرآن كذلك ، وحمد الله على نعمة الإيمان ، فالحمد لله أولاً وآخراً ، وله الثناء الحسن على ما أنعم به علينا ، وتفضّل من نعمة الإيمان بهذا القرآن والإسلام .

وإذا كانت سورة الأنعام قد فصلت في محورها الذي رأيناه ، فإنّ سوراً أخرى كثيرة ستفصل في المحور نفسه ، مع امتداداته ومحله في السياق ، وكل ذلك على طريقة لم يألفها البشر ، ولا يستطيعوها ، وهذه إحدى مظاهر الإعجاز في القرآن ، وحسبنا أن نشير في هذا الكتاب إشارات .

(فهرس المجلد الثالث)

الموضوع — الصفحة

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆